بكامل رصيدنا

سيرة الجنرال ديفيد بتريوس

الرئيس السابق لوكالة الاستخبارات الأميركية
والقائد السابق لقوات التحالف في العراق وأفغانستان
وقائد القيادة المركزية السابق للقوات المسلّحة الأميركية

بولا برودويل
وفيرنون لوب



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

بولا برودويل

فيرنون لوب

بكامل رصيدنا

سيرة الجنرال ديفيد بتريوس

الرئيس السابق لوكالة الاستخبارات الأميركية
والقائد السابق لقوات التحالف في العراق وأفغانستان
وقائد القيادة المركزية السابق للقوات المسلّحة الأميركية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان

مبنى مجموعة تحسين الخياط

ص.ب.: ٨٣٧٥-١١ بيروت، لبنان

تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٥

ISBN: 978-9953-88-854-5

Originally published as: **All In:**

The Education of General David Petraeus.

ترجمة: وهب الحاج حسن

تدقيق: وفيق زيتون

تصميم الغلاف: داني عوّاد

صورة الغلاف: Staff Sgt. Lorie Jewell

الإخراج الفني: بسمة تقي

المحتويات

إلى الجنود الثلاثة المفضّلين لدي،
سكوت ولوسيان ولندون برودويل،
وإلى أولئك الذين يخدمون الوطن

لكي يناضلوا ويفتشوا ويبحثوا، لا ليستسلموا.
ـ ألفرد، لورد تنيسون، «عوليس»

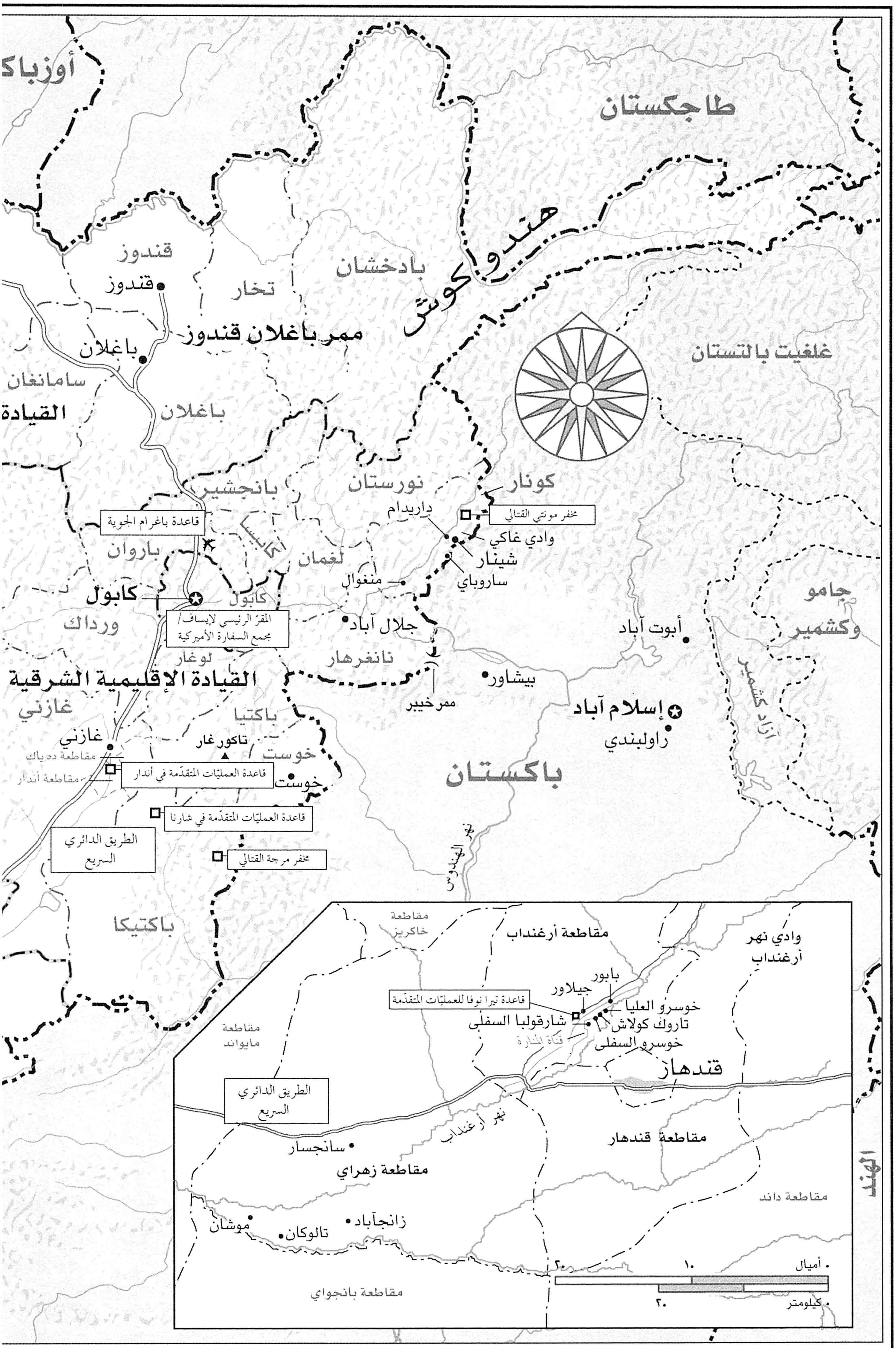
«هذا ليس رهاناً مضاعفاً، سيدي الرئيس، إنه كامل رصيدنا(*)»

ـ الجنرال ديفيد بتريوس للرئيس جورج دبليو بوش

في المكتب البيضوي، ٢٣ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧،

عشية الحملة على العراق

(*) يعني هذا التعبير في لعبة البوكر المراهنة بكل ما يملكه اللاعب لثقته بأن الأوراق التي بين يديه تحقق له الفوز وتعني في سياق كلام بتريوس الالتزام الكامل بالعمل الموكول إليه.



أوزباك
طاجكستان
هندوكوش
قندوز
قندوز
تخار
بادخشان
ممر باغلان قندوز
باغلان
سامانغان
القيادة
باغلان
غلغيت بالتستان
بانجشير
نورستان
كونار
قاعدة باغرام الجوية
داريدام
مخفر مونتي القتالي
وادي غاكي
باروان
كابيسا
لغمان
شينار
ساروباي
منغوال
كابول
كابول
المقرّ الرئيسي لإيساف/ مجمع السفارة الأميركية
وارداك
جلال آباد
أبوت آباد
جامو وكشمير
ننغرهار
لوغار
القيادة الإقليمية الشرقية
بيشاور
ممر خيبر
إسلام آباد
راولبندي
غازني
باكتيا
تاكورغار
خوست
غازني
مقاطعة ده ياك
مقاطعة أندار
قاعدة العمليّات المتقدّمة في أندار
خوست
باكستان
آزاد كشمير
قاعدة العمليّات المتقدّمة في شارنا
الطريق الدائري السريع
مخفر مرجة القتالي
نهر السند
باكتيكا
الهند
مقاطعة خاكريز
مقاطعة أرغنداب
وادي نهر أرغنداب
بابور
جيلاور
قاعدة تيرا نوفا للعمليّات المتقدّمة
خوسرو العليا
شارقولبا السفلى
تاروك كولاش
خوسرو السفلى
قناة المنارة
مقاطعة مايواند
قندهار
الطريق الدائري السريع
نهر أرغنداب
سانجسار
مقاطعة قندهار
مقاطعة زهراي
مقاطعة داند
زانجآباد
موشان
تالوكان
١٠
٢٠
أميال
مقاطعة بانجواي
٢٠
كيلومتر


أفغانستان
أمو داريا
٠ أميال ٥٠ ١٠٠ ١٥٠
٠ كيلومتر ١٠٠ ١٥٠
تركمانستان
إيران
جوزجان
الطريق الدائري السريع
بلخ
الإقليمية الشمالية
فارياب
ساريبول
باميان
بادغيس
هرات
هرات
غور
داي كوندي
القيادة الإقليمية الغربي
القيادة الإقليمية الجنوبية
أوروزغان
فرج
الطريق الدائري السريع
مقاطعة سنجين
وادي نهر أرغنداب
نهر أرغنداب
مقاطعة أرغنداب
زابول
وادي نهر هلمند المركزية
قاعدة تيرا نوفا للعمليات المتقدمة
سجن ساربوسا
مقاطعة زهراي
لاشكار جاه
قندهار
المنطقة المفصلة
مرجة
مركز تشيل زينا للتحقيق الجنائي
نيمروز
القيادة الإقليمية الجنوبية الغربية
مقاطعة بانجواي
قندهار
نهر هلمند
هلمند
كويتا
© 2012 Jeffrey L. Ward

شخصيات الكتاب

ديفيد م. أكسيلرود: كبير مستشاري البيت الأبيض.

جو بايدن: نائب رئيس الولايات المتحدة (كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩ - الوقت الحالي)(*).

الفريق جيمس باكنال: نائب «إيساف (قائد القوة الدولية لارساء الأمن)».

الفريق ويليام ب. كولدويل: قائد عسكري، بعثة الناتو للتدريب - أفغانستان؛ قائد عسكري، القيادة المشتركة لتسليم الأمن - أفغانستان (تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٩ - الوقت الحالي).

ديفيد كاميرون: رئيس وزراء المملكة المتحدة.

اللواء جون ف. كامبل: قائد عسكري، القيادة الإقليمية الشرقية لإيساف (حزيران/يونيو ٢٠١٠ - أيار/مايو ٢٠١١)؛ قائد الوحدة إيربورن ١٠١. رُقّي لرتبة فريق في أيلول/سبتمبر ٢٠١١.

هيلاري كلينتون: وزيرة خارجية الولايات المتحدة (كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩ - الوقت الحالي).

ريان كروكر: سفير الولايات المتحدة في العراق خلال حقبة بتريوس - «الجناح» المدني - العسكري له في العراق - ويشغل حالياً منصب سفير الولايات المتحدة في أفغانستان.

كريم داد: مالك قرية خوسرو السفلى في مقاطعة أرغنداب، ولاية قندهار.

السفير كارل و. إيكنبيري: سفير الولايات المتحدة في أفغانستان (نيسان/أبريل ٢٠٠٩ - تموز/يوليو ٢٠١١).

(*) «الوقت الحالي» في «شخصيات الكتاب» يشير إلى وقت صدور الكتاب باللغة الإنكليزية.

رام إ. إيمانويل: رئيس موظفي البيت الأبيض (كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩ - تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٠).

المقدم ديفيد ج. فايفكوت: أحد مرافقي بتريوس ومعاونه الشخصي خلال ٢٠٠١ - ٢٠٠٢ في البوسنة، وخلال غزو العراق عام ٢٠٠٣. شغل قيادة الكتيبة الثالثة وفوج المشاة ١٨٧ والوحدة ١٠١ إيربورن؛ أُرسِل إلى كل من ولايتي غزني وبكتيكا.

المقدم ديفيد س. فلين: شغل قيادة الكتيبة الأولى وفوج المدفعية الميدانية ٣٢٠ والوحدة ١٠١ إيربورن، أُرسِل إلى وادي نهر أرغنداب وولاية قندهار، خلال عملية هجوم التنين.

الجنرال (المتقاعد) جون ر. (جاك) غالفين: مرشد بتريوس لوقت طويل. شغل بتريوس منصب المعاون الشخصي لغالفين خلال قيادته لفوج المشاة ٢٤، ثم المعاون العسكري له خلال المدة التي شغل فيها منصب القائد الأعلى للقوى المتحالفة في أوروبا.

الرائد جيم غانت: مدير عمليات القوات الخاصة الذي كان لأطروحته «كل قبيلة على حدة: استراتيجية للنجاح في أفغانستان» One tribe at a time: A Strategy for Success in Afghanistan تأثيرٌ في تفكير بتريوس حول برنامج الشرطة المحلية الأفغانية.

السفير سايمون غاس: الممثل المدني الأعلى للناتو في أفغانستان (نيسان/أبريل ٢٠١١ - الوقت الحالي)

روبرت غيتس: وزير الدفاع الأميركي (كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦ - تموز/يوليو ٢٠١١)

السيناتور ليندسي غراهام (جنوب كارولينا): عضو في لجنة القوات المسلحة وعقيد في سلاح الجو الاحتياطي، شارك في مناورات عسكرية قصيرة عدة في العراق وأفغانستان للبحث في مسائل قوانين النزاع المسلح.

العقيد بيل هيكمان: النائب التنفيذي لبتريوس في أفغانستان.

ريتشارد هولبروك: المبعوث الخاص لأفغانستان وباكستان، سفير الولايات المتحدة السابق لدى الأمم المتحدة.

القائد الأعلى مارك هاول: رئيس فصيلة الأمن الشخصي لبتريوس.

حميد قرضاي: رئيس الجمهورية الإسلامية الأفغانية.

الجنرال (المتقاعد) جاك كين: مستشار لبتريوس، نائب رئيس أركان سابق في الجيش.

ديفيد كيلكولين: مفكر أسترالي - أميركي متخصّص في قضايا الدفاع ومكافحة التمرد، المستشار الأعلى لبتريوس خلال غزو العراق.

السفير هانز كليم: مدير التنسيق في ائتلاف سيادة القانون وتطبيق النظام، السفارة الأميركية، كابول، أفغانستان (تموز/يوليو ٢٠١٠ - الوقت الحالي).

بيغي نولتون: حماة بتريوس.

الجنرال وليم أ. نولتون: حمو بتريوس، رئيس الأكاديمية العسكرية الأميركية عندما كان بتريوس تلميذ ضابط هناك.

السيناتور كارل ليفين (ميشيغان): رئيس لجنة القوات المسلحة، عضو بحكم منصبه في لجنة مجلس الشيوخ المختارة للاستخبارات.

السيناتور جو ليبرمان (إنديانا - كونيتيكت): عضو تنفيذي في لجنة القوات المسلحة.

الرائد فرناندو لوجان: مستشار، مستشارية مكافحة التمرد وفريق الدعم في إيساف.

المقدم (المتقاعد) دوغلاس إ. لوت: منسق أركان الأمن القومي لسياسة أفغانستان - باكستان.

نوري المالكي: رئيس وزراء العراق (أيار/مايو ٢٠٠٦ - الوقت الحالي).

العميد مارك س. مارتنز: قائد عسكري، مهمة الدعم الميداني لائتلاف سيادة القانون لدى الناتو، مهمة الدعم الميداني لائتلاف سيادة القانون - أفغانستان. شغل عدة مناصب في أفغانستان في قوات العمل المشتركة بين الوكالات - ٤٣٥ من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٩ حتى أيلول/سبتمبر ٢٠١١.

السيناتور جون ماكين (أريزونا): عضو تنفيذي في لجنة القوات المسلحة، عضو بحكم منصبه في لجنةِ مجلس الشيوخ المختارة للاستخبارات.

الجنرال (المتقاعد) ستانلي أ. مكريستال: قائد القوات المسلحة الأميركية - أفغانستان/ إيساف (حزيران/يونيو ٢٠١٠ - حزيران/يونيو ٢٠١١).

الجنرال (المتقاعد) ديفيد مكيرنان: سَلَف الجنرال مكريستال، قائد إيساف (حزيران/ يونيو ٢٠٠٨ - حزيران/يونيو ٢٠٠٩).

العميد هيربرت ر. مكماستر: مدير قوات العمل المشتركة بين الوكالات - شفافية، مؤلف كتاب الفرار من الجندية (Dereliction of Duty)، مساعد بتريوس.

العقيد مايك ميس: نائب رئيس أركان إيساف (آب/أغسطس ٢٠١٠ - تموز/يوليو ٢٠١١)، رئيس قسم العلوم الاجتماعية في الأكاديمية العسكرية الأميركية، نظير بتريوس في برينستون.

العميد سكوت ميلر: قائد عسكري، قيادة عمليات القوات الخاصة المشتركة - أفغانستان (آذار/مارس ٢٠٠٩ - حزيران/يونيو ٢٠١١).

حاجي شاه محمد: حاكم مقاطعة أرغنداب خلال عملية هجوم التنين.

سعد محسني: مؤسس تلفزيون «طلوع» والرئيس التنفيذي للمنظمة الأم، مجموعة موبي.

الأميرال مايك مولن: رئيس هيئة الأركان المشتركة (تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧ - أيلول/سبتمبر ٢٠١١).

المقدم (المتقاعد) جون ناغل: مُنظّر في مسائل مكافحة التمرد ومساعد بتريوس. رئيس مركز الأمن الأميركي الجديد.

اللواء محمد نعيم: رئيس مديرية الأمن القومي في قندهار خلال عملية هجوم التنين.

العقيد (المتقاعد) كيث نايتنغيل: مستشار بتريوس لوقت طويل، الذي خدم بأمرته في فيتشنزا، إيطاليا، برتبة ملازم ثانٍ. كان نايتنغيل قائد سرية في الجوّالة ٧٥/١ عندما التقى به بتريوس للمرة الأولى. خدم لاحقاً كقائد لمهمة إنقاذ الرهائن في إيران وغزو جرينادا وساعد في تشكيل فوج جوّالة الجيش.

باراك أوباما: رئيس الولايات المتحدة الأميركية.

مايكل أوهانلن: محلّل متخصص بأمور الدفاع في معهد بروكينغز إنستيتيوشن.

المقدم (المتقاعد) دوغلاس أوليفانت: مستشار مدني تنفيذي في القيادة الإقليمية الشرقية لطاقم الاستشارات والدعم لمكافحة التمرد، وضابط عسكري سابق عمل مع بتريوس عن كثب خلال غزو العراق.

الملّا محمد عمر: قائد حركة طالبان الأفغانية.

العقيد بيل أوستلاند: قائد إحدى فصائل بتريوس وقت قيادته للكتيبة الثالثة، فوج المشاة ١٨٧، والوحدة إيربورن ١٠١.

ليون بانيتا: رئيس وكالة المخابرات المركزية (شباط/فبراير ٢٠٠٩ - حزيران/يونيو ٢٠١١)، وزير الدفاع الأميركي (تموز/يوليو ٢٠١١ - الوقت الحالي).

آن بتريوس: ابنة الجنرال.

هوليستر «هولي» نولتون بتريوس: زوجة الجنرال بتريوس.

ميريام هاول بتريوس: والدة بتريوس.

سيكستوس بتريوس: والد بتريوس، قبطان هولندي.

ستيفن بتريوس: ابن بتريوس، قائد فصيلة مشاة في ولاية وردك مع فريق لواء القتال الجوي ١٧٣.

روبرت بتمان: رقيب متقاعد خدم كمستشار لمجموعة الحرب غير المتكافئة. توفي متأثراً بجراحه بعد هجوم على ولاية قندهار في ٣٠ تموز/يوليو ٢٠١٠، خلال المعركة من أجل بيكرسفيلد.

أندرس فوغ راسموسن: الأمين العام للناتو.

العقيد عبد الرازق: قائد رئيسي في الشرطة الحدودية الأفغانية. سيصبح لاحقاً قائداً مؤقتاً لشرطة ولاية قندهار إثر عملية اغتيال نفّذتها طالبان.

الفريق ديفيد م. رودريغيز: قائد عسكري، القيادة المشتركة لإيساف (آذار/مارس ٢٠١٠ - تموز/يوليو ٢٠١١).

دونالد رامسفيلد: وزير الدفاع الأميركي (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٥ - كانون الثاني/ يناير ١٩٧٧؛ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١ - كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦).

محمد ضيا صالحي: رئيس الشؤون الإدارية لمجلس الأمن القومي الأفغاني.

السفير مارك سيدويل: المندوب المدني التنفيذي في أفغانستان (شباط/فبراير ٢٠١٠ - نيسان/أبريل ٢٠١١).

النقيب أندرو شافر: قائد إحدى سرايا المقدم فلين في الكتيبة الأولى، فوج المدفعية الميداني ٣٢٠، الوحدة إيربورن ١٠١.

المتخصّص مايكل ل. ستانزبيري: جندي في الكتيبة الأولى، فوج المدفعية الميدانية ٣٢٠، الوحدة إيربورن ١٠١، توفي متأثراً بجراحه بعد إصابة وحدته بعبوة ناسفة في ولاية قندهار في تموز/يوليو ٢٠١٠، خلال المعركة من أجل بيكرسفيلد.

الرقيب كايل ب. ستاوت: جندي في الكتيبة الأولى، فوج المدفعية الميدانية ٣٢٠، الوحدة إيربورن ١٠١، توفي متأثراً بجراحه بعد إصابة وحدته بعبوة ناسفة في ولاية قندهار في تموز/يوليو ٢٠١٠، خلال المعركة من أجل بيكرسفيلد.

المقدم ج. ب. فاول: قاد الكتيبة الثانية، فوج المشاة ٣٢٧، الوحدة إيربورن ١٠١؛ شُكّل إلى ولاية كُنَر بمحاذاة الحدود مع باكستان، خلال عملية سترونغ إيغل I.

الجنرال (المتقاعد) كارل فيونو: رئيس أركان الجيش (حزيران/يونيو ١٩٨٧ - حزيران/يونيو ١٩٩١). خدم بتريوس كمعاون شخصي لفيونو وضابط تنفيذي معاون خلال هذا الوقت.

حاجي سيد فضل اللّه وحيدي: حاكم ولاية كُنَر خلال عملية سترونغ إيغل.

كريس وايت: رفيق الحجرة مع بتريوس في الأكاديمية العسكرية الأميركية.

مقدمة

التقيت الجنرال ديفيد بتريوس لأول مرة ربيع عام ٢٠٠٦، حين كنت طالبة ماجستير في كلية كينيدي الحكومية في جامعة هارفرد. بعد قيامه بجولتين في العراق عرَّج خلالهما على قيادة الوحدة ١٠١ إيربورن خلال غزو ٢٠٠٣، زار هارفرد للحديث عن تجاربه وعن الكتيّب الجديد لمكافحة التمرّد الذي كان يعمل عليه بصفته القائد العسكري ذا الثلاث نجوم لمركز القوات المسلحة المشترك في الجيش في فورت ليفنورث بكنساس. كان هذا الكتيّب سيخضع لأول اختبار حقيقي له بعد مرور سنة من وضعه، خلال غزو العراق، وبقيادة بتريوس نفسه.

كنت من بين التلامذة الذين دعتهم الكلية للقاء اللواء على عشاء بعد ذلك، نظراً لخلفيتي العسكرية. فأنا أيضاً كنت خريجة الأكاديمية العسكرية الأميركية، وقد تم استدعائي للخدمة الفعلية ثلاث مرات للعمل على قضايا مكافحة التمرّد إثر هجمات ٩/١١. انضممت منذ ذاك الحين للجيش الاحتياطي وبدأت بالدراسات العليا قصد الوصول إلى الخدمة الفعلية أو إلى عالم السياسة. عرّفت عن نفسي للفريق أول بتريوس آنذاك وأخبرته بنوع الأبحاث التي تهمني؛ فأعطاني بطاقة تعريف له وعرض أن يعرّفني إلى باحثين آخرين وعناصر في الخدمة يعملون على القضايا ذاتها. تبين لي لاحقاً أنه كان معروفاً بهذا النوع من التوجيه والتواصل، خاصة مع الباحثين العسكريين الطموحين. قام بالرد على البريد الإلكتروني الذي أرسلته له سريعاً، ودعاني لاستخلاص الأفكار منه. فاستغللت استغلالاً كاملاً سياسة الانفتاح التي انتهجها للوصول إلى رأي ثاقب والمشاركة في عرض وجهات النظر.

بعد زيارته لكامبريدج مباشرة، تولى بتريوس قيادة القوات متعددة الجنسيات في العراق وخطة «إقحام» حوالي ثلاثين ألف جندي أميركي إضافي لإنقاذ البلد من خطر الحرب الأهلية المحدق. وكان تركيز قيادته على تنفيذ عمليات مدنية وعسكرية شاملة مكافحة للتمرد. فقام بنقل القوات الأميركية من القواعد العسكرية الكبرى إلى مخافر أمامية صغيرة ضمن المناطق السكنية. لإنجاز هذه المهمة ارتفعت وتيرة العنف والضحايا، ما حمل حتى المدافعين على التشكيك بمدى نجاعة الغزو. لكن التغلغل بين السكان أدى إلى تعزيز الثقة والألفة وإلى تبادل أفضل للمعلومات الاستخبارية. فبحلول أواسط الصيف، وفي ظل دعم بتريوس للتسوية التي اتسعت لتشمل أكثر من مئة ألف متمرد سني وعناصر من الميليشيات الشيعية السابقين، بدأت وتيرة العنف بالتراجع. وبحلول الصيف التالي، كان البلد قد بدأ يشهد استقراراً، وبدأت قوات الغزو بالعودة إلى الديار. كان بتريوس على ثقة بأنه يمكن للغزو أن ينجح، وقد أشرف على تنفيذه الناجح مع فريق من الشركاء المدنيين والعسكريين الأميركيين والعراقيين وآخرين من الائتلاف.

في عام ٢٠٠٨، بدأت بمتابعة دكتوراه في السياسة العامة وتحضير دراسة عن قيادة بتريوس. وبعد مرور بضعة أشهر على بحثي، دعاني الجنرال بتريوس الذي كان يترأس حينها القيادة المركزية، لممارسة رياضة الجري معه ومع فريقه بمحاذاة نهر بوتوماك خلال إحدى زياراته إلى واشنطن. تصورت أنه يمكنني إجراء مقابلة معه خلال الجري. وأدركت على الفور ما الذي يعنيه بتريوس حين يقول، «ليس من شيء أفضل من بعض المنافسة سوى الكثير من المنافسة!»، وكنت أريد اختباره. حصلت على جائزة الجامعة للتميّز الرياضي على مستوى الوطن بما في ذلك ألعاب القوى في القاعات الرياضية والملاعب وانتهى بي المطاف في طليعة الرياضيين في صفي في الأكاديمية العسكرية الأميركية؛ وكنت أسعى لأعرف ما إذا كان بإمكانه المحافظة على سرعة خطواته خلال إجراء مقابلة معه. وقد تحوّل الأمر إلى اختبار لي بدلاً من اختبارٍ له هو. فبينما تحدثنا خلال جولة الجري من البنتاغون

إلى نصب واشنطن ذهاباً وإياباً، زاد بتريوس تدريجاً من وتيرة سرعته حتى تحوّل الحديث إلى لهاث ووصلنا إلى سرعة ست دقائق في الميل (١,٦٠٩ متر). فقد كان ذلك طريقة بتريوس في تسيير الأمور. أعتقد أنني اجتزت الاختبار، لكنني لم أتكلف عناء تدوين المقابلة. علمت لاحقاً أنه في ذاك الوقت، كان يشارف على الانتهاء من علاج شعاعي لسرطان البروستات خضع له لمدة ثمانية أسابيع.

كنت أتوخّى من أطروحتي أن أقتفي أثر المواضيع الرئيسية ـ الثقافة والخبرة ودور المستشارين الرئيسيين ـ في التطور الفكري لبتريوس واختبار هذه المبادئ على الأرض خلال مدة خدمته. لكن عندما كلّفه الرئيس أوباما تولّي مسؤولية الحرب في أفغانستان صيف عام ٢٠١٠، قرّرت أن أتوّج بحثي ليشمل التطورات على الأرض خلال قيادته في كابول، وهي قيادته العسكرية الأخيرة كما اتضح. سيكون مجدداً في واجهة حرب غير مرغوب فيها، في ظل غزو يشارك فيه ثلاثون ألف جندي. عندما أُعلِن نبأ توليه القيادة، خاطب قائد العمليات في أفغانستان ومهندس خطة الحرب الفريق ديفيد رودريغيز جنوده قائلاً: «الآن سنحقّق النصر». لكن الحرب كانت أمام مرحلة دقيقة، ولم يكن كثير من المراقبين، سواء من داخل الجيش الأميركي أو خارجه، واثقين بالكامل.

كان أمام بتريوس مهلة سنة لتحقيق المكاسب التي كان يحتاجها الرئيس في أفغانستان للبدء بسحب قواته المنتظر في تموز/يوليو ٢٠١١. فكل دقيقة كانت ذات قيمة. أدار القيادة من مقره الرئيسي في كابول، الذي ضم ألفاً وأربعمئة شخص، وقام بجولات اعتيادية في كل أنحاء أفغانستان زار خلالها أكثر من مئة وخمسين ألف جندي من تسعة وأربعين بلداً، من بينهم مئة ألف جندي من الولايات المتحدة. وقد لاح أنه يسير باتجاه مبتغاه بحلول الخريف. لكن كل يوم في أفغانستان كان عسيراً، ولم يكن أحد يعلم كيف سينتهي.

كانت هذه هي القصة التي سأعدّها في تقرير عن سبعة أشهر قضيتها في أفغانستان، راقبتُ خلالها بتريوس وفريقه، ومكثتُ مع وحدات القتال، وأجريت مقابلات مع العشرات من كبار المسؤولين والضباط والجنود والأفغان. فقد قضيت

وقتاً مع قوات المشاة والمدفعية والعمليات الخاصة وأركان عسكرية ومدنية أخرى. أعددت تقريري من المقر الرئيسي لإيساف في كابول، وبعثة الأمم المتحدة للمساعدة في أفغانستان، والسفارة الأميركية. ثم طرت بالمروحية إلى الصحراء الرملية في ولاية هلمند والجبال المسننة في هندو كوش في أفغانستان الشرقية ووادي نهر أرغنداب المخضوضر في قندهار. تقاسمت الخبز مع الوزراء ورجال الأعمال والقرويين الحفاة الأفغان. تناولت وجبات أكل جاهزة وحصصاً غذائية في الميدان مع جنودنا، وكان بعضهم رفقاء سابقين لي أو زملاء على مقاعد الدراسة في الأكاديمية العسكرية الأميركية. سافرت مع الجنرال المتقاعد جاك كين في تقييم ميداني شامل في شباط/فبراير، وقمت بتغطية لرحلات عودة بتريوس إلى واشنطن للإدلاء بشهادته عن الحرب أمام الكونغرس، ومناقشات سحبه للقوات مع البيت الأبيض، وجلسة تنصيبه ليصبح رئيس جهاز الاستخبارات المركزية، وآخر أسبوع له في كابول. وقد حصلت طوال تلك المدة على كمّ هائلٍ من المقابلات، ومراسلات لا تُحصى مع بتريوس ومحيطه الداخلي عبر البريد الإلكتروني.

يذهب هذا الكتاب أبعد من التركيز الاستراتيجي على بتريوس ورحلته الفكرية ومبادراته الكبرى، ليسلسل سنة الحرب على المستوى التكتيكي من منظار ثلاثة قادة كتائب في الوحدة إيربورن ١٠١ (سلاح الجو)، وهي الوحدة عينها التي قادها بتريوس خلال غزو العراق عام ٢٠٠٣. وقد شغل المقدم ديفيد فلين قيادة كتيبة مدفعية أُعيد توظيفها، «توب غانز» Top Guns، في وادي نهر أرغنداب، معقل طالبان. قاد المقدم ج. ب. فاول كتيبته «نو سلاك» No Slack خلال عمليات جوية واسعة النطاق في جبال ولاية كُنَر في أفغانستان الشرقية. المقدم ديفيد فايفكوت، رفيق سلاحي في الأكاديمية العسكرية الأميركية، والمعاون الشخصي لبتريوس في البوسنة وخلال غزو العراق، أدار عمليات في ولاية غزني جنوب وسط أفغانستان التي كانت معقلاً لحركة طالبان. وأخيراً، تقدّم خبرة الرائد فرناندو لوجان، وهو ضابط قوات خاصة، ومتمرس في برنامج «الأيادي الأفغانية» Afghan Hands، عبرة حول حدود الاندفاع والتمرس

أمام البيروقراطية العسكرية. تعد جميع قصصهم أمثلة لا تُحصى عن القيادة في الصف.

سيأتي وقت يحكم فيه التاريخ بالكامل على خدمة بتريوس في العراق وأفغانستان، وتأثيره في الجيش الأميركي، ومرتبته ضمن قادة الحرب الأميركيين. غير أنه لا يمكن إنكار الإنجازات الكبرى التي قدمها خلال سبع وثلاثين سنة من خدمته في الجيش، ليس أقلها استعادة زمام المبادرة الاستراتيجية في الحربين اللتين تبعتا الهجمات الإرهابية في ١١ أيلول/سبتمبر، ٢٠٠١. يلومه ناقدوه بسبب طموحه وترويجه لنفسه. سأذكر في الصفحات التالية أنه قائد يضع الهدف نصب عينيه، لكن طاقته وتفاؤله وإرادته بالنصر تعني لي أكثر من الهفوات التي توقف عندها ناقدوه. فالخدمة حسب اعتقاده، هي انتصار.

من الأقوال المأثورة المفضّلة لبتريوس قول لِـ «سنكا»، وهو فيلسوف روماني من القرن الأول: «الحظ هو نتيجة التقاء التهيُّؤ مع الفرصة المؤاتية». وقد كان هذا صحيحاً بالنسبة لبتريوس أمام منعطفات عديدة؛ غير أن «حظه» الأوفر تمثّل ربما، في الفرصة لقيادة أكفأ القوات في العالم على مدى ستة أعوام ونصف العام من الانتشار منذ ٩/١١.

حالفني بعض الحظ أنا أيضاً في هذا العمل، وأنا أشعر بمزيد من الامتنان والحكمة لأبدأ الرحلة.

الفصل الأول

الواقع الميداني

استغرق الجنرال بتريوس في أفكاره وهو يقطع بالسيارة المسافة القصيرة بين البنتاغون والبيت الأبيض. فالساعات الثلاث المقبلة يمكن أن تغيّر مسار حياته ومسار الحرب، وربما حتى مسار الأمة. لم يكن لديه أدنى فكرة عما كان سيحدث. كان التعليق الوحيد الذي أدلى به للقائد الأعلى مارك هاول، ضابط أمنه الشخصي منذ غزو العراق، أنه يأمل أن يكون الجنرال ستان مكريستال قد أنهى اجتماعه مع الرئيس أوباما بنجاح. فقد تم استدعاء مكريستال، القائد العسكري ذي الأربع نجوم في حرب أفغانستان، إلى واشنطن في اليوم السابق على خلفية تعليقات أدلى بها هو ومساعدوه لمراسل من مجلة «رولنغ ستون» وأوحت بما يشبه التمرّد. ففي صبيحة يوم الأربعاء الحار والرطب هذا، ٢٣ حزيران/يونيو ٢٠١٠، حضر مكريستال إلى البيت الأبيض قبل بتريوس بساعة ونصف الساعة. وفي الوقت الذي توقفت فيه سيارة بتريوس السوداء من طراز «جي أم سي يوكان دينالي» عند بوابة أمن الجناح الغربي، كان مكريستال قد حضر وانصرف. عرف هاول وباقي عناصر الدائرة الداخلية للفريق أول أنهم يمكن أن يكونوا في طريقهم إلى أفغانستان إذا ما تم فصل مكريستال. «كنا في حالة إنكار»، على حد قول هاول.

حالما دخل بتريوس البيت الأبيض، قصد مكتباً صغيراً أسفل الردهة من ناحية غرفة العمليات ليزور صديقه القديم دوغ لوت، وهو مقدم متقاعد في

الجيش كان قد شغل منصب مستشار أعلى ومنسق أركان الأمن القومي لسياسة أفغانستان ـ باكستان. وقد حضر بتريوس بصفته رئيس القيادة المركزية الأميركية ـ ورئيس مكريستال ـ إلى البيت الأبيض صباح ذاك اليوم إلى اجتماعه الشهري مع الرئيس وفريق أمنه القومي في أفغانستان وباكستان. كان يشعر بخيبة الأمل بسبب الحالة التي آل إليها مكريستال والقلق على زميل موثوق. فقد كانا صديقين قديمين ورفيقي سلاح عملا معاً عن كثب خلال السنة الماضية في أفغانستان، خلال «الحرب المفروضة» كما وصفها الرئيس، بعدما أمضيا معاً بضع سنوات من الخدمة في العراق. كانت أفغانستان مرحلة حرجة، على صعيدي السياسة وإدارة العمليات. «كيف سارت الأمور مع ستان؟» سأل بتريوس لوت. فتذمّر لوت. لم يكن ذلك مؤشراً جيداً. ودار حديث ساده الارتباك لبضع دقائق، خلال انتظار الدخول إلى غرفة العمليات. في تلك الأثناء أدخل أحد مساعدي الرئيس رأسه من الباب. وسأل: «هل رأى أحدٌ الجنرال بتريوس؟ إنه مطلوب فوق في المكتب البيضوي».

توجّه بتريوس إلى أعلى. وفي الوقت الذي دخل المكتب البيضوي، كان وزير الدفاع الأميركي روبرت غيتس ووزيرة خارجية الولايات المتحدة هيلاري كلينتون يغادران، وبرفقتهما أعضاء آخرون من جهاز الأمن القومي للرئيس. كان أوباما وحده، وأدرك بتريوس حينها أن أوباما قد فصل مكريستال دون توفّر بديل مؤكّد، قبيل ساعات من ظهوره على الأغلب في حديقة روز غاردن Rose Garden ليشرح موقفه للشعب. جلس هو وبتريوس معاً، ودخل أوباما مباشرة في صلب الموضوع: «أنا أطلب منك، بصفتي رئيسك والقائد العام، بأن تتولى قيادة المهمة في أفغانستان». بحسب اعتقاد بتريوس فإن أي شخص يكون مرتدياً الزي العسكري، لا يملك إلا إجابة واحدة عندما يطلب الرئيس مثل هذا الطلب: «سيدي، سيكون هذا شرفاً لي». كان بإمكان بتريوس رؤية التحدي الذي كان أوباما والشعب يواجهانه في تلك اللحظة. كانت المحادثة رزينة وصريحة أثناء مناقشة النهج الذي سيُتَّبع في أفغانستان. فقد طلب أوباما من بتريوس بكل

وضوح أن يتجنّب تطهير مناطق لا طاقة لقواته على احتمالها، واستعرض السياسة التي تم إعلانها في الأكاديمية العسكرية الأميركية في كانون الأول/ديسمبر الماضي، بما في ذلك خطة البدء بسحب القوات في تموز/يوليو ٢٠١١. تحدث أوباما عن توقعاته من القائد العسكري، ثم أعلن بتريوس عن ولائه للسلطة الهرمية المدنية ـ العسكرية، مؤكداً للرئيس أنه سيقدم أيضاً المشورة العسكرية الصريحة. عندما وصل الجنرال إلى الطابق الأسفل بعد خمس وأربعين دقيقة، قال لِهاول، «أيها القائد، صلني بزوجتي على الهاتف».

أدرك هاول أن القرار قد تم اتخاذه دون رجعة: مكريستال خارجاً، وبتريوس حل محله. وأي سبب آخر يمكن أن يتصل بزوجته من أجله؟ لكن هاول لاحظ أمراً بخصوص رئيسه. فقد اعتقد أنه رأى البريق نفسه في عيني بتريوس الذي رآه آخر مرة يوم كان يدير الحرب في العراق. «إنها تلك النظرة الأكيدة في الرياضة عندما يكون اللاعب في منطقة المرمى وهو يصيح: ارموا الكرة لي، أريد الكرة»، على حدّ قول هاول. طلب رقم هولي بتريوس، وسمع بريدها الصوتي فأعطى الهاتف للفريق أول، الذي ترك رسالة بسيطة: «شاهدي نشرة الأخبار عند ١:٣٠ حول إعلان رئاسي. سنكون في حديقة روز غاردن». ثم طلب من هاول أن يرسل لها رسالة نصّية قصيرة وأعطاه الهاتف ودخل إلى غرفة العمليات قبل وقت الظهيرة تماماً.

كان كل من كلينتون وغيتس ورئيس هيئة الأركان المشتركة الأميرال مايك مولن بانتظار بتريوس، وانضم الرئيس ونائب الرئيس بايدن إليهم بعد بضع دقائق. «هذا يوم سيّىء؛ يوم تعيس» قال أوباما. لو استمر مكريستال في القيادة، كما قال، لكان سيجعل من الصعب توحيد الجهود والحفاظ على هيبة الجيش. وأعلن أن استبدال غيره به يمكن أن يخفّف الزخم في أفغانستان، لذا فإن استبدال بتريوس به يخفّف من وطأة تلك المجازفة. لم يكن يريد انتقادات من الصحافة. فقد كانوا بحاجة للحفاظ على تركيزهم، كفريق، على السير قُدُماً.

ذكر أوباما أنه دخل في محادثات مطوّلة حول المسألة مع غيتس ومولن،

والآن مع الجنرال بتريوس. إن أفضل طريقة للسير قُدُماً، كما أبلغ الحضور، هي بأن يتدخل بتريوس كقائد للحرب في أفغانستان. كما أشار إلى أنه سبق وتعهّد بقوات إضافية ليثبت أن أميركا لن تسمح للقاعدة بالعودة إلى أفغانستان. «سنرى في تموز/يوليو المقبل إنْ كانت الاستراتيجية ناجحة»، صرّح أوباما. ثم تابع: «إن لم تنجح، فسنعيد تخطيطها. من المهم أن نبعث برسالة واضحة عما نحاول فعله. علينا أن نعترف بالتوتر الحقيقي الذي تسبّبه المدة التي نقضيها وكلفتها». سرت شائعات عن توتّر مع بتريوس، لكن أوباما أشار إلى أنه طلب من بتريوس لقاءه والإعراب عن وجهة نظره بصراحة. «لقد اتفقنا على أن يثق أحدنا بالآخر، ومشاركة التقويمات في السر» قال أوباما. وأضاف نائب الرئيس بايدن بأنه كان قراراً صائباً، ويوماً حزيناً، لفصل مكريستال. لكنه يمكن أن يكون فرصة لتوضيح العلاقات المدنية ـ العسكرية. قال الرئيس إنه سيتصل بالرئيس الأفغاني حميد قرضاي(*) ورئيس الوزراء البريطاني ديفيد كاميرون والأمين العام للناتو أندرس فوغ راسموسن، ليبلغهم قراره. مشى أوباما من المكتب البيضوي إلى حديقة روز غاردن بعد ساعة. وقف بتريوس مباشرة على يساره، يليه غيتس. ووقف بايدن ومولن على يمين أوباما.

«اليوم قبلت استقالة الجنرال ستانلي مكريستال بصفته قائد إيساف. لقد قبلتها بكل أسف، لكنني موقن بأنه الخيار الصائب لمهمتنا في أفغانستان ولجيشنا ولبلدنا. يشرفني أيضاً أن أسمي الجنرال ديفيد بتريوس لتولي القيادة في أفغانستان، ما سيتيح لنا الحفاظ على الزخم والقيادة اللذين نحتاج إليهما للنجاح».

وأعرب أوباما عن «امتنانه الشديد» لأن بتريوس وافق على الخدمة. ستكون مهمة بتريوس الخامسة ما وراء البحار منذ ٢٠٠١ ـ بما في ذلك نحو أربع سنوات خلال ثلاث جولات قام بها في العراق ـ لرجل ربما كان أشهر ضابط برتبة لواء

(*) أو حامد كرزاي، كما تُسمّيه بعض وسائل الإعلام العربية.

في أميركا منذ دوايت أيزنهاور. لقد تنقّل لأكثر من خمس سنوات ونصف السنة منذ ٢٠٠١[1]، وفاته الكثير من الوقت بعيداً عن ابنه خلال دراسته الثانوية العامة ـ على الرغم من أن أفغانستان ستوفر فرصة ما يشبه لمّ الشمل: ستيفن بتريوس تخرج مؤخراً من معهد ماساتشوستس للتقنية وكان يخدم كملازم في الجيش في أفغانستان.

كان هاتف هولي في حقيبتها، وقد كتمت الصوت لكونها تشارك في غداء عمل في فندق مايفلاور. «ما الأمر أيها القائد؟» سألت حين عادت واتصلت بهاول أخيراً، فشرح هاول التفاصيل. لقد اعتادت على أن يُستدعى زوجها لخدمة الوطن. أصغت جيداً، ثم قالت ببساطة، «تلقيت الرسالة أيها القائد، شكراً».

أثناء القيادة عائداً إلى البنتاغون، اتصل بتريوس بهولي ليعلمها بالأمر ثم اتصل بنائبه التنفيذي العقيد بيل هيكمان، الذي كان في البنتاغون. طلب منه بتريوس أن يلغي كل المواعيد من جدول أعماله، ما عدا خطابين كان سيلقيهما مساء اليوم التالي في بلدته الأم كورنوال، نيويورك ـ واحداً لحائزي وسام بربل هارت والآخر خطاب افتتاح في ثانويته العامة القديمة، احتفالاً بذكرى مرور أربعين سنة على تخرج صفه. أعدّ مسوّدة لائحة للأعمال التي ينوي إنجازها: البدء بجمع فريق، إلغاء المناسبات المستقبلية، صياغة كلمة افتتاحية لجلسة استماع، مراجعة قواعد الاشتباك، البدء بصوغ رسالة يومه الأول للجنود في أفغانستان، وضع جدول زمني. صمت لمدة قصيرة، ثم بدأ بخربشة أسماء كل من يريد الاتصال بهم: السفير ريتشارد هولبروك والجنرال مكريستال والوزيرة كلينتون والسفير ريان كروكر، شريكه الدبلوماسي في العراق. طلب من هيكمان الاتصال بمنسّق القيادة المركزية في مجلس الشيوخ لحجز مواعيد مع أعضاء لجنة مجلس النواب للقوات المسلحة يوم الإثنين المقبل، والطلب من معاونه البدء بحزم حقائبه في تامبا. وخاطب هيكمان قائلاً: «إن كنت ترغب بالاشتراك

(١) الجنرال ديفيد بتريوس، مقابلة مع جينيفر غريفن، فوكس نيوز، ٢٥ آب/أغسطس ٢٠١٠.

مرة أخرى، فهناك حاجة لك». لم يتردد هيكمان. سيذهب إلى الحرب مجدداً مع بتريوس ـ للمرة الرابعة منذ ٢٠٠٣. ثم استدار بتريوس ناحية هاول وأخبره أن عليهم بدء التحضيرات لجلسة استماعه الأسبوع القادم. وسأل هاول إن كان مستعداً للذهاب أيضاً. «ذهابي وارد أيضاً»، أجاب هاول. «لقد قضينا معاً خلال السنوات الثلاث الماضية وقتاً أكثر مما قضيت مع زوجتي».

«أعلم أيها القائد»، أجاب بتريوس مؤكداً. «لقد فعلنا..».

كان البيت الأبيض يعج بالمشكّكين، ومن بينهم رئيس موظفي البيت الأبيض رام إ. إيمانويل وكبير مستشاري البيت الأبيض ديفيد م. أكسيلرود. كانوا ينظرون لبتريوس على أنه قائد متصلب أراد الحصول على أكبر عدد ممكن من القوات لأفغانستان ولم يهتم يوماً بإعطاء الرئيس خيار خفض عديد القوات، على الرغم من التوصيات الواضحة بذلك خلال إعادة النظر بسياسة أفغانستان لعام ٢٠٠٩. كانت لديهم شكوك بأنه لواء تابع لِـ«بوش»، نظراً لعلاقته الشخصية مع الرئيس السابق.

كان هناك الكثير من المنتقدين لبتريوس في جيش كانت كل عملية فيه تعتمد بشدة على أنظمة أسلحتها المتطورة الجديدة. لكن لم يكن لأي منها على وجه الخصوص نفع لدى خطة بتريوس لمكافحة التمرّد، التي لم تعتمد على البوارج أو الدبابات أو المقاتلات النفاثة. كان جنرالات الجيش القوي المهيأ لهزم الروس في فولدا غاب يعتقدون أن رؤيته لمكافحة التمرد تنطوي على عقيدة دينية. فقد ساورهم الخوف من جره للجيش إلى طريق يمكن أن يضعف من قدرته على خوض حرب مع خصم عتيد مثل الصين. أما البعض الآخر ممن تقاطعت مسيرتهم معه خلال صعوده المستمر إلى القمة فقد اعتبروه مفرط الطموح ويروّج لنفسه.

غير أنه كان هناك قليل من الشك لدى معظم الجنرالات الناشطين والمتقاعدين ولدى الشعب الأميركي، بأنه قائد عمليات بقدرات عالية ويمكن القول إنه أكثر جنرالات الجيش نفوذاً منذ الحرب العالمية الثانية. فخلال قيادته لأول معركة،

قاد الوحدة إيربورن ١٠١ خلال غزو العراق عام ٢٠٠٣ بكل مهارة وعزم. ثم قاد سكريمينج إيجلز (Screaming Eagles) شمالاً إلى الموصل، حيث أثنى عليه معظم المراقبين لإشرافه الناجح على عمليات ما بعد المعركة في شمال العراق لبقية السنة. استهلكت الحرب في العراق ست سنوات من حياته. بعد تهدئة الوضع في الموصل وعودته إلى الولايات المتحدة لمدة وجيزة، عاد فوراً إلى العراق لتولي مهمة تجنيد الجيش العراقي وتدريبه وتطويره. ثم عاد إلى الولايات المتحدة لخمسة عشر شهراً، للإشراف على صوغ الدليل الميداني لمكافحة التمرّد الميداني الخاص بفيلق الجيش/ البحرية والمساعدة على إصلاح جوانب كثيرة من تحضير الجيش للقادة والوحدات التي ستقوم بالانتشار. غير أن أكثر ما يتذكّره، هو قيادة الاندفاعة (The Surge) في العراق عام ٢٠٠٧، عندما كان العنف يلف البلد ويقف على قاب قوسين من الحرب الأهلية. أسهمت القوات الإضافية واستراتيجية بتريوس لمكافحة التمرد وجهود الوساطة التي قام بها والتي أقنعت ١٠٠ ألف من المتمردين السنة والشيعة لدعم عراقٍ جديد في احتواء العنف وحفظ ماء الوجه لإدارة بوش.

إثر تغيير قيادة بتريوس في بغداد صيف عام ٢٠٠٨، اعتبر الوزير غيتس أن «التاريخ [سوف] يضع بتريوس في مصاف أعظم قادة المعارك في الدولة». بعد تولي بتريوس القيادة المركزية للولايات المتحدة في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٨، اعتبر غيتس أنه «العسكري العالِم ورجل الدولة البارز في جيله، وبشكل أدق، اعتبر أنه الرجل الذي نحتاج إليه في هذه القيادة وفي هذا الوقت». إن نجاح بتريوس ميدانياً ومكانته كداهية عسكري وإرادته بالنجاح أتاحت له هيكلة العقيدة والذهاب أبعد من ذلك ليشمل التصميم التنظيمي والتدريب والثقافة وتطوير القادة في الجيش، بل المفهوم الأشمل للجيش في جوانب عديدة. فقد كان يرسم مسار الجيش بوضوح في ما يتعلق بنوع الحرب التي كانت الدولة تخوضها.

لقد قدم أوباما خدمة كبيرة لبتريوس بطريقة مهمة، نظراً للحالة المحيطة بفصل مكريستال. لطالما استعمل بتريوس سمعته لاستقطاب مخيلة من هم في

السلطة. فقد صرّح بعد أشهر عدة أنه «بالنظر لما كنت أواجهه في العراق وبعدها في أفغانستان، فأنا أشعر بتقارب مع القادة[1] الذين تم تسليمهم قضايا ميؤوساً منها أو على الأقل في غاية الصعوبة». كان يقصد غرانت خلال الحرب الأهلية، وماثيو ريدجواي في كوريا، والمشير البريطاني وليم سليم الذي ترأس مساعي قوات الحلفاء لاستعادة بورما في الحرب العالمية الثانية، كما أدلى في سيرته الذاتية المعنونة بجدارة «الهزيمة إلى النصر» Defeat into Victory. فقد توجهت الدول إليهم للمساعدة على إنقاذ المساعي الحرجة للحرب. وقد نفذ القادة الثلاثة جميعهم الاستراتيجيات التي ساهموا في تصميمها. وبفضل أوباما، فقد طُلِب من بتريوس فعل الشيء نفسه، بعد أن سبق له القيام به في العراق في حقبة الرئيس بوش.

أدلى بتريوس، يوم الثلاثاء التالي، بشهادته أمام لجنة مجلس النواب للقوات المسلحة. وبالإضافة إلى وجوده هناك شكلياً لتأكيد تعيينه في منصبه، كان على بتريوس أن يدافع عن مسعى الحرب وعن الوقت والالتزام اللذين يتطلّبهما إحراز تقدم في أفغانستان. جلس منفرداً على طاولة مستطيلة كبيرة خاصة بالشهود في غرفة الاستماع التي تشبه الكهف في مبنى دركسين لمكاتب مجلس الشيوخ، مقابل مبنى كابيتول الولايات المتحدة. جلست زوجته هولي على مقاعد الصف الأول في القاعة، في أول ظهور لها خلال إحدى جلسات الاستماع لزوجها. فضّلت هولي أن تتجنّب الظهور العلني، لكنها أتت في ذلك اليوم لتقدم دعمها وتمثل تضحيات عائلات العسكريين ـ «لترفع العلم»، كما ستصرّح لاحقاً. ارتدى بتريوس زيَّه الزيتي، والأوسمة معلقة على صدره الأيسر، وعروة الجوّال على كتفه اليسرى، وشعار الوحدة ١٠١ إيربورن، الوحدة التي سبق أن قادها في المعركة في أول فترة في العراق، على كتفه اليمنى.

طرق السيناتور كارل ليفين، وهو سيناتور ديمقراطي في ميشيغان، بمطرقته

(١) الجنرال ديفيد بتريوس، رسالة بريد إلكتروني للمؤلف، ١٩ نيسان/أبريل ٢٠١١.

لضبط الحضور، وشكر بتريوس على «استعداده، بناءً لطلب الرئيس... لتولي مسؤولية الحملة في أفغانستان. «نحن نقدّر تضحياتك وتضحيات عائلتك». كما عبّر عن شكره لحضور هولي والتزامها وتضحيتها. بدوره شكر السيناتور جون ماكين، من أريزونا، هولي، مضيفاً على صعيد شخصي: «نعتقد أنك اتخذت قراراً حكيماً منذ أكثر من أربع وثلاثين سنة بالموافقة على موعد مجهول مع تلميذ ضابط شاب».

كانت هوليستر نولتون ابنة المشرف على الأكاديمية العسكرية الأميركية الجنرال وليم نولتون، وقد وصلت ذات نهاية أسبوع إلى إحدى مباريات كرة القدم خريف عام ١٩٧٣، وكانت بحالة توتّر أثناء حضورها المباراة مع ديفيد بتريوس. أما بتريوس فكان ضابطاً تلميذاً ومساعدَ معاون السرية، وكان بانتظار تخرجه ذلك الربيع من بين أول ٥ بالمئة في صفه «نجماً» بكل معنى الكلمة. بعد حذر بسيط في البداية، انجذب أحدهما إلى الآخر، بسرعة؛ وتزوّجا في كنيسة حرم الأكاديمية العسكرية الأميركية في ٦ تموز/يوليو ١٩٧٤.

على الرغم من الحفاوة التي استُقبِل بها الجنرال وزوجته، إلا أن ماكين وزملاءه الجمهوريين كانوا في مهمة. فقد كانوا يريدون كشف ما اعتبروه حماقة من أوباما لتحديد موعد تموز/يوليو ٢٠١١ لسحب القوات. وقد سعوا جاهدين لخلق صدع بين بتريوس، الذي قيل إنه لم يكن من مشجعي الالتزام بسحب القوات في تموز/يوليو ٢٠١١ لكنه دافع عنه أمام الرأي العام، وبين الرئيس الذي كان يعتبره أمراً ملحاً. لكن بتريوس برهن أنه هدف عصيّ.

«ليس هناك من داعٍ لأن أقول إنني تشرّفت باختيار الرئيس لي لقيادة إيساف التابعة للناتو وقوات الولايات المتحدة في أفغانستان»، أجاب بتريوس، وهو يقرأ من بيان مكتوب صاغه خلال عطلة نهاية الأسبوع وقام بتدقيقه بعناية مع أقرب معاونيه، بمن فيهم زملاؤه غير العسكريين.

«من المهم أن نتذكر أثناء تقويمنا للوضع في أفغانستان، لماذا نحن هناك». استغل بتريوس منصة التنمّر ليحاول أن يبين للرأي العام سبب إلحاح المهمة.

«علينا ألا ننسى أبداً أنه تم التخطيط لهجمات ٩/١١ في جنوب أفغانستان وأن المهاجمين خضعوا للتدريب الأولي في معسكرات في أفغانستان قبل أن ينتقلوا إلى ألمانيا ومنها إلى كليات الطيران في الولايات المتحدة. ورداً على تلك الهجمات بالطبع، دخلت قوات الائتلاف بقيادة الولايات المتحدة أفغانستان في أواخر عام ٢٠٠١، وهزمت القاعدة ومكوّنات طالبان التي أتاحت للقاعدة أن تؤسّس قاعدة رئيسية ومعسكرات تدريب لها في أفغانستان».

كان بتريوس يراقب الإرهاب العالمي منذ توليه منصب النائب التنفيذي لرئيس هيئة الأركان المشتركة الأميركية في التسعينيات. فقد فهم تحديات المعركة في مواجهة عقيدة متطرفة. كان ثمة استسلام بين صانعي السياسة ما حال دون «الانتصار» على المتطرفين. وقد أوضح بتريوس الكثير حين أشار إلى أن النزاعات الحالية لم تكن من صنف تلك التي يمكن حسمها «باحتلال الهضبة وغرس الراية والعودة إلى الوطن لملاقاة موكب النصر». وبدلاً من ذلك، فقد رأى الجهود التي تبذل في أفغانستان وكل مكان كعوامل لحربٍ طويلة قاسية ضد متطرفين تحتم عليهم عقيدتهم مهاجمة الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين وحتى الكثير من الحكومات النافذة في الشرق الأوسط. كانت أفغانستان موقعاً رئيسياً في هذا القتال، وكانت هذه الدولة معقلاً للقاعدة من قبل، وكان يجب «تقويتها» لتمكينها من تفادي حصول ذلك مجدداً.

كان بتريوس يعلم أن الرئيس، بصفته رئيس الأركان، شعر بعبء قيادة هذه الحرب. وكان يعلم أيضاً كم كانت الإدارة تتطلع لبدء سحب القوات من أفغانستان في تموز/يوليو ٢٠١١. وفي محاولة لاستباق الهجمة على خطة أوباما لسحب القوات المتوقع بعد سنة من تاريخه، أوضح بتريوس أنه على توافق تام مع أوباما، وهو أمر شعر أن من الضروري أن يسمعه الجمهوريون ومعاونو أوباما المتيقظون. ثم تابع: «كنت جزءاً من العملية التي ساهمت في بلورة استراتيجية الرئيس في أفغانستان، وأنا أدعم هذه السياسة وأوافق عليها».كانت هذه المسألة حساسة، حيث كان معلوماً أن البيت الأبيض لم يتبنَّ بالكامل المشورة التي قدمها

هو ومكريستال ومولن وغيتس في الخريف السابق. لكنه كان يعلم ما الذي ينبغي عليه القيام به لتأييد قرار سياسي بعد أن تم اتخاذه. «أثناء تطوير السياسة، قدمت مشورتي العسكرية بصراحة، وأكدت للرئيس أنني سأقوم بالشيء نفسه عند إجراء تقويمات خلال مسار الأحداث في الأشهر المقبلة. وقد أكد لي بدوره أنه يأمل ويريد مني أن أقدم هذا الأسلوب من المشورة».

كان تقويمه للأوضاع في أفغانستان رزيناً. فقد كان قلقاً من مخابئ المتمردين في باكستان والفساد في الحكومة الأفغانية ومعاقل طالبان في ولاية قندهار. «كان مؤكداً أن مستويات العنف قد ارتفعت بقوة في أفغانستان خلال السنوات القليلة الماضية. أضف إلى ذلك أن طالبان وأتباعها كانوا، وما زالوا حتى هذا العام، يوسعون رقعة المناطق التي يسيطرون عليها ويزيدون من نفوذهم بشكل مُطّرد. غير أن إيساف أحرزت تقدماً في مواقع عدة». وشرح بتريوس المسعى الرئيسي في ولاية هلمند، وهي معقل لطالبان جنوب غرب أفغانستان، معترفاً في الوقت عينه بأن مع كل خطوتين إلى الأمام كانت هناك خطوةٌ تتّخذ إلى الوراء في مواقع عدة.

اعتبر بتريوس أن قدرته على السير في أسواق «مرجة» مع محافظ المنطقة كانت مؤشراً لإحراز تقدم في أوائل الربيع. كانت المنطقة تعج بعناصر طالبان قبل ستة أشهر فقط، وكان هناك أربع محال فقط مفتوحة في السوق. وبحلول الصيف فتحت عشرات المحال أبوابها، وبدأ النازحون العودة إلى أرضهم. لكن في ظل قتال عنيف مستمر وارتفاع في حصيلة الخسائر، كان من الصعب نقل الشعور بإحراز تقدم حتى إن شهده. كان الأمر بالنسبة إليه نوعاً مما يُطلق عليه Fingerspitzengefühl، والمصطلح مأخوذ من الألمانية ويعني «الاستشعار بالأنامل». وعلى الرغم من إدراكه أنّ عليه تعلم الكثير عن البلد، إلا أنه قد سبق له تركيز كل طاقاته الاستخباراتية على العمليات والتهديدات في أفغانستان كل يوم ولمدى عامين تقريباً، ما ساعده على فهم المسار الذي تنطلق فيه الحملة. لكنه لم يكن من السهل إقناع مجلس الشيوخ بإحراز التقدم عبر «الاستشعار بالأنامل»،

وعوضاً عن ذلك شرح لهم التوسع البطيء للفقاعات الأمنية وعمليات القوات الخاصة الناجحة التي تكثّفت بمؤازرة بتريوس من القيادة المركزية. كان هناك كثير مما يمكن الحديث عنه فقط في المناقشات العلنية، لكنه استطاع مقابلة كل أعضاء مجلس الشيوخ في اللجنة قبل جلسة الاستماع، وقدّم إليها تقويمات سرية في تلك الجلسات.

بنظرة خاطفة فوق كتفه، أنهى ملاحظاته بتقديم الشكر لزوجته التي كانت تجلس خلفه. قال: «كما سبق وأشرت يا حضرة الرئيس، فزوجتي هولي معي هنا اليوم، إنها رمز القوة والصمود لعائلات من حول العالم تنتظر في الوطن عودة الأحباء الذين انخرطوا في مهمات حرجة في أفغانستان والعراق وكل مكان آخر. لقد صمدت بكل قوة خلال فترة تنقّلي التي استمرت لأكثر من خمسة أعوام ونصف العام منذ ٩/١١. وكذا فعلت الزوجات الأخريات والأطفال والأحباب عندما تم تجنيد قواتهم واستمروا برفع أياديهم اليمنى مرة تلو الأخرى. لا شك في أن أفراد عائلاتنا هم الجنود المجهولون في الحملات الطويلة التي قمنا بها خلال العقد المنصرم».

وأنهى حديثه بعبارة مزخرفة: «لاحظ تيدي روزفلت مرة، وهو واحد من أعظم رؤساء أميركا، أنه بعيداً في مكان ما فإن أفضل جائزة يمكن أن تجود بها الحياة هي الفرصة لبذل كل الجهد في عمل يستحق ذلك. هناك حالياً حوالي ١٤٠ ألفاً من قوات الائتلاف وأكثر من ٢٣٥ ألفاً من عناصر القوى الأمنية الأفغانية قد انخرطوا في عمل شاق أفغانستان بحاجة إليه بكل تأكيد. وإذا أكد مجلس الشيوخ تعييني، فسيكون شرفاً لي أن أقدم خدماتي العسكرية لهم في ذلك العمل الشاق الذي ينبغي القيام به في ذلك البلد».

كان بتريوس قد أمضى ساعات في التحضير لهذه الشهادة، ولم يكن يتوقع أسئلة صعبة من أي من الطرفين أبعد من محاولة الجمهوريين الانقضاض على أوباما. لقد جلس على هذا المقعد مرات عدة في السابق، كما تولى قيادة الأراضي المرتفعة. كان أوباما وخصومه الجمهوريون على السواء ملتزمين بإنقاذ مساعي الحرب في أفغانستان، إذا لم يتحقّق الفوز الكامل.

بدأ ليفين الاستجواب: «يا حضرة اللواء، لقد قمت بالتعليق على هذه الأسئلة في شهادتك، وأريد أن أعيد طرحها للحصول على إجابات واضحة وقاطعة لها. هناك عنصران أساسيان في استراتيجية أفغانستان أعلنهما الرئيس في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٩ هما: أولاً، إشراك ثلاثين ألفاً إضافيين من القوات الأميركية بنهاية الصيف للمساعدة على استعادة زمام الأمور. وثانياً، تحديد تاريخ تموز/يوليو ٢٠١١ لبدء تقليص عدد مقاتلينا الموجودين في أفغانستان، بوتيرة انسحاب يتم تحديدها تبعاً للظروف المحيطة في ذلك التاريخ. هل توافق على سياسة الرئيس؟».

«نعم، أوافق»، أجاب بتريوس.

«هل توافق على أن تحديد تاريخ تموز/يوليو ٢٠١١ لبدء تخفيض القوات يستوجب التأكيد على القادة الأفغان بأن يتحمّلوا المسؤولية أكثر فأكثر عن أمن بلادهم، وهو أمر ملح لنجاح المهمة في أفغانستان؟».

«نعم، أوافق»، أجاب بتريوس.

لكن ماكين الذي حل تالياً في الاستجواب، كان لا يمكن ردعه.

«حضرة اللواء، هل حصل في أي وقت خلال المداولات التي أجراها الجيش مع الرئيس لحظة قيامه باتخاذ القرار، أن قدَّمت أنت أو غيرك من أعضاء الجيش، توصيّة، تحدّد لنا تاريخ تموز/يوليو ٢٠١١؟».

«لم يكن هناك مثل هذا الاقتراح»، أجاب بتريوس.

«هل كان هناك اقتراح من أي رجل عسكري أنت على علم به؟».

«ليس على حد علمي»، أجاب بتريوس.

وقد بدا أن ماكين وجد طريقة ليشق بها اللواء عن الرئيس، لكن بتريوس ذكر واقعة، ولم تكن مسألة تتعلق بمخالفة السياسة. وتابع الهجمة السيناتور ليندسي غراهام، وهو جمهوري من جنوب كارولينا وعقيد في جيش الاحتياط.

سأل غراهام، «ألم يُنقل عن جو بايدن قوله: 'سنبدأ في تموز/يوليو القادم

المغادرة بأعداد كبيرة. يمكنكم المراهنة على ذلك'»؟ حاول بتريوس الإجابة، لكن غراهام قاطعه مرتين ليعيد التأكيد على فكرته. وفي النهاية أوضح بتريوس أن بايدن أعلن دعمه الكامل لسياسة الإدارة في أفغانستان أثناء انعقاد مجلس الأمن القومي بعد أن اختاره أوباما لقيادة الحرب. علاوة على ذلك، وكما أفاد بتريوس، فقد أدلى وزير الدفاع غيتس بشهادة أمام الكونغرس وقال إنه لم يسمع بايدن يقول ذلك بتاتاً، كما لم يسمعه بتريوس.

ثم ردَّ على السيناتور جاك ريد، وهو ديمقراطي من رود آيلند، حين سأله في وقت لاحق من الجلسة عن انسحاب أوباما المقرر في تموز/يوليو ٢٠١١: «اسمح لي أن أكون في غاية الوضوح حضرة السيناتور. أنا لم أقل فقط إنني أؤيده، بل قلت إنني أوافق عليه. وأكرر أن هذا اتفاق حصل في وقت سابق... في خريف العام الماضي، بناءً لتوقعات حول الأوضاع التي كنا نأمل الوصول إليها، والتي كنا سنكافح من أجلها في أفغانستان بعد سنة كاملة من الآن. وقد كانت تلك... توقعات لفترة ١٨ شهراً أو أكثر في ذاك الوقت».

دافع بتريوس عن إعلان أوباما سحب القوات في تموز/يوليو ٢٠١١. لقد أفسح قرار الرئيس المجال أمام رغبات بتريوس التي ربما كان يسعى وراءها لزيادة القوات على الأرض. وقد وافق على ذلك كعسكري. فقد تلقى أوامر من رئيس الأركان، وبعد إعطائه أفضل نصيحة لديه، كان عمله يقتضي بأن ينفذها. لكنه كان حاسماً بأن كل القرارات حول عدد القوات التي سيتم سحبها، ومواقع انتشار القوات التي ستبقى، يجب أن يتم اتخاذها بهدف الحفاظ على المكاسب التي أُحرزت بجهود مضنية على صعيد القرية والمدينة والولاية، بحيث لا يعود زخم طالبان مجدداً. وأشار إلى أن الرئيس أكد خلال إعلان السياسة أن القرارات حول وتيرة الانسحاب ستكون محكومة بالظروف المحيطة.

عمد بتريوس خلال شهادته إلى لعب دوره السياسي، إضافة إلى دوره العسكري؛ كما أدّى مهامه الأربع التي اعتقد أن على القادة الاستراتيجيين تأديتها. وبالنسبة للمهمة الأولى ـ فهم الأفكار المهمة بشكل صحيح ـ فقد شرح

المبادئ لحملة مكافحة التمرد المدنية العسكرية الشاملة، والتي قام بتوظيفها في العراق وطالب بها باستمرار في أفغانستان: «ينبغي عليك الاستفادة من كل القدرات المتاحة ـ من الدولة المضيفة والولايات المتحدة والعالم ـ أياً كانت. ينبغي القيام بما يلي: كل شيء بدءاً بالعمليات الخطيرة ومحدّدة الهدف لوحدة المهمات الخاصة إلى إعادة توحيد «أطراف التسوية» إلى توسيع القوى التقليدية رقعتها الأمنية»، كما ذكر.

كرر بتريوس عبارة «مُلحّ» وأكد مراراً على أهمية «عزم» الولايات المتحدة على الفوز، مبيناً المهمة الثانية للقائد الاستراتيجي: إيصال الأفكار المهمة على نحو فاعل: «هذا اختبار عزائم. ومن جديد، ينبغي على العدو أن يعلم أننا نملك العزيمة للفوز».

بالنسبة للمهمة الثالثة للقائد الاستراتيجي ـ الإشراف على تنفيذ الأفكار المهمة ـ فقد تعهّد أنه سيعيد النظر بالتوجيهات التكتيكية وقواعد الاشتباك، التي كان كثير من الجنود على الأرض يصفونها بأنها شديدة القيد، بمجرد وصوله إلى البلد وقال: «أريد أن أؤكد لأمهات أولئك المقاتلين في أفغانستان وآبائهم بأنني أعتبر تجنيد كل الطاقات وصبري ودفاعي عن رجالنا ونسائِنا بالزي العسكري وقوات الأمن الأفغانية التي تناضل كتفاً إلى كتف مع إيساف واجباً أخلاقياً. يجب أن يحصل أولئك الذين في الميدان على كل الدعم الذي يحتاجونه عندما يكونون في موقف حرج».

لإنجاز المهمة الرابعة ـ استخلاص أفضل الممارسات والعبر وإعادة بثّها للمساعدة على صقل الأفكار المهمة ـ فقد أشار إلى أن محلّلي خلايا التفكير والأكاديميين والخبراء العسكريين المفضلين لديه قد بدأوا فعلاً تحضير حقائبهم، وأنه كان على تواصل مع القادة وضباط الأركان الأساسيين على الأرض في أفغانستان.

كانت مهام القادة الاستراتيجيين التي وصفها بمثابة مفاتيح لنجاح الحملة التي انتشلت العراق من قبضة الحرب الأهلية عام ٢٠٠٧ (The Surge). مكّنته جولاته

الثلاث في العراق من الحديث بكل ثقة عن مفهوم مهم آخر ـ تحقيق توحيد للجهود على صعيد المشاركين جميعاً ـ خلال تحضيره لتولي القيادة مرة أخرى أيضاً: «نحن نعلم في الواقع، أننا نستطيع تحقيق هذا النوع من توحيد الجهود لأننا قمنا بذلك سابقاً». لكن، وكما ذكر بتريوس نفسه في مناسبات عدة، فأفغانستان ليست العراق. وبالفعل، فإن أفغانستان في بعض النواحي، جعلت العراق يبدو بسيطاً:

«من المؤكد أنك لا تستطيع أن تأخذ العبر التي تعلمتها في العراق وتطبقها ببساطة بطريقة ببغائية في أفغانستان»، كما أطلع بتريوس السيناتور مارك يودال، وهو ديمقراطي من كولورادو. «يجب تطبيقها ضمن فهم واضح للوضع على الأرض في كل قرية من القرى، وكل وادٍ من الأودية. فمكافحة التمرد كلها مسألة محلية، كما يقولون».

وقد خلق نوعاً من التفاؤل الملموس عندما أشار إلى أن وصول فيلق الغزو الأخير (الذي اتفق على تسميته كوراهي Currahee) من الوحدة إيربورن ١٠١ كان محدداً في أيلول/سبتمبر. وقد خلص إلى أن:

> من المتوقع أن تؤسس كل هذه المبادرات، ببطء ولكن بشكل قاطع، للقاعدة الأمنية التي تساهم في تطوير تركيبات سياسية محلية فاعلة، وتفعيل تحسين الخدمات الأساسية، ومساعدة القادة الأفغان والحوكمة المحلية على اكتساب شرعية وتأييد أوسع... في حين أن المطاردة المستمرة لطالبان ستكون دقيقة في قندهار وكل مكان آخر، إلا أننا نعلم من تجربة العراق وتجارب مكافحة تمرّد أخرى أنه لا يمكننا أن نقتل أو نأسر في طريقنا للخروج من تمرّد كذاك الذي في أفغانستان. من الواضح أنه يفترض إقناع أكبر عدد ممكن من المتمردين والمواطنين ليصبحوا جزءاً من الحل عوضاً عن بقائهم جزءاً من المشكلة.

في نهاية جلسة الاستماع، أثنى أعضاء مجلس الشيوخ الديمقراطيون

والجمهوريون بحماسة بالغة على قائدهم الجديد في أفغانستان. أعطى السيناتور ساكسبي تشامبلس، وهو جمهوري من جورجيا، الفضل لبتريوس للذود، ليس فقط عن أميركا بل عن العالم أجمع: «شكراً لك، وشكراً لعائلتك، للالتزام المستمر في الدفاع عن أميركا وعن العالم أجمع بكل ما للكلمة من معنى». واعتبر أحد مستشاريه لوقت طويل، العقيد المتقاعد في الجيش كيث نايتنغيل، الجلسة بمثابة تتويج، وقد أثارت قلق نايتنغيل كثيراً. كان قرار أوباما باختيار بتريوس ليخلف مكريستال ذكياً، كما ذكر نايتنغيل. فإذا استطاع بتريوس إخراج أرنبٍ من القبعة في أفغانستان، فسيكون ذلك أفضل ما يقوم به. وإن لم يستطع، فسيكون بمقدور أوباما أن يقول إنه قام بكل ما بوسعه بتعيينه أفضل لواء في أميركا ليقود الحملة، ويلقي الملامة على بتريوس. أما مصير علاقتهما في المستقبل فلا أحد يستطيع التكهن به.

كان هناك شك كبير في إمكانية نجاح الولايات المتحدة في أفغانستان. إذ كانت لدى الكثير من المحلّلين من الحزب الديمقراطي وإدارة أوباما على وجه التحديد شكوكٌ حول ما إذا كانت الولايات المتحدة، التي تنازع اقتصادياً وتعاني عجزاً في الميزانية، تستطيع الاستمرار بإنفاق ١٠٠ مليار دولار سنوياً على الحرب في أفغانستان ـ وهي أموالٌ مقترضة ـ خلال المدة التي تحتاجها استراتيجية بتريوس لمكافحة التمرد. إن الذين آمنوا أنها ستنجز خلال وقت قريب من تاريخ سحب القوات في تموز/يوليو ٢٠١١، كانوا قلة، كما أكد كثيرون أن الغاية الأساسية من الحرب في أفغانستان ـ طرد القاعدة ـ لم تعد موجودة، منذ أن غادرت المنظمة الإرهابية أفغانستان قبل وقت طويل وأعادت تنظيم صفوفها في المناطق القبلية في باكستان واليمن وشرق إفريقيا والعراق. بقي الدور الخفي الذي تلعبه باكستان في دعم طالبان مثيراً للقلق وقادراً على تقويض أي تقدم تحرزه قوات بتريوس على الأرض في أفغانستان. كما أن بعضهم رأوا حكومة قرضاي فاسدة وتفتقر إلى الكفاءة، وبالكاد تستقطب القلوب والعقول.

وبالفعل، فإن بعض المحلّلين في واشنطن اعتبروا أن مكافحة التمرد لم

تكن تصلح كاستراتيجية لأن أفغانستان لم تكن بلداً فيه حكومة مركزية يناوئها تمرد قمعي، بل كانت في خضم حرب أهلية تتنازع فيها أحزاب عرقية ومذهبية متعددة السلطة. ورأى كثيرون أن التدخل الدولي في أفغانستان وقف عائقاً أمام تطور حكومة فاعلة في أفغانستان، وليس محفزاً لتشكيلها، وأن المشكلة كانت تكمن في مكافحة التمرد الذي أطلق العنان لإرهابيين انتحاريين لمواجهة احتلال عسكري أجنبي. لخّص ريتشارد ن. هاس، رئيس مجلس العلاقات الخارجية المعروف بأنه جمهوري وسطي، مشكلة السياسة في قصة الغلاف لمجلة نيوزويك التي تصدرت مراكز بيع الصحف عقب وصول بتريوس إلى أفغانستان بفترة قصيرة. كان عنوان المقال: «نحن لا نفوز. لا جدوى من ذلك. هكذا يتم الانسحاب من أفغانستان».

في الليلة التالية لجلسة استماع بتريوس سافر نائب الرئيس بايدن إلى قاعدة مكديل الجوية في تامبا، موقع المقر الرئيسي للقيادة المركزية، لتناول العشاء مع بتريوس وزوجته كبادرة لتقديم الدعم. وقد أسماه أحد معاوني بتريوس «العشاء الأخير». تم تعيين بتريوس بالإجماع بنسبة اقتراع ٩٩-٠ في مجلس الشيوخ ذاك اليوم، وغادر إلى أفغانستان صبيحة اليوم التالي.

تعتبر أفغانستان بسائر قراها وأوديتها من أكثر الأماكن وُعورة وجدباً على الأرض لخوض حرب ضخمة. تشطر سلسلة جبال هندوكوش المرتفعة البلد الذي تعد مساحته كمساحة تكساس، وتمتد من الحدود الشرقية مع باكستان وصولاً للحدود الغربية مع إيران. يبلغ معدل ارتفاعها ١٤ ألف قدم (ما يقارب الأربعة آلاف متر)، ويصل ارتفاع بعض القمم إلى ٢٥ ألف قدم (ما يقارب السبعة آلاف متر). وجاءت أول حصيلة لمخاطر القتال ومصاعبه هناك في الأيام الأولى للحرب العالمية على الإرهاب، عندما لقي سبعة جنود حتفهم على جبل متجمّد يُدعى تاكور غار في آذار/مارس ٢٠٠٢. كانت تلك أكبر حصيلة خسائر في المعارك

في يوم واحد[1] منذ معركة مقديشو في الصومال عام ١٩٩٣، والمتعارف على تسميتها بلاك هوك داون. لكن بحلول تموز/يوليو ٢٠١٠، انتقل أشرس قتال إلى الأراضي الخصبة المحيطة بالمدينة الجنوبية قندهار، حيث زُرِعت بشكل معقّد الأقنية وجدران الطين والكروم والطرقات الترابية بأجهزة متفجرة يدوية الصنع، وهي التسمية الملطفة للعبوات الناسفة. وقد كانت حتى ذاك التاريخ أكثر الوسائل فتكاً بالقوات الأميركية وحلفائها من الناتو.

«كل شبر من الأرض[2] هنا يكلف ثمناً باهظاً»، كما كتب ضابط القوات الخاصة الرائد فرناندو لوجان إلى تلامذته في الأكاديمية العسكرية الأميركية [أعضاء «الطابور الرمادي الطويل»]، الذين سينضمون بدورهم قريباً للخدمة في أفغانستان. «فلتأملوا فقط أن يأخذ القادة العبر بسرعة ليُدفع الثمن مرة واحدة. لا تظهروا ما لا طاقة لكم على احتماله، فتستعيده طالبان قبل أن تُنهوا مسيركم وتعودوا إلى قاعدتكم وستُزرع العبوات الناسفة على طول الطريق الذي أتيتم منه». من البديهي في حرب مكافحة التمرد أن تصبح الأرض التي تؤخذ ولا تتم السيطرة عليها، نصراً للمتمردين. وبمجرد أن يعود المتمردون، يشعر السكان بأنهم مُهمَلون. لوجان الذي بدأ جولة مناوبة لثلاث سنوات بين أفغانستان والولايات المتحدة حيث يشغل منصباً آخر متعلّقاً بأفغانستان، قد عاد لتوه من مهمة استشارية مع الولايات المتحدة والوحدات الأفغانية في وادي نهر أرغنداب الخصيب خارج قندهار، حيث نفذت القوات السوفييتية آخر هجوم لها قبل انسحابها مهزومة في ١٩٨٩. وقد سيطرت رسالته لتلامذته على الحرب التي كان سيرثها بتريوس.

وصف لوجان «أسوأ تهديد تشكله عبوات ناسفة شهدته في حياتي» قائلاً إن «المتمردين قد وجدوا أساليب لصنع ألغام أرضية بدائية أو أجهزة تحكّم سلكية وباتت كل التكنولوجيا التي نستعملها دون جدوى. نشهد الآن ثورة عكسية في

(١) Bradley Graham, “Ambush at Takur Ghar,” *Washington Post*, May 24-25, 2002. (كتب غراهام مقالات متسلسلة مؤثرة في جزءين حول معركة تاكور غار).

(٢) الرائد فرناندو لوجان، رسالة بريد إلكتروني للمؤلف، ٤ آب/أغسطس ٢٠١٠.

التكتيك، وهي فاعلة إلى أقصى الحدود». كما بشَّر لوجان بالقتال القادم في مقاطعة أرغنداب التابعة لولاية قندهار في الخريف.

وفي الوقت الذي راسل فيه لوجان تلامذته العسكريين، كان يتكلم لغة «الداري» ويطلق لحية طويلة ويرتدي الزي الأفغاني. وقد تقمّص لوجان دور السكان المحليين، بفضل خلفيته وتدريبه في القوات الخاصة وكضابط منطقة أجنبية. أحب ما كان باستطاعته القيام به، وتصوّر لو أنه لاقى حتفه في أفغانستان، فسيكون ذلك من أجل قضية جديرة بالاهتمام.

كان لوجان بصفته عضواً في سآت (فريق تقديم الاستشارات والمساعدة على مكافحة التمرّد CAAT)، جزءاً من فريق «العين الساهرة» لبتريوس، وقدّر بتريوس نفاذ بصيرته كل التقدير. ومفهوم العين الساهرة الذي استعمله نابوليون مرة، هو عملية يعهد فيها قائد رفيع إلى معاونيه أو مستشاريه الخُلَّص، عادة صغار الضباط، للتركيز على مسائل بعيدة عن أنظاره، وبذا يساعدون القائد على توسيع معرفته بميدان المعركة. وعلى هذا النحو، كان سآت مجموعة من الضباط العسكريين الحاليين والسابقين، متمرسين في تجربة القوات الخاصة وحائزي دكتوراه، تم تأسيسه قبل سنة على يد مكريستال للمساعدة على تطوير الأفكار التي تخوّل القوات على الأرض تغيير مهمتهم الأساسية من قتل العدو إلى حماية السكان. وبالعمل من مراكز القيادة الإقليمية والانتقال من قاعدة قتال إلى أخرى، يجتمع أعضاء سآت دورياً في كابول لتقديم ملخص للقادة، وهو تمرين سيستمر ـ ويتم تشجيعه ـ من قبل بتريوس، الذي كانت حاجته للمعلومات وكأنها لا تشبع.

لا يمكن الخلط بين سآت ومجموعة بتريوس لمبادرات القادة. إن كان فريق سآت هو العقل المدبّر خارجياً، فإن مجموعة مبادرات القادة كانت داخلية وتعمل ضمن المقر الرئيسي لقيادة بتريوس كفريق من ضباط المهمات الموثوقين، حيث يحمل جميعهم شهادات عليا ومعظمهم قد أمضوا وقتاً في أفغانستان يراقبون المسائل ذات الأهمية الخاصة والمستعجلة للفريق أول: تحضير ملخّصات للزوار المهمين وللمؤتمرات التي تتم عبر الفيديو مع واشنطن وبروكسل، وتحضير نقاط

المحادثات خلال الاجتماعات مع قرضاي، والمساعدة في المسائل المهمة في القيادة المركزية والبنتاغون، وصياغة ردود الطلبات المستعجلة للمساعدة الواردة من القادة الإقليميين. إن ما حققه بتريوس في مجموعة مبادرات القادة هو الذكاء والبصيرة والآداب المهنية الرفيعة. لم تكن الرتبة ذات أهمية في معظم الأحيان. وكان لدى بتريوس أيضاً ثلّة من المرؤوسين والزملاء السابقين بقي على تواصل معهم عبر البريد الإلكتروني كجزء من «مجموعة مبادرات القادة العملية». وقد اعتبر نفسه خبير تواصل «ملحاح» لإيصال رسالته واستقطاب المعلومات على حد سواء.

اعتمد بتريوس أيضاً على مجموعة أخرى من «العيون الساهرة»، الخبراء الأكاديميين والمستشارين الخارجيين وخبراء خلايا التفكير الذين دعاهم ليكونوا مجموعة أخرى إضافية من العيون لمساعدته في حل شتى المسائل. في حين اعتبر بتريوس لوجان وأعضاء مجموعة مبادرات القادة بأنهم عيون ساهرة أساسية، فقد طلب أيضاً من ضباط سابقين كمستشاره الجنرال المتقاعد جاك كين، وخبراء في مجال الدفاع مثل فريدريك كاغن وزوجته كيم من معهد أميريكان إنتربرايز إنستيتوت دراسة جوانب الحرب والتنقل في البلد لجمع المعلومات والرؤى الميدانية. على الرغم من أن بعضهم في الميدان لم يعتنوا بتحرياتهم بما فيه الكفاية، إلا أن الرؤى التي أحضروها معهم أكملت تلك التي قدمتها سلسلة القيادة العادية وضباط من شتى الاختصاصات، وكانت ذات أهمية قصوى بالنسبة لبتريوس كي يفهم مدى فاعلية الحملة في أفغانستان.

وكما كان لوجان يقدم الرؤى لبتريوس، كان يقدم النصح لتلامذته عبر البريد الإلكتروني. كتب لهم: «هذه أرض المدرسة الحربية القديمة، من طراز المشاة الخفيف وتنفيذ الدوريات الصغيرة ـ والسير ٥-١٠ كلم في بلدٍ تبلغ الحرارة فيه ٤٣ درجة مئوية». «العدو شرس ولا يخاف المواجهات المباشرة العنيفة والقصيرة المدى.... تجد قرىً هناك مهجورة بالكامل، وقد اتخذها مسلحو طالبان وآخرون أجانب مقراً لهم، وزرعوها بأكثر أنظمة العبوات الناسفة تعقيداً في عالم الحرب المعاصر. أتركوهم. إحفظوا جهودكم للأماكن التي تستطيعون إحداث تغيير فيها.

إشغلوا العدو عندما يصبح ذلك مطلوباً لدعم حملتكم أو لكسب بعض المكان والوقت. هاجموا شبكاته ولكن لا تركّزوا عليه».

قبل أسابيع فقط من ترشيح أوباما لبتريوس ليكون القائد الجديد في أفغانستان، كانت الحرب قد أصبحت أطول حرب خاضتها أميركا. فقد مرت ثمانية أعوام وتسعة أشهر منذ بدء الحرب في أفغانستان بتاريخ ٧ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١، قبل مضي شهر على الهجمات الإرهابية في ٩/١١ التي طالت نيويورك وواشنطن. أما الحرب في فيتنام فقد استمرت ثمانية أعوام وثمانية أشهر منذ تمرير قرار خليج تونكين في الكونغرس بتاريخ ٧ آب/أغسطس ١٩٦٤، وحتى الانسحاب النهائي للقوات الأميركية الموجودة على الأرض في آذار/ مارس ١٩٧٣. قرابة تسع سنوات من القتال وأكثر من ألف قتيل في أفغانستان لم تحقق سوى قليل على طريق الأمن. كان القتال ضارياً. في آب/أغسطس ٢٠١٠ قُتِل من الجنود الأميركيين ثمانية وخمسون، أي أكثر من أي شهر مضى خلال الحرب. وبنهاية شهر آب/أغسطس، وبعد أن وصلت حصيلة الوفيات بين الجنود إلى ٣٥٩، أصبح عام ٢٠١٠ بالفعل أكثر الأعوام دموية خلال الحملة الطويلة. فقد كانت الإصابات بين صفوف المدنيين ـ قتلى وجرحى ـ تزداد أيضاً، إلى أكثر من ٣١ بالمئة خلال الأشهر الستة مقارنة مع الفترة نفسها في العام السابق، كما أفادت بعثة الأمم المتحدة لتقديم المساعدة في أفغانستان. وقد عزَت الأمم المتحدة قرابة ثلاثة أرباع تلك الإصابات إلى طالبان و «عناصر معادية للحكومة» غيرها ولاحظت اتجاهين مشؤومين خلف هجماتهم: تطوير عبوات ناسفة أشد تعقيداً، وزيادة الاغتيالات والإعدامات بنسبة ٩٥ بالمئة، كل ذلك بهدف الحؤول دون تعاون الأفغان مع الأميركيين وحلفائهم من الناتو.

تغلغلت طالبان في ولايات أفغانستان الأربع وثلاثين جميعها. قبل أربع سنوات فقط، لم تكن ناشطة سوى في أربع منها. أصبحت الأمور عند أطراف البلد خطيرة للغاية حيث لم يعد بإمكان عمال الإغاثة التنقل سوى في ٣٠ بالمئة من مقاطعات أفغانستان التي تبلغ ٣٦٨، حسب ما أفادت الأمم المتحدة، كما ذكرت مجموعة

تدعى مكتب المنظمة غير الحكومية الأفغانية للأمان بأن البلد أصبح أكثر خطورة من أي عام مضى منذ بدء الحرب. وقد جاء جزء من هجوم طالبان على ما يبدو رداً على مخطط أميركي تم إعلانه العام السابق، يقضي بالتركيز على ٨٠ مقاطعة من أصل ٣٦٨، أغلبها في الشرق والجنوب، حيث كانت تتمركز طالبان. وقد انتقلت طالبان إلى حيث لم يكن يوجد أميركيون. ونظراً لكون طالبان ما زالت توجد بأعداد هائلة فقد تبين كيف كانت الحرب في أفغانستان تعاني نقصاً في الموارد منذ بدء التدخل الأميركي، كما كان بتريوس يذكر معظم الأحيان. في الواقع، بمجرد أن وصل مكريستال إلى أفغانستان[1] وأنهى استطلاعه صيف عام ٢٠٠٩، اتضح له أن وجود قوات إضافية كان ضرورياً للبدء بتحقيق الأهداف التي حددتها الإدارة. وفي المقر الرئيسي للقيادة المركزية، وافق بتريوس على هذا التقويم وأيد رغبة مكريستال بزيادة القوات، كما أيدها الوزير غيتس والأميرال مولن، رئيس هيئة الأركان المشتركة.

بحلول أيار/مايو ٢٠١٠ كان زخم الجنود[2] في أفغانستان قد تجاوز ذلك الذي في العراق، ولم يحصل هذا سوى بعد إنقاص العدد بشكل كبير في العراق. حتى في ظل وجود ١٠٠ ألف جندي أميركي في أفغانستان فقد كانوا أقل بحوالي ٦٥ ألفاً مقارنةً بالعدد القياسي خلال الحملة في العراق. لكن المسألة كانت أبعد من أعداد القوات؛ فقد اعتقد بتريوس أن هناك تحفظاً حول كل ما هو ضروري للفوز في أفغانستان ـ القوات الخاصة وأنظمة الاستخبارات والمهندسين المدنيين ومحلّلي وزارة الخارجية الأميركية ومدرّبي القوات الأفغانية وأخصائيي إدارة العقود. فقد فهم المفارقة: بصفته قائداً في العراق، كافح للحصول على كل الإمكانات المتاحة، وحصل على معظم ما أراده. لكن هذا قد حرم القادة في أفغانستان ومناطق الصراع الأخرى مما احتاجوا إليه من الإمكانات

(١) الجنرال ستانلي أ. مكريستال، مقابلة أجراها المؤلف، ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٠، أرلنغتون، فرجينيا؛ الفريق ديفيد م. رودريغز، مقابلة أجراها المؤلف، كابول، أفغانستان، ١٥ نيسان/أبريل ٢٠١١.

(٢) Anthony H. Cordesman, “The Afghan War-Part One: Shaping the Campaign,” Center for Strategic and International Studies, September 8, 2010.

المشتركة الصعبة والمحدودة في الوقت عينه. والآن يتوجب على بتريوس محاربة البيروقراطية للحصول على تلك الإمكانات لساحة قتاله الجديدة. غير أنه اطمأن إلى أن مولن وغيتس قد أيّدا مطالبه.

بعد زيادة زخم الجنود في أفغانستان من ٣٢ ألفاً وثمانمئة إلى ٦٩ ألفاً في أول سنة له في سدة الرئاسة، أعلن أوباما في ١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٩ مخاطباً التلامذة العسكريين في الأكاديمية العسكرية الأميركية، أنه تصرف بناء لتوصيات من الجيش وغيتس وقرر إرسال ٣٠ ألف جندي إضافي ـ وهذه الدفعة الأخيرة لن تصل إلى البلد قبل أواخر آب/أغسطس ٢٠١٠، بعد أسابيع عدة من وصول بتريوس لمسرح المعركة، وهذا ما حصل فعلاً. لكن أوباما أضاف أنه بحلول تموز/يوليو ٢٠١١، سيبدأ انسحابٌ للقوات بوتيرة مرهونة بالظروف على الأرض.

ضاعف إرسال الجنود الجدد من زخم الحملة، التي استمرت بإحراز المزيد من التقدم. فعلى الصعيد العسكري، كانت طالبان تعاني منذ شهور من الخسائر الكبيرة التي أنزلتها بها قوات العمليات الخاصة ضمن مداهمات محددة استهدفت القادة، ومن القوات التقليدية التي كانت تنفذ عمليات تمشيط بأعداد غير مسبوقة. تمكنت القوات الأميركية والناتو من قتل عدد كبير من قادة الظل في طالبان وانتزاع سيطرة طالبان على عدد من المعاقل، بالرغم من أن بتريوس كان واضح القلق حول قدرة المتمردين على إيجاد مخابئ وإعادة تنظيم صفوفهم على طول الحدود مع باكستان. قبل «سقوطه» على يد مجلة رولنغ ستون[1]، نجح مكريستال في ٢٠٠٩ بخلق ثلاثة قيادات عسكرية جديدة بثلاث نجوم ـ الأولى لتدريب القوات الأفغانية، وكانت تحرز أهدافها، والثانية لتولي قيادة العمليات، والثالثة لمراقبة عمليات الأسر الأميركية وإعادة تنظيم السجون في أفغانستان والتركيز على تحسين النظام القانوني الأفغاني. أما النتيجة النهائية لزيادة القوات والإمكانات الأخرى فكانت بأنه سُجّل في منتصف الصيف، وفي ١٢٤ مقاطعة

(١) Micheal Hastings, "The Runaway General," *Rolling Stone*, June 25, 2010.

رئيسية، تراجعٌ للجيش في سبع مقاطعات وإحراز تقدّم في سبع عشرة مقاطعة.

كانت الظروف الصعبة التي واجهها بتريوس في «مرجة»، وهي معقل سابق لطالبان في ولاية هلمند خاضت القوات الأميركية فيها قتالاً ضارياً في شباط/فبراير وآذار/مارس، أفضل نموذج لما كان ينتظر قيادته بعدها مباشرة في قندهار، مسقط رأس طالبان. كانت الحملة على مرجة، العملية المشتركة، أضخم عملية عسكرية في أفغانستان منذ الهجمات الأولى التي شُنَّت على طالبان عام ٢٠٠١. لم يكن من الممكن حتى الانتهاء من تنظيف ذلك القطاع، وإحراز تقدم فعلي في باقي أنحاء ولاية هلمند. لكنها لم تقترب من كونها معركة بين جيشين متقابلين. قامت القوات بقيادة أميركية على تطهير تجمعات القرى الفقيرة منزلاً منزلاً، فواجهت جيوب المقاومة وخليطاً معقّداً من العبوات الناسفة. قام الآلاف من الأفغان بإخلاء منازلهم أو تقوقعوا داخلها. في الوقت الذي انتهى فيه القتال بعد أسبوعين، كان ثمانية جنود مارينز وجنديان أفغانيان وضابط شرطة أفغاني قد قتلوا. تعهّد المسؤولون الأميركيون بأن يأتوا بـِ«حكومة معلّبة» لتسريع تأمين الخدمات للقرويين وأعادوا حاجي عبد الظاهر من ألمانيا ليكون حاكماً على مرجة.

لكن عشية وصول بتريوس في تموز/يوليو، كان عبد الظاهر قد طُرِد لعدم كفاءته. بقيت مسألة حكومة محلية فاعلة هدفاً محيّراً، وبقيت مرجة عصيّة على القوات الأميركية. من الممكن أن يكون جزء من المشكلة قد تمثّل بتعليق الآمال على الحكومة في حين كان الإنجاز الفعلي عسكرياً محضاً، تمثل بضرْب معاقل طالبان وتهيئة المنطقة. لكن الضرر قد حصل، وحتى السفير ريتشارد هولبروك، المبعوث الخاص لأفغانستان وباكستان، كان مرتبكاً. «إن الحديث عن فشل مرجة غير دقيق[1]، ومن المبكر الحديث عن نجاح مرجة»، كما وصف. كان الصندوق الذي يفترض به احتواء حكومة المقاطعة موضع سخرية من كثير من المنتقدين كونه فارغاً.

(١) ريتشارد س. هولبروك، مقابلة أجراها فريد زكريا، سي أن أن، ٢٥ تموز/يوليو ٢٠١٠.

وصف بتريوس مرجة خلال جلسة استماعه أمام لجنة مجلس النواب للقوات المسلحة، بأنها «همزة الوصل» بين طالبان وتجارة المخدرات الممنوعة. فقد أشار إلى أن «العدو رد بالقتال عندما استولينا على معاقله... لم يكن ثمة شيء سهل في تلك العمليات، غير أنه لم يكن بإمكاننا التجوّل في أسواق مرجة قبل ستة أشهر كما تجوَّلتُ أنا وحاكم المقاطعة هناك قبل شهرين». لم يفصِح بتريوس عن شعوره بأن قيادة مكريستال قد أغدقت الوعود في مرجة ودفعت الثمن علناً عندما أصبحت السيطرة على البلدة الحساسة في هلمند أصعب بكثير من التوقعات التي زُرِعت في ذهن الشعب. كان بتريوس يدرك أن المعاقل المحيطة بقندهار سيكون من الصعب جداً بالتأكيد إحكام السيطرة عليها، ناهيك بمشقة القتال في المرتفعات القاسية والوعرة لمنطقة هندو كوش لجهة الشرق على طول الحدود مع باكستان. وبالفعل، فقد أصبحت الأسواق في مرجة من جديد أماكن خطيرة منذ زيارته، وقد عملت طالبان ما بوسعها لتعذيب ـ وفي بعض الأحيان إعدام ـ أولئك الذين تعاونوا مع الأميركيين. وقد تمتّع المتمردون الذين كانوا يذوبون بسهولة بين السكان، بحيّز من حرية التنقل نسبياً.

لم يكن التقدم البطيء في مرجة نذير خير لما عُبّر عنه دائماً بالمرحلة التالية للعمليات المشتركة: الهجوم على مدينة قندهار، شرقي ولاية هلمند. ولئن كانت مرجة أساساً هدفاً عسكرياً تم تحييده بنجاح، فقندهار كانت أبعد من هذا بكثير. كان سيتم تطهير معاقل حركة طالبان[1]، ومدينة قندهار، والمناطق المحيطة بها عسكرياً من قبل إيساف والقوات الأفغانية ثم يُصار بعدها إلى تهدئة الأمور فيها ويحكمها أفغان محليون بشكل فاعل، إذا ما تمكّن بتريوس من إحراز فوز فعلي على الأرض.

كان كويندينيستاس (COINdinistas) كما يسمُّون ـ معاونو مكافحة التمرّد في سائر المؤسسة العسكرية ـ التابعون لبتريوس، على استعداد للإفادة عما رأوه في أفغانستان، الإخفاقات والنجاحات على حد سواء، لأنهم كانوا يريدونه أن يعلم

(١) Brett Van Ess, "The Fight for Marjah: Recent Counterinsurgency Operations in Southern Afghanistan," *Small Wars Journal*, September 30, 2010.

ما الذي ينتظره. تعلّم بتريوس بحكم الخبرة أنه كان بحاجة لأتباعه لمساعدته على تقويم الوضع وصقل الخطط واتخاذ تدابير ومقاييس يفهمونها جميعاً ومن ثم تنفيذ الخطة.

كان هناك كثير من المشاكل العامة. فالحكومة الأفغانية غارقة في الفساد بالإضافة إلى أن العديد من وحدات الجيش الأفغاني لم تكن تستطيع القتال أو لم تكن تريد ذلك. ولم يكن بعض الحلفاء من الناتو أفضل حالاً. كما أن بعض وحدات الجيش الأميركي كانت أفضل من غيرها بشكل واضح في تنفيذ عمليات مكافحة التمرد، التي كان يصعب فهمها ممن انضم للجيش بسن التاسعة عشرة طلباً للإثارة التي تحملها المعارك الشاملة. انهمرت التقويمات الصريحة بعد مرور أقل من ساعة على إعلان أوباما بأنه رشح بتريوس ليحل محل مكريستال كقائد للحرب في أفغانستان. كان أول الغيث رسالة بريد إلكتروني من جملتين أُرسل من دوغلاس أوليفانت، وهو ضابط سابق في الجيش ويحمل شهادة دكتوراه في العلوم السياسية، ويشغل الآن منصب المستشار المدني التنفيذي في سآت في قطاع القيادة الشرقية في أفغانستان. عمل أوليفانت مع بتريوس عن قرب خلال غزو العراق، عندما كان برتبة مقدم: «أعلمني ما الذي يمكنني القيام به. أعتقد أنني سأعمل لديك من جديد».

رد بتريوس: «يمكننا البدء بأول عشر رؤى/توصيات[1]، دوغ. شكراً». كانت آراء أوليفانت حول تموضع القوات بين الناس وتعميم اتخاذ القرار حتى على أرض المعركة قد أصبحت مبادئ مهمة في حملة بتريوس في العراق. عندما وصل أوليفانت إلى المدينة خريف عام ٢٠٠٦، أوكل إليه رسم خطة لإحلال الأمن في بغداد. كان أحد رؤسائه في ذلك الوقت، اللواء جون ف. كامبل، قائد لواء الدعم في وحدة قيادة منطقة بغداد. وبهذا لم يكن أوليفانت قد عاد للعمل مجدداً في أفغانستان لدى بتريوس فقط، بل عاد من جديد ليعمل لدى كامبل، الذي كان

(١) الجنرال ديفيد بتريوس، رسالة بريد إلكتروني لِدوغلاس أوليفانت، ٢٤ حزيران/يونيو ٢٠١٠.

في الوقت نفسه قائداً للوحدة ١٠١ إيربون والقيادة الإقليمية الشرقية، التي شملت الولايات الشرقية والحدود الجبلية.

في العراق، شجع بتريوس أوليفانت الذي كان يدنوه بخمس رتب، على تجاوز سلسلة القيادة العادية والتواصل معه مباشرة. «أنت شاب لامع، وهذه أوقات استثنائية. سيكون أمامنا فرصة واحدة أخيرة في هذا، وعلينا أن نحدث فرقاً فعلياً فيها. أنت مخطّط المسعى الأساسي». كما خاطبه بتريوس عبر البريد الإلكتروني أثناء بدء غزو العراق، مشدداً على أهمية مواطني بغداد ـ «المساحة البشرية» ـ على أنها المساحة الأكثر أهمية. «نحن نضع الآن كل شيء على المحك[1] وعلينا أن نكون مدركين لذلك. فهذه ليست مصلحة كالعادة، وأنا متأكد من أنك على بيّنة».

كان أوليفانت مثل بتريوس، جندياً ـ باحثاً. كان يملك المهارات الفكرية والتحليلية لرسم إطار نظري لاستراتيجية المعركة. كما تشارك الرجلان شغفهما بفن تقسيم العمل بين المديرين والأفراد. ناقش أوليفانت في مقالة نشرت في ٢٠٠٦، كتبها مع الملازم أول إريك د. تشوننغ، بأن على الكتيبة القتالية أن تتحكّم في سائر المهارات المطلوبة لإنجاز عمليات مكافحة تمرد ناجحة. وقد فازت المقالة في مسابقة رعاها بتريوس ذلك العام حين ترأس الجهود لإنتاج كتيّب مكافحة تمرّد جديد لسلك الجيش/البحرية في فورت ليفنورث، كنساس. بعد ذلك بوقت قصير، عاد الرجلان إلى العراق ووضعا أفكارهما موضع التطبيق خلال الغزو.

كانت الرؤى العشر الأولى التي أرسلها أوليفانت لبتريوس عبر البريد الإلكتروني عام ٢٠١٠ بمثابة نقد هدّام لما كان سيتسلّمه القائد قريباً في

(١) تم اقتباس البريد الإلكتروني لِبتريوس في كل من كتابي: Linda Robinson's, *Tell Me How This Ends* (NewYork: Public Affairs, 2008), P. 123, and David Cloud and Greg Jaffe's, *The Fourth Star: Four Generals and the Epic Struggle for the Future of the U.S. Army* (New York: Three Rivers Press, 2009).

أفغانستان مع إيساف. فقد أكد أن القيادة المشتركة لإيساف، ومهمتها قيادة العمليات برئاسة الفريق ديفيد م. رودريغيز الّذي أوكلت إليه مسؤولية تنسيق كل العمليات الشاملة للولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي والقوات الأفغانية، كانت «مختلّة هيكلياً»، وتفتقر إلى الوسائل لتنسيق أنشطتها مع المدنيين التابعين للسفارة الأميركية. لم يكن هذا بمثابة إهانة لرودريغيز، كما قال أوليفانت، واقترح أن يعين بتريوس رودريغير نائباً له من قبيل المناورة. كما ذكر أن القيادة المشتركة عيّنت كثيراً من «المناطق الحساسة» في قيادة القطاع الشرقي وكانت أقرب إلى إحراز تقدم في عشرة منها على الأكثر. «لقد علمتني جيداً (قلّلْ من الوعود، وأكثرْ من الإنجازات). لقد خرقنا هذا المبدأ هنا».

اقترح إعادة النظر بصب الجهود العسكرية على قندهار في الجنوب، والتركيز بشكل أكبر على الشرق. كما ذكر أن لديه «مخاوف جدية» حول جهود تجنيد الشرطة الأفغانية وتدريبها، والتي لم يكن يعتقد أنها ستسفر عن نتائج مهمة بتاريخ الانسحاب المعلن في تموز/يوليو ٢٠١١. «كما أفترض أنك تعلم جيداً، فالسر الخطير في العراق أننا لم نقم يوماً بإصلاح الشرطة. بل جعلنا الجيش قوياً بما فيه الكفاية حيث لم يلاحظ ذلك أحد»، كما كتب. «أنا أؤكد أننا سنكون أفضل حالاً لو ركزنا على تدريب الجيش الأفغاني (نعرف جيداً كيف ندرب الجيوش، فنحن بدورنا جيش!)... وبالنتيجة فإن الإمكانات التي أغدقت لتعزيز الشرطة (بشكل عام ـ والاستثناءات كثيرة) لن تقدم شيئاً بحلول صيف ٢٠١١. إن لم يعد لذلك التاريخ معنى، فذلك يغيّر الأمور».

وتابع بأن هناك حاجة ماسة ليقوم القائد بتنقيح التوجيهات التكتيكية، في ظل شعور الانفصال «الواضح» للقوات عن كبار القادة.

كما أشار أوليفانت إلى المصاعب الكامنة وراء الطلب من الضباط اليافعين ومجنديهم تنفيذ عمليات مكافحة تمرد فعالة، ودعا إلى توظيف إمكانات أكبر نزولاً إلى مستوى استخبارات الجنود، كما فعل في العراق. فالنقباء والملازمون الذين يقودون هذه المخافر الأمامية البائسة بحاجة إلى إمكانات استخباراتية

بشرية وتقنية ودعم الشؤون المدنية وحتى المساعدة على إجراء عمليات نفسية. «يتم التعويل كثيراً على شخص في سن ٢٤ ـ ٢٩ بخبرة محدودة في الحياة بالنظر لما يُنتظر منه إنجازه»، كما أفاد، شارحاً أنهم بحاجة للمعونة في الشراكة مع الوحدات الأفغانية ومساعدة من الضباط الميدانيين الأعلى رتبة.

وفي الختام، أبلغ أوليفانت بتريوس بأن قواته كانت بحاجة للتركيز على جودة الحكومة المحلية، وأفضل تصرف يتمثل بتعيين ضباط تنفيذ السياسة الخارجية من وزارة الخارجية الأميركية للمساعدة على جمع المسؤولين المحليين في تركيبة الحكومة الوطنية، مع حكام الولايات والمقاطعات، التي كان يحكمها الرئيس قرضاي.

أوضح أوليفانت في رسالة بريد إلكتروني لاحق لبتريوس، أن المكان الذي يمكن أن تتشكل فيه حكومة فاعلة في أفغانستان هو على صعيد المقاطعة، حيث بالإمكان دمج السلطة التي تتركّز محلياً بيد القبائل وفروعها والعشائر مع وزارات وأقسام الحكومة الوطنية: «من الممكن أن يكون هذا أقرب شيء إلى النقطة الحاسمة والشاملة التي بين أيدينا»، كما كتب أوليفانت. وأضاف، عندما يحصل هذا الدمج بين المحلي والوطني ويلتقي حاكم معين من كابول بمجلس الشيوخ التقليدي، «يصبح بالإمكان الاعتراف بكل المصالح المشروعة واستيعابها حتى».

لطالما اعتبر بتريوس مساهمة أوليفانت بأنها تستدعي التفكير، على الرغم من أنه لا يتفق مع استنتاجه بأنهم فشلوا في إصلاح الشرطة في العراق. اعتبر بتريوس بأن الشرطة العراقية قد خطت خطوات كبيرة، حتى بعد إعادة تشكيل أوليفانت إلى الولايات المتحدة. إلا أنه اتفق مع أوليفانت في نواحٍ عديدة، من ضمنها الحاجة الماسة إلى ضباط السياسة الخارجية للمساعدة في توظيف المكاسب العسكرية في حكومة محلية أفضل. كان قد ألحّ، في الواقع ـ سوياً مع السفير كارل إيكنبيري في كابول ـ للحصول على مزيد من الدبلوماسيين وخبراء مدنيين آخرين، لكن كان على وزارة الخارجية أن توفّر العدد المطلوب كاملاً. وبالرغم

من إبداء إيكنبيري قلقه من نقص الدعم المدني للمجهود العسكري الضخم الذي يُبذل لإحلال الأمن في القرى وإعادة إعمارها، فقد تأخر رؤساؤه في واشنطن كثيراً للاستجابة: «إن إرسال المزيد من الفيالق العسكرية القتالية سوف يتطلب عشرات المليارات من الدولارات سنوياً على مدى السنوات القادمة، ولم يتم تفصيل المصاريف في بيانات وزارة الدفاع الأميركية»، كما كتب إيكنبيري في برقية قبل بضعة أشهر. «ومع ذلك فثمة طلب من السفارة هذا الصيف بزيادة مبلغ ملياريْ دولار في موازنتنا للتنمية والحكم تم تحليله ومناقشته بالتفصيل الممل، لا لشيء سوى لرفضه».

بينما كان يتهيأ ليتوجه إلى أفغانستان، نظر بتريوس إلى الحملة بشكل مبسط. فمفتاح النصر يكمن في حماية السكان المحليين، وليس فقط في قتل العدو. تلك كانت الرؤيا التي أكد عليها بتريوس مراراً وتكراراً. فقتل العدو كان من دون شك جزءاً أساسياً من عقيدته لمكافحة التمرد. لكنه كان يعلم جيداً أنه من دون دعم الشعب الأفغاني، من المستحيل إيجاد طريق لتجنب التمرد.

وقد حذر بتريوس أكثر من مرة ـ في القيادة المركزية والصحافة وخلف الأبواب المغلقة وفي مراجعات السياسة المختلفة خلال العامين الماضيين ـ أنه لم يعتقد يوماً أن الوضع في أفغانستان يمكن أن «يتبدّل» بالسرعة نفسها التي تمكّنت فيها جهود الولايات المتحدة من تبديل العراق. كانت الظروف مختلفة. لكن الرئيس أوباما كان حاسماً بخصوص تحديد تموز/يوليو ٢٠١١ كموعد يبدأ فيه سحب قوات الغزو الأميركية. لم يتوقع أحد نشر ديمقراطية غربية بين ليلة وضحاها في أفغانستان، ولم يكن الرئيس يطلب من بتريوس ذلك. لكنه أراده أن يخلق الظروف لدولة جاهزة تكون مقبولة: أفغانستان قادرة على تحقيق الأمن وحكم نفسها بكفاءة لتتلافى أن تصبح من جديد ملاذاً آمناً للقاعدة. كان أمام بتريوس سنة واحدة.

الفصل الثاني

أريد نتائج، أيها الفتى

نظر بتريوس من نافذة الطائرة ورأى جبال هندوكوش القاحلة البنية خارج كابول. شعر بوخزةٍ حادةٍ وعابرةٍ وهو يترقّب الهبوط الوشيك، على الرغم من أنه ألف المشهد. فقد سافر سابقاً إلى أفغانستان حوالى عشر مرات بصفته رئيس القيادة المركزية خلال العامين الماضيين، وسبق أن جاء هنا مرة قبل ذلك خلال مهمة تقويم خاصة لوزير الدفاع دونالد رامسفيلد عام ٢٠٠٥. فقد كان مدركاً التحديات التي كانت تنتظره في الأسفل، كونه عمل مع الجنرال مكريستال على خطة تقضي بتوظيف إمكانات ضخمة للمسرح المهمل والمتأزّم. وقد أصبحت الآن تلك التحديات من شأنه ليهتم بها.

حطت طائرته في كابول عند الغسق في ٢ تموز/يوليو ٢٠١٠. كانت رائحة احتراق النفايات تملأ الجو، وكانت الظلال عالية وقت غروب الشمس الذي سبق مساءً دافئاً وجافاً. نزل كلٌّ من سفير الولايات المتحدة كارل إيكنبيري والسفير مارك سيدويل والممثل المدني الأعلى للناتو في أفغانستان وبتريوس من طائرة C-40 باللونين الأزرق والأبيض، تغطي هيكلها عبارة «الولايات المتحدة الأميركية». شجع بتريوس نظراءه المدنيين على الخروج من الطائرة أولاً. ثم مشوا بخفة يرافقهم المعاونون وضباط الأمن نحو مروحيات بلاك هوك التي كانت جاهزةً لتأخذهم إلى المقر الرئيسي لإيساف على مسافة خمس دقائق طيران.

على الرغم من السفر مدة ست ساعات وخمس وأربعين دقيقة من المقر الرئيسي للناتو في بروكسل، فإن بتريوس كان مفعماً بالحيوية صباح اليوم التالي عندما التقى الأميرال غريغ سميث، نائب رئيس الأركان للاتصالات. وقد دوَّن سميث، الذي كان أحد المستشارين الإعلاميين لبتريوس خلال غزو العراق، ما لا يقل عن سبعة عشر توجيهاً من بتريوس على مفكرته الصغيرة قياس خمسة إنشات بسبعة. «نحتاج فقط إلى نشر أخبار مختصرة، لا يشكل معظمها الحدث لكنه يضيف إليه»، كما نصّت إحدى ملاحظات سميث. وذكرت ملاحظات أخرى «التعاون مع رؤساء المكتب، للحصول على عمدة جديد في البلد». كان بتريوس في حرب معلومات، فقد كانت الصحافة ستعمد على الأرجح إلى «تحليل» كل ما يصرح به هو والمكتب الإعلامي لإيساف، كما استنتج. كان من الضروري وضع سرد صحيح، لأنه من الممكن أن يكون الطريقة الأمثل لشراء الوقت. وكانت آخر ملاحظة شدّد عليها بتريوس لسميث: من الضروري أن نسعى من جديد لنكون «مع الحقيقة في المقام الأول».

كان فريق من القيادة المركزية قد وصل قبل بضعة أيام لتجهيز مقر بتريوس، وهو تجمع متلاصق من أربع حاويات كان يسميها الجنود «الكوخ». كانت الحاوية الأولى بعرض ثماني أقدام وطول عشرين قدماً تحوي دراجة تمرين ثابتة وشاشة تلفزيون مسطحة وثلاث طابعات ضخمة؛ والثانية فيها مكتبه وثلاثة حواسيب وأجهزة اتصال مهمة: هواتف سرية وغير سرية وأجهزة لمؤتمرات الفيديو وسائر أنواع التكنولوجيا المطلوبة لمواكبة الأحداث ـ وتكتكات الساعة ـ في واشنطن وكابول وعواصم أكثر من تسع وأربعين دولة تشارك في الائتلاف الذي يقوده الناتو. أما الثالثة فكانت عبارة عن غرفة نومه وتضم سريراً مفرداً وفراشاً قديماً وخزانتين صغيرتين وحماماً متصلاً مع دشّ صغير. أما الرابعة فكانت بيت معاونه. لم يكن هناك من مجال للمقارنة مع الڤيلّا التي كان يسكنها في بغداد ـ والتي أشيع أنها كانت تعود لوالدة صدام ـ أو المقر الجديد في تامبا الذي انتقل إليه مع زوجته قبل شهر فقط.

وفي أول بيان موجز «جريء» له عند الساعة ٧:٣٠ من صباح اليوم التالي، تعهّد بتريوس بإعادة النظر في التوجيهات التكتيكية، وهي وثيقة قدَّمت المبادئ التوجيهية المفصّلة حول استخدام القوة في المعارك، وقد صدرت قبل عام بالضبط ـ وتم تطبيقها بحذافيرها ـ من قبل سلفه مكريستال، المُسَرَّح حالياً. وقد شدّدت الوثيقة على ضرورة حماية الشعب الأفغاني ودعت إلى الحد من استخدام الدعم الجوي للإغارة على أهداف دقيقة، وكذلك استخدام المدفعية ضد المجمّعات السكنية. «يجب علينا تجنّب الوقوع في فخ تحقيق انتصارات تكتيكية ـ وتكبّد خسائر استراتيجية ـ من خلال إيقاع الإصابات بين المدنيين أو إحداث دمار كبير، وبهذا نخلق نفوراً لدى الشعب»، كما نصَّت.

وقد ثبت وجود إشكالية في التوجيهات التكتيكية. فمقالة رولنغ ستون التي أدت إلى سقوط مكريستال وجّهت نقداً لاذعاً للجنرال ومعاونيه، وصوّرتهمْ بشكل ساخر على أنهم «صبية أخوية الهرمون الذكري الفاسد» كونهم أهانوا أوباما وبايدن وهولبروك وإيكنبيري وحتى قرضاي، الذي نُقِل عنه اتفاق مكريستال معه علناً. لكن أطول فقرة في المقالة وصفت لقاء مكريستال مع مجموعة من الجنود في قاعدة أمامية قرب قندهار، كانوا يعتقدون أن توجيهاته التكتيكية والحظر القاسي على استعمال القوة الجوية كانا يكبلان أيديهم ويؤديان إلى مصرعهم.

وفي المقر الرئيسي لإيساف في كابول، ذكر بتريوس أمام أربعين ضابط أركان جلسوا إلى طاولتين بشكل حدوة حصان في غرفة الاجتماعات، أنه فهم مضمون رسالة الجنود. «إن التزامنا بتخفيض عدد القتلى بين صفوف المدنيين أمر محسوم، وهو موجب أخلاقي أدعمه بقوة»، مكرراً العبارات التي استخدمها خلال جلسة مجلس الشيوخ لتعيينه. «إلا أن هناك قلقاً لدى الجنود وبعض دولنا حول كيفية تطبيقنا للتوجيهات التكتيكية، ويجب معالجته». وشرح بتريوس أنه سيعتمد على قائده للعمليات الفريق ديفيد رودريغيز، لتقديم التوصيات. كما لاحظ بتريوس أن هناك «موجباً أخلاقياً للتأكد من أننا ندعم قواتنا بالكامل في القتال. إن الجدل القائم لا يدور حول تغيير قواعد الاشتباك؛ بل يتعلق بتنفيذ

التوجيهات التكتيكية بطريقة تقدم، لمن هم في وضع حرج من الجنود، الدعم الذي يحتاجونه أثناء القيام بكل ما يمكن لحماية الشعب الأفغاني».

سيعتمد بتريوس على رودريغيز بشكل كبير للإشراف على العمليات العسكرية. فقد أمضى رودريغيز وقتاً أطول في أفغانستان وكان يعرف البلد بشكل أفضل، نزولاً حتى مستوى الأرياف، أكثر من أي فريقٍ آخر في مسرح الأحداث. بقامته الطويلة وتجاعيده، وصل رودريغيز إلى أفغانستان لأول مرة عام ٢٠٠٧ كقائد فرقة، بمجرد أن عادت طالبان للظهور كتمرّد قوي. ثم أصبح المساعد العسكري الأعلى لوزير الدفاع غيتس، إلى أنْ عاد غيتس وأرسله إلى أفغانستان كنائب مكريستال صيف عام ٢٠٠٩. كان جزء من تلك المهمة يقضي بالنهوض بالقيادة المشتركة الجديدة لإيساف لتوحيد قوات الناتو والولايات المتحدة وأفغانستان. كما كان رودريغيز المهندس الرئيسي لخطة الحملة على مستوى العمليات والتي استلمها بتريوس. كان رودريغيز وبتريوس زميلين على مقاعد الدراسة في الأكاديمية العسكرية الأميركية وحافظا على صداقتهما الحميمة. وقد وصف مكريستال رودريغيز بأنه «أفضل قائد معارك عرفته يوماً[١]».

حدّد رودريغيز تسعين من أصل أكثر من أربعمئة مقاطعة في أفغانستان ـ تضم مراكز سكنية وأسواقاً ومحطات نقل ومراكز زراعية ـ كان يفترض السيطرة عليها لردع طالبان. كان التركيز الأهم ينصب على إقليم العاصمة حول كابول، ويأوي خمس الشعب الأفغاني، وهو أحد أكثر الأماكن أماناً في أفغانستان، وكانت بقعة الأمن تتمدّد جنوباً وشرقاً في وجه مقاومة شرسة من طالبان في بعض المناطق. كان التركيز في الشمال ينصب على ممر بغلان ـ كندز، وهو إقليم مكتظ سكانياً بمحاذاة شريانين تجاريين أساسيين. بقيت الأجزاء الغربية من البلد مستقرة نسبياً، أما بلدة هرات في ولاية هرات، في أقصى الشمال الغربي، فكانت مدينة صاخبة وخالية من العنف إلى حد بعيد، على الرغم من بعض المداهمات الدورية. وقد تركّزت معاقل طالبان في الجنوب الغربي في ولاية هلمند، وفي الجنوب في

(١) Greg Jaffee, "U.S. Is Losing s Savvy Leader in Afghan War Efforts," *Washington Post*, April 19, 2011.

قندهار وفي الأقاليم الشرقية التي تقع على الطريق المؤدي من المناطق القبلية الوعرة في باكستان إلى كابول.

كانت هلمند مركز أول ضربة لرودريغيز في آذار/مارس ٢٠١٠. كانت تُعد مركزاً لتجارة المخدرات الممنوعة في جنوب أفغانستان الخصب والتي كانت تموّل تمرّد طالبان. أما الآن وقد تم تطهير وسط هلمند، فسيقود بتريوس الضربة التالية، مركّزاً على قندهار والمقاطعات المحيطة بها، مسقط رأس حركة طالبان. وبمجرد أن يتم اجتثاث طالبان هناك، فسيصب بتريوس تركيزه في عام ٢٠١٠ على الشرق والمناطق الجبلية المحاذية للحدود الباكستانية، أكثر الأماكن صعوبة من الناحيتين البشرية والطبيعية. فهناك، كان قد تم التخلّي بالكامل عن استراتيجية سابقة للسيطرة على الممرات الجبلية المقفرة بنشر شبكة نائية من القواعد الأمامية القتالية. فقد أفسحت المجال أكثر أمام عمليات محدّدة الهدف ترمي إلى إغلاق «معابر الهرب» للمتمردين على طول الحدود ونشر قواعد دفاعية ضد أولئك المتمردين الذي تمكّنوا من العبور.

استهل بتريوس ملاحظاته للموظفين في المقر الرئيسي لإيساف بإشارة مديح لمكريستال. «يسرني أن أكون هنا، لكن يؤسفني أن أكون هنا في ظل هذه الظروف»، على حد قوله. «أحترم ما حققه الجنرال مكريستال، المساهمة والنتائج، وسوف نكمل الكثير من عمله». لكنه كان يعلم أن التوجيهات التكتيكية لمكريستال لم تكن المسألة الوحيدة التي يقتضي معالجتها، بناءً على ما سمعه من أشخاص أمثال دوغ أوليفانت حتى قبل مغادرته واشنطن. برز تصرّف من أول تصرفاته كقائد للحرب في أفغانستان ذلك الصباح حين أعلن أن تصفح البريد الإلكتروني أو الإنترنت خلال موجز الصباح ـ وهو تصرف لم يكن مكريستال يغض الطرف عنه فحسب، بل كان يمارسه بنفسه على ثلاثة حواسيب محمولة في الوقت نفسه ـ هو أمر غير مقبول. عند ذلك، ملأت الغرفة أصوات جوقة طرطقة جراء إغلاق أكثر من ستين حاسوباً محمولاً[1].

(١) الجنرال ديفيد هـ. بتريوس، مقابلة أجراها المؤلف، كابول، أفغانستان، ١٢ نيسان/أبريل ٢٠١١.

لم يكن ممكناً إغفال أوجه الاختلاف بين بتريوس ومكريستال. فالرجلان، كانا نحيلين أو حتى هزيلين لكنهما سَلِيمان جسدياً بشكلٍ واضح ومواظبان على الجري. كلاهما كان من خريجي الأكاديمية العسكرية الأميركّية ولديهما شغف بالقراءة، وكلاهما استقطب المريدين المخلصين من بين الضباط اليافعين الطموحين، وكلاهما كان ينفتح على الأفكار الجديدة ويملك شعبية عند المراسلين الصحفيين. لكن غاب عن الجميع في واشنطن الحقيقة ـ التي ستظهر لمن هم على الأرض في أفغانستان ـ أنه تم إطلاق قوة استراتيجية جديدة في كابول: عزيمة بتريوس.

كان والده يقول، «أريد نتائج، أيها الفتى!». لم يكن يكترث للأعذار. فالفتى الموهوب بشكل خارق حقق النتائج، سواء كان بالفوز في مسابقة فتى توزيع الصحف عندما كان مراهقاً أو تسجيل هدف الفوز في مباراة حرجة لكرة قدم في الثانوية العامة أو عندما أصبح رئيس جوقات الشبيبة الدينية المسكونية في كورنوال، نيويورك، على مسافة سبعة أميال فقط من الأكاديمية العسكرية الأميركية، فقد أثبت بتريوس قيادته مبكراً. وجاء مبدأ «لا أعذار» الذي طبّقه سيكستوس بتريوس مع ابنه نتيجة خبرته كضابط على سفينة هولندية ولاحقاً كنقيب على سفينة في الأسطول التجاري الأميركي خلال الحرب العالمية الثانية. لم يترك سيكستوس هامشاً كبيراً للخطأ بخصوص أداء الشاب بتريوس في المدرسة أو الرياضة أو المنزل، نظراً لهذه المعايير المرتفعة نسبياً. ستؤدي رغبة بتريوس في إرضاء والده، إلى خلق رغبة لديه بالتفوّق. كان والده كمالياً حازماً مستعداً لفعل أي شيء لابنه لكنه كان يضع عاطفته في قالب «حب خشن»، كما يصفه بتريوس. على الرغم من ذلك، كان يكن الاحترام لوالده ويستمتع بسماع قصصه في الجيش.

كان والد بتريوس على متن سفينة هولندية في البحر عندما غزت ألمانيا هولندا في أيار/مايو ١٩٤٠. وقد نُقل عن نسيبة بتريوس الوحيدة، شقيقته الكبرى كارول، قولها أن سفينة والدهم كانت قد رست في مدينة نيويورك عندما وصلته

الأنباء بأنه تم اجتياح هولندا. لم يكن هنالك من سبيل للعودة إلى هولندا. وقد استُقبل هو وطاقمه بحفاوة في نيويورك خلال احتفال للجنود والبحارة في قاعة احتفالات لمعهد كنيسة البحارة. كانت ميريام هاول الأنيقة والجميلة واحدة من منظمي الاحتفال الذين التقاهم، وهي أمينة مكتبة أنهت دراستها في أوبرلين كوليدج في أوهايو. تزوج سيكستوس وميريام في نيسان/أبريل ١٩٤١ في كنيسة الأبرشية في أوشن أفينيو في بروكلين، نيويورك. بعد ذلك بوقت قصير، تعاقد سيكستوس ومعظم زملائه البحارة مع البحرية التجارية للولايات المتحدة، وأصبح في النهاية مواطناً أميركياً.

تعود أصول عائلة سكستوس الذي وُلِد قرب روتردام إلى منطقة فرايزلاند، في القسم الشمالي من هولندا. تميزت هذه المنطقة عن باقي محافظات البلد الإحدى عشرة، من حيث لهجتها الخاصة وإنتاجها الزراعي الكبير والانتشار الكثيف للطواحين الهوائية. «أنا لست هولندياً، أنا من فرايزلاند»، كما كان يخبر سيكستوس أصدقاءه الجدد في المجتمع بحزم، وبلكنته الثقيلة.

من جهة والدته، فقد كان ديفيد بتريوس إنجليزياً. كان الجد الأكبر لميريام هاول من نبلاء وستبيري مانور، حيث وُلِد ابنه إدوارد هاول، جد الجد الجد لميريام عام ١٥٨٤. هاجرت عائلة إدوارد هاول من نيو إنجلاند ضمن «الهجرة الكبرى» من حملة التطهير الإنجليزية، وحطت رحالها في لين، ماساتشوستس، في ثلاثينيات القرن السادس عشر.

بعد أن حصل على جنسيته، وجد سيكستوس وطناً جديداً بسرعة. فقد كانت البحرية التجارية الأميركية بحاجة ماسة إلى بحارة ذوي خبرة. وكانت تفقد بحارة أسرع مما كان بإمكانها تخريجهم. رُقّي سيكستوس بحكم خبرته ومهاراته باللغة الإنجليزية في السنوات اللاحقة وتقدم بسرعة في المرتبة، حتى أصبح قبطاناً في النهاية عام ١٩٤٥. كان واحداً من بين فيلق البحارة التجاريين الحائزين على الأوسمة، والذي سيقوم الروس في وقت لاحق بتقليده ميدالية الإنجاز ـ وأحد أسباب استحقاقه لها كونه نجا خلال رحلة قافلة إلى مورمانسك، وهي مهمة

في غاية الخطورة حيث جرت العادة على إغراق عدد كبير من السفن من قِبَل الغواصات الألمانية التي تنفذ عملياتها من المضائق النروجية.

بعد انتهاء الحرب، انتقل سيكستوس وميريام إلى كورنوال ـ أون ـ هادسون، وهي «مجتمع نورمان روكويل» بمحاذاة هادسون ريفر وفيه كنيسة بيضاء صغيرة لها برج على الطريق العام للقرية. كان الاثنان ناشطين في كنيستهما، وكانا يدفعان ثمن كل شيء يشتريانه نقداً، بما في ذلك منزلهما، وبقيا بعيدين عن الأنظار فيما خص السياسة المحلية.

كانت مهنة سيكستوس في البحر تعني أنه لن ينجب أطفالاً هو وميريام حتى وقت لاحق. وُلِدت كارول عام ١٩٤٧، وديفيد عام ١٩٥٢. كانت حياتهما البسيطة في كورنوال تحوي قليلاً من المغامرات بين الفينة والأخرى والكثير من رحلات التزلج إلى الساحل الشرقي (بقي سيكستوس عضواً في نادي تزلج المنحدرات وهو في السبعينات من عمره)، ورحلات التخييم في متنزّهات الدولة المحلية، ورحلات إلى مواقع تاريخية في نيو إنجلاند زاروا خلالها كونكورد ووالدن بوند وأبعد من ذلك، وقرأوا مقتطفات من كتب التاريخ والأدب على طول الطريق. كان الفناء الخلفي لمنزل بتريوس يحوي حبالاً للتسلق وقضيباً لتمرين سحب الجسم إلى أعلى، شبكة التقاط كرة البيسبول، وطارة كرة سلة ومعدات رياضية مختلفة؛ وكان هناك دائماً كرات قدم ومضارب بيسبول على الأرض. كان المنزل البسيط المؤلف من طبقتين وحمام وأربع غرف نوم يغص بالكتب والصحف. وكانت والدة بتريوس شديدة العناية وميالة إلى القلق لكنها كانت تعشق أطفالها، وبحكم عملها كأمينة مكتبة ومعجبة بتشارلز ديكنز وروايات قديمة أخرى، فقد اعتنت عناية كبيرة بنمو بتريوس الفكري. أرادت ميريام لابنها أن يذهب إلى أوبرلين كولدج، حيث حازت هي وسائر أبناء عمومتها على شهاداتهم. لكن بالنسبة لفتىً يترعرع على مسافة سبعة أميال من الأكاديمية العسكرية الأميركية، فقد كان إغراء الأكاديمية لا يُقاوَم.

كان مدرّب بتريوس لكرة القدم قائد فريق الأكاديمية العسكرية الأميركية، كما

كان معلمه للرياضيات يعطي دروساً في الأكاديمية. وكان مدير مكتب الدخول يقطن عند الزاوية، وكان بتريوس يوصل له الصحف. واعَدَ بتريوس خلال الثانوية العامة ابنة ضابط في القوات الجوية في البلدة وتأثر بسلوك والدها. كانت مسألة شبه محسومة أن يصبح تلميذ ضابط.

ركب ديفيد بتريوس سيارة العائلة مع والديه في ١ تموز/يوليو ١٩٧٠، وقاد مسافة الأميال السبعة من كورنوال إلى الأكاديمية العسكرية الأميركية من أجل يوم الاستقبال للصف الوافد من تلامذة الضباط الجدد. وقد تم نقله إلى الفرقة C-1 «تشارجينغ تشارلي».

على الرغم من معرفته بحبه للمرح من قبل أقرانه، فقد كان بتريوس يسعى للتفوّق. أما شريكه في الغرفة كريس وايت، فقد قرّر متابعة مسار التحضير لكلية الطب، أحد أكثر البرامج الأكاديمية صعوبة في الأكاديمية العسكرية الأميركية، والتي قدّمت منحاً دراسية لكلية الطب لحوالي عشرة من المتخرجين الأوائل. قرر بتريوس بروح التنافس المفرط الانضمام إليه، ليس لأنه كان يرغب بأن يصبح طبيباً، كما أدرك فيما بعد، بل لأنه وجد المنافسة لا تُقاوَم. «لقد كانت قمة إيفريست مقارنة بالمسارات الأكاديمية»، كما استذكر. نادراً ما بقي بتريوس مستيقظاً بعد إطفاء الأنوار الساعة ١١:٣٠ مساءً؛ فقد كانت وتيرة يوم الأكاديمية العسكرية، الذي كان يشمل بالنسبة له التنافس بين الكليات في كرة القدم وفرق التزلج، تنهكه فيخلد للنوم حال إطفاء الأضواء.

في الوقت الذي كان فيه من طلاب السنة الأخيرة، كما يُطلَق على التلامذة الأقدم، صعد نجم بتريوس إلى أول ٥ بالمئة من صفه بالاستناد إلى أدائه في القيادة والرياضة والعلوم الأكاديمية، وهي الميادين الثلاثة التي يتم فيها تمييز التلامذة عن أقرانهم. ذاع صيته هو ووايت، شريكه في الغرفة مجدداً خلال الفصل الأخير من السنة الأخيرة، لأنهما أشد التلامذة عزماً في فرقتهم. «أعتقد أن كل تلميذ ضابط تساوره الشكوك حول الانضباط في الأكاديمية العسكرية الأميركية في وقت ما خلال السنوات التي يقضيها هنا»، كما قال التلميذ بتريوس في

ذلك الوقت وهو يبتسم ابتسامة عريضة. «لكن مع مرور الوقت[١] يُبرز الانضباطُ المفروض الانضباطَ الذاتي عند كل تلميذ، وأعتقد أن هذا فيه كثير من النفع».

في حين بقي وايت مصمماً على أن يصبح طبيباً، أدرك بتريوس أن ما يريد القيام به فعلاً «هو أن يحمل رفاقه في السلك على الخدمة في صميم المؤسسة العسكرية، أي وحدة المشاة القتالية». كان يفرض الانضباط على نفسه ليكون الأفضل في المشاة، وقد أخبر لاحقاً صديقته السابقة من كورنوال، إيلن شميتشغر، أنه «أراد أن يقود الجيش» في يوم من الأيام.

يعود هذا الإلهام بالانضمام إلى المشاة في جزء منه إلى قول مأثور من الأكاديمية العسكرية: «معظم التاريخ الذي ندرّسه صنعه أشخاص قمنا بتعليمهم». فمعظم أولئك الأبطال الذين درس عنهم في حصص التاريخ في الجيش ـ ماك آرثر وأيزنهاور وريدجواي وغالفين من بينهم ـ تخرجوا من فُرق المشاة. وغالباً ما صعد رجال المشاة إلى أعلى المراتب في الجيش. في الوقت الذي اختار رفاق صفه فرعهم ومهمتهم، كان يعلم أنه يريد الحصول على وسام الجوّال، وأن يصبح من جنود سلاح الجو إيربورن ويخدم خارج البلاد. وأدرك أن مرتبته من بين الأوائل في صفه ستسمح له بأن يبدأ مساره المهني على الطريق الأقرب إلى القمة. مع الوقت، سيصبح بتريوس الأول في صفه في كلية الجوّالة وسيقود وحدات عدة في سلاح الجو.

كان وايت تنبّئياً في الوصف الذي أعطاه لبتريوس في حَوْلية الأكاديمية العسكرية الأميركية عام ١٩٧٤، مستخدماً الاسم المستعار الذي كان قد التصق بِـ«بتريوس» منذ أيام ليتل ليغ: «جاء بيتشز peaches إلى الأكاديمية العسكرية بطموحات عالية، لكن على عكس الجميع، فقد حقّق أهدافه. كونه مكافحاً لأقصى الحدود، فقد كان ديف متميزاً على الدوام في الرياضة والعلوم الأكاديمية والقيادة، وحتى في حياته الاجتماعية. هذا السلوك سيؤدي لا محالة إلى النجاح في المستقبل، في الجيش أو في غيره».

(١) Martha Schiff, “Two Friends from Cornwall Join the Long Grey Line,” *The Cornwall Local*, December 19, 1973.

كانت الإشارة إلى حياته الاجتماعية إيماءةً إلى خطوبته من هوليستر نولتون، ابنة المشرف على الأكاديمية العسكرية، والمفكّر العسكري الذي تميّز على أرض المعركة في الحرب العالمية الثانية وفييتنام. في خريف عام ١٩٧٣، كانت هولي نولتون في السنة الأخيرة لها في ديكينسون كولدج. وكانت فتاة جميلة وذكية وظريفة، وقد أنهت كتابة أطروحة تخرجها بجدارة حول فرانسوا مورياك، الروائي الفرنسي الحائز جائزة نوبل. خلال إحدى الزيارات في نهاية الأسبوع لكرة قدم في الأكاديمية العسكرية، كان صديق للعائلة يأمل بأن يعرّفها إلى أحد التلامذة الضباط ليصطحبها إلى المباراة. لكن نظراً لأنه كان يواعد إحدى الفتيات، فقد تم اللجوء إلى المقر الرئيسي لكتيبة التلامذة الضباط لإيجاد بديل، وهو مساعد معاون الكتيبة في الخدمة: ديفيد بتريوس. من دون أن يعلم من كان مواعده المجهول، فقد وافق على تلبية نداء هذه المهمة الحساسة نوعاً ما. وبسرعة، سيجد الاثنان أنفسهما يُعرّجان، أحدهما على كلية الآخر، كلما سمح الوقت، وفي بعض الأحيان كانا يتحدّيان عواصف نيويورك الثلجية العاتية ليقضيا الوقت معاً. كان بتريوس يتسلّل من الباب الجانبي لمنزل المشرف بمحاذاة السهل، وهو ميدان الاستعراض العسكري في الأكاديمية، ليقابل هولي كلما عادت إلى الأكاديمية العسكرية. وقد حافظ الاثنان على أولويتهما بالتخرّج من بين الأوائل في صفهما، وقد تمكن كلاهما من ذلك: تخرج بتريوس بالمرتبة الأربعين في صفه، «نجم» من بين أول ٥ بالمئة، نقيب تلميذ في الملاحة الجوية وحائز أحرف فريق الكلية الرياضي، في حين كانت هولي على لائحة الشرف وعضو في جمعية فاي بيتا كابا، مع جدارة في كلتا اللغتين الفرنسية والإنجليزية. تزوج الاثنان في ٦ تموز/ يوليو، في كنيسة كاديت تشابل في حرم الأكاديمية العسكرية، بعد شهر من استلام بتريوس مهامه من الجنرال نولتون بصفته ملازماً ثانياً في جيش المشاة.

كان ديفيد معجباً بتربية عروسه الأرستقراطية العسكرية. بالنسبة لبتريوس، كانت مرتبة عائلة هولي مثيرة للاهتمام. وقد أحب أن يكون جزءاً منها. كان أجداد هولي ذوو العلاقات المميزة والنافذون يمتلكون مجمعاً كبيراً في وست

سبرينغفيلد بنيو هامبشاير، وميناء على بحيرة قريبة كانوا يتردّدون إليه دائماً. أما والد هولي، الجنرال نولتون، فهو من عائلة معروفة وميسورة في ماساتشوستس، وقد تخرج سابعاً على صفه في الأكاديمية العسكرية. قاتل في أربع حملات خلال الحرب العالمية الثانية، بدءاً من النورماندي. في الأسابيع الأخيرة للحرب، تم تقليده وسام النجمة الفضية لقيادة مهمة استطلاعية متوغلاً خلف خطوط الألمان ليُجري أول اتصال مع القوات السوفييتية شمالي برلين. بعد الحرب، وحين اشتدت وطأة الحرب الباردة، كان واحداً من بين عدة ضباط تم اختيارهم لمعاونة اللواء آيزنهاور في تأسيس المقر الرئيسي للناتو في باريس. ثم خدم نولتون لاحقاً مدة عامين بأمرة الجنرال ويستمورلاند في فييتنام، حيث زار كل الأقاليم بصفته مسؤولاً رفيعاً في العمليات المدنية وبرنامج دعم التنمية الثورية، وقاد القوات المقاتلة في دلتا ميكونغ. لدى عودته إلى البنتاغون، عمل نولتون على إجراء تحقيق جدي في مجزرة ماي لاي. بعد ترقيته لثلاث نجوم في الأكاديمية العسكرية، تقاعد عقب ثلاث جولات برتبة لواء بأربع نجوم. سيصبح «العراب العسكري» لبتريوس، حسب بيغي زوجة نولتون. سيكون بتريوس بمنزلة «ابن رابع» لهم، كما سيروي الجنرال نولتون له حكايات عن قتاله ضد النازيين والفيتكونغ بعد أن أثبت بتريوس نفسه كتلميذ ضابط.

كان بتريوس متحمساً للقتال والفوز في أنواع الحروب التي كان يصفها نولتون خلال مآدب العشاء في منزل المشرف «كوارترز ١٠٠» أحد أكثر المباني تميزاً في الأكاديمية العسكرية. كان الجلوس على طاولة العشاء الطويلة المستطيلة في المنزل الأثري الخلّاب شرفاً يناله نجوم الأكاديمية الصاعدون، وكان العشاء دائماً حصة إضافية لعشاء المعسكر. بدأت بوادر اهتمام بتريوس بمسألة «الحروب المضنية» في الأكاديمية العسكرية خلال مآدب العشاء تلك. ولم يكن هناك حصص إلزامية في الأكاديمية العسكرية ذاك الوقت حول حرب مكافحة التمرد.

حصّنت الحياة في الأكاديمية بشكل عام تلامذة الضباط من موجة مناهضة الحرب التي سادت في ذلك الوقت، وسعى نولتون ليرسخ لدى التلامذة فضائل

التسلح، حتى في الوقت الذي كان فيه الجيش يلامس الحضيض بعد حرب فييتنام. في تاريخه الشفهي، نُقِل عن نولتون قوله إنه كان «قائد حظيرة يحيط بها الهنود الغزاة».

خدم نولتون بصفته المشرف التاسع والأربعين في الأكاديمية. فقد رضخ لقرار ويستمورلاند بتشكيله إلى الأكاديمية العسكرية خلال أربع وعشرين ساعة إثر مغادرة الجنرال سام كوستر، الذي تلطخ سجله بسبب تورطه في مجزرة ماي لاي. كان ويستمورلاند يريد من نولتون أن يؤسّس لبعض «التناغم» ويحسن التواصل بين البنتاغون وأقدم أكاديمية عسكرية في الدولة، خاصةً بعد أن بدأ الجيش بالنهوض الذي تلا مستنقع فييتنام. لم يكن التعاقب المتسارع للمشرفين والخلافات الشخصية المعتادة بينهم وبين رؤساء الأركان في الجيش بادرة جيدة لكتائب التلامذة؛ وقد ارتأى ويستمورلاند أنه لو بقي نولتون لمدة أربع سنوات، فبإمكانه المساعدة على استقرار مبادرات القيادة المهمة في هذه الفترة الانتقالية في الأكاديمية. وقد خدم ويستمورلاند نفسه كمشرف وكان لديه ضعف تجاه الكتائب واهتمام بالغ بكل ما يجري في الأكاديمية العسكرية الأميركية.

كان نولتون عازماً على إدارة الأكاديمية العسكرية بشكل مختلف عن أسلافه. فمنذ لحظة وصوله، بادر إلى كتابة مذكّرات مطولة للبنتاغون، وفي بعض الأحيان بشكل يومي. وفي تلك المذكّرات، لم يكن يطلب الإذن لإدارة الشؤون بالطريقة التي يراها مناسبة. وبدلاً من ذلك، كان يشرح المسائل الحساسة التي تواجه الكلية ووصف كيف خطّط للتعامل معها. بدأ بتريوس بصياغة النمط نفسه من «تحديث القائد» لرئيسه حين كان في البوسنة وحمل التقليد معه إلى العراق والقيادة المركزية وأفغانستان.

أبعد نولتون تلامذته عن السلبية التي تحيط بفييتنام بجزء منها عبر مشاركتهم قصصاً عن تجاربه الشخصية الإيجابية هناك. كانت مبادرة العمليات المدنية ودعم التنمية الثورية هي برنامج الولايات المتحدة الرئيسي للتهدئة. وتمثّلت مهمة

العمليات المدنية ودعم التنمية الثورية بثلاثة اتجاهات: تحقيق الأمن للسكان المحليين وتدمير البنى التحتية للمتمردين وبناء قدرة حكومية فيتنامية، والقيام بكل هذا على نطاق واسع بما يكفي ليكون حاسماً. ستصبح هذه المفاهيم لاحقاً جزءاً من استراتيجية بتريوس للغزو في العراق.

عندما كان من موظفي ويستمورلاند، كان هدف نولتون زيارة ما أمكنه من الأقاليم في فيتنام، لجمع المعلومات ووجهات النظر المحلية من الكتائب العسكرية. فقصد الأرياف ليظهر اعتناء الحكومة المركزية بحياة فرقه وسكان المنطقة. ستقوم هذه الفرق بجمع «الظواهر» ومن ثم البدء بمشاريع مطلوبة محلياً لتحسين مستوى المعيشة، والتي كانت تشمل بناء منشآت طبية ومدارس وجسور. ساعد هذا المستوى من فهم العوامل المحلية الاجتماعية والاقتصادية نولتون في تأسيس نظام تقييم هاملت، وهو مبادرة لجمع معايير مستويات الأمن في سائر المناطق الجغرافية شبه الإقليمية.

لكن المقاييس تكون في حالة فوضى خلال مكافحة التمرّد، كما تكشَّف لنولتون وبتريوس خلال قيادتهما المتعاقبة للجيش.

عندما وصل بتريوس إلى أفغانستان[1] بعد أن أكمل دراسة الاقتصاد الحديث والعلاقات الدولية في جامعة برينستون، كان قد جمع كثيراً من الإحصاءات والبيانات التي تساعده على فهم ظروف الحرب. كما أدرك أن بإمكان القائد تحسين «الوعي الوضعي» وفهمه للظروف المحيطة في مواقع مختلفة، بالوصول إلى أولئك الذين في الميدان. فقد تم تلقينه تقنيات تحقيق الوعي الوضعي على يد نولتون ومستشارين قدامى، والآن يعمل على تطبيقها من خلال تركيز جهود ثماني عشرة ساعة من يومه، قضى جزءاً منها بالتواصل مباشرة مع الجنود والمفكرين والصحفيين في الميدان، في مواقع تمتد من المخافر الأمامية النائية

(١) الجنرال ديفيد هـ. بتريوس، مقابلة أجراها المؤلف، كابول، أفغانستان، ٣ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١١.

في ولايتي كُنَر ونورستان على الحدود الباكستانية شمال شرق أفغانستان، إلى المعارك الرئيسية في ولايتي هلمند وقندهار إلى الجنوب الغربي.

كان يعي بمرارة أنه لم يكن يعرف أفغانستان عن كثب كما عرف العراق عندما تسلم قيادة الغزو في بغداد عام ٢٠٠٧. وقد لاحظ آخرون هذا الأمر أيضاً. كان قد سبق أن أمضى سنتين ونصف السنة على الأرض عندما وصل ليقود الغزو. وكان لديه فريق من المقربين المطّلعين على وضع العراق أيضاً. وإذا ما أجرينا مقارنة، فقد كان هذا بمرتبة مبتدئ في أفغانستان. كان قد زار البلد مرات عدة لكنه لم يعِش هناك أبداً. وباستثناء معاونه العسكري، لم يكن لدى أحد في الفريق المصغّر الذي أحضره معه من القيادة المركزية خبرة حول انتشار الجنود هناك: لا النائب التنفيذي له، ولا مدير مجموعة مبادرات القائد، ولا قائد فصيلة الأمن الشخصي، ولا الضابط الشخصي للعلاقات العامة. وقد ثمَّن بتريوس ولاءهم وقدرتهم على تحليل رؤيته أكثر من خبراتهم الخاصة. فقد اعتبر أنهم جميعاً سيكتسبون ذلك مع الوقت، وسيعتمدون حتى ذلك الحين على القادة الذين يتبعونهم والمساعدين الشخصيين وموظفي المقر الرئيسي، الذين يمتلكون خبرة في أفغانستان كان قد ورثها وسيوصلها أيضاً إلى «عيونه الساهرة».

في هذه الأثناء، عمد مباشرة إلى بناء أكثر علاقتين مهمتين: الأولى كانت مع السفير إيكنبيري، الذي كان هناك نوع من التوتر المهني منذ زمن بينه وبين الجيش في كابول. وقد ظهر إيكنبيري في الأخبار في الآونة الأخيرة لخلافه مع مكريستال. والثانية كانت مع الرئيس قرضاي، الذي التقاه بتريوس شخصياً عدة مرات في كابول وواشنطن، والذي كان على تواصل مستمر معه عبر الهاتف من الولايات المتحدة.

كان هناك أمور مشتركة عدة بين بتريوس وإيكنبيري، وهو فريق متقاعد في الجيش تخرج في الأكاديمية العسكرية الأميركية ومدرسة الجوّالة. لم يكونا صديقين حميمين، لكنهما لم يكونا خصمين أو عدوين على الإطلاق. عمل بتريوس مع إيكنبيري كثيراً خلال السنوات الماضية، وكان معجباً بخدمة إيكنبيري

الطويلة ومعرفته بأفغانستان. وقد ذكر أحد معاوني بتريوس أن الرجلين عازمان على العمل سوياً، ووضع التوتر العسكري ـ المدني الماضي وراء ظهريهما. وكان بتريوس دعا إيكنبيري للسفر مع الفريق من المقر الرئيسي للناتو في بلجيكا إلى كابول. «هذا يتعلق بخلق ثقافة التعاون المنظم»، كما استرجع المعاون. «كان يؤسس لنهج معين: سنعمل سوياً».

بعد تسريب برقيات انتقاد إيكنبيري لقرضاي عام ٢٠٠٩، انصب تركيز قرضاي على التذمّر من إيكنبيري. كان الرئيس الأفغاني سيعيد طرح مسألة البرقيات وتدخل إيكنبيري المفترض في الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٩ مع المسؤولين الزائرين، بمن فيهم بتريوس، خلال مسار السنة التالية. وعلى الرغم من إبقاء بتريوس وإيساف على علاقات جيدة مع السفارة، إلا أن بتريوس وجد رد فعل قرضاي الغرائزي حيال إيكنبيري قد حال دون تعامل الجنرال بالطريقة التي تعامل بها مع السفير كروكر في بغداد. فهناك، كان بتريوس وكروكر يحضران كل الاجتماعات مع رئيس مجلس الوزراء العراقي المالكي سوياً ليقدما نموذجاً موحداً. في النهاية، لم يعد بتريوس يدعو إيكنبيري إلى معظم اجتماعاته الشخصية مع قرضاي نظراً لجو التوتر الذي كان يسود عند حضوره، كما نُقِل عن معاوني بتريوس. مع الوقت، وجد بتريوس أن الاجتماعات الثنائية مع قرضاي كانت الأكثر إنتاجاً.

في احتفال الرابع من تموز/يوليو الذي أقيم يوم ٣ تموز/يوليو، اليوم الذي سبق تسلّمه القيادة، سعى بتريوس لإيصال الرسالة الصحيحة خلال تصريحه أمام الموظفين المجتمعين والضيوف الأفغان. «التعاون لم يعد خياراً»، كما ذكر بحزم. «سواء كنا مدنيين أم عسكريين، أفغاناً أم دوليين، فنحن جزء من فريق واحد في مهمة واحدة.... وأنا أعلم أنكم كلكم تتشاركون الالتزام الثابت بحس العمل الجماعي الذي نتشاركه أنا والسفير إيكنبيري. هذه مهمة قاسية. ليس هناك من شيء سهل فيها. لكننا بالعمل سوياً، يمكننا إحراز تقدم، ويمكننا تحقيق أهدافنا المشتركة». تمّ اجتماع بتريوس الأول مع قرضاي عصر ذلك اليوم في

القصر الرئاسي. وحضر كل من إيكنبيري والسفير سيدويل بالإضافة إلى عدد من الوزراء الأفغان الأساسيين. ولم يكن جو الاجتماع إيجابياً جداً[1].

كانت من أولويات بتريوس أن يحصل على موافقة قرضاي لما كان يُعتبر برنامجاً حساساً لبناء قوات شرطة قروية في جميع أنحاء البلد، ثم تقوم القوات الخاصة للولايات المتحدة بتدريب فريق أولي من عشرة آلاف عنصر يدفع لكل منهم حوالى ١٢٠ دولاراً شهرياً. كان يُنظر للشرطة المحلية الأفغانية، وهي التسمية التي ستطلق على رجال شرطة القرية، على احتمال أن يلعبوا دوراً أساسياً في منع طالبان من العودة مجدداً إلى القرى التي سبق أن طهّرتها قوات الولايات المتحدة والناتو والقوات الأفغانية، والتي يمكن أن تصبح قادرة على الحسم على المدى الطويل. كان الأكثر أهمية حول الشرطة الأفغانية المحلية، كونها الخط الأخير للدفاع عن السكان المحليين، هو أن هذه الوحدات ستظهر على مستوى القرى. وكان عناصر قوات الأمن القومي الأفغاني الذين شكلوا خطوط الدفاع الأمامية يضمون قوتين منفصلتين: الجيش الوطني الأفغاني والشرطة الوطنية الأفغانية. وكان الجيش الأكبر عدداً بينهما، نظراً لنموه من ٩٧ ألفاً في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٩، عندما أصبحت مهمة «التدريب والتجهيز» بقيادة الناتو على رأسها الفريق وليام كالدويل، إلى أكثر من ١٤٤ ألفاً في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٠. وكان كالدويل يهدف إلى زيادة عدد قوات الجيش إلى ١٦٤ ألفاً بحلول خريف ٢٠١١. وفي معظم العمليات، قاتل الجيش الوطني الأفغاني جنباً إلى جنب مع القوات الأميركية وقوات الناتو. وبلغ عدد قوات الشرطة الوطنية الأفغانية، التي كانت تجوب مناطق على مستوى المقاطعة والولاية، حوالي ١١٤ ألفاً. وكان كالدويل يأمل بأن يتم تجنيد وتدريب وتجهيز حوالى ٢٠ ألف شرطي إضافي في السنة التالية. ركزت الشرطة الوطنية الأفغانية على حفظ السلام ومكافحة الجريمة. وبخلاف الشرطة المحلية الأفغانية، التي كانت تركّز على الدفاع عن

(١) الجنرال ديفيد هـ. بتريوس، مقابلة أجراها المؤلف، كابول، أفغانستان، ٣ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١١.

القرى والإنذار السابق، كانت الشرطة الوطنية الأفغانية تملك الصلاحية باعتقال المتمردين والمجرمين المشتبه بهم .واحتجازهم.

سيساهم نمو الشرطة الوطنية الأفغانية والجيش الوطني الأفغاني والشرطة المحلية الأفغانية بقوة في تحسين ما اعتبره بتريوس «حسابات مكافحة التمرد»: نسبة مكافحي التمرد من السكان. ولتحقيق الأرقام التي وردت في سجلّه الميداني، عليه أن يغير نسبة الائتلاف من ١ لمكافحة التمرّد مقابل ٩٠ من الأفغان إلى ١:٢٠ كما أشار الكتيّب. لكن تجنيد وتدريب وتجهيز الجيش الوطني الأفغاني والشرطة الوطنية الأفغانية لا يمكن أن يحصل إلا بسرعة، نظراً لنسبة التعلم للمجندين بمجرد ١٤ بالمئة ونسبة إصابات وفرار من الخدمة لمجندي الجيش بحوالى ٢٥ بالمئة سنوياً.

عَمَّق تدريب مخافر الشرطة الأفغانية المحلية العلاقات التي كانت تبنيها فرق إيه تيم (A teams) في القرى على صعيد السكان وتعلم طرائقهم والمساعدة على تأمين الاحتياجات الأساسية مثل العناية الطبية والمياه النظيفة وبالتالي كسب ثقتهم. كان يطلق على هذه المساعي رسمياً عمليات استقرار القرى، وهي برنامج شديد الأهمية كان قد بدأه قادة الوحدات الخاصة في ٢٠٠٩ بقيادة مكريستال في المناطق التي لا توجد فيها قوات الائتلاف أو القوات الأفغانية. كانت الفكرة من وراء ذلك تعزيز العمليات العسكرية التي تنفذها القوات التقليدية من خلال إنشاء قوات خاصة في المناطق التي يمكن أن يعيد المتمردون احتلالها كلما أرغِموا على إخلاء مزيدٍ من المناطق السكانية. وستعمد القوات الخاصة إلى تدريب القرويين المحليين وتجهيزهم ليتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم، على أمل أن تتوسّع تلك المناطق الأمنية نحو مناطق أخرى في سلسلة مترابطة تقف كخط دفاع أمني. كان الهدف أن تتوسّع لتشمل خمساً وعشرين قرية. لكن إذا اقتنع قرضاي بدعم برنامج الشرطة المحلية الأفغانية، سيتاح للقوات الخاصة أن توسّع تركيزها من عمليات استقرار القرى إلى إنشاء وتدريب مخافر الشرطة القروية هذه. في هذه الأثناء، كان بتريوس يعمل في الوقت عينه على مبادرات لتطهير أرض

المعركة من المتمردين من خلال مساع كبرنامج السلام وإعادة الإدماج، بالإضافة إلى مداهمات محدّدة الهدف ينفّذها عناصر القوات الخاصة.

من الممكن أن يؤدي الأثر التراكمي لكل العوامل في المعادلة المعقّدة، كما كان يأمل بتريوس، إلى متمرّدين أقل ومزيدٍ من القوات الصديقة. وقد حملت الشرطة المحلية الأفغانية أملاً كبيراً. فقد أوهم بعض المسؤولين الأمنيين بتريوس بأن قرضاي كان يؤيد البرنامج بشدة. لكن الاجتماع مع قرضاي في القصر الرئاسي انفضَّ بسرعة عندما بدأ القائد الأفغاني إبداء قلقه من إمكانية تحول قوات الشرطة المحلية بسرعة إلى ميليشيات خارجة عن السيطرة.

وهكذا بدأ تودّد بتريوس إلى قرضاي، الذي اجتمع به لما لا يقل عن ثلاثين مرة في تموز/يوليو. وقد تم تصنيف جلسة المناقشات الأولى على أنها «إفصاح» عن المسائل العالقة والمخاوف من كلا الجانبين. لكن بتريوس كان يحمل في جعبته قواعد تفاوض واضحة، تم تطويرها في العراق، للتعامل مع رؤساء الدولة، ولم يكن الانتقاد العلني من بينها. وكما سبق أن قام به في جزء كبير مع رئيس مجلس الوزراء العراقي المالكي، قرر بتريوس أن يأخذ التزامات قرضاي بشكل ظاهري، وتردادها علناً من باب الثناء، وبهذا يمكنه العمل على تحقيقها من خلال حكومة قرضاي. وكما فعل مع المالكي، أشار بتريوس مراراً وتكراراً إلى أن قرضاي هو قائد أمة ذات سيادة. وقد بقي متفهماً لاستياء قرضاي من وجود قوات أجنبية في بلده. «عليكم فعلاً أن تسيروا ميلاً واحداً وأنتم تنتعلون حذاءه في كثير من الأحيان، وتكونوا على درجة من التفهّم»، كما أشار بتريوس. «أنا لا أعني بالضرورة أن تشعروا معه بالكامل، لكن عليكم فعلاً أن تتفهموا. أجدّد تذكيري أن معظم المسائل هنا ليست بيضاء أو سوداء؛ بل هي ظلال متفاوتة من الرمادي».

لكن المبادرات الأمنية من جهة أخرى، لا يمكن ترسيخها إلا إذا تم تحسين المركّبات المختلفة لسيادة القانون. قبل أن يصل بتريوس حتى إلى كابول، كان قد ابتكر مع إيكنبيري تركيبة مدنية عسكرية لتوجيه ومراقبة قيام نظام عدالة فاعل في أفغانستان. فقد كانت أفغانستان بحاجة إلى قضاة ونواب عامين ومحامي

دفاع ومحاكم وسجون وموظفين إداريين للمساعدة على معالجة الفساد والفلتان الأمني في الأرياف. بالرغم من الحرب والجهود لمدى تسعة أعوام، لم يسبق أن قامت الولايات المتحدة بمثل هذه المهمة العملاقة، والتي كان بتريوس يدرك من خلال قيادته في العراق، أنها أساسية لتحقيق التقدم. كانت المقاطعات التي لا قضاة فيها تشهد أشرس تنازع عليها مع المتمردين، الذين ملأوا الفراغ فيها بنسختهم الخاصة من العدالة الإسلامية المتشدّدة. وقد كانت هذه المنطقة كما أشار بتريوس في كثيرٍ من الأحيان، واحدة من تلك التي يمكن أن تتنازع عليها طالبان مع الحكومة.

كان يفترض أن يرأس المسعى الشامل لِـ «سلطة القانون» دبلوماسي من مرتبة السفراء هو هانز كليم، ويشرف على الجانب العسكري منه نائب الأميرال بوب هاروورد يعاونه عميد في الجيش يتولى قيادة ما يسمى «القوة الميدانية لسلطة القانون ـ أفغانستان». كان بتريوس يعلم بدقة من كان يريد لتولي هذه المهمة الأخيرة: العميد مارك س. مارتنز، وهو واحد من أفضل المحامين في الجيش، رجل قادر بما يملكه من الكفاءات والذكاء وقوة الشخصية على منافسة بتريوس. ففي حين كان بتريوس وأولئك الذين في دائرته من المقربين حديثين في أفغانستان، فقد كان مارتن هناك منذ سنة، وخدم في البداية قائداً مؤقتاً ثم نائب قائد فرقة العمليات المشتركة ٤-٣٥، وهي مجموعة أنشأها مكريستال عام ٢٠٠٩ للإشراف على عمليات الولايات المتحدة ضد المعتقلين بعدما اتضح أن نظام السجون الأفغاني قد أصبح بالنسبة للمتمردين بيئة حاضنة خارجة عن السيطرة. ولم يقتصر الأمر على تخطيط قادة طالبان للهجمات من داخل جدران السجن الأفغاني، بل ساهمت السجون، في ظل افتقارها للتنظيم، في خلق متمردين مستقبليين.

التقى بتريوس مارتنز للمرة الأولى عام ١٩٩١، عندما كان بتريوس قائد كتيبة في الوحدة ١٠١ إيربورن وكان مارتنز واحداً من المحامين العسكريين للوحدة. ونظراً للانسجام الشديد والمتبادل بينهما ـ كان مارتنز عدّاءً في صف بتريوس ـ اعتبر بتريوس مارتنز ضابطاً «مميزاً في جيله»، ونظر مارتنز باحترام إلى بتريوس

بصفته موجّهاً. كان مارتنز المحامي والمستشار القانوني المفضّل لبتريوس خلال غزو العراق، عندما عملا على إنشاء «المناطق الخضراء» هناك لتأمين مسار إدارة العدالة. مستنداً إلى عمله في مسائل سيادة القانون، سيعمل مارتنز على إنشاء «مناطق خضراء»ـ مناطق آمَنة للقانون والعدالة في أفغانستان ـ بدءاً من مركز تشيل زينا للتحقيق الجنائي، المحاذي لأضخم سجن في قندهار، سجن ساربوسا.

تسلّم بتريوس القيادة رسمياً في المقر الرئيسي للناتو في الرابع من تموز/يوليو. «كما يعلم كل منكم جيداً، فنحن منخرطون في قتال شرس»، كما ذكر خلال احتفال في المقر الرئيسي للناتو. «فبعد سنوات من الحرب، وصلنا إلى لحظة حرجة.... نحن في مرحلة صراع إرادات. يبذل أعداؤنا كل ما بوسعهم لتقويض ثقة الشعب الأفغاني.... ونحن بدورنا، علينا أن نُظهر للشعب ولطالبان أن إيساف والقوات الأفغانية قد جاءوا إلى هنا لحماية الشعب الأفغاني، وأننا أتينا لنفوز. هذا هو هدفنا الواضح».

في صباح اليوم التالي، جدّد بتريوس تأكيده خلال بيانه الموجز في المقر الرئيسي لإيساف، على أهم مبادئ مكافحة التمرد، حماية الشعب. «إن الفكرة الأعظم اليوم، التي تنطبق على كل مستويات هذه القيادة، هي أهمية التعامل مع السكان المحليين التي توازي أهمية نشاطنا الحركي»، كما ذكر. «على كل القادة، من أي مستوى كانوا، أن يتهيأوا ليقدموا لي لمحة عن تعاملهم مع المحليين، والأثر الذي يحدثه هذا، وكيف سنقوم بتوسيع العلاقات المحلية مع لاعبين أساسيين وجمهور السكان المحليين». ثم كرّر أن التعاون لم يعد خياراً؛ ثم تحدث عن «التزام بالصبر» للنجاح في أفغانستان، وعاد وكرّر من جديد «نحن هنا لنفوز». لكن هذه المرة، شرح ما يعنيه قوله هذا. «والفوز في مكافحة التمرد لا يتمثل بزرع الراية على رأس التلة»، كما أعلن. «الفوز هو تحقيق التقدم».

وفي وقت لاحق عصر ذلك اليوم، حمل بتريوس رسالته إلى شركائه المحليين، متحدثاً بشكل شخصي بحت خلال احتفال لتكريم ضباط الصف في الجيش الأفغاني الوطني. «إن قيادتكم تعني كثيراً لقواتكم ولشعب أفغانستان»،

كما توجَّه للحاضرين. «عندما أفكر في قيمة كبار ضباط الصف، في الواقع، فغالباً ما أسترجع ذكرى لإرشاد قدّمه لي والدي قبطان البحر الهولندي عندما كنت صغيراً: إنها النتائج أيها الفتى، النتائج. وكل ضابط آمر يعلم أن الحصول على نتائج هو ما يجيد ضباط الصف القيام به بالشكل الأفضل.... أنتم أيضاً احصلوا على نتائج». وعلى هامش خطابه أردف بتريوس: «كما يؤكد هذا الاجتماع، فإن الأمثلة هي خير ما يمثل القيادة»، وهي نقطة أوضحها لكبار ضباط الصف أيضاً.

كان بتريوس يعتقد أن حضوره خلال مؤتمر لضباط الصف الأفغان يمكن أن يساهم في تطوير القادة الذين يحتمل أن يحدّدوا ما إذا نجحت وحداتهم أو فشلت على أرض المعركة. وكانت غريزة بتريوس كقائد تخبره بأن يعمل ليكون في مرحلة حيث يمكنه فيها استيعاب ما كانت وحدته منخرطة فيه. بالنسبة للعمليات العسكرية التقليدية، فالمكان، «مرحلة القرار»، كان عادة حيث القتال الأعنف[1]. لكن أمام نمط الحرب غير المعتاد الذي واجهه، اعتقد بتريوس أن مرحلة القرار كانت أقل وضوحاً. من الممكن أن تكون خلال مفاوضات حول «لحظة صحوة»، كما اختبر عام ٢٠٠٧ عند الاتفاق مع زعماء القبائل العراقية المحليين للوقوف في وجه القاعدة ليتمكّنوا بالتالي من تحقيق الأمن في مجتمعاتهم، أو في مخفر قيادة ميداني حيث تصب كل المعلومات من عملية محبوكة جيداً، أو حتى على كابيتول هيل، خلال شرح وضعية مهمّة محدّدة.

في هذه اللحظة، فإن التوجه نحو هذه المجموعة من الرقباء الأول كان مهماً للنجاح التنظيمي الأقصى. ففي الجيش الأميركي، كان فيلق ضباط الصف يعتبر «العمود الفقري» للجيش، وقد شعر بتريوس أنه يمكن لهؤلاء الأفغان لعب هذا الدور هنا أيضاً. وقد آمن بتحفيزهم من خلال تقديم نموذج لهم، وتصرّف كأن حجم الطاقة والالتزام اللذين وضعهما في تلك المناسبة ـ وفي كل لحظة ـ كانا عاملَيْن مهمّيْن في الحرب.

(١) الجنرال ديفيد هـ. بتريوس، مقابلة أجراها المؤلف، واشنطن العاصمة، ٣ نيسان/أبريل ٢٠٠٩.

«عليك أن تؤمن بما تفعله، وبما تناضل من أجله، خاصة عندما تكون في وضع حيث تشمل قراراتك أشخاصاً يضحون بحياتهم من أجل قضية ومن أجل الوطن»، كما أدلى لاحقاً.

كان الإعلان الصباحي يقام في موقع لا يستخدمه بتريوس لاستلام تحديثات مختلفة فقط، بل لإعلان أولوياته وإلغاء المركزية ضمن شبكته أيضاً، إلا أن بعضهم رأى فيها نزعة بتريوس للإدارة المجزأة. دخل بتريوس غرفة التحديث عند الساعة ٧:٢٩ صباحاً من ٥ تموز/يوليو، يومه الثالث الكامل في أفغانستان، وأومأ برأسه لمن كان يعرفهم. بروحية الجنرال ماك كريستال سأسطّح الشبكة قدر الإمكان، ثم أنتقل إلى مستوى واحد أدنى، كما أشار في لحظة معينة خلال الجلسة. كان يحاول أن يُعَلّم. وكانت الرسالة مباشرة حين خاطب جمهوراً متنوعاً خلال مؤتمر الفيديو السري. وقد شملت ضباطاً في كل القيادات التابعة والإقليمية في أفغانستان بالإضافة إلى ممثلين عن السفارة الأميركية ومواقع هائلة لعناصر أفغان وكثير من مقرات قيادة الناتو والمقر الرئيسي للقيادة المركزية في تامبا والموظفين المشتركين في البنتاغون ومواقع متعدّدة أخرى.

كان بتريوس في ذاك الصباح، يحمل ثلاث أفكار كبرى يريد مشاركتها. الأولى أنه ليس بإمكان الجيش خوض هذه الحرب والفوز بها وحده؛ فقد كانت المكونات المدنية، الأفغانية والدولية على السواء، أساسية. كانت التوترات المدنية العسكرية على أشدها على المستوى التكتيكي، حيث كان المدنيون الذين ترأسوا فرق إعادة إعمار الولايات يحملون الرتبة نفسها مثل قائد قوة عسكرية ضمن منطقة العمليات، كالمقدم ديفيد ج. فايفكوت، الذي كان المعاون الشخصي لبتريوس في البوسنة وخلال غزو العراق عام ٢٠٠٣، ثم شُكّل إلى ولاية بكتيكا شرق أفغانستان، ليشغل قيادة كتيبة بتريوس السابقة في الوحدة ١٠١ إيربورن. أراد بتريوس أن يصار إلى غربلة الأفكار المهمة إلى ذلك المستوى نزولاً، ففي الوقت الذي كان يسير فيه البيان الموجز قُدُماً كل صباح، كان نائب رئيس الأركان في إيساف التابع لبتريوس العقيد مايك ميس يلخّص الموجز بملاحظات مختصرة

كانت تنشر على موقع الإنترنت السري وتوزع نزولاً على مستوى الكتائب. كان بإمكان القادة أمثال فايفكوت الحصول على جرعة يومية من الاهتمام الكلي لقائدهم للتأكد من أنهم فهموا أولويات الحملة واتجاه مسرح الأحداث أثناء تنفيذهم عمليات تكتيكية. أيقن بتريوس أن إيصال صدى رسالته من خلال سلسلة القيادة كان حيوياً.

أما الفكرة الثانية فكانت تستحق الحسم بعد تسعة أعوام من الحرب: «نحن هنا لنفوز»، صرح بتريوس. لذلك، كما يظن بتريوس، قام أوباما باختياره. «لم يرسلني الرئيس إلى هنا لأنفّذ انسحاباً متسرعاً»، كما أضاف. كان بتريوس حازماً مع الرئيس، رغم أنه لم يطلب أي شيء عندما وافق على استلام المهمة. لكن التفاهم غير المعلن دعم الرئيس له.

وسارت الفكرة الثالثة بانسجام تام مع ذلك التأكيد. «علينا أن ننقل بأن لدينا التزاماً بالتحمّل هنا، لكن طبيعة التزام التحمّل هذا ستتبدل مع الوقت حين ننقل السلطة للأفغان»، كما وصف. ولم يغفل الإشارة إلى أن التعبير الدقيق كان أساسياً: «نحن لا نحوّل؛ نحن ننقل. وهذا يدعم المفهوم بأننا لا ننفذ انسحاباً بل نقلّص العدد». كان يكرّر الأفكار الثلاث الكبرى أمام موظفيه والنشرات الميدانية.

أُثيرت أسئلة حول المقاييس والتقدم لمدى أشهر في كابول وبروكسل وواشنطن. أجاب بتريوس جازماً مرة أخرى بأن «الفوز يعني تحقيق تقدّم. من الواضح أننا نحقّق تقدّماً. ولا شك بأن هذا يتخلّله نجاحات وخسائر، ينبغي عليكم التوفيق بينها ومن ثم معالجتها بطريقة دقيقة. فالعنف يتصاعد على سبيل المثال، وهذا ليس بادرة جيدة، لكن يعود السبب في جزء منه إلى وتيرة عملياتنا المتزايدة وتولّي العمليات في معقل العدو. نحن نقوم بكثير من المساهمات في مناطق عدّة، وهي مهمة لأنها تقدم لنا النتائج التي نركّز عليها. لذلك، فعندما نناقش مسألة (هل نحقق الفوز؟) فكروا ملياً بما تقولونه والوضوح الذي يجب تحقيقه».

أراد بتريوس أيضاً أن ينقل فكرة الفوز تلك إلى شركائه الأفغان، الذين سئم بعضهم من الناتو بعد سنوات من الحرب والموت والدمار. وخلف نقل تلك الرسالة، قدّم بتريوس أيضاً اعتذاره الأول من القوات الأفغانية ذاك اليوم، بعد أن أصابت مروحية حربية تابعة للناتو عن طريق الخطأ دورية للجيش الأفغاني الوطني في مقاطعة أندر من ولاية غزني اعتقاداً أنهم متمردون، وأمطرتها بوابل من القذائف، فقُتِل خمسة وجُرِح اثنان. وقدم بتريوس تعازيه الخاصة لعائلات الجنود القتلى. وقد تزامن اعتذاره في عناوين ذلك اليوم مع إعلان بريطانيا أن ألف جندي بريطاني ينتقلون إلى منطقة سنجين من ولاية هلمند، حيث تم تكبيد القوات الأميركية خسائر فادحة. وقد ذكرت صحيفة إنديبندنت في لندن أن القوات البريطانية خاضت «أشرس قتال شهده الجيش البريطاني منذ الحرب العالمية الثانية».

قام بتريوس بأول جولة ميدانية له في اليوم التالي، وزار العميد الكندي جون فانس، قائد قوات الناتو في قندهار، في نقطة تفتيش تم إنشاؤها مؤخّراً ومهمتها المساعدة على منع طالبان من التحرك داخل المدينة وخارجها. كانت جولته الميدانية ليزور الكنديين في قندهار، معقل طالبان، مصمّمة لإرسال رسالة: لن يردع التحالف أي شيء. وما وراء الرمزية، رأى بأم عينه أن نقطة التفتيش المحصّنة جيداً والمحروسة على مدار الساعة، سيكون لها أثر رادع على المتمردين طالما أن عمليات التفتيش كانت تنفّذ بحزم واحترام. وكالعادة، فقد أحس أنه ضروري للقائد بأن يسيطر على الواقع الميداني في بعض الأوقات من خلال رؤيته وكأنه يمتلك هذا الواقع.

بذل بتريوس جهوداً مضنية عندما كان في القيادة المركزية للمتابعة في إشراك الكنديين، الذين أعلنوا في وقت سابق ذلك العام أن انتهاء مهمتهم في أفغانستان سيكون صيف عام ٢٠١١. وعلى قدر ما كان التحدي الناجم عن سياسة الائتلاف للبلدان السبعة وأربعين في ذاك الوقت، اعتبر بتريوس أن الائتلاف كان مهماً جداً وكان يتوخى الدعم من سائر الدول المساهمة في الائتلاف لأطول وقت ممكن.

وبالرغم من أن «صيانة الائتلاف» قد أخذت حيزاً من الوقت، أيد بتريوس ملاحظة تشرشل[1] بأن الشيء الوحيد الذي يُعتبر أسوأ من الحلفاء هو ألّا يكون لديك أيّ منهم.

في الأيام اللاحقة، قام بتريوس بزيارته الأولى للوحدة ١٠١ إيربورن وقائدها، الرائد جون كامبل. بالإضافة إلى قيادته للوحدة ١٠١ إيربورن كان كامبل قائداً للقيادة الإقليمية الشرقية لإيساف، وهو إقليم شمل أربع عشرة ولاية، وسبعة ملايين نسمة وأربعمئة قبيلة على امتداد ٤٦ ألف ميل مربع، ومنطقة توازي حجم بنسلفانيا تقريباً. كونه تخرج من الأكاديمية العسكرية الأميركية عام ١٩٧٩، أي بعد بتريوس بخمسة أعوام، كان كامبل قائداً مثالياً للجيش في حقبة ما بعد ٩/١١. فقد سبق أن قاد كتيبة قتالية للوحدة ٨٢ إيربورن في أفغانستان ـ وهي الوحدة نفسها التي قادها بتريوس سابقاً ـ وتميز في العراق كواحد من الأفراد الأكثر مسؤولية في تنفيذ خطة بغداد الأمنية خلال الغزو عام ٢٠٠٧. باستثناء زلّة خطيرة، كان سبق أن عُدَّ فريقاً أول مستقبلياً واعداً بأربع نجوم: جوّالاً مصنّفاً، وقضى وقتاً في القوات الخاصة، وقد درَّس العلوم العسكرية في جامعة كاليفورنيا في دافيس، وخدم كنائب مدير العمليات الإقليمية في البنتاغون بقيادة رئيس هيئة الأركان المشتركة الأميركية.

وصل بتريوس إلى وحدته القديمة في يومٍ قاسٍ. فقد خسرت الوحدة ١٠١ جنديين في وقت سابق من النهار، الرقيب شون م. ميتلر من أوستن بتكساس، والعريف كارلوس ج. نيغرون من فورت مايرز بفلوريدا، في هجومين منفصلين لطالبان. وقبل يومين، كان الجندي أول أنتوني و. سيمونز من تالاهاسي قد قُتِل في هجوم آخر. كما قُتِل ثمانية عناصر أميركيين على الأقل في القيادة الإقليمية الشرقية منذ استلام بتريوس، ما يجعل الحصيلة الإجمالية للقتلى في أفغانستان منذ أواخر ٢٠٠١ حوالى ١٠٧٩. لقد كان، كما وصفه بتريوس، يوم «سنقهرهم في الغد»[2] للوحدة ١٠١ إيربورن.

(١) الجنرال ديفيد هـ. بتريوس، مقابلة أجراها المؤلف، كابول، أفغانستان، ٢٩ أيلول/سبتمبر ٢٠١٠.
(٢) الجنرال ديفيد بتريوس، رسالة بريد إلكتروني للمؤلف، ٢٠ تموز/يوليو ٢٠١٠.

هذا القول مسند إلى قول اللواء يوليسيس س. غرانت، أحد أبطال بتريوس العسكريين، والذي ساعده على التحمّل خلال أحلك أوقات قيادته في العراق خلال الغزو. استذكر بتريوس خلال مقابلة معه معركة شيلوه: في نيسان/أبريل ١٨٦٢، وعقب واحد من أكثر أيام القتال دموية في تاريخ الأمة، التجأ غرانت إلى غرفة خشبية ليحتمي من المطر. وكان كلا الطرفين قد تحصّنا خلال الليل. رأى غرانت أن الجراحين كانوا يستخدمون الملجأ كغرفة عمليات. أذرع وأرجل مقطوعة على الأرض الدامية، وصيحات الجرحى تحيط به من كل جانب. فعاد مجدداً إلى الخارج واحتمى تحت شجرة وهو يمضغ سيجاراً غير مشتعل. فعثر عليه هناك القائد المفضّل لديه، اللواء وليام تيكومسي شيرمان. «حسناً يا غرانت»، خاطبه شيرمان. «لقد كان يومنا شيطانياً بامتياز، أليس كذلك؟»

«نعم»، أجاب غرانت. «لكننا سنقهرهم في الغد».

«ليس هناك داعٍ للقول، إن هذا هو الجزء الأصعب من القيادة حتى الآن»، كما أسرَّ بتريوس لصديق تلك الأمسية، مشيراً إلى خسائر الوحدة ١٠١ في أفغانستان، «والأمور لا تصبح سهلة على الإطلاق». كانت تشغل باله دوماً حقيقة أن ابنه الوحيد، الذي كان يقود فصيلة مشاة في وحدة تابعة للوحدة ١٠١ وكانت تشتبك في قتال عنيف، من الممكن أن يُصاب هو الآخر.

خلال الزيارة، رتّب كامبل اجتماعاً على الفيديو بين بتريوس وقادة سرايا الكتائب المنتشرين في أفغانستان الجنوبية والشرقية. وكما استذكر كامبل: «وعلى الفور ـ ذلك اليوم ـ كان بتريوس يعمل على حل المسائل التي أثرناها ومعالجتها. هذا هو الأسلوب الذي يعمل به. يمكنني الحصول على رد لاحقاً تلك الليلة أو في اليوم التالي: وعلى الفور، كان يهتم بها. تلك هي القوة التي يقدمها لهذا المسعى»، على حد قول كامبل.

أعرب كثير من المقربين من بتريوس سراً عن مخاوفهم ممّا إذا كان اللواء، وبالرغم من تركيزه طوال حياته على اللياقة البدنية، بإمكانه المحافظة على الوتيرة عينها. «لم يعد في الخامسة والعشرين من عمره»، على حد قول أحد مستشاري

بتريوس. «هو يعلم أنه أمام تحدي العمر، فهل يمكنه تحمّل هذا بموضوعية وتوازن؟» لكنْ لم يكن هناك توقف. فبرنامج بتريوس المزدحم، ومنذ اليوم الذي وصل فيه إلى كابول، كان يزخر غالباً بعشرين اجتماعاً وموجزاً وظهوراً وزيارة في اليوم؛ كان يبدأ كالعادة عند الساعة ٥:٣٠ فجراً حيث يبدأ الجنرال بقراءة الموجز الصباحي خلال التمرين على الدراجة الثابتة. وكان معاونه ونائبه التنفيذي يعرف كيف يستغل كل دقيقة بشيء مثمر. لم يكن هناك وقت ليضيعه.

بحلول اليوم العاشر لقيادته، التقى بتريوس مع قرضاي للمرة السابعة لمناقشة إنشاء الشرطة الأفغانية المحلية. حتى ذلك الوقت كان بتريوس قد ساعد شركاءه الأفغان على معالجة المخاوف التي أثارها قرضاي وقادة أفغان آخرون، وفي النهاية تولى قرضاي دوراً داعماً للمبادرة وقيادة الحوار الأفغاني (في ظل إعجاب بتريوس سراً بقرضاي الذي عبَّر أولاً عن مخاوف الآخرين كأنها تعود له قبل تسهيل الموافقة النهائية على برنامج اعتقد بتريوس أن قرضاي أراده منذ سنين). أعلنت حكومة قرضاي في اليوم التالي أنها صادقت على إنشاء الشرطة المحلية الأفغانية[1]. وقد تم الاتفاق بعد أن وافق الوزراء الأمنيون وبتريوس على اقتراح يضمن أن تكون الشرطة المحلية الأفغانية تابعة لرؤساء شرطة المقاطعة ويُدفع لها من وزارة الداخلية التابعة لقرضاي، حيث يضمن سيطرة مركزية ويقلص من مخاطر تحوّل العناصر إلى ميليشيا أمراء حرب. نصّت الاتفاقية على دعوة نحو عشرة آلاف ليتم تدريبهم على أيدي القوات الخاصة الأميركية والشرطة الوطنية الأفغانية، وسيتركز معظمهم في الجنوب، حيث كان التمرّد هو الأشرس. وقد أشاد بتريوس علناً بالإنجاز ورأى في التقدّم، الذي تحقّق في أقل من أسبوعين، كأن بإمكانه التأثير في المستقبل على نتائج الحرب.

وفي الصباح نفسه، بدأ بتريوس خطابه بعرض لوحة لفريدريك ريمينغتون، «التشتّت» The Stampede، على جدار غرفة الاجتماعات، مشيراً إلى أنها

(١) الجنرال ديفيد بتريوس، رسالة بريد إلكتروني للمؤلف، ١٤ تموز/يوليو ٢٠١٠.

كانت ترمز إلى التحديات التي واجهوها في أفغانستان. فقد استوحى الفكرة من مرشده الجنرال جاك غالفين، الذي استعمل اللوحة عندما كان بتريوس معاونه في الثمانينيات. كما استعملها بتريوس وسيلة خلال تولّيه القيادة في العراق: «أستعمل هذه اللوحة لأعكس ما الذي نقوم به»، كما خاطب الضباط العاملين لديه أثناء شرحه للاستعارة.

> أستعمل هذه الصورة لأخبركم بأنني مطمئن إلى الأوضاع شبه الفوضوية. تظهر الصورة فارساً يعدو بالسرعة القصوى على أرض وعرة في أوج عاصفة هوجاء، وهو يمتطي حصاناً جامحاً ويوجه بين الحين والآخر قطيعاً مرتعباً وهائماً نحو وجهته. وهي تمثل إنجاز المهمة مهما كانت التحديات. فالأرض صخرية وعرة والرياح في وجههم والمطر ينهمر عليهم بغزارة. سيخرج عن مسارنا بعض القطيع. لا بأس، سنعود ونتابع سيرنا. وبعض القطيع سيسقط خلفنا فعلينا أن نستدير مجدداً ونلتقطهم. لا بأس، سنحضرهم معنا. علينا أن نطمئن لجو الشك والتحدي والمغامرة والخطر وخطط المنافسة. علينا أن نتقبّلها. لكن علينا أن نفعل أكثر من التمسك بالسرج. علينا أن نمسك بزمام مطيتنا ونتجاوز الفوضى المحقّقة. أنا مطمئن لهذا. أعتبر كوني جزءاً من تشتّت كابول Kabul stampede بمثابة امتياز لي. تابعوا.

بعد شهر قضاه في أفغانستان، أصدر بتريوس توجيهاته التكتيكية المحدثة، وهي إعلان عن سياسة خوض الحرب، مخاطباً ١٥٠ ألف جندي أميركي ومن الناتو، يأتمرون بأمرته. خلال تأكيده على «استعمال منضبط للقوة»، تضمّنت الأجزاء المبعثرة للتوجيهات إرشاداته ونيته لاتباع قواعد الاشتباك على أرض المعركة. وبعبارات عملية، كانت الوثيقة تتضمّن أحكام استعمال ما أسماه بتريوس، خلال جلسة استماعه، «الأجهزة المسبّبة لخسائر فادحة»: قنابل، دعم جوي محدّد بدقة، مروحيات مقاتلة. وقد كان المنعطف الوحيد الأضخم في تحديثه لأنه أعلن بشكل لا لبس فيه في المقطع الأول: «لا يحق للقادة المرؤوسين حصر

استعمال هذا التوجيه من دون موافقتي». كان استنتاجه بأن المشكلة لا تكمن كثيراً في توجيهات مكريستال بل في القادة المرؤوسين الذين فرضوا ظروفاً صعّبت المهمة أكثر على قوات الولايات المتحدة والناتو في القتال. وفي الصميم، حصر الوحدات في ما وراء نية مكريستال.

لكن بتريوس كان يتوخّى وضوحاً أكبر. ففي حين أعطت التوجيهات السابقة تعليمات بأن «على القادة من كل المستويات معاينة وتقليص استخدام القوة كالدعم الجوي لأهداف دقيقة ضد المجمّعات السكنية ومواقع أخرى يُرجّح أن تنتج خسائر في صفوف المدنيين تماشياً مع التوجيهات»، أما توجيهات بتريوس فكانت: «قبل إطلاق النار، على القائد الموافق على الهجوم أن يتأكد بأنْ لا وجود للمدنيين. فإنْ لم يتمكن من تقويم مخاطرة وجود مدنيين، يمنع إطلاق النار». أما الاستثناء الوحيد: فهو حماية أرواح إيساف والقوات الأفغانية.

دعت توجيهات بتريوس إلى الالتفات لملاحظة ف. سكوت فيتزجيرالد: «إن اختبار معدل ذكاء الدرجة الأولى يكمن في القدرة على حمل فكرتين متناقضتين في الذهن في الوقت نفسه، ومع ذلك امتلاك القدرة على التحكّم». فقد طلب التوجيه من القادة أن يفعلوا كل أمر إنساني ممكن لحماية الأفغان المدنيين، ما يعني عادة عدم إطلاق النار، وحماية أولئك الذين في السلك في الوقت نفسه، والذي كان يعني في الغالب إطلاق نار مكثف.

للمساعدة على تخفيف حدة ذلك التوتّر، صرح بتريوس بشكل قاطع في التوجيهات التكتيكية الجديدة أنه أراد من إيساف الاشتراك مع القوات الأفغانية في «كل عملية». «الشراكة هي الطريقة التي نعمل بها»، كما نصَّت التوجيهات. «تقع بعض الخسائر في صفوف المدنيين نتيجة لسوء تفاهم أو جهل بالعرف والسلوك المحليين. ليس هناك من أفراد متفهمين للثقافة الأفغانية أكثر من شركائنا الأفغان».

كان الفرق الرئيسي بين التوجيهات القديمة والجديدة، حسب اعتقاد بتريوس، يكمن في القاعدة التي منعت القادة المرؤوسين من نشر ظروف أكثر تقييداً، مثل

الحد من استعمال المروحيات المقاتلة والدعم الجوي لأهداف دقيقة. «كان تطبيق التوجيهات التكتيكية الأخيرة هو ما خلق شيئاً من الميثولوجيا بأننا حظرنا رمي القنابل»، أفاد بتريوس. في الواقع ليس لدى بتريوس أي وخز للضمير حيال رمي القنابل، وإن يكن في الزمان والمكان المناسبين. كان عدد القنابل التي رُمِيَت في العراق[1] في ظل قيادة بتريوس قد تصاعد بشكل دراماتيكي خلال الغزو عام ٢٠٠٧، بنفس الوتيرة التي تصاعدت فيها مداهمات العمليات الخاصة، وكانت الوتيرة تتصاعد خلال مناوبته في أفغانستان أيضاً. فكتيّب مكافحة التمرّد الميداني الذي أصدره عام ٢٠٠٦ في فورت ليفنوورث، ما بين تنقلاته في العراق، «لم يذكر أن أفضل الأسلحة لا تطلق النار»، على حد تعبيره. «إنه يذكر أن أفضل الأسلحة هو أن لا تطلق النار أحياناً[2]. وفي أحيان أخرى فإن أفضل الأسلحة تطلق النار». ومع ذلك فالتوجيهات الجديدة كانت شديدة الوضوح: «إن مقتل كل مدني أفغاني يضعف من قضيتنا. إذا استخدمنا القوة المفرطة أو تصرفنا عكس مبادئنا في مكافحة التمرد، فمن الممكن أن تبرهن الانتصارات التكتيكية أنها إخفاقات استراتيجية».

على أي حال، فالشكاوى المريرة للجنود الذين شعروا بأنهم مكتوفو الأيدي توقفت بعدما أعلن بتريوس تحديثه.

وفي المقر الرئيسي لإيساف صباح يوم ١٥ آب/أغسطس، تهيأ بتريوس وطاقمه للبدء بعقد مؤتمرات صحفية من جديد، بعد أن كان بتريوس، الذي التزم بسابقة كان قد أرساها في العراق، قد تجنّب مثل هذه الأنشطة خلال الشهر الأول له في أفغانستان. وقد أطلق عليه أول الواصلين، ديفيد غريغوري، «محارب أميركا الأكثر شهرة بالتأكيد» في بداية البث وسأله خلال مقابلة مطوّلة إذا كان سيترشح

(١) Noah Shachtman, "Does Petraeus Mean a Return of Afghanistan Air War?" *Danger Room* blog, Wired.com, June 23, 2010, www.wired.com/dangerroom/2010/06/does-petraeus-mean-a-return-to-all-out-war.

(٢) المصدر نفسه.

لمنصب الرئيس: «أنا لست سياسياً ولن أصبح سياسياً أبداً، وأقول هذا بقناعة مطلقة»، كما صرح بتريوس، مقتبساً إجابة شيرمان الشهيرة لسؤال مشابه.

«لا مجال، ولا بأي حال من الأحوال؟» سأل غريغوري.

«لا مجال، ولا بأي حال من الأحوال؟» أجاب بتريوس.

منذ وصوله إلى أفغانستان، تحدث بتريوس مراراً وتكراراً خلال خطاباته عن الحاجة إلى تفاعل إعلام محترف، ملتفتاً إلى ما ذكره أحد أبطاله، ت. إ. لورنس، عام ١٩٢٠: «إن الصحافة المقروءة هي أعظم سلاح في عتاد القائد العصري».

وحين جلس مع غريغوري، كرّر بتريوس نقطة كان قد أثبتها في خطاب سابق في أوائل شهر تموز/يوليو السابق: «نحن نحقق تقدماً، والتقدم يعني الفوز». كان أداؤه قد وضع تحت الاختبار. «أعتقد أنه يتوجب علينا أن نحقق تقدماً أكبر... وقد بدأ فعلاً هذا الربيع».

أفاد بتريوس أنه أمضى السنة ونصف السنة الأخيرة مع الجنرال مكريستال في إدراك «المساهمات» بشكل صحيح. وبنهاية الشهر، وعندما وصل الفيلق الأخير من الوحدة إيربورن ١٠١، تضاعف عدد الجنود الأميركيين الموجودين في أفغانستان ثلاث مرّات على ما كان عليه في بداية عام ٢٠٠٩. والآن يمكن للقتال الحقيقي أن يبدأ.

الفصل الثالث

مؤمنون حقيقيون

كان تدخل أميركا في أفغانستان منذ خريف عام ٢٠٠١ فرصة ضائعة كبرى. فالتحالف الذكي لقوات العمليات الخاصة الأميركية ووكالة المخابرات المركزية وقوات ائتلاف الشمال الأفغانية والقوات الجوية الأميركية، الذي أطاح بطالبان في غضون ثلاثة أشهر، تشتّت عندما غزت الولايات المتحدة العراق أوائل عام ٢٠٠٣. فقد نقلت الحرب هناك الجنود والقوات الجوية والتكنولوجيا والأنظار من أفغانستان، حيث كانت القوات الأميركية وقوات الناتو قليلة جداً عددياً لوقف تمرد قد عاد ليثأر بحلول عام ٢٠٠٦. إن عودة القاعدة وطالبان وقوات التمرّد الأخرى إلى الساحة لم يكن محتوماً على الإطلاق، لو استغلت أميركا وحلفاؤها من الناتو الزوال السريع لطالبان وأدخلت ما يكفي من الجنود إلى أفغانستان لحماية الشعب وإعادة إعمار البلد، بدءاً من القرى والولايات. لكن هذا لم يحصل بتاتاً. ففي الوقت الذي تولى فيه سلف مكريستال، الجنرال ديفيد مكيرنان، قيادة الحرب في أفغانستان ربيع عام ٢٠٠٨، كان لدى الولايات المتحدة ٣٣ ألف موظف عسكري فقط في البلد، وكان يقوم حوالي الثلث منهم فقط بتنفيذ مهمات قتالية. وبالرغم من نجاح تكتيكات مكافحة التمرد في العراق، حيث نقلت القوات الأميركية قواعد عسكرية ضخمة لتتمركز بين الناس، فقد بقيت معظم القوات الأميركية في أفغانستان ضمن قواعد محصّنة بشدّة وعدد محدود من المخافر. لم تكن حماية الشعب الأفغاني والقضاء على الفساد وتبنّي حكومة فاعلة من الأولويات التي يستطيعون تحقيقها.

أظهرت «العمليات الخفيفة» light footprint المنفّذة بتكليف من وزير الدفاع حينها دونالد رامسفيلد على مدى السنوات الخمس الأولى مِن الحرب تفضيل رامسفيلد ـ أو تحيّزه كما يسميه النقاد ـ للسرعة والرشاقة والدقة بدلاً من القوة الثقيلة والحاشدة. كان مذهب باول Powell Doctrine للقوة الساحقة، مبدأ الحرب الباردة القديم الذي لم يعد، برأي رامسفيلد، ناجعاً في عصر القوات المرتزقة والقنابل الذكية والطائرات الحربية من دون طيار التي تستطيع العثور على العدو والقضاء عليه من دون أي جنود على الإطلاق. وقد أدت السرعة المذهلة التي أوصلت أعداداً صغيرة من القوات الخاصة وناشطي وكالة المخابرات المركزية الذين كانوا يعملون مداورة مع القادة العسكريين الأفغان، وقضت على طالبان منذ المرة الأولى، إلى تأكيد مفاهيم رامسفيلد وتأييدها. وبالفعل، فقد فرض رامسفيلد «سقفاً للقوة»[1] في أفغانستان عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٢.

وساهم أيضاً تفضيله لقوة أخف زخماً في دوامة السقوط في العراق، حيث أقدمت القوات الأميركية على غزوه بِفَرق أقل مما ظن أغلب الجنرالات بمن فيهم بتريوس، أنه يُنصح به. ففي الوقت الذي أطاحت فيه قوات الغزو بسهولة بنظام صدام حسين، لم يكن لدى إدارة بوش عدد كافٍ من الموظفين، لا لبسط الأمن في البلد ولا لاحتواء العنف الطائفي الذي أخذ البلد إلى حافة حرب أهلية في أواخر ٢٠٠٦. وفي كلتا الحربين، استُدعي بتريوس لقيادة «الغزوات» التي عالجت في النهاية نقص الجنود وجعلت التقدم ممكناً.

بوجود العراق على حافة حرب أهلية في ٢٠٠٦، كانت أفغانستان تواجه بازدياد «عاصفة مثالية من الثورة السياسية»[2]. فقد غابت بقوة الحكومة الفاعلة والصادقة؛ وبرزت باكستان كملجأ لطالبان والقاعدة ومجموعات المتمردين الأخرى، وقد أتاحت الحماسة الإسلامية لطالبان تجنيد قرويين منسيين من الحكومة المركزية الفاسدة في كابول. وفي الوقت الذي استلم فيه مكريستال

(١) Thomas E. Ricks, *Fiasco* (New York: Penguin Group, 2009), p. 41.

(٢) Seth G. Jones, *In the Graveyard of Empires* (New York: W. W. Norton, 2009), p. xxiii.

قيادة الحرب صيف عام ٢٠٠٩ وبدأ تنفيذ التكتيكات التي نص عليها كتيّب مكافحة التمرّد الميداني لبتريوس، كان الأوان قد فات تقريباً. كان التمرّد قد عمّ عملياً كل ولاية في أفغانستان، في ظل ارتفاع حصيلة الوفيات بين المدنيين، ومنفّذي العمليات الانتحارية والهجمات والاغتيالات. أدرك مكريستال أنه كان يفتقر إلى قوات كافية للقضاء على طالبان وتأمين الحدود مع باكستان وإحكام السيطرة على القرى التي تم تطهيرها.

وبالرغم من أنه لم يحظَ هو الآخر بعدد القوات الذي كان يريده، إلا أن بتريوس لم تصل مشكلته إلى ذلك الحد. فعندما خلف مكريستال في تموز/يوليو، حضرت إلى البلد تقريباً كل قوات الغزو الجديد. وسيتولون العمل عن كثب مع الأفغان على صعيد المقاطعة وحتى القرى في المقاطعات الرئيسية التي تم تحديدها في خطة حملة رودريغيز.

أصدر بتريوس توجيهاته لمكافحة التمرّد لكل القوات المنتشرة في أفغانستان في مطلع آب/أغسطس: الوصايا الأربع والعشرون لمقارعة «إنجيل الملك داود»، كتيّب مكافحة التمرد الميداني. لم تكن الوثيقة المكونة من أربع صفحات مذكرة عادية من القائد. وعلى المرء أن يسأل كيف كانت أفغانستان لتبدو، بعد ثمانية أعوام عقب ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، لو تم تطبيق هذه التكتيكات منذ البداية.

> **احموا السكان واخدموهم.** فالعقبة الفاصلة هي العقبة البشرية. الشعب هو مركز الثقل. لن تتمكن الحكومة الأفغانية ولا إيساف من بسط سيطرتهما حتى تقوما بتوفير الأمن للسكان وتحوزا ثقتهم وإيمانهم.
>
> **عيشوا مع الشعب.** لا يمكننا أن نذهب إلى القتال. ركّزوا القواعد المشتركة والمخافر المقاتلة قدر الإمكان بالقرب من أولئك الذين نسعى لضمان أمنهم. اتّخذوا القرار حول المواقع بمساهمة شركائنا وبعد التشاور مع المواطنين المحليين والاطلاع على تقويمات المخابرات والأمن.

طاردوا العدو بلا هوادة. بالتعاون مع الشركاء الأفغان، أحكموا قبضتكم على المتمردين ولا تفلتوهم. عندما يقاتل المتطرفون، دعوهم يدفعوا الثمن. طاردوا أولئك الذين يشكلون تهديداً للشعب واقضوا عليهم. لا تدعوهم يرهبون الأبرياء. استهدفوا الشبكة بأكملها، لا مجرد أفراد.

سيروا. توقفوا، لا تموتوا وأنتم قابعون في المركبة. قوموا بدوريات راجلة كلما كان ذلك متاحاً واختلطوا بالسكان. اخلعوا نظاراتكم الشمسية. يمكن استكشاف الوضع الميداني من خلال الاختلاط وجهاً لوجه، دون أي حواجز كالنظارات الباليستية أو نظارات أوكلي.

كونوا صادقين. تغلّبوا على المتمرّدين واللاعبين المؤذين الرئيسيين. استبِقوا الشائعات. قدموا معلومات دقيقة لسلسلة القيادة وللقادة الأفغان وللشعب وللصحافة بأسرع ما يمكن. فالاستقامة ضرورية جداً في هذه الحرب. تجنّبوا الصيد في الماء العكر، ولا تحاولوا أن «تزجوا بأنفسكم» في موقف محرج. اعترفوا بالنكسات والإخفاقات، بما فيها خسائر المدنيين، ثم حددوا بعدها كيف سنرد وما الذي تعلمناه.

طبّقوا قيمنا. ابقوا مؤمنين بالقيم التي نحافظ عليها بعناية. فهذا ما يميّزنا عن أعدائنا. نحن منخرطون في مهمة قاسية. وهي في الغالب وحشية وتتطلب جهداً جسدياً كما أنها مرهقة. اختبرنا كلنا لحظات غضب، لكننا لن نرضخ للانتقام الأعمى أو التسامح مع أي أفعال غير مقبولة من الآخرين.

وقد تم غربلة تلك ألمُسَلَّمات وغيرها بعناية[1] في كتيّب مكافحة التمرّد الميداني» لعام ٢٠٠٦، في أول مراجعة لعقيدة الجيش حول مكافحة التمرّد منذ التشرة الميدانية Field Circular 100-20، وهو كتيّب موجز عن القتال الخفيف

(١) أوضح نائب رئيس الأركان السابق في الجيش اللواء جاك كين هذه النقطة في: *The U.S. Army and U.S. Marine Corps Counterinsurgency Field Manual* (Chicago: University of Chicago Press, 2007), p. xiv.

الحدّة صدر عام ١٩٨٦ وصمد خلال التخلي الممنهج عن كل شيء تعلمه الجيش عن حرب مكافحة التمرد بعد فيتنام. وقد تم تحميل الكتيّب الجديد الذي أصدره بتريوس بصفته قائد مركز القوات المشتركة في ليفينوورث ١,٥ مليون مرة خلال الشهر الأول لنشره عبر الشبكة العنكبوتية للجيش في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦. قامت بعد ذلك مطبعة جامعة شيكاغو بإصداره ضمن كتيّب، تم عرضه[١] على غلاف نشرة كتب نيويورك تايمز. وقد ذكر المقدم السابق جون ناغل[٢]، مساعد بتريوس، ضمن الكلمة الافتتاحية للكتاب أنه في بداية الحرب العراقية عام ٢٠٠٣، كان معظم ضباط الجيش التقليدي يعلمون عن الحرب الأهلية أكثر مما يعلمون عن مكافحة التمرّد. إلا أنه عقب تولي بتريوس القيادة في أفغانستان بعد سبع سنوات، لم يعد هذا صحيحاً، والفضل يعود لكثير من الدروس القاسية، وجهود بتريوس في ليفنوورث عام ٢٠٠٦، ونجاح عقيدة مكافحة التمرد خلال غزو العراق عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨.

كان صحيحاً بما لا يدع مجالاً للشك أن القوات الأميركية لم تنجح في مكافحة التمرد خلال السنوات السبع أو الثماني الأولى للحرب في أفغانستان، نظراً لتركيز القوات والمصادر في العراق، إلا أن مكريستال كان يسعى لشن حملة لمكافحة التمرد على مدى سنة كاملة قبل وصول بتريوس. كان يمتلك عدد كبير من القوات الأميركية ـ وعلى وجه الخصوص الضباط قادة الوحدات ـ خبرة سابقة في مكافحة التمرّد في أفغانستان والعراق. وكانت توجيهات بتريوس لمكافحة التمرد تحمل بين ثناياها بعض أوجه الشبه[٣] مع التوجيهات التي أصدرها في العراق عام ٢٠٠٧، لكن مع بعض التعديلات لتناسب التحديات في أفغانستان.

أصدر بتريوس توجيهاته لأول مرة في ٢٧ تموز/يوليو، ليعود ويسحب الوثيقة

---

(١) Samantha Power, "Our War on Terror," *The New York Times Book Review*, July 29, 2007.

(٢) *The U.S. Army and U.S. Marine Corps Counterinsurgency Field Manual*, p. xv.

(٣) العقيد دانييل روبر، مدير مركز الجيش الأميركي وفيلق البحرية الأميركية لمكافحة التمرّد، أدلى بهذه النقطة في ملحوظة على الموقع الإلكتروني للمركز، http://usacac.army.mil/cac2/coin.

بشكل مستغرب بمجرد أن أصدرها. عندما عاود إصدارها بعد خمسة أيام، فسَّر أن هذا كان تحديثه الأول، وقد تم تنقيحه بشكل طفيف بناءً للملاحظات التي وصلته من «الشركاء الأفغان» و«الشيوخ» وفرق القوات الخاصة في وادي زركو التابع لولاية هرات. «أرحب بمزيد من الملاحظات» كما كتب بتريوس. وقد لطفت معظم التغييرات من حدّة الموقف حيال الفساد من خلال التركيز على ضرورة التعاون مع الشركاء الأفغان في حلف الناتو.

> **ساهموا في الوقوف بوجه ثقافة الإفلات من العقاب.** طالبان ليست العدو الوحيد للشعب. فالناس مهددون أيضاً من الحكم المنقوص والفساد وإساءة استخدام السلطة ـ مجنّد طالبان. وقد التزم الرئيس قرضاي بشكل صريح مواجهة تلك التهديدات. تعاونوا مع شركائنا الأفغان للمساهمة في بلورة كلامه إلى أفعال ومساعدة شركائنا على حماية الشعب من اللاعبين القذرين والإرهابيين.

تم إضافة عبارتين فقط إلى الإصدار السابق: عبارة «ساهموا» قبل «في الوقوف بوجه ثقافة الإفلات من العقاب» ـ ما يعني أن هذا أمر لم يكن باستطاعة القوات الأميركية القيام به من دون الشراكة مع الأفغان ـ وعبارة «بشكل صريح»، للإضاءة على التزام قرضاي محاربة الفساد. كان بتريوس يأمل أن يرى قرضاي وهو يتولى دوراً ريادياً في ذلك المسعى المهم.

> **كونوا ضيوفاً ودودين.** عاملوا الشعب الأفغاني وممتلكاته باحترام. فكّروا في كيفية قيادتنا العربات وتنفيذ دوريات وكيف نتعاطى مع الناس وكيف نساعد المجتمع. انظروا إلى سلوكنا من خلال أعين الأفغان، وقوموا مع حلفائنا بالتشاور مع الشيوخ قبل السعي لمهمات وعمليات جديدة.

وهذه الجملة الأخيرة مقتبسة من النسخة السابقة مع بعض التنقيح، والتي كانت تتألف سابقاً من جملتين كالتالي: «انظروا لأفعالكم من منظار الأفغان. فإقصاء المدنيين الأفغان يزرع بذور هزيمتكم».

أهدر بتريوس بعض الوقت في تنفيذ برنامج الشرطة المحلية الأفغانية الذي أخذ الموافقة عليه بُعَيْد وصوله في تموز/يوليو. كانت حماسته تستند في جزء منها إلى أطروحة كتبها الرائد في القوات الخاصة جيم غانت[1] بعنوان «كل قبيلة على حدة: استراتيجية للنجاح في أفغانستان» One Tribe at a Time: A Strategy for Success in Afghanistan. وقد جعلها بتريوس قراءة مطلوبة من القادة في أفغانستان. لو آمنت بما كان يقوله غانت، كما فعل بتريوس، لكنت آمنت أن النجاح كان ممكناً في أفغانستان، وأنه يمكن بالفعل أسر قلوب الأفغان وعقولهم.

طبع غانت وهو ابن مدير مدرسة متوسطة في لاس كروسيس بنيو مكسيكو، أوشاماً لـِ «أخيل» ورموز صينية تقول «لا تخشَ أي إنسان» على ذراعه الأيمن. كان يحمل معه ذخيرة أكثر بثلاثة أضعاف مما كان يحتاج إليه في مهمة، وأُطْلِق عليه لقب «لورنس أفغانستان»[2]. لم يكن جميع أقرانه ورؤسائه يؤمنون به إلى حد بعيد، لكن «لورنس العراق» (وهو لقب استحقه بتريوس بعد قضائه أربع سنوات هناك) تبنّى أفكار غانت.

بدأت قصة غانت في أفغانستان مع فريق قوات خاصة من ستة رجال، في فصيلة العمليات ألفا ٣١٦، وهي جزء من مجموعة القوات الخاصة الثالثة في الجيش، في ولايتي كنُر وهلمند خلال عاميْ ٢٠٠٣ و٢٠٠٤. نفّذ غانت وفريقه إنزالاً من المروحية في كنُر، شمال شرق أفغانستان على الحدود مع باكستان، عند منتصف الليل خلال مهمة لتصفية مقاتلين من طالبان وآخرين «معادين للائتلاف». وبعد أن تمكّنوا من الخروج من كمين للقوات المعادية المسلحة بقاذفات آر بي جي، وصلوا إلى قرية تدعى مانغوال، وقد كانت القبيلة التي تقطنها بقيادة مالك (زعيم) اسمه نور أفضل. أمضى غانت ساعات معه شارحاً

(١) Major Jim Gant, *One Tribe a a Time: A Strategy for Success in Afghanistan* (Los Angeles: Nine Sisters Imports, 2009)، Available at http://agora.stevenpressfield.com/2009/10/one-tribe-at-a-time-4-the-full-document-at-last.

(٢) Ann Scott Tyson, “Can This Officer Win the War?” *Washington Post*, January 17, 2010.

له ما الذي كانت فرقته المصغّرة تفعله هناك لمقاتلة طالبان والقاعدة. وبعدما شرح نور أفضل للأميركي أنه كان منخرطاً في قتال مع فرع من قبيلة استولوا على أرض لا تعود ملكيتها لهم، أجاب غانت بأنه وفريقه الذي وصل إلى ثمانية، سيقاتلون مع محاربي المالك الثمانية في القرية إذا لزم الأمر. «وبذلك، وُلِدت علاقة جديدة» كما كتب غانت. «تحدثنا لساعات، ناقشنا خلالها الخطوات التالية التي يجب أن نتخذها. ثم وبشكل مفاجئ، اتكأ المالك على مترجمي وطلب منه إخباري بأنه لم يكن صريحاً بالكامل، وأنه لم يكن لديه ثمانية، بل ثمانون محارباً». وفي وقت لاحق، بعد مزيدٍ من الحديث ومزيدٍ من الشاي، نظر المالك مباشرة في عيون غانت قائلاً: «أيها القائد جيم، لديّ ثمانمئة محارب وهم بتصرفك. عليك أن تطلب فقط وسيكونون ملكاً لك».

يرفض القرويون الأفغان في بعض المناطق كل أشكال التدخل الخارجي، كما أدرك غانت، سواء كان ذلك من قوة أجنبية أو من الحكومة المركزية في كابول. كان شكل الحكم الوحيد الذي يعنيهم هو الحكم القبلي. «لقد شهدنا بشكل مباشر عمق القوة البيّنة (بالرغم من أنها لم تكن ظاهرة لنا في البداية) للمنظومة الدفاعية القبلية»، كما كتب غانت، متحدثاً عن الجيش القبلي الذي وجده بتصرفه. «وقد أدركنا الحاجة الملحّة للعمل مع زعيم القبيلة وإقامة العلاقات معه. رجلاً لرجل، ومحارباً لمحارب».

خلاصة غانت: «يظن العدو أن بإمكانه إعاقتنا. غير أن بإمكاننا أن نجعل الوقت حليفنا إذا أقمنا علاقات وتشاركنا مع القبائل، والأهم من هذا كله، إعلان التزامنا تجاههم. وبمجرد أن يؤمنوا بأننا نتشارك الرؤى نفسها وأننا لن نتركهم، فسيدعموننا ويقاتلون إلى جانبنا». وهذا موضوع متعارف عليه في نظرية مكافحة التمرّد، وبالنسبة لبتريوس، الذي آمن بأن كل عمليات مكافحة التمرّد كانت محلّية، آخذاً بالحسبان أن السياسة على المستوى القبلي كانت مفتاح التحوّل الناجح.

بعد الأكاديمية العسكرية الأميركية، تعمّق اهتمام بتريوس بمكافحة التمرّد فقط

بعدما ذهب إلى فيتشنزا بإيطاليا، وهو ما زال عريساً جديداً حصل على ترقية جديدة لرتبة ملازم ثانٍ. وقد تم تعيينه في الكتيبة الأولى، وهي فريق قتال الكتيبة إيربورن ٥٠٩. وفي تلك الأوقات «للجيش الفارغ»، الذي كان لا يزال يتعافى من فييتنام، كانت الوحدة ٥٠٩ من وحدات النخبة، والخيار الأول للمتخرجين الأوائل من الأكاديمية العسكرية الأميركية. وكانت ضمن المقر الرئيسي لفرقة العمل الأوروبية الجنوبية، والتي كانت مهمتها الأساسية مراقبة الأمن والتحوّل أثناء حرب الأسلحة التكتيكية النووية المتمركزة في إيطاليا واليونان وتركيا، وكان يعني ذلك التمركز أن القيادة العليا قد احتفظت بالوحدة ٥٠٩ لعملياتها الخاصة. وقد كان لدى كثير من نقباء الوحدات وما فوق خبرة قتالية في فييتنام. وكان من بينهم عضو «بلانكهولدر» (*) في فرقة الجوّالة ٧٥/١، رائد اسمه كيث نايتنغيل. وكان بتريوس معجباً بروحه المرِحة والواثقة. سيصبح نايتنغيل موجّهاً لمدى الحياة.

«منذ أن قابلته للمرة الأولى، عرفت أنه مختلف وفريد من نوعه»، كما ذكر نايتنغيل، الذي سيساعد لاحقاً في تطوير ما تحوّل لاحقاً إلى قيادة العمليات الخاصة المشتركة. سيؤدّي دوراً أساسياً في تخطيط عملية إنقاذ رهائن إيران سيئة الطالع والتي انتهت عندما تعطّلت الطائرة في الصحراء وهي في طريقها لإيران في نيسان/أبريل ١٩٨٠. «لقد أوردت خلال تقويم بأن هذا الرجل يملك الإمكانية بأن يصبح رئيس أركان الجيش. وقد أجاب العقيد الذي يدير قيادتنا العليا: لا يمكنك قول ذلك. لكنني أجبت: إنه الواقع» كما ذكر نايتنغيل. «كان بالفعل أفضل من الجميع بأشواط». كانت مهاراته على سبيل المثال، أنه وبالرغم من كونه ملازماً شاباً، فقد أدار جوانب معيّنة من الوحدة خلال توليه منصب قائد كتيبة شديد النزاهة. كان نايتنغيل يحب أن يعتقد بأنه علّم بتريوس بألا يرضى الإجابة سلباً على الإطلاق، وأن يفهم بأن لكل قاعدة استثناء.

أعطت الوحدة ٥٠٩ بتريوس فرصة كبيرة ليتدرب مع قوات الناتو، وقد فعل

(*) أي عضو من الطاقم الأصلي في أول رحلة لسفينة من السفن.

ذلك في بلجيكا وإيطاليا والمملكة المتحدة وألمانيا وفرنسا وتركيا. وخلال مهمة تدريبية في فرنسا للتنافس على وسام المظليين الفرنسي Jump Wings، تعلّم من مارسيل بيجار، وهو لواء فرنسي أسطوري ومظلي وقع في الأسر خلال حصار ديان بيان فو، في فيتنام. بعد إطلاق سراح بيجار، عاد إلى فرنسا ونظّم صفوف رجاله مجدداً، مستفيداً من العبر التي تعلموها خلال قتالهم مع ڤيات مينه، وحاول تهدئة قصبة الجزائر. وقد كان بيجار مصدر إلهام للمقدم بيار راسبيغي من خلال رواية جان لارتغي عام ١٩٦٣ «القادة» The Centurions. قرأ بتريوس الكتاب بصفته نقيباً وأعجب بما قدمه حول القيادة وتماسك وحدات القتال الناجحة. قام بتريوس لاحقاً بمراسلة بيجار، فاتحاً الطريق أمام مراسلة استمرت بشكل متقطع حتى وفاة بيجار صيف عام ٢٠١٠، بعد ثلاثة أسابيع من تولي بتريوس القيادة في أفغانستان. وحتى ذاك الوقت، كان بيجار قد أقرّ بإنجاز بتريوس في العراق وخاطبه مخاطبة الند للند.

بعد جولته في إيطاليا، انضم بتريوس إلى الدورة المتقدمة لضباط القوات المدرعة، حيث تم تشكيله بعدها إلى وحدة المشاة ٢٤ (المؤلّلة) في فورت ستيوارت بجورجيا. وقد خدم هو ومكريستال معاً هناك برتبة نقيب لفترة وجيزة. كما وضع كلاهما نصب عينيه مهمات مع كتيبة الجوّالة الأولى للنخبة، وهي وحدة أُنشِئت في أواسط السبعينيات كجزء من مبادرة رئيس أركان الجيش، والتي ينفذها نايتنغيل وآخرون لبناء وحدة تتمتع بشكل استثنائي بمعايير عالية وجهوزية تدريبية. وقد تميّز بتريوس في الوحدة ٢٤ كقائد مجموعة حتى أنه اختير ليخدم كمعاون شخصي لقائد الوحدة القادم، الجنرال جاك غالفين، الذي سيصبح أهم مرشد له.

كان غالفين قوة فكرية في الجيش الأميركي، وعلى غرار نولتون، فهو من ماساتشوستس وكان باحثاً عسكرياً مثالياً. بعد تشكيله إلى المشاة من الأكاديمية العسكرية الأميركية عام ١٩٥٤، خرج غالفين من حقبة فيتنام وكان واحداً من مجموعة أساسية من الضباط الذي ساهموا في إعادة بناء الجيش في الثمانينيات. عندما وصل غالفين إلى فورت ستيوارت وتولى قيادة وحدة المشاة ٢٤، وجد أن

بتريوس سبقه إلى كل المهام الأولى التي كان يحتاج غالفين للقيام بها، وقام بإنجازها سلفاً. إلا أن امتعاض بتريوس من التضحية بمنصب عمليات الكتيبة في الوحدة، لم يكن سريًّاً جداً.

بعد أن استشعر هذا الأمر، أكد غالفين لبتريوس أن الرؤى التي كان سيجنيها ستساهم في تطوره الشخصي بحيث لن يتاح له ذلك في أية مهمة أخرى. اصطحب غالفين بتريوس في رحلات على امتداد الولايات المتحدة خلال إشرافه على تدريب الوحدات، لتشمل مناورات عسكرية في قاعدة إغلين الجوية في فلوريدا وفورت بليس في تكساس، بالإضافة إلى مناورات دولية ضخمة تُدعى «النجم الساطع» في مصر، الذي صُمّمَ تحضيراً لحرب محتملة في حال اجتاح الاتحاد السوفياتي إيران. وفي المحصلة، قام غالفين وبتريوس بخمس وثلاثين جولة معاً خلال اثني عشر شهراً. «ساعدْني على توسيع نفوذي»، طلب غالفين من بتريوس، آملاً من الضابط الشاب ألا يكون فقط عينيه وأذنيه بل لسانه الناطق أيضاً. وقد ألهم بتريوس غالفين بدوره، حسبما ورد في مذكرات غالفين غير المنشورة والرسائل المتبادلة بينهما. كان غالفين يعتبره «أداة التوجيه» المفكر وصاحب «وجهات نظر ثاقبة ومبتكرة». رأى أقران غالفين أن بتريوس كان «نوعاً من المحفّز» ومصدر طاقة للضابط الأعلى. كان بتريوس يسجل الملاحظات أثناء تعليم غالفين لكبار ضباط الوحدة عن أهمية التاريخ العسكري، ومفهوم «التدريب التسلسلي»، وسلوك عمليات القوة الثقيلة/الخفيفة، ومهارات الباحث العسكري. حتى أنهم ناقشوا تاريخ المعاون الشخصي، الذي قال عنه غالفين بشيء من التردّد إنه يجده «مجيداً».

كما علّم غالفن بتريوس مفهوماً أسماه «ذي بيغ أم»، ويمثل الجانب الروحي أو الميثولوجي للفرد. وتذكّر أنه أخبر بتريوس «عندما يصبح التحدي كبيراً، فنحن بحاجة لقائد يجمعنا سوياً، فالناس يرونك من خلال ميثولوجيتك. كُنْ مثلاً يُحتذى به. ليس بالضرورة أن يكون فاقعاً، مثل باتون ومسدساته الذي كان يُشاهد دائماً وهو يقود إلى الأمام، أو ريدجواي ورُمّاناته اليدوية، أو غرانت وسيجاره. يريدونك

أن تكون أكبر مما أنت عليه، لذلك يقومون بتعظيمك. يشيدون بك أمام الجميع. كن متماشياً مع ذلك كله بأعلى معايير الاستقامة. هكذا تصبح جزءاً من أسطورة».

أعطى غالفين لبتريوس صورة موقعة من لوحة ستامبيد لريمينغتون كهدية وداعية ترمز للفوضى المحيطة خلال تحول وحدة المشاة ٢٤ المستنزفة إلى وحدة مشاة مؤلّلة مدرّبة وجاهزة حيث أصبحت جزءاً من قوات التدخل السريع الجديدة للدولة. أما الصورة ـ ورمزيتها ـ فسترافق بتريوس طيلة حياته المهنية.

كان لغالفين دور فاعل في إقناع بتريوس بالالتحاق بكلية دراسات عليا، ما حمل بتريوس وزوجته وطفلتهما الأولى، آن، إلى برينستون خريف عام ١٩٨٤، حيث بدأ السعي لشهادة الدراسات العليا ـ وفي النهاية دكتوراه ـ في كلية وودرو ويلسون للعلاقات العامة والدولية. وقد سعى بتريوس إلى التعلّم من إرشاد وتوجيه البروفسور ريتشارد أولمان، المعروف بفطرته السليمة وليبراليته الواقعية في العلاقات الخارجية، والذي سيحفّز بتريوس فكرياً. وخلال عمله على أطروحة الدكتوراه، التي أنهاها عام ١٩٨٧، درَّس بتريوس في قسم العلوم الاجتماعية للأكاديمية العسكرية الأميركية. وُلد ابنه ستيفن خلال هذه الاستراحة الأكاديمية، على بعد أميال فقط من مسقط رأس والده، وبعد أربعة أعوام من ولادة ابنة عائلة بتريوس، آن، التي وُلدت خلال حقبة السنة التي تولى فيها الجنرال قيادة كلية الأركان في فورت ليفنوورث.

كان اهتمام بتريوس المتزايد بفييتنام ـ موضوع بحثه للدكتوراه ـ ومكافحة التمرّد واضحاً من خلال رسالة كتبها لغالفين في آب/أغسطس ١٩٨٥ من الأكاديمية العسكرية الأميركية. «أعتقد ان الجدل الكبير القادم سيدور حول عمليات مكافحة التمرّد، وعما إذا كانت الولايات المتحدة ستشارك فيها، وإذا فعلت، فكيف»، كما كتب. «ستكون إحدى المناقشات من دون شك عما إذا كان الجيش قادراً على تطوير قوات مناسبة لعمليات مكافحة التمرّد».

في الصيف التالي، دعاه غالفين لقضاء الوقت معه في المقر الرئيسي للقيادة الجنوبية في بَنَما، الذي كان غالفين قد تولى قيادته كفريق أول حديث بأربع

نجوم. تحمّس بتريوس وعرض بعض الآفاق للبحث ـ لمقارنة الخلافات بين التدخل في فييتنام وبين النشاطات العسكرية في أميركا الوسطى، أو ربما نظرة عامة على جهود الجيش والمسؤولين المدنيين لتنسيق نشاطاتهم. لاحظ بتريوس أن «هذه النشاطات تبدو مثلاً جيداً للتكامل السياسي ـ العسكري، وهو أمر كما تعلمون، يتجنّبه كُثُر في الجيش ويفضّلون الانشغال فقط في أمور عسكرية بحتة ويريدون أن يُتركوا دون تدخل خلال سعيهم وراءها. وتلك الغرائز بالطبع، مناقضة لما يجب فعله خلال خوض قتال خفيف الحدّة. كما تبدو جهود التكامل المدني ـ العسكري مثلاً للنجاح على الرغم من النظام، وليس بسببه».

كان المسرح الذي يتولاه غالفين في القيادة الجنوبية يشمل أميركا الوسطى والجنوبية، وقد تميّز بوجود عدة تمرّدات شيوعية، وقد وجده بتريوس مذهلاً. وسافر مع غالفين إلى كل أنحاء بنما وهندوراس والسلفادور، حيث كان المدربون الأميركيون يساعدون الجيش السلفادوري على هزيمة المقاتلين الشيوعيين. كانت المدة قصيرة، لكنها كانت بنّاءة لبتريوس، الذي تعلّم تدريب قوات الإسناد والميدان حتى تلك المرحلة. «كانت هذه تجربة هائلة»، كما كتب بتريوس لزميل له من برينستون في تموز/يوليو ١٩٨٦. «عندما دخلت منزل [قائد مجموعة الميليشيا في السلفادور] ـ استقبلتني زوجته ورافقتني إلى جناح الضيوف... وسلمتني بندقية رشاشة محشوة لتبقى بصحبتي... سألت [لاحقاً] جندياً سلفادورياً عما إذا شارك في كثير من الاشتباكات. فأجاب: ليس كثيراً، هذا أمرٌ واقع؛ لقد شاركت في ٨٥ قتالاً مسلحاً فقط».

في نهاية الصيف، أرسل غالفين مذكرة لرئيس قسم العلوم الاجتماعية، يشكره فيها على تحرير طفله المدلّل: «لم يحاول ديفيد أن يضع نجومي على كتفيه عندما كان هنا، بل قام بدلاً من ذلك بمساعدتي على تثبيتها على كتفيّ بشكل أكثر فاعلية. طلبت منه أن يساعدني ويعزّز تأثيري وقد فعل ذلك دون أن يزهو بنفسه. في الواقع، لقد أثبت حماسته وتفانيه، وشخصيته السَّلِسة تنقل العدوى لآخرين في فريق القيادة».

أرسل بتريوس مذكرة لغالفين من الأكاديمية العسكرية عقب وصوله في تموز/ يوليو ١٩٨٦. «لترك أثر في ذهنية الجيش عن الحروب الصغيرة»، كما صرح بتريوس: «عليك إضفاء الطابع المؤسسي على أفكارك. وهذا يتطلب بالطبع، أن تضع أفكارك ومفاهيمك في كتيّبات عقائدية». اقترح بتريوس بأن يشجع غالفين موظفيه على إنتاج نسخة جديدة من النشرة الميدانية الخاصة بالقتال خفيف الحدّة. وقد اعتقد أنه يمكن أن يتبلور ليحل مكان كتيّب ميداني «هزيل» حول الموضوع صيغ مطلع الثمانينيات. إن كتيّباً ميدانياً متقناً حول هذا النمط من الحرب، كما ذكر ببصيرة «يمكن أن يكون ذا قيمة كبيرة في السنوات القادمة».

استمر بتريوس بالتعمّق في دراسة فييتنام والقتال خفيف الحدّة، ناقلاً في المذكرة نفسها لغالفين عن كتاب معين استرعى اهتمامه، الجيش وفييتنام لأندرو كريبنفيتش. يقول كريبنفيتش فيه إن الجيش لم يفهم استراتيجية حملته بالشكل الصحيح، وإنه ركّز كثيراً على «الحرب الكبرى» ـ على وحدات ضخمة تقوم بعمليات البحث والتدمير ـ في حين كان يجب أن يركز أكثر على «الحرب الصغرى»، أي على عناصر قليلة تعيش مع السكان وتحفظ أمنهم والمساعدة على تطوير قدرة الدولة المضيفة ليحققوا أمنهم ويحكموا أنفسهم. كان بتريوس يعتقد أن كتاب كريبنفيتش[1] كان «الأفضل بلا منازع» وقد استخدمه لاحقاً في تعميم كتيّب مكافحة التمرّد الميداني. «ربما كان يجب أن نزاوج ما بين كتاب كريبنفيتش وكتاب هاري سمرز حول الاستراتيجية (والذي، كما تعلم، ينتقد انهماكنا بالتمرد)» كما كتب لغالفين. كان يمكن للاثنين معاً أن يقدما حلاً ـ على الرغم من أنني أتساءل أحياناً عما إن كان هناك شيء يمكننا فعله «للفوز» في فييتنام في ظل عدم رغبة السكان المحليين في احتمال مدة الحملة الطويلة وفي ظل غياب «دوارت الفيتنامي»، كما استنتج بتريوس، مشيراً إلى

(١) في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥، كتب كريبنفيتش مقالة ناقشت مقاربة حملة لمكافحة تمرد كلاسيكية في العراق. Andrew F. Krepinevich, "How to Win in Iraq," *Foreign Affairs*, September/October 2005.

خوسيه نابوليون دوارت، القائد السلفادوري الذي عمل معه الجيش الأميركي بنجاح على تسريح القوات هناك وإعادة دمجها.

أنهى بتريوس رسالته للدكتوراه في برينستون «الجيش الأميركي وعِبَر فييتنام: دراسة حول التأثير الأميركي واستخدام القوة في حقبة ما بعد فييتنام»، عام ١٩٨٧. وقد استنتج، وعلى عكس الصور النمطية، أن المسؤولين العسكريين في صحوة فييتنام لم يكونوا ثاقبي النظر مقارنة بشركائهم المدنيين. وقد بنى هذا الاستنتاج على اختبار نماذج تاريخية بين كوريا وفييتنام، ومناقشة حول إرث فييتنام، وأخيراً مراجعة للتدخل العسكري ما بعد فييتنام ـ أحد عشر تدخّلاً بالمجمل ـ خلال أواسط الثمانينيات.

فقد تبين له أن ما بين ١٩٧٣ و١٩٨٦، كان صنّاع القرار في الجيش يميلون نحو مقاربة أكثر حذراً من مستشاري الرئيس المدنيين الأساسيين والأكثر اطلاعاً خلال توصياتهم عما إذا كان سيقحم الجنود. وخلال بحثه سلّط الضوء على استنتاجات صمويل هانتنغتون، التي بيّنت له في «العسكري والدولة»، وهو عمله المؤثر حول تاريخ مهنة الجيش والعلاقات المدنية ـ العسكرية حتى الحرب العالمية الثانية وبعدها من ١٩٤٠ حتى أواسط الخمسينيات، أن المسؤولين العسكريين كانوا مهنيين حذرين. أما بالنسبة للمستقبل، فقد قدم ثلاثة استنتاجات: أولاً، أن الحروب الصغيرة كانت تهديداً وشيكاً في الأفق أكثر من الحروب النووية أو الحروب واسعة النطاق. ثانياً، كان الجيش بحاجة للتحضير، حتى وإن كان مستبعداً بأن يوصي صنّاع القرار بالتدخل. وثالثاً، أنه كان من الحكمة عندما كان ممكناً، استعمال فرق صغيرة من المستشارين أكثر من نشر مكثّف للقوات لمساعدة الدول المنخرطة في حملة لمكافحة التمرّد، وهو استنتاج كوّنه من خلال خبرته في أميركا اللاتينية.

لكن أثناء تقويمه للفشل في فييتنام، بدلاً من إلقاء الملامة على القادة المدنيين أو المراسلين الصحفيين (كما كانت الموضة بين أولئك الذين يرتدون الزي العسكري في ذلك الوقت)، فقد استنتج، على غرار كريبنفيتش، أن الجيش

خاض الحرب بالاتجاه الخطأ. فبدلاً من استراتيجيات على نمط «ابحث ودمّر»، كان يمكن لقادة الجيش أن يُبلوا بلاءً أفضل من ذلك بكثير في ظل تكتيكات تصنف تحت عنوان «مكافحة التمرد».

عندما أنهى دراسته في برينستون وتعليمه في الأكاديمية العسكرية، انضم الرائد بتريوس مجدّداً إلى مُوجّهه الجنرال غالفين، الذي كان سيصبح القائد الأعلى للناتو في أوروبا، ضمن مقر القيادة العليا للقوات المتحالفة في أوروبا، ببلجيكا. كان هناك قرابة ٢٥٠ ألف جندي أميركي في أوروبا في ذلك الوقت، وكانت غالبيتهم العظمى متمركزة في ألمانيا الغربية. فقد كانت البقعة الرئيسية، ومركز الثقل، للجيش الأميركي. وافق بتريوس على الخدمة كمعاون عسكري لغالفين لكن بشرطين: أولاً، أن يُتاح له السفر مع غالفين والاستماع إلى رئيسه يلقي الخطابات التي صاغها بتريوس. وثانياً، أن يُنتدب إلى وحدة تكتيكية في أوروبا بعد سنة يمضيها كمعد خطابات. فقد كان بعيداً عن القوات لخمس سنوات وكان متلهفاً للعودة إلى الميدان.

أما في الوقت الحاضر، فقد أخذ دروساً في قيادة الناتو. «ما زال الرئيس يدهشني حتى الآن»، كما كتب بتريوس لمرشده من الوحدة ٥٠٩، نايتنغيل، في كانون الثاني/يناير ١٩٨٨. «طوال فترة معرفتي به، تعوّد غالفين، وخلال أشهر من توليه القيادة، البدء بمشروع ما ويثبت فعلاً مدى رؤيته من ناحية الأهمية التي يكتسبها لاحقاً. هنا... فإن وضع الناتو متعلّق بمعاهدة حظر الصواريخ النووية متوسطة المدى».

إلا أن الدرس الأبرز الذي تعلّمه بتريوس، كان حول العلاقات المدنية العسكرية ومسؤولية كبار القادة خلال اتخاذ القرار السياسي. أشار غالفين في خطاب ألقاه بعد سنة من توليه القيادة، بأن وراثة قرار قبول معاهدة حظر الصواريخ النووية المتوسطة المدى شكّل «أمراً بالزحف» ما يعني أنه «حان الوقت للجيش كي يمضي قدُماً، إلا إذا شعرنا بأننا لا نستطيع تنفيذ المهمة في ظل الترتيبات الجديدة»، أي بعد إزالة الصواريخ المتوسطة المدى التي شكّلت الخط الأمامي للردع النووي في أوروبا في ذلك الحين.

انضم بتريوس مجدداً إلى المشاة بصفته ضابط عمليات الكتيبة في الفيلق الأول لوحدة المشاة الثالثة (المؤلّلة)، المتموضعة في شفاينفورت بألمانيا. بعد قضاء سنة هناك، حملت أضخم تدريب لقوة مقابل قوة في تاريخ الناتو، تم اختياره ليصبح ضابط عمليات الفيلق. وقد أحب كل ما يتعلق بمناورات الحرب الواسعة النطاق وتدريب القوات المؤلّلة، كما ذكر بتريوس في رسالة لكيث نايتنغيل شتاء عام ١٩٨٨، باستثناء تنفيذ مناورات النيران الحية المدبّرة تقريباً. ففي حين سعى لزيادة الواقعية من خلال جملة سيناريوهات، إلا أن القدرة على التنبّؤ في مثل تلك المناورات ستزعجه لسنوات.

بالمجمل، استمتع بتريوس جداً في منصبه الجديد. فقد أحب هو وهولي أن يعيشا في قرية ألمانية صغيرة مع طفليهما الصغيرين، كما أن بتريوس كان سعيداً بموقعه كضابط عمليات الكتيبة. رن جرس الهاتف، وكان الجنرال كارل فيونو، رئيس أركان الجيش، يريده أن يسافر إلى واشنطن في الحال لإجراء مقابلة عمل بصفته معاونه الشخصي. سمع رئيس أركان الجيش عن بتريوس من معاونه الحالي وفحص بتريوس من خلال نولتون وغالفين. وقد ذُهل بما سمعه: صاحب ضمير صاحٍ، ودود، ذكي، يزخر بالأفكار الجديدة، إيجابي. كان باستطاعة فيونو التعامل معَ الإشاعات حول طموحات الضابط الشاب إذا ما أبلى بتريوس جيداً: «إنْ كان تعريف الضابط المندفع بأنه شخص يبحث عن المهمات الصعبة، فأنا أريد جيشاً من الضباط المندفعين!». ستكون هاتان السنتان آخر سنتين لفيونو في الخدمة الفعلية، وقد أراد معاوناً من بين الأوائل. «لقد أردت الأفضل»، كما قال.

كان بتريوس مفتوناً بالفرصة ولكن الأسى يعتصر قلبه لتركه الفرق العسكرية، حتى هاتفه غالفين لتقديم المشورة حول هذه الفرصة. أجاب بتريوس في رسالة: «كما سبق وذكرت، فأنا أعتصر على فرصة ترك العسكرية باكراً، والانتقال مرة أخرى... إلخ. كنت قلقاً من رد فعلك حيال أي قرار كنت سأتخذه بخصوص العمل كمعاون: فلو قاومت فرصة العمل، كنت قلقاً من اعتقادك بأنني أقدّم اهتمامات المهنة والعائلة على الجيش». بعد عودته إلى واشنطن، التقى بتريوس

فيونو الجَلِف للمرة الأولى. وقد أراد فيونو أن يعرف كيف كان يشعر حيال العمل. أجاب بتريوس بأنه في وضع «مربح في كلتا الحالتين. فإن أصبحت معاونك فسأتعلم كثيراً. وإن لم توظفني فسأستمر في الكتيبة أس٣، وهو ما أفضّله!».

«لن أكون بحاجة إليك لو أنك أردت فرصة العمل فعلاً». أجاب فيونو. «أريدك حاضراً خلال ثلاثة أسابيع».

بحلول آب/أغسطس ١٩٨٩، نقل بتريوس عائلته إلى واشنطن حيث كانت فرصته المؤاتية لنيل أعلى مراتب الجيش. جاب بتريوس العالم مع فيونو، وبعد بضعة أشهر في العمل، بدأت إدارة بوش الأولى الغزو الأميركي لپنما للقبض على السياسي النافذ والخارج عن القانون، مانويل نورييغا. كانت المهمة تقضي بحماية المواطنين في بنما، وضمان التشغيل الآمن لقناة بنما ودعم المؤسسات الديمقراطية هناك. وقد كان هذا الغزو الأشد تعقيداً من حالات «الانتشار الطارئ» منذ فييتنام. «وقد حصل القادة المسؤولون على فرصة وضع خطة المعركة ومن ثم خوض المعركة حسب الخطة»، كما ذكر فيونو في خطاب له في كانون الثاني/ يناير ١٩٩٠ كان بتريوس قد ساعده في تنقيحه.

وفي الفترة الممتدة ما بين غزو پنما والانتشار الذي بدأ بعد الغزو العراقي للكويت في آب/أغسطس ١٩٩٠، ركّز فيونو على تهيئة الجيش لشتّى أنواع التهديدات المستقبلية على أرض المعركة. وفي الليلة السابقة لتقديمه «ورقة بيضاء» مهمة جداً خلال فطور لمجموعة محرري الدفاع ومن بعد ذلك للجيش بأكمله، سلم فيونو بتريوس المسوّدة الأخيرة، مشيراً إلى أنها ما زالت بحاجة للعمل عليها. أمضى بتريوس الليل صاحياً مع مُعدّي خطاب فيونو لتنقيح الوثيقة، التي أوردت ضرورات فيونو الست لجيش «مدرب وجاهز». قرّبت مثل هذه الجهود بتريوس من رؤسائه. فقد كان قادراً على تقديم توصيات استراتيجية وتشغيلية، وفهم تفكير رؤسائه وساعدهم على نقل أفكارهم بشكل أكثر إقناعاً.

راقب بتريوس فيونو وهو يدير خطة بالغة التعقيد لدعم انتشار القوات ضمن ما تحول لاحقاً لحرب الخليج الثانية ١٩٩١. أخذه فيونو في ثلاث رحلات إلى

الخليج خلال تلك الفترة ورافقه إلى اجتماعات مع الجنرال نورمان شوارزكوف وفريق المقر الرئيسي للقيادة المركزية في الرياض، الذي كان يشرف على حرب الخليج الثانية وعاصفة الصحراء. كان بتريوس بحاجة ماسة لأن يتشكّل إلى الخليج وقد حاول أن يحمل فيونو على إعفائه من منصبه. لكن آخر شيء كان يمكن لفيونو أن يفعله، والبلد في حالة حرب، هو أن يتخلى عن يده اليمنى.

بعد الحرب، كتب بتريوس مذكرة لفيونو موجِزاً ما اعتقد أنها أوجه القصور في كتيبة المشاة المؤلّلة الأساسية في الجيش، بما في ذلك تدريب المشاة الراجل غير الكافي، ومجموعات المقر الرئيسي التي كانت ضخمة، والمجموعات المضادة للدبابات التي استهلكت كثيراً من الموارد مقارنة بما كانت تقدمه. حمل فيونو بتريوس على أن يكتب له مذكرة ليوقعها وأصدر أمراً لأركان الجيش لإجراء مراجعة.

كان فيونو يقوّم معاونه الشاب باعتباره محفّزاً له. فقد نصحه بتريوس مرة في نهاية يوم طويلٍ ومضنٍ بأن عليه ببساطة أن يكون بأفضل حالاته خلال مهمة خطابية تلك الليلة في لويفيل: «أيها الرئيس، أعلم أنك متعب، نحن كلنا متعبون»، كما يتذكّر فيونو كلام بتريوس: «أعلم أنك ألقيت ست خطب اليوم وسافرت إلى جميع أنحاء البلد. لكن تلك المجموعة الموجودة الليلة لا تعرف أنك ألقيت ست خطب. لا تعرف أين كنت اليوم. هي تعرف فقط بأنك رئيس أركان الجيش. وهذه هي المرة الأولى والأخيرة التي ستستمع فيها لرئيس أركان الجيش». أدرك فيونو ذلك. «قلت: حسناً، هلمّوا بنا»، كما تذكّر. «ثم ألقيت خطاباً متقناً للغاية!».

في حين بدأ بتريوس تحضير نفسه ذهنياً للعودة إلى المشاة، كان يراقب تركيز فيونو على بناء جيش «مدرب وجاهز». آمن فيونو أنه بتطوير المبادئ والأفكار الأساسية ومن خلال التواصل المستمر، فقد دربهم لكل المعارك. وكان مفهوم بتريوس حول المهام الأربع للقيادة الاستراتيجية ـ فهم الأفكار الكبرى بشكل صحيح، ونقلها بشكل فاعل، والإشراف بشدة على تنفيذها من العسكر، وخلق

مرجع لردود الفعل لقياس التقدم وتنقيح الأفكار الكبرى ـ قد تطوّر مباشرة من فيونو.

لتطوير التدريب في النزاع الخفيف الحدّة، أوعز فيونو لعقيد اسمه جاك كين، وهو رجل إيرلندي عريض المنكبين ومظلي من مدينة نيويورك حامل شهادة دراسات عليا في الفلسفة، كي يؤسس مركز تدريب جديداً للمشاة الخفيفة والذي تم تأسيسه في فورت شافيه بلويزيانا، مركز تدريب التأهب المشترك. أما كين، الذي خدم قائد فصيلة في فييتنام، فقد وجد نفسه من ضمن مجموعة صغيرة من القادة العسكريين الذي وصلوا بنهاية الثمانينيات إلى أن مستقبل الحرب، وفي ظل حرب باردة على مشارف الانتهاء، سيشمل على الأرجح صراعات خفيفة الحدّة: مساعي السلام وعمليات مكافحة التمرّد. كان كين سيتقاعد كنائب رئيس أركان الجيش بأربع نجوم، والاستمرار خلال التقاعد، بتأدية دور أساسي في الدفاع عن غزو العراق.

التقى بتريوس كين لأول مرة خلال إحدى رحلات فيونو إلى مركز التدريب الجديد في فورت بولك. وأدرك كين بسرعة أن بإمكانه اكتساب رؤى قيّمة حول تفكير فيونو من خلال معاونه الشاب. «كان محترماً مع الأشخاص الأعلى منه رتبة، لكن من دون خوف أو غرور»، روى كين عن بتريوس. «وقد حصل بيننا تواصل متين على الفور»، كما ذكر كين. وكان الوقت الذي أمضاه بتريوس في أميركا الوسطى مع غالفين قد رسَّخ اعتقاده بأن الحروب الصغرى كانت تشكل تهديد المستقبل. سيشكل مركز التدريب الجديد الذي أسسه كين لفيونو أساساً لإثبات أهمية تكتيكات المشاة الخفيفة الجديدة في الجيش، والتي كانت قد شدّدت لعقود مضت على المشاة المدرّعة والمؤلّلة لحالة الجهوزية التقليدية في الحرب. وسيتحوّل كين بسرعة موجّهاً أساسياً لبتريوس أيضاً.

وفي الوقت الذي شارفت فيه ولاية فيونو كرئيس على الانتهاء في تموز/ يوليو ١٩٩١، انتظر بتريوس بفارغ الصبر إطلاق لائحة جديدة من المقدَّمين المعينين قادةً للكتائب. كان قد اختار بالفعل وحدة في إيربورن ١٠١. وكانت

قد وصلت لتوها من العراق، حيث ساعد جنودها على منع انسحاب وحدة من الحرس الجمهوري إلى داخل الكويت.

خلال المؤتمرات الصحفية التي عقدها بتريوس في أفغانستان أواسط آب/ أغسطس ٢٠١٠، ألحّ عليه المراسلون لمعرفة شعوره من الانسحاب المقرر تموز/ يوليو اللاحق. خلال مقابلته المسماة «لقاء مع الإعلام»، أشار بتريوس إلى أن مدى الانسحاب سيستند إلى الأوضاع على الأرض ولن يكون انسحاباً متهوّراً بأي شكل. وعندما سُئل بتريوس عما إذا كان بإمكانه رؤية نفسه وهو يبلغ الرئيس في تموز/يوليو التالي بأن الظروف لم تسمح بالانسحاب، أجاب بأنه ليس أمراً لا يمكن تصديقه، مشيراً إلى أن الخطة، من جهة أخرى، كانت واضحة وأن النية كانت تقضي بتنفيذها بكل تأكيد.

أما وزير الدفاع روبرت غيتس فقد اتخذ منحىً مختلفاً بعضِ الشيء في اليوم التالي في واشنطن، قائلاً في مقابلة صحفية بأنه لم يكن هناك شك لدى أحد بأن انسحاباً متواضعاً على الأقل سيبدأ في تموز/يوليو ٢٠١١. أما جين هارمن، النائب الديمقراطي من كاليفورنيا، ومايكل أوهانلون، الديمقراطي المعتدل ومحلل قضايا الدفاع في بروكينغز إنستيتيوشن، فقد أخذا حجة غيتس خطوة إلى الأمام، طالبين من أوباما بأن يعلن صراحة عن عدد القوات التي يمكن أن تنسحب في تموز/يوليو ٢٠١١. ومن شأن هذا أن يهدّئ من المخاوف بأن الحرب لن تنتهي خلال الإعلان بأن الانسحاب لن يكون متهوّراً. فقد بدا إنقاص القوات من ١٠٠ ألف إلى ٨٠ ألفاً بنهاية ٢٠١١ منطقياً بالنسبة لهم. لكن بتريوس كان يعلم من خلال قيادته للغزو في العراق، بأن عمليات مكافحة التمرّد كانت تتطلّب جنوداً على الأرض، وتتطلّب كثيراً منهم، وأن تقديم الالتزامات لسحب عدد محدّد من القوات خلال ١٨ شهراً كان بالتالي متهوّراً. لم يكن أحد أفضل في الحفاظ على المكاسب وترسيخها على صعيد المقاطعات والقرى من الجنود الأميركيين، وقد كان متردّداً في إطلاق الوعود أو التوقّعات مسبقاً حول عدد الأميركيين الذين سيعودون إلى الديار.

كان جزءٌ من الحساسية نابعاً من خطاب أوباما المتلفز للشعب في ٣١ آب/ أغسطس، الذي أعلن فيه نهاية العمليات العسكرية في العراق بعد سبع سنوات ونصف السنة. كان بتريوس ومعاونوه يستمعون إلى بيان مهم من الرئيس بخصوص الحل في أفغانستان. وقد حصلوا على الحل الذي كانوا يتوخونه، والتزاماً لا لبس فيه بسحب القوات في تموز/يوليو التالي. «الآن، وبينما نقترب من سنتنا العاشرة من القتال في أفغانستان، هناك أولئك الذين يسألون، عن دراية، أسئلة محرجة حول مهمتنا هناك»، كما صرح الرئيس من المكتب البيضوي.

لكن يجب ألا نغفل عما هو خطر. وأثناء حديثنا هذا، تستمر القاعدة بالتخطيط ضدنا، وتبقى قيادتها مستقرة في المنطقة الحدودية ما بين أفغانستان وباكستان. سنعمل على تعطيل القاعدة وتفكيكها وهزيمتها، وفي الوقت نفسه منع أفغانستان من أن تشكل مرة أخرى قاعدة للإرهابيين. وبسبب تراجعنا في العراق، فنحن قادرون الآن على استخدام الموارد الضرورية لنبادر إلى الهجوم. في الواقع، خلال الأشهر التسعة عشر الأخيرة، كان حوالى اثني عشر من قادة القاعدة ـ والمئات من حلفاء القاعدة المتشدّدين ـ قد قُتِلوا أو أُسروا حول العالم.

فضمن أفغانستان، أصدرت أوامري بنشر قوات إضافية ـ بقيادة الجنرال بتريوس ـ وهم يقاتلون لتحطيم زخم طالبان. كما في غزو العراق، ستكون هذه القوات في موقعها لمدة محدودة لتعطي الفرصة للأفغان كي يبنوا قدرتهم ويؤمّنوا مستقبلهم. لكن كما كانت الحال في العراق، لا يمكننا أن نفعل للأفغان ما عليهم فعله في النهاية لأنفسهم. لهذا نقوم بتدريب قوات الأمن الأفغانية ونؤيد الحل السياسي لمشاكل أفغانستان.... سيتم تحديد نطاق إنقاص جنودنا حسب الظروف على الأرض، وسيستمر دعمنا لأفغانستان. لكن لا تُخطِئوا: سيبدأ هذا التحوّل لأن الحرب المفتوحة لا تخدم مصالحنا ولا مصالح الشعب الأفغاني.

كما أن الأفغان سيصبحون مسؤولين في النهاية عن قوة أخرى تعطي الزخم

لظهور طالبان مجدداً: الفساد في حكومة حميد قرضاي. وفي الليلة التي ألقى فيها أوباما خطابه، انتشرت القصة حول طرد قرضاي[1] لواحد من أعلى المدّعين العامين منصباً في أفغانستان، وهو فضل أحمد فقيريار، لرفضه التراجع عن تحقيقات حول الفساد كان قد تورّط فيها أعضاء كبار في حكومة قرضاي. كان فريق فقيريار يستجوب سبعة عشر عضواً من حكومة قرضاي، وخمسة حكام ولايات، وثلاثة سفراء. وقد ضاعف من المشكلة بروز المصادفة المزعجة بأن أحد أولئك المسؤولين قيد التحقيق، محمد ضيا صالحي، رئيس الشؤون الإدارية في مجلس الأمن القومي، ورد بأنه مسجل على جدول رواتب وكالة المخابرات المركزية لسنوات.

كانت حكومة قرضاي تُعتبر إحدى أكثر حكومات العالم فساداً. وكان عجز قرضاي الواضح في معالجة ذلك التحدي يجذّر القلق داخل إدارة أوباما حيال جدارة شريكها الأفغاني. وفي مطلع آب/أغسطس، أمر قرضاي بفتح تحقيق حول وحدتين كانت الولايات المتحدة قد أنشأتهما لمنع المسؤولين الأفغان من تهريب الملايين خارج البلد وبناء قصور لهم في الإمارات العربية المتحدة. وقد أمر قرضاي بالاستجوابات عقب اعتقال صالحي، أحد كبار معاونيه، بحجة التماسه رشوة للمساعدة على حجب تحقيق في الفساد حول شركة مالية. اتصل صالحي بقرضاي من السجن بعد الإفراج عنه. وبعد مدة قصيرة من وصول بتريوس في مطلع آب/أغسطس، أوردت مجموعة لا تتوخّى الربح تدعى Integrity Watch Afghanistan نتائج استطلاع أجرته، تظهر بأن الفساد قد تضاعف منذ عام ٢٠٠٦، ويحتمل أن يكون بالنسبة نفسها لكمية الأموال التي تدخل البلد، بتخمين حوالى مليار دولار رشى تم دفعها عام ٢٠٠٩ فقط. وقد استند الاستطلاع إلى مقابلات أجريت مع ٦٥٠٠ أفغاني. واحد من أصل سبعة ذكر أنه اختبر الرشوة في حياته اليومية، وعائلة واحدة من أصل أربع عائلات ذكرت أنها اضطرّت لدفع رشى للحصول على خدمات حكومية.

---

(١) Dexter Filkins and Alissa J. Rubin, "Graft-Fighting Prosecutor Dismissed in Afghanistan," *New York Times*, August 29, 2010.

تبنّى بتريوس مقاربة طويلة المدى للقلق الطارئ للفساد، مبيناً أنها مسألة تراث ستحتاج إلى جيل أو أكثر لكي تتحقّق. لم يكن قادة آخرون من الولايات المتحدة على هذا القدر من الصبر. فقبل سنة تحديداً، كان السفير إيكنبيري قد حذر الرئيس أوباما من إرسال مزيدٍ من الجنود بسبب الفساد. لكن بتريوس كان يعتقد أن التحسين ممكن[1]، وكان يعرف من هو الضابط الذي سيقود هذا المسعى. وفي اليوم الذي طلب فيه أوباما منه تولي القيادة في أفغانستان في أواخر حزيران/يونيو ذاك، كان بتريوس قد قرر مسبقاً أن يصطحب معه العميد هـ. ر. مكماستر.

كان مكماستر لاعب ركبي وحائزاً دكتوراه في التاريخ من جامعة شمال كارولينا في تشابل هيل. كما كان ضابطاً شعبياً وحر التفكير، وقد أثبت إمكانية تطبيق عقيدة مكافحة التمرّد الكلاسيكية في تل عفر، شمال العراق عام ٢٠٠٥، قبل أن تصبح مكافحة التمرّد مقاربة الجيش السائدة خلال الغزو عام ٢٠٠٧. نشر مكماستر ثقافة الاحترام بشكل عفوي بين أبناء الشعب العراقي ووزع جنوده على مخافر صغيرة في أنحاء المدينة. وكان ذلك الضابط الحاضر لتبني عقيدة محدّدة لبتريوس، البديهية الأخيرة في توجيهات مكافحة التمرّد الصادرة مؤخراً:

> **ارتجلوا.** في ظل غياب التوجيهات أو الأوامر، تخيّلوا ماذا يمكن أن تكون الأوامر ونفّذوها بشراسة.

سيقود مكماستر ما سيصبح لاحقاً قوات العمل المشتركة بين الوكالات «شفافيات». وشفافيات تعني «الشفافية» بلغة الباشتو والداري. مع المحافظة على رغبته بالبقاء ضمن حدود اللياقة وعدم مواجهة الحكومة الأفغانية، وميل البعض لسرقة كميات كبيرة من المساعدات الأميركية، سيقوم مكماستر بتخطيط معظم أعماله خلف الأبواب المغلقة.

---

(١) العقيد وليام ب. هيكمان (المكتب التنفيذي للفريق أول بتريوس)، رسالة بريد إلكتروني للمؤلف، ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٠.

كانت مهمته الأولى تقضي بصياغة التوجيهات التعاقدية لمكافحة التمرد، التي نقّحها بتريوس وأصدرها في ٨ أيلول/سبتمبر. كانت هذه محاولتهم لخلق الانضباط والمبادئ خلال صياغة العقود. وكانت المسلّمات المصاغة بجملة واحدة تلخص توجيهات مكافحة التمرّد التي سبق أن أصدرها بتريوس:

> وظّفوا الأفغان أولاً، واشتروا المنتجات الأفغانية، وابنوا القدرة الأفغانية. اعرفوا أولئك الذين نتعاقد معهم. استشيروا القادة المحليين وأشركوهم. تصرّفوا. أنهوا الحكاية.

كانت مشكلة الفساد تستشري بشكل هائل. ففي تقرير صادر في شهر تشرين الأول/أكتوبر تبين أن ما بين عامي ٢٠٠٢ و٢٠١٠، أنفقت الولايات المتحَدة وحدها حوالي ٥٥,٧ مليار دولار[1] في تمويل إعادة الإعمار من دون وضع استراتيجية شاملة من الولايات المتحدة كي تحارب الفساد في أفغانستان. حتى تلك المرحلة، كانت المبالغ التي أُنفقت على إعادة الإعمار في أفغانستان قد تجاوزت المبالغ التي أُنفقت على إعادة الإعمار في العراق. مع أن مجلس الشيوخ كان قد طلب من البنتاغون ووزارة الخارجية والوكالة الأميركية للتنمية الدولية إعداد قاعدة بيانات مشتركة لمراقبة تعويضات المقاولين، إلا أنهم لم يكونوا يعرفون استخدامها. كما أنه لم يكن بمقدورهم إخبار مدققي الحسابات عن العقود واتفاقيات التعاون والهبات التي أُنفق بموجبها على إعادة الإعمار وما الذي تم إنفاقه على دعم القوات الأميركية وأنشطة أخرى. ففي السنوات المالية ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ و٢٠٠٩ فقط، تم رصد أكثر من ١٧,٧ مليار دولار لِـ ٦٩٠٠ مقاول. لم يفِ الكثير من المقاولين بموجباتهم العقدية. فعلى سبيل المثال، عندما منح فيلق المهندسين في الجيش الأميركي عقداً بقيمة ٥,٩ مليون دولار لبناء ستة مقرات رئيسية للشرطة الوطنية الأفغانية في ولايتي هلمند وقندهار، تم تحرير الدفعات للمتعاقدين الأفغان بالرغم من التأخير

(١) انظر تقرير تشرين الأول/أكتوبر للمفتش الخاص الأعلى لإعادة إعمار أفغانستان (SIGAR) للكونغرس، ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٠، www.sigar.mil/oct2010Report.asp.

في إنجاز المشروع والبناء الرديء. كان الإشراف على المشروع متراخياً جداً ما سيضطر دافعي الضرائب الأميركيين لدفع مليون دولار إضافي ـ ١٧ بالمئة من قيمة العقد ـ لإكمال المقرات الرئيسية.

اضمحلت عيوب المسؤولين الأميركيين هذه مقارنةً مع أوجه القصور لدى شركائهم الأفغان. ففي ولاية نانغرهار، استثمرت الولايات المتحدة ١٠٠ مليون دولار عام ٢٠٠٩. وقد خلص التقرير إلى أن «الولايات لا تملك القدرة على إدارة أموال التنمية بنفسها وتفتقر إلى عملية تخطيط تنمية فاعلة ولا تستطيع المحافظة على ديمومة المشاريع المنجزة». كما عبَّر أيضاً عن «القلق المتزايد من بعض الشركات المولجة حفظ الأمن والذخائر ومهمة إعادة الإعمار التي كانت تختلس النقود لتمويل طالبان والمجموعات الإجرامية». وكان من بين المجموعات التي عرفت وتم إيقافها وحرمانها وطن ريسك مانيجمنت، وهي شركة مقاولات أفغانية للأمن الخاص وجد المفتش العام المتخصّص «أنها كانت تحوّل مبالغ ضخمة من الأموال للمتمردين[1]». كان يرأس الشركة اثنان من أبناء أعمام قرضاي، أحمد راتب بوبال ورشيد بوبال. وبالمجمل، أحصى المدقّقون واحداً وثمانين تحقيقاً جارياً، بما في ذلك مشاكل في مصرف كابول، وتهريب كميات ضخمة من النقود عبر مطار كابول. عَقَدَ البيروقراطيون الأميركيون الصفقات بالطريقة الوحيدة التي يعرفونها، من دون أي إدراك تقريباً للعادات الأفغانية أو تقدير لما يمكن لرجال الأعمال الأفغان أن يكونوا قادرين على إنجازه.

توقّع بتريوس أن يؤيد سائر الموظفين العسكريين والمدنيين المشاركين في المقاولات، والقادة خصوصاً، وجود شركاء أفغان كفوءين لتعيين موظفين إضافيين للإشراف على العقود، ولاتخاذ الإجراءات اللازمة ضد الاستثمارات الفاسدة التي كانت تعيق إتمام المهمة. كانت المقاولات سلاحاً فاعلاً في كل جزء منه تماماً كالنيران الحية. «على القادة أن يعرفوا ما هو نشاط المقاولات الذي ينفذ

(١) "U.S. Blacklists Afghan Security Firm Tied to Karzai," Associated Press, December 9, 2010.

على أرض ميدانهم ومن المستفيد من تلك العقود»، كما نصت توجيهات بتريوس التعاقدية. «تمّموا المقاولات مع الاستخبارات والخطط والعمليات لتضعوا تأثيراً إيجابياً ولتحقيق أهداف حملتنا بشكل أفضل».

كان بتريوس يريد فريق مكماستر لمكافحة الفساد لوضع خطة تساعد الشركاء الأفغان على تحديد ثقافة الفساد التي اقترنت بالنظام السياسي الأفغاني وعلى اختراقها ومحاكمتها وحلّها. كان ذلك أمراً صعباً على مكماستر، أصعب من تهدئة تل عفر في شمال العراق، الإنجاز البارز لفوجه هناك. كان الفساد مستشرياً في أفغانستان إلى حد اعتباره من المسلمات، مثل الشوارع الصاخبة والمغبّرة في كابول والشتاء البارد والقارس الذي يخيّم على معظم أنحاء البلد. شنّ فريق مكماستر حملته بجدول زمني بدأ في مطلع أيلول/سبتمبر، ومخزون من ملخصات عرض باوربوينت، وأخيراً خطة حددت بدقة شبكات الرعاية السياسية التي تسيطر عليها نخب أفغانستان، بمن فيهم بعض المسؤولين من أعلى المستويات في حكومة قرضاي.

كان لقب مكماستر في منصبه الجديد «هينشمان» (التابع الأمين)، لكن بطول قامة تبلغ خمس أقدام وثمانية إنشات، وصلعة براقة وجبين كان يتجعّد حدّة حين كان يلقي الموجز، فقد ظهر كأنه مبشّر معمداني من الجنوب، يزخر بالطاقة والحماس. كان فريقه الذي يضم مجموعة من خبراء مكافحة الفساد من الجيش ووزارة الخارجية والمقاولين، عازماً على ابتكار مقاربات جديدة.

قصد مكماستر عصر أحد أيام أيلول/سبتمبر تلفزيون تولو في كابول. كانت قناة تولو قد ساعدت في التشديد على شفافية قرضاي خلال الانتخابات الرئاسية الأفغانية ومسائل أخرى من خلال نشراتها الأخبارية ورسائل الإذاعة العامة. وقد أتى مكماستر مع ضابطين برتبة مقدم للقاء المنتجين في حملة لمكافحة الفساد على الراديو والتلفزيون والملصقات واللوحات الإعلانية كان الجيش الأميركي يمولها.

التقى مكماستر مع سعد محسني، مؤسس تلفزيون تولو والرئيس التنفيذي للمنظمة الأم، مجموعة موبي. لم يكن محسني، الذي شعر بالارتياح نفسه في

واشنطن أو سيدني أو كابول أو دبي، صديقاً مقرباً من قرضاي. فقد تعاون مع الوكالة الأميركية للتنمية الدولية لمتابعة مبادرات متنوعة حول الشفافية. كان محسني ابن دبلوماسي أفغاني ترعرع في الخارج، وكان حريصاً على بلده، كما أنه وجد طريقة لجني الأموال هناك. لم يكن واضحاً بالكامل كم كان سجله أصلياً؛ بيد أن مكماستر أدرك الفاعلية التي يمكن أن تقدمها الشراكة مع محسني بخصوص الشفافية. كما أدرك أن محسني كان يملك دهاءً في أساليب السياسة الأفغانية. فمحسني لعب دور محامي الشيطان في خطة مكماستر.

سأل محسني: «إن لم يكن هناك قرار سياسي في أفغانستان للاتهام والمحاكمة، فما الذي ستفعلونه حيال ذلك؟».

«حسناً، إنها كما تعلم، مسألة تأثير، دفع الحكومة للقيام بالمزيد»، أجاب مكماستر.

ثم سأل محسني: «هل هذا هو خياركم الوحيد؟».

فأجابه مكماستر: «كلا، هناك خيارات كثيرة أخرى. يتعلق جزء كبير من المشكلة مباشرة بأموالنا، وكيفية تدفق أموالنا في النظام. لذا، فتلك مسألة نتحكّم فيها بشكل كبير: من يحصل على أموال المجتمع الدولي، وأموالنا بالتحديد».

«لكن هذا لا ينفع، وأنت تعلم ذلك»، تابع محسني.

«هل تقصد أن شخصاً سيصادر العقد من شخص آخر؟ أو أن بإمكانهم الحصول على المال من الإيرانيين أو غيرهم؟ أو أنهم يستطيعون استعمال أموال تجارة المخدرات؟ فهم يعملون ضمن تلك المنطقة الرمادية».

كان محسني فطناً جداً لقبول صيغة مكماستر المبسطة وكان يأخذه إلى فهم أعمق للوضع في أفغانستان، حيث الأمور كانت مغايرة بشكل كبير لما كان يطفو على السطح. كانت ثقافة مكماستر قد بدأت مرحلة الدخول في الدراسات العليا.

في مطلع تشرين الأول/أكتوبر، ترأس مكماستر استعراضاً لمهمة فريق عمل الشفافية في غرفة عرض الملخّصات في المقر الرئيسي لإيساف التي غصّت

بحوالى خمسين ممثلاً للوكالات من الناتو ووزارة الخارجية وإدارة مكافحة المخدرات ووكالات أخرى معنية بمسعى مكافحة الفساد. كان مكماستر فظاً في ملاحظاته الافتتاحية، مشيراً إلى أنه «ليس هناك أي نموذج تاريخي عن حل قضية فساد حصرياً من قِبَل طرف خارجي».

«كنا نتعاون مع القادة الأفغان والمجتمع المدني، وننظر إلى المشكلة من خلال وجهة نظر أفغانية قدر استطاعتنا»، كما ذكر، مضيفاً بأن «الكثير من القادة الذين نتعاون معهم... متواطئون نوعاً ما مع خيوط المشكلة التي نتعامل معها». كان هدف مكماستر هو إيجاد «جزر النزاهة» بين المسؤولين الأفغان ومكافأتهم علناً. كان هناك إدراك عام بأن وزارتي الدفاع والداخلية كانتا نظيفتين بشكل واضح. لكن الحقيقة، كما ذكر أحد نواب مكماستر، أن وزارة الدفاع «تسرق الأموال بشكل أساسي منا نحن»، بينما تتولى وزارة الداخلية «سرقة الأموال من الشعب بشكل أساسي». كان مكماستر يعلم أن مسعاه يستلزم التعامل على الأقل مع الحد الأدنى من الأفغان الفاسدين لتحقيق أهدافه. كان هذا أكثر ما باستطاعته القيام به لتحقيق أهداف بتريوس.

سلم مكماستر الإيجاز للمقدم جويل رايبرن، وهو حامل شهادة دكتوراه كان يطلق عليه بتريوس لقب «مفكّره الخاص» عندما كانوا سوياً في العراق والقيادة المركزية. استهل رايبرن باستنتاج المجموعة بأن أصل الفساد في أفغانستان هو من «شبكات حماية المجرمين»، لكنه أضاف أن العديد من «الإصلاحيين» العظماء من الأفغان قد تم رصدهم أيضاً ضمن مواقع حكومية رفيعة المستوى. كان على الجيش الأميركي والمجتمع الدولي الأشمل أن يبدأوا بتنظيف بيوتهم الخاصة حيث يتوقفون، على حد قول رايبرن، عن «إحداث الضرر» من خلال الأموال التي كانوا يضخونها في البلد. ثم كان عليهم أن يتأكدوا من أن نظراءهم الأفغان قد أدركوا «خطورة المشكلة بحيث يعمدون إلى إدخال التهديد، إلى أكبر حد ممكن، لأنفسهم ولمستقبل دولتهم».

وتدخّل مكماستر قائلاً إن ثمة مشكلة تكمن في الميل إلى الاستجابة برد

فعل حيال ممارسات الفساد بدلاً من المبادرة لمهاجمتها بشكل استباقي من خلال مواجهة القادة الأفغان بالأدلة القاطعة وسأل: «هل ندرك ما هي الرؤيا لمساعي مكافحة الفساد بالنسبة للقادة الأفغان الأساسيين؟ هل سألناهم ذلك السؤال؟ هل حدّدنا ما هي الأرضية المشتركة التي نملكها، وما الذي يمكننا فعله سوياً؟».

كان من بين الجالسين حول الطاولة الطويلة المستطيلة ديفيد كيلكولين، وهو مفكر أسترالي ـ أميركي متخصّص في قضايا الدفاع ومكافحة التمرّد، وأصبح المستشار الرئيسي لبتريوس خلال غزو العراق. وعلى غرار مكماستر، لم يستحِ من الجهر بما كان يفكر به. فقد لفت انتباه بتريوس عام ٢٠٠٦ عقب كتابة مقالة «ثمان وعشرون مقالة: أساسيات مكافحة التمرد على صعيد السرايا»، التي أبلى فيها أفضل من ت. إ. لورنس في مقالته «سبع وعشرون مقالة»[1] حول القتال في الشرق الأوسط عام ١٩١٧.

«المسألة معقّدة كثيراً تقريباً»، كما عبَّر كيلكولين بعد الاستماع للموجز بحوالي نصف ساعة. «أنتم تجعلونها تبدو متشعّبة جداً». ثم تابع بأنهم، كي يفلحوا، كان عليهم التعامل مع كل طبقات الفساد، بدءاً بالأفغان. لكن هذا سيشمل الولايات المتحدة وحكومات دول الائتلاف والمجتمع الدولي، حيث ساهم كل ذلك في استفحال المشكلة. فقد كان الجميع متواطئين بشكل أو بآخر.

«بالفعل، هذا صحيح» أكد مكماستر. «ليس هناك من طريقة تفضي إلى أي شكل مركزي من التصرّف. عليها فقط أن تفسح المجال أمام شتى المنظمات المشاركة في هذه المسألة للقيام بمبادرة والتعامل مع فهم مشترك للمشكلة». وقد شمل ذلك كماً هائلاً من اللاعبين، ولم يحاول أحد أن ينسق المبادرة بشكل شامل قبل مكماستر ومسعاه للشفافية.

وقد جاءت وصفة مكماستر عقب أساسيات بتريوس للإدارة. سيكون تطبيق تلك الأساسيات بشكل صحيح في أفغانستان، برغم ذلك، تحدّي العمر.

(١) دليل صاغه ت. إ. لورنس للضباط البريطانيين في: *Arab Bulletin*, August, 20, 1917.

الفصل الرابع

سكريمنغ إيغلز

كان لدى بتريوس شغف خاص بالوحدة ١٠١ إيربورن، سكريمنغ إيغلز. كانت الوحدة الشهيرة قد خضعت لاختبارات قاسية في أوروبا إبان الحرب العالمية الثانية، كما في فييتنام والعراق. وكانت أفغانستان ستفعل الشيء نفسه.

بعد إنشاء الوحدة في آب/أغسطس ١٩٤٢، كان مظليُّوها من أوائل الذين نزلوا في فرنسا المحتلة في الساعات الأولى من إنزالات النورماندي في ٦ حزيران/يونيو ١٩٤٤. كما ستشارك بعد بضعة أشهر، في الإنزالات الجوية في هولندا والتي ستبدأ عملية تحرير البلد. وفي كانون الأول/ديسمبر، رفضت الوحدة الاستسلام بعد محاصرتها من الألمان في بستوني، بلجيكا، خلال معركة الثغرة. وكان الرد الشهير للقائد بالإنابة إزاء الإنذار الألماني الأخير بعبارة واحدة: «مجانين!» وخلال فترة انتشار الوحدة في فييتنام عام ١٩٦٩، كانت الكتيبة ٣، فوج المشاة ١٨٧ ـ راكاسانز ـ تشق طريقها عبر همبرغر هيل في إحدى أشرس المعارك في حرب فييتنام، وتتكبد خسائر فادحة: ٣٢٩ رجلاً ما بين قتيل وجريح. أما لقب الكتيبة فيعود إلى حقبة احتلال اليابان في الحرب العالمية الثانية، حيث كان السكان المحليون يطلقون لقب «راكاسانز» على المظليين.

في عام ١٩٩١، وضمن عملية عاصفة الصحراء في العراق، نفذت راكاسانز هجوماً جوياً وحاصرت الحرس الجمهوري العراقي الذي انسحب من الكويت وهو في طريق العودة إلى العراق. بعد بضعة أشهر، تولى المقدم ديفيد بتريوس

قيادة الكتيبة ٣، فوج المشاة ١٨٧، وهي الخطوة الأولى على السلم المهني لأي ضابط يتطلع لتقلد رتبة أربع نجوم. بعد اثنتي عشرة سنة، تولى قيادة الوحدة ١٠١ إيربورن خلال غزو العراق عام ٢٠٠٣، وقد كانت المرة الأولى التي يقود فيها بتريوس معركة. فقاد الوحدة خلال معارك في النجف وكربلاء والحلّة على الطريق إلى بغداد. لكن بتريوس وعناصر وحدته أثبتوا جدارتهم الفعلية في الموصل عقب الغزو، فأحرزوا تقدماً سريعاً بعد إظهار قدرتهم على تولي بناء الدولة وعمليات مكافحة التمرد، وحققوا التهدئة في منطقتهم شمال العراق خلال توليهم مسؤوليتها في وقت كانت القطاعات الأخرى تدور في دوامة العنف.

بمجرد وصول فريق اللواء القتالي الرابع إلى أفغانستان في آب/أغسطس باعتباره الوحدة الأخيرة في حملة أوباما، تم نشر الوحدة ١٠١ بكاملها تقريباً في الوقت نفسه وللمرة الأولى منذ أن قاد بتريوس «سكريمنغ إيغلز» إلى بغداد. كما كان اللواء الرابع، المعروف بِـ«كوراهيز» ـ عبارة تعني «الصامد الوحيد» بلغة الشيروكي ـ سينضم إلى فريق اللواء القتالي الأول، الملقب بـ«بستون»، وفريق اللواء القتالي الثالث، «راكاسانز»، في قطاع الحرب الشرقي. وسبق أن أُرسِل فريق اللواء القتالي الثاني للوحدة، إلى جنوب أفغانستان لتطهير المنطقة الواقعة غرب مدينة قندهار كجزء من عملية هجوم التنين. وقد شكل آلاف الجنود من لواء الهجوم فريقاً مع وحدات من الجيش الوطني الأفغاني، واقتحموا مقاطعة دري غرب مدينة قندهار في أواسط أيلول/سبتمبر، لتفتيش القرى المزروعة بالألغام بحثاً عن متمرّدي طالبان. فبالإضافة إلى أهميتها التكتيكية، كانت المنطقة ذات أهمية رمزية لا يُستهان بها: فقد تم إنشاء حركة طالبان في قرية في المقاطعة تدعى سنسغار[١] عام ١٩٩٤ عندما أمر رجل دين يدعى ملّا محمد عمر بإعدام مجرم حرب محلي أقدم على اغتصاب فتاتين شنقاً. كانت عملية هجوم التنين أول عملية عسكرية كبيرة شنها الأميركيون منذ قيام قوات مشاة البحرية بتطهير مرجة، غرب ولاية هلمند، في شباط/فبراير.

(١) David S. Cloud, “Troops Launch Afghan Assault,” *Los Angeles Times*, September 15, 2010.

كان بتريوس وفريقه يعلمون أن الهجوم المكثف الذي رافق عملية مشاة البحرية تلك قد أتى بنتائج عكسية بعد أن أصبحت المعارك في مرجة أقسى وأطول بكثير مما كانت تتوقعه قيادة الولايات المتحدة. لم يتم الإعلان عن عملية هجوم التنين إلا بعد مضي أسبوع، على الرغم من ضراوة القتال في المنطقة لأشهر عدة. كانت عملية هجوم التنين أضخم عملية شُنَّت خلال حرب التسع سنوات والمرحلة الثالثة والأخيرة من حملة أوسع لتطهير ولاية قندهار، أطلق عليها اسم عملية همكاري، وتعني «التعاون» بلغة الداري. بدأت المرحلة الأولى في مطلع الصيف لرفع مستوى الأمن في قندهار، المدينة الأكثر أهمية في جنوب أفغانستان، بعدد سكان يزيد عن ٥٠٠ ألف نسمة. أما المرحلة الثانية فبدأت في أواخر تموز/يوليو تزامناً مع تطهير وادي نهر أرغنداب، شمال المدينة. وقد شكلت المنطقة المخضوضرة في أرغنداب، لما تحويه من كروم العنب وبساتين الرمان وحقول الماريجوانا، الغطاء الأمثل لمقاتلي طالبان في نصب الكمائن للقوات الأميركية، مستخدمين رشاشات AK-47s وآر بي جي، والتواري مجدداً داخل القرى.

وكانت المرحلة الثالثة عبارة عن عملية هجوم التنين، التي شملت هجمات على مواقع طالبان على طول الطريق الدائري السريع ومقاطعة ذري، غرب المدينة. أما المرحلة الرابعة، فكانت في تشرين الأول/أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر، فكانت تقضي بطرد طالبان من زنغ آباد وموشان وتلوكان في مقاطعة بنجواي جنوب غرب المدينة. إحكام السيطرة على ذري وأرغنداب وبنجواي يؤدي إلى خفض تدفق المتمرّدين إلى قندهار بشكل كبير.

بالاستناد إلى المعطيات التاريخية الأميركية، فقد بدا القتال في أفغانستان أمراً أصغر حجماً. كانت الخسائر في الأرواح من الأميركيين في معارك الصيف، التي كانت الأعلى منذ بدء الحرب في ٢٠٠١، قد وصلت إلى أوجها مع ٥٨ قتيلاً في تموز/يوليو ومن ثم انخفضت إلى ٥٤ قتيلاً في آب/أغسطس، فإلى ٣٠ قتيلاً في أيلول/سبتمبر، قبل أن تعاود الارتفاع إلى ٤٧ قتيلاً في تشرين الأول/أكتوبر مع بدء

الهجمات الجديدة. لكن تلك الإحصاءات كانت مضلّلة ولم تعكس وحشية القتال في أفغانستان، وخاصة في الجنوب، حيث كانت الأراضي مزروعة بآلاف العبوات الناسفة. وقد صُمّمَت الأسلحة المحلية الصنع بكل الأشكال والحجوم، بعضها معد للتفجير عبر لوحة ضغط وبعضها الآخر سلكياً وآخر لاسلكياً. وقد شوَّهت العبوات البدائية الجنود بقوة، فنسفت الأذرع والأرجل وملأت الجذوع بالشظايا وأحدثت قوة صدمتها ارتجاجاً في الأدمغة ما أدى إلى معاناة أعداد هائلة من الجنود من إصابات غير مفهومة وصعبة التشخيص تُعرَف بالإصابة الدماغية الرضحية. كما عانى آخرون بصمت من الكرب الذي يلي الرضح. في بعض الحالات، إن أفضل ما يعكس طبيعة القتال الوحشية في أفغانستان، خاصة في الجنوب، هي إصابات المعارك التي كانت تتزايد بوتيرة أسرع من عدد القتلى بعشر مرات. ففي حزيران/يونيو، جُرِح ٥٣٩ جندياً أميركياً، وهو المعدل الأعلى خلال شهر منذ بدء الحرب. وازداد العدد إلى ٦٠٦ جرحى في تموز/يوليو ثم ٦٠٨ جرحى في آب/أغسطس وبالكاد انخفض مع انتهاء الصيف وبدء الخريف ومعه عملية هجوم التنين، حيث سجل جرح ٥٩٠ جندياً أميركياً في أيلول/سبتمبر وجرح ٥٧٨ في تشرين الأول/أكتوبر.

خلال زيارة بتريوس الأولى لقندهار في تموز/يوليو، حيث كانت الخسائر في الأرواح والأطراف في أعلى مستوياتها، سأل قائد فريق لواء الهجوم القتالي ١٠١، المقدم أرت كندريان، «ما الذي تحتاجه للفوز؟» فأجاب كندريان أنه بحاجة لمتفجرات إزالة الألغام أم ٥٨ لإمكانية الاختراق، وكلاب الجيش التي تشتَمُّ رائحة العبوات الناسفة، ومترجمين. فسارع بتريوس وأحال هذه الطلبات مباشرة إلى وزير الدفاع غيتس. «أعلم أن بتريوس أخذ هذه الطلبات على عاتقه شخصياً وأنا على ثقة أنه لولا جهوده الشخصية لما كانت تلك الطلبات ستلقى آذاناً صاغية»، كما ذكر كندريان. وخلال زيارة بتريوس الثانية في آب/أغسطس، جمع كندريان قادة كتيبته لإجراء حوار مع بتريوس. عقب انتهاء الاجتماع، طلب بتريوس من الجميع مغادرة الغرفة كي يجلس لبضع دقائق مع كندريان، الذي كان

قد تكبّد خسائر في المعركة أكثر من أي قائد لواء في الوحدة. «كيف تبلي يا أرت؟» سأل بتريوس بوضوح وهو يستشعر الصراع الداخلي الذي يعيشه المقدم وينظر مباشرة إلى عينيه. لم يتحمل أحد عبء خسارة الجنود في المعركة، والشعور الشبيه بشعور من يحمل «جعبة الذخيرة الثقيلة»، مثلما فعل القائد. «رأيت بكل وضوح أنه كان قائد القادة»، كما لفت كندريان، مشيراً إلى أن بتريوس قام بزيارة وحدته فقط خمس مرات خلال العام وكان يتصل بشكل مستمر للاطمئنان على القائد ومجريات القتال.

حتى قبل بدء هجوم التنين رسمياً، كانت قد بدأت مداهمات محددة الهدف لقوات العمليات الخاصة وعمليات تمشيط تمهيدية في قندهار لتحقيق مكاسب سريعة. كان الوضع يتّجه نحو التحسّن، لكن بتريوس لم يكن يريد إعلان النجاح قبل أوانه. كان يدرك تماماً كيف كانت الولايات المتحدة قد بالغت في الوعود في مرجة. وقد أشار إلى هذه الظاهرة في توجيهات مكافحة التمرد: «سيطروا على توقّعاتكم. تجنّبوا الإعلان المبكر للنجاح. تذكروا ما تم تحقيقه وما الذي يجب فعله لاحقاً. اسعوا جاهدين لتقدموا وعوداً أقل ونتائج أكبر».

«ينبغي علينا أن نكون متنبّهين خلال إعلان مواعيد العمليات المقبلة وما الذي نتوقع إنجازه في تاريخ محدد»، كما ذكر بتريوس في خطابه قبل أسبوع من إطلاق العمليات الأولية لهجوم التنين. «من بين الدروس التي تعلمناها من العمليات في وسط هلمند كانت ضرورة أن نكون حذرين بخصوص ما نعلنه». ثم عاد وشدّد على المغزى عينه في خطابه الذي ألقاه بعد ثلاثة أيام. «لن نخبر العدو عن نوايانا قبل الأوان»، على حد قوله. «اقتصرت تصريحاتي خلال تعاملي مع الصحافة على أن العمليات قد ابتدأت وقاومْتُ الإغراء بإعلان تاريخ تحقيق النجاح. لا تغدقوا الوعود حول قندهار: لا تفاصيل، لا تواريخ. هناك حملة مدروسة قد انطلقت، وسينجلي الغبار عن الأحداث».

وقد وقعت معارك ضارية، لكن العثور على طالبان كان أكثر صعوبة عندما كانت قوات لواء الهجوم تدخل قبيل الفجر قرى مقاطعة ذري، التي كان كثير

منها مهجوراً بالكامل. وكان كثير من المتمردين قد ذابوا مجدداً في المجتمع. أما القوة المعبأة، وبمؤازرة من الطائرات الحربية A-10 ثاندر بولت الثانية ومروحيات كايوا وأباتشي، فقد كشفت غطاء طالبان أفضل مما كان بإمكان أي مؤتمر صحفي فعله، لكن هذا لم يكن بالأمر العظيم بالنسبة لبتريوس. فقد كان الهدف تطهير منطقة العدو وطرده من مراكز القيادة والتحكّم التي سيطر عليها مطوّلاً ومواقع تصنيع العبوات الناسفة، وليس القضاء على جميع عناصره.

في حين كانت غالبية لواء الهجوم الثاني للوحدة ١٠١ تتحرك باتجاه مقاطعة ذري، غرب مدينة قندهار، في أيلول/سبتمبر، بقيت وحدة المقدم ديفيد فلين، الكتيبة الأولى لفوج المدفعية الميدانية ٣٢٠، في وادي نهر أرغنداب، شمال غرب مدينة قندهار، لتطهير القرى من مقاتلي طالبان والمئات من العبوات الناسفة التي خلّفوها وراءهم.

كان وادي نهر أرغنداب تاريخياً منطقة وعرة للغاية. كانت الوحدات السابقة هناك قد مُنِيَت بخسائر فادحة، كما خاض جنود فلين قتالاً عنيفاً منذ لحظة وصولهم في أواخر حزيران/يونيو. بعد مرور تسع سنوات على هجمات ٩/١١ الإرهابية، كان فلين قائداً عسكرياً نموذجياً، وخبيراً ومتمرساً في تنفيذ عمليات مكافحة التمرد بعد عدة جولات في المعارك. فلين الذي كان صلب البنية ورياضياً، بعينين زرقاوين ثاقبتين، أصبح جندياً في فوج المدفعية من خلال التدريب. ترعرع في ضاحية نوروود خارج بوسطن، وكان مشجعاً لفريق ريد سوكس، لكنه ارتاد جامعة كلمسون في جنوب كارولينا. أما والده، الذي كان محارباً متمرساً في الحرب الكورية ورقيباً أول متقاعداً في الجيش، فأقنعه بالانضمام إلى فيلق تدريب ضباط الاحتياط ROTC في الكلية. وقد خدم فلين في قندهار من ٢٠٠٤ إلى ٢٠٠٥، حين أدت وحدته المدفعية التابعة لفرقة المشاة ٢٥ ما أسماه دوراً «مؤقتاً» للمشاة. وقد تُذكر تلك الجولة على أنها من «الأعوام الجيدة»، في الحقبة التي سبقت إعادة طالبان رصَّ صفوفها. تم إرساله إلى العراق مع فرقة المشاة ٢٥ في عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧، حيث خدم في

كركوك مع وحدة مدفعية معدة لأغراض أخرى للقيام بمهام المشاة. وقد أطلقوا على أنفسهم «مشاة المدفعية».

عندما تولى قيادة الكتيبة في فورت كامبل عام ٢٠٠٩، أُبلِغ فلين في البداية أن وحدته ستنتشر في العراق. أمضى فلين ستة أشهر مع جنوده لاستعادة مهارات المدفعية، لا لشيء إلا لتغيير التروس والتركيز خلال الأشهر التسعة التالية وذلك بالتدرّب على تكتيك المشاة قبل الانتشار في أفغانستان في أواخر ربيع ٢٠١٠. «لا أستخف بخوف الجيش حيال انهيار مهارات المدفعية، لكنني أؤمن أن عليك القيام بما يجب عليك القيام به الآن للفوز»، على حد قول فلين. «سيكون هناك متسع من الوقت للتدرّب من جديد»[1]. كان لكتائب المدفعية جدوى كمركب أساسي في ألوية الجيش المصمّمة لخوض الحرب الباردة، عندما كان مخطّطو الحرب الأميركيون يتأملون المعارك الملحمية بين القوى الضخمة والمؤلّلة التي شملت مبارزات مدفعية مكثفة. وكان من شأن تحويل جنود المدفعية إلى جنود مشاة قادرين على خوض اشتباكات بالأسلحة الخفيفة، والتواصل مع الناس على صعيد القرى، أن يجعل الكتيبة الأولى، فوج المدفعية ٣٢٠، «توب غانز»، أقرب إلى نمط الحرب التي كانت تخوضها الأمة منذ ٩/١١. كان هذا التحوّل صعباً، لكن فلين آمن بإمكانية تحقّقه.

أصبحت جهوزية قواته مسألة شائكة خلال إحدى أولى المعارك التي خاضوها حين سيَّروا دوريات في وادي نهر أرغنداب بالاشتراك مع جنود متمرسين في القتال من الكتيبة الثانية لمشاة المظليين ٥٠٨، الوحدة إيربورن ٨٢، والذين كانوا سيحلّون محلهم قريباً. في وقت كانت درجات الحرارة تتجاوز فيه ٣٨ درجة مئوية والرطوبة عالية للغاية، قاد المظليون من الوحدة ٨٢ هجوماً على مواقع طالبان عبر بستان في ١١ تموز/يوليو، ليتوقفوا بعد أن أصيب بعض جنود فلين بحالات إغماء ترافقت مع حالات إعياء شديدة من الحرارة المرتفعة. وقد تفاقمت

(١) المقدم ديفيد س. فلين، رسالة بريد إلكتروني للمؤلف، تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٠.

المشكلة بشكل كبير ما استدعى طلب المروحيات لإجلاء الجنود. وعندما وصلت مروحيات بلاك هوك مع التعزيزات، تلقوا وابلاً من النيران بينما كان الجنود يُحمّلون رفاقهم المرضى على متن الطائرة.

بعد أن تمكّن الجنود الذين بقوا في البستان أخيراً، وتحت الرصاص الغزير، من العودة إلى المجمع الذي انطلقت منه الدوريات قبل ساعات عدة، ازدادت حدّة التوتر. فاصطدم قادة الفرق من الوحدة ٨٢ مع ضباط من الوحدة ١٠١. «لن تضعوا رجالي على المحك بعد الآن»، كما أبلغ رئيس الرقباء كريستوفر غيرهارت من الوحدة ٨٢، الملازم ثاني زاك بانتاليو من الوحدة ١٠١. «ينبغي عليكم التفكير برجالي[١]، الذين يقبعون هنا في الخارج منذ أحد عشر شهراً ملعوناً». في تلك الأثناء، أصدر فلين تعليماته لسرب مروحيات مقاتلة بنقل التعزيزات إلى الموقع، ووصل إلى المجمع مع دورية راجلة بعد وقت قصير. كان قد صُعِق من حدّة الرقباء في الوحدة إيربورن ٨٢ تجاه جنوده من الوحدة ١٠١، وقد أوضح لهم أن سلوكهم كان غير مقبول بين الجنود الأميركيين. ثم عاد فنظم تحرّك كلتا الوحدتين من أرض المعركة وقاد تعزيزاته بنفسه إلى المجمع سيراً على الأقدام.

نظراً لجولاته السابقة في أفغانستان والعراق، كان فلين عسكرياً خبيراً في مكافحة التمرّد. وقد وصل إلى أفغانستان كجزء من غزو عام ٢٠١٠ مع فهم دقيق لمقاربة بتريوس التكتيكية. اندفع للمشاركة في المهمة، وكان متحضّراً لضبط التكتيكات حسبما تمليه المهمة.

وقد نقل لاحقاً عن رئيس الرقباء غيرهارت قوله للصحافة إن الجنود من وحدة مدفعية فلين «لم يكونوا مهيّئين، لا جسدياً[٢] ولا ذهنياً ولا تكتيكياً». لكن في شباط/فبراير، وعندما علم فلين أن وحدته ستنتشر في وادي نهر أرغنداب، قام

(١) Brian Mockenhaupt, "The Last Patrol," *The Atlantic*, November, 2010.

(٢) Dion Nissenbaum, "U.S. Soldiers' Mission Shows Afghan War's Uncertainties," McClatchy Newspapers, August 13, 2010.

بتكثيف تدريباتها على عمليات المشاة الراجلة. كان بإمكانه الاحتجاج بأنه كان يفترض بهم أن ينتشروا كوحدة مدفعية في الأساس، لكن نظراً لكونه خدم سابقاً في قندهار، فقد كان يعلم أنهم سيساهمون أكثر بكثير كرجال مشاة ـ وبأنهم سيقومون في النهاية، على الأرجح، بتنفيذ مهمات المشاة في شتى الأحوال. «بصفتي رجل مدفعية، فأنا أدرك تماماً أنه ليس بإمكاننا بلوغ مهارات وخبرة وحدات المشاة الأصيلة في جيشنا»، كما أشار فلين. «لكن في الوقت عينه كنت أعلم أن بإمكاننا تحضير رجالنا ليكونوا أفضل من طالبان[1]، ونحن كذلك بالفعل... لقد درسنا المنطقة ستة أشهر وكنّا قادرين على الاطلاع على التقارير السرية للوحدة ٨٢. كنّا نعرف طبيعة المنطقة والسكان والعدو، وقمنا بدراسة تكتيكات الوحدة ٨٢ وتدربنا عليها في فورت كامبل قبل الانتشار. فالهضبة شديدة الانحدار. وقد ساهم الطقس والغطاء الأخضر وطبيعة الأرض والعدو المخادع في جعل هذا القتال قتالاً صعباً لكننا كنا نتوقّعه». وأشار فلين إلى أن وحدته قد شنت «هجوماً جوياً من دون إنذار» لإجلاء الجنود المصابين بضربة شمس، وهو أمر لا يمكن سوى للقلة القليلة إنجازه من دون تدريب. «كنا جميعاً قد أُرسلنا ثلاث أو أربع أو خمس مرات[2] إلى العراق وأفغانستان ولم نكن لنضع الوحدة في موقف لم تكن مهيأة له»، كما ذكر.

كانت وطأة القتال تشتد على جنوده أكثر فأكثر. ففي ٣٠ تموز/يوليو، بدأوا عملية مدروسة بعناية لتطهير مجموعة أبنية بقيت تحت سيطرة طالبان لفترة طويلة قريباً من مدينة جيلاور. كانت الأبنية التي أطلق عليها الأميركيون اسم «أوبجيكتيف بيكرزفيلد»، تقع عند تقاطع مهم لطريقين رئيسيين كانا يصلان مخافر القتال الأميركية. وقد خيَّم هدوء مريب على بيكرزفيلد بمجرد وصول أول جنود فلين عند طلوع الفجر. انطلق فلين، يرافقه عناصر من موظفي كتيبته وفصيلة

(١) المقدم ديفيد س. فلين، رسالة بريد إلكتروني إلى ديفيد موكينهوبت، ١٩ آب/أغسطس ٢٠١٠.

(٢) Lieutenant Colonel David S. Flynn, comment on “A Reporter to Watch-Brian Mockenhaupt: The Last Patrol,” *Blackfive* blog, blackfive.net, comment posted on October 16, 2010.

أمنه الخاص، سيراً على الأقدام باتجاه بيكرزفيلد قبيل الثامنة صباحاً، تسبقهم قافلة من المهندسين الذين كانوا يقومون بتطهير العبوات الناسفة على الطريق. وما إن اقترب فلين، حتى انفجرت عبوة ناسفة وأطلق عناصر طالبان وابلاً من نيران الأسلحة الخفيفة، ثم تلتها عبوة أخرى. ورأى فلين الاختصاصي مايكل ل. ستانزبري، ٢١، من ماونت جوليت، تينسي، وقد سقط على الطريق مصاباً من جراء الانفجار. فقد قُطع جذعه إلى نصفين، وارتفعت أعمدة كثيفة من الدخان في الجو. يتذكر النقيب أندرو شافر، وهو أحد القادة التابعين لفلين، كيف بدا الوقت في تلك اللحظة وهو يتحول ببطء إلى جوّ من الألم. ثم سمع أحدهم يصيح «إسعافات!»[1] وضجّت أجهزة اللاسلكي بتقارير عن إطلاق رصاص من أسلحة خفيفة مصدرها الجهة الجنوبية.

لم تمضِ دقائق بعد حتى انفجرت عبوة أخرى، مخلّفةً وراءها اثنين من الرقباء التابعين لفلين مضرَّجَين بدمائهما ومغمياً عليهما. ورأى الرقيب كايل ب. ستاوت، ٢٥، من تكساركانا، تكساس، من خلال الدخان الأسود الخانق، مصاباً بجراح خطيرة على الطريق. كان وجهه متجمّداً وفمه مفتوحاً، وارتسمت على وجهه نظرة فارغة. وكان قد خسر ثلاثة من أطرافه. ركع شافر بجانبه وحاول جاهداً وقف ضغط شرايين الدم التي تغطي العظام المصابة وشدها على ما تبقى من الجلد والعضل. وقد تذكّر كم كان غريباً أن ستاوت لم يكن ينزف ـ بل كان جسده «ينصرف» بشكل غريزي إلى قطع الدم عن أطرافه في محاولة يائسة أخيرة لحماية أعضائه الحيوية. ركع فلين بجانبه وحاول مخاطبته ليصحو من إغماءته، ثم تم الاتصال بفريق الإجلاء الطبي. وعلى الفور حطت مروحية بلاك هوك في الحقل على بعد خمسين متراً إلى الشمال الشرقي وأجْلَت ستانزبري وستاوت من أرض المعركة.

تجمّع فلين مع القادة إلى جانب أحد الأبنية البسيطة في بيكرزفيلد للتكتّل

[1] النقيب أندرو شافر، رسالة بريد إلكتروني للمؤلف، ٢٥ آذار/مارس ٢٠١١.

وإعادة رصّ الصفوف لمتابعة الهجوم. وعندما سار على يسار محيط وحدته، شعر بعبوة ناسفة أخرى تهز أرض المعركة، انفجرت على بعد خمسة وثلاثين متراً من المكان الذي كان قد عبره لتوّه. وقد أصيب جنديان على الأقل. وعاد فلين فتجمع مع القادة، وطلب التعزيزات من مقر قيادة الكتيبة لما كان قد تحول في هذه الأثناء إلى اشتباك على مستوى الكتيبة. تحت نيران الأسلحة الخفيفة التي كانت تُطلق من ثلاثة جوانب، أنشأ فلين مخفر قيادة في المبنى الممتلئ بالتـّبْـن. ثم ورد تقرير عبر اللاسلكي عن إصابة أخرى، على بعد ستين متراً إلى الغرب. لدى وصول فلين إلى روبرت بيتمان، وهو رقيب أول متقاعد يعمل كمستشار مع «أسيميتريك وورفير غروب»، كان بيتمان واعياً لكن دون أي رد فعل[1]. كان الدم يخرج من أذنه، وكانت عيناه مفتوحتين لكن دون أي رد فعل. كان يمثل حصناً من القوة بالنسبة للجنود. سأله أحد الجنود «سيد بيتمان، هل تسمعني؟» لم يكن بيتمان قادراً على الكلام، لكنه طَرَفَ بعينيه. كان قد أُصيب بعيار ناري.

بعد مرور الوقت ثقيلاً وكأن لا نهاية له، اقتربت مروحية فريق الإجلاء الطبي، ففتح رجال فلين كل نيرانهم لتأمين التغطية. كان إطلاق النار صاخباً إلى حد الجنون. شق فريق من الجنود طريقهم نحو البلاك هوك وهم يحملون بيتمان أملاً بإنقاذه. أزال دوار المروحية الحطام من موقع الهبوط فيما كانت تقلع. وبعد بضع دقائق، أمسك فلين بشافر. ثم قال له «انسحاب.. لا يمكننا إطلاق النار على هذا النحو. فهناك رفاق لنا على بعد ألف وثمانمئة متر في هذا الاتجاه». كان قلقاً من كثافة النيران في مخفر قيادة نولن.

فأجاب شافر «نعم سيدي»، وهو في حالة من الضياع.

علم شافر وفلين لاحقاً، عندما اشتدت وطأة القتال وقاموا مع الجنود بمناورات على أرض المعركة، بأن ستانزبري وستاوت وبيتمان قد فارقوا الحياة متأثّرين

---

(١) U.S. Army, Official Investigation into the Deaths of Sergeant Stout, Specialist Stansbery, and Mr. Pittman, September 9, 2010 (بيان المقدم ديفيد س. فلين، قائد الكتيبة الأولى، فوج المدفعية الميداني، الوحدة إيربورن ١٠١).

بجراحهم في اللحظات الأولى للمعركة، فاتضح لهم على الفور مدى أهمية هذا المعبر البسيط للعدو. استمر القتال خمسة أيام قبل أن يتمكّن فلين ورجاله من تطهير الهدف.

اتصل فلين بزوجة بيتمان، ميليسا، في اليوم الأول للمعركة، عقب تأكيد نبأ وفاة زوجها. وقد تذكّرها لأنها كانت من أصعب المحادثات الهاتفية على الإطلاق. فيما عدا مقالة قصيرة في النشرة الشهرية لفريق اللواء القتالي الثاني، نبض القلب، لم تحصل معركة بيكرزفيلد على عنوان واحد على الأقل أو تغطية للخبر في الصحافة. فقد كانت مثالاً للمعارك الطاحنة في قندهار والتي لم ترتقِ نسبياً إلى الحرب التقليدية لقوتين متقابلتين. وبمعزل عن ذلك، كانت أرغنداب، كما لاحظ فلين، مكاناً «جهنمياً» للقتال.

بعد أيام عدة، وفي مقر إيساف، استعرض بتريوس المسعى القائم في قندهار خلال خطابه الصباحي: «إن الجانب الأهم في ما يتعلق بقندهار هو أنه مقاربة شاملة بالكامل»، كما أفاد. «قبل بضعة أشهر بدأنا باستهداف طالبان في قندهار من خلال عمليات القوات الخاصة. سنواصل هذه العمليات، وزخم هذه المداهمات شديدة الفعالية. نقوم الآن بتكثيف القوى التقليدية، وسيستمر هذا لنصبح أكثر حضوراً في الأسابيع والأشهر القادمة... والأمر نفسه في ما يتعلق بالزيادة المنتظرة لعناصر الشرطة الأفغانية المحلية. وهذا كله يسير حسب جدول زمني مُحكَم. في المحصلة: هذه هي الطريقة التي يتم فيها تنفيذ عملية مكافحة التمرد؛ فهي ليست عملية تقليدية كما في إنزالات النورماندي ـ علينا أن نوصل هذه الرسالة».

مهما كانت الإخفاقات التي واجهتها قوات فلين خلال المعارك التي وقعت في وادي نهر أرغنداب في تموز/يوليو، فقد تخطّوها في أواخر آب/أغسطس، كونهم توغلوا في بلدة طالبان أكثر بأشواط مما فعلت الوحدة ٨٢ قبلهم. «كان القتال عنيفاً هنا ومحصوراً تقريباً بالقتال الراجل في وادي النهر المغطّى بالنباتات الكثيفة»، كما ذكر فلين. «كان عدد العدو في منطقتنا يُقدَّر بحوالي ١٥٠ من

المقاتلين الأشداء... لقد قمنا بشن عمليتين هجوميتين كبيرتين أوصلتا إلى إقصاء العدو عن هذه المنطقة. نحن نسيطر الآن على القرى التي لطالما شكلت ملاذاً آمناً لطالبان».

بعد ذلك بمدة قصيرة، في بابور، وهي قرية سيطرت عليها طالبان لمدة طويلة، التقى فلين مع وجهاء القرية وأخبرهم أن عليهم الاختيار بين ما إذا كانوا يريدون البقاء تحت سيطرة طالبان أو الحكومة. كان حدسه يخبره بأن القرويين كانوا يكرهون طالبان لكنهم كانوا يخافونهم حتى الموت، خاصة وأنهم رأوهم بأم العين وهم يصفّون أولئك الذين تعاونوا مع الحكومة والأميركيين. وشرع القادة التابعون له بعقد مجالس شورى [مجالس تضم الوجهاء في الغالب] مع الوجهاء في المنطقة، مستعينين ببرنامج «أموال نقدية للعمل» حيث مُنح خمسمئة أفغاني (حوالى عشرة دولارات لكل منهم) في اليوم لتنظيف الأقنية وترميم المساجد وإصلاح الطرقات.

في مطلع تشرين الأول/أكتوبر، ابتكر فلين وقادة أميركيون آخرون خطة نهائية لتطهير وادي نهر أرغنداب مما تبقى من طالبان بمساعدة حاجي شاه محمد، حاكم المقاطعة؛ واللواء محمد نعيم، رئيس مديرية الأمن القومي في قندهار، أي ما يشبه مكتب التحقيقات الفيدرالي؛ والعقيد عبد الرازق، وهو قائد مرموق في الشرطة الحدودية الأفغانية. كانت توب غانز التابعة لفلين قد استولت على مناطق وقرى رئيسية جنوب قناة المنارة، على الجهة الغربية لنهر أرغنداب، لكنهم كانوا لا يزالون بحاجة لتطهير ثماني قرى شمال القناة بما في ذلك تاروك كولاتش وتشاركولبا السفلى وخوسرو السفلى. كان اللواء محمد نعيم قد ترعرع في خوسرو السفلى، وأصبح فلين مقرباً من كريم داد، زعيم القرية أو المالك. أومأ فلين برأسه موافقاً بينما كان اللواء نعيم يشرح أن خوسرو السفلى وتشاركولبا السفلى أصبحتا محاور لنشاط طالبان ومراكز رئيسية لتصنيع المتفجرات وكان ينبغي تطهيرهما.

بدا العقيد عبد الرازق لفلين شاباً أفغانياً متهوراً، يرتدي زي البشتون الراقي: لباس عاجي اللون وقبعة قندهار وحذاء من دون كعب. وفي لمحة عنه وصفت مجلة

هاربر[1] عام ٢٠٠٩ عبد الرازق بأنه مجرم حرب فاسد يحمي تجارة الأفيون على طول الحدود ويعمل عن كثب مع قادة الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي، الذين تغاضوا عن فساده لأنه كان، في ظل قيادته لثلاثة آلاف رجل، فاعلاً بشكل هائل في حفظ السلام في ولاية قندهار. «كنت أحارب في المنطقة التي نتحدث عنها على مدى الأيام المئة الماضية»، على حد قول فلين، أثناء وصفه لخطة تقضي بتطهير تاروك كولاتش والسيطرة عليها بعد هجوم شنته قوات العمليات الخاصة الأميركية لتمكين القوات الأفغانية التابعة لعبد الرازق والقوات الخاصة الأميركية من تطهير خوسرو السفلى وتشاركولبا السفلى وبابور السفلى. نظر عبد الرازق إلى فلين وسأل: «كنت تقاتل في أرغنداب على مدى مئة يوم؟» وأضاف ملوحاً بسبَّابته: «سأنظف أرغنداب كلها في يوم واحد». لم يكن أمام فلين سوى كبح نفسه. لكن عبد الرازق سيثبت أنه قائد تكتيكي مؤثّر في الأيام القادمة.

بدأ فلين العمل على تطهير أرغنداب من خلال هجمات صواريخ موجهة ومدمرة من راجمات منصوبة على شاحنات زِنة عشرة أطنان. ففي أفغانستان، ساندت تلك الأسلحة قيادة العمليات المشتركة الخاصة التابعة للجيش الأميركي بشكل حصري حتى عام ٢٠١٠، حين تم تخصيصها أيضاً لدعم عمليات التطهير التقليدية الشاملة. تدير قيادة العمليات المشتركة الخاصة الوحدات الأكثر سرية وتمرساً في الجيش: قوة دلتا التابعة للجيش، والطاقم ٦ في القوات البحرية الأميركية الخاصة، وسرب التكتيكات الخاص ٢٤ التابع لسلاح الجو، بالإضافة إلى فوج الجوالة ٧٥ التابع للجيش وفوج الطيران للعمليات الخاصة ١٦٠. كانت تلك هي الوحدات التي تشن الغارات الليلية في جميع أنحاء البلد، تديرها قيادة العمليات الخاصة في قاعدة باغرام الجوية.

استهدفت مداهمات فلين مجمعين في خوسرو السفلى كان المتمردون يستخدمونهما لصنع متفجرات من صنع منزلي. عقب ذلك بمدة قصيرة، نشرت

(١) Matthieu Aikins, "The Master of Spin Boldak: Undercover with Afghanistan's Drug-Trafficking Boder Police," *Harper's*, December 2009.

صحيفة شعبية في لندن[1] (ديلي ميل)، قصة نقلت عن فلين إبلاغه للقرويين أنه إذا لم يخبروه عن المكان الذي دفنت فيه العبوات الناسفة في خوسرو السفلى، فسيمحي القرية عن وجه الأرض. لكن المراسلين لم يكونوا في الاجتماع الذي ضم فلين والقرويين، الذين تم إبلاغهم في الواقع أن الأميركيين لن يكون أمامهم خيار سوى تدمير المجمعات من الجو إذا لم يتمكنوا من تحديد الأماكن التي زُرِعت فيها المتفجرات. كان القرويون قد غادروا خوسرو السفلى ولم يعودوا يقطنون فيها وأدركوا أنهم لن يتمكنوا من العودة أبداً حتى إزالة معظم الألغام.

عقب الهجمات الصاروخية، حافظ فلين على مسح متواصل للقرية من خلال تصوير فيديو بطائرة من دون طيار لتقويم أضرار المعركة والتقاط أي شكل من «أشكال الحياة» في خوسرو السفلى، إن كان قد تبقى أي شيء منها. ثم شاهد من مركز قيادته، ستة رجال يسيرون بين حطام المنازل المدمرة. اعتقد فلين أنهم بدوا غاضبين أثناء مرورهم بسرعة حول القرية، وكونهم توقفوا في أماكن مختلفة، فمن الممكن أنهم كانوا يزرعون عبوات جديدة. وعلى الرغم من أن الرجال الستة لم يكونوا مسلحين، كان بإمكان فلين قتلهم بصواريخ إيه جي أم-١١٤ هيلفاير من الطائرة بدون طيار حسب قواعد الاشتباك. لكنه أتاح لهم فرصة الشك، كونه يعلم أن بإمكان القوات الأميركية السيطرة على القرية خلال اثنتين وسبعين ساعة واعتقالهم إذا كانوا لا يزالون هناك.

استمر التخطيط في اليوم التالي عندما كان فلين ينسق مع قوات العمليات الخاصة الأميركية في عملية التطهير، التي أطلق عليها الإسم المُرمَّز «إيغل كلو١». كانت قوات العمليات الخاصة تخطط مع المغاوير الأفغان، لهجمات جوية إضافية على قريتين شمال خوسرو السفلى، هما تاروك كولاتش وخوسرو العليا. وقد عرف النقيب شافر، قائد سرية توب غانز الذي كان يقاتل في تاروك كولاتش منذ تموز/يوليو، المجمعات التي يجب استهدافها. كان يؤيد التدمير قدر

(١) Richard Pendlebury and Jamie Wiseman, "Dicing Death in the Devil's Playground," *Daily Mail*, October 26, 2010.

الإمكان من الجو، لسبب وجيه: فقد مُنِيت وحدته بثلاث خسائر صاعقة هناك خلال الأسبوعين الماضيين. أبلغ فلين قوات العمليات الخاصة أن هناك خمسة أو ستة مجمعات كان يريد نسفها لكن عليهم أن يحاولوا المحافظة على القرية قدر الإمكان لكي يتمكن السكان من العودة إليها من جديد. فقامت قوات العمليات الخاصة بالتنسيق مع فلين لأنها كانت منطقة عملياته، لكنهم هم كانوا من سينفذ. وحين ذهب فلين ليخلد إلى النوم لنحو ساعتين قبيل الهجوم على تاروك كولاتش في الصباح التالي، أبلغ مستشاره التنفيذي، الرائد توم بوريل، أنه لا يؤيد تدمير مجمعات أكثر في القرية إذا لم يكونوا بحاجة لذلك. وعند الساعة ٢:٠٠ فجراً، أوقظه بوريل وأبلغه أن قوات العمليات الخاصة كانت تنوي تدمير القرية بكاملها لأنها كانت مزروعة كلها بشتى أنواع المتفجرات والألغام. وعلى غرار رجال النقيب شافر، تكبّدت قوات العمليات الخاصة إصابات بين صفوفها من العبوات الناسفة خلال الصيف في قرى أرغنداب. ثم اقتنع فلين، وأطلق دفعة نيران مدوية على تاروك كولاتش، مصدعاً جوار البلدة على مدى أميال.

عندما بدأت بي-١ لانسر بإلقاء القنابل التي تزِنُ طنين على القرية، اهتزت الأرض وتصدّعت النوافذ والجدران في مركز قيادة فلين، على بعد أقل من كيلومترين غرب القرية. أنصت موظفو فلين إلى اللاسلكي حين هبطت قوات العمليات الخاصة الأميركية وبدأت الهجوم. وعلى الفور تقريباً، داس أحد جنود الهجوم على عبوة ناسفة، فأربكت قوات العمليات الخاصة وهيَّأتهم لما كان ينتظرهم. وبعدما طهَّروا القرية، اكتشفوا عبوات ناسفة وأباريق من متفجرات منزلية الصنع وبراميل سعة خمسين «غالون» مملوءة بالمتفجرات في البيوت. ثم وصلت قوات الشرطة الحدودية الأفغانية التابعة لعبد الرازق في اليوم التالي، فقاتلت إلى جانب الفرق التي ذهبت إلى تشاركولبا السفلى وخوسرو السفلى.

بعد أشهر عدة، انتشرت في المدونات الإلكترونية شكاوى عن أن فلين، وبدعم مطلق من بتريوس، قد عاد إلى تكتيكات فيتنام، مدمراً القرى ليتمكن من إنقاذها. لكن فلين كان مؤمناً بأن تاروك كولاتش قد دُمّرت بعد أن أقْصَت

طالبان جميع سكانها وزرعت حقولها ومُجمَّعاتها بالمتفجرات. وعندما انتشر جنود النقيب شافر في أنحاء القرية عند طلوع الفجر في ٧ تشرين الأول/أكتوبر، كانت المُجمَّعات والقنابل قد زالت.

بنهاية تشرين الأول/أكتوبر، كانت كتيبة فلين قد خسرت سبعة جنود ومنحت ثلاثة وثمانين وسام قلب أرجوانياً. كان ثلاثة أرباع الجرحى قد أُصيبوا بعبوات ناسفة. وكان أربعة عشر جندياً قد فقدوا أطرافاً لهم أو أُصيبوا بجراح بالغة تحولت عاهات مستديمة. فقد خسر أربعة كلتا رجليهما معاً. كان لدى فلين اقتناع راسخ بأنهم أحرزوا نتائج مهمة. «ليس هناك مجال لعودة طالبان إلى هذه المقاطعة خلال الربيع»، على حد قول فلين، «ستنتهي هذه الحرب إما على طاولة المفاوضات وإما عندما يتحد الشعب ويرفض طالبان بشكل جماعي».

اتّهم أحد المراسلين الصحفيين فلين بجرائم حرب وخرق اتفاقية جنيف بموافقته على الهجوم الجوي الذي استهدف تاروك كولاتش. غير أن القرى الواقعة ضمن منطقة عملياته كانت مهجورة منذ سنتين أو ثلاث، استناداً لمالكي القرى. ومثل كثير من القرى في المنطقة، كانت خوسرو السفلى ملاذاً آمناً للمتمردين، ومصنع أسلحة يستعمل لتصنيع الذخيرة وتصديرها إلى كل أنحاء الجنوب. قبل عقود مضت، فشل السوفييت في انتزاع هذه الأراضي من المجاهدين، ولم تستطع قوات الحلف أن تنفذ من جيلاور إلى قناة ثانية بعدها، إلا عند وصول حملة القوات الأميركية ووحدة فلين. فقد أدى هجوم الخريف بهذا الحشد من الجنود، بالإضافة إلى العوامل المساعدة والدعم الجوي لأهداف دقيقة، إلى قلب الموازين في النهاية. لكن كلفتها كانت مأساوية، فقد حُفِرَ على بطاقة مطوية بعناية في جيب معطف فلين العسكري، أسماء رجاله السبعة الذين قُتِلوا والأربعة عشر الذين أصيبوا بعاهات مستديمة.

وافق فلين على الهجمات المحدّدة بدقة على خوسرو السفلى في الليلة نفسها التي تم فيها تدمير تاروك كولاتش. كان يريد أن يسترجع القرية، التي تعد موقعاً أساسياً على نهر أرغنداب، من المتمردين. وقد تم تحديد الأهداف من خلال طائرة استطلاع متطورة يمكنها كشف مواد التفجير المنزلية الصنع حتى وإن كانت بحجم حبات الزبيب.

بعد الإغارة على مخازن العبوات الناسفة لطالبان، تم انتداب الشرطة الحدودية الأفغانية التابعة للعقيد عبد الرازق، تعاونها القوات الخاصة الأميركية، لتطهير تشاركولبا السفلى وقرى أخرى في أرغنداب. وفي حين اتهم السكان المحليون رجال عبد الرازق بإساءة معاملتهم، لم يرَ فريق الارتباط في القوات الخاصة الأميركية تصرفات كهذه؛ وبالإضافة لذلك، لم يكن هنالك شك بأنهم كانوا فاعلين في إقناع السكان المحليين لإرشادهم إلى مواقع العبوات الناسفة في كل أنحاء القرى. وقد طهَّروا مناطق رئيسية لا تُحصى خلال يوم واحد، سنداً لفريق العمليات الخاصة الذي اشترك مع عبد الرازق. وقد اكتشف رجال عبد الرازق والقوات الخاصة العشرات من العبوات الناسفة، ففتحوا الطريق أمام قوات فلين والسكان المحليين لبسط سيطرتهم على تشاركولبا السفلى.

انسحبت الشرطة الحدودية، وأُسنِدت مهمة إكمال التطهير لإحدى مفارز فلين. وقد وظّفت الوحدة فرق الكلاب التي تشم المتفجرات، وخبراء نزع الألغام، وكاسحات الألغام، وموارد محلية في عملية بالغة الدقة استمرت لأسبوعين، وكلفت إصابة جنديين إضافيين بجراح، قبل أن يخرجوا لإعلان القرية آمنة والبدء بإعادة الإعمار.

صبّ فلين تركيزه على منع طالبان من العودة وتطهير خوسرو السفلى ليتمكن القرويون من العودة إليها. لم يغِب عن باله قط أن القرى بحاجة لعودة سكانها، وأنه كان بحاجة لتقديم المساعدة لتمكينهم من حفظ أمن قراهم في المستقبل. خلال أيام بُعيد الهجمات، حشد فلين القرويين النازحين وشرح لهم أنه بحاجة للمساعدة في إيجاد العبوات الناسفة. «لقد ناشدتهم بأن يسألوا طالبان أين زُرِعت العبوات الناسفة وإلا فلن يكون أمامي خيار سوى اللجوء إلى أساليب مدمرة لإزالة العبوات الناسفة. وقد أبلغتهم أنني لا أريد أن يتعرّض مزيد من رجالي للمتفجرات، كما أنني لا أريد للسكان المحليين أن يتأذّوا. وقد وافقوا على أخذ مطلبي على محمل الجد».

بعد مرور أسبوع، حضر مالك القرية إلى قاعدة عمليات فلين ونقل أن

العبوات الناسفة قد أُزيلت بالكامل. فقصد فلين ورجاله القرية وتأكدوا من ذلك. «لا مجنزرات، ولا عقاب جماعي. فقد سبق أن عوقِبوا من طالبان»، قالها فلين بصوت منكسر.

على مسافة مئة وخمسة وعشرين مِيلاً شمال شرق وادي نهر أرغنداب، في السهوب المرتفعة لشرقي ولاية غزني، خرج المقدم ديفيد فايفكوت من قاعدة العمليات المتقدمة في أندر مع موكبه المؤلف من خمس عربات. عندما كان نقيباً عام ٢٠٠٣، خدم فايفكوت معاوناً شخصياً لبتريوس خلال غزو العراق وحاز اهتمام جميع من كان حول بتريوس بصفته قائد قتال. قبل ذلك في الولايات المتحدة، أشرف فايفكوت على صياغة الكتيّب الميداني ٣ ـ ٢٤,٢: تكتيكات في مكافحة التمرّد عام ٢٠٠٨ و٢٠٠٩، قرين كتيّب بتريوس لمكافحة التمرّد على المستوى التكتيكي.

في هذه الأثناء كان فايفكوت يتولى قيادة الكتيبة الثالثة، فوج المشاة ١٨٧ التابع للوحدة إيربورن ١٠١-راكاسانز. كانت لدى راكاسانز خبرة قتالية واسعة في أفغانستان والعراق منذ تولي الجنرال بتريوس قيادة الكتيبة بين ١٩٩٣ و١٩٩٥. وكانت الوحدة فخورة للغاية بسجلها القتالي لكل اشتباك وقع منذ الحرب العالمية الثانية.

عندما وصلت بقية قوات الغزو في أيلول/سبتمبر، بمن معهم فرقة كوراهي التابعة للوحدة ١٠١، فريق اللواء القتالي الرابع، قامت كتيبة فايفكوت بخطوة من بكتيكا نحو المنطقة الأشد توتراً شرقي غزني. وبالرغم من محافظة قوات الناتو على بعض الحضور في غزني منذ ٢٠٠١، غير أنها بدأت بتسيير دوريات بشكل متقطع خلال السنتين السابقتين، من الجنود البولنديين بشكل أساسي، ونظراً للوجود المؤقت، فقد حققوا سجلاً حافلاً من النجاحات قبل وصول راكاسانز. وخلال ذلك الصيف، أدرك آمر القيادة الإقليمية الشرقية، اللواء كامبل، أنه قد حان الوقت لفعل شيء حيال المد المتزايد لطالبان في هذه المنطقة. وعند اختياره أي

كتيبة من كتائبه ستتحرك باتجاه المنطقة الساخنة، سأل كامبل فايفكوت إن كان من المنطقي إرسال وحدة فايفكوت أم كتيبة كوراهي التي وصلت حديثاً من فريق اللواء القتالي الرابع إلى المنطقة الواقعة تحت سيطرة طالبان. فأجاب فايفكوت أنه من الأيسر أن تذهب كتيبته، كونه قادراً بأن يعوّل على الخبرة القتالية لوحدته في التعاطي مع القتال في منطقة جديدة. كان التحرك مضنياً، لكن فايفكوت وآيرون راكاسانز أنهيا المرحلة الانتقالية خلال أسابيع عدة.

كان كامبل وفايفكوت قد خدما سوياً عندما كان كامبل قائد لواء في الوحدة إيربورن ٨٢، وكان فايفكوت واحداً من قادة سريته. وقد أبدى كامبل اهتماماً بمسيرة فايفكوت المهنية منذ ذلك الحين، داعماً مهمته كمعاون شخصي لبتريوس في البوسنة عام ٢٠٠١. وقدَّر فايفكوت إصغاء كامبل لموقفه بأنه كان يبدو منطقياً أكثر أن تتقدم راكاسانز باتجاه غزني.

كانت وحدات الكتائب تحتل على الفور المناطق التي مكث فيها نير روزن، وهو صحافي أميركي، مع طالبان عام ٢٠٠٨ ليكتب مقالة في «رولنغ ستون» حملت فايفكوت بأن يوصي قادته بها كقراءة ملزمة، «كيف خسرنا الحرب التي فزنا بها؟». كتب روزن: «كانت غزني حتى الآونة الأخيرة، مثلها مثل معظم أفغانستان المركزية، تعتبر آمنة نسبياً[1]. أما الآن فإن الولاية، الواقعة على مسافة ١٠٠ ميل جنوب العاصمة، سقطت بقبضة طالبان. والأجانب الذين يغامرون ويدخلون غزني ينتهي بهم المطاف عادة إما مخطوفين وإما مقتولين. وفي تحدّ للحكومة المركزية، أصدر حاكم طالبان في الولاية بطاقات هوية وجوازات سفر مستقلة لنظام طالبان، الإمارة الإسلامية في أفغانستان. وكان المزارعون يتجهون بتزايد نحو طالبان، لا إلى السلطات المدعومة من الولايات المتحدة، للفصل في خلافاتهم على الأراضي». وبحسب بعض التقديرات، فقد أدارت طالبان المتنامية حوالى ثمانٍ وعشرين مدرسة وفصلت في الخلافات على العقارات

(١) Nir Rosen, "How We Lost the War We Won," *Rolling Stone*, October 29, 2008.

والأراضي في محاكم إسلامية وفرضت الضرائب واغتالت من حين لآخر أولئك الذين اعتقدت أنهم يتعاونون مع الأميركيين. كانت قوتهم القتالية تقدر بحوالى أربعمئة متمرد[1]، في ظل دعم متواصل من أربعة آلاف من بين سكان المقاطعة البالغ عددهم مئة وخمسين ألفاً. لم يعزز قضية الحكومة، فوز عدد من سماسرة الطاقة الفاسدين عام ٢٠٠٥ وشرعوا بالتنكيل والسرقة فجعلوا بذلك طالبان تبدو جيدة مقارنة بهم. في هذه الأثناء كان جلياً أن باكستان قد وفَّرَت، بالحد الأدنى، بعض الأموال والأسلحة ومواد الدعم لإعادة انتشار طالبان في المنطقة.

في ١٦ أيلول/سبتمبر، وفي اليوم نفسه الذي بدأت فيه عملية هجوم التنين في قندهار، أُصيب الرقيب وليام بيكرز، رامي هاون في راكاسانز من سينسيناتي، بطلق ناري في ذراعه بعدما هاجم المتمردون دورية راجلة كان يقودها في مقاطعة أندر برشاشات إيه كيه ٤٧ وقاذفات آر بي جي. منحه كامبل وسام القلب الأرجواني وشارة جندي مشاة مقاتل في المستشفى بعد مضي يومين، وحرص على أن يعيده قائد الفصيلة التي كان فيها بيكرز إلى الخدمة لسنتين إضافيتين. في أواخر أيلول/سبتمبر، تعرض جنود فايفكوت من السرية سي لهجوم خلال دورية لهم في مقاطعة أندر. وكانوا في مأزق حرج استدعى الاتصال بمروحيات الأباتشي، المركبة المدمّرة المدجّجة بالمدافع الرشاشة من عيار ٣٠ ملم وصواريخ إيه جي أم-١١٤ هيلفاير. وبغض النظر كيف بدت جودة الاستخبارات، أو مدى وضوح المقاتلين على أسطح الأبنية للطيارين، لكنه كان من الصعب على مروحيات الأباتشي التمييز بمجرد أن تبدأ بإطلاق النار. كانت هذه المعركة بالتحديد مثالاً على ذلك. وبالإضافة إلى خلوها من أي أثر مهم، فقد أسفرت عن مقتل أربعة مدنيين أفغان، من بينهم طفلان صغيران، وثلاثة جرحى. وسيقوم فايفكوت لاحقاً بعقد مجلس شورى مع وجهاء القرية ويعتذر منهم شخصياً.

(١) C. J. Chivers, "In Eastern Afghanistan, at War with the Taliban's Shadowy Rule," *At War* blog. NYTimes.com, February 7, 2011, www.nytimes.com/2011/02/07/world/asia/07taliban.html?pagewanted=all.

بعد مرور يومين على مقتل المدنيين، خرج رجال فايفكوت من مخيم قاعدتهم بعربات مدرعة MRAPs ـ زِنة سبعة أطنان وسعر العربة ستمئة ألف دولار ـ خمسة في صف واحد، كما جرت العادة عندما كان ينطلق القائد من المخفر. كانوا في طريقهم إلى مخفر ديه ياك القتالي، شرقي ولاية غزني التي تستوطنها طالبان. أمضت آيرون راكاسانز الأشهر الخمسة الأولى من جولتها في ولاية بكتيكا المجاورة، حيث كان الاحتكاك مع العدو متقطعاً. لكن مقاطعتَي أندر وديه ياك التابعتين لشرقي غزني كانتا مختلفتين، وتستوطنهما طالبان، التي كان فايفكوت يحس بتأثيرها في كل مكان ذهب إليه، لكن مقاتليها الراجلين كانوا مموّهين وغير مرئيين تقريباً، كون السكان المحليين عملوا على تسهيل حركتهم. كما أدرك فايفكوت بأن ذلك يعود بجزء منه إلى أن السكان المحليين قد أفرزوا الكثير منهم. أما الحكومة المركزية في كابول فلم يكن لها تقريباً أي سلطة فاعلة هناك منذ تحقيق الانتصار الأميركي الأولي عام ٢٠٠١.

مرَّ الموكب بالقرب من فريق لعربات كاسحات الألغام من الحرس الوطني لجنوب كارولينا كان يعمل على الطريق المحيط بالقاعدة، الذي توازي مساحته مساحة ملعب كرة قدم. وكانت مهمة رجال الحرس تقضي بنزع المتفجرات عن الطرقات المحيطة بالمخفر لتمكين فرق المشاة من الخروج بمهمات والأفغان من التجوّل ضمن الحد الأدنى من الأمان.

تابع الموكب سيره مخترقاً عدة ضواحٍ صغيرة لا تتجاوز العشرة منازل مبنية من أحجار رملية وألواح خشبية. وكانت الحمير والماعز تسير في وسط الطريق. لوَّح فايفكوت بيده للجميع، لكن الذين استجابوا كانوا قلّة؛ ففي معظم الأحيان لم يكن السكان المحليون يلتفتون. «ما الذي تتوقعه بعد سنوات من وجودنا هنا؟»[1] كما ذكر فايفكوت. «مهلاً»، أردف جندي بشكل ساخر. «كانوا يرمون الحجارة علينا، أفلا يوحي تردّدهم هذا بإحراز تقدم؟».

(١) المقدم ديفيد ج. فايفكوت، مقابلة أجراها المؤلف، قندهار، أفغانستان، ١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٠.

كان فايفكوت خبيراً في عمليات مكافحة التمرد، بسائر المعايير، كونه خدم في اللواء الثالث من ألوية الغزو الخمسة في العراق التي أفلحت في تهدئة مقاطعة المدائن في إقليم بغداد الجنوب شرقي، الذي شهد توتراً في بداية الغزو مع حركات التمرّد السنية والشيعية. كتب خريج الأكاديمية العسكرية الذي ترعرع في ديلاور، أوهايو، أطروحة مطولة عن هذه التجربة التي لمسها في تطبيقات مكافحة التمرد عند روجيه ترينكيه، وهو عقيد فرنسي ملحمي خدم في الهند الصينية والجزائر، ليختبر أي تطبيق من تطبيقات ترينكيه هو الأنسب لمهمة العراق. وإجابته هي: جميعها ما عدا التعذيب، الذي غضَّ ترينكيه الطرف عنه. كتب فايفكوت: «كما كانت الحال بالنسبة لترينكيه وخصومه في الجزائر، إن هدف المتمردين ومكافحي التمرّد على السواء في العراق هو السيطرة على الشعب». وقد استندت كتيبته في العراق إلى ستة «خطوط من الجهود»[1] للقيام بذلك: الأمن والتسلُّم والحكم وسيادة القانون والاقتصاد والاتصالات.

كونه خدم كمعاون بتريوس الشخصي خلال غزو العراق في آذار/مارس ٢٠٠٣، لم يتوانَ فايفكوت عن إرسال رئيسه القديم نصيحة غير مطلوبة عندما تسلم بتريوس القيادة في تموز/يوليو. «ادخل، وأجرِ تقويماً على الأرض لمدة ثلاثين يوماً، وقل إن الوضع أسوأ مما يمكن تخيّله (لكن الصعوبة لا تعني الاستحالة)، ثم اخلع قفازيك وحارِب لمدة ستة أشهر»، أشار فايفكوت، وهو ينظر أمامه إلى العرض المصمّم من إدارة أوباما قريباً من الميلاد. «كان هناك الكثير من القتل في الأشهر الستة الأولى من غزو العراق، ويمكنك أن تطلق عليها نظرية الاضطرار. سيكون تقييم كانون الأول/ديسمبر سيّئاً[2] لأنه سيكون لديك الكثير من الوحدات، والكثير من العنف الذي لن تهدأ حدّته حتى تشرين الثاني/ نوفمبر بسبب الظروف المناخية».

---

(١) Lieutenant Colonel David G. Fivecoat and Captain Aaron T. Schwengler, "Revisting Modern Warfare Counterinsurgency in the Mada'in Qada," *Military Review*, Nov./Dec.2008.

(٢) المقدم ديفيد ج. فايفكوت، رسالة بريد إلكتروني للمؤلف، ٢٨ تموز/يوليو ٢٠١٠.

في هذه الأثناء، وفي الموكب المتوجّه إلى ديه ياك، أقحم فايفكوت مخفراً قتالياً جديداً بقيادة النقيب جوش باورز. وباورز الذي تخرج في أكاديمية فرجينيا العسكرية، أثبت فهمه العميق لعقيدة مكافحة التمرّد وتطبيقها في أفغانستان، وسبق أن حاز وسام القلب الأرجواني لإصابته بجراح خلال انفجار عبوة ناسفة في الصيف. وقف باورز وفايفكوت على رأس برج مراقبة قيد الإنشاء وعاينا المناظر الطبيعية. ولأنه حضر زفافاً قروياً سابقاً في ذاك اليوم، فهم باورز قيمة تأسيس علاقات مع المحليين لكسب الصدقية وتنمية المصادر وفصل المستعدين للمصالحة عن غير المستعدين للمصالحة. وقد استُقبل عناصر فرقته في العرس القبلي بالترحاب، حتى ولو أتوا بهدايا غريبة: حقائب من الكوكا كولا. لكن لم يحالفه الحظ نفسه مع شركائه من الجيش الوطني الأفغاني، الذين كانوا يفترض بأن يكونوا في نفس الوقت معهم في المخفر الجديد. رفض الجيش الأفغاني المساعدة في بناء المخفر ورفضوا السكن في خيم داخل المجمع ريثما تكتمل الثكنة. فتابع باورز بدونهم.

وبينما تحدث فايفكوت وباورز عن التحديات التي واجهاها، أشار النقيب إلى الطرق التي يسلكها عناصر طالبان عادة على الدراجات النارية. كما أشار إلى القرية حيث يقع مركز المقاطعة وناقش حقيقة أن مخفره لم يكن في القرية تماماً بل تم إنشاؤه خارجاً في السهل، وأنه مكشوف بالكامل على الهضاب المجاورة. ولأن المهمة تقضي بحماية السكان، سأل عن سبب اختيار المنطقة التي احتلها الآن. ففي النهاية سيسلمون المخفر لشركائهم من الجيش الوطني الأفغاني؛ وهم بدورهم سيكونون معرّضين لهجمات من الأراضي المرتفعة المحيطة بهم وبعيدين جداً عن القرية للاستجابة بسرعة. لكن أحداً ما أعلى من كليهما قد اختار موقع المخفر.

انطلاقاً من مخفر باورز، توجه فايفكوت وموكبه إلى مركز المقاطعة، على بعد عدة أميال. كان عبارة عن مبنى قديم، مطلي بلون برك السباحة الأزرق، يقع على قمة تلة قاحلة ويطل على قرية صغيرة في الأسفل. كان جلياً أن حاكم المقاطعة

لم يقضِ الكثير من الوقت هناك، مفضّلاً البقاء في مدينة غزني مع حاكم الولاية بدلاً من ذلك. كانت تجري أمورٌ أكثر على مستوى الولاية، وقد تم تهديده من قِبَل المتمرّدين في مقره الرئيسي.

وعلى مسافة ربع ميل، كان يقع مُجمَّعٌ مسوَّرٌ يُعرف بِـ«القلعة». كانت الجدران مبنية من الرمل والماء وقد بُنِيَت لتأوي الناس وحيواناتهم في الداخل، والحيوانات المفترسة في الخارج. كان هناك امرأتان تمشيان نزولاً باتجاه طريق القرية بالبرقع الأسود، وكان طفلان يرتديان عباءات مزركشة، بالأحمر الفاقع والأزرق الوطني، يمشيان معهما. كما كان هناك أعمدة إنارة تعمل على الطاقة الشمسية، بتمويل من الوكالة الأميركية للتنمية الدولية، على الطريق حيث كانت تسير المرأتان، لكن ألواح الطاقة الشمسية قد انتُزِعت جميعها عن الأعمدة. كانت المنطقة قاحلة وبنية اللون، على الرغم من أن فايفكوت قد ذكر بأنها كانت في يوم من الأيام أراضي خضراء خصبة بالاستناد إلى بحث أجراه الجيش.

وفي طريق العودة إلى أندر، ذكر سائق عربة فايفكوت المدرَّعة عند نقطة معينة: «لقد اجتزنا نقطة اللاعودة يا سيدي». وكان هذا يعني ببساطة أنه إذا وقع حادث يستدعي تدخل الفريق الطبي، فسيكمل الموكب طريقه باتجاه أندر بدلاً من العودة إلى مركز المقاطعة. بقي جميع مَنْ في العربة المدرعة صامتاً. وبمجرد أن عادوا إلى أندر، تم إبلاغ فايفكوت بأن إحدى كاسحات الألغام من حرس جنوب كارولينا قد انفجر فيها لغم، فقتل جندي صودِف وجود ابنه في كتيبة فايفكوت. حضر قسُّ الوحدة إلى مكتب فايفكوت وشرح أن عربة كشف الألغام انقلبت على رجُل الحرس، فقتلته على الفور. كان الوقت بعد منتصف الليل، وكان فايفكوت يستعد للتركيز على الهجوم المخطّط له عند الساعة الخامسة فجر ذاك اليوم. سمح قانون المعركة بأنه يمكن لأي قريب من الدرجة الأولى أن يرافق جثمان قريبه بطريق العودة إلى الولايات المتحدة. أخبر القسُّ فايفكوت بأنه سيذهب لإيقاظ الجندي وإرساله على المروحية التالية، عند الساعة الثانية فجراً، مع جثمان والده. لم يرفّ لفايفكوت جفن، وهو شاكرٌ لوجود القس في مثل هذه

اللحظة المأساوية من المهمات اليومية. وقد خسر فايفكوت اثنين من جنوده، وهي أقل من خسائر رفاقه في الجنوب لكنها ما زالت تعد خسائر فادحة. كانت الحرب قاسية، قالها من دون أن يكمل، لكن عينيه أظهرتا العبء الكامن خلف هذا القناع. كانت الوفيات بمثابة إحصائيات لواشنطن لكنها كانت تمثل وجهاً بالنسبة له ولزملائه القادة. لم يبارح المدنيون الذين قُتِلوا في هجوم الأپاتشي قبل أيام عدة مخيّلته. فقد توفي طفلان، وفايفكوت ذهب إلى البلدة ليعتذر من عائلة الفقيدين ويدفع ثمن التصليحات. كان صوت فايفكوت منكسراً حين تكلم عن الحادثة، فعنده طفل عمره سنة واحدة هو أيضاً. لكنه استعاد رباطة جأشه بعد لحظة.

بدا مرهقاً من الحرب، ولم يعد أكيداً إن كان خلْع القفازات وخوض قتال شرس، كما سبق ونصح بتريوس في تموز/يوليو، سيكون كافياً. «ينبغي أن يكون هناك نوع من قلب المعادلات»، كما أعلن. وقال متحسراً «سنواصل القيام بمهمة مكافحة التمرّد، طوال اليوم، لكن من الصعب أن ترى الأثمان. يمكننا أن نواصل القتال، إلا أنه... إذا ما لجأنا لتشبيه فليس، ليس هناك ثغرة ضوء في نهاية النفق. نحن بكامل رصيدنا، لكنني لست أكيداً إن كان الأفغان بكامل رصيدهم. يمكنك أن تراها حتى في كبار القادة الأفغان وهم يحصلون على بيوتهم في دبي ويسرّبون جزءاً كبيراً من أموالنا خارج الدولة».

بحكم خدمته كمعاون شخصي لبتريوس أثناء زحف الوحدة ١٠١ من الكويت باتجاه بغداد وعلى طول الطريق صعوداً نحو الموصل في آذار/مارس ٢٠٠٣، فقد أدرك أن اللواء كان قادراً جداً على التشكيك. كان هناك في جنوب العراق عندما سأل بتريوس سؤاله الشهير، بعد أن عرف التحديات التي تنتظره «أخبرني كيف يمكن لهذا أن ينتهي؟». لكنه كان يعلم أيضاً أنه لو كان لدى أحد الآن شعور لما ستؤول إليه الحرب في أفغانستان في النهاية، فسيكون بتريوس بالطبع. أنـّى لبتريوس أن يشور عليه الآن؟ كان فايفكوت يعلم أنه ليس هناك داعٍ. «كان

بتريوس، وبأسلوبه الإيجابي المعتاد[1]، سيقول: أتعلم؟ استمر بما تقوم به كل يوم، محاولاً قدر استطاعتك».

بدأت علاقة المقدم ديفيد بتريوس الخاصة مع الوحدة إيربورن ١٠١ في منتصف عام ١٩٩١عندما أصبح قائد الكتيبة الثالثة، فوج المشاة ١٨٧، وكان العميد جاك كين قائد وحدة الدعم للعمليات الذي كان يُتوقَّع أن يكون التالي منصباً ليتولى قيادة الوحدة إيربورن ١٠١ «سكريمنغ إيغلز».

وأخيراً عادت الكتيبة الثالثة في راكاسانز من حرب الخليج في العراق، حيث أوقفت تراجع الحرس الجمهوري إلى الكويت كجزء من هجوم جوي ضخم شنّه اللواء الذي كانت ضمنه. وبحسب كل المعايير، فلم تكن «وحدة ذات أداءٍ عالٍ» إلى حد بعيد عندما تولاها بتريوس. لم يكن معظم جنودها قد واجهوا بعد قائد كتيبة شديداً ونحيلاً ومتعصباً للّياقة البدنية. كان على رأس أولوياته أن يلهم رجاله لاكتساب لياقة «حديدية»، تليق بكتيبة مشاة القوة الجوية. وفي مسعىً منه لخلق «ثقافة صلابة»، أنشأ بتريوس تحدي اللياقة «آيرون راكاسانز» ودفع رجاله للتنافس وكسر رقمه القياسي. لم يتمكن أحد من ذلك خلال فترة قيادته لسنتين، حيث أصبحت الكتيبة تُعرف رسمياً بِ«آيرون راكاسانز».

بعد شهر من توليه قيادة راكاسانز، كان بتريوس يمشي في الميدان مع إحدى الوحدات وهو يراقب مناورات إطلاق نار حية حين تعثر جندي وهو يركض خارجاً من الدشمة وأطلق الرصاص من بندقيته إم ١٦. أصاب الطلق بتريوس في الصدر مخلفاً فجوة عند خروجه من ظهره. كان العميد كين بجانبه يتفرج على المناورة حين سقط بتريوس. فصاح كين «لقد أصيب بطلقٍ ناري، استدعوا الفريق الطبي اللعين إلى هنا!».

كان الدم ينزف من ظهر بتريوس، فصاح النقيب فريد جونسون، قائد الفرقة،

(١) المقدم ديفيد ج. فايفكوت، مقابلة أجراها المؤلف، قندهار، أفغانستان ، ١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٠.

معطياً الأمر بوقف المناورات واستدعى الفريق الطبي إلى الموقع. ثم شقوا القميص العسكري لبتريوس وشرعوا بالعمل. حمل كين بتريوس بين ذراعيه ورأى لون وجهه يشحب.

خاطب كين بتريوس قائلاً «ديف، أريدك أن تبقى معنا». فأجاب بتريوس بأن قبض على يد كين.

وخلال دقائق، كان بتريوس قد نُـقِلَ على متن مروحية الفريق الطبي بلاك هوك إلى المستشفى الميداني، حيث تم إدخال أنبوب في صدره، ثم طاروا به إلى المركز الطبي لجامعة فاندربيلت، في تينيسي، وكين إلى جانبه. فقام جراح ماهر إسمه بيل فريست ـ الذي سيصبح لاحقاً سيناتوراً جمهورياً عن تينيسي وقائد الأغلبية في مجلس الشيوخ ـ بالقص عبر العضلة الظهرية العريضة وقام بجراحة في الصدر، ثم كوى شرياناً كان قد انقطع. وقد نزف بتريوس نزيفاً داخلياً حتى شارف على الموت[1].

كانت هولي قد أوصلت أطفالها وإحدى صديقات ابنتها إلى السينما قرب فورت كامبل. وقد نقل الخبر لها صديق اتصل به الفريق الطبي بعد أن تمكّن من إيجادها. «اجلسي يا هولي»، قالت مخاطبة نفسها. «الخبر السار أنه سيعيش. الخبر السيّئ هو أنه أُصيب بطلق ناري. والواقع أن علينا الذهاب إلى المستشفى». ولم تنبس هولي بكلمة.

لكن بتريوس سرعان ما جعل من شفائه تحدياً ليرى كم يحتاج من الوقت ليستأنف عمله في القيادة، وكان على الأطباء أن يأمروه بالبقاء أكثر من مرة. كان قد عاد إلى زمن الأرقام القياسية. فأعطى الجندي الذي أصابه عن طريق الخطأ الفرصة للتكفير عن ذنبه بالانضمام إلى مدرسة الجوالة. بعد مرور سبعة وثلاثين يوماً على الحادث، عاد بتريوس إلى الميدان، حاملاً حقيبة الظهر على كتف واحدة إلى أن تشفى كتفه الأخرى، إلى مناورة انتشار ضخم وهجوم جوي في

(١) الجنرال جاك كين، مقابلة أجراها المؤلف، كابول، أفغانستان، ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٠.

فورت براغ، كارولاينا الشمالية. وقد نقل كين لاحقاً أن قيادة بتريوس وروحه هما أكثر ما لفت انتباه كين.

حذا بتريوس حذو الجنرال فيونو في إلزامية تكوين مثال فاعل والتشديد عليه كلما أُتيحت الفرصة لذلك. وبقيت مُثُل بتريوس للوحدة متَّسِقة على مر السنين. وكان أول مثال هو اللياقة البدنية: رجل مشاة في وحدة هجوم جوي بحاجة لإظهار جسده على أنه «السلاح الأقوى». والثاني، كان يتطلب الانضباط، التحمّل العسكري وضبط النفس. كان يطلب من الجميع قص شعرهم بشكل «عالٍ وقصير»، وإقفال الزر الأخير للمعطف العسكري في الميدان وتمويه وجوههم إلى حد معيّن. كل هذا كان جزءاً من سعيه لخلق الثقافة. ثم شدّد، على التوالي، على تدريب الوحدات الصغيرة ومناورات إطلاق نار حي وتدريب الجوالة وعمليات الهجوم الجوي. لم يكن ثمة أحد أكثر تنافسية. «الحياة هي مسعىً تنافسي»، كما كان يذكّرهم.

وكان على المشككين حتى أن يعترفوا بعد سنة بأن بتريوس استلم وحدة عادية وجعلها الوحدة الأفضل. كان يركز على التدريب، وكان يركز على الفوز. وبنهاية جولته، كانت كتيبة آيرون راكاسانز تضم جنوداً بجدارة مدرسة الجوالة أكثر من أي لواءٍ آخر في الوحدة. وكان لأحد مرؤوسي بتريوس مذكّرة لخصت اندفاع بتريوس. «من دون أدنى شك، نقوم بتنفيذ أكثر التدريبات تعقيداً وصعوبة في الموقع... لكن، كان لهذا التدريب ثمن في المقابل... فكثيرون في الكتيبة يسألون... إن كان البقاء لوقت متأخر وخلال عطل نهاية الأسبوع بعيداً عن بيوتهم يستحق ذلك فعلاً». كان بتريوس يتوقع من الآخرين الالتزام بالمعايير العالية التي وضعها لنفسه. وتابعت المذكرة: «أكثر من أي قائد عرفت عنه، لقد أوليت اهتماماً كبيراً واستباقياً لتطوير فيلق ضباط الكتيبة. حتى وإن كان بعض الضباط لا يدركون كيف أن تشديدك على مهارات عالية محددة يمكن أن يفيدهم في مهنتهم، فعليك أن تواصل التشديد عليها». «التحدي»، كما أطلق عليه بتريوس، «كان يغير الثقافة من دون إقصاء أولئك الذين لم يتبنوها بالكامل فعلياً».

كان أكثر من ناظر، فقد آمن بالتوجيه والحصول على التوجيه، وآمن بشدة بالخلاص الذي يتم تحصيله. فعندما استدعوه من الأكاديمية العسكرية الأميركية وسألوه عمّا إذا كان يرغب بإعادة تأهيل تلميذ ضابط تم طرده من الأكاديمية لارتكابه مخالفة شائنة، وافق بتريوس، وتحدى الجندي بأن يجتاز سلسلة من أكثر مدارس المشاة تطلباً، بما في ذلك الهجوم الجوي ودورات الجوالة. فنجح الجندي، وعاد في النهاية إلى الأكاديمية العسكرية وتخرَّج.

أصبح كين قائد الوحدة مباشرة بعد اختتام تبريوس سنتين من قيادة آيرون راكاسانز. أصبح الاثنان مقرّبين بعد حادثة إطلاق النار، وعلى الفور عيَّن كين بتريوس رئيس عمليات وتخطيط وتدريب الوحدة، وهو أفضل تمهيد لقيادته المستقبلية للوحدة نفسها. «يمكن القول بثقة إنه كان أفضل قائد كتيبة شاهدته في حياتي»، على حد قول كين. «كان يملك الثقة، وكان متفوقاً في إلمامه بجوانب العمل وما الذي يجب فعله مقارنة بالآخرين. كان يعرف نفسه جيداً وما الذي أحضره إلى العمل، وكانت لديه رؤيا لما سيحقّقه للكتيبة».

على عكس فايفكوت وفلين، كان المقدم ج. ب. فاول، قائد كتيبة آخر في الوحدة إيربورن ١٠١، قد خاض حرباً في الجبل. فعند ساعات الفجر الأولى من يوم ٢٧ حزيران/يونيو ـ بعد أربعة أيام من تعيين أوباما بتريوس قائده الجديد في أفغانستان ـ نفَّذت وحدات من كتيبة فاول الثانية، فوج المشاة ٣٢٧ عملية هجوم جوي واسعة النطاق في الجبال الممتدة فوق قرية داريدام، في ولاية كُنَر الجبلية، على طول الحدود الباكستانية. كانوا جزءاً من كتيبة بستون التابعة للوحدة ١٠١. أنزلت مروحيات بوينغ سي إتش-٤٧ شينوك سلالمها وقامت بإنزال مئات الجنود في كثير من المواقع المطلة على الجهة الجبلية ما أتاح لهم مراقبة التحركات أسفل الوادي. وقد مشّطوا المكان برشاشات ثقيلة، وأحاطوا أنفسهم بأكياس رملية متوقعين هجوماً من مقاتلي طالبان الموجودين أسفل الوادي.

كانت كتيبة فاول تلقب باسم «نو سْلاك» (No Slack، أي لا هدوء) كونها

خدمت لسبع سنوات متواصلة خلال حرب فيتنام، وهي أطول فترة أمضتها كتيبة. وكان فاول شقياً عسكرياً حاز والده وسام النجمة الفضية كقائد فرقة في فييتنام، وقد ارتاد جامعة ألاباما، مصمماً على أن يصبح طبيباً. لكنه انضم لصف علوم عسكرية، وأغرِم بفيلق تدريب ضباط الاحتياط، وأدرك خلال مناورة تدريبية طوال الليل أن قيادة الرجال في المعركة كانت شغفه. وقد تميز في مستوى الخبرة المتعارف عليها في الجيش بعد عقد من الحرب إثر هجمات ١١ أيلول/سبتمبر الإرهابية. كان قد خدم في أفغانستان من ٢٠٠٤ إلى ٢٠٠٥ وفي العراق من ٢٠٠٦ إلى ٢٠٠٧ خلال الغزو، عندما قدم ملخصاً لبتريوس عند بدء الحملة. لا يمكن أن ينسى كيف أن بتريوس أخبر موظفي الكتيبة عند بدء الغزو في العراق، بأنهم كانوا هناك لحماية الشعب والفوز، وليس لنقل السلطة للقوات العراقية والمسارعة للخروج فحسب.

ولأنه تتلمذ على عقيدة بتريوس لمكافحة التمرّد، كان فاول يعلم أن هذا الهجوم الجوي الكبير، الذي أُطلق عليه عملية «سترونغ إيغل ١»، هو غير تقليدي. فمكافحة التمرّد كانت تتمحور حول آثار صغيرة، لا عمليات هجومية ضخمة، على الرغم من أن بعض هذه العمليات كانت ضرورية أحياناً، كما في قندهار وهلمند. لكن فاول أدرك أن طالبان كانت قوة أكبر بكثير في كُنَر مما كان يتوقّعها أحد. وفي الواقع، خسر فاول ثمانية جنود خلال أول شهر له في أفغانستان في سلسلة هجمات وكمائن وحشية. كانت الطريقة الوحيدة التي يمكنه المساعدة فيها لخلق حكومة الولاية تقضي بتطهير هذا الوادي ممّن قَدَّر عددهم بحوالى ثلاثمئة مقاتل من طالبان. وقد أمر جنوده بالتمشيط بالأسلحة الثقيلة لأنه توقع هجوماً ضارياً، ولم يكن عليه الانتظار طويلاً.

خلال ساعات تلت اتخاذ الجنود مواقعهم، أطلقت طالبان وابلاً فتاكاً من الرصاص. فأصيب قائد استطلاع الفصيلة، النقيب كيفن موت، في رأسه وهو في موقعه عند الجبل الجنوبي، ودفعت به الصدمة إلى سفح الجبل. وتصدَّت مفرزته لسلسلة محدّدة من هجمات العدو التي كانت ترمي إلى أسره. بالكاد يرى أمامه،

تمكن موت من الزحف نحو نتوء صخري ليقبع أسفله، وقد تمكن فريق الإنقاذ المظلي من إخراجه في النهاية. كما أنهم حملوا عامل اللاسلكي، الذي كان قد أصيب في الدرع الذي كان يحمي صدره. وقد تماثل كلاهما للشفاء بالكامل. ستكون الساعات الثلاث عشرة التالية مليئة بالاتصالات المهتاجة للفرق الطبية والمدفعية والهاون والدعم الجوي لأهداف دقيقة وإعادة الإمداد.

كان فاول يقصد أن يشرف على تهيئة ظروف المعركة من مروحية بلاك هوك في الجو، موجّهاً مروحيات أباتشي وكيوا المقاتلة والطائرات الاستطلاعية وتكنولوجيا التشويش على أجهزة اللاسلكي. كان ينوي الهبوط بمجرد أن يبدأ جنوده الزحف إلى أسفل الوادي. وبالتزامن مع ذلك شنَّت طالبان هجمات على مواقعه، فأدرك فاول أن الطبيعة الجبلية كانت تجعل الاتصال بين وحداته مستحيلاً. فقرر البقاء في مروحية بلاك هوك جواً ليتمكن بالتالي من تأمين الاتصال بشكل كامل. كان يعود إلى أسد أباد ويتزوّد بالوقود كل ساعتين طيلة مدة المعركة، وكان يتوق بشدَّة لأن يكون على الأرض، في المعركة. لكنه كان يعلم أنه إذا هبط إلى الأرض، فسيفقد زمام التحكّم في الصورة الأشمل. أما رجاله فأمضوا بقية النهار يقاتلون عند سفح الجبل وسيطروا على البلدة، وقتلوا أكثر من ١٥٠ متمرداً. خسر فاول رقيبين ورأى عدداً هائلاً من الجنود الجرحى خلال معركة دارت رحاها لساعات بأقصى كثافتها على حماوة ١٢٠ درجة مئوية. كانت أضخم معركة خاضتها كتيبة نو سْلاك منذ فيتنام: فقد شنَّ سبعمئة جندي أميركي وأفغاني هجوماً على حوالى ثلاثمئة من مسلحي طالبان المحصَّنين، وحققوا الفوز. «وأخيراً، قام أحد بأمرٍ جيد!» كما أبلغ فضل اللّه وحيدي، حاكم المقاطعة، فاول بعد أن انجلى الغبار. لم يسبق أنْ حدث أمرٌ كهذا في كُنَر منذ عقود. لقد حاول السوفييت وأُبيد منهم العشرات في الوادي نفسه الذي سيطر عليه رجال فاول.

شكّلت عملية «سترونغ إيغل ١» منعطفاً بالنسبة للكتيبة بعد خسارة الكثير من الجنود خلال شهرها الأول. وبهذه العملية، استعادوا زمام المبادرة وطردوا العدو

من معقل رئيسي. وطالما أنهم يملكون الزخم الآن، أصبح فاول مقتنعاً بأنه ينبغي على رجاله أن يذهبوا أبعد من ذلك إلى وادي غاكي في بلدة تشينار ويطاردوا باقي المتمردين. وقد أقنع اللواء كامبل وقائد لوائه، العقيد أندرو بوباس، لدعم عملية سترونغ إيغل ٢. كانت الوحدة إيربورن ١٠١ (الهجوم الجوي) مدرّبة ومجهّزة جيداً حصريّاً لهذا النوع من الهجوم الجوي واسع النطاق. كان لدى الوحدة اثنتان وسبعون مروحية أباتشي حربية[1] وأسراب من مروحيات بلاك هوك وبوينغ سي إتش-٤٧ شينوك قادرة على نقل أربعة آلاف جندي لأكثر من مئة ميل خلال ست ساعات. لكن عندما بدأت العملية في جوف الليل، لم يواجه مقاتلو نو سلاك سوى الصمت، فلم يتبقَّ هناك من متمرّدين لمهاجمتهم. وبالحديث مع السكان المحليين بعد شروق الشمس، تم إخبار فاول مراراً وتكراراً بأن العدو قد غادر المنطقة. وأدرك الآن أن أمامه فرصة للبدء بعمليات مكافحة تمرد ناجحة مع القرويين، والبدء حتى بجهود المصالحة. وخلال الأسابيع التالية، سلم عشرون مقاتلاً متمرداً أنفسهم للحاكم وحيدي وأعلنوا أنهم لم يعودوا يريدون القتال.

قدَّم اللواء كامبل ومستشاره من طاقم الاستشارات والدعم لمكافحة التمرّد، دوغ أوليفانت، ملخَّصاً لفاول حول استراتيجية وضعوها لتعزيز ثلاثة مراكز مقاطعات بمخافر قتالية. كان فاول وأوليفانت صديقين منذ أيام كلية الجيش للعلوم العسكرية المتقدمة. وكان فاول يعتبر أوليفانت من أفضل مَنْ خرَّج الجيش، فهو لواء يحب التواصل مع مرؤوسيه ويدعمهم بالمشورة الحكيمة والحرية الفعلية للقيادة. وحتى مع ذلك، فقد اعتقد فاول أن هذه الاستراتيجية الدفاعية التي كان يقترحها كامبل وأوليفانت كانت مضلّلة. وقد ناقش فاول، بأنه لم يكن أي من مراكز المقاطعة يتعرض لهجوم، وإنشاء المخافر في كل واحد منها سيؤدي إلى جذب هجمات طالبان وإرسال رسالة مفادها أن الحكم الذاتي السياسي في أفغانستان هو مجرد أسطورة. تراجع كامبل. لكنه أبلغ فاول بأنه، طالما أثبت وجهة نظره، فعليه أن يضمن النجاح إلى حد ما. كان يعتقد أنه سينجح.

(١) Rick Atkinson, *In the Company of Soldiers* (New York: Henry Holt and Company, 2004), p. 14.

وصل بتريوس صبيحة أحد الأيام في أواخر الصيف إلى مركز قيادة فاول. كان يريد ملخّصاً لعمليّتَي سترونغ إيغل ١ و٢، وبقي هناك لثماني ساعات. يتذكر فاول كيف أحسَّ بمعنويات رجاله تكاد تفيض ببداهة. وقد ذكر لاحقاً بأن الجو كان مفعماً بالإيجابية. وقد تبيَّن لفاول أن مكريستال كان قد عمل جاهداً على إبقاء القوات الأميركية متراجعة في ظل تشديد مستمر على الحد من الخسائر بين المدنيين. لكن بتريوس، ومن ناحية أخرى، جاء وأكد على عقيدة فاول بأنه لا يمكن لعنصر الاستقرار أن يتحقق قبل تحقيق عنصر الأمن، أي حتى إزالة طالبان بالكامل لتصبح المنطقة آمنة، تماماً مثلما تم فعله في العراق. أبلغ بتريوس جنود فاول بأن الجيش الأفغاني سيتسلّم زمام الأمور في النهاية لكنه كان بحاجة لبعض الوقت كي يتطوّر، وبأن ولاية كـُنَر ستبقى عصيّة على الدوام. كما ذكر أنه كانت تجمعه علاقة إيجابية بالجيش الباكستاني، وهو أمرٌ كان فاول نفسه قد اكتشفه مع السكان المحليين. زار فاول وبتريوس حاكميْ مقاطعتين وحاكم الولاية، ثم حلّقا إلى مخفر مونتي القتالي، حيث قدم بتريوس ميداليات لأولئك الذين تميَّزوا خلال عمليّتَي سترونغ إيغل ١ و٢. كان يعرف أيضاً أسماء سائر الجنود التسعة في الفرقة A الذين قُتِلوا خلال الأسابيع الستة الأولى لِـ «نو سلاك» في أفغانستان. ثم جمع الفرقة في بستان برتقال في القاعدة وأخبرهم كم كان فخوراً بهم. كان واضحاً من أعينهم بأن الرجال كانوا ما زالوا يتألّمون؛ وقد أتى بتريوس في الوقت المناسب.

وصلت الكتيبة الأخيرة من الوحدة إيربورن ١٠١، فريق كتيبتها الرابعة القتالي، إلى أفغانستان في أواخر صيف ٢٠١٠، فأنشأ كوراهيز قواعد ومخافر على طول الحدود مع باكستان في ولاية بكتيكا الجبلية، على بعد حوالى ١٠٠ ميل جنوب كابول. كان هناك ولايتان وحوالى ١٥٠ ميلاً تفصل كوراهيز في بكتيكا عن لواء بستون التابع لكتيبة فاول، في ولاية كـُنَر في الشمال الشرقي. كانت أضخم العمليات الحربية قد تركّزت في ولايتي قندهار وهلمند، في الجنوب. وقد شعر بتريوس بالقلق حيال الوضع في هذه الولايات الجبلية الممتدة على الحدود الباكستانية منذ اللحظة التي وطأت فيها قدماه كابول. «إن التحديات النابعة من

الجيوب[1] الموجودة في بلد مجاور مثيرة للقلق أكثر بقليل مما كنت أعتقد حتى وأنا في القيادة المركزية»، كما لاحظ في ذلك الصيف.

في جوف الليل في ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر، وفي مخفر مراقبة متطرّف من ستة رجال في ولاية بكتيكا، نبَّه جيمس بلات، وهو جندي أول في الكتيبة الثانية من فريق اللواء القتالي الرابع، رئيسه الرقيب دونالد ستاركس: «أشعر بحركة ما». وما هي إلا لحظات، حتى تعرضوا لهجوم من ثلاث جهات شنَّه ثلاثون متمرّداً، على مسافة قريبة جداً أتاحت للأميركيين سماعهم يتكلمون. واستولى المهاجمون بسرعة على العربة المدرّعة للأميركيين وكانوا يعرفون عنها الكفاية ليسلّطوا أحد أضواء العربة الكاشفة عليهم. ثم قاد ستاركس هجوماً مضاداً، فأطلق النار على المتمرّدين من رشاش أوتوماتيكي، وجعل العربة المدرّعة غير صالحة للاستعمال وفجَّر حمولة ذخيرته بواسطة رمانة يدوية. وأدرك على الفور أن اثنين من رجاله قد جُرحا فترك المواجهة مع العدو، وقاد رجاله خمسمئة متر إلى الخلف أسفل الجبل إلى القاعدة الرئيسية، مخفر مرجة القتالي، مبادراً بإطلاق النار من مسافة «قريبة وخطيرة» بشكل غير مباشر على العدو بينما تدافع أفراده أسفل الصخور.

كانت مرجة نفسها الآن تتعرض لهجوم شرس. فقد قام مئة وعشرون متمرّداً من دول عربية ومن الشيشان ومقاتلين من شبكة حقاني الوحشية للمتمردين الأفغان والباكستانيين بفتح نيرانهم على ستين أميركياً وشركائهم من الجيش الوطني الأفغاني في المخفر مستخدمين رشاشات أوتوماتيكية وآر بي جي وقذائف الهاون. «كنا نملك مؤشرات عدة[2] بأن هجوماً كهذا سيحصل في تلك المنطقة في محاولة لتحقيق نصرٍ قبل نهاية موسم القتال، وقد كانت قواتنا المشتركة من الأفغان وقوات الائتلاف لهم بالمرصاد»، كما روى كامبل لاحقاً. وبالقرب من

(١) الجنرال ديفيد هـ. بتريوس، رسالة بريد إلكتروني للمؤلف، ٣٠ تموز/يوليو ٢٠١٠.

(٢) Matiullah Mati, "Dozens of Bodies Found After Clash at Afghan Military Base," CNN.com, October 31, 2010.

مرجة، كان هناك أربع[1] «مناطق تبادل نيران مباشر واشتباكات بالمروحيات المقاتلة» منفصلة بدأت في مواقع قام فيها المتمردون بتطويق محيط المخفر، آملين اختراق الشريط الشائك. وقد نقل كامبل لاحقاً وجود أكثر من تسعين متمرداً قتيلاً في ساحة المعركة بعد انتهاء القتال، وجريحين من المهاجمين تم إجلاؤهما للعلاج. «بصراحة مطلقة... لقد فشل المتمرّدون فشلاً ذريعاً»، كما قدَّر كامبل، وأعطى الفضل للإسناد المدفعي والطيران الحربي والقوات الجوية «والعزيمة الصلبة للجنود في المعركة».

ذهب كامبل إلى مرجة في «يوم قدامى المحاربين» مع بتريوس، الذي منح ميدالية النجمة الفضية للرقيب ستاركس، قائد فريق النيران في الفرقة C، الكتيبة الثانية، فريق اللواء القتالي الرابع. «كان ستاركس تقريباً مثل جميع أبطالنا الحقيقيين، شديد التواضع ويكن كل الاحترام لرفاقه، حين أشار بأنه كان يقوم فقط بما كانوا سيقومون به ـ وقد فعل، في بعض الأوقات ـ من أجله»، كما ذكر بتريوس لاحقاً. «إنه أميركي رائع[2]. يا لها من ليلة أمضوها!».

(١) Department of Defense, Pentagon briefing, Federal News Service, November 2, 2010.

(٢) الجنرال ديفيد هـ. بتريوس، رسالة بريد إلكتروني للمؤلف، ٤ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٠.

الفصل الخامس

أناكوندا

بعد أن قلبت القوات الأميركية المعادلة في المناطق الخطيرة في مقاطعات أرغنداب وذري وبنجاوي التابعة لولاية قندهار، تعرّض بتريوس فجأة لهجوم جديد من واشنطن. كان كتاب بوب وودوُرد الأخير «حروب أوباما» قد وصلت تردّدات أمواجه إلى كابول. فقد أرسل ضابط في خلية تفكير بتريوس الداخلية، مجموعة مبادرات القائد، بريداً إلكترونياً[1] عاجلاً إلى عناصره، منبّهاً الفريق إلى خبر في واشنطن بوست أوجز تفاصيل الكتاب. وأفاد الضابط: «هناك بعض الاقتباسات في هذه المقالة، تستعرض كتاب وودوُرد، التي توحي «بروح مجلة رولنغ ستون»، تطال عدة مسؤولين، والقائد مذكور فيها أكثر من مرة»، لافتاً بوضوح إلى رولنغ ستون التي أطاحت مكريستال. وقد اقتبس خبراً نارياً: «خلال رحلة طيران في أيار/مايو، وبعد احتساء كأس من النبيذ، أخبر بتريوس هيئة التحرير الخاصة به بأن الإدارة كانت تعبث مع الشخص الخطأ».

كان صلب كتاب وودوُرد عبارة عن نظرة مفصَّلة حول مراجعة إدارة أوباما الاستراتيجية المطوَّلة للسياسة المتَّبعة في أفغانستان وباكستان التي انتُهِجت خلال خريف عام ٢٠٠٩، في ظل قيادة مكريستال للحرب في أفغانستان ورئيسه بتريوس، على رأس القيادة المركزية القوية للجيش، في تامبا. كان أوباما يبحث عن خيارات للحرب اللامتناهية والمكلفة وإعمار البلد في أفغانستان. وقد دافع

(١) الرائد جون ب. غالاغر، رسالة بريد إلكتروني للمؤلف، ٢٢ أيلول/سبتمبر ٢٠١٠.

نائب الرئيس بايدن عن استراتيجية تُدعى «مكافحة الإرهاب الإضافية» كان يمكن أن تركزّ نشاطها حصرياً على مطاردة قادة القاعدة في باكستان وأفغانستان، في مقابل عمليات مكافحة تمرّد أوسع بكثير.

يتحدَّث وودوُرد عن إحباط الإدارة ممَّا وصفها بالمقاومة الواضحة من قِبَل أرفع القادة العسكريين ـ مكريستال وبتريوس والأميرال مايكل ج. مولن رئيس هيئة الأركان المشتركة، الذين دعمهم وزير الدفاع غيتس جميعاً ـ لطرح أي شيء آخر عدا الخطط التي تتطلب ما بين أربعين ألفاً إلى ثمانين ألف جندي إضافي لتطبيق استراتيجية مكافحة تمرد ناجعة. أضِفْ إلى ذلك، أنه عند كل منعطف في ذاك الخريف، استناداً إلى وودوُرد، كان الجيش يسعى للحد من خيارات أوباما. بدورهم، أحسَّ كل من مكريستال وبتريوس ومولن بأنهم كانوا ببساطة يُقحِمون قواتٍ كافية للإطاحة بالقاعدة وطالبان. «هل يسعى الرئيس للفوز أو للخسارة؟» كما كانوا يسألون بعضهم افتراضياً، مؤمنين بأنهم كانوا يطبقون المطلوب بشكل مباشر لتحقيق الأهداف التي حدَّدها الرئيس، وإقناع الرئيس في النهاية بأنهم كانوا على حق.

وكان أوباما، بالرغم من ذلك، قد أطلق حملته الانتخابية حول إنهاء حرب العراق والتركيز على أفغانستان، التي وصفها بأنها الصراع المهمل الذي يجب أن يكون أولوية الدولة منذ البداية. عند توليه منصبه عام ٢٠٠٩، أعطى أوباما، بروس رايدل، وهو محلل رفيع سابق في وكالة المخابرات المركزية (سي.آي.إيه) كان قد عمل مع أوباما في حملته الانتخابية، مهلة ستين يوماً لوضع استراتيجية لأفغانستان وباكستان. تبنى أوباما توصيات رايدل وأعطى الأمر بنشر سبعة عشر ألف جندي إضافي كان قد طلبهم القائد في أفغانستان، الجنرال ديفيد مكيرنان. هؤلاء الجنود ومشاة البحرية سيخوضون المعركة مع طالبان في الجنوب والشرق ويمنحوننا قدرة أكبر للشراكة مع قوات الأمن الأفغانية ومطاردة المتمردين على طول الحدود»، كما أعلن الرئيس في آذار/مارس ٢٠٠٩. هناك أربعة آلاف جندي إضافي، كما ذكر أوباما، سيذهبون أيضاً إلى أفغانستان لتدريب قوات الأمن الأفغانية.

«طالبان بطبيعتهم يرفضون المساومة»، كما تابع الرئيس. «ينبغي أن يتم التعامل معهم بالقوة، ويجب أن يُهزَموا». وكان هناك، في ذلك الوقت، ثمانية وثلاثون ألفاً وثلاثمئة وخمسون جندياً أميركياً في أفغانستان. كانت هذه الحرب بعيدة جداً عن نسبة الجنود مقابل المدنيين التي نصَّ كتيّب مكافحة التمرد الميداني بأنها ضرورية لحملة مكافحة تمرد ناجحة ـ التي كانت تتطلب حوالى أربعمئة وخمسين ألفاً من قوات الائتلاف والجنود الأفغان لثلاثين مليون أفغاني، على الرغم من أن بتريوس كان يُذكّر في كل مناسبة بأنه لم تكن كل المناطق بحاجة لعدد يصل لهذه الكثافة. كان التمرد أكثر جدية في حوالى نصف أفغانستان، مع وجود جيوب في النصف المتبقي. وكان واضحاً، بأنه لن يكون هناك هذا العدد من الجنود على الإطلاق، لكن القادة كانوا يعرفون العقيدة حين وضعوا توصيات حول مستوى القوة.

قبل مرور شهرين على إعلان الاستراتيجية والانتشار الجديدين، أقال غيتس مكيرنان، من المنصب الذي لم يستمر فيه لسنة، واستبدل مكريستال به، وهو القائد المتبجّح السابق لقيادة العمليات الخاصة المشتركة الذي كان يخدم حينها كنائب مولن المؤتمن، بصفته رئيس الأركان في البنتاغون. تملّك غيتس ومولن شعور قوي بضرورة استبدال قائد جديد بمكيرنان. وافق بتريوس على ذلك، وكان لدى الجميع ثقة عمياء بمكريستال، الذي كان على رأس قيادة العمليات الخاصة المشتركة خلال تنفيذ عمليات مكافحة تمرّد طاحنة في العراق وأفغانستان لأكثر من خمس سنوات.

خلال جلسة استماع في ٢ حزيران/يونيو ٢٠٠٩، أمام لجنة مجلس النواب للقوات المسلحة، أشار مكريستال إلى أن رأس المال الرئيسي هو الشعب، وأشار إلى واحد وعشرين ألف جندي إضافي سيكونون جميعاً على الأرض بحلول تشرين الأول/أكتوبر. «ويمكنكم السؤال هنا عما إذا كان ذلك كافياً»، تابع مكريستال. «لا أعرف. يجب أن يمرَّ بعض الوقت قبل أن أعرف». وقد امتعض جيم جونز، وهو لواء سابق في مشاة البحرية يشغل منصب مستشار أوباما للأمن

القومي، من أن مكريستال كان يلمّح فعلاً للحصول على مزيدٍ من الجنود. لكن جونز وأوباما وافقا على توصية غيتس بأن يمنح البنتاغون مكريستال مهلة ستين يوماً لإتمام تقويمه الخاص حول الوضع على الأرض.

في تلك الأثناء، وفي أواسط تموز/يوليو، أرسل جونز إلى البنتاغون مخطط التنفيذ الاستراتيجي بعد انتظار طويل والذي عرَّف عبارات استراتيجية رايدل ووضع خريطة لسلسلة معايير لقياس النجاح في أفغانستان. وقد سبقت الوثيقة المراجعة ووجهت ماك كريستال في وضع الإستراتيجية الجديدة والمرتكزة على مراجعة رايدل، موضع التنفيذ. كما أنها وفَّرت التوجيه الذي يساعد في تقويمه. وقد وافق جونز على اقتراح من غيتس بأن الوثيقة يجب أن تنص على أن الهدف كان «هزيمة» طالبان، بالرغم من أن مسوّدة البيت الأبيض الأصلية لم تذكر سوى «إقصاء»[1]. وقد كان التصنيف هائلاً بالنسبة لمولن وبتريوس ومكريستال. وكما أشار مكريستال خلال مقابلة أُجريت معه، لم يكن قد خطط لطلب مزيد من الجنود[2] عندما بدأ بوضع تقويمه. لكنه سرعان ما وجد أن الظروف في أفغانستان كانت أسوأ بكثير مما كان يتوقّع، وفي الوقت الذي بدأ فيه الغوص بوثيقة مخطط التنفيذ الاستراتيجي لجونز، شرع بالتفكير بما يمكن أن تتطلبه هزيمة طالبان. وكان واضحاً له من البداية أنه لم يكن حتى قريباً من عدد القوات المطلوب لإنجاز المهمة.

خلال الفترة الممتدة من الصيف إلى الخريف، أجرى مكريستال تقويماً للوضع على الأرض ثم عمل على احتساب كم من الألوية كان يحتاج لتطهير أجزاء من مناطق رئيسية وكم ستستغرق القوات الأفغانية من الوقت فعلاً لتصبح جاهزة. وقد خرج بخلاصة أن هناك حاجة لحوالى أربعين ألف جندي آخر على الأقل، بالإضافة إلى واحد وعشرين ألفاً الذين سبق والتزم بهم أوباما، وكان ذلك على درجة عالية من المخاطرة. في الواقع، كان يحبذ وجود عدد أكبر من القوات

(١) Bob Woodward, *Obama's War* (News York: Simon & Schuster, 2010), 145.

(٢) الجنرال ستانلي مكريستال، مقابلة أجراها المؤلف، أرلنغتون، فرجينيا، ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٠.

لو أراد الرئيس أن يُخفّض من مستوى المخاطرة المطلوب لإنجاز المهمة. «كنا نحاول أن نكون على قدر ما نستطيع من الوضوح حيال ما اعتقدنا بأنها كانت أفضل مشورة عسكرية، والتي ندين بها لبرنامج المساعدة التقنية لضمانات الوكالة الدولية للطاقة الذرية»، كما استذكر مكريستال لاحقاً. وفي لحظة استدراك، صرَّح بأن توصيته سرعان ما «أصبحت أكثر تسييساً مما توقّعت. لذا فقد كنا نلعب نوعاً من السباق خلال تقويم ذلك».

في تلك الأثناء، انكب بتريوس ومولن ومكريستال وموظفوهم على مراجعة مخطط التنفيذ الاستراتيجي بعناية. «كان هناك عمل جدي[1] لتحديد ما الذي كان يعنيه إعلان السياسة الجديد على المستوى التشغيلي»، كما أشار بتريوس لاحقاً. «فقد حصلنا عليها، ثم قمنا بتجزئتها ودراستها، وقد بدت جيدة جداً». فما لم يدركوه في ذلك الوقت على ما يبدو هو أن بعض المعاونين الشخصيين في البيت الأبيض لم يكونوا على علم بأن جونز قد أصدر مخطط التنفيذ الاستراتيجي الذي أوجب «هزيمة» طالبان. وكما لاحظ في وقت لاحق أحد المخططين المؤيدين لبتريوس، «كل ما كنا نكرره خلال مراجعة السياسة التالية[2] كان من مضمون قرار الإعلان، ومع ذلك فلم نكن ندرك في البداية بأنهم كانوا سيعيدون النظر في المسألة برمتها». في الواقع، وحين استلامهم القرار، لم يكن المخططون في القيادة المركزية وفي أفغانستان يتوقعون في البداية مراجعة شاملة من البيت الأبيض للسياسة في أفغانستان التي كانت ستستهلك الخريف كله.

خلال عملية مراجعة السياسة اللاحقة، أدرك بتريوس سريعاً كيف كان طلب مكريستال أربعين ألف جندي إضافي يؤدي إلى مشاحنات سياسية، وكم كان البيت الأبيض وفريق أوباما للأمن القومي منقسمين حيال التصرف المناسب في أفغانستان. قبل أن تبدأ العملية، كان بتريوس قد أوضح موقفه خلال مقابلة أجراها

(١) الجنرال ديفيد هـ. بتريوس، مقابلة أجراها المؤلف، كابول، أفغانستان، ٤ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٠.

(٢) مسؤول عسكري، مقابلة أجراها المؤلف، كابول، أفغانستان، ٥ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٠.

مع الكاتب الصحفي مايكل غيرسون، الذي ظهرت مقالته في مطلع أيلول/سبتمبر في واشنطن بوست. مكرراً ما ذكره مولن خلال جلسة مفتوحة في كابيتول هيل في اليوم الذي سبق المقابلة، أخبر بتريوس غيرسون أن تحقيق الأهداف التي تم تحديدها كان يتطلب «حملة مكافحة تمرد شاملة ومجهّزة بالكامل». وبالمتابعة، أشار بنبرة مميزة، «لا أظن أنه بإمكان أحد أن يضمن بأنها ستنجح حتى لو استعنّا بموارد أكثر بكثير. لكنها لن تنجح إن لم نفعل... فلدى طالبان مخابئ في أفغانستان. لا يمكنك أن تزيل المخابئ بغارات للطائرات الاستطلاعية المقاتلة. علينا أن نستعيد زمام المبادرة. علينا أن نخرج من هذا، ووقف الدوامة التي تجذبنا إلى أسفل، أن نستعيد الزخم».

وقد نُقِلَ بأن المقال أغضب المعاونين الشخصيين في البيت الأبيض الذين أحسُّوا بأن بتريوس كان «يستبق الحكم على قرار رئاسي»، على الرغم من أن كل ما قام به هو أنه أعاد صياغة ما سبق أن صرَّح به مولن للجنة مجلس النواب[1] للقوات المسلحة في اليوم الذي سبق إجراء المقابلة معه، حين ذكر رئيس اللجنة بأنه كان يؤيّد «مسعى مكافحة تمرد بموارد ملائمة وبأسلوب كلاسيكي»، وأشار إلى أن ذلك «يمكن أن يعني مزيداً من القوات». وبحلول الخريف، كانت الفجوة ستتسع أكثر بين بتريوس ومكريستال ومولن وغيتس وجماعة من البيت الأبيض يترأسها نائب الرئيس بايدن، الذي كان يفضل استراتيجية مكافحة إرهاب على نطاق أضيق.

بعد مرور أقل من أسبوع، نشر وودوُرد خبر تقويم مكريستال السري للأوضاع في أفغانستان على غلاف مجلة واشنطن بوست، مشيراً إلى أن اللواء قد استنتج بأن مسعى الجيش الأميركي في أفغانستان سيفشل من دون بنية عسكرية ضخمة، على الرغم من أنه كان عليه أن يحدّد الأرقام النهائية للقوات الإضافية المطلوبة. وقد أحكم التسريب الضغط على البيت الأبيض ودفعه للتحرّك. وجاءت القشّة

(١) Bob Woodward، مرجع سابق، ص ١٥٨.

التي قصمت ظهر البعير حين ألقى مكريستال، وبُعَيْدَ تحذيره في وقت سابق، خطاباً في لندن في ١ تشرين الأول/أكتوبر أكد فيه أنْ لا شيء سوى برنامجه لمكافحة التمرّد يمكن أن يحقّق النجاح في أفغانستان. لم يكن البيت الأبيض راضياً. لكن مكريستال وبتريوس ومولن قرروا في النهاية تبنّي طلب إرسال أربعين ألف جندي إضافي كونها الطريقة الوحيدة لإحراز تقدم في أفغانستان. وقد اعتبروا هذا من قبيل المشورة العسكرية المباشرة، لكنهم جميعاً أدركوا أن البيانات العامة المسبقة، وقبل إدراك التعقيدات الناجمة عن مراجعة السياسة، قد خلقت نوعاً من التوتـّر بين أولئك الموجودين في البيت الأبيض وأولئك الذين يرتدون الزي العسكري. تعلم بتريوس ومولن دروساً مهمة من التجربة سيطبقانها خلال مراجعة الوضع في أفغانستان في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠ وبعدها في حزيران/يونيو ٢٠١١، خلال التحضير للمناقشات المتعلقة بوتيرة سحب قوات الغزو.

خلال مراجعة سياسة الخريف، كان لدى القادة العسكريين دعم غيتس ووزيرة الخارجية هيلاري كلينتون. ويكمن السبب خلف آراء كلينتون، بجزء منه، إلى صداقتها المهنية القديمة مع الجنرال المتقاعد جاك كين التي ابتدأت حين كانت سيناتورة عن نيويورك وكان كين نائب رئيس الدولة للجيش. فكين، الذي كان بدوره مدافعاً رئيسياً عن حملة العراق، آمن بكل جوارحه بأن مقاربة مكافحة تمرد قوية وشاملة في أفغانستان كانت السبيل الوحيد لتحقيق النجاح، وكانت كلينتون مقتنعة بمنطق مكريستال وبتريوس.

لكن، حتى إن كان غيتس وكلينتون يؤيدان مكريستال وبتريوس ومولن، فقد امتعض بايدن وعناصر رئيسيون آخرون من موظفي البيت الأبيض مما أحسُّوا بأنه الإصرار المتواصل للحصول على مزيد من الجنود. وقد نُقِلَ بأن المجموعة ضمَّت رام إيمانويل، رئيس موظفي أوباما؛ وديفيد أكسيلرود، وهو مستشار رفيع واستراتيجي رئيسي للحملة؛ ودينيس مكدونو، وهو مستشار حملة أوباما وأصبح رئيس موظفي مجلس الأمن القومي؛ وتوم دينيلون، نائب مستشار الأمن القومي، وكان مقرباً من بايدن وقد عمل أيضاً على الحملة؛ ودوغ لوت، وهو

مقدم متقاعد في الجيش كان قد شغل منصب مستشار أعلى ومنسق أركان الأمن القومي لسياسة أفغانستان ـ باكستان. كان كل من لوت وبتريوس ومكريستال قد التحقوا بالأكاديمية العسكرية الأميركية في الوقت نفسه. تخرّج بتريوس عام ١٩٧٤ ولوت عام ١٩٧٥ ومكريستال عام ١٩٧٦. كان لوت قد أشرف على العمليات العسكرية في العراق وأفغانستان بصفته مدير العمليات للقيادة المركزية من ٢٠٠٤ إلى ٢٠٠٦، وانضم لاحقاً إلى البيت الأبيض في حقبة بوش على أنه قيصر الحرب المزعوم خلال غزو العراق. وقد نُقِل عنه عدم حماسته للحصول على الجنود كونه كان تحت ضغط من الجيش وغيتس، الذي بقي متصلباً حيال الحاجة لقوات إضافية. في تلك الأثناء، كان نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة، الجنرال جيمس «هوس» كارترايت، يتصدى لطلب مكريستال وبتريوس أربعين ألف جندي إضافي. وقد أراد كارترايت أن يقدم «خياراً هجيناً» يتطلب فقط عشرين ألف جندي إضافي. كانت خطته، المشابهة لتلك التي يفضّلها بايدن، عبارة عن مهمة محصورة أكثر لمطاردة متمرّدي طالبان وتدريب الشرطة والجيش الأفغانيين ليتسلّموا زمام الأمور. وكان مولن متخوّفاً حين طرح كارترايت الخيار خلال اجتماع غاب عنه مولن بداعي السفر، مشيراً إلى أنه لم يكن هناك أي شخصية عسكرية فعلية أخرى تؤمن بأن مثل هذا الخيار كان على الأقل ذا جدوى لتحقيق الأهداف التي تنص عليها وثيقة الاستراتيجية الحالية. في الواقع، أظهرت خطة الحرب التي تبنّاها مولن أن تلك المقاربة غير كافية.

على غرار مكريستال ومولن[1]، احتج بتريوس بأنه كان يوصي وحسب بتوفير مستوى قوة ضروري لحماية مصالح الدولة الاستراتيجية، ويحقق أهداف الرئيس المُعلَنة. «نحن فعلاً لم نكن نحاول أن نحاصرهم»، كما أخبر صديقاً له قبل سنة في مكتبه في المقر الرئيسي لإيساف في كابول. «شعرت بخيبة أمل حين ظن الجماعة ذلك. نعم، لقد كنا كلنا في الحلف؛ وكنا نؤيّد ما اعتقدنا بأنه المقاربة

(١) الجنرال ستانلي مكريستال، مقابلة أجراها المؤلف، أرلنغتون، فرجينيا، ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٠؛ الأميرال مايك مولن، مقابلة أجراها المؤلف، واشنطن العاصمة، ٣١ آب/أغسطس ٢٠١٠.

العسكرية الحساسة. كانت مرحلة مثيرة. فالجماعة يخبروننا بأننا لم نقدّم لهم الخيارات. لكننا أعطيناهم خيارات. لقد أعطيناهم خياراً يتطلب ثمانين ألفاً، وخياراً يتطلب ستين ألفاً، وخياراً يتطلب أربعين ألفاً، وذكرنا معدل المخاطرة التي تترافق مع إنجاز المهمة حسب كل خيار منها. وذكرنا أنه لا يمكن إنجاز المهمة بعدد أقل من أربعين ألفاً. لا يمكنك إنجازها بعشرين ألفاً، لذا لم يكن هناك طريقة يمكننا فيها اقتراح شيء كهذا».

وافق أوباما في النهاية على ثلاثين ألف جندي إضافي، مع تحويل غيتس إضافة عشرة بالمئة إضافية إن كان هناك حاجة لهم في ضرورات حرجة غير متوقعة، والسعي لتأمين إشراك العدد المتبقي لبلوغ أربعين ألفاً من دول أخرى مساهِمة بالجنود. لكنه أصرَّ أيضاً على أن يوافق مولن وبتريوس ومكريستال وغيتس على «وثيقة بنود» سرية من ست صفحات تنص على: «إن هذه المقاربة ليست مكافحة تمرد تضم كل الموارد[1] ولا إعادة إعمار بلد، لكنها مقاربة أضيق تنصب بشكل أساسي على الهدف الرئيسي وهو تعطيل القاعدة وتفكيكها وأخيراً هزيمتها والحؤول دون عودتها إلى ملاذها الآمن في أفغانستان وباكستان». لم يكن غيتس والجيش قد اطّلعوا على البنود فقط قبل الحصول على موافقتهم عليها؛ بل قدّموا المساهمة لأولئك في البنتاغون الذين كانوا يساعدون البيت الأبيض في صياغتهم. وكان أوباما قد أضاف شخصياً في اللحظة الأخيرة، ما تناقله لاحقاً مسؤولو البنتاغون، بنداً يقضي بالبدء بسحب القوات في تموز/يوليو ٢٠١١. «وكما علمنا في المكتب البيضوي مساء يوم الأحد في الليلة التي سبقت إعلان السياسة، فلم يكن هناك من خيار سوى القبول بها أو نسيانها»، كما أخبر مشاركٌ أحد المعاونين. وقام غيتس ومولن وبتريوس ومكريستال «بالموافقة عليها».

أعلن أوباما نتيجة المراجعة خلال خطاب ألقاه في الأكاديمية العسكرية

(١) Bob Woodward، مرجع سابق، ص ٣٨٧.

الأميركية في ١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٩. ففي قاعة احتفالات مليئة بتلاميذ الضباط الذين ارتدوا الزي الرمادي البسيط، نظر بتريوس إلى أعلى من الصف الأمامي وبجانبه مولن وغيتس وكلينتون والجنرال المتقاعد في الجيش إريك شينسيكي، وزير شؤون قدامى المحاربين. وقد فسَّر الرئيس قراره هذا قائلاً: «بصفتي القائد العام، فقد قررت أن هناك مصلحة قومية ملحة في إرسال ثلاثين ألف جندي أميركي إضافي إلى أفغانستان. بعد ثمانية عشر شهراً ستبدأ قواتنا بالعودة إلى الديار. هذه هي الموارد التي نحتاجها لنقوم بالمبادرة، أثناء بناء القدرة الأفغانية التي تفسح المجال أمام انتقال سلس لقواتنا خارج أفغانستان».

طار بتريوس مع الرئيس إلى الأكاديمية العسكرية الأميركية على متن «إير فورس وان». وقد كانت المرة التي أمضى الاثنان فيها أطول وقتٍ معاً في بيئة غير رسمية مثل هذه. كان الرئيس قد طلب أن يسافر بتريوس معه، لذا فقد طار بتريوس عائداً من تامبا إلى واشنطن بعد إبلاغه مباشرة للمرة الثانية خلال يومين. كان إعلان التضامن مهماً، وقد عنى ذلك كثيراً لبتريوس. ومع ذلك، فقد بقي أعضاء رئيسيون من موظفي البيت الأبيض قلقين حيال قدرة بتريوس ودوافعه. وفي خريف عام ٢٠٠٩، نُقِل أنه تم تنبيهه هو وآخرين منضوين في عملية المراجعة من قبل البيت الأبيض بأن يمتنعوا عن الحديث إلى الصحافة عن المراجعة، وقد طبَّق هذا التوجيه بحذافيره، وهو ما حمل الصحافي توماس ريكس على وصف أحد عروض بتريوس ذاك الخريف بأن «ديف عرض بشكل ممل». (وقد أشار بتريوس إلى ضابط العلاقات العامة الخاص به إلى أن الأمر كان يتطلب مهارة عالية بأن تكون مملاً في جوّ مشحون كهذا).

كان هناك توترات أخرى أيضاً. ففي مطلع أيار/مايو ٢٠١٠، نُقِل عن بتريوس قوله ضمن إطار قصة لِـ«أسوشيتد برس» بأن فيصل شاه زاد، الذي حاول أن يفجّر قنبلة في «تايمز سكوير» في نيويورك، كان «ذئباً وحيداً». وقد جعلته قصة أسوشيتد برس يبدو وكأنه كان يناقض تصريحات لآخرين من إدارة أوباما بأن شاه زاد كان قد تدرّب على يد طالبان الباكستانية. كان ذلك قد نُقِل عن لسانه

بطريق الخطأ، لذا عادت أسوشيتد برس ونشرت لاحقاً تصويباً لما نقلته عنه يقول فيه إن شاه زاد كان ذئباً مستوحداً يستوحي من الميليشيات الباكستانية لكن ليس بالضرورة أن يكون على صلة بهم. لكن الضرر قد حصل. طلب بترِيوس من الناطق باسمه، العقيد إريك غونهوس، أن يصوغ بياناً صحفياً قصيراً لتصحيح سوء الفهم وأشار على غونهوس بأن يُبْلِغ البيت الأبيض. لكن البيت الأبيض أبلغ غونهوس بألا يصدر البيان الصحفي وأن يترك المسألة لتتلاشى تلقائياً. وقد ظهرت آثار ذلك بعد بضعة أيام، عندما كان بترِيوس وموظفوه معاً على متن طائرة. انضم اللواء إلى غونهوس وضباط آخرين في المقصورة الخلفية واحتسى كأساً نادرة من النبيذ خلال الرحلة. «ففي الوقت الذي هدرت فيه الطائرة متوجهة إلى محطتها التالية»، كما كتب وودوُرد، «ذكر غونهوس بأن البيت الأبيض ما زال ميالاً إلى ترك بترِيوس يدور في العاصفة. إنهم يطرحونك أرضاً كلما سنحت لهم الفرصة»[1]، كما ذكر غونهوس. «إنهم يعبثون مع الشخص الخطأ»[2]، أجاب بترِيوس».

كان هناك ثمانية أشخاص على الطائرة مع بترِيوس ذلك اليوم، وكان أحدهم مصدر معلومات وودوُرد. وقد عبَّر بترِيوس لاحقاً عن امتعاضه منهم جميعاً لخيانة ثقته. وقد تكهّن لاحقاً، بخيبة أمل، أن ضابطاً برتبة ميدانية[3] على متن الطائرة كان مستشاراً وفياً لنحو خمس سنوات. لكن بترِيوس عرف أنه كان مسؤولاً في النهاية عن الإدلاء بالملاحظة المتطرفة، حتى إن افترض أنه أدلى بها في جلسة خاصة. حين ظهر التعليق في كتاب وودوُرد، فضَّل بترِيوس ـ المعروف بإمكانية الوصول إليه وعلاقاته الصحفية المميزة ـ أن يتراجع، وقال لمرؤوسيه في حوارات لاحقة حول القيادة إن هناك أحداً ما يراقب على الدوام. وكما اتضح له منذ زمن بعيد، فلم يعد هناك سوى القليل جداً من الخصوصية في حياته. كان التدقيق شديداً جداً، فأحكم بترِيوس قبضته أكثر فأكثر في القيادة.

(١) Bob Woodward، مرجع سابق، ص ٣٦٢.

(٢) Steve Luxenberg, "Obama Battles with Advisers Over Afghan Exit Plan Detailed in Woodward Book, *Washington Post*, September 22, 2010.

(٣) الجنرال ديفيد هـ. بترِيوس، رسالة بريد إلكتروني للمؤلف، ٢٦ كانون الثاني/يناير ٢٠١١.

كان هناك عدد كبير من النقاد، بمن فيهم وودوُرد، أعطوا ملاحظات حول «حملة تعزيز الذات المتواصلة» لبتريوس. كان ذلك شعوراً مشتركاً لمن هم داخل الجيش الذين نظروا لبتريوس بعين الشك أو الحسد. فقد أصبح هدفاً لمثل هذا النقد منذ بداياته المهنية بحكم مهماته المتكررة كمعاون شخصي لضباط نافذين برتبة فريق أول بأربع نجوم ـ غالفين وفيونو ـ ومن عام ١٩٩٧ إلى عام ١٩٩٩، الجنرال هيو شيلتون، رئيس هيئة الأركان المشتركة الأميركية. وما أقر به قليلون هو أن ألوية الأربع نجوم قد وظفوا معاونين بسبب قدراتهم، وليس مهاراتهم السياسية. حتى الذّامون اعترفوا بشكل عام أن قدرة بتريوس قد تخطّت كل المعايير.

في هذه الأثناء، كانت علاقة بتريوس مع الرئيس، بدءاً من رحلة الأكاديمية العسكرية الأميركية، قد تغيرت بشكل ملحوظ بحلول خريف ٢٠١٠. كان بتريوس يعتقد أن الأحداث طغت على الصراع الداخلي الذي دار بين جنرالات أوباما ومعاونيه من البيت الأبيض في الخريف السابق. وبعد قضاء ثلاثة أشهر في قيادته الخاصة في أفغانستان، كان بتريوس واثقاً أن أوباما لم يكن ليختاره خلَفاً لمكريستال لو لم يكن يثق به. لم يكن بتريوس يتخيل أن يختار أوباما أحداً يعتبره «غريباً» لتولي مسؤولية أكثر مبادرات الأمن القومي أهمية في رئاسته. «إن كنت ستطرد شخصاً ما، فمن الأفضل أن تأتي بشخص آخر يثق الناس به»، كما أخبر بتريوس لاحقاً أحد المقربين. وعلى الرغم من أنه لم يكن على اتصال مباشر مع أوباما كما كان مع بوش خلال حرب العراق، إلا أن بتريوس كان مخولاً بذلك ساعة يشاء بعد أن أصبح رجل أوباما المميز.

بحلول أيلول/سبتمبر ٢٠١٠، كانت مؤشرات قد بدأت تصدر عن البيت الأبيض برئاسة أوباما بأن هناك «التباساً فكرياً» بين الرئيس ولوائه ذائع الصيت. كان بتريوس يعتقد أن لديه هو وموظفيه أقصى الولاء الممكن للبيت الأبيض، فقد قدّم هو وفريقه الكثير من التضحيات لتولي قيادة الحرب في اللحظة الأخيرة. انتابه شعور عميق بخيبة الأمل حين نُقِل إليه بأن بعض موظفي البيت الأبيض

كانوا يشكون بولائه لأوباما، أما الصراع مع من تبقى من البيت الأبيض فبقي جمراً تحت الرماد.

تولى بتريوس الآن قيادة الغزو الذي اختلف حوله هو ومكريستال ومولن وغيتس في الخريف السابق. وفي الوقت الذي نصح فيه بالاحتياط خلال خطاباته الصباحية في المقر الرئيسي لإيساف، وأخبر العشرات من الضباط الذين اجتمعوا من أجل الموجز الصباحي بأن التقدم سيأتي بطيئاً، كانت مقاربته الشخصية أبعد ما تكون عن الاحتياط. وقد وجد أساليب لإضافة وحدات من موظفي استخبارات مدنيين لا يُحسبون من ضمن سقف القوات الرسمية. كثّف من غارات العمليات الخاصة الليلية التي استهدفت قادة طالبان، وعمل جاهداً لإنشاء الشرطة الأفغانية المحلية في جميع أنحاء الدولة، وراقب القوات التقليدية بعناية وهم ينتقلون إلى مراحل «السيطرة والإعمار» في مكافحة التمرد، بعد صيفهم القاسي من المعارك.

لكن بتريوس وجد أن أفغانستان، وفي بعض الجوانب، أكثر تعقيداً من العراق، على الرغم من أن معدلات العنف كانت بلا شك أدنى بكثير. «أفغانستان فاعلة للغاية في هذه اللحظة حيث يصعب كثيراً في الواقع معرفة كل ما يجري، كما أنه من شبه المستحيل أن تعرف إن كنت تنظر إلى الداخل من الخارج»، كما أبدى ملاحظة لصديق في ذلك الوقت. «فالواقع أنه كان لدينا قوات أكثر في العراق، وعدد سكان أقل لضمان حمايتهم، وطبيعة أرض أسهل من تلك التي واجهتنا في أفغانستان. فهناك تحديات في أفغانستان أكبر بكثير من تلك التي في العراق، على الرغم من عدم وجود معدل العنف المرتفع نفسه الذي واجهناه في العراق. حتى في العراق، فقد انتظرنا لأشهر قبل أن نرى التقدم ونثبت التقدم ونرسخ التقدم. فما الذي يخبرنا به هذا عن أفغانستان؟ سيحتاج التقدم لبعض الوقت».

كانت أفغانستان أيضاً تمرداً قروياً، مقارنة بالتمرد المدني في العراق، ولم يفهم

كثير داخل بيلتواي بأن العملية كانت تتطلب مقاربة مختلفة. فالطبيعة اللامركزية للحكومة والانفصال بين المسؤولين في كابول وسكان المناطق القروية ـ أكثر من ٧٥ بالمئة من عدد السكان ـ جعلت كل المساعي محفوفة بالتحديات. وعلى الرغم من سعي بتريوس للحصول على الجنود لتنفيذ كل جوانب الحملة ـ الأمن والحكومة والتنمية ـ فقد كان جلياً أن الأمن كان الأولوية. كان من الصعب شق الطرقات وترميم المساجد وفتح العيادات الطبية والمدارس وتبني التنمية الاقتصادية في مناطق ما زالت تعج بطالبان، أو حيث كان القرويون يفضلون المتمردين على القوات المحتلة أو المسؤولين الحكوميين الفاسدين وغير الكفؤين.

في عقيدة مكافحة التمرد، تأتي الحكومة والتنمية بعد المكاسب الأمنية، لكن ينبغي على القوات أن تهيّئ الظروف لتلك النشاطات ضمن مفهوم الوجود المتنامي للأمن. سعى بتريوس لإحراز النجاح بكل الأوجه: مهاجمة قيادات الصف الأول والمتوسط في طالبان بتدخل القوات الخاصة، تطهير الملاذات الآمنة لطالبان بالقوات التقليدية، تطوير الشرطة والجيش الأفغانيين، العمل مع الشركاء المدنيين لبناء قدرة الحكومة الأفغانية، التوافق مع عناصر طالبان الذين ملّوا من القتال، ودعم المبادرات الأفغانية لإعادة صهر أولئك الذين يودون الانتقال إلى الطرف الآخر. «فكل هذا سيتراكم مع الوقت»، كما أخبر موظفيه. «فمع الوقت، وتدريجاً، سنلمس التقدم. لكنه سيكون كمن ينظر إلى العشب وهو ينمو».

لقد شحذ قدرته لمهاجمة عدة جبهات لا سيما خلال مهمته الأولى في عاصمة أجنبية فوضوية هي بورت ـ أو ـ برانس في هايتي.

عندما غادر الوحدة إيربورن ١٠١ في أواسط عام ١٩٩٤، بعد سنة أمضاها كضابط عمليات الوحدة، طلب بتريوس أن يمضي عامه في الكلية الحربية كخريج جامعة في جامعة جورج تاون. بعد أن بدأ دراسته كخريج جامعة بوقت قصير، دفعت

إدارة كلينتون لمواجهة حاسمة مع اللواء راوول سيدراس، رجل الجيش القوي في هايتي، وفرضت مغادرته، ناشرة عشرين ألف جندي أميركي لمراقبة إعادة تثبيت جان ـ برتران أريستيد، الرئيس المنتخب الذي أُطيح من قِبَل المجلس العسكري. وخلال الفترة الممتدة من الخريف إلى الشتاء، خطّطت الولايات المتحدة لتخفيض مساهمتها وإيجاد قوات من دول أخرى لتسهيل تسليم المهمة لقوات الأمم المتحدة المؤلفة من ستة آلاف عسكري وأكثر من ثلاثمئة مدني.

لم يختر بتريوس هايتي صدفة موضوعاً لبحثه في جامعة جورج تاون، بل كان يسعى ليكون جزءاً من مساعدة موظفي مجلس الأمن القومي في هذه المبادرة الدبلوماسية والعسكرية. ثم رافق نائب وزير الخارجية ستروب تالبوت إلى لقاء لنواب البيت الأبيض مدته خمس ساعات حول الوضع في هايتي، وجده متحمّساً للغاية. وعندما صادف عقيداً يعرفه من موظفي فيونوكان يبحث عن بعض الضباط الكفؤين للمساعدة على تمركز وإدارة قوات الأمم المتحدة الجديدة، قفز بتريوس للإمساك بهذه الفرصة. في الواقع، لقد كان يسعى ليعمل كخريج جامعة جزئياً لكي يتمكن من الانتقال، إذا ما سنحت الفرصة لذلك. وعندما أعفى قائد قوات الأمم المتحدة رئيس عملياته، تم اختيار بتريوس ليملأ ذلك المركز الحساس.

حطّ رحاله في بورت ـ أو ـ برانس في شباط/فبراير، قبل ستين يوماً من موعد تسلُّم الأمم المتحدة، وساعد على تشكيل فريق المهمات من مرحلة الصفر. لم يكن هناك مقر رئيسي، ولم يكن هناك إجراءات. لم يحصل بتريوس سوى على القليل من المساعدة، ونام معظم الليالي خلال فترة تشكيله على سرير نقّال مخبّأ خلف شاشة العرض في غرفة عرض الموجز. وعندما سمع أخيراً أنه أُعطِيَ مقراً رئيسياً دائماً لفريق المهمات، قام بزيارة المنشأة فوجدها ناقصة. «كبداية، لم يكن هناك سطح ولا أرضية ولا اتصالات ولا أثاث ولا كهرباء»، كما أشار لاحقاً بلهجة جافة. لحسن الحظ، كان قد أنهى لتوّه تشغيل وحدة قتالية أكبر من قوات مهمة الأمم المتحدة بعشر مرات، وقد جعل فريقه المتنامي مركز العمليات جاهزاً وعاملاً حين تسلّمت الأمم المتحدة المهمة.

على الرغم من أنه لم يعرف ذلك في حينه، فقد كان تمركز فريق المهمات وتخطيط العملية وتوجيهها والمساعدة على تدريب الشرطة الهايتية ومراقبة التحسينات في الأنظمة القضائية والسجون في هايتي بمثابة تمهيد لتحدّ مماثل سيواجهه في جولته التالية في العراق، حين كان يتوجب عليه أن ينشئ قيادة جديدة ليجنّد ويدرّب ويجهّز وينصح ويوجِد البنى التحتية للجيش والشرطة العراقيين.

في هايتي، حيث كان ينام على سريره النقال، ويمارس رياضة الجري صباحاً مع جهازي لاسلكي موتورولا في كلتا يديه، سرعان ما بهر بتريوس رؤساءه وزملاءه بطاقته على العمل، وقدرته على التحرك إلى الأمام والوراء، بين الدبلوماسية العالمية والعمليات الأمنية، وإعمار البلد وترميم البنى التحتية. في منتصف شباط/ فبراير، بعد أسبوع من وصوله، لخّص لأريستيد ونائب وزير الخارجية تالبوت ومسؤولين رفيعين آخرين من إدارة كلينتون حول هيكلية قوات الأمم المتحدة. وبعد عشرة أيام من تقديمه تحديثاً لأريستيد حول الأوضاع في البلد، أسرع إلى سيارته من طراز تويوتا فور رانر وتوجّه إلى سجن بورت ـ أو ـ برنس المركزي، حيث كان السجناء ينفذون أعمال شغب ويحرقون كل ما يقع تحت أيديهم. فقام بتريوس ومجموعة من الشرطة العسكرية بمؤازرة الحرس الهايتي واستعادوا السيطرة على المنشأة. وأثناء تنقيبه حول الوضع لاحقاً، اكتشف أن كثيراً من السجناء ما زالوا قيد التوقيف بعد أن أمضوا مدتهم كاملة. وقد شكلوا بالنسبة له «الأشخاص الذين نسيهم الزمن». انطلق هو وفريقه لمساعدة الهايتيين على استعادة السيطرة وتحسين الظروف في السجن.

أدرك بتريوس أن جنود فريق المهمات سيحتاجون إلى قواعد اشتباك واضحة حول التدخل في عنف بين الهايتيين، مسترجعاً بذاكرته فصلاً سابقاً حين وقفت القوات الأميركية ـ التي افتقرت إلى مثل هذه القواعد ـ وشاهدت انفجار أعمال الشغب وتقاتل الهايتيين. تنذر وثيقة كتبها بتريوس لتحديد قواعد الاشتباك، مؤرخة في ٣١ آذار/مارس ١٩٩٥، بتوجيهات مكافحة التمرد التي كان سيصدرها

بعد وصوله إلى كابول بوقت قصير. وقد بدأت اللائحة ذات النقاط التسع: «١ ـ عاملوا كل الناس بكرامة واحترام».

في حين لم يكن هناك تمرد في هايتي، كان هناك ما هو أقرب إلى ذلك. فكان المجرمون ينهبون ويرهبون ويقتلون رجال بلدهم. ورداً على ذلك، أوصى بتريوس قائد القوة بأن تركّز الوحدات جنودها بين القرى النائية، ما شكّل تغيراً جذرياً لممارسة الولايات المتحدة السابقة بنشر القوات التقليدية فقط في أكبر مدينتين في البلد.

وفي تحقيق السلام، كما في مكافحة التمرد، رأى بتريوس في الشعب مركز الثقل. وقد عمل عن كثب مع مجموعات الإغاثة المدنية، وحاول بناء الشرطة الهايتية، وتنفيذ مداهمات لإلقاء القبض على قادة لاجئين من المجموعات شبه العسكرية، وبدأ بتوظيف الأموال الأميركية في مشاريع تحسين العاصمة الملحة جداً. كما أنه ساعد في تنظيم عملية تسجيل الناخب، إحدى دعائم إعمار البلد. بعد أن تم إخباره خلال موجز بأن العملية كانت جاهزة لتبدأ خلال خمسة أيام، زار مستودعاً حيث تم جمع مواد التسجيل ووجد «فوضى عارمة». فتوجه إلى كتيبة المروحيات الأميركية وسأل إن كان بإمكانه إخلاء حظيرة الطائرات لكي يتمكن الفريق من نشر مواد الانتخابات على الأرض. كان المطر يسقط بغزارة في ذلك الموسم، ولم يكن هناك مكان آخر للقيام بذلك، فأجلى الطيارون طائراتهم. ساعد بتريوس والفريق في نقل المواد وتنظيمها ثم ساعد في نقلها إلى المواقع في أنحاء هايتي. تم إنهاء التسجيل في الموعد المحدد.

«كانت هايتي تجربة مدنية عسكرية عظيمة، وتجربة تعلُّم رائعة لناحية ما يشمله إعمار البلد، خاصة في بلد كان من بين أفقر ثلاث دول في العالم حينها»، كما نقل بتريوس لاحقاً. وأشار إلى أن الخدمة في ائتلاف دولي كانت تجربة ثمينة. كان أكبر ائتلاف دولي (على صعيد الدول) على الإطلاق اجتمع بانتظاره في كابول. «من السهل في مثل هذه الأنواع من المهمات، حيث الولايات المتحدة مهيمنة بالكامل، أن تهيمن، ومع ذلك فذلك ليس هو المسار الصحيح»،

كما لاحظ. «إنها تدور حول إبقاء الجميع إلى جانبك. إنها حول التأكد ما إذا كانت الكتيبة النيبالية راضية تماماً مثل فريق الولايات المتحدة».

هيَّأته تجربته في هايتي جيداً لكثير من الجوانب في البوسنة والعراق وأفغانستان. مع أنه، حين بدت الدولة وكأنها منطقة حرب، فهي لا تحتسب على أنها جولة حرب. كان عليه الانتظار لثماني سنوات إضافية ليحصل على شارة قتالية على كتفه اليمنى.

كانت مهمته التالية بالانتظار إلى حين وصوله إلى الولايات المتحدة في حزيران/يونيو ١٩٩٥: قيادة اللواء الأول في الوحدة إيربورن ٨٢ في فورت براغ، شمال كارولاينا. كان الأفضل والألمع فحسب ـ أولئك الضباط الذين يملكون المؤهلات ليصلوا لرتبة لواء ـ هم من أصبحوا قادة لواء قتالي في الجيش. وكان بتريوس سيخلف نجماً آخر، هو العقيد جونِ أبي زيد، لكنه لم يستطع تولي القيادة بالسرعة الكافية.

ففي حين تشارك الرجلان سمعة رائعة ومعتقدات متماثلة حول حاجة الجيش للفوز في النزاعات الخفيفة الحدّة وأعمال مكافحة التمرّد، فقد كان نمط كلّ منهما مختلفاً بشكل لافت. كان أبي زيد هادئاً ومسترخياً، فيما كان بتريوس شديداً وتنافسياً ومنظماً جداً. وفي حين كان أبي زيد يفرح باستراحة يحتسي خلالها الجعة مع رجاله بُعَيْدَ مناورة ما، كان بتريوس يريد أن يجري مراجعة ما بعد العمل، ومن ثم تحدي الجميع لممارسة رياضة الجري، واحتساء الجعة بعد ذلك.

ولأنه غريب ولم يسبق له أن خدم في الوحدة ٨٢ سابقاً، فقد لاقى بتريوس حسداً من بعض أقرانه هناك ـ وفي أماكن أخرى في الجيش ـ الذين شاركوا في القتال في بنما أو في الخليج مع الوحدة.

كان قادة كتائب بتريوس على علم بنزعته التنافسية الشديدة وتفضيله «نهج النظم»، لكنه صرَّح في براغ أنه تعلم كيفية تشكيل فريق وليس التنافس مع الفريق. وكان خمسة من قادته الستة في كتيبة المشاة سيصبحون ضباطاً عامين،

واحد منهم سيحصل على نجمتين (يتولى حالياً قيادة الوحدة إيربورن ٨٢)، وسيصبح اثنان منهم ألوية بثلاث نجوم، وآخر سيحصل على أربع نجوم. وسيخدم الجميع في العراق مع بتريوس.

بقيادته «كتيبة ديفلز»، أزهر أسلوب بتريوس في القيادة والسيطرة، برأي المقدم كيفن بيتيت، أحد قادة فرق الكتيبة في ذلك الوقت. فهو يتذكر أول لقاء لبتريوس مع جميع الضباط الميدانيين: «لقد عقده في الكنيسة في فورت براغ»، على حد قول بيتيت، الذي يشير إلى بتريوس الآن باسم «دكتور» تكريماً لشهادته في الدكتوراه. «فالدكتور، وكما علمت، لا يضيع أي فرصة ليمرر الرسائل، الشفهية منها والخطية. واستمر بتقديم فلسفته في القيادة، وهو الأمر المهم بالنسبة له. فبدأ بسؤالنا أسئلة تكتيكية: ما هو المدى الفعال الأقصى لبندقية رشاشة؟ ما هي الأنواع الثلاثة للسلك الدفاعي؟ كانت رسالة بأن هذا هو أحد المستويات التي أرادنا أن ندرسها. من إحدى مفارقات الرتب أن قادة الفصائل يتكلمون عن الاستراتيجية، والعقداء والألوية يتكلمون عن الفرق/الفصائل. لذا فقد أكد أن هذا هو المستوى الذي كان ينتظر منا أن نمتلك خبرات فيه».

كما أنشأ بتريوس عرفاً جديداً للتدريب في ذلك الوقت. فقد أحس بأن تدريبات النيران الحية كانت معروفة جداً. «أريد أن أخبركم عما أسميه كلية السير وإطلاق النار»، كما أخبر بتريوس ضباط لوائه. «لا يملك جنود الجيش المهارات التي نحتاجها لتولي سيناريوهات غير معروفة تستخدم فيها النيران الحيّة، أقل بكثير من الانتشار على أرض الواقع». فالتدريب النموذجي الذي يستخدم فيه الهاون والمدفعية، بالإضافة إلى المروحيات الحربية والدعم الجوي لأهداف دقيقة، كان مطلوباً جداً وكان ذا قيمة تدريبية محدودة.

كان بتريوس قد خطّط لتغيير ذلك. وكما استرجع بيتيت: «وثبنا إلى ممرات منطقة المناورات حيث كان باستطاعتنا السير وإطلاق النيران الحية على أهداف حولنا وأمامنا، وهو تبدُّل ضخم لناحية التدريب الثابت والخطي الذي قمنا به سابقاً. وقد استجبنا بجزء لأننا خرقنا القواعد للقيام بذلك كما شعرنا بأننا مميزون،

ومن الواضح أننا نتدرب تدريباً واقعياً لم يقم به أحد حتى هذا التاريخ». وقد حصل بتريوس في الواقع على التنازلات المطلوبة، لكن لم تقم أي وحدة بذلك وبهذه الطريقة الهجومية من قبل.

طفا تركيز بتريوس على الخبرات التكتيكية على السطح مجدداً في قيادة اللواء ليفوق العدو دهاءً. حمل مركز تدريب الجاهزية المشترك، أساس تدريب المشاة الخفيفة في الجيش، الذي قام كين بتطويره، وهو سيناريو ليس بعيداً عن حرب المدن التي سيشهدها بتريوس لاحقاً في العراق، مع لاعبين مدنيين وانتحاريين وعبوات ناسفة.

ففي السيناريو، وعندما باغتت وحدات بتريوس الأعداء، القوة المضادة المزعومة، عند ضواحي المدينة، لم يكونوا جاهزين وكانوا نائمين. لم تكن دفاعات البلدة كاملة، وكان البعض من الأعداء ما زالوا ينصبون الأسلاك والمتاريس والحواجز. فالقوة المضادة، كما استنتج بتريوس بشكل صحيح، قد وضعت جدولاً زمنيا خاصاً بها، مستنداً إلى هجوم عند الساعة ٥:٠٠، كان لواء بتريوس قد أعلنه. «سيدي، لقد خدعتني حتى اللحظة التي كنت أعبر فيها الأسلاك إلى الهدف»، كما استرجع بيتيت. فنظر بتريوس إليه وأجاب، «لقد حدّدنا القواعد، وعندما حدّد الأعداء قواعدهم، قمنا نحن بتغيير قواعدنا». وقد وجدها بيتيت سابقة حيث سيقوم بتطبيق مثلها على الأعداء كما على الجنود لخلق ظروف مؤاتية للفريق كي يحقق الفوز. «تتابع أنت وفريقك من وحدة ديفلز الإنجازات بشكل أفضل بكثير مما عهدته يوماً»، كما وصف العميد جون فاينز في رسالة بريد إلكتروني، أرسله لمساعد قائد الوحدة ٨٢ للعمليات في آذار/مارس ١٩٩٧.

بعد سنتين من قيادة اللواء، توجّه بتريوس صعوداً نحو الساحل الشرقي مرة أخرى، لجولة أخرى في البنتاغون. وهذه المرة كان اللواء هيو شيلتون، رئيس هيئة الأركان المشتركة، يطلب أن يكون بتريوس معاونه التنفيذي الخاص. كان بتريوس قد رأى سابقاً الأسلوب الذي يعمل به البنتاغون من خلال رؤية الجنرال فيونو، رئيس الخدمة. وأمامه الآن فرصة ليطّلع على المبنى موقع المراقبة «المشترك»

المهم جداً، حيث كانت سائر قطاعات الجيش الأربعة تعمل وتخطط معاً لعمليات مدعومة، وفي بعض الأحيان تقاتلوا بعضهم مع بعض.

من خلال العمل مع شيلتون، اكتسب بتريوس خبرة في العلاقات المدنية العسكرية على أعلى المستويات. كان لديه نقطة مراقبة مهمة جداً يمكنه من خلالها رؤية أعمال إدارة كلينتون ومجلس الأمن القومي واتخاذ القرارات الرئيسية. كما تواصل بتريوس مع نظرائه في مكتب وزارة الدفاع وموظفي مجلس الأمن القومي ووزارة الخارجية. ونظراً لخلفية شيلتون، بصفته رئيس قيادة العمليات الخاصة، تعلّم بتريوس على يد رئيس فكر في التوازن بين القوات التقليدية وقوات العمليات الخاصة، بطريقة مختلفة عن ضباط المشاة الذين خدم معهم بتريوس في السابق. وقد شملت عمليات الطوارئ خلال المدة التي قضاها مع شيلتون مناطق الحظر الجوي (الشمالية والجنوبية)، وعملية حفظ السلام وملاحقة مجرمي الحرب في البوسنة، وعمليات مكافحة الإرهاب التي ركّزت على أسامة بن لادن، والهجمات المتوالية في العراق، بعد أن حشر صدام حسين أنفه في المجتمع الدولي، وخلال عام شيلتون الثاني، وحملة كوسوفو الجوية.

توجّه بتريوس بعدها إلى فورت براغ ليعلق نجمته الأولى ويخدم مساعد قائد الوحدة ٨٢ للعمليات. وخلال عام مليء بالتدريب وعمليات الانتشار الطارئ، سترسل أيضاً الوحدة ٨٢ بتريوس لينضم إلى «نادي لواء الشهر» في الكويت، حيث قاد فريق المهمات المشترك ـ الكويت (عملية ربيع الصحراء) ـ مناوبة طارئة من ثلاثة آلاف جندي في الخدمة لمدة شهر، وذلك للقيام بمهمة ردع صدام حسين، وطمأنة الحلفاء الإقليميين ودعم عمليات القوات الأميركية المشتركة في الميدان.

كانت جولة بتريوس الأخيرة في فورت براغ كرئيس أركان لفيلق إيربورن الثامن عشر، المنظمة الأم للوحدة ٨٢. في مقلب آخر، كان يستمتع بإدمانه القفز بالمظلة مع الفرسان الذهبيين، وهو فريق المظليين في الجيش ومظليين آخرين هواة، حتى وقعت المصيبة: فقدت مظلة بتريوس الهواء أثناء استدارة متأخرة

واصطدم بالأرض، ما أدى إلى كسر حوضه. ولحسن حظ بتريوس، فقد سمح له رئيسه، اللواء دان مكنيل، بأن يعمل من المنزل. كان مكنيل يعرف قدرات بتريوس ولياقته البدنية، كون بتريوس خدم معاون قائد الوحدة التابع له عندما تولى مكنيل قيادة الوحدة إيربورن ٨٢، ولم يكن يريد أن يخسره.

طلب بتريوس من أطبائه أن يسمحوا له بالسباحة لتسريع عملية شفائه والمحافظة على مستوى معين من اللياقة البدنية. «لا بالطبع لا»، أجاب طبيبه. «ستزيح حوضك عن مكانه؛ أنت تعلم أنك متماسك فقط بسبب البراغي والقضبان لتلحيم ما انكسر». وبرغم ذلك ربط بتريوس عوامة بين رجليه ونزل إلى بركة السباحة بالرغم من ذلك. لكن كين، الذي أصبح في تلك الأثناء نائب رئيس الأركان في الجيش، حذَّره من السقوط الحر بالمظلة من جديد. «أعطِني وحدة وأنا سأتوقف عن القفز بالمظلة»، أجاب بتريوس مازجاً بين الجد والمزاح. كان سيتخلّى عن السقوط الحر بالمظلة، لكن خلال تسعة أشهر كان قد عاد إلى ممارسة رياضة الجري والقفز بالمظلة ضمن خط ثابت، بالإضافة إلى محاكاة السقوطة الحر في قناة تهوئة فورت براغ.

قبيل انتهاء جولته كرئيس أركان الفيلق، في أواخر ربيع ٢٠٠١، كان بتريوس ممثل الفيلق في مؤتمر عُقِد في مركز جون ف. كينيدي الخاص للحرب في فورت براغ. وكان السؤال الذي أثاره المؤتمر عما إذا كان على القوات الخاصة في الجيش أن تستمر بالتشديد على تدريب قوات البلد المضيف والعمل معها أو التركيز أكثر على المهمات المتحركة مثل المداهمات محدّدة الهدف. كانت أحداث ٩/١١ ستضع حداً للجدل الدائر. وخلال أشهر من المؤتمر، عادت القوات الخاصة إلى الساحة بقوة لتنفيذ مهمات لطالما كانت موطن قوَّتهم، بما في ذلك ركوب الخيول، إلى القتال في شمال أفغانستان.

حثَّ الجدل بتريوس على التفكير بقوة حول تشكيله الآتي إلى البوسنة، حيث سيعمل على نطاق واسع مع نماذج مختلفة من قوات العمليات الخاصة. وقد ساعدته التجربة جدياً في وقتٍ لاحقٍ في العراق وأفغانستان.

كانت الغارات الليلية في أفغانستان خلال خريف ٢٠١٠ إلى حدّ كبير من اختصاص قيادة العمليات المشتركة الخاصة، وأكثر تعقيداً من تلك التي سبق أن شارك فيها بتريوس في البوسنة. وقد استقى بتريوس قواعد اللعبة لهذه العمليات من مكريستال، الأسطورة في العمليات الخاصة، والذي سبق أن خدم رئيساً لقيادة العمليات المشتركة الخاصة في العراق خلال الغزو عام ٢٠٠٧.

وخلال موجزاته الصباحية، شدّد بتريوس مراراً على أداء قوات العمليات الخاصة وتفويضها بقتل قادة طالبان وأسرهم في غارات ليلية تستند إلى استخبارات دقيقة، في الغالب اعتراض الاتصالات، واستخبارات من مصادر بشرية وصور جوية لطائرة من دون طيار بالإضافة إلى الكاميرات المنصوبة على الأبراج. «يؤكد تقرير اليوم حول الغارات الليلية من جديد بأنه يجب أن ندرك الشجاعة الخارقة لوحداتنا الصغيرة وأفراد قواتنا الذين يرمون بأنفسهم ليلة بعد ليلة في طريق المخاطر»، كما ذكر خلال خطاب له في أواخر أيلول/سبتمبر. «تحمل هذه العمليات أثراً مهماً، ويجب ألا نتغاضى عنها وكأنها يوم عادي في المكتب. هذا عمل جبار ويجب أن يُقدَّر بالشكل المناسب». كانت قوات العمليات الخاصة تدمر شبكة المتمرّدين، وأراد بتريوس لعملهم أن ينتشر. لقد كانوا مركّباً أساسياً في توسيع الفقاعات الأمنية في معظم أنحاء البلد.

قسّم ملخّص عن تسعين يوماً، تزامَنَ تماماً مع الأشهر الثلاثة الأولى لبتريوس في القيادة، «الآثار المتراكمة» لقوات العمليات الخاصة إلى فئتين: «حركية» و«غير حركية». كان هناك ٢٧٩٥ عملية «حركية» أدت إلى موت أو أسر ٢٨٥ من القادة المهمين للمتمردين. كما قُتِل ٨٨٩ متمرداً غيرهم ووقع ٢٠٨٤ متمرداً من المستوى المتوسط في الأسر. وعلى صعيد العمليات «غير الحركية» فقد نفَّذت قوات العمليات الخاصة ١٨٢٣ عملية ترتكز على السكان.

وكانت عمليات الهجوم الليلية إلى حدّ بعيد من اختصاص قوات العمليات الخاصة «السوداء» السرية. فمغاوير قوة دلتا في الجيش ونخبة من وحدة القوات البحرية الخاصة وجوالة الجيش مدرّبون خصّيصاً للقبض على أهداف

مهمة بدقة عالية وضمن أصعب الظروف، بما فيها الدخول إلى المجمعات شديدة الحراسة.

اعتمدت المداهمات الليلية في أفغانستان على الذكاء التكتيكي الذي استُخدِم لتحديد قادة المتمرّدين ومواقعهم تحديداً دقيقاً. وقد خطت وكالة الأمن القومي، ووحدات أخرى منضوية في اعتراض الاتصالات الخليوية وأجهزة اللاسلكي والإنترنت، خطوات جبارة منذ ٩/١١ بالسرعة الممكنة التي يتحقّقون فيها من الاتصالات وتحديد المواقع بدقة وإيصال البيانات لقوات العمليات الخاصة. كما وفر المسح الذي قامت به الطائرات من دون طيار المحمَّلة بكاميرات متطورة جداً تصوير فيديو حي يرصد الحركة كاملة، ووفرت الموارد البشرية وأنواع الاستخبارات الأخرى معلومات مهمة أيضاً. وفي بعض الحالات، كان يمكن التخطيط للمداهمات الليلية وتنفيذها في غضون دقائق. وفي أخرى، كانت الصورة الاستخباراتية تكتمل بشكل أبطأ وكانت تتطلب أياماً، أو حتى أسابيع، من المسح الدقيق، وربطه باعتراض إشارات الاتصالات والصور والاستخبارات البشرية. عملياً كانت كل المداهمات الليلية التي نفذتها وحدة المهمات الخاصة الأميركية في عهد بتريوس ـ حوالي ثلاثمئة في الشهر ـ تتم بالشراكة مع عناصر المهمات الخاصة الأفغانية، المدرّبة تدريباً جيداً والمجهزة بأفضل المعدات. كان القادة في مركز العمليات الخاصة في قاعدة باغرام الجوية عادة ما يشاهدون المداهمات في بث مباشر من خلال عدد من عمليات تصوير الفيديو، بما في ذلك فيديو الأشعة ما فوق الحمراء المنقول من طائرات الاستطلاع.

أثبتت المداهمات الليلية نجاعتها في القضاء على قادة الصف الأول والمتوسط في طالبان، الذين بدوا غير قادرين على البقاء بعيداً عن شبكة الاتصالات وقتاً طويلاً. كما أنهم أصبحوا مورداً مهماً للمعلومات الاستخباراتية، لأن غالبية أهداف هذه المداهمات «الحركية» كانوا يقعون في الأسر من دون إطلاق رصاصة واحدة، لكي يُتاح استجوابهم، وفي بعض الحالات، التخلّص منهم. غير أن بعض المواطنين الأفغان قد امتعضوا من المداهمات الليلية، لأنه

كان مخيفاً بالنسبة لهم أن يقوم المغاوير الأميركيون والأفغان بتحطيم أبواب بيوت جيرانهم في جوف الليل. ففي بعض الحالات، وقبل أن يقوم بتريوس ببعض التغييرات على تنفيذ المداهمات الليلية، كان الرجال يُساقون وهم مكبّلون بالأصفاد من دون أي تفسير للسكان المحليين على الإطلاق. وأحياناً، عندما كانت تفشل المداهمات وتجد قوات العمليات الخاصة نفسها عرضةً للهجوم، كان ذلك يؤدي إلى مقتل مدنيين أبرياء صادف وجودهم في مرمى النيران.

وللتخفيف من هذه الآثار، كان حكام المقاطعات يُبلَّغون وحتى يُدْعَوْنَ إلى مرافقة عناصر قوات العمليات الخاصة خلال العمليات كلما كان ذلك متاحاً. كانت المهمات تبدأ دائماً بإقحام المروحيات، ويبقى الجنود حتى المرحلة الأخيرة ـ ما بين نصف ميل وخمسة أو حتى عشرة أميال ـ ليصلوا إلى أهدافهم. وكانت المداهمات تتم بإحدى الطريقتين: كان عناصر العمليات الخاصة الأفغان يوجّهون «نداءات» في محاولة لإخراج المتمرد إلى الشارع لكي لا يقوموا بالاقتحام، أو أن القوات كانت تدخل مجمعاً بتفجير الباب أو خلعه. وفي كلتا الحالتين، كانت قوات المساعدة الدولية لإرساء الأمن في أفغانستان تدفع مقابل تضرّر أي منشأة. في بعض الأحيان، كان جنود العمليات الخاصة ينتظرون أياماً قرب الهدف، يسترقون النظر ويطورون تحليلاً حول «نمط الحياة» لدعم المعلومات الاستخباراتية وبيانات المسح والاستطلاع التي تركزت على موقع الهدف قبل العملية. وبمجرد أن يشاهدوا الهدف، كانوا ينفّذون دخولاً مباغتاً فيدخلون ويخرجون في غضون دقائق. في العادة، كانت قوات العمليات الخاصة تُستخدم لأسر القادة «بالغي الأهمية» الذين يعطل أسرهم عمليات المتمردين، وفي الغالب، الحصول على معلومات استخباراتية قيّمة.

أحسّ بتريوس ذاك الخريف أنه يملك فهماً جيداً للعمليات في ولايتي هلمند وقندهار وفي كل مكان في الجنوب، حيث تابع الجنود توسيع رقعة انتشارهم ووصل المناطق الآمنة المتزايدة. وفي الشرق، دفع كامبل للتركيز على دك شبكات المتمرّدين مستنداً إلى الزخم الأخير والعمل جاهداً لتحسين فهمه لتلك المنطقة.

وقد اعتقد أنه يملك حساً منطقياً حول الأوضاع في غرب أفغانستان، حيث كانت المعركة هادئة نسبياً، وكان لديه شعور واضح بأن إيساف كانت بحاجة لفعل المزيد في بغلان وقندوز، في الشمال، حيث قامت إيساف برفع مستويات قوتها ووتيرة العمليات، إلى حدّ معيّن. لكن حتى الآن، على الأولويات أن تبقى منصبّة على مناطق الجنوب والجنوب الغربي، معاقل طالبان التقليدية.

كانت الحملة قد رفعت نسبة الجنود إلى المدنيين في هذه المناطق، وقد عكست الأرقام الأولوية المنصبّة على الجنوب، والاقتصاد نسبياً في استخدام القوة حتى حينه، بالنظر إلى عدد الجنود المطلوب في حملة مكافحة تمرد شاملة. كان هناك جندي واحد من إيساف لكل تسعة عشر أفغانياً في ولاية هلمند وواحد لكل ثلاثة وثلاثين أفغانياً في قندهار، وهما الولايتان اللتان كانت تتركّز فيهما القوات لإخلاء طالبان من معاقلها. لكن في الولايات الجبلية للشرق، حيث ثلاث من أربع فرق قتالية في اللواء من الوحدة إيربورن ١٠١ كانت تقاتل، وكانت النسبة واحداً إلى واحد وتسعين مواطناً أفغانياً. وفي الولايات الشمالية، كانت النسبة فقط واحداً لكل مئة واثنين وتسعين.

وكما كان بتريوس مؤمناً بقدرة القوات الأميركية والكندية على تطهير مناطق رئيسية في قندهار، فقد كان يعلم أن مرحلة «السيطرة»، بعد بلورة المكاسب، يرجَّح أن تكون أكثر تحدّياً. كان التقدّم في مرحلة السيطرة، إلى حدّ بعيد، يعتمد على إنشاء حكم محلي فاعل وأمن محلي، حيث لم يكن الجيش الأفغاني الناشئ ـ الذي يحقق أهداف التجنيد لكنه يتضرر من المعدلات المرتفعة للغياب بدون إذن ـ يملك العدد الكافي من الجنود ليساعدوا على حفظ الأمن. كما كان هناك الكثير من العمل للقيام به على صعيد القرى، كتملّق القرويين للعودة؛ إعادة إعمار منازلهم وأسواقهم الشعبية ومساجدهم؛ وتجنيد وتدريب ما يكفي من الشرطة الأفغانية المحلية القادرة على الوقوف في وجه طالبان بمجرد أن يعودوا بعد الشتاء. كان بتريوس يتوقع أن يعود الأعداء ليقاتلوا ويحاولوا أن يستعيدوا سيطرتهم على الأرض التي كانت مهمة بالنسبة لهم تكتيكياً ورمزياً. «سنبقى في

هذه المناطق لمقاومتهم، وذلك أمر جديد»، كما قال بتريوس. «لن نعلم التأثير الفعلي لهذه العمليات حتى السنة القادمة.... في المحصلة، عندما تستولي على ملاذهم الآمن، فسيقاتلون من أجل العودة».

وقد نصح موظّفيه بتوخّي الحذر عندما أصبح الأمر «كسر عظم» حيال النجاحات في قندهار. وقد أراد من ضباطه حتى أن يتجنّبوا الحديث عن «تفاؤل حذر» في تعاطيهم مع الإعلام. كما نصحهم بالالتزام بالحقائق «أعلنوا عنها فقط ودعوا أهل الصحافة يخرجون باستنتاجاتهم الخاصة». لكن في ظل وجود أضخم للجنود التقليديين والعمليات الناشطة في جميع أنحاء ولاية قندهار، نفّذ كثير من طالبان تراجعاً تكتيكياً إلى حصون على طول الحدود في باكستان، حيث كانوا بعيدين عن نطاق القوات الأميركية. وكان عنوان رئيسي على غلاف مجلة نيويورك تايمز، «الائتلاف يدحر طالبان في جنوب أفغانستان»، قد دفع إلى هجوم مضاد[1] من قِبَل عناصر من جماعة مناهضة الحرب في واشنطن. وقد رأى بعضهم في المقالة دليلاً على مهارة بتريوس في إرباك الصحفيين. فأجاب بأن مقالة تايمز قد فاجأته، وأشار إلى أن امرأة أمضت سنوات في أفغانستان هي التي كتبتها، وقد اشتهرت كصحفية متطرّفة.

كان دوغ أوليفانت واعياً ما إذا كانت القوات الأميركية، قد تمكّنت فعلاً من إطاحة طالبان حول قندهار. «لا نعرف ذلك»، كما قال. «إنها مثل الرجال المكفوفين مع الفيل. لا نعلم إنْ كان ما نراه هو بداية منحى ما أو أنه شاذ عن المألوف. كونوا حذرين جداً جداً». فالملاذ الآمن في باكستان، كما علم، منع بتريوس من مهاجمة «التمرد الأفغاني وجذوره». سيطرت القوات الأميركية وقوات الائتلاف والقوات الأفغانية على مناطق أكثر بكثير كانت تنتمي في السابق لطالبان. لكن إنْ كان هناك عامل وحيد يبطل عقيدة بتريوس لمكافحة التمرّد، فهو الملاذ الآمن في باكستان.

(١) Carlotta Gall, "Coalition Routs Taliban in Southern Afghanistan," *New York Times*, October 21, 2010.

أمام كل الاحتياطات التي نصح ضباطه باتخاذها خلال تعاطيهم مع الإعلام، كان بتريوس منضوياً باستمرار. ففي حين لم يتحدث أبداً عن الفوز، كان دوماً ما ينقل السرد إلى التواصل، عبر البريد الإلكتروني، مع عدد كبير من المراسلين ومحرري الأعمدة، أحياناً حسب الإنجازات، ولكن أيضاً حسب الخلفية التي، وكما جرى العرف، لم تكن تُنسب مباشرة له. كما أنه سمح لوحداته المقاتلة باستضافة صحفيين مخصّصين للجيش، لأنه كان يعلم أن أسهل طريقة للفوز حتى على أعتى الصحفيين هي السماح لهم بقضاء الوقت مع القوات الأميركية، خاصة من هم في المعارك.

عقب نجاح عملية هجوم التنين في قندهار، ظهرت تقارير إعلامية أيضاً تتعلق بمحادثات سلام جارية. وقد نقل بتريوس لواشنطن بوست ما سبق وأخبره به مسؤولون أفغان مرموقون: إن «بعض قيادات الصف الأول في طالبان» قد مدوا يدهم إلى الحكومة الأفغانية. لكن بتريوس حذّر من أن هذه المبادرة «حكماً لا ترقى إلى مستوى اعتبارها مفاوضات». في السر، لم يكن واثقاً من أن بعض المحادثات السرية ـ تلك التي تم الاتفاق على حدوثها في المالديف وفي دولة خليجية، بشكل خاص ـ كانت ذات أهمية كبيرة، معتبراً بعضها «سياحة مصالحة». بناء على ذلك، أدلى بتريوس بملاحظة تحذيرية في واشنطن بوست شبيهة بتلك التي استخدمها في خطاباته. «لو ثبت أن هذه التقارير التي تذكر أن طالبان تجري محادثات سلام مع [الحكومة الأفغانية] صحيحة، فلا يمكننا توقع أي نتيجة مُرْضِية لبعض الوقت»، كما أخبر موظفيه صبيحة أحد الأيام في منتصف تشرين الأول/أكتوبر. «بالإضافة إلى ذلك، فطالبان لا تتحدث بصوت واحد، وهذه المحادثات ستخلق توترات داخل قيادة طالبان العليا فيما يحاولون فهم مَنْ يتحادث مع مَنْ. إنْ كان ثمة محادثات جارية، فأنا لست متفاجئاً، نظراً للضغط الهائل الذي نضعه على الشبكة: وهذا الضغط سيزداد كثيراً خلال الأشهر القادمة. في النهاية، لا تجعلوا من هذه المحادثات أمراً أكبر مما هي عليه: فهي تخمين أكثر منها حقيقة في الوقت الحاضر».

بالالتفات إلى المكاسب التي حقّقتها القوى التقليدية، إضافة للمداهمات الليلية الناجحة التي نفّذتها قوات العمليات الخاصة، افترض بعضهم أن بتريوس قد حوَّل الاستراتيجية بعيداً عن مقاربة مكريستال لمكافحة التمرّد. فقد نُشِرت قصة أن بتريوس كان يحيد[1] عن تكتيكات مكافحة التمرد الكلاسيكية مقابل المداهمات الليلية بقبضة من حديد والاعتماد أكثر بكثير على الغارات الجوية، التي تزايدت تزايداً دراماتيكياً خلال حقبته. كما رأى بعضهم في الإعلام أنه كان يحاول أن يجر طالبان بقوة القذائف إلى طاولة المفاوضات. ورأى آخرون أن بتريوس أدرك أن مكافحة التمرّد لم تكن تجدي نفعاً وحدها، نظراً لتنامي نفوذ طالبان في مناطق كانت آمنة في السابق. وتابع بتريوس ليشرح أن مقاربة مكافحة تمرّد شاملة ضمَّت مداهمات مكافحة الإرهاب بالإضافة إلى سائر الخطوط الأخرى للعملية ضمن الاستراتيجية العامة، لكن الفارق البسيط قد غاب عن كثير من الصحفيين.

استعرض مايكل أوهانلون، وهو محلل دفاعي في بروكينغز إنستيتيوشن ومقرّب من بتريوس ومكريستال، مفارقةً في مقارنة قيادة الرجلين. «كنت لأؤكد أن هناك متابعة أكثر منها تحوّلاً»، كما نقل أوهانلون لاحقاً. «فما لاحظته كان تحوّلهم في استراتيجية العلاقات العامة: كان بتريوس يرغب في الحديث عن قتل المخرّبين أكثر من مكريستال». كان مكريستال مسؤولاً بشكل كبير عن الدفع لزيادة قوات العمليات الخاصة والعوامل المساعدة في بداية قيادته ـ بدعم من بتريوس في القيادة المركزية ـ لكنه كان متحفّظاً على إعلانها للصحافة. كان بتريوس متلهّفاً ذاك الخريف لمناقشة التقدّم، وكانت جهود قوات العمليات الخاصة من ضمن

(١) في منتصف تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٠، كتب ثلاثة محرري أعمدة عن تحول في المسعى الاستراتيجي في أفغانستان مع الجنرال بتريوس: Fred Kaplan, "A New Plan for Afghanistan: Less Counterinsurgency, More Killing and Capturing," Slate, Slate.com, October 13, 2010; David Ignatius, "Petraeus Rewrites the Playbook in Afghanistan," *Washington Post*, October 19, 2010; and Joe Klein, "Afghanistan: A New Balance," *Swampland* blog, Time.com, October 18, 2010, http://swampland.time.com/2010/10/18/afghanistan-a-new-balance.

تلك التي بدت مؤشراً للتقدم. كان سيندم بعض الشيء لاحقاً بسبب إفراطه في اللجوء إلى المداهمات الليلية، لكنه كان متلهّفاً للحديث عن مؤشّر، وكانت قوات العمليات الخاصة هي صاحبة الكفّة الرابحة آنذاك.

عندما أرسل العقيد غونهوس إلى بتريوس مدوّنة نشرها جو كلاين في مجلة تايمز يعرض فيها هذا المحور من مكافحة التمرد إلى توتر أعنف بكثير من مكافحة الإرهاب، «انزعج» اللواء، كما نقل غونهوس، مستخدماً تعبير بتريوس «اغتاظ». أبلغ بتريوس اللواء البحري غريغ سميث، رئيسه للاتصالات الاستراتيجية، بأن يخبر كلاين وديفيد إغناتيوس من واشنطن بوست، الذي عالج مسألة مماثلة في عمود، بأنه قد فاتهم بالكامل ما يجري. فهو لم يرفع من عمليات قوة مكافحة الإرهاب فحسب، بل رفع من كل شيء! كانت استراتيجيته للحرب عبارة عن حملة مدنية عسكرية شاملة من دون رصاص فضّي. وكان التقدم يتطلب تضافر جهود المدنيين والعسكريين كافة، وإن كانت ضمن تركيبات مختلفة، تبعاً للمكان الذي يتركّزون فيه في البلد.

في صباح اليوم التالي وخلال خطابه، كان بتريوس ما زال مرتبكاً. «إن المسألة الأساسية التي نركز عليها هي أننا نفعل المزيد من كل شيء. لا شك أننا زدنا من وتيرة عمليات القوات الخاصة، كما زدنا من عمليات التطهير والسيطرة والإعمار التي كانت تقوم بها القوات التقليدية، ثم زدنا من جهود تدريبنا مع قوات الأمن القومي الأفغاني، ومبادرات الأمن المحلية، والصلح والانصهار»، كما صرَّح بتريوس. «لقد زدنا أيضاً من دعم الحكم المحلي والتطوير وزدنا من العمليات الاستخباراتية، وهكذا دواليك». أطلق بتريوس على المقاربة بمجملها «استراتيجية أناكوندا»، وهو نفس اللقب الذي استخدمه لوصف مقاربة مكافحة التمرّد الشاملة في العراق خلال الغزو هناك، والتي تم تعديلها لأفغانستان.

كشف بتريوس أولاً عن عرض باوربوينت علني يصف استراتيجية أناكوندا في العراق قُبَيْلَ انعقاد لجنة مجلس النواب للقوات المسلحة في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧، وقد عمل على صقلها منذ ذلك الحين. يصف الرسم البياني، الذي دأب

بتريوس على عرضه على الموظّفين والوفود التي كانت تزور أفغانستان، سبع ضربات موجّهة للعدو في نفس الوقت. أُطْلِقت تسمية أناكوندا تيمّناً بالأفعى العملاقة التي تعصر فريستها حتى الموت، وكانت استراتيجية أناكوندا في العراق تهدف إلى عصر أنفاس القاعدة في العراق والمتمردين السنة، بالإضافة إلى متشدّدي الميليشيات الشيعة. في صيف عام ٢٠١٠ في أفغانستان، عرضت سبعة أنواع من الأنشطة: عمليات حركية وسياسية واستخبارات وعمليات المعتقلين وعمليات المعلوماتية والتدخل الدولي وعمليات غير حركية، التي كان يعني بها بتريوس برامج للوظائف والتعليم وسيادة القانون والتنمية. اشتمل نشاط واحد فقط من سبعة أنشطة ـ عمليات حركية ـ على تدخّل عسكري في الغالب. وكان فريق عمل مكماستر لمكافحة الفساد جزءاً من ضغوطات «السياسة». وقد اندرجت قاعدة مارتن للقوة الميدانية للقانون تحت عنوان «عمليات المعتقلين».

«إذا ظهرت في عرض أناكوندا، فهذا يعني أنها تكثّفت»، كما ذكر بتريوس خلال الملخصات، موجهاً ضوء ليزر على الرسم البياني لأناكوندا. وتم تقسيم فئاته السبع إلى ست وعشرين مهمة. يمكن أن يكون اللواء هو الوحيد من بين موظفيه القادر على متابعتهم جميعاً في الوقت نفسه خلال فوضى الحرب.

كان اعتماد بتريوس على «الحركيات» للتعاطي مع «الشكوك والتحدي والمغامرة والخطر والأجندات المنافسة» في أفغانستان قد جاء مباشرة من العراق، حيث هاجم القاعدة ومتطرفين آخرين دون هوادة من خلال المداهمات الليلية إبَّان غزو العراق، فيما كانت قواته تنفذ عمليات ضخمة لحرمان القاعدة من الملاذ الآمن. لكن، وكما في أفغانستان، راقب بتريوس تزايداً في عمليات التطهير والسيطرة والإعمار، بالإضافة إلى مبادرات للتفاوض مع الميليشيات السنية والشيعية الراغبين بتسليم سلاحهم والتعاون مع الأميركيين. لم يعنِ تشديد بتريوس على «حماية الشعب» تحفظاً باستعمال القوة؛ لكن كما وصفها، كانت فقط ضد استعمال القوة التي تجلب نتائج عكسية. وبالفعل، كان دائم الحرص على أن تشمل تكتيكاته لمكافحة التمرّد عمليات مكافحة إرهاب بقبضة حديدية من

قوات مكافحة الإرهاب. وقد بيَّن كتيّب توجيهات مكافحة التمرّد الذي أصدره في ١ آب/أغسطس بأن قتل العدو كان بكل تأكيد جزءاً من الخطة:

طاردوا العدو بلا هوادة. بالتعاون مع الشركاء الأفغان. أحكموا قبضتكم على المتمردين ولا تفلتوهم. عندما يقاتل المتطرفون، دعوهم يدفعوا الثمن. طاردوا أولئك الذين يشكلون تهديداً للشعب واقضوا عليهم. لا تدعوهم يرهبون الأبرياء. استهدفوا الشبكة بأكملها، لا مجرد أفراد.

قاتِلوا بشراسة وقاتِلوا بانضباط. طاردوا العدو بشراسة، لكن استخدموا النيران التي تحتاجونها للفوز في القتال فقط. لا يمكننا الفوز من دون قتال، لكن لا يمكننا أيضاً قتل أو أسر من سيحقّق لنا النصر. علاوة على ذلك، لو قتلنا المدنيين أو دمَّرنا ممتلكاتهم أثناء تنفيذ عملياتنا، فسنخلق أعداءً أكثر ممن ستقضي عليهم عملياتنا. هذا هو بالضبط ما تحتاجه طالبان، فلا تقعوا في فخّهم. علينا أن نستكمل جهودنا للحد من الإصابات بين صفوف المدنيين بأدنى قدر ممكن.

عاد مستشار بتريوس الجنرال جاك كين من زيارة استمرت أسبوعين في تشرين الثاني/نوفمبر مع تقدير بالغ لاستراتيجية أناكوندا ــ ومهندسها. «ما تجده في بتريوس هو شخص لديه مستوى قدرة هائل»، كما ذكر كين. «وقد أحاط بكل الجوانب بسرعة كبيرة. فهو يعمل على المستوى الاستراتيجي في ما يتعلق بالدبلوماسية، ويعمل على المستوى التشغيلي ليفهم إطار الحرب بكامله، ثم يفهم بعد ذلك مضاعفاتها التكتيكية. يمكنه القيام بذلك جيئةً وذهاباً. وهذا نادر الوجود مع ضابط عام»[1].

بمجرد أن هبط في كابول، صبّ بتريوس تركيزه على تموز/يوليو ٢٠١١ كموعد لبدء الانسحاب. كان يعلم أنه يحتاج أطول وقت ممكن لتنفيذ استراتيجيته

(١) الجنرال جاك كين، مقابلة مع تشارلي روز، تشارلي روز، پي بي أس، ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٠.

لمكافحة التمرّد وقد عرف أن الأفغان كانوا قلقين من الموعد. وبهدوء، وبصورة تدريجية، بدأ هو وشركاؤه الدبلوماسيون العمل على دعم مبادرة نامية للناتو والبيت الأبيض، لتحويل التركيز على مؤتمر منتظر للناتو حول أفغانستان في لشبونة منذ بدء الانسحاب في تموز/يوليو ٢٠١١، وحتى الموافقة الرسمية على خطة لتسليم مهمة حفظ أمن البلد إلى القوات الأفغانية بنهاية عام ٢٠١٤، مستغلاً بشكل فاعل ثلاث سنوات ونصف السنة إضافية للنجاح.

لم يكن هناك حرب إعلامية لتظهير التحوّل في التركيز إلى عام ٢٠١٤، سوى محادثات رجل لرجل مع السفراء في كابول وزيارة وزراء الدفاع ورؤساء الحكومة. عندما توقفوا في كابول، استلم الجميع ملخصاً شاملاً من بتريوس وشريكه الدبلوماسي، حول ما سيسمعونه في لشبونة.

كان بتريوس مسروراً لأنه سيكون قادراً على إعلان التقدم في لشبونة. «لكن الخبر المؤلم الذي يهم التركيز عليه»، كما شرح خلال خطابه في ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر، «هو أن هذا التقدم هشٌّ وقابل للنقض. كان هذا التقدم نتاج الكثير من القتال الشرس، وسيحتاج لمزيد من القتال الشرس لترسيخه. ينبغي أن نكون مهيّأين ليس جسدياً فقط للربيع، بل يجب أن نكون جاهزين بخطابنا وشعورنا أيضاً. ستعود طالبان مجدداً مع التعزيزات، وينبغي علينا أن نكون جاهزين. لن تكون رحلة سهلة إلى عام ٢٠١٤».

أدرك بتريوس أن إبقاء ائتلاف الناتو متماسكاً كان يعني إعطاء الأعضاء الأمل بأن هناك نهاية للمشهد، ويعني تحديد الوقت على ساعة الحائط لإحراز التقدم من خلال نقل عارضة الأهداف إلى عام ٢٠١٤. ستسيطر إدارة الائتلاف على ملف بتريوس طوال خريف عام ٢٠١٠.

بمجرد أن بدأ الإعلام في واشنطن التصريحات في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر بأن إدارة أوباما كانت تحوَّل التركيز من موعد الانسحاب في تموز/يوليو ٢٠١١ إلى تسليم القوات الأفغانية بنهاية ٢٠١٤، أكّد أعضاء مجلس الشيوخ الذين هم من النهج ذاته والذين سافروا إلى أفغانستان هذا التحوّل. «لن نغادر

إلى أي مكان»، كما أخبر السيناتور جو ليبرمان الصحافة في كابول. «في الواقع، فإن الموعد الأفضل الذي يمكن التفكير فيه هو نهاية عام ٢٠١٤»[١]. وحين عاد إلى واشنطن قبل أسبوع من مؤتمر لشبونة، صرَّح السيناتور ليندسي غراهام بأن عام «٢٠١٤ هو التاريخ الصحيح الذي يمكن اعتماده[٢]. وهنا اقترح قرضاي أن يكون الأفغان في الطليعة، وأنا مسرور جداً لأسمع الرئيس أوباما يتحدث عن عام ٢٠١٤».

لكن قرضاي لم يقم بأي شيء، بما في ذلك تمديد الالتزام الأميركي لأفغانستان، دون مقابل. ففي أواخر تشرين الأول/أكتوبر، أقرَّ بأنه كان يحصل على حقائب مليئة بالأموال من مبعوث إيراني. لكن ذلك الصخب قد خَفَتَ بالمقارنة مع ذلك الذي أُثير خلال مقابلة أجراها قرضاي[٣] مع واشنطن بوست عشية انعقاد قمة لشبونة، والتي دعا فيها الولايات المتحدة لإنهاء المداهمات الليلية لقوات العمليات الخاصة وتخفيض وجود قواتها العسكرية في أفغانستان. وأصيب بتريوس بالذهول.

خلال جلسة خاصة، ذكر بتريوس أن تصريح قرضاي قد وضعه في موقف لا يمكن الدفاع عنه. وقد عبَّر فوراً عن امتعاضه خلال اجتماع مع أشرف غني، المسؤول الأفغاني الذي يتولّى التخطيط للانتقال العسكري للقوات الأفغانية. لم يكن قد لوَّح بالاستقالة على الإطلاق، لكنه بيَّن كم كان الوضع جدياً. وفي الواقع، اعتبر أن ما فعله قرضاي لا يمكن استيعابه. «لقد أجرينا محادثة جيدة مع أشرف ووزراء مختلفين»، كما ذكر بتريوس في رسالة بريد إلكتروني لزميل له في اليوم التالي. «سأقابل الرئيس قرضاي غداً وأذكّره بالتفصيل عما كنا نقوم

(١) Warren P. Strobel, "Happy Veterans Day," *Nukes & Spooks* blog, November 11, 2010, http://blogs.mcclatchydc.com/nationalsecurity/2010/11/index.html.

(٢) ليندسي غراهام، مقابلة مع كريستيان أمنبور، «هذا الأسبوع مع كريستيان أمنبور»، إيه بي سي، ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٠.

(٣) Joshua Partlow, "Karzai Wants U.S. to Reduce Military Operations in Afghanistan," *Washington Post*, November 14, 2010.

به في كل منطقة.... ستكون جلسة جيدة. أحتاج فقط لأن أكون منصفاً ومنطقياً وصلباً». وقد لعب على الوتر نفسه في مذكرة كتبها لمستشاره كيث نايتنغيل: «سأمضي ساعة رجلاً لرجل مع الرئيس قرضاي غداً، وسنبلي حسناً. فنحن جميعاً لدينا الأهداف نفسها، لكننا نحتاج فقط بعض الوقت لتحقيقها. وقد كنا نعالج كل مسألة من مسائله قليلاً في هذه الأثناء، وسوف أذكّره بهذا». وعندما أعرب نايتنغيل عن قلقه من موعد الانسحاب في تموز/يوليو ٢٠١١، هدَّأ بتريوس مخاوفه. «لا تقلق من تموز/يوليو ٢٠١١»، كما كتب له، شارحاً التحوّل الذي حصل. «في الواقع، وكما أشار محرّر الصفحة الافتتاحية في واشنطن بوست، فإن نهاية عام ٢٠١٤ هي ٢٠١١ الجديد».

بالرغم من الجدل القائم حول ملاحظاته، وعد قرضاي بتريوس بجبهة موحّدة، وأوفى بوعده في لشبونة. وبمجرد أن بدأ المؤتمر، أوجز بتريوس لوزراء الناتو خطته حول «الانتقال». نقلاً عن عبارة بلغة الداري تعني «الانتقال»، كانت هذه هي الخطة السرية لنقل السلطة إلى القوات الأفغانية في مناطق محدّدة في مطلع ربيع عام ٢٠١١، حتى حلول الانتقال النهائي بنهاية كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٤. لجأ الرئيس أوباما إلى المؤتمر ليصرّح علناً وللمرة الأولى أنه كان يتوقع أن تنتهي القوات الأميركية من عمليات عسكرية كبيرة في البلد بنهاية عام ٢٠١٤. «لقد ضبطنا مقاربتنا مع السير قُدُماً في أفغانستان، خاصة مع الانتقال لقيادة أفغانية بالكامل تبدأ في مطلع عام ٢٠١١ وتنتهي في عام ٢٠١٤» كما أعلن أوباما خلال مؤتمر صحفي ختامي.

كان أوباما فظّاً في معرض انتقاد قرضاي الأخير للمداهمات الليلية ووجود الجيش الأميركي. «إنْ كنّا نسخّر موارد ضخمة، وإنْ كنّا نسدّد مليارات الدولارات، وإنْ كانت الآمال قد انعقدت على ذهاب قواتنا إلى هناك للمساعدة على حفظ أمن الأرياف والتأكّد من قدرة قرضاي على الاستمرار في بناء بلده وتطويره، فينبغي عليه أن يلتفت إلى مخاوفنا أيضاً.... عليه أن يفهم بأن لدي ثلة من الشبان والشابات من بلدات صغيرة ومدن كبيرة من جميع أنحاء أميركا يتم

إطلاق النار عليهم في بلدان أجنبية وعليهم اجتياز مناطق مليئة بالعبوات الناسفة، وعليهم حماية أنفسهم. لذا فإذا كنّا نسوّي الأمور بطريقة يكونون فيها لقمة سائغة لطالبان، فهذه إجابة غير مقبولة أيضاً».

لدى سؤاله عما إذا كان يعتقد أن استراتيجية الجيش الحالية كانت ناجعة وإن كانت ستمكّنه من سحب عدد كبير من القوات بحلول تموز/يوليو ٢٠١١، أجاب أوباما بأنها كانت كذلك.

> هناك مناطق أقل من أفغانستان تحت سيطرة طالبان، وأصبحت طالبان في موقع دفاعي في عدد من المناطق التي كانت معاقل لها. لقد حققنا أو تجاوزنا أهدافنا فيما خصَّ تجنيد قوات الأمن الأفغانية، ووفقاً لتقويمنا فإن أداء قوات الأمن الأفغانية قد تحسّن بشكل لافت.
>
> لذا، وبفضل العمل الشاق لأشخاص مثل ديف بتريوس ومارك سيدويل وآخرين، وبالطبع بفضل التضحيات العظيمة لجنود إيساف، فنحن في مكان أفضل الآن مما كنّا عليه قبل عام مضى. ففي المحصّلة، أنا واثق من أننا سنكون قادرين على تنفيذ الأنتقال بدءاً من تموز/يوليو العام القادم.
>
> والجنرال بتريوس، في الواقع، هو الآن في خضم عملية التخطيط ورسم خارطة الطريق للمناطق التي نشعر أن فيها ما يكفي من الأمن لنبدأ بتقليص عدد القوات في تلك المناطق، وأين هي المناطق التي تحتاج لتعزيزات إضافية بعد تقليص الكثير في مناطق معينة، حيث يمكننا بذلك الاستمرار بترسيخ المكاسب، ومن ثم ملء الفراغ فيها بالتحسينات المدنية الفاعلة التي ستكون بحاجة إليها.
>
> إذاً فقد أحرزنا تقدماً. والسر يكمن في التأكّد من أننا لا نراوح مكاننا بل نستمر بتسريع تلك العملية، التي نعول عليها.

تبنّى أوباما التحوّل الحاصل قبل لشبونة، الذي بدا وكأنه مؤشر بأن أوباما

وبتريوس قد وصلا إلى مرحلة جديدة من الثقة المتبادلة في علاقتهما. رفض بتريوس الحديث عن أي جانب من محادثاته مع الرئيس. فبالنسبة لرجل كان يستمتع بالتعامل مع الصحفيين وأسّس لعلاقات عبر البريد الإلكتروني مع العشرات منهم، كان ذلك خطّاً أحمر. كان أوباما الرئيس الثاني الذي خاض حرباً من أجله، ولم يكن سراً بأنه وبوش أصبحا مقرّبَيْن على المستوى الشخصي. لكن بتريوس كان حساساً تجاه حقيقة أن بعض الديمقراطيين قد اعتبروه لواء بوش. لم يكن سياسياً ولن يصبح يوماً، وقد أراد أن يعلم الجميع بأنه قادر على خدمة ديمقراطي تماماً كما هو قادر على خدمة جمهوري. وهذا لا يعني أن يُفصّل نصيحته لتتناسب مع الأجندة السياسية للرئيس. وقد جعل الجدل الاستراتيجي في الخريف السابق، والمتمحور حول معدلات الجنود في أفغانستان، ذلك واضحاً. لكنه آمن بالخدمة من أجل الدولة ومن أجل الرئيس. ولدى سؤاله بعد بضعة أيام من لشبونة كيف تمكّن من حمل الرئيس على التركيز على كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٤ بدلاً من تموز/يوليو ٢٠١١، لم يقع بتريوس في الفخ. أجاب: «أعتقد صراحة أن جميع القادة قد رأوا المنطق في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٤».

الفصل السادس

التطهير والسيطرة والإعمار

بعد القتال الضاري طوال الصيف والخريف، تقدمت كتيبة مدفعية المقدم ديفيد فلين التي أُعيد توظيفها من دون تردد لإعادة إعمار القرى. أفسح موسم القتال المجال أمام نوع من سبات الشتاء حيث تراجعت طالبان لِرصّ صفوفها تحضيراً لهجمات الربيع. وبعد ستة أشهر في أفغانستان، علم فلين أن الشتاء سيمنحه الفرصة إما لترسيخ سيطرته على القرى التي قام بتطهيرها في وادي نهر أرغنداب وتوسيع فقاعة الأمن المتزايدة، وإما مواجهة حركة طالبان متجدّدة، خلال بضعة أشهر. كان عازماً على إعادة بناء القرى التي دمرتها قواته، بما في ذلك تاروك كولاتش، التي هُجرت بشكل كبير وزُرعت قنابل ومتفجرات منزلية الصنع حيث لم يكن أمام فلين خيار سوى استدعاء مقاتلة بي-١ لانسر من سلاح الجو. وقد ضغط ليحصل على دعم لإعادة الإعمار من قادته ومن فريق إعادة إعمار الولايات المحلي وأي شخص آخر يمكن أن يعير آذاناً صاغية، آخذاً بالحسبان أن تلك القرى لا يمكن السيطرة عليها سوى بمساعدة القرويين. فالجنود أنفسهم الذين تصادموا في مطلع تموز/يوليو مع مظليين بروح قتالية عالية من الوحدة إيربورن ٨٢ توغّلوا عميقاً الآن في المنطقة التي سيطرت عليها طالبان منذ العام ٢٠٠٧. قُتِل سبعة من جنود فلين في المعارك، وجُرِح ثلاثة وثمانون، وكان الكثير منهم إصاباتهم بالغة، وهو التعبير العسكري لبتر أعضاء عدة. وكان ثلثا الإصابات الميدانية نتيجة عبوات ناسفة. قدّر فلين أن يكون رجاله قد رأوا أكثر من مئتي

عبوة ناسفة في منطقة عمليات واحدة فقط، وهي منطقة تبلغ مساحتها اثني عشر كيلومتراً مربعاً من الناحية الغربية لنهر أرغنداب. وكان هناك أكثر من أربعين قنبلة مزروعة على جانب الطريق في كل ميل مربع من الأرض.

وفي الناحية الشرقية، في جبال ولاية كنُر وأوديتها، واجه المقدم فاول التهديد نفسه. فعندما كان في طريقه لزيارة السرية سي في مخفر بينيتش القتالي صباح أحد الأيام، انفجرت بدوريته عبوة ناسفة كبيرة. وفيما وثب فاول من العربة، عرف أن القنبلة المزروعة على جانب الطريق قد تم تفجيرها عبر «جهاز سلكي». ساعد رجاله ليخرجوا من العربة التي أصيبت وركضوا باتجاه الحقل المحروث المحاذي للطريق، وأثناء جريه كان يبحث عن سلك لم يستطع رؤيته، لكن غريزته دفعته ليذهب من خلال الحقل باتجاه مجموعة من البيوت الترابية، وانضم إليه مُشغّل اللاسلكي وجندي آخر. وعلى الفور انبرى رجل من الحقل على بعد ثلاثمئة ياردة وبدأ بالركض. صاح فاول به ليتوقف بلغة الباشتو وبالإنجليزية، لكنه استمر بالركض. طارده الأميركيون لأربعين دقيقة قبل أن يفقدوه، وقد وجدوا سلك التفجير مدفوناً بالتراب على طول المسافة حتى الطريق وتُقدّر بخمسمئة ياردة.

عاود فاول المحاولة من جديد بعد ثلاثة أيام، عازماً على الوصول إلى بينيتش. لكنه هذه المرة، جعل عناصره يترجلون باكراً ويعبرون الحقول حاملين قضباناً نحاسية طويلة يحرثون التراب بها، أملاً بسحب أسلاك التحكم وعبواتها الناسفة. وحين مشوا مسافة الميل ونصف الميل عبر الحقول، جعل فاول عرباته تتوقف وراءهم. وبينما كان الفريق يهمّ بالعودة إلى العربات، تعرّضوا لإطلاق نار من الرشاشات وقذائف الآر بي جي. وقد سقط أكثر من عشر قذائف آر بي جي حولهم، وانهمر وابل من الرصاص عليهم.

وكان الرقيب أول طوني بيري، ضابط صف عمليات فاول، قد أصيب بكاحله الأيمن بقذيفة آر بي جي. وبعد أن نقله رجاله واحتموا خلف حائط مبنى، شرع فاول يعمل لوقف النزيف. ثم استلم مسعف المهمة، مفسحاً المجال لفاول كي

يتولى القيادة التكتيكية للدورية. وقد راقب رجاله يؤدون بما يذكر أنه اعتقده مهارة وبسالة رائعين. فأرشد أحدهم مروحيات كايوا إلى مواقع العدو. وقام آخر بتوجيه القصف من طائرتي أف ١٥ وصلتا إلى الموقع على الفور. كان فاول يريد أن يتصدى للهجوم حين أصبح المتمردون مكشوفين. لكن نظراً لكون بيري في وضع حرج، أمر فاول رجاله بأن يفضُّوا الاشتباك. وراح يهيّئ لمنطقة هبوط للفريق الطبي. وفي الوقت الذي وصلت فيه المروحية لتنقل بيري، وصل رجال من السرية سي كتعزيزات. وبعد انتهاء المعركة، توجه فاول ورجاله إلى مواقع كمين العدو، فلم يصدق ما رأى من أكوام أغلفة الرصاص النحاسية المستعملة تملأ المكان. لقد اختار بالفعل مكاناً صعباً.

هبط وزير الدفاع روبرت غيتس في قاعدة باغرام الجوية ظهر يوم ٧ كانون الأول/ ديسمبر. وعلى الفور استقل أعضاء فريق وزير الدفاع المروحيات وطاروا إلى قاعدة عمليات جويس الأمامية، في ولاية كُنَر، لزيارة كتيبة فاول. كانت وتيرة الهجمات على قاعدة عمليات جويس الأمامية قد ارتفعت بنسبة ٢٠٠ بالمئة خلال العام الماضي. «كل يوم يمر في هذا الوادي، إما نرمي القنابل وإما نطلق صواريخ إيه جي أم-١١٤ هيلفاير، لأن هذا قتال حركي جداً جداً»، كما عبَّر اللواء جون كامبل، قائد الوحدة ١٠١ إيربورن ورئيس فاول، خلال زيارة إلى كُنَر. «هنا في الخارج نقاتل طالبان[1] وبعض القاعدة، لكن على الأغلب فإن أخطر عدو نواجهه هو شبكة حقاني، لأن لديهم مخابئ في باكستان. لكن لا ينبغي أن نقلق من هذه المسألة، لأنهم يعبرون الحدود جيئة وذهاباً ساعة يشاؤون». لقد كانت زيارة تثير الصحوة.

وفي تلك الليلة، اجتمع غيتس سراً مع بتريوس، شريكه في حربين مزعجتين. لقد مرَّت سنة منذ أن التزم أوباما بجنود للغزو من عنوانه في الأكاديمية العسكرية الأميركية، ونجح بتريوس من جديد في خلق زخم جديد، بما في ذلك التقدم

(١) *"Out here we're fighting the Taliban"*: James Kitfield, "Robert Gates, David Petraeus: Partners in War," *The National Journal*, December 9, 2010.

في قندهار وهلمند، حتى وإن كانت الظروف على الأرض، في أماكن مثل قاعدة عمليات جويس الأمامية، قد بقيت عنيفة وخطيرة. وقد ذكر غيتس أن التقدم في الحرب فاق توقعاته. لكنه كان يحمل أنباء مزعجة لينقلها إلى بتريوس حول المنصب الوحيد في الجيش الذي كان بتريوس مهتماً به: رئيس هيئة الأركان المشتركة. قال له غيتس: «انسَ أمره، فلم يكن ليحصل». تشوّش ذهن بتريوس، حتى وإن كان كما أخبر صديقاً مقرباً، يملك أفكاراً متشابكة حول هذا المنصب. إلا أن إبلاغه بأن الأمر غير وارد بتاتاً كان مؤلماً.

لم يكن جاهزاً للتقاعد بعد، لكن حسب ما نُقِل عن مسؤول في البنتاغون وأحد المقربين من بتريوس، فإن المنصِبَين اللذين ذكرهما غيتس ـ رئيس أركان الجيش أو القائد الأعلى للناتو في أوروبا ـ وإن كانا على قدر عالٍ من الأهمية والجاه، فلم يعودا يحظيان بالاهتمام نفسه الذي كان عند بتريوس يوماً. فقد أراد أن يبقى أكثر انخراطاً وبشكل مباشر في القتال ضد القاعدة والمتطرفين الذين هدّدوا الولايات المتحدة وحلفاءها، وهو المسعى الذي كرس له فعلاً العقد المنصرم بأكمله. وكعادته، كان مخدوعاً باحتمال حصول شيء جديد. ثم سأل، وماذا عن وكالة المخابرات المركزية؟ كان بتريوس يعرف مدى أهمية الوكالة في محاربة الإرهاب فأبلغ غيتس بأنه يمكن أن يساهم كمدير لها. في الواقع، لقد سبق أن فكر بذلك لبعض الوقت. كان غيتس متحمساً، فقد خدم مديراً للوكالة بعد أن أمضى مدة طويلة من خدمته فيها. وقد اعتقد أن بتريوس سيكون خياراً مثالياً ليخلف ليون بانيتا، الذي كان يرجح أن يكون مرشحاً ليخلف غيتس وزيراً للدفاع في الصيف المقبل. وفي حين لم يكن لديهم إحساس بهذا في ذلك الوقت، فإن محادثتهم سيكون لها تأثير على مسار الحرب في أفغانستان، وهو المسار الذي كان بتريوس سيغادره بأسرع مما كان يريد، وكذلك المسار الذي يتعلق بالحرب الدائرة ضد القاعدة ومجموعات إسلامية إرهابية أخرى، والذي أراد بتريوس أن يلاحقه بصفته مديراً لوكالة المخابرات المركزية. حمل غيتس هذا الخيار عائداً إلى البيت الأبيض، وبحسب أحد معاوني غيتس، فقد أبلغ

بتريوس بأن الرئيس قد أعجب بالفكرة. لم يذكر بتريوس أي شيء عن هذا الأمر لأحد من فريقه حتى تاريخ اتخاذ القرار بعد بضعة أشهر؛ وعلى الرغم من أنه وغيتس قد عاودا الحديث عن الفكرة، فإن بتريوس لم يكن ليناقشها وجهاً لوجه مع أوباما حتى تاريخ وصوله إلى واشنطن للإدلاء بشهادته في آذار/مارس.

لم يكن اهتمام بتريوس بوكالة المخابرات المركزية ليفاجئ أندي ميلاني. كان الوقت صيف ٢٠٠١ في سراييفو، وكان ميلاني برتبة مقدَّم، وطيار في القوة دلتا ويخدم في البوسنة بصفة رئيس الأركان لفريق عمل قيادة العمليات الخاصة المشتركة التي تلاحق مجرمي الحرب. كان أوسع انتشار لقوات وحدة المهمات الخاصة في كل مكان في العالم. وقد التقى بتريوس وميلاني خلال موجز قبيل الانتشار في فورت براغ يوم كان بتريوس في الأشهر الأخيرة له هناك. ونظراً لطبيعته الحمائية في عالم سري للغاية، لم يعرف ميلاني تحديداً ما الذي يفعله بخصوص بتريوس، العميد الذي تمت ترقيته حديثاً وبدأ بالظهور في مركز عمليات ميلاني. كان بتريوس قد وصل في أواخر حزيران/يونيو ٢٠٠١ بصفته مساعد رئيس الأركان للعمليات في قوة الناتو لتثبيت الأمن في البوسنة. وقد أقنع نقيباً شاباً خدم في لوائه في الوحدة ٨٢، وهو ديفيد فايفكوت، بالانتقال إلى البوسنة والعمل كمعاونه الشخصي. كما قام بتجنيد المقدم مايك ميس، وهو بروفسور دائم في قسم العلوم الاجتماعية في الأكاديمية العسكرية الأميركية وابن المدعي العام السابق إدوين ميس، لينضم إلى فريقه. كان ميس سينضم لاحقاً لبتريوس في العراق عام ٢٠٠٣ ومن جديد خلال غزو ٢٠٠٧ و٢٠٠٨، ومن ثم تشكل لمدة سنة إلى أفغانستان عندما تسلم بتريوس القيادة هناك في تموز/يوليو ٢٠١٠.

زرع افتتان بتريوس بمكافحة التمرّد الفضول لديه حيال صنع السلام. ففي البوسنة، كان سيصبح منغمساً بخريطة الطريق الموضوعة لسنوات عدة، وهي مخطط عمل لإدارة العلاقة المدنية العسكرية والحكم والعمليات التنموية التي سيثبت مفهومها وبنيتها مدى نجاعتهما لبتريوس حين وجد نفسه وكأنه ملك افتراضي في الموصل معظم عام ٢٠٠٣. وقد عمل عن كثب مع الاتحاد الأوروبي

ـ مكتب الممثل الأعلى ومسؤولي الأمم المتحدة ـ وهي أول تجربة في العمق مع مثل هذه الوكالات.

كما وجد بتريوس نفسه منجذباً إلى فريق عمل وحدة المهمات الخاصة التابعة لميلاني، الوحيد في مسرح عملية السلام الذي ينفّذ عمليات تستهدف مجرمي الحرب في الحرب الأهلية البوسنية. قبل كل عملية لفريق المهمات، كان بتريوس يجلس خلال موجزات ميلاني، ويسجل ملاحظات عن الاستهداف ويسأل أسئلة استفزازية، حسب عناصر فريق المهمات المشترك. وبالرغم من أنه لم يكن في سلسلة قيادة العمليات الخاصة، كان بتريوس مسؤولاً عن ضمان الدعم لقوات ترسيخ الاستقرار لعمليات فريق المهمات، بالإضافة إلى عمليات قوات العمليات الخاصة للدول الأخرى التي كانت تنفذ عمليات ملاحقة مجرمي الحرب. في أواخر الصيف، تم تعيين بتريوس نائب القائد لفريق المهمات «المتقدم» في البوسنة أيضاً.

لم يكن يعني بتريوس أن ميلاني كان أدنى منه برتبتين. فقد رأى أن مصممي عمليات وحدة المهمات الخاصة التابعة لميلاني ـ من عدة وكالات حكومية وخدمات عسكرية ـ تملك القدرة والخبرة والطاقة. «وفي أحد الأيام وضعْته على متن مروحية وألبسْتُه [زياً مدنياً] وقبعة كرة المضرب»، كما شرح ميلاني. وقد حلَّق الفريق فوق أودية سحيقة، وجبال بارتفاع خمسة آلاف قدم ومنحدرات صخرية وأنهار خلابة إلى وجهات مجهولة. «قفزنا داخل حافلة صغيرة ذات نوافذ معتمة ويمكن أن ترى بوضوح أنه كان كالطفل في متجر الحلوى». عقدوا اجتماعات مع جامعي المعلومات والمصادر الاستخباراتية وعرجوا على المنازل الآمنة التي أتاحت مراقبة مجرمي الحرب. صار بتريوس يذهب في مهمات «نداء الطوارئ» في الليل مع فريق المهمات. كما أنه سأل المقدم شون مالهولاند ضابط قوات خاصة في الجيش، إن كان بإمكانه الخروج مع رجاله في مهماتهم الليلية، التي كانت تجري في العادة حوالى الساعة ٢:٠٠ فجراً. «من الممكن أن تكون غاية في الخطورة»، كما قال مالهولاند. لكن بتريوس أصر قائلاً «بالرغم من ذلك فأنا أرغب في الذهاب».

كانت البوسنة تمثّل المرة الأولى التي تشترك فيها وحدات المهمات الخاصة والقوات الخاصة في المهمات المحدّدة الهدف والعالية الأهمية. وكان بتريوس ينتظر معظم الأحيان في العربة وقت محاصرة المنزل والإحاطة بالمنطقة أمنياً، ثم ينبري دون أن يرتدي الدرع الواقي ويوصل رسالة من قائد قوة ترسيخ الاستقرار إلى الفرد المطلوب. كانت المداهمات الليلية تهدف إلى إنذار أو توقيف واستجواب أولئك الذين يُعرفون بمساعدة مجرمي الحرب وتحريضهم؛ وكانت المعلومات التكتيكية المجموعة عادة عقب مثل هذه العمليات تؤدي إلى الهدف التالي.

كان على رأس لائحة فريق المهمات الدكتور رادوفان كارادي‌تش، وهو رجل سياسة بوسني صربي مطلوب في جرائم حرب ضد المسلمين البوسنيين والكروات البوسنيين، وموجود في منزله الوردي السري في بلدة بالي، في أحضان جبال البوسنة وفي منطقة ما بين البوسنة وصربيا ضمن القطاع الفرنسي. لكن الفرنسيين كانوا في البداية يعارضون أي نشاط أميركي في المنطقة. وكان الجنرال جون ب. سيلفيستر، قائد قوة ترسيخ الأمن التابعة للناتو، وهو حالياً قائد فريق المهمات المتقدم للعمليات الخاصة المشتركة، قد أشار على بتريوس وميلاني بالعمل مع الفرنسيين لتنسيق أنشطتهم. وفي مرحلة معينة، حاول محلّلو الاستخبارات في فريق المهمات تجنيد سائق كارادي‌تش فبُعِثَ له رسالة دون تحديد المرسل ووصلت إلى منزله. لكن السائق اعتقد أنه يتم الإيقاع به واتصل بالحكومة الصربية على الفور، التي تواصلت بدورها مع السفارة الأميركية. وقد نُسِفت العملية، ووقف فريق المهمات موقفاً حرجاً للغاية. أدى هذا الإخفاق لتوتير العلاقات بين ضباط فريق المهمات ونشطاء وكالة المخابرات المركزية، الذين أبلغوا مدير الوكالة، جورج تينيت، بأنهم كانوا يعارضون العملية، على الرغم من أن وكالة المخابرات المركزية قد شاركت فيها. وفهم بتريوس أن هناك درباً طويلة لتعبره علاقة القوات الخاصة ـ وكالة المخابرات المركزية. ومع ذلك، فقد وجد أن مطاردة مجرمي الحرب مهمة خطيرة ومثيرة.

غير أن تركيز وحدة المهمات الخاصة في البوسنة كان سيتحول سريعاً إلى مكافحة الإرهاب بعد ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، أي الهجمات الإرهابية، التي أدت في النهاية إلى تعاون أفضل بكثير وتشارك للمعلومات الاستخباراتية. وخلال أسبوعين، تم تشكيل فريق مهمات مشترك متعدد الوكالات، يضم كلاً من الجيش والضابطة العدلية والاستخبارات والمصادر الدبلوماسية في البوسنة للمرة الأولى. وبالإضافة إلى مهماته الأخرى في صنع السلام، أصبح بتريوس نائب قائدها، ومن جديد بقيادة سيلفيستر، الذي عُيّن قائداً لفريق المهمات هذا أيضاً.

لطالما كانت البوسنة منطقة عبور للمقاتلين الإسلاميين الأجانب، بجزء منها كون البوسنيين المسلمين قد ضاقوا ذرعاً طالبين المساعدة في مواجهة القوميين الصرب الذين كانوا يقومون بعمليات تطهير عرقي خلال الحرب الأهلية في مطلع التسعينيات. واستمر بعض منهم في القيام بأنشطة متطرفة في البوسنة دعماً لمقاتلين سابقين للقاعدة. منذ بداياتها، ضم فريق المهمات المشترك المتعدّد الوكالات عناصر من العمليات الخاصة وممثلين عن مكتب التحقيقات الفيدرالي والاستخبارات العسكرية الأميركية ومحللين ومترجمين من وكالة الأمن القومي. وبعد مرور أسبوعين على أحداث ٩/١١، لجأ فريق المهمات المشتركة المتعدّدة الوكالات إلى معلومات وكالة الاستخبارات المركزية لتخطّط هجوماً على مصري وأردني كانا يختبئان في فندق هوليوود هوتيل في سراييفو. «لقد غيرنا وجهتنا وذهبنا من مطاردة مجرمي الحرب إلى البحث عن القاعدة»، كما شرح ميلاني.

خلال فترة ما قبل الموجز للعملية، اتّكأ بتريوس ورفع حاجبه سائلاً ميلاني، «إذن، هل يمكن أن تضع هذه اللحظة المهنة على المحك؟» فأجاب ميلاني، «ما الذي يعنيه ذلك، سيدي؟ لحظة شديدة المخاطرة حيث يمكن أن تؤدي لخسارة عملنا؟» وضحك ميلاني. «أقول: نعم، سيدي؛ هذا هو العالم الذي أعيش فيه». فأحب بتريوس أسلوبه. بدأت العملية في الفندق بجنود العمليات الخاصة يحملون حقائب كجزء من تنكرهم، وهي حقائب فارغة، يمكنهم استخدامها ليستغلوا تكتيكياً المواد الموجودة في الغرف. ألقوا القبض على أهدافهم، لكن

بعد القتال معهم. وفي النهاية ألقوا الرجلين، الحليم حسام خفاجي وحامد عبد الرحيم الجمال، في مقصورة شاحنة صغيرة، ولفّوهما بالأغطية. خرج بتريوس، الذي كان قلقاً، وميلاني لملاقاة الجنود لدى عودتهم وفتحوا الأبواب ورأوا أن الأغطية كانت مغطاة بالدم. وقد أصيب أحدهما بارتجاج في المخ، لكن لم يصب أحد منهما بأذى بليغ. وقد قادتهم التحقيقات والحواسيب التي صودِرت في النهاية إلى ثلاثة مصريين وأردني وخمسة باكستانيين.

شكلت العملية منعطفاً بالنسبة للعمليات المشتركة المتعدّدة الوكالات، خاصة العلاقات بين عالم العمليات الخاصة ووكالة الاستخبارات المركزية. عقب هجوم فندق هوليوود، نفَّذ فريق العمليات المشترك عمليات أدت إلى اعتقال إرهابيين وأفراد متصلين بمنظمات غير حكومية يشتبه بارتباطها بمنظمات إرهابية. وكان من بينها «مؤسسة الإحسان الدولية» وهي منظمة دينية مركزها شيكاغو، كانت تستغل إعفاءها من الضريبة بصفتها مؤسسة خيرية تسعى لجمع التبرعات للإرهابيين متعددي الجنسيات. ومن مكتبه في البوسنة، أبرز فريق المهمات المشترك المتعدّد الوكالات مستندات تظهر الاتصال المباشر بين مؤسسة الإحسان وملازم في القاعدة، استخدمه مكتب التحقيقات الفيدرالي ليضع قائد مؤسسة الإحسان الدولية خلف القضبان في شيكاغو بتهمة شهادة الزور. بحلول آب/ أغسطس ٢٠٠٢، واستناداً لأحد محلّليه، وهو النقيب جان هال، «فقد أنذرت تقارير الاستخبارات والمصدر المفتوح بأن بعض المجموعات المسلحة كانت تعمل على تفادي البوسنة بدلاً من استخدامها».

في حين استمرت فرق وحدة المهمات الخاصة بمطاردة مجرمي الحرب، فقد أصبحت مهمتهم الرئيسية مكافحة الإرهاب. كانت مرحلة تكوينية لبتريوس اعتمدت على خبرته في صنع السلام في هايتي والمدة التي قضاها مع فريق الجنرال شيلتون، حيث كان أمام الاختبار الأول في المهمة في البوسنة ووحدات المهمات الخاصة هناك. وبسبب المدة التي أمضاها في البوسنة، فقد فهم بشكل أفضل أهمية «تضافر الجهود»، وعمل على الصعيدين الاستراتيجي والتكتيكي على

السواء مع الولايات المتحدة وجيش الائتلاف والشركاء المدنيين، والمنظمات الدولية والسفارات الأجنبية ومسؤولي الدول المضيفة. وقد سعى لدمج الجهود المشتركة لوحدات المهمات الخاصة وفرق القوات الخاصة في مهمات مطاردة مجرمي الحرب ومكافحة الإرهاب، وقد عرف من تقنيات جمع الاستخبارات التي كانت تستخدمها وحدات المهمات الخاصة لتحديد الأهداف عالية الأهمية. سيُشكل فريق المهمات المتعدّد الوكالات، الذي ساهم في خلقه لمطاردة المشتبه بهم الإرهابيين، مخططاً سيستخدمه مرة أخرى في العراق وأفغانستان. ربما الأكثر أهمية، أنه حمل معه مخططاً يصلح أن يكون خارطة طريق لعدة سنوات لبناء الدولة بشكل شامل، وقد اختبره للمرة الأولى في هايتي ويتم تنفيذه الآن في البوسنة التي أنهكتها الحرب. غادر البوسنة عام ٢٠٠٢ بعد أن علم أنه سيتم ترقيته لرتبة فريق أول ويُمنح مهنة أحلامه، قائد الوحدة إيربورن ١٠١. وقد سرت الأخبار في فورت كامبل بكنتاكي، بأن سكريمنغ إيغلز قد حُجزت للذهاب إلى العراق.

في أفغانستان، استمتع بتريوس بوقته في الميدان مع مجموعات من الوحدة إيربورن ١٠١. في ٢٠ كانون الأول/ديسمبر، طار إلى قندهار لزيارة كتيبة فلين، وهبط بمروحية بلاك هوك في حقل بُنّي قاحل قرب الموقع الذي خيضت فيه معركة بيكرزفيلد في تموز/يوليو. قاد فلين اللواء إلى جسر في المكان الذي خاض رجاله المعركة في أيام بأكملها. طلب فلين من بتريوس تقليد وسام النجمة الفضية للرقيب أول كايل ليون، عالم أرصاد جوية في الجيش من خلال التمرُّن والذي قاد فصيلة خلال معركة بيكرزفيلد. وعد بتريوس بأنه سينظر في طلب ليون ليعاد تنظيمه كجندي مشاة، ومنح الميداليات لسبعة جنود آخرين أيضاً، مشيراً إلى أن الفرص التي خولته معرفة الجنود الملحميين كانت متعة كبيرة له. قدّم فلين لبتريوس الحقائق الأساسية للقتال الذي حصل بينما كانوا يمشون من مكان الهبوط إلى الجسر، فكرّرها بتريوس حرفياً خلال ملاحظات للجنود. وقد اندهش فلين بذاكرته واعتقد أن الملاحظات الشخصية التي قدمها لكل جندي كانت بليغة.

بعد الاحتفال، قاد فلين بتريوس وعناصر جماعته المسافرين إلى مقر المخفر القتالي، حيث قدم لهم موجزاً عن العمليات التكتيكية لكتيبته وجهود إعادة الإعمار. وشرح فلين بأنهم قاسوا النجاح من خلال إحصاء عدد الفلاحين العاملين في الحقول، وقابلية تجنيد مخبرين محتملين، وعدد القرويين الراغبين بلعب دور في برامج «نقود مقابل العمل» ومؤشرات مختلفة أخرى. كان رجال المدفعية المتحوّلون التابعون لفلين ينفذون نمط عمليات مكافحة التمرّد المكثفة والتي تقوم بها المشاة والقوات الخاصة. أخبر بتريوس لاحقاً اللواء جيمس تيري، رئيس القيادة الإقليمية للجنوب في أفغانستان، أنه أراد مقاربة مماثلة لاتّباعها في الجنوب.

شارك فلين رؤىً أخرى أيضاً، وقد فهم نية بتريوس. فالهدف من الشرطة الأفغانية المحلية كان تعزيز الأمن المحلي ودعم قوى الأمن الأفغانية النامية، بما في ذلك الشرطة النظامية والحدودية. وكانت إضافة الشرطة الأفغانية المحلية إلى المزيج ستساعد في إحراز شيء أقرب إلى ١ من ٢٠ بنسبة الجنود إلى السكان، الموصى بها في عقيدة الجيش الأميركي لمكافحة التمرد، في حين أن كلًّا من إيساف والقوات الأفغانية كانت ضمن التشكيلة. وكانت مبادرة من أسفل لأعلى مماثلة في العراق «أبناء العراق» واحدة من نقاط التحوّل في الأمن المتحسّن باطراد هائل. هل يمكن أن تعمل في أفغانستان؟ هل يمكن للقوات التقليدية أن تتولى جزءاً من هذه المهمة التدريبية؟ وكانت قوات العمليات الخاصة التي تشجع على عمليات استقرار القرى قد انتشرت بقدر ضئيل وقدر المستطاع. وقد طلب بتريوس من فريقه للاستشارات والدعم في مكافحة التمرد «سآت» للبحث فيما إذا كانت القوات التقليدية على قدر المهمة، وقد اعتقد فلين أنها كانت كذلك.

أنصت بتريوس إلى موجز فلين بانتباه، حيث قدم له نبذة عما أنجزته وحدته خلال الأشهر السبعة التي قضتها في البلد وتحليلاً لنشاط العدو. وقد شرح فلين خطوط مساعيه الحالية، بما في ذلك المساعي للتشجيع على الحكم المحلي والإنماء. وذكر بتريوس أن القيادة العليا لطالبان كانت قلقة من تمدد وتنامي

فاعلية الشرطة الأفغانية المحلية، وشعر بأن ذلك سيكون له تأثير حقيقي على الدعم الشعبي لطالبان والاتصالات والملاذات الآمنة. وكان لا يزال على إيمانه بأن الشرطة الأفغانية المحلية ستنتشر مثل سياجٍ متراصّ على امتداد المناطق الرئيسية للأقضية التي كان ينقصها الأعداد الكافية من الجنود والشرطة.

كرّر بتريوس باستمرار أهمية مبادرة الشرطة الأفغانية المحلية وتطلعاته حيالها، خلال موجزاته الصباحية. وقد طلب من العميد سكوت ميلر، القائد العام لقيادة القوات المشتركة لمُركّب العمليات الخاصة ـ أفغانستان، لكي يعلمه بشكل أسبوعي عن توسعها كون المبادرة كانت تُنفَّذ من عميد سرايا القوات الخاصة التابعة لميلر. كانت قيادة ميلر حَذِرة حيال المساعي الأخرى لتدريب الشرطة المحلية وتجهيزها، في جزء منها بسبب أهمية الحفاظ على العلاقات مع وزارة الداخلية ومراقبة توزيع الأسلحة، وهي مهمات أشرفت عليها فرقه بشكل حصري. من ناحية أخرى، أدرك ميلر بأنه ينبغي على القوات التقليدية أن تؤدي دوراً لتحقيق النسبة المتوخاة من الجنود مقابل القرويين. لم يكن هناك ما يكفي من سرايا القوات الخاصة للقيام بالعمل بالوتيرة المطلوبة لكبح جماح التمرّد.

عقب موجز فلين، توجهت الحاشية سيراً على الأقدام إلى تاروك كولاتش لكي يرى بتريوس التقدم هناك بنفسه. كان فلين قلقاً من عدم رؤية أحد يعرفه، بعد التأكيد على علاقاته المتينة مع القرويين خلال الموجز. لكن الرجل الأول الذي التقوا به كان عبد الباقي، مالك منزل يتطلع لرؤية منزله وقد أعيد بناؤه. ألقى التحية على فلين بحرارة، وعلى الفور جاء آخرون، بمن فيهم مالكو القرى الذين أخبروا بتريوس بأنهم لا يريدون أن يغادر فلين. في لحظة معينة، وبينما تجمع حشد صغير في موقع المسجد المدمر في تاروك كولاتش، ناقش بتريوس الحاجة لإعادة الإعمار كي يتمكن القرويون من العيش مجدداً بسلام ورغد. وكان مارك هاول، القائد الأمني الذي رافق بتريوس، يعلم كم كان بتريوس يستمتع بزيارة هذه المعاقل التي كانت لطالبان سابقاً. «رأيت بريقاً في عيني القائد كنت قد رأيته في بغداد بعد معركة مدينة الصدر في آذار/مارس ٢٠٠٨»، كما استذكر هاول. «ذلك

البريق الذي يقول: لقد نلت منك الآن، وهناك المزيد في المكان الذي أتى منه ذلك. كان بانتظار جو طالبان شتاء مثير، وأولئك الذين بقوا يمكن أن يكونوا في نيسان/أبريل المقبل أكثر انفتاحاً». مرَّر اللواء تيري لاحقاً تعليقاً من بتريوس إلى فلين: «إنه أفضل يوم لديّ منذ أن وطأت قدماي أفغانستان».

في تلك الليلة، وبعد أن عاد بتريوس إلى المقر الرئيسي لإيساف، في كابول، قدم الرائد فرناندو لوجان موجزاً للقائد العام. كان لوجان قد رأى كتيبة فلين خلال عملياتها الأولية سابقاً في تموز/يوليو، عندما انخرط هو وزملاؤه من سآت مع وحدة فلين. لكن موضوع الليلة لم يكن فلين أو جنوده، بل كان مستقبل سآت نفسه. عند بداية جولته سابقاً في تموز/يوليو، تم تعيين لوجان من قِبَل قائد سآت، العقيد جو فيلتر، لبناء فريق يمكنه أن ينقل مفهوم سآت إلى داخل الجيش الأفغاني، الذي كان سيرث الحرب في مرحلة ما من الأميركيين وشركائهم في الناتو. كان لوجان مؤهلاً لخلق سآت أفغاني، أو (سآت ـ أ). وبالإضافة لكونه ضابط قوات خاصة، فقد كان في برنامج خاص أسسه رئيس هيئة الأركان المشتركة أطلق عليه اسم «الأيادي الأفغانية». وقد تدرَّب أولئك الذين شاركوا فيه إما بلغة الداري وإما بلغة الباشتو وأمضوا ثلاث سنوات جيئة وذهاباً بين مهمات تتعلق بأفغانستان في أفغانستان والولايات المتحدة الأميركية. كان كل هذا مصمماً لخلق طلاقة في اللغة وخبرة في التقاليد وإلمام بالبلد. وقد اكتمل (سآت ـ أ) تقريباً من قبيل الصدفة، عندما انضم إلى لوجان في قندهار اثنان كانا يجيدان لغة الداري، ضابط مشاة ومقاول من وزارة الدفاع. وقد قضيا الخريف مدمجَين في ثماني معارك، وقدّما النصائح للقوات الأفغانية حول أفضل ممارسات مكافحة التمرد.

في غرفة اجتماعات في المقر الرئيسي لإيساف غصّت بمعاوني بتريوس وثلاثة ضباط برتبة عقيد من القوات الخاصة، قال لوجان إن الرؤيا التي تشاركها هو وفيلتر كانت حول (سآت ـ أ)، وكيف سيحل في البداية محل سآت ويصبح لمساهمته أهمية متزايدة في الحملة في الوقت الذي تنقص إيساف

عديدها وتسلم الحرب للقوات الأفغانية. لكن الطريقة الوحيدة لتوسيع (سآت ـ أ) حيث أصبح لها ثلاث فرق إقليمية منفصلة، في القيادات الإقليمية للجنوب والجنوب الغربي والشرق، كما ناقش لوجان، كانت بأن تقوم قيادة العمليات الخاصة «سوكوم» SOCOM بتولي المسؤولية والقيام بالتوظيف. لا يمكن تجنيد ما يكفي من الأيادي الأفغانية لتوَلّي المهمة سوى بدعم من قيادة العمليات الخاصة. وبحلول صيف عام ٢٠١١ ـ حيث كان سيبدأ انسحاب القوات الأميركية ـ تصور لوجان بأن لديه خمس فرق (سآت ـ أ)، واحدة لكل قيادة إقليمية. وفي حين كان لوجان وفيلتر قد سمعا بأن عقداء القوات الخاصة كانوا هناك ليحاولوا إبقاء الأيادي الأفغانية خارج تمدد (سآت ـ أ)، بادرا إلى التزام الصمت بعد أن استجاب بتريوس بحماس لتوسيع (سآت ـ أ). «نحن بحاجة لأشخاص من صنف القادة لوظائف الأيادي الأفغانية هذه، وليس أشخاصاً لم يتبقَّ لديهم أي خيارات مهنية» كما اقتبس لوجان لاحقاً قول بتريوس «أنت بحاجة للأفضل».

وعد بتريوس فيلتر ولوجان بأن تبقى قاعدة سآت في المقر الرئيسي لإيساف، في محيط قريب من بتريوس وموظفيه. «ما دمت قائد إيساف، فستبقون بأمرتي المباشرة دائماً»، كما نقل لوجان عنه قوله. «لن يتغير ذلك أبداً». وقد ذكر لوجان في رسالة بريد إلكتروني أرسله إلى أخوته في سآت في قندهار بعد انتهاء الموجز، «لقد حصلنا فعلاً على كل أمر صغير[1] كنا قد طلبناه. فنحن والحالة هذه أصبحنا مؤكدين على المؤسسات. توقّعوا تدفقاً كبيراً من المصادر والأشخاص خلال الأشهر القليلة المقبلة. فنحن نملك الامتياز لإنشاء نموذج جديد هنا».

«سنفعل المستحيل لنضمن بقاء سآت كياناً مؤثراً وفاعلاً الآن وفي السنوات القادمة على السواء»، كما كتب فيلتر لبتريوس. «إنه حقاً امتياز لي أن أخدم مع هذا الفريق العظيم وقد أتتنا الفرصة أيضاً لكي ندعمك وندعم إيساف في هذا

(١) الرائد فرناندو لوجان، رسالة بريد إلكتروني للمؤلف، ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٠.

الوقت الحرج من القتال». فأجاب بتريوس لاحقاً في تلك الليلة: «في الواقع يا جو، أنا أشكرك. إن توجيهي وإرشادي كانا غامضين إلى حد بعيد! وكانت الفكرة بأن يُفسح المجال أمام أقصى درجات المبادرة. لكن دعمي كان يجب أن يكون في غاية الوضوح. سآت هو بالفعل زخم كبير للقوى، وكان من الرائع أن أرى ما قمت به أنت والفريق لتطويره. أشكركم على كل ما قمتم به!»

بعد ثلاثة أيام، عقد فلين اجتماعاً بين موظفيه وممثليه من الوكالة الأميركية للتنمية الدولية ووكالات حكومية أفغانية لمناقشة إعادة إعمار تاروك كولاتش. وقد قدَّر الكلفة لاستبدال الأبنية وتعويض المزارعين على خسارة عوائدهم من بيع محصول الرمان بما يزيد مجموعه على ٥٠٠ ألف دولار أميركي. وفيما كانوا يمشون قبل بضعة أيام في تاروك كولاتش حول الموقع المسوّى بالجرافات، أشار عليه بتريوس بأن يدفع كل ما يتوجّب؛ إذا كان عليه «أن يدفع مليوناً»، وهو السقف المحدد من التمويل عبر برنامج يدعى «برنامج الاستجابة الطارئة للقائد». «ألقوا اللوم في القيود حول سقف البرنامج على ذلك القائد اللعين السابق للقيادة المركزية»، قال بتريوس ممازحاً، مشيراً إلى نفسه في وظيفته القديمة بصفته رئيس القيادة المركزية. أحس بتريوس وفلين بالتزام عميق بأن عليهما إعادة إعمار ما تضرر أو تهدم. وقد حُدّد موعد للبدء ببناء مسجد جديد في أواخر كانون الأول/ديسمبر. بعد ذلك بفترة وجيزة، سيُدفع لمالكي الأراضي للمساعدة على إعادة إعمار القرية. فالإعمار ـ أو في هذه الحالة إعادة الإعمار ـ كان حتى الآن هو المرحلة الأصعب من عملية التطهير والسيطرة والبناء.

في الوقت نفسه الذي انخرطت فيه وحدته في إعادة إعمار تاروك كولاتش، بدأ فلين إجراء محادثات مع القرويين في تشاركولبا العليا على إنشاء قوة شرطة أفغانية محلية هناك، والموقع واحد من ثلاث وحدات ناشئة من الشرطة الأفغانية المحلية في المنطقة. كانت طالبان قد تسلّلت سابقاً إلى تشاركولبا العليا، وتم إقصاء القرويين إلى مدينة قندهار وقرى أخرى مجاورة في الوقت الذي وصلت فيه وحدة فلين إلى وادي نهر أرغنداب في حزيران/يونيو. بحلول كانون الثاني/

يناير، كان القرويون قد بدأوا العودة إلى منازلهم. وكان فريق فلين يساعد على إعادة إعمار الأملاك المتضرّرة، وكان متحمّساً لمساعدتهم في الدفاع عما أعادوا بناءه.

كان ثمة تحدٍّ وحيد واجه فلين وهو الشعور الإقليمي بأن عادة مجتمع العمليات الخاصة في تعزيز الأمن القروي، أصبحت مؤشراً لبرنامج الشرطة الأفغانية المحلية. وقد شعر كثير من جنود القوات الخاصة بأن الوحدات التقليدية كانت ببساطة غير كفؤة ولا مؤهّلة للعمل عن كثب مع القرويين لكسب ثقتهم وبناء جهاز أمن محلي. أقرّ فلين بأن الأمر اقتضى جنوداً خبراء لإدارة برنامج شرطة محلية أفغانية، واعتقد بأنه كان على القوات التقليدية أن تكون انتقائية في اختيار القادة المناسبين للقيام به. كان يعلم أن القوات التقليدية كانت ناجحة في تدريب القوات المحلية في فيتنام والعراق. وكان لدى القوات التقليدية ضوء أخضر من بتريوس لإطلاق مبادرات الشرطة الأفغانية المحلية وفقاً لتوجيهات وضعها هو.

من جهة أخرى أثبت تزويد المواطنين المحليين بالأسلحة أنه عامل تعقيد. وقد تخوّفت الحكومة الأفغانية بشكل مبرّر من كونهم يسلحون أمراء حرب وميليشيات لكي يتواجهوا بعضهم مع بعض ومع الحكومة المركزية في كابول. أصدر بتريوس توجيهاً يقول فيه إنه لا يجوز للقوات الأميركية أن تسلح الشرطة الأفغانية المحلية؛ وكانت الأسلحة تُمنح من قِبَل وزارة الداخلية كجزء من برنامج الشرطة المحلية الأفغانية، وكان هذا من بين التوجيهات التي تم وضعها مع قرضاي. لكن البرنامج لم يكن دائماً بالرشاقة التي كانوا يتوخّونها، وكانت الأسلحة مهمة جداً للأفغان. حاول فلين التحدث مع بعض القرويين في منطقته عن حراسة محلية ونقل المعلومات عن نشاط طالبان، وكانت الإجابة الأولى التي يعطونها دائماً «أحتاج إلى سلاح». كانت أفغانستان مليئة برشاشات إيه كيه ٤٧ وآر بي جي وأسلحة أخرى، وبالمتمردين المسلحين بأسلحة ثقيلة والذين كانوا يغيرون على أطراف البلدات، وبقوى أمن محلية تستمد قوتها من فوهة البندقية. كانت المسألة بتلك البساطة.

وكانت تعويضات الشرطة الأفغانية المحلية مشكلة أيضاً. ففي ناغهان، المكان الأول في أرغنداب الذي تأسست فيه الشرطة الأفغانية المحلية، كان على وزارة الداخلية الأفغانية أن تبدأ بالدفع لعناصر الشرطة الأفغانية المحلية بحلول كانون الثاني/يناير، ما جعل فريق A-Team، وهو وحدة قوات خاصة من اثني عشر جندياً، مسؤولاً عن جدول الرواتب. وخلال العمل على إنشاء وحدة شرطة أفغانية محلية في تشاركولبا العليا، وجد فلين أن منْح عناصر الشرطة الأفغاتية المحلية فقط ما قيمته ستين بالمئة مما يتقاضاه عنصر الشرطة الأفغانية الوطنية كان «محبِطاً». فكل التأخيرات البيروقراطية في ناغهان المتعلقة بالدفع والأسلحة يمكن أن تقضي على المسعى في تشاركولبا وتمنع فلين من الحصول على قوة متماسكة جاهزة بحلول الوقت الذي كانت ستعود فيه طالبان في الربيع.

في أواخر كانون الأول/ديسمبر، اعترض جنود فلين محادثة ذكرت الكثير من شؤون الدولة في وادي نهر أرغنداب. «الأميركيون في هذه المنطقة في غاية الشجاعة وهم في كل مكان!» كما ذكر مقاتلٌ من طالبان. فيجيب رفيقه «لا تقلق، سيكون كل شيء على ما يرام حين يعود أصدقاؤنا كلهم».

اعتقد فلين أن هناك عدداً قليلاً باقياً من مقاتلي طالبان في كامل أرغنداب، ربما لا يزيد على عشرة أو اثني عشر. كانوا ينفذون مداهمات مزعجة محدودة وغير اعتيادية لكي يحددوا أين يمكن لمقاتليهم المناورة في الربيع. فهم على الأرجح لن يعودوا بشكل جدي قبل أن تعود الأوراق لتنبت على الأشجار في آذار/مارس، بأقل تقدير. عرف العدو كيف يمكن أن يستفيد من التمويه والتخفي اللذين كانت توفرهما بساتين الرمان وأوراقها. وكان هناك أعداد هائلة على الأرجح لن تتم مواجهتها، كما اعتقد فلين، حتى أيار/مايو أو حزيران/يونيو، هذا إذا عادوا أصلاً. وجد جنود فلين بعض العبوات الناسفة المزروعة حديثاً إضافة إلى العشرات القديمة الأخرى، ونزعوها من أرض المعركة خلال الأشهر الأولى من الشتاء. وكانت القلة المتبقية من طالبان ترهب السكان وتثنيهم عن تأييد

الحكومة أو الائتلاف، وقد استهدفت بالتحديد مالكي القرى. لقد كان صراع مكافحة تمرّد كلاسيكي.

اعتبر فلين نفسه محظوظاً لأن علاقة عمل متينة كانت تربطه مع ضباط وكالة المخابرات المركزية ضمن منطقة عملياته. كان يلتقي بهم مرتين أسبوعياً، في ما كان إلى حد بعيد العلاقة الأكثر قرباً مع الوكالة خلال ثلاثة تنقلات في ما وراء البحار. وفي مرحلة معينة، استقبل فلين رئيس القاعدة وبعضاً من ضباطه ليبيتوا الليلة في المقر الرئيسي لكتيبته. في أواخر كانون الأول/ديسمبر، جهزت كتيبة فلين عيادة طبية لفريق من الأطباء الأفغان المحليين العاملين مع وكالة المخابرات المركزية. ومن دون أن يظهروا بأنهم على اتصال مع الولايات المتحدة، عالج الأطباء أكثر من أربعمئة قروي خلال يومين. وكانت وكالة المخابرات المركزية مسؤولة أيضاً عن تقديم فلين لأحد أول معارفه الأفغان، عناية اللّه، وهو قائد نقطة تفتيش سابق في الجيش الأفغاني سبق أن خدم في قندهار في المرة الأولى التي تشكل فيها فلين إلى هناك عام ٢٠٠٤.

تودّد فلين أيضاً مؤخراً إلى عيسى محمد، وهو من سكان تشاركولبا العليا الذي انتقل للعيش في قندهار قبل نحو عشر سنوات. وقد كان المالك المعيَّن لتشاركولبا العليا وكان أخا رئيس شرطة المقاطعة، ما جعل منه شخصية مرموقة في الشرطة الأفغانية المحلية في القرية. كان محمد، وهو فرد من قبيلة الكوزي، جزءاً من مساعي القبيلة لإعادة فرض نفسها في وادي نهر أرغنداب. وكانت قبيلة الكوزي تسيطر على المقاطعة تاريخياً، لكن تأثيرها ودورها قد تراجعا منذ عام ٢٠٠٢. أما القبائل الأخرى في المقاطعة، السيد وكاكار وغلزائي، فكانت تتقرب أكثر من طالبان وتساعدها على تثبيت أقدامها في المقاطعة.

وصل عيسى محمد صباح العام الجديد مع ستة من القرويين معه، وهم جاهزون لتأسيس وحدة الشرطة الأفغانية المحلية. وكان عناية اللّه يحضر اجتماعاً في مكان آخر. حصل فلين على التزام من واحد من رجال محمد وهو شاه محمود، وقروي آخر وهو شير اللّه، بأن يقودا المسعى. مشى فلين إلى غرفة الشورى ذات الإضاءة

الخافتة في قاعدة عمليات تيرا نوفا المتقدمة وكان الأفغان السبعة جميعهم قد جلسوا على الأرائك الحمراء الموزعة على الأرض. اتّجه نحو محمد أولاً وحيّاه بأفضل ما يكون من التحية الباشتونية وأكمل الدوران بالتحية ومصافحة الأيدي. كان فلين مذهولاً من الأسلوب الجميل الذي كان يلقي به الأفغان التحيات مهما كانت الظروف المحيطة. فقبل ليلتين، جلس فلين ورجاله في مجلس شورى في قرية بابور التي كانت بقيادة المالك هناك للقيام بصلح بعد عراك في القرية. وكان أمامه خمسة قرويين غارقون بدمائهم ضربوا بعضهم بعضاً بالرفوش والمعاول بسبب قطع أخشاب خلال مشروع «نقود مقابل عمل». وقد تم حل النزاع بأن قام الرجال الأصغر سناً بالاقتراب من المالك وتقبيل يده. فقام المالك بتقبيل كل واحد منهم على رأسه، وعاد الهدوء يخيّم بعد ساعتين من القتال والمشاحنات.

كان بناء وحدة شرطة أفغانية محلية في تشاركولبا عرضاً مغرياً، نظراً لأنه لم يعد يسكن أحد هناك في الوقت الحالي. فقد تم هجرها بالكامل حتى قبل وصول الأميركيين إلى وادي نهر أرغنداب في حزيران/يونيو، وقد انتزع جنود فلين القرية من طالبان في منتصف آب/أغسطس. لم تدع جولة في أرجاء القرية في كانون الثاني/يناير مجالاً للسؤال حول المعركة التي وقعت هناك: فالمباني الشبيهة بأحجار اللبن كانت منخورة بثقوب الرصاص، وظهرت فجوات كبيرة مكان سقوط قذائف الهاون، وبدت بيوت الطين المفتّتة كأنها قصور رملية منسوفة، وبقايا قطع ممزّقة من لباس لجنود فارقوا الحياة هناك ما زالت متناثرة على بعض الأشجار والأجمات.

شرح عيسى بأنه كان هناك ثلاثة مساجد في تشاركولبا، لكن المصلين من واحد منهم فقط كانوا يشاركون في الشرطة الأفغانية المحلية. وعد فلين بالعمل من خلال الحكومة المحلية الأفغانية ليضمن بأنهم سيُكافَأون بمسجد جديد نظراً لجهودهم. وبعد المزيد من المناقشات، قال فلين إنه يمكنهم التدرّب بأسلحة الأميركيين حتى يصبح لديهم قانونياً أسلحتهم الخاصة.

لكن الأفغان استمروا بالإعراب عن مخاوفهم من سكان جيلاور المجاورة،

التي يصفها الكوزي بأنها بيئة حاضنة لطالبان. قال لهم فلين إنه كان يعول عليهم ليخبروه من كان جيداً ومن كان سيئاً، فأجابوا بأنه لا ينبغي على القوات الأميركية التدخّل عندما يلقون القبض على مشتبه به. لم يعد سراً الآن أن الشرطة الأفغانية المحلية كانت تضرب موقوفيها وتعاملهم بأساليب غير مقبولة حسب المعايير الأميركية، ولم يكن فلين يتساهل في مثل هذا النوع من الضرب إذا رآه، وأخبر الأفغان بأنه يأتي بنتائج عكسية، لكنه كان يعلم أيضاً أن إساءة معاملة السجناء في أفغانستان لن تنتهي في حقبته. عندما انتهت الحصة شعر فلين بالتفاؤل بإمكانية تأسيس قوة أمن محلية في تشاركولبا العليا. لم تكن تلك العملية حسب قواعد اللعبة، ولكن لم يكن ثمة قواعد في الحقيقة للشرطة الأفغانية المحلية بعد بل مجرد توجيهات، وقد علم أن سلسلة القيادة كانت مريحة مع أولئك الذين هم من مستواه ويتدربون على المبادرة في ظل التوجيهات.

فيما عمل فلين ورجاله على إعادة إعمار القرى في وادي نهر أرغنداب، نقلت لجنة معيّنة من الرئيس قرضاي في منتصف كانون الثاني/يناير(١) بأن القتال في قندهار وحولها الخريف الماضي قد خلّف أضراراً للبيوت والأراضي بقيمة مئة مليون دولار أميركي. فحرّك بتريوس مسعى لتحري الحقائق، كونه مشى عبر القرى في وادي نهر أرغنداب مع فلين وعبر مقاطعات أخرى مع قادة آخرين، وقد رأى بأم العين حجم الأضرار والحجم الهائل لإعادة الإعمار على السواء في طريقه. وخلال موجز قيادته الصباحي في المقر الرئيسي لإيساف في كابول، قال بتريوس بأنه أُعيد تعبيد الطرقات وتم زرع حوالى ألف شجرة، مع زرع عشرات الآلاف غيرها في الأسابيع التالية. شعر فلين أن المنازل التي أمر هو والقادة الآخرون بأن تُدمَّر كانت بحاجة للتدمير: فقد كانت مهجورة ومزروعة بما أسماه «شبكة معقّدة من المتفجرات» التي كانت مخبأة في إطارات الأبواب والنوافذ والأرضيات، والتي منعت السكان الأصليين من العودة؛ أجروا عمليات تطهير

(١) Taimoor Shah and Rod Nordland, "Afghan Panel and U.S. Dispute War's Toll on Property," *New York Times*, January 13, 2001.

تقليدية تكاد المخاطرة بها أن تكون مستحيلة أو مكلفة جداً. وقد كان «حانقاً» لأن تعليقات متحدث باسم الحكومة الأفغانية قد عزّزت الانطباع بأن القوات الأميركية دمّرت الممتلكات تدميراً كبيراً من دون إصلاح الأضرار أو ترميمها. وأشار ممثل من القيادة المشتركة لإيساف بأنه تم التقاط صور لكل مبنى أو منزل تم تدميره، لإظهار أن الجنود لم يكونوا منخرطين في التدمير الشامل للقرى. وتم إنشاء قاعدة بيانات، تفصّل كل التعويضات التي تم دفعها.

أوصى بتريوس «بالحديث المتواصل»[1] عن قصص من القيادة الجنوبية الإقليمية حيال جهود التعويضات. «أريد أن أغطي على قصص تدمير الممتلكات»، على حد قوله، «مع حقيقة ما قمنا به، وما سنقوم به، بخصوص هذه المسألة». وخلال موجزه صباح اليوم التالي، كان بتريوس لا يزال ممتعضاً من المسؤولين المحيطين بقرضاي: «لقد تجوّلت في الأرض هناك. لم يقم أي منهم بذلك. نحن بحاجة للتصفيق، لا للانتقاد، بسبب جهودنا لإصلاح الضرر الحاصل». كان حريصاً على أن تدرج هذه المسألة خلال الاجتماع التالي مع مجلس الأمن القومي لقرضاي: «إنه جرح نازف بالنسبة لي. قم بتحذيرهم. فإذا وضعوا ملحاً عليه فسوف أشعر بالغضب».

أطلق التقرير الأفغاني الذي كان يطلب مئة مليون دولار أميركي كتعويض أضرار في الممتلكات موجة محدودة في عالم التدوين. فجوشوا فوست، وهو باحث في برنامج الأمن الأميركي وكاتب عمود في بي بي أس وكان قد عمل سابقاً في بيئة الاستخبارات، أعاد النظر بقرار فلين في تشرين الأول/أكتوبر[2] لتدمير تاروك كولاتش وتسويتها بالأرض في مدوّنة بعنوان «الرعب الذي لا يُغتفر لتدمير قرية». وقد استعرض الخبر غير الدقيق في «ديلي ميل» Daily Mail[3]

(١) General David H. Petraeus, morning stand-up briefing, January 12, 2011.

(٢) Joshua Foust, "The Unforgivable Horror of Village Razing," Registan.net, January 13, 2011, www.registan.net/index.php/2011/01/13/the-unforgivable-horror-of-village-razing.

(٣) Pendlebury and Wiseman, "Dicing Death."

مقتبساً عن فلين قوله للقرويين في خوسرو السفلى بأنهم إن لم يخبروه عن المكان الذي دُفِنت فيه العبوات الناسفة، فسوف يمحو القرية عن وجه الأرض. وقد اعتبر أن تفجير القرى[1] في ولاية قندهار كوسيلة لتخليصهم من العبوات الناسفة والمتفجرات المنزلية الصنع يخالف المادة ٣٣ من اتفاقية جنيف. وشكّك فوست فيما إذا كان فلين يتحايل على مراقبة وزارة الداخلية الأفغانية من خلال اختياره عناصر فصيلة الشرطة الأفغانية المحلية وحده في تشاركولبا العليا. كما تساءل عما إذا كان على فلين والقادة الأميركيين الآخرين أن يُشركوا العقيد الأفغاني عبد الرازق خلال تطهير خوسرو السفلى وقرىً أخرى في مطلع شهر تشرين الأول/ أكتوبر. من خلال دعم مجرمي الحرب أمثال عبد الرازق، كتب إيكنز في قصة هاربر: «لقد أصبحت إيساف، في أذهان الكثير من الأفغان، مرتبطة بإجرامها وسوء معاملتها. نحن نقوم بعمل طالبان بالنيابة عنها[2]، كما ذكر مسؤول دولي ذو خبرة طويلة في مكافحة المخدّرات هنا».

غير أن فلين لم يكن ينوي تدمير القرى بالقنابل والصواريخ، خاصة تلك التي أصبح على علاقة متينة مع سكانها. لكن في حالة تاروك كولاتش وخوسرو السفلى، فقد كان تدمير القرى حقاً هو الوسيلة الوحيدة الآمنة لنزع العبوات الناسفة المخفية التي لا تُعد ولا تُحصى، والتي أرهبت السكان وكان يمكن أن تؤذي أي قوات تحاول نزعها. كما أشار فلين أيضاً إلى أنه، على قدر ما كانت فصيلة الشرطة الأفغانية المحلية في تشاركولبا العليا قلقة، كان يتم التحري عن العناصر من خلال وزارة الداخلية، وكان عليهم أن يتسلّموا أسلحة أيضاً. بالإضافة إلى ذلك، فقد أشار إلى أن «المزارعين بدأوا يعودون إلى حقولهم بالمئات بعد عملية التطهير، مقارنة بالذين يعدون على الأصابع يوم كانت تاروك كولاتش

---

(١) Joshua Foust, "The Battalion Commander Debates the Blogger (II): Foust Responds to Flynn," Tom Ricks, *The Best Defense* blog, January 21, 2001, http://ricks.foreignpolicy.com/posts/2011/01/21/the_battalion_commander_debates_the_blogger_ii_foust_responds_to_flynn.

(٢) Aikins, "The Master of Spin Boldak."

ملاذاً لطالبان. وتوظيفنا السكان المحليين بطريقة «النقود مقابل العمل» وصل للمئات، بدءاً من الصفر. كما أن الحضور في مجالس الشورى على صعيد القرى هو في تزايد مطرد. بانتهاء فصل الشتاء كان المسجد في تاروك كولاتش قد شارف على الانتهاء بالإضافة إلى خمسة عشر بيتاً قيد الإنشاء في القرية. كانت أعمال ترميم المسجد في خوسرو السفلى قد شارفت على الانتهاء، وأُنجِز حوالى ثمانين بالمئة من بناء مسجد جديد في تشاركولبا العليا، حيث كانت تتابع وحدة الشرطة الأفغانية المحلية تدريباتها.

لكن بالرغم من كل التقدم، كان بإمكان أفغانستان أن تخيّب ظنّ أي قائد عندما يستبعد هذا الأمر كلياً. ففي الوقت الذي كان فيه فلين غارقاً في إنجاز معاملات مكتبه عشية يوم ٢١ كانون الثاني/يناير، رنّ هاتفه. كان المتصل هو أكمل، مترجمه الأفغاني: «سيدي، أحمل بعض الأخبار السيئة. لقد تلقيت لتوّي اتصالاً من ابن أخي كريم داد، وقد أبلغني أن كريم داد قد توفي»، كما ذكر أكمل. «قام أحدهم بقتله أمام منزله منذ ثلاثين دقيقة». أحسّ فلين بالأسى لكنه لم يكن متفاجئاً. فكريم داد، مالك قرية خوسرو السفلى، أخبر فلين مرات عدة بأن طالبان كانت تهدّده. بعد أن أجبر فلين على وقف الغارات الجوية على خوسرو السفلى، سوّى خلالها نصف القرية المهجورة بالأرض، أصبحت علاقته مع كريم داد أمتن. وقد استذكر حديثاً دار بينهما خارج قريته حيث أخبره كريم داد: «هناك أشخاص يحاولون قتلي، لكن لا يهمني. فأنا لست خائفاً منهم وسأستمر بالعمل معكم لإصلاح قريتنا». وقد ذكر كريم داد أن طالبان كانت قد انتقلت إلى القرية قبل بضع سنوات وحوّلتها إلى قاعدة لعملياتها. وقد كان سعيداً لرؤيته طالبان تُطرَد من قريته.

في اليوم التالي ذهب فلين ليقابل نياز محمد، رئيس شرطة المقاطعة، في مكتبه. فدعاه نياز لشرب كأس من الشاي والمناقشة بشأن فصيلة الشرطة الأفغانية المحلية التي يتم تأسيسها في قرية لوي مناره. أخبر نياز فلين مرات عدة بأنه كان قلقاً من أن يُقتل أخوه عيسى، وقد اعتقد بأن عيسى كان مستهتراً جداً حين ذهب

لزيارة المنطقة والقرية. واستحضر فلين قتل كريم داد. «كان كريم داد واحداً من أبناء عمنا، ونحن جميعاً في غاية الأسى اليوم»، كما ذكر نياز محمد. «أنا أعلم من الذي قام بذلك وأحتاج لمساعدتك في إيجاد القاتل. يجب أن يُقتل. ليس هناك أي طريقة أخرى للتعاطي مع هؤلاء الأشخاص». أخبر فلين نياز بأنه يمنحه دعمه الكامل، على الرغم من أن فلين كان يفضل الاعتقال من دون شك. «بمجرد أن نعتقله، عليه أن يُحال إلى المحاكمة»، على حد قول فلين. وكان واضحاً أن نياز لم يكن مهتماً بالاعتقال.

اختصر نياز حديثه مع فلين وقال بأنه ومعاونيه كانوا كلهم متوجهين إلى جيلاور للمشاركة في مأتم كريم داد. اعتبر فلين كريم داد صديقاً وشعر بأنه مسؤول عن مقتله جزئياً. فسأل نياز: «هل تعتقد أن مشاركتي في المأتم ستكون أمراً جيداً أم سيئاً؟».

فأجاب: «أعتقد أنه سيكون جيداً. بإمكانك اللحاق بنا والذهاب معي». لم يكن قد سبق لفلين أن حضر مأتماً أفغانياً وكان قلقاً حيال الحساسيات الثقافية التي ترتبط بمشاركته. فنزع فلين درعه كاملاً وخوذته وذخيرته وأبقى فقط على مسدسه تحت قميصه. فقد أراد حضوره أن يكون مموّهاً قدر الإمكان.

أُقيم المأتم خارجاً في الصحراء، على بعد ميل تقريباً شمال حدائق خوسرو السفلى، بين جيلاور ودوري. كان هناك المئات من الأشخاص يموجون. وكانت القبور مُعَلَّمة بأكوام من الحجارة، تتدلى من بعضها شرائط مزركشة معلقة على أغصان أشجار مغروسة بالأرض إلى جانبها. كان جثمان كريم داد مسجًّىً على سرير من القش بجانب قبره المفتوح. وتم إنزاله إلى القبر، وشرع الأفغان بإهالة التراب على جسده. أخبر أكمل فلين بأنه لم يكن يعتقد أن مشاركته ستكون فكرة سديدة، لذا فقد جلس فلين وشاهد، وكان يريد أن يعبّر عن احترامه بطريقة ما، أكثر من مجرد اكتفائه بالحضور.

كانت خسارة كريم داد ضربة قوية لمساعي فلين في إعادة إعمار خوسرو السفلى وقرى أخرى في المقاطعة. إنْ كانت طالبان قد قتلت كريم داد، فقد

تخوَّف فلين من أن يكون في خضم حملةٍ إرهابيةٍ ضد كل قادة الحكومة في المنطقة، ما يُنذر بالقتال القادم في الربيع. لا يمكن سوى للوقت أن يخبر بذلك.

في حين بقيت توب غانز التابعة لفلين استعداداً لموسم القتال في الربيع في أرغنداب، كانت آيرون راكاسانز التابعة للمقدم ديفيد فايفكوت قد بدأت بالعودة إلى الديار في كنتاكي، فقد انتهى القتال عندهم. وقد بقي فايفكوت في أفغانستان، بانتظار تسليم مقاطعتَي أندر وديه ياك في ولاية غزني الشرقية للكتيبة الثانية، لواء المشاة الثاني. كان خطابه لتغيير القيادة في ٨ شباط/فبراير بالكاد إعلاناً للنصر. «لقد كان امتيازاً فريداً بالنسبة لي أن أقود آيرون راكاسانز هنا في أندر وديه ياك على مدى الأشهر السبعة الأخيرة خلال سعينا لتحسين الوضع الأمني، وإقامة صداقات مع شركائنا من الأفغان والائتلاف وهزم المتمردين. لقد كان صراعاً شرساً، لكنني أؤمن بأن فريق العمل وشركاءنا من الأفغان وإيساف قد شكّلا فارقاً في حياة سكان غزني الشرقية».

صبّت الأرقام المجموعة من آيرون راكاسانز في مكان واحد: ألف وستمئة دورية، سبع غارات جوية، مئة متمرد قُتِلوا أو وقعوا في الأسر، تم اكتشاف ثلاثة وثلاثين مخبأ أسلحة وتدميرها. وقدم رجاله خدمات حكومية أساسية كإصلاح الأخاديد وفتح المدارس. لكن بيانات التصويت المجموعة من الحكومة الأفغانية في ولاية غزني أخبرت قصة مختلفة واقترحت مقارنة في أفضل الأحوال: ٤٨ بالمئة من أولئك الذين يعيشون في الولاية كانوا يؤمنون بأن القوات الأجنبية لا تساعد السكان، و٢٨ بالمئة يعتقدون بأنهم يفتقرون إلى الكفاءة، و١١ بالمئة آخرون يعتقدون بأن القوات الأجنبية لا تحقق السلام، خصوصاً في المناطق غير الآمنة، التي تبلورت في اثني عشر مقاطعةً من المقاطعات الثماني عشرة في الولاية. كان قرابة الربع من سكان غزني يؤيدون طالبان، وهي نسبة تأتي فقط بعد قندهار وهلمند ونورستان. أما في مقاطعة ديه ياك، حيث كان فايفكوت قد تجوّل في أيلول/سبتمبر في موكب آليات مصفحة، فكان ٤٠ بالمئة يصدّقون ما كانت تقوله طالبان. في لحظة معينة، وخلال عملية تطهير في بلدة باشي، اكتشفت قواته

نموذج ميدان دقيق لقاعدة العمليات المتقدمة في أندر، حيث مقره الرئيسي. لقد أزعجه التفكير بأن الأفغان العاملين في القاعدة يمكن أن يكونوا جواسيس لطالبان.

كانت غزني في الإقليم الشرقي المهمل، الثالثة من حيث الأولوية لناحية الموارد بعد هلمند وقندهار. أجبر الانتقال من باكتيكا إلى غزني رجال فايفكوت على البدء مجدّداً من منتصف الطريق خلال جولتهم، ما صعَّب الأمور لتطوير الموارد المحلية والإحاطة بكل ما يجري. كان فريق عمل فايفكوت أيضاً بقيادة لواء بولندي في غزني ولم تكن لديه العوامل المساعدة الموجودة لدى لواء أميركي، وبالتالي واجه أوقاتاً حرجة أثناء تنفيذ بعض تكتيكات مكافحة التمرّد المحبّذة لدى بتريوس. كان بإمكان البولونيين المناورة وتنسيق المدفعية والأسلحة الخفيفة والدعم الجوي، لكنهم كانوا يفتقرون إلى قدرات موظفين عالية وجمع معلومات استخباراتية والتدريب التحليلي. بالإضافة إلى ذلك، فإن قدرة التطوّر وإدارة البناء وقدرات المقاولات عندهم كانت بحكم المعدومة، وفقاً لأولئك في فريق إعادة الإعمار على صعيد الولاية في المنطقة. لكن فايفكوت أدرك الأهمية التي أولاها بتريوس لوجود حلفاء الناتو في أرض المعركة، كما أن البولونيين وجميع الحلفاء كانوا يتحسّنون بثبات طوال الطريق، وهو مكسب لحرب الائتلاف. ومهما كانت قيود البولونيين التنظيمية كمكافحين للتمرّد، فإن روحهم وحقيقة أنهم والآلاف غيرهم من قوات الناتو الأخرى كانوا يقاتلون جنباً إلى جنب مع الأميركيين والأفغان أضفى شرعية استراتيجية على قضيتهم، التي كانت دقيقة، نظراً للصورة التي كوّنها معظم باقي العالم عن أميركا بعد سنوات من حروبها مع العراق وأفغانستان.

في كل الأحوال كان فايفكوت يملك خبرة كافية في مكافحة التمرد ـ في العراق وأفغانستان على السواء ـ لأخذ المبادرة. كان بحاجة للاستخبارات، وقد حالفه الحظ مع شريك أفغاني متعاون في مديرية الأمن القومي. كما كان عنده رفيقة صف من الأكاديمية العسكرية الأميركية صادف أنها ضابط المخابرات

الرئيسي في القيادة الإقليمية الشرقية لكامبل، وقد حرصت على توفير موارد الاستخبارات الاضافية والتحليل. فهم أن التكتيكات كانت تصب كلها في حماية الشعب، الذين كان بإمكانه أن يؤثر في حياتهم من خلال المشاريع الإنمائية والرعاية الصحية والأمن. وحتى في ظل الاحتكاك اليومي مع القرويين والتقارير الاستخباراتية من رفيقة صفه وإيحاءات الاستجوابات والوثائق والصور المصادَرة، فقد بقيت شبكة العدو ومصادر تمويله غامضة.

في مقالة لمجلة إنفانتري Infantry، كتب فايفكوت ونقباؤه الثلاثة بأنهم واجهوا «عدواً شرساً ومصمّماً في ولاية غزني» كان قد هاجم راكاسانز ٤٢٠ مرة، أو بمعدل ٢,٣ مداهمة في اليوم. وفي تشرين الثاني/نوفمبر، بدأ فايفكوت باستعمال نظام تحري تهديد محدق ـ منطاد مراقبة صغير ـ في قتاله ضد طالبان. نظراً لتجهيزه بكاميرا فيديو ومجسات أشعة فوق الحمراء، يمكن للمنطاد المعبأ بالهيليوم أن يوفر أربعاً وعشرين ساعة مراقبة للمتمردين لمدى اثني عشر ميلاً. بمواجهة عدو كان لا يزال يستخدم رشاشات إيه كيه ٤٧، وكان يملك القدرة أيضاً لطلب طائرات إم كيو-١ بريداتور محملة بصواريخ إيه جي أم-١١٤ هيلفاير، ومقاتلات أف-١٦ محملة بقنابل تزن ٥٠٠ رطل يمكنها أن تزلزل قرية بأسرها. في مقالة إنفانتري، يصف فايفكوت عملية آيرون بليد ٢، بأنها هجوم على ثلاثة مسلحين في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر. مستخدماً المراقبة من إم كيو-١ بريداتور والمنطاد معاً، دفع فايفكوت متمردَين إلى العراء وقتلهما بخمسمئة رطل من القنابل ألقتها طائرتا أف-١٦. وأُجبِر متمرّد ثالث على دراجة نارية بالخروج إلى منطقة مكشوفة وقُتِل بصاروخ إيه جي أم-١١٤ هيلفاير.

لم تكن مساعيه تهدأ أبداً، وكان واحداً من أعلى قادة الكتائب تقويماً على الساحة. وعلى الرغم من كل المساعي، بقيت غزني منطقة صعبة حيث كانت طالبان تتحصّن بشدة. كانت مهمة فايفكوت تقضي بحماية الناس حيث يمكن للحكم الشرعي أن يتطور في أقضيتهم ويقوم بفض النزاعات المحلية ورعاية المرضى وتشغيل المدارس لأطفالهم. كان ذلك طلباً صعباً للغاية في غزني من

خارج رأسمالها في تلك المرحلة، ولم يكن هناك ما يكفي من الجنود لدعم عمليات مكافحة التمرد لحماية السكان، لذا فقد أصبحت مهمة فايفكوت بأن يطور الوضع. وقد طُلِب منه أن ينشئ قواعد عمليات وحواجز تفتيش، والتواصل مع السكان المحليين قدر الإمكان ووضع خارطة لوضع العدو كي يتمكّن خَلَـفه من متابعة المهمة. إذا كانت الوحدة القادمة لتحل محل آيرون راكاسانز، الكتيبة الثانية، لواء المشاة الثاني، بنفس الكفاءة، فسيحتاجون سنة أخرى لترسيخ الاستقرار في أندر وديه ياك، إذا لم تختَر طالبان أن تعزز موقعها. عندها فقط يمكن أن يتوقع الائتلاف تقدماً فعلياً وراسخاً في الحكم ومساعي التنمية. والحقيقة كانت أن عودة طالبان إلى غزني كانت حتمية على الأرجح. فمع بدء سحب القوات وأمام القيود على الموارد في الشرق، فلن يكون هناك أبداً ما يكفي من الجنود الأميركيين أو من الناتو في المنطقة لكسب السكان المحليين بالحكم الجيد والطرقات اللائقة والمدارس الجيدة. في أعماق قلبه، كان فايفكوت يشعر أن وحدته، بالفعل، قد مارست ضغطاً على المتمردين في المنطقة، وكان يأمل بأن تتمكن وحدة خَلَـفه من متابعة تمدّد الفقاعة الأمنية في أنحاء غزني وعلى طول الطريق الدائري السريع. لكنه نقل في وقت لاحق، أن «مكافحة التمرد تتطلب عملية طويلة الأمد ومدة ستة أشهر قصيرة للغاية لإقناع السكان بأن الحكومة تشكل أفضل حظوظ على المدى الطويل لمستقبل أندر وديه ياك».

آمن بتريوس بمكافحة التمرد، وآمن بشكل أعمق بديفيد بتريوس، الرجل الذي رآه يتجاوز أصعب التحديات على أرض المعركة. لكن لم يكن بإمكان بتريوس أن يوجد في كل مكان، ولم يكن بمقدور أميركا أن تضع ما يكفي من الجنود على الأرض في كل الأماكن في أفغانستان بحيث أنه، وفي ظل العدد الكافي والوقت الكافي، كان يمكن أن يقوموا بعمل جيد. كان فايفكوت فخوراً جداً براكاسانز لنقل القتال إلى طالبان. لكنه وجد أن خسائر الكتيبة ـ ثلاثة قتلى و١٢٥ جريحاً ـ عبء ثقيل على كاهله. كان يظن بأنه حاضرٌ ذهنياً لتحمّل هذا العبء، لكن تبين أن هذا كان أصعب ممّا تصوره ووافق معظم نظرائه على هذا

أيضاً. وقد كان محبطاً أيضاً لأن غزو ٢٠١١ في أفغانستان لم يكن قادراً على تحقيق ما رآه يتحقق في العراق خلال غزو ٢٠٠٧ و٢٠٠٨. ولأنه كان جزءاً من حملة مكافحة تمرد ناجحة هناك، فقد استصعب مغادرة أفغانستان ولم يزل هناك الكثير من العمل للقيام به. من خلال استعراض الأحداث، كان قطع دابر التمرّد في غزني سيتطلب المزيد من العمليات القتالية، لقتل ما يكفي من المتمرّدين وإقناع الآخرين بالعمل على الانصهار، مع الأثر المتزايد الكافي لخلق توازن قوى، ربما يترافق أيضاً مع نوع من الاتفاق السياسي. كما لاحظ بتريوس معظم الأحيان، لم تكن أفغانستان «لتنقلب» على طريقة العراق خلال الغزو هناك؛ فقد كانت الظروف مختلفة، وكان الإصرار ضرورياً.

في الوقت الذي تهيَّأ فيه ليطير عائداً إلى عائلته في فورت كامبل، أرسل فايفكوت مذكرة مغادرة لبتريوس مع بعض الأفكار حول قيادته لكتيبة بتريوس القديمة وتجربته الأفغانية. هنَّأه بتريوس ومن ثم حذَّره من مغبة إهمالها بالكامل. «توقع أن تعود إلى هنا بعد بضع سنوات كقائد لواء»، كما كتب بتريوس.

قرأ فايفكوت رسالة البريد الإلكتروني من اللواء على حاسوبه المحمول، واكتفى بالتحديق إلى الشاشة.

الفصل السابع

خيوط العملية

في صبيحة أحد الأيام الباردة منتصف كانون الثاني/يناير، كان العميد مارك مارتنز يستلقي في المنطقة الداخلية من الخشب الصلب المصقول لطائرة غلف ستريم V التي تدعم مسرح العمليات وشرع بنقل أعمال قاعدته حول القوة الميدانية للقانون إلى اللواء سيد عبد الغفار سيد زاده، رئيس دائرة مكافحة الإرهاب التابع لوزارة الداخلية الأفغانية. كان يسافر هو وسيد زاده من كابول إلى قندهار لرؤية مركز تشيل زينا للتحقيق الجنائي، المجاور لسجن ساربوسا، وهو الأول من بين خمس «مناطق خضراء» إقليمية مصمّمة للقانون والعدالة في أفغانستان. ذكر مارتنز للسيد زاده بأنه كان هناك مئة وعشر عمليات اغتيال في قندهار خلال العام الماضي. وكان مدعي عام المدينة، جالات خان، يسعى جاهداً لتدبُّر حمل القضايا، كما ذكر مارتنز، لكنه كان مرتبكاً وبحاجة للمساعدة. كان سيد زاده مُصغياً باهتمام.

اجتمع شمل بتريوس ومارتنز في أفغانستان عقب وصول بتريوس إلى كابول بمدة قصيرة. وقد وفَّر قائد الحرب الجديد عملاً لمحاميه المفضل لإدارة ما أصبح يعرف بالقوة الميدانية لسيادة القانون التي تقودها أميركا وأفغانستان. طلب بتريوس من مارتنز وضع استراتيجية للحصول على تأييد كل دول الائتلاف التسع وأربعين إنشاء نظام عدالة عصري وفاعل. تذكّر بتريوس كم كان إيجاد «مناطق خضراء للقوة الميدانية لسيادة القانون» حرِجاً في العراق (وهو مسعى كان بقيادة

مارتنز أيضاً)، واعتبر أنها لا تقل أهمية في أفغانستان. وبشكل لافت، كان التطبيق الأفغاني يختلف في جوانب معينة عن مساعي القوة المتعددة الجنسيات ـ سيادة القانون العراقي. استمر مارتنز باستعمال فكرة المنطقة الخضراء، لكن المساعي في أفغانستان كانت مبنية أيضاً على فكرة أنه ليس باستطاعة الحكومة الأفغانية أن تنافس في تقديم خدمات فض الخلافات والعدالة إلى السكان ما دامت تفتقر إلى الحد الأدنى من شبكة قادرة على القيام بذلك. قام مارتنز بتعزيز دائرة أفغانية تقليدية تجمع وظائف ما بين مستوى الوطن والولاية والمقاطعة في الحكم. وكانت النتيجة نموذجاً «يتمحور حوله الحديث» مؤكداً على مساعدة الأفغان بينما كانوا يعزّزون المؤسسات القانونية الرئيسية في مراكز الولايات ومن ثم قدّموا فض الخلافات والقدرة على الحكم في المقاطعات المحيطة.

لم يتردّد بتريوس بتاتاً عندما حان موعد تسليم مارتنز، وهو محام عسكري، قيادة مئات من الجنود الأميركيين المقاتلين والخبراء القانونيين لدعم مبادرته لسيادة القانون. إن كان مارتنز سيقوم بإنشاء محكمة فاعلة في وادي نهر أرغنداب، فقد كان بحاجة للجنود لحمايتها وحماية أولئك الذين يحرسونها، هناك وفي كل أنحاء البلد. كانت تلك استراتيجية أناكوندا لبتريوس أثناء العمل: قاتل فلين وتوب غانز طالبان في ميدان المعركة، وحارب مارتنز وقضاته ومدّعوه العامّون الأفغان في الولايات المتمردين في المحاكم. كان مارتنز حساساً تجاه المخاوف بأنه كان «يُعسكر» القضاء الجنائي، لكنه اعتقد هو وبتريوس أنه كان هناك نقص في القدرة المدنية الكافية للبدء بهذه الخطوة من مسعى التطهير والسيطرة والبناء. قام السيناتور غراهام، وهو محام عسكري في احتياطي سلاح الجو، بالتصفيق لقيادة مارتنز للجنود المقاتلين، التي كانت برأيه «غير مسبوقة في تاريخ القانون العسكري».

في وقت سابق في تشرين الثاني/نوفمبر، قدم مارتنز التماساً مماثلاً لنور اللّه سادات، مدعي عام الأمن القومي في حكومة قرضاي في كابول، طالباً منه أن يعين ثلاثة مرؤوسين لمتابعة المحاكم التي كان يؤسسها في سبين بولداك

ومقاطعتين أخريين تم تطهيرهما مؤخراً حول قندهار: ذري ووادي نهر أرغنداب. كان مارتنز يملك دعماً من قادة أميركيين أمثال فلين في تلك المناطق، وأموالاً لضخ الرواتب من مكتب العلاقات الدولية للمخدرات وترسيخ القانون التابع لوزارة الخارجية الأميركية. لكن ما يحتاجه كان محامين متدربين لتعيينهم مدربين ومستشارين لنظرائهم الأفغان قبل إنشاء المحاكم ـ وسط شركاء أفغان إضافيين.

بعد أن هبط مارتنز وسيد زاده في قندهار، أخذ مارتنز المسؤول الأفغاني في جولة في مجمع تشيل زينا. كان تشيل زينا، الذي تم بناء معظمه بتمويل أميركي، مصمماً كمنشأة آمنة حيث يمكن للمحقّقين والمدّعين العامين والكتبة القيام بالأعمال القانونية والتحقيقات الضرورية للإجراءات الجنائية المبنية على أدلة. وعلى الرغم من الاستثمار بمعدات جديدة، فقد كانت المنشأة لا تزال تبدو مزعزعة. فالكثير من السجناء حفاة، وقد جلسوا في باحة مفتوحة، وهي منطقة مفتوحة واحدة تأوي مجرمين متهمين بجرائم صغيرة. وفي منطقة منفصلة وأقل استيعاباً، جلست بضع سجينات إناث يتحادثن بينما كان أطفالهن يلعبن حولهن. وكان هناك منطقة احتجاز أخيرة تأوي السجناء المتشددين، معظمهم من المتمردين.

مشى مارتنز وسيد زاده على سطح سجن ساربوسا، وهو جزء من مجمع تشيل زينا. إنه سجن سيئ السمعة بسبب هروب أكثر من أربعمئة مقاتل من طالبان عام ٢٠٠٨. بعدما شرح مارتنز تصميم المجمع، ذهبوا إلى قاعة اجتماعات للاجتماع بمستشارين من مكتب التحقيقات الفيدرالي ووزارة الخارجية، وضباط شرطة عسكرية وشرطة أفغانية ومسؤولي ادعاء عام، بمن فيهم الرئيس جالات خان.

كان خان متوسط الحجم، بلحية غزا بعضها الشيب، ورجلاً مفعماً بالحيوية تزينه ابتسامة عريضة. كان ممتناً للمساعدة الدولية ويرغب بمناقشة قضية رفيع اللّه، وقد كانت تحظى باهتمام بالغ من مارتنز. «سلم رفيع اللّه نفسه بعدما أدرك أننا نتقفّى أثره، لكنه كان مخادِعاً حِيال هويته»، كما شرح مارتنز بواسطة مترجم. «لقد استجوبناه بعناية وقمنا ببحث متابعة لإيجاد اسمه الحقيقي. كان متهماً

بالقتل والابتزاز». غير أن سجلات أخرى، كانت تؤشر إلى أنه كان متورطاً بدعم المتمردين، وقد كانت صلته بالمجموعات التنظيمية المسلحة التي تسعى لإسقاط الحكومة التي سمحت بالتحري عنه كونه يشكل تهديداً للأمن القومي ومحاكمته تحت فصل مستقل من قانون الجنايات الأفغاني.

«هل أجريتم مسحاً كاملاً لمقاييسه الحيوية بواسطة أدوات الفحص التحضيرية؟» سأل مارتنز مستعلماً، وأجاب أحد الأفغان: «نعم، لقد قام مسجلو بيانات مدربون بذلك مؤخراً. عليك مراجعة قاعدة بيانات الائتلاف لترى ما إذا كان لدينا أي مطبوعات مخبأة». فقد بدأت وزارة الداخلية الأفغانية خلال العام الماضي توزيع أدوات الفحص التحضيرية، التي كانت تمسح بصمات الأصابع إلكترونياً، وتسجل بصمة العين وتصور مظهر الوجه على حاسوب محمول. كان مارتنز قد ضغط ليحصل على المعدات والتدريب الضروري لقندهار ومناطق أخرى تم تطهيرها مؤخراً من طالبان. وكانت أدوات الفحص التحضيرية شبيهة جداً بمجموعة أدوات المقاييس الحيوية المبرمجة على الحاسوب المحمول وأنظمة المعدات اليدوية المتعدّدة الوكالات لكشف هوية التابعين للجيش الأميركي. كانت سجلات المقاييس الحيوية للمجرمين المشتبه بهم والمنتسبين إلى قوى الأمن والوظائف الحكومية والسجناء وسكان خطرين آخرين عاملاً مساعداً ضرورياً لمسعى سيادة القانون. ولما كانت عشرات الآلاف من البصمات المُحتمَلة قد رُفعت عن أسطح شظايا العبوات الناسفة المنفجرة ومن أسلحة تم العثور عليها في مخابئ طالبان، فقد كان يصار إلى الربط أكثر فأكثر بين الأفغان المسجّلين حديثاً وقاعدة بيانات البصمات المُحتمَلة.

كانت تلك الأنظمة خطوة مهمة تجاه خلق هويات للصديق وللعدو، مفوّتة على المتمردين فرصة التخفّي الذي اعتمدوا عليه. وقد أُجري المسح لكل المسؤولين الأفغان في الشرطة والجيش مع السجناء؛ وغالباً من كان يُجرى المسح حتى للأعداء الذين يُقتلون في المعركة لمقارنته مع لوائح أهداف. وعند تلك النقطة، كان حوالى مليون أفغاني قد سُجّلوا في البرنامج ، من أصل عدد السكان الذكور

الذين هم بسن التجنيد والذي يُقدّر بسبعة ملايين، وكانت الحكومة الأفغانية تعمل على بطاقات هوية تعتمد على المقاييس الحيوية لزيادة هذه الأعداد. كان هناك حاجة لكثير من طلبات التسجيل الجديدة حيث يصبح بإمكان أفغانستان ضبط حدودها بشكل أكثر فاعلية، ومحاصرة المتمرّدين والمجرمين والحدّ من الفساد في كل شيء، من الانتخابات إلى طلبات الانتساب لعمل. هنا، حتى ولو لم يظهر فحص قاعدة البيانات أن ثمة صلةً معَ البصمات المرفوعة عن أجزاء العبوة، كان يمكن لجالات خان أن يستفيد حكماً من الحصول على معلومات المقاييس الحيوية لرفيع اللّه على ملف. فقد كان هناك أربعة يسمون «رفيع اللّه» في نظارة شرطة قندهار، وكانوا كلهم يستخدمون أسماء مستعارة.

أثناء الجلوس على الطاولة المستطيلة في غرفة الاجتماعات، وهو جزء من البناء الأول المنجز في مركز التحقيقات الجنائية، استحثَّ مارتنز أحد عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي الذي جاء على جناح السرعة مؤخراً إلى قندهار لتقديم الدعم الفني. «كيف يمكنك أن تثبت اعترافات رفيع اللّه الجزئية للإدانة، يا جالات؟» سأل العميل. كان جمع الأدلة يشكل تحدّياً كبيراً للمحقّقين الأفغان، الذين قلّما استطاعوا الوصول إلى مسرح الجريمة. أجاب جالات، «نحن بحاجة لفحص خلفية أكثر شمولاً. على بعض المحقّقين الشجعان هنا أن يزوروا الأماكن التي يقول شهود فيها أن رفيع اللّه ارتكب جرائمه. علينا أن نكرّر مقابلة هؤلاء وشهود آخرون. ومن ثم علينا أن نكرّر مقابلة رفيع اللّه». وقد أصبح هذا النوع من الأهمية المعطاة لقضية ممكناً الآن، نظراً للوضع الأمني المتحسن والتدريب والمنشآت التي تم تكريسها للتحقيق.

قاطعه اللواء سيد زاده بلغة الباشتو: «حضرة المدعي العام خان، هذه قضيتك، لكنني أحبّذ إجراء تحقيق جديد، لأن المحقّقين الذين جمعوا الملف الذي بحوزتك يمكن أن يكونوا فاسدين أو تنقصهم الكفاءة. فالعناية المعطاة لاختيار المحققين هنا وتدريبهم لم تكن موجودة مع ذلك الفريق. أقترح أن تقوم بكل تلك الأمور مع الفريق الذي يخضع للفحص الحديث المتوفر لديك هنا، وأنا

ألتزم بدعمي. وإن كان رفيع اللّه مرتبطاً بكويتا [مركز المقر الرئيسي لطالبان في باكستان]، فهذه قضية مهمة جداً».

«أنتم جميعكم خبراء»، كما عبر مارتنز، على جري العرف العسكري بالتوجيه الخالي من النصيحة الفنية المباشرة حول أمور قانونية، «لكن من خلال ما شاهدته، فحتى قضية واعدة يمكنها أن تسقط أمام قاضٍ أفغاني إذا ما عاد المتهم عن اعترافه، لذلك نرجوكم أن تخبرونا كيف يمكن للائتلاف أن يساعدكم على بناء قضية متينة. «فعلى سبيل المثال، هل بإمكان مستشاري برنامج إدارة القضايا قضاء الوقت الكافي معكم ومع المحققين، حضرة المدعي العام خان؟».

قدم المتبرعون الدوليون هبة كبيرة للحكومة الأفغانية لإيجاد عملية موحدة لإدارة القضايا الجنائية. وقد وقع أعضاء الحكومة الأفغانية السبعة مذكرة تفاهم، التزموا بموجبها وضع مؤسساتهم بتصرف برنامج الإدارة الجديد واستعمال نماذج محددة لتسجيل إدارة بيانات ملف القضايا بشفافية أكثر. كان التنفيذ لا يزال في مراحل مبكرة، من جهة أخرى، وكانت إحدى المشكلات في الأماكن الغارقة بالعنف مثل قندهار تكمن في توظيف عمال المقاول بواسطة المتبرعين الدوليين في الخارج والذين هم في موقع يخوّلهم مساعدة الأفغان على النهوض بهذا النظام الجديد. عرف مارتنز وجالات خان إدارة الملفات بشكل أفضل يمكن أن يساعد المسؤولين الأفغان كثيراً في تحديد ما إذا أعضاء آخرون من شبكة رفيع اللّه كانوا بالفعل قيد الاحتجاز. كما يمكن لشفافية النظام وتناغمه أن يقلّصا من فرص الرشاوى والضغوط غير القانونية حين تشق قضية رفيع اللّه طريقها باتجاه المحاكمة. يمكن للنظام الجديد أن يحدَّ من التأخير في معاملة القضية والمتجذّر من نظام الأرشيف البالي وغير الفاعل. سنداً للقانون الأفغاني، أشار جالات خان إلى وجوب محاكمة رفيع اللّه خلال مهلة شهر من اعتقاله كحد أقصى.

وتابع مارتنز: «في هذه الأثناء، حضرة المدعي العام خان، يجب إقامة المسكن الآمن لك وللمحقّقين الجنائيين هنا في تشيل زينا بحلول الشهر القادم. سوف تحتاج إلى الحماية». وتكلم سيد زاده قائلاً: «وأنا تحدّثت مع قائد شرطة

قندهار عبر الهاتف هذا الصباح، وهو جاهز لإعطاء المستثمرين الشاحنات التي يحتاجونها لزيارة مواقع الجريمة بأمان». واستمر الحوار طيلة ما بعد الظهيرة.

كان واضحاً أنه لا يزال هناك الكثير من العمل للقيام به في القوة الميدانية لسيادة القانون. كان مارتنز ضابطاً مندفعاً، يقضي معظم وقته مع البريد الإلكتروني حتى الثالثة فجراً، ثم يهرول مسافة ستة أميال أو يتجوّل في ميدان المعركة بعد الساعة ٦:٠٠ صباحاً. وعلى غرار بتريوس، الذي كان يعتبره مستشاراً، قاد المهمة في بعض الأحيان من خلال شخصية مطلقة. فما كان بحاجة إليه هو فريق مستشارين كبير لسيادة القانون وموظفو دعم للفوز فعلاً بعامل الجذب المطلوب لتمكين الأفغان من تسلّم زمام الأمور في نظام عدالتهم الخاص.

في ظل تشديد مارتنز على كيفية محاكمة المجرمين في أفغانستان ومقاضاتهم، عمل العميد هـ. ر. مكماستر على كيفية تحديد هويتهم، ومنعهم من نهْب البلد. وفي مساء أحد الأيام في كانون الثاني/يناير، دخل مكتب بتريوس يحمل ملفاً مليئاً بعروض باور بوينت كان يطوّره لتقديم ملخّص للرئيس قرضاي حول عمله لمحاربة الفساد. كان مكماستر مفعماً بالشدة أثناء تقديمه موجزاً لبتريوس، الذي كان في وسط تناول عشائه في مكتبه. كان بتريوس يكنُّ احتراماً شديداً لمكماستر، الذي، وعلى غرار بتريوس مع الوحدة ١٠١ إيربورن، قام بتوظيف تكتيكات مكافحة التمرد بنجاح شمال العراق قبل تفسيرها في «كتيّب مكافحة التمرّد الميداني» الجديد بوقت طويل. هذا وقد لقي مكماستر، في عمله لمكافحة الفساد مع فريق عمل الشفافية، معارضة من بعض مَنْ هم في وزارة الخارجية وفي كل المهمة الدولية، بسبب إدارة فريق العمل بنفس الصرامة التي استخدمها لقيادة كتيبة الفرسان المدرَّعة الثالثة في العراق. رفع المدنيون بصمت الشكوى نفسها حول بتريوس: لماذا كان رجاله العسكريون يقودون مسعى مكافحة الفساد؟ عمل بتريوس في العالم المدني مثله مثل أي لواء، لكنه عندما كان يريد إنجاز أمر ما ولم يكن هناك القدرة الكافية في مكان آخر، كان خطؤه أن يقوم به مع أولئك الذين يملك أشد الثقة بهم ـ الضباط العسكريين المقربين منه.

«كنت أريد الحصول على توَجيه سريع منك، سيدي، في حال أردت إبداء ملاحظات قبل أن نجتمع مع قرضاي»، على حد قول مكماستر. «كما تعلم، فقد كان صعباً للغاية تطبيق عمل مكافحة الفساد هذا في أماكن مثل المطارات. نحن في سباق للقيام بذلك الآن، وهذا العرض يهدف لتحديث ما نقوم به ونقترح أن يتم التعاطي مع الفساد عند المعابر الحدودية والمطارات. فقد أشار أنه مهتم بهذا. يمكننا استخدامها للتشديد على اهتمامنا المشترك».

إن المطارات، وتحديداً مطار قندهار، قد أصبحت مناطق ساخنة لتهريب المخدرات والبضائع والنقود ومواد أخرى. كان مسؤولو الحكومة ورجال الأعمال النافذون قادرين على حجز رحلات جوية وبحوزتهم حقائب من النقود، من دون توجيه سؤال لهم. وقد نصبت وزارة الأمن الداخلي الأميركية التكنولوجيا المطلوبة لكشف بعض من هذا، لكنّ تمنُّع عملاء الجمارك الأفغان عن تنفيذ إجراءات الكشف أوضح تحديات العمل مع عناصر معيّنة من الحكومة الأفغانية. كما علم مكماستر أن بعض التهريب كان يتم تسهيله برعاية شبكة إجرامية داخل القوة الجوية الأفغانية. في الواقع، كان يكتشف بأن الجزء الأصعب من عمله كان إيقاف المجرمين داخل الحكومة، أفراداً كان يفترض أنه يعمل معهم.

أومأ بتريوس، وهو يبتلع طعامه، برأسه، بينما شرح مكماستر بأن جمهوره أثناء مقابلة قرضاي سيكون من مجموعة من الأفغان والأميركيين. ثم قام بتريوس بمقاطعته:

«لن تحصل على مدخل لقرضاي من خلال تلك المجموعة. سوف تحصل عليها من خلالي».

كان بتريوس حارس بوابة قرضاي، على الأقل فيما يتعلق بمرؤوسيه؛ نادراً ما كان يتم اتباع السبل الأخرى. لكنه رأى في عمل مكماستر خيطاً رفيعاً من المساعي وسيبقى منضوياً عن قرب.

«نعم سيدي، مفهوم»، قال مكماستر. «لقد اعتقدنا أن فريق العمل هذا

سيكون شديداً. سيكون رمزاً». وافق بتريوس لكنه أشار إلى أنه يمكن أن يموّن الشخص الذي يمنح مكماستر سبيلاً إلى قرضاي، علماً أن فريق العمل لم يكن بعد قد التقى الرئيس.

كان مكماستر يقلب شرائح العرض، وهو يشرح عند نقطة معيّنة كيف بدا قرضاي داعماً لكن حكومته كانت تماطل في تنفيذ الإصلاحات. كان هناك نوع من البرودة، كما قال، منذ أن أبصرت قضية «صالحي» النور.

كان صالحي، العضو في مجلس الأمن القومي ومعاون قرضاي، قد اتُّهِم واعتُقِل في تموز/يوليو لتقاضيه رشوة مقابل وقف اجراء تحقيق عن ظاهرة فساد. وفي تشرين الثاني/نوفمبر أسقط المسؤولون الادعاءات بالفساد، وهو ما أثار موجة سخط لدى الشرطة الأفغانية والمسؤولين. لا أحد، على ما يبدو، نصح المستشارين الأميركيين للفريق الأفغاني بشأن المضاعفات السياسية لاعتقال معاون رفيع المستوى لقرضاي في مداهمة قبل طلوع الفجر بواسطة الشرطة الأفغانية الخاصة المدجّجة بأسلحة ثقيلة، وهو ما أعاق التعاون الأفغاني الأميركي. كما علم مكماستر أن عليه فهم السياق السياسي لكل حركة قام بها.

انتظر الجنرال بتريوس لبعض الوقت قبل أن ينتقد عرضه. «أنقِص عدد النقاط، ولا تستخدم الجمل»، كما أخبر مكماستر، مشيراً إلى محتوى النقاط في ملخصه. «أضمن استماع الرئيس قرضاي لك بألّا تضع كل شيء في النقاط. في هذا الوقت، سوف يقرأ الشرائح بنفسه».

ضحك مكماستر على نفسه ورد قائلاً: «على الأقل كل النقاط تبدأ بأفعال».

«حسناً»، رضخ بتريوس مبتسماً، «تستحق التقدير بسبب الموازاة».

بعد أن عرض مكماستر شريحة العرض التالية، التي شرحت مقاضاة أطباء لسرقة ملايين في وصف أدوية من المستشفى الوطني العسكري، أوقفه بتريوس قائلاً: «كن واضحاً حيال مَنْ يقوم بماذا. هل هذه إيساف أم الأميركيون؟ أيّ مسؤولين أفغان؟ سوف يسألك أن تقدم بعض الأمثلة».

«نعم سيدي»، قال مكماستر. «هناك مغزى واحد نحتاج منهم أن يقبلوه هو مفهوم التحقيقات المشتركة. وسوف نقوم بضرب الأفغان أولاً» كما أوضح مكماستر.

«جيد»، قال بتريوس وهو يومىء برأسه، ويضع في هذه اللحظة نظاراته للقراءة، ويشرح أنه سبق أن أوجز لقرضاي تلك المسألة، مضيفاً: «لكن سيكون جيداً أن يتم تذكيره بهذا مجدداً».

كان لدى مكماستر نموذج آخر لعرضه على قرضاي. «كشف فريق عمل الجرائم الكبرى حلقة فساد كبيرة في أحد المعابر الحدودية الرئيسية، وهذا ليس مفاجئاً. وقد تمكنوا من محاكمة تلك الشبكة. وبعد ذلك، ارتفع التحصيل في ذلك المعبر الحدودي بشكلٍ لافت»، على حد قوله. «لكن منذ ذلك الحين، تم إطلاق سراح بعض العناصر من السجن، وعاد رئيس الشبكة إلى عمله في الجمارك في منطقة مختلفة دون أن يكمل مدة حكمه».

ثم انتقل إلى الشريحة التالية التي تبرز الفساد في المطار.

«إن المسألة برمّتها تتمحور حول القيادة في النهاية»، على حد قول بتريوس. «فإذا كان لديهم قائد فذ [عند نقطة حدودية أو مطار]، يمكنهم القيام بذلك. أنا أتطلّع قُدُماً لعرض هذا على الرئيس».

لاحقاً، حين كان وحيداً في مكتبه، بدا بتريوس قلقاً، على الرغم من ذهابه مؤخراً لأسبوع لرؤية هولي وأعضاء آخرين من عائلته في ألمانيا؛ وقد كانت إجازته الأولى منذ سنوات عدّة. كان هو وهولي قد خطّطا أكثر من مرة لإجازة، لكن مهمات غير متوقعة كانت تطرأ دائماً. تزلّج مع أولاده للمرة الأولى منذ أن كانوا أطفالاً صغاراً وركضوا في الهضاب البافارية، لكن كان ثمة عمل يجب إنجازه كل يوم، وقد أبقاه ذلك منشغلاً خلال معظم إجازته. فما زال، بعد كل شيء، قائد المسعى في أفغانستان، حتى ولو كان رسمياً في إجازة. اعتقد بعض معاونيه بأن الإجازة لم تكن كافية، وقلقوا عليه لأنه كان يخسر مهاراته. كان يبدو أن هناك

شيئاً ما أو أكثر يبقيه صاحياً معظم الليالي، وهي أمور تتعلق بإنجاح العلاقات مع واشنطن، والعلاقة مع قرضاي، وفي هذه الليلة، خسائر الائتلاف. «حسناً، بين الفينة والأخرى عليك أن تحصل على نوم هانئ في الليل»، على حد قوله. «هذا يستهلكك على مر الوقت، ويستهلكك على مر السنين. لا أحد غيرك يشعر بحجم المسؤولية الملقاة على عاتق القائد.... البارحة كان يوماً سيئاً. هناك رسوم يسدّدها الإنسان. فالقيادة بأسرها تشعر بترجّح مزاجها، بعد الأيام الجميلة التي قضيناها منذ فترة».

كان يشير إلى الجنود الأميركيين الخمسة الذين ماتوا في ١٢ كانون الثاني/ يناير. الرقيب أول عمر أسيفس، ٣٠ عاماً، من إل باسو. العريف جاريد ل. كينغ، ٢٠ عاماً، من إيري، بنسلفانيا. والجندي أول بنجامين ج. مور، ٢٣ عاماً، من روبنزفيل، نيو جيرسي. هم عناصر من كتيبة مهندسين ملحقين بالفرقة الجبلية العاشرة قُتِلوا بعبوة ناسفة في ولاية غزني. الرقيب زاينا س. كريمر، ٢٨ عاماً، من تيكساركانا، تكساس، ويخدم في فصيلة الشرطة العسكرية ٢١٢، قُتِل أيضاً بعبوة ناسفة، في قندهار. والرائد إيفان ج. مولدايك، ٤٧ عاماً، من رانشو مورييتا، كاليفورنيا، وهو جزء من قيادة الاستدامة ١٩، مات إثر نوبة قلبية في خوست. إنهم خمسة جنود من أربع ولايات، تراوح أعمارهم ما بين ٢٠ و٤٧ عاماً. أرسل بتريوس رسائل شخصية لعائلة كل جندي قُتل خلال نوبته وحضر احتفالات ذكرى في أفغانستان قدر استطاعته. «نحن نحاول أن نخرج من أجلهم، لكن ينبغي عليك الالتزام بذلك العمل، لأنه ليس من السهل الوصول إلى بعض القواعد»، كما ذكر، مشيراً إلى احتفالات التأبين حيث يتم تحميل توابيت الجنود الملفوفة بأعلام على متن طائرة تعيدهم إلى الولايات المتحدة لاحتفال الوحدة بالذكرى مرة ثانية. بذل بتريوس والرقيب أول في قيادته، مارڤين هيل، جهداً مضنياً لحضور احتفالات التأبين في الولايات. «إنهم في الخارج في مخافر صغيرة، وقواعد صغيرة، ليست تحديداً سي-١٣٠ يسهل الوصول إليها في كل الأحوال»، على حد قوله.

بحكم التعاطي مع الموت بشكل يومي، لم يلتزم بتريوس من ناحية أخرى بارتداء الدرع والخوذة في تنقّلاته. في الواقع، لم يذكر رئيس أمنه أن بتريوس قد ارتدى ذلك طوال تلك الجولة. «لو حصل [هجومٌ ما]، فسيحصل، ولا يهم ما الذي ترتديه»، قالها بشكل من التسليم بالقضاء والقدر، مضيفاً أنه قد كان هو وزوجته قلقين كثيراً على ولدهما، الملازم ستيفن بتريوس: «لقد كان في الواقع يتعرّض لإطلاق نار»، كما قال بعد بضعة أشهر من تشكيل ابنه خارج أفغانستان.

كانت وحدة ستيفن، الفصيلة الثالثة، الفرقة ألفا، الكتيبة الأولى، وحدة المشاة ٥٠٣ من لواء الفريق القتالي إيربورن ١٧٣، التي تخدم في مقاطعة تشاك، ولاية وردك، قد خاضت اشتباكات لا تُعد ولا تُحصى مع المتمردين. عند نقطة معينة، تعرّض مجمّع مهجور كانت قد استولت عليه فصيلة ستيفن لهجوم، وأمر ستيفن رجاله بالاحتماء في الأسفل بينما بقي هو على السطح يطلب النجدة عبر اللاسلكي. كان بتريوس فخوراً جداً بابنه. ولم يكن بتريوس ولا زوجته قد ضغطا على ابنهما لدخول الجيش، ولم يكن واضحاً خلال الثانوية العامة وعامه الأول في الجامعة في معهد ماساتشوستس للتقنية، بأن هذا كان ما يريده. كان ستيفن تقني حاسوب ناعم الحديث، وكان الاختلاف واضحاً بين معهد ماساتشوستس للتقنية وتجربة بتريوس الجامعية في الأكاديمية العسكرية الأميركية. لكن في بداية عامه الثاني في معهد ماساتشوستس للتقنية ، فاجأ ستيفن والديه بانضمامه إلى فيلق تدريب ضباط الاحتياط بملء إرادته. وقد تم تعيينه بعد ذلك ضابط مشاة عقب تخرّجه في معهد ماساتشوستس للتقنية، وأنهى الفصل التمهيدي لضابط مشاة واستحق شارة الجوال المنشودة. كان يتبع لواء الفريق القتالي إيربورن ١٧٣ في فيتشنزا، إيطاليا، في الربيع السابق وأُرسِل إلى أفغانستان مباشرة بعد الوصول.

في أفغانستان، علم بتريوس أن ابنه كان يقاتل في إحدى أشرس المناطق

قتالاً، وهي مقاطعة تعج بالمتمردين اعتُمد فيها الاقتصاد في القوى(*) حتى صيف عام ٢٠١٠. وبحلول خريف عام ٢٠١٠، كان هناك المئات من جنود الائتلاف قتلى أو جرحى في تلك المنطقة. كانت سلامة ستيفن دائماً في ذهن بتريوس. لكن خطر السماح للمتمردين أو حتى الأفغان بأن يعلموا أن ابنه هناك كان جدياً فعلاً له لدرجة أنه لم يزر ابنه إلا في الأسبوع الأخير من جولته ليعلق شارة المشاة القتالية على صدر ابنه، ويقدم ميدالية القلب الأرجواني لبعض من عناصر فصيلة ستيفان الذين جُرِحوا خلال جولتهم.

في منتصف كانون الثاني/يناير ٢٠١١، قبل أن يتلو أوباما خطاب حالة الاتحاد، نشر بتريوس رسالة لكل الجنود والمدنيين ومسؤولي الناتو في أفغانستان بعنوان «تقويم قيادة إيساف». كان يعمل عليها منذ أواخر كانون الأول/ديسمبر، ويعدّلها باستمرار، ويعي أنها ستُقرأ، ليس من عناصر إيساف فحسب، ولكن أيضاً من الشعب الأميركي وحلفاء الناتو والبيت الأبيض والشعب الأفغاني. كانت رسالته الموزونة والمدروسة بعناية لحالة الحرب، هي التي أعطت الفضل لإيساف والقوات الأفغانية في إحراز «التقدم الصعب» في ولايتي هلمند وقندهار، بالإضافة إلى تطورات «في عدد من المناطق الأخرى في الشرق والغرب والشمال، يساعدها نمو القوات الأفغانية وإيساف، وانطلاق مبادرة الشرطة الأفغانية المحلية، وبدء الانصهار الذي يقوده الأفغان للمتمردين القابلين للتفاوض، والوتيرة المتواصلة للعمليات محددة الهدف من إيساف وقوات العمليات الخاصة الأفغانية.... وبالفعل، حيث من الواضح أن هناك حاجة لمزيدٍ من العمل في مناطق كثيرة، فمن الواضح بالقدر نفسه أن إيساف والقوات الأفغانية قد كبّدت عناصر متوسطي الأهمية في طالبان وقادة شبكة حقاني في جميع أنحاء البلد، خسائر فادحة، واستولت على بعض أهم مخابئهم الآمنة. والآن صار المتمردون يردون بتزايد

(*) أي استخدام كل القوة القتالية المتوافرة، بأكبر قدر من الفاعلية، وتخصيص الحد الأدنى الضروري من القوة للجهود الثانوية، ويشمل ذلك أيضاً التوزيع المناسب للقوات لتنفيذ المهمة، وتحقيق هدف الحرب.

على عملياتنا بدل أن يتراجعوا، وهناك تقارير لا تُحصى حول تنافر غير مسبوق بين عناصر من شورى كويتا، الهيئة القيادية العليا في طالبان».

على الرغم من إنجازات عام ٢٠١٠، فهناك الكثير من العمل للقيام به في ٢٠١١. وكما جرت العادة في أفغانستان، فالمسير إلى الأمام سيكون شاقاً. وكما سبق أن أوضح قرضاي، فالفقاعة الأمنية في كابول بحاجة لأن تتوسّع لتطال الولايات المجاورة. يجب ترسيخ المكاسب في الجنوب والجنوب الغربي وتوحيدها وتعميمها. كما أن المناطق التي تتحسن أمنياً في الشرق والغرب بحاجة لأن تتصل بعضها ببعض وتتوسّع. بالإضافة إلى أنه يجب إيقاف تنامي المتمردين الذي ازداد في السنوات الأخيرة في الشمال والشمال الشرقي الجبلي وقلبه، ليعود فيتقلّص.

كان خطاب أوباما عن حالة الاتحاد يحتوي على مقطعين فقط عن الحرب في أفغانستان.

نحن أيضاً أخذنا القتال إلى القاعدة وحلفائها في الخارج. ففي أفغانستان، سيطر جنودنا على معاقل طالبان وقاموا بتدريب قوات الأمن الأفغانية. هدفنا واضح: من خلال منع طالبان من إعادة تضييق الخناق على الشعب الأفغاني، سوف نسلب القاعدة الملاذ الآمن الذي استخدمته كمنصة لإطلاق هجمات ٩/١١.

بفضل جنودنا ومدنيينا الأبطال، فهناك عدد أقل من الأفغان ما زال تحت سيطرة التمرد. سيكون بانتظارنا قتالٌ ضارٍ، وعلى الحكومة الأفغانية أن تحكم بشكل أفضل. لكننا نعمل على تفعيل قدرة الشعب الأفغاني وبناء شراكة مستمرة معهم. هذه السنة، سوف نعمل مع حوالي خمسين بلداً لبدء التسليم لقيادة أفغانية. وفي تموز/يوليو القادم، سوف نبدأ بإعادة جنودنا إلى الوطن.

تعهّد أوباما بإرسال ثلاثين ألف جندي إضافي وعيّن بتريوس لقيادة الحرب. حتى المحافظين الذين وجدوا أخطاءً في كل ما قام به أوباما تقريباً كان عليهم الاعتراف أنه تابع هذه الحرب بكثير من العزم والتصميم. لكنهم فقط لم يلمسوا حماساً كبيراً وكانوا قلقين من إمكانية إبطاء عجلة المساعي الأميركية بأسرع من المتوقع. كان أوباما يحترم بشدة المسعى الذي يقوم به الجيش الأميركي. وكان واضحاً أنه ينظر إلى موعد الانسحاب في تموز/يوليو ويبدو أنه اعتقد أن الوقت كان يقترب لتبدأ الولايات المتحدة بإنقاص الالتزام الأميركي في أفغانستان.

كانت خطة حملة بتريوس مبنية على ما أسماه ستة «خطوط للعمليات». اهتمت القوات المقاتلة بأول اثنين: «حماية السكان» و«نسف شبكات المتمردين». وساهمت القوة الميدانية لسيادة القانون التابعة لمارتنز في اثنين إضافيين: «دعم الحكم الشرعي» و«تبني تنمية اجتماعية اقتصادية مستدامة». واهتم مكماستر بالخامس: «تعطيل الشبكات الراعية للإجرام». أما الخط الأخير فكان «دعم تطوير القوات الأفغانية المسلحة»، وهي مهمة يرأسها الفريق ويليام ب. كولدويل، الزميل المقرب من بتريوس منذ أن خلفه كولدويل بمنصب كبير مساعدي اللواء شيلتون.

كان تطوير القوات الأفغانية مفتاح خطة انسحاب أوباما أكثر من أي مسعىً آخر تقريباً. فمنذ خريف عام ٢٠٠٩، نَمَتْ القوات الأفغانية في الحجم والقدرة، ممولة بالمليارات من دافعي الضرائب الأميركيين. وفي عام ٢٠١٠، نَمَا الجيش الأفغاني الوطني والشرطة الأفغانية الوطنية وقوات الجو الأفغانية بنحو ٧٠ ألفاً. بحلول الخريف، استقر عدد الجيش الأفغاني الوطني تحت ١٤٥ ألفاً والشرطة الأفغانية الوطنية فوق ١١٣ ألفاً؛ أما قوات الجو الأفغانية فكانت أكثر من ٤ آلاف فقط. وكان الالتزام المالي في هذا المشروع من الولايات المتحدة وحلفائها من الناتو ١١,٦ مليار دولار أميركي عام ٢٠١١، ما يجعل المجموع في عامي ٢٠١٠ و٢٠١١ يصل إلى حوالى ٢٠ مليار دولار أميركي. كان ١٤ بالمئة من المجندين الأفغان متعلّمين، كما كان الآلاف متخلفين عن الخدمة، لكن قيادة كولدويل

كانت قادرة على الاستمرار بالتجنيد لضمان وجود ٣٠٥ آلاف رجل بالزي العسكري بحلول خريف عام ٢٠١١. ارتفعت الأجور بشكل ملحوظ، وكانت شيكات الدفع تصل إلى الجنود إلكترونياً للحد من السرقة، وتم تسليم أسلحة متطورة. كان كل المجندين يتلقون تدريب محو أمية إلزامياً حيث يصبح بإمكانهم قراءة وكتابة أسمائهم، ومعرفة الأرقام البسيطة وفهم العبارات البسيطة في نص ما.

آمن الرائد فرناندو لوجان إيماناً قوياً بإمكانات القوات الأفغانية. ولنقل مفهوم سآت إلى داخل الجيش الأفغاني، انخرط لوجان عميقاً داخل الفيلق ٢٠٥ التابع للجيش الأفغاني الوطني. فقد ارتدى زياً أفغانياً وأطلق لحية وقاتل لأسبوعين متواصلين مع الوحدات الأفغانية. كان يتكلم مع الجنود بلغة الداري، وكان لدى وصوله إلى المقر الرئيسي يلخص للواء قائد الفيلق بهذه اللغة. وقد اكتشف أن العادات الأفغانية كانت الأكثر ترحيباً بالأجانب الذين كرسوا وقتاً لتعلم لغة الداري أو لغة الباشتو. وفي مكان ما كان مذهولاً من شجاعة الجنود الأفغان ـ وهدوئهم في المعركة وتقبلهم للموت، الذي يعزوه إلى إيمانهم الإسلامي ـ لدرجة أنه فكر بالتحوّل إلى الإسلام. لقد أحب عمله: «سأقوم [بهذا] في الجيش طالما أنهم يسمحون لي بذلك،... ومن ثم سأتنحى جانباً وأقوم بها بصفتي المدنية أو غير ذلك كممثل حكومي حتى أصبح هرِماً جداً لأستطيع المشي في دوريات»، على حد قوله. «إن مكافحة التمرد هي ذلك النوع من القتال[1] المتقلّب والديناميكي جداً لتعلّم دروس منها. لتطوير رؤيا حقيقية، عليك أن تبقى متصلاً بالنزاع بطريقة حقيقية جداً ومباشرة جداً».

تبنّى بتريوس بحماسة مبادرة فريق الاستشارات والدعم في مكافحة التمرد سآت قبل أكثر من شهر. وكان سآت نمط بتريوس المفضّل في التنظيم، تحركه الأفكار الكبرى في أرض المعركة، والعقيد جو فيلتر، الحائز على دكتوراه من ستانفورد، وكان تلميذ بتريوس في قسم العلوم الاجتماعية في الأكاديمية العسكرية

(١) الرائد فرناندو لوجان، رسالة بريد إلكتروني للمؤلف، ٧ كانون الثاني/ديسمبر ٢٠١١.

الأميركية. وقد اغتنم بتريوس الفرصة لتقدير أحد مرؤوسيه. «في الواقع، لقد تجاوزتَ ما ظننته طموحاً متغطرساً في سآت»، كما استهل بتريوس خلال احتفال قصير معلناً مغادرة فيلتر.

لكن خلف فيلتر، وهو عقيد مهووس بهندامه من مشاة البحرية اسمه روب تانزولا، كان يملك رؤيا مغايرة لفريق الاستشارات والدعم في مكافحة التمرد سآت. ففي حين كان فيلتر معروفاً لدى أولئك الذين عملوا بأمرته على أنه شخص سمح لمرؤوسيه بهامش من الحرية في العمل، بدا تانزولا وكأنه يريد أن يمارس رقابة شديدة على أعضاء سآت، وبدا أنه اشمأز مما اعتبره أساليب رعاة البقر في الفريق. وقد كان أحد أول أوامره للأعضاء الأفغان في سآت بأن يحلقوا لحاهم ـ وهو أمر اعتبرته الأعضاء الأفغان مؤشراً ضرورياً لكسب ثقة نظرائهم الأفغان. ومهما يكن الرأي الذي كوّنه أعضاء سآت عنه ـ وكان هناك أولئك الذين دافعوا عن حملته على أنها منتظرة منذ زمن ـ فإن الارتباك الذي ترافق مع وصوله أعطى مثلاً عن الجانب السلبي لنزعة الجيش الأميركي باتجاه تشكيلات كل سنة أو أقل.

كان دوغ أوليفانت، المقدم السابق الذي ساعد في التخطيط لغزو العراق، من أوائل الذين ذهبوا. حاول تانزولا طرد أوليفانت بعد أن أرسل بريداً إلكترونياً فارغ المضمون لعدد من أعضاء سآت في كابول الذين غامروا بالدخول إلى منطقته في أفغانستان الشرقية، وباعتقاد أوليفانت، فقد دخلوا إلى مناطق كانت من ضمن نفوذه. أحس أوليفانت أنه مصدوم من منطق تانزولا فنقل شبكة مناصريه لتبادل رسائل البريد الإلكتروني مع اللواء كامبل، قائد القطاع الشرقي، والفريق ديفيد رودريغز، نائب قائد إيساف، بالنيابة عنه. بادر بتريوس لمساعدة أوليفانت في إيجاد عمل، لكن في ذلك الحين كانت العلاقات قد باتت متوترة جداً لكي يبقى أوليفانت.

بدأ تانزولا بنقل انتباه سآت من الأوضاع التكتيكية على الأرض إلى الوضع الاستراتيجي في المنطقة، انطلاقاً من فهم خاطئ بأن هذا ما كان يريده بتريوس. بعد أن قضى تانزولا مدة شهر في متابعة هذا الفصل، التقاه بتريوس أخيراً وأعضاء آخرين من سآت، وأبلغهم بالتركيز على التكتيكات. «لدي كثير من المفكّرين

الاستراتيجيين[1] العاملين في إيساف»، كما نقل أحد أولئك الحاضرين حديثاً عن اللواء. عاد تانزولا مجدداً إلى التركيز التكتيكي لكنه استمر بمقاربته الهرمية، واستمر إصراره على تحديد معايير عالية لكتابة التقارير وجمع المعلومات بكامل فعاليته. وقد وضع لائحة أولويات، في مقدمها مبادرة لمساعدة القوات التقليدية على تولي مسؤولية عمليات استقرار القرى وتطوير مخافر الشرطة الأفغانية المحلية، وكان قد بدأ كلاهما كمهمتين للقوات الخاصة. لم تكن مخططات لوجان لنقل عملية سآت إلى داخل الجيش الأفغاني على لائحة تانزولا. ولم يكن تانزولا يؤمن بأن الأفغان يمكن أن يكونوا يوماً جزءاً من فريق سآت، فعلامَ هذا العناء؟ وفي محاولة لتعزيز سلسلة القيادة، منع تانزولا لوجان من الحضور إلى المقر الرئيسي لِـسآت في كابول وأصدر أمراً له بالتوقف عن التواصل مع الأعضاء القادمين لبرنامج الأيادي الأفغانية، الذين لم يتم تعيينهم في سآت، كما كان يأمل لوجان.

كان لوجان قلقاً على ما أسماه شروخاً «هائلة» على الجانب الأفغاني والتي كانت ستنسف الحملة بقوة في الوقت الذي وضعت إيساف ثقلها في قوات الأمن القومي الأفغاني. «هناك بعض تلك الشروخ التي لا نفهمها بشكل كامل»، كما نقل لوجان لبعض الزملاء. «إن مسعى سآت الأفغاني قد تم تجهيزه بشكل فريد لإضفاء الوضوح على هذه المسائل واجتراح حلول مبتكرة». أوصل لوجان لاحقاً صوت مخاوفه لتانزولا في رسائل بريد إلكتروني توحي بشيء من تقليل الاحترام، فتوقف تانزولا عن الرد على رسائل البريد الإلكتروني الواردة من لوجان. بعدها بمدة قصيرة، فضّ تانزولا الفريق ووزّع أعضاءه في قيادات إقليمية مختلفة.

في حين كافح لوجان ليجد طريقه للوصول إلى تانزولا، ظهرت القصة الأولى حول مستقبل بتريوس في الصحافة، في تايمز لندن. وقد نقلت الصحيفة ما كان متوقعاً لدى كثيرين عندما تولى بتريوس القيادة في تموز/يوليو، أنه سيغادر أفغانستان بنهاية ٢٠١١. أصبحت مهمته التالية أمراً يشغل باله، وقد كانت آخر شيء يحتاجه.

(١) ج. د. ستيفنز، رسالة بريد إلكتروني للمؤلف، ٨ آذار/مارس ٢٠١١.

في أواخر شباط/فبراير، وخلال اجتماع عصر يوم أحد لمجلس الأمن القومي الأفغاني، استفسر المسؤولون الأفغان عن تقارير أفادت بأن حوالي خمسين مدنياً، معظمهم من النساء والأطفال، قد قتلوا خلال غارات جوية لإيساف في الجبال النائية من محافظة كُنَر، عند الحدود الباكستانية. أشار بتريوس لاحقاً إلى أن مسؤولين أميركيين أفادوا أن بعض المدنيين الذي زُعِم أنهم أصيبوا بجراح كانوا أطفالاً بأيادٍ وأرجلٍ محروقة، وهي ليست إصابات بشظايا، كما يمكن أن يترافق مع الغارات الجوية. وقد وردت تقارير من تلك المنطقة بأن الأطفال كان يعاقبون في بعض الأحيان بغمر أيديهم أو أرجلهم في الماء المغلي، لكن بتريوس لم يقم بأي ربط محدّد بين التقارير والحادث موضوع المساءلة. بعد مرور يومين، أفادت واشنطن بوست بأن بتريوس قد فاجأ قرضاي ومعاونيه بتلميحه إلى «أن هناك أفغان اعتُقِلوا خلال هجوم لقوات الائتلاف شمال شرق أفغانستان يمكن أن يكونوا قد أحرقوا أطفالهم للمبالغة في المزاعم بإصابات في صفوف المدنيين، وفقاً لاثنين من المشاركين في الاجتماع». وقد ذكرت واشنطن بوست أن لا لغة بتريوس الدقيقة[1] ولا رسالته المحددة كانتا واضحتين. لم يهتم بتريوس بشيء من هذا القبيل، لكن تسريب إفادات خاطئة للمكاسب السياسية كان شائعاً. «إذاً فليكن»، كما أفاد بعد بضعة أشهر خلال مقابلة معه. «أهلاً بكم في الجوار[2]. إنها ليست مسابقة رعاة البقر الأولى لي. عندما ارتكبنا أخطاءً، كانت السياسة تقضي بالاعتراف بها، وشرح الحقائق، والاعتذار حين يكون ذلك مضموناً، وبالطبع عدم الاكتفاء بالتدابير المسلكية، بل كان ثمة تدابير قضائية وغير قضائية في بعض الحالات».

كان دليل بتريوس في مركز تنسيق المعلومات للقصر الرئاسي، اقتراح نقيب البحرية إد زيلم، بأن يعرض مقاطع فيديو للهجمات على موظفي مجلس الأمن

(١) Joshua Partlow, "Petraeus's Comments on Coalition Attack Reportedly Offend Karzai Government," *Washington Post*, February 21, 2011.

(٢) الجنرال ديفيد هـ. بتريوس، مقابلة أجراها المؤلف، كابول، أفغانستان، ١٧ أيار/مايو ٢٠١١.

القومي الأفغان، وحتى إحضار قبطان متمرّن ليشرح عن الفيديو ويجيب عن الأسئلة ليعلن بطريقة مقنعة أن المسؤولين قد انخدعوا بالمدنيين الذين يحاولون التسبّب بمشاكل للحكومة ولإيساف. لكن المسؤولين الأفغان احتجوا.

كانت الحرب تزداد وحشية وعنفاً بالنسبة للأفغان العاديين. وقد أورد التقرير السنوي لإصابات المدنيين في أفغانستان عام ٢٠١٠، الذي نُشِر بعد أيام عدة من قِبَل الأمم المتحدة ولجنة حقوق الإنسان الأفغانية المستقلة، بأن ٢٧٧٧ مدنياً قد قتلوا، بارتفاع ١٥ بالمئة عن عام ٢٠٠٩. وكان ٧٥ بالمئة من تلك الوفيات على عاتق طالبان و«عناصر معادية للحكومة». كانت متفجرات من صنع منزلي وعبوات ناسفة وهجمات انتحارية هي السبب في معظم الوفيات، على الرغم من أن أكثر منحى خطير كان لجوء المتمردين المتزايد للاغتيالات كسلاح في وجه المسؤولين الحكوميين الأفغان وآخرين تعاونوا مع الأميركيين. وقد وقع نصف تلك الاغتيالات جنوب أفغانستان، حيث تركت القوات الأميركية وقوات الناتو طالبان أمام بضعة خيارات بديلة لكي تسود على مستويي القرية والولاية. «إن الآثار الاجتماعية والنفسية ومخالفات حقوق الإنسان المترافقة مع اغتيالات هي أكثر تدميراً مما يمثّله عدد الجثث»، كما كشف التقرير. «إن الشخص الذي يقرر الانضمام إلى مجلس شورى المقاطعة، أو القيام بحملة لمرشح معيّن، أو الحصول على عمل مع منظمة تنمية، أو الكلام بحرية عن قائد جديد لطالبان في المنطقة، يعلم في الغالب أن قراره يمكن أن يكون له عواقب تصل إلى حدّ تهديد حياته».

كما أشار التقرير إلى أن الوفيات والإصابات التي أحدثتها القوات الأفغانية والدولية قد انخفضت. فتشديد كل من مكريستال وبتريوس على الحد من إصابات المدنيين الناجمة عن غارات جوية كان له أثره بكل تأكيد. فقد انخفض عدد القتلى من النساء والأطفال من جراء الغارات الجوية التي شنتها القوات الدولية بنسبة ٦٢ بالمئة و٧٢ بالمئة، تباعاً، مقارنة بعام ٢٠٠٩. وحتى في ظل اتكال بتريوس على المداهمات الليلية التي تنفذها قوات العمليات الخاصة كتكتيك

مهم يستهدف قادة طالبان من الصف الأول والصف المتوسط، فقد ترافق ذلك مع سقوط خسائر في صفوف المدنيين، كما كشف التقرير. وقد ذكر التقرير بأن عمليات التطهير التي استمرت من تموز/يوليو حتى تشرين الثاني/نوفمبر في المقاطعات المحيطة بقندهار، بما في ذلك وادي نهر أرغنداب حيث أدارت توب غانز التابعة لفلين عملياتها، لم ينجم عنها «هزة» في صفوف المدنيين، «على الرغم من تسببها بدمار واسع النطاق في الممتلكات»[١].

«غويدونز، غويدونز. هنا إيغل ٦. إن موعد الوحدة ١٠١ إيربورن مع القدر هو في شمال بغداد. فأمر عملية نسر الصحراء ٢ هو قيد التنفيذ الآن. أتمنى لكم التوفيق. غارة جوية. انتهى»، كما أبلغ اللواء حينها ديفيد بتريوس، القائد العام للوحدة ١٠١، جنوده عبر جهاز لاسلكي ميداني في الليلة التي سبقت ذهابهم للحرب. كان ذلك في أواخر آذار/مارس ٢٠٠٣، وكان يُفترض بِسكريمنغ إيغلز أن تقتحم من خلال الحدود الكويتية وأن تتوجّه إلى العاصمة العراقية، وأبعد من ذلك.

بعد ستة أيام من الغارة الضخمة، وفي ظل توقف القوات الأميركية كلياً عن المضي قُدُماً من جراء عاصفة رملية تعمي الأبصار، لجأ بتريوس إلى بصيرته: سؤال «أخبرني كيف ينتهي هذا؟» يجيب عنه سؤال آخر: «ثمانية أعوام وثماني وحدات؟». كانت تلك إشارة إلى إجابة قدمها رئيس أركان الجيش في مطلع الخمسينيات حين سأله الرئيس أيزنهاور عما يتطلبه تعزيز القوات الفرنسية الخائرة والمطوّقة في ديان بيان فو، في فيتنام. أما في العراق وأفغانستان، فستحتاج تقريباً[٢] للمدة نفسها، وتستمر لأكثر من ذلك.

في أول معركة يقودها في مسيرته المهنية، قاد بتريوس سكريمنغ إيغلز في القتال في بغداد، داعماً اقتحام وحدة المشاة الثالثة الجريء داخل بغداد من

(١) Afghanistan Independent Human Rights Commission, *Afghanistan Annual Report 2010: Protection of Civilians in Armed Conflict*, United Nations Assistance Mission in Afghanistan, March 2011.

(٢) Atkinson، مرجع سابق، ص ١٦٧.

خلال هجمات في العمق شنّتها مروحيات أباتشي الحربية التابعة للوحدة ١٠١، وتنفيذ عمليات ضخمة على الطريق لتحرير النجف، فكربلاء، وأخيراً الحلّة. لا يمكن للنقيب فايفكوت أن ينسى أبداً معركة النجف. كان هناك بتريوس واللواء سكوت والاس، قائد الفيلق، وأحد عقداء الوحدة يخرج من فتحة عربة هامفي حاملاً المنظار، ليشاهد «هجوم القوات المشتركة داخل النجف، وقد بدا وكأنه هجوم من الحرب العالمية الثانية». آمن بتريوس أنّ على القائد أن يسعى ليكون في «نقطة القرار»، ليتمكّن من استيعاب ما كانت تنخرط فيه وحدته بشكل أفضل، والتي كانت غالباً حيث كان القتال على أشده. ذكر فايفكوت في سجله اليومي، بأن بتريوس «أراد بشكل اعتيادي أن يسير قُدُماً ليشاهد مسار المعركة».

في حين كان بعض مرؤوسيه يظنونه شديد الحذر في البداية لأنه لم يأمر على الفور بهجوم بري داخل النجف، كان بتريوس يُناور بقواته عن قصد وبمهارة عالية، بقصد فهم ما كان يواجهه، والتحضير بعناية للرد بالشكل الأمثل. لم يكن يكره الإصابات[1]، كما فسَّر، بل كان يكره الإصابات التي لا لزوم لها. لا ينبغي البدء بإطلاق هجوم المشاة الخفيفة داخل مدينة تحوي أكثر من نصف مليون نسمة، كما أمر، قبل أن تصبح كل «العوامل المساعدة» من دبابات ومدفعية ومروحيات حربية ودعم جوي محدّد بدقة وفرق الإسعاف الجوية وغيرها في موضعها لتدعم أولئك الذين هم على الأرض حين يلتقون، عاجلاً أم آجلاً، بالأعداء المتخفّين. وقد تبيّن أن مقاربته قد نجحت: فالوحدة ١٠١ أنجزت مهماتها. كان القتال في الطريق إلى بغداد والعمليات المترافقة لتطهير الموصل قد تسببت بإصابات خفيفة نسبياً، قياساً بالمعارك الدائرة؛ وبنهاية أيار/مايو، كان ثلاثة جنود قد قتلوا وجُرِح أربعة وثمانون في المعارك، من بينهم كثير ممن بُتِرت بعض أعضائهم. فتحت الخسائر عيني بتريوس على أكثر الأعباء أهمية في القيادة.

وقد ذكر بتريوس لصديق في رسالة بريد إلكتروني بأن التقارير الواردة عن

(١) Atkinson، مرجع سابق، ص ٢٣٧.

وقوع إصابات كانت بمثابة ضربة لعظم القص. كان أكثر أماناً مع عائلته، لكن وجهه لم يستطع أن يخفي مشاعره بالكامل عن معاونه الشخصي المقدم ديفيد فايفكوت، الذي دوَّن ملاحظة في سجله اليومي ذاك الربيع: «كان الجنرال بتريوس مذهولاً عقب زيارته للجرحى». وقد أفصح بتريوس عن مكنوناته بشكل مبطّن في متن رسالة وجّهها لرفاق صفه في الأكاديمية العسكرية الأميركية في شهر حزيران/يونيو ذاك: «كنت أتعجّب لماذا كان يغصُّ رجال مسنون وهم يحكون عن رفاقهم؛ الآن أعرف لماذا». لكن وعلى غرار كثير من نظرائه، كان يعرف أن دور القائد يقضي بأن يملك رباطة الجأش ويهب القوة للآخرين. كان يتعلم كيف يبقي دور القيادة ثابتاً في مكانه.

بمجرد أن بدأت الوحدة ١٠١ السيطرة على جنوبي بغداد، تلقى بتريوس أوامر بالقفز، عبر هجوم جوي، مسافة خمسمئة كيلومتر شمالاً إلى ثاني أكبر المدن العراقية، الموصل، قريباً من الحدود مع سورية وتركيا. وكان بتريوس قد حصل هنا على موافقته العظمى، التي تعلن عن أسلوبه في مكافحة التمرد، التي تشمل كل مهمة من ملاحقة ـ وقتل ـ ابنَيْ صدام إلى تنفيذ مهام متنوعة لإعمار البلد، وحتى القيام بما اعتبره بعضهم سياسته الخارجية الخاصة، حين عقد اتفاقاً مع سورية لضمان صادرات كافية من الوقود إلى المدينة، واتفاقاً آخر مع شركة تركية للكهرباء. وقد استعرض تجربته في البوسنة التي مكَّنته من اكتساب أساليبه. وفي مطلع أيار/مايو، بعد أسبوعين على وصوله، أصبح في محافظة نينوى، وعاصمتها الموصل، مجلس محافظة وحاكم بعد أن نظّم بتريوس الانتخابات، التي كانت في الواقع «انتخابات اللجان السياسية» قام هو بتنظيمها لتأسيس مجلس محافظة بوجود ممثلين من سائر مكونات محافظة نينوى لكي يصبح لدى الوحدة ١٠١ شركاء عراقيون.

في الوقت الذين انتقلت وحدات بتريوس إلى إعمار البلد، بعد أن قامت بتهدئة المنطقة إلى حد بعيد، أوكل البنتاغون عناصر من الوحدة ١٠١ لحياكة شارة النسر للوحدة على الكتف اليمنى لزيّهم، في إشارةٍ إلى أنهم شاركوا مع

الوحدة في القتال. كانوا يضعون أصلاً الشارة على كتفهم اليسرى، التي تمثل وحدة خدمتهم. «عليَّ الاعتراف بأنني فخور جداً الآن بتعليق شارة سكريمنغ إيغلز على كلتا الكتفين»، كما كتب بتريوس لعائلته. «لقد جعل ذلك العَبرة تختنق في عيني».

كان قد بدأ التصرف على الفور وكأنه نائب الملك في شمال العراق، ويعمل لاستمالة شيوخ العشائر الذين لم يُجر أي منهم محادثة قصيرة في حياته، والكل الآن يريد اقتطاع جزء مني، وفتح المدارس، ومناقشة الصفقات التجارية، والتماس المساعدة من أسياده البيروقراطيين في بغداد وواشنطن. في ٦ أيار/مايو، وقّع قرار فتح المعبر الحدودي مع سورية شمال غرب العراق. وقد استُهِلَّ بالتالي: «لمّا كان قائد قوات الائتلاف في شمال غرب العراق يدرك الحاجة الملحة لاستئناف العلاقة التجارية الشرعية في شمال غرب العراق مع سورية وتركيا...».

كان إحباط بتريوس من هيئة الائتلاف المؤقتة في بغداد التابعة لإدارة بوش أمراً شائعاً مع سائر قادة الوحدات. فقد وجد القرار المتخذ من هيئة الائتلاف المؤقتة بحل القوات العراقية المسلّحة ومحاصرة حزب البعث التابع لصدام حتى وصل إلى ما وصل إليه بأنه مضلّل على وجه التحديد، لأن الكثير من بيروقراطيي الطبقة الوسطى وأكاديميي الثقافة الغربية في جامعة الموصل كانوا أعضاء في الحزب. فمن دونهم، أصبح حَمْل المدينة لتعاود الوقوف على قدميها يزداد تعقيداً أكثر فأكثر. كان الأثر الشامل لبرنامج اجتثاث البعث[1]، كما نقل بتريوس، «أن عشرات الآلاف من عناصر النظام السابق أصبحوا عاطلين عن العمل، من دون أي راتب، ومن دون أي تقاعد، ومن دون أي منافع، وبالتالي، فإلى حد كبير، من دون أي حافز لدعم عراق جديد».

كتب بتريوس لصديق له في ٥ حزيران/يونيو: «هل قام أحد القادة [الأميركيين]

---

(١) Dr. Donald P. Wright and Colonel Timothy R. Reese, *On Point II: Transition to the New Compaign: The United States Army in Operation Iraqi Freedom May 2003-January 2005* (Fort Leavenworth, KS: Combat Studies Institute Press, 2008).

من بغداد هنا البارحة بإخبارهم أننا نتساءل في بعض الأحيان عما إذا كان الهدف الأكثر أهمية بالنسبة للأشخاص الذين يعلوننا/ في واشنطن هو تحقيق السلام أم الحفاظ على سير المعاملات. فالبيروقراطية تقضي علينا. كنا مكلّفين بإطلاق ذخائر بقيمة مليون دولار من أسلحتنا (خلال القتال باتجاه بغداد)، ولكن الآن علينا أن نقدم حتى للمشتريات/ العقود البسيطة، مستندات يجري تصويرها لإرسالها إلكترونياً إلى المقرات الرئيسية العليا. كان بإمكاننا الفوز بهذا الأمر لو أنهم أعطونا المال فقط (أو إرسال الأشخاص الذين يفترض بهم المساعدة إلى هنا، فهم بطيئون للغاية في الوصول). وقد أخبرتهم ذلك بحزم».

قبل أن يقوم بول بريمر، رئيس هيئة الائتلاف المؤقتة، بزيارة الموصل في أواخر حزيران/يونيو، تساءل بتريوس عما إذا كان يرغب بالاستماع أم أنه سيكون في «وضع التوجيه». وجد بتريوس الغطرسة الصادرة من بغداد مؤسِفة للغاية واعتقد أنها كانت شبيهة بتلك التي كانت في فيتنام يوم كان روبرت مكنامارا وزيراً للدفاع. لكن محادثته مع بريمر كانت محادثة مثمرة. فقد كانت ستحثُّ بريمر لاحقاً على تحرير الأموال العراقية المجمدة إلى قادة الوحدات لتنفيذ مبادرات إعادة إعمار طارئة. وكانت محادثة لاحقة ستُخوّل بتريوس صلاحية دعم مبادرات صلح يقودها العراقيُّون.

غير أن خيبة أمل بتريوس طفت على السطح في رسالة بريد إلكتروني أرسله لاحقاً لزميل له:

> كان ينبغي عليك أن تمنح الشعب الأمل، ومن جديد، عليك أن تمتلك الحوافز للشعب لدعم عراقٍ جديد، لا لمعارضته. وإن لم توفر تلك المحفّزات، فلا تتفاجأ إن استفقت لتجد تمرداً في الصباح... هل كان [الجيش] بحاجة لينحلَّ من دون أي إعلان عما سيكون مستقبله. لقد أمضينا خمسة أسابيع بطيئة من دون أي إعلان ولم يتم مقاربتها حتى قام بعضنا بالحديث مع بعض الأشخاص في العراق وقلنا: «هل تعلمون أن

سياستكم تقتل جنودنا؟». كان ذلك إعلاناً في غاية الحزم... أسبوعٌ تلو آخر كانت المظاهرات تتحول إلى ما يشبه الشغب.

قبل أسبوعين من إعلان هيئة الائتلاف المؤقتة بأنه يمكن أن يكون هناك مرتبات لعناصر الجيش السابقين، حاول بتريوس إخماد تظاهرة تضم خمسة عشر ألف رجل، كان بعضهم يحمل السلاح، خارج مبنى مجلس محافظة، حيث يقع مكتب المحافظ وفي المكان الذي كان يجتمع فيه مجلس المحافظة. فقد كان، كما أُعلِن لاحقاً «أسوأ كابوس لأي قائدٍ. كان حشداً [ضخماً وساخطاً]».

من على جدارٍ وقف عليه، بدأ بتريوس الكلام من خلال مكبر للصوت للحشد الهائج: «نحن نتفهم مخاوفكم وقد حرصنا على نقلها لبغداد». هدأ الحشد قليلاً، والتفتت الوجوه الغاضبة نحوه. أكد لهم بتريوس أنه سيسمح لقادتهم بالدخول إلى مكتب المحافظ لمناقشة المخاوف بشكل تفصيلي ليتمكن المحافظ ـ لواء متقاعد وبطل حرب في الجيش العراقي خلال الحرب الإيرانية العراقية وضعه صدام في الإقامة الجبرية في التسعينيات ـ من نقل المخاوف لمجلس الحكم العراقي بشكل دقيق. تمت تهدئة الحشد، ولكن ليس لوقت طويل، وعاد العنف فعمَّ بعد أسبوع. وفي اليوم نفسه، أسفر العنف في بغداد والبصرة عن قتلى بسبب أعمال الشغب التي خرجت عن السيطرة.

بنهاية شهر تشرين الأول/أكتوبر، وعقب زيارة من معاون لنائب وزير الدفاع بول وولفويتز، كتب بتريوس أن ضيفه من واشنطن «أفاد أنه كان ينبغي عليهم أن يسلمونا زمام الأمور كلها. فأخبرته بأن يرسل المال فقط ولن يكون هناك أي حدود لما يمكننا القيام به». رأى بتريوس علناً بأن المال هو «الذخيرة» وأثنى على نفسه لما أنفقه من أموال الطوارئ هو وقادة لوائه في إصلاح الطرقات والمدارس وخلق فرص عمل للعراقيين، أكثر من أي وحدة. كان يسأل جنوده باستمرار «ماذا قدَّمتم للعراقيين اليوم؟» وبممارسته تكتيكات مكافحة التمرد التي سيعمد إلى تشفيرها بعد ثلاث سنوات، فقد أخبر جنوده أنه لو سبق أن دمّروا أي ممتلكات عراقية، فينبغي عليهم أن يعوّضوا مباشرة، أو الحضور في اليوم

التالي وإصلاح ما دمَّروه. أصبح أداؤه في الموصل نموذجاً يُحتذى به في السياسة العامة والإدارة في كلية كينيدي الحكومية التابعة لجامعة هارفرد، «رجل الدولة بالصدفة: الجنرال بتريوس ومدينة الموصل، العراق». تخلص الدراسة إلى أن: «لم يعطَ بتريوس الكثير من الإرشادات، وكان في موقع غير مألوف له، ووضع أهدافاً طموحة وطوَّر استراتيجية لاقت نجاحاً لافتاً». خلال تقويم ذاتي أُجرِي كجزءٍ من دراسة للكلية الحربية العسكرية عام ٢٠٠٤، أعطى بتريوس نفسه أقصى مراتب التقويم واصفاً نفسه «مقاولاً» لما قام به من جهود إعادة الإعمار في الموصل، ضمن فئات شملت الرؤيا والدبلوماسية والطاقة الشخصية.

عاد بتريوس من العراق في مطلع أيار/مايو، ليتم إبلاغه بعد ستة أسابيع بأن عليه العودة إلى العراق على الفور لتقويم حالة قوات الأمن العراقية. فجمع في الحال فريقاً من الوحدة ١٠١ وأمضى بضعة أسابيع في نيسان/أبريل وأيار/مايو يحلّق فوق العراق لِيُجري التقييم. بعد عودته إلى الولايات المتحدة وتقديم تقرير للوزير رامسفيلد ورئيس القيادة المركزية، طلب منه أن يبدل القيادة وينقل عائلته ثم يعود إلى العراق في مطلع حزيران/يونيو لتأسيس وقيادة مسعى تنظيم وتدريب وتجهيز ووضع البنى التحتية لقوات الأمن العراقية الجديدة التابعة لوزارتي الداخلية والدفاع. كانت ستتم ترقيته لرتبة لواء في أيار/مايو ٢٠٠٤ ويعود إلى العراق في حزيران/يونيو ليتولى مسؤولية خلق الجيش والشرطة العراقيين ووزاراتهما وسائر المؤسسات، افتراضياً من الصفر، وهو عمل وصفه مرةً بأنه «بناء أضخم طائرة في العالم، عند طيرانها، وعند تصميمها، وعند إطلاق النار عليها».

لم تكن أيّ من كتائب الجيش العراقي المتعددة التي ورثها بعد استلامه مهمته الجديدة في طور العمل. كان قد تمرد الكثير لتجنّب القتال في الفلوجة في ربيع عام ٢٠٠٤، بعد قتل أربعة مقاولين أمنيين يعملون لدى شركة أميركية تدعى بلاكووتر في آذار/مارس، والتمثيل بجثثهم وتعليقهم على جسر. ومن ضمن نشاطاته الأولى، أنه ذهب إلى وزير الدفاع دونالد رامسفيلد وأخبره بأن عدد قوات الأمن العراقية وحسبما أفاد فريق السفارة المسؤول عن مهمة الشرطة كان

ينبغي تخفيضه، لأن سبعين ألفاً من الجنود الذين تم إحصاؤهم كانوا في الحقيقة حراساً أمنيين للسفارة وغير مدربين، ولم يكونوا شرطة مدربة. وعندما وصل، لم تكن وزارة الدفاع العراقية ولا قيادته الخاصة، القيادة الأمنية الانتقالية المتعددة الجنسيات ـ العراق، يملكون حتى مبنىً للمقر الرئيسي. لقد كانت بالفعل بداية من لا شيء، كما كانت المهمة في هايتي، وكان كل شيء يتعلق بها أشد صعوبة. كانت مشاكل بتريوس مع البيروقراطية تزداد أكثر فأكثر. كان يبعث بطلبات لبرنامج وينتظر أسابيع للاستجابة. لم يتضح له يوماً بالكامل ما كان يجري بالضبط. فالرئيس بوش قد ذكر بأن القوات العراقية مثلت تذكرة أميركا للخروج من البلد، واللواء جون أبي زيد، رئيس القيادة المركزية، تعهد لبتريوس بأي دعم يحتاجه. ومع ذلك فلم يحصل أن قدمت البيروقراطية التي تعلوه كل الموظفين الذين كان بتريوس وفريقه يعتبرون أنهم في أمس الحاجة إليهم فضلاً عن الموارد اللازمة.

لقد كان مذهلاً حجم المطلوب ِمنه القيام به بنسبة ٣٠ بالمئة أقل من الموظفين الذين طلبهم في البداية. وقد استجاب بتريوس بالطريقة الوحيدة التي كان يعرفها: بوضع كتفه على العجلة والدفع قدماً بكل قدرته، طوال اليوم، وكل يوم. وكان في باله دوماً توبيخ والده: «أريد نتائجَ أيها الفتى!» كانت المرة الوحيدة التي عاد فيها إلى المنزل طوال الخمسة عشر شهراً ونصف الشهر من جولته في أواخر ربيع عام ٢٠٠٥، لحضور تخرج ستيفان في الثانوية العامة، والتي لم يعد بعدها خلال عامه الأول في العراق.

كانت سائر تجارب بتريوس تحدها أحياناً السريالية: فعند نقطة ما، واجه قائداً عراقياً كان بالتحديد ماهراً في تجنيد القادة الموهوبين. وسأله بتريوس كيف يعرف كل هؤلاء الرجال، فأجاب العراقي بأنهم كانوا جميعاً في السجن معاً. كان ذلك منطقياً لبتريوس، فصدام قد اعتقل كل الناس الكفؤين، لأنهم كانوا يشكلون التهديد الأعظم لنظامه. من بين أسوأ اللحظات التي شهدها بتريوس كانت بعد أن طار إلى قاعدة صحراوية لإلقاء خطاب أمام وحدة عراقية مؤسسة حديثاً، لتصله أنباء لاحقاً في ذلك اليوم بأن خمسين من المجندين الجدد قد وقعوا في كمين

نُصِب لهم بعد مغادرة القاعدة والتوجّه إلى بيوتهم في إجازة، وتم سحبهم من العربات وإطلاق النار على مؤخّر رؤوسهم.

كان كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٤ شهراً سيئاً بشكل استثنائي. فقد وجد بتريوس نفسه يعمل مع نظرائه العراقيين للتعامل مع النسب المرتفعة من الفرار من الوحدات العراقية، ومع الفلوجة، ومع محافظة الأنبار التي تمت خسارتها بمعظمها لمصلحة المتمردين، وضعف الكفاءة القتالية للقوات العراقية. وتم اغتيال عدد من الشركاء من كبار القادة العراقيين الأساسيين. أصبح الوضع مزرياً للغاية لدرجة أن بتريوس وجد العزاء في كتاب توماس إدوارد لورنس «أعمدة الحكمة السبعة»، وهو كتابه عن القتال جنباً إلى جنب مع العرب خلال ثورتهم في الحرب العالمية الأولى. وقد استذكر بتريوس كيف أن مشهداً واحداً في الكتاب عكس، بتشابه كبير، حال بتريوس: صباح أحد الأيام، خرج لورنس من خيمته ليجد أن كل من كان يقاتل معهم قد ذهب، اختفى خلال الليل. «وقد كان متمرداً من دون قوة»، على حد قول بتريوس، «ومن دون حلفاء، وقد مر يومان اختبرت خلالهما هذا الشعور أيضاً». لكن حين غادر بتريوس في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥، كانت قيادته والشركاء العراقيون قد دربوا قوة كبيرة متزايدة القدرة ومجهزة جيداً، وأوجدوا شكلاً لافتاً من النظام بدلاً من الفوضى السابقة. كان هناك ٢١٠ آلاف جندي في خمسة عشر لواء من الجيش والشرطة العراقيين، ١٠٠ ألف منهم انخرطوا خلال الأشهر التسعة السابقة. وكانت وزارتا الدفاع والداخلية عاملتين، كما كانت مراكز التدريب التمهيدية والمتقدمة، وأكاديميو الشرطة والجيش وحتى قوات العمليات الخاصة المميزة والمتنامية. لم يكن جميلاً جداً، لكن التقدم كان حقيقياً وجوهرياً.

بعدما عاد بتريوس إلى الولايات المتحدة من العراق للمرة الثانية، في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥، إثر جولة قصيرة في أفغانستان لتقويم المهمة نفسها الجارية هناك، سمّاه رئيس أركان الجيش اللواء بيتر سكولميكر قائداً لمركز القوات المشتركة التابع للجيش في فورت ليفنزوورث. اعتقد كثيرون أن رامسفيلد كان يقصي

بتريوس لتصرفه المتهوّر والعنيد في الموصل وبغداد، حيث تجادل أحياناً مع اللواء جورج كيسي وآخرين. لكن هذا تم تكذيبه من خلال أوامر الزحف من شومايكر: «حرّك الجيش يا ديف». وقد استخدم بتريوس المسؤوليات الكبيرة المناطة به للقيام فقط بذلك: المساعدة على القيادة في حقبة مكافحة التمرد الجديدة. فقد وضعوا متمرداً مسؤولاً عن محرك تغيير الجيش.

لم يردعه خلافه مع تانزولا، بل قام لوجان بترتيب أحد زملاء فريقه في سآت ليترأس في مطلع آذار/مارس مجلس شورى لمدى يومين حول مكافحة التمرد لضباط صغار من فيلق الجيش الأفغاني الوطني ٢٠٥، الذي تم تقديمه بلغتي الداري والباشتو. وقد خرج لوجان بهذه الفكرة بعد أن تحداه بتريوس، في كانون الأول/ديسمبر السابق، للمساعدة في «تغيير ثقافة الجيش الأفغاني»[1]. بحلول اليوم التالي، بدأ الضباط الأفغان بالتفتح. كان فريق سآت مذهولاً من الفرق الذي أحدثه بالجلوس معهم في مجلس شورى، من دون ضباط المراتب العليا، ومخاطبتهم بلغة الداري. «نحن متفقون معكم، فعلينا أن نكون نحن من سيختلط مع المحليين»، كما أدلى ضابطٌ أفغاني في الشورى. «لكن الائتلاف لا يدعنا نقوم بذلك. فهم يريدون دوماً أن يكونوا في الطليعة في التحدث مع السكان المحليين. وهم يريدوننا أن نحقق الأمن. كيف نجعلهم يدعونا نقوم بذلك؟»

وقد جاء فريق سآت بكامل زخمه. «كان هؤلاء الأفغان ملتزمين ومنخرطين يتشاركون فعلاً دروساً عظيمة للغاية. وقد أرادوا فعل المزيد، واعتقدوا أن الائتلاف كان يقف في وجوههم، ولا يقدم لهم معلومات كافية، ولا يثق بهم، ولا يسمح لهم بالانخراط مع السكان المحليين، ولا يحترم تقاليدهم». وبالنسبة للوجان، كل ذلك يذهب هباءً أمام القصة المعروفة بأن الجنود الأفغان كانوا خاملين ويفتقرون إلى الكفاءة. «بعد فترة عليكم أن تتقبلوا أننا نتشارك بعضاً من المسؤولية»، على حد قوله. وكانت إحدى أبرز الملاحظات التي صدرت عن الشورى عندما

(١) الرائد فرناندو لوجان، رسالة بريد إلكتروني للمؤلف، ٥ آذار/مارس ٢٠١١.

لاحظ ضباط عدة كيف كان الأميركيون يقحِمونهم في دوريات حتى يواجهوا عبوة ناسفة، وحينها يقول الأميركيون، «ضعوا الأفغان في المقدمة. إنه بلدهم». فبالنسبة للأفغان، الذين آمنوا فعلاً بأن الأميركيين كانوا خائفين بشكل مبالغ فيه واحتموا وراء تكنولوجيتهم، كما قال لوجان، كانوا ينظرون إلى هذا العمل على أنه جُبنٌ مخزٍ.

في الوقت الذي كانت الشورى تُختتم في قندهار، كان بتريوس في كابول، ليعتذر رسمياً لحكومة قرضاي عن غارة جوية شُنَّت بطريق الخطأ في القيادة الإقليمية الشرقية، في وادي بِش من ولاية كُنَر. كان تسعة صبية يجمعون الحطب قد أصيبوا بعد أن اعتقدت فرق المروحيات الحربية عن طريق الخطأ أنهم من المتمردين الذين يطلقون النار من المنطقة عينها. كانت الحادثة الثالثة خلال ثلاثة أسابيع حيث اتهمت حكومة قرضاي قوات بتريوس بقتل المدنيين عشوائياً. اعتبر بتريوس أن منع سقوط الإصابات في صفوف المدنيين هو تحدّ كبير في حرب كان العدو يجد الملجأ بين الناس، أو أسوأ من ذلك، الاختباء داخل مجمعات تأوي أناساً أبرياء. كانت أكثر المسائل التي ركز عليها إلحاحاً هي التعرّف الإيجابي قبل الهجوم، والتي من الواضح أنه لم يتم مراعاتها خلال الغارة التي قُتِل فيها الصبية. كان للخطأ التكتيكي مضاعفات استراتيجية خطيرة، فرفض قرضاي اعتذاره.

قدّم وزير الدفاع روبرت غيتس أيضاً اعتذاره عندما وصل إلى كابول في ٧ آذار/مارس. فقد أتى بالنيابة عن فريق أميركي مفاوِض كان يفترض أن يبدأ بتحديد شكل وجود الجيش الأميركي في أفغانستان بعد أن يتم تسليم دوره القتالي الحالي بالكامل للقوات الأفغانية بنهاية عام ٢٠١٤. كان قرضاي، الذي وافق على اعتذار غيتس في النهاية، يفضّل «شراكة استراتيجية» تمتد لما بعد ٢٠١٤. وذكر غيتس أن الولايات المتحدة[1] كانت «في جهوزية تامة» لتبدأ سحب قواتها في تموز/يوليو، على الرغم من إعلانه أن التخفيضات ستكون محدودة.

(١) Robert Burns, "U.S. Negotiating Security Deal with Afghans," *The Guardian*, March 7, 2011.

في اليوم التالي، طار غيتس إلى قندهار لزيارة قرية تدعى تابين، في وادي نهر أرغنداب. كان يمكن أن يكون صعباً تخيُّل المشهد نفسه قبل ستة أشهر: وزير الدفاع الأميركي يمشي على طريق ترابي ضيق في المناطق الخصبة التي كانت تسيطر عليها طالبان وزرعتها في النهاية بمتفجرات قاتلة من صنع منزلي. لم يكن الأطفال في المنطقة يخرجون إذا كان المتمردون في مكان قريب. أمَّن المقدم ديفيد فلين ورجال مدفعيته الذين بدلوا أسلوبهم، توب غانز، الطريق خلال المنطقة التي ناضلوا كثيراً لتطهيرها. «قبل سنة من الآن، وحتى قبل ستة أشهر، لم يكن بإمكاني قيادة مركبة على هذا الطريق، ناهيك عن السير على الأقدام»، كما ذكر الرائد توم بوريل، ضابط عمليات فلين. وباقتراب موسم القتال في الربيع، لم يكن القرويون قد اطمأنوا بعد إلى أن هذا الواقع الجديد سيدوم طويلاً. «فأنت تتحدث عن أشخاص رأوا أفظع من هذا بكثير على مدى عقود»[1]، قال بوريل، «والآن نحن نتحدث عن تغيير لا يتجاوز عمره الأشهر».

شرح فلين في تابين، وهي قرية تضم نحو ألف نسمة، أن هناك الآن حوالي عشرة أعضاء من الشرطة الأفغانية المحلية المولجة حفظ الأمن في القرية قد خضعوا «للفحص والقبول». وقد تم تدريبهم على يد قوات فلين مستعينين بتقنيات تم تطويرها حديثاً من القوات الخاصة المنخرطة في عمليات استقرار القرى، وهو المسعى الذي وضع حجر الأساس للشرطة الأفغانية المحلية. كما أن تسعة قرويين إضافيين، تمت التوصية بهم من قبل شيوخ القرية وفحصهم من قبل القوات الأميركية، قد تم تدريبهم وفحصهم لكي ينضموا إلى الفصيلة. وقد تسلمت شرطة تابين المحلية بزات شرطة وأسلحة، وكان يُدفع لهم أقل بقليل من عناصر الشرطة الوطنية. بمجرد أن تباشر قوة الشرطة القروية مهماتها، فستتم إحالتها إلى وزارة الداخلية الأفغانية للإشراف والإدارة المتواصلين، كما ذكر

(١) Karen Parrish, “Task Force Works with Afghan Local Police,” Department of Defense Releases, March 9, 2011.

فلين. أرسل فريق غيتس بريداً إلكترونياً للتحديث: «إحدى أفضل الزيارات... منذ أربعة أعوام».

وبالعودة إلى كابول، جلس بتريوس خلال مقابلة مع نيويورك تايمز عشية مغادرته للإدلاء بشهادته في كابيتول هيل في واشنطن. كان قد بدأ يرى الخطوط الستة للعمليات تتوحد جميعها لإحداث أثر حقيقي، حتى وإن ظهر أن كل أسبوع جديد يجلب المزيد من هجمات المتمردين وتفجيراتهم، غير أن تقدم إيساف كان يتزايد بشكل جنوني. وقد وصفت تايمز المقابلة مع بتريوس[1] بأنها «استعراض لما يُرجَّح أن يكون حجته في الأسبوع التالي عندما يدلي بشهادته أمام الكونغرس للمرة الأولى منذ تولّيه قيادة قوات الائتلاف في أفغانستان قبل ثمانية أشهر».

تم إيقاف زخم طالبان، كما ذكر بتريوس، في معظم أفغانستان وردعه في هلمند وقندهار. كانت القوات الأفغانية تنمو عدداً وقدرةً، فقد أزاحت العمليات الخاصة عدداً من المتمردين الرئيسيين عن الساحة. وقد صرَّح بأن المساعي الرامية لإقناع مقاتلي طالبان بأن يسلموا أسلحتهم ويصبحوا جزءاً من برنامج إعادة دمج نجحت بشكل خجول. كما أصر بأن العلاقات مع قرضاي كانت جيدة، على الرغم من الشواهد المتكررة التي تؤكد العكس. وصرَّح بأن إيساف كانت ستركز خلال الأشهر التالية على استراتيجية أُطلِق عليها «الدفاع في العمق» لتصعيب المهمة على مقاتلي طالبان بأن يُبقوا على معاقلهم في باكستان والتمشيط مجدداً على طول الحدود داخل أفغانستان وشق طريقهم باتجاه كابول. الوقت كفيل فقط لمعرفة كيف ستنجح تلك الاستراتيجية على الأرض في أفغانستان، وفي غرف الاستماع في واشنطن.

(١) Carlotta Gall, "Petraeus Says Coalition Has Stymied Taliban in Much of Afghanistan," *New York Times*, March 9, 2011.

الفصل الثامن

واشنطن ذهاباً وإياباً

طار بتريوس إلى واشنطن تحت أعين رادارات الإعلام يوم الجمعة ١١ آذار/مارس، وأمضى عطلة نهاية أسبوع هادئة مع زوجته هولي وابنتهما آن. كانت هولي قد انتقلت من تامبا إلى منزل في قاعدة فورت ماير، في أرلنغتون، فرجينيا، تطل على نهر بوتوماك. وكانت آن في المنزل في إجازة الربيع من كلية الدراسات العليا. كانت تتابع دراستها لتصبح أخصائية تغذية. وقد حذّرت والدها من الحمية منخفضة النشويات، لكنه لم يكن ليرتدع. وقد كتبت مدوّنة مشهورة عن التغذية واللياقة تابعها بتريوس بفخر كبير، وأثار إعجابه أنها اكتسبت حوالى عشرة آلاف معجب.

من دون ملاحظة الإعلام ولكن تحت أنظار فصيلة بتريوس الأمنية، ركض الأب وابنته مسافة سبعة أميال بمحاذاة نهر بوتوماك صباح السبت. كان بتريوس منزعجاً من مختلف التقارير الأخبارية التي وصفته بأنه «مرهق»، وكان يمارس الجري أو ركوب الدراجة الهوائية الثابتة تقريباً كل يوم. فبعد أن كان يركض في كابول على ارتفاع ٥٨٠٠ قدم، كان الركض عند مستوى البحر سهلاً للغاية. كانت فرصة الركض على ممر مستوٍ، بمحاذاة نهرٍ نظيف، منعشة للغاية. فقد كان بعيداً عن عائلته لأكثر من سبعين شهراً منذ ٩/١١. وقد أعطى فريقه يوم إجازة، وهو أول يوم لهم منذ ثمانية أشهر. واستطاع كثير من معاونيه المقربين رؤية عائلاتهم للمرة الأولى منذ مغادرتهم غير المتوقعة في حزيران/يونيو السابق. وقد

عاد حارس أمنه الشخصي، مارك هاول، إلى المنزل في أركنساس لست وثلاثين ساعة فقط. عصر ذاك اليوم، ذهب بتريوس وعائلته لمشاهدة مايو ماكونهي في فيلم «محامي لينكولن» The Lincoln Lawyer في مسرح وسط مدينة واشنطن. كان يعشق هو وهولي أن يشاهدا الأفلام معاً، وكان بإمكانه أن يُنزِل عن كاهله عبء الحرب الكبير الذي كان يحمله، للحظة فقط.

صباح يوم الإثنين، حضر بتريوس أمام «مجلس الاستماع التحضيري»، وهي جلسة تمرُّن على شهادته أمام لجنتي مجلس الشيوخ والقوات المسلحة. والمصطلح هو من قبيل اللعب على عبارة تصف مجلس الترقية لضباط الصف. كان على المرشحين أن يتذكّروا التفاصيل التكتيكية والتشغيلية لكي ينجحوا، وقد استعان بتريوس بمجموعة ضغط واتصالات مقرها في واشنطن ويرأسها لواء متقاعد في سلاح مشاة البحرية سبق أن كان مدير الموظفين في لجنة مجلس النواب للقوات المسلحة. أبلى بتريوس بلاءً حسناً في الشهادة التي سيقدمها أمام الكونغرس جزئياً لأنه أجرى جلسات التمرن هذه. شكّلت الجلسة أصعب ساعتين دون منازع، من دون استراحة، لمحاكاة الشهادة، لكنهما كانتا نافعتين. وقد شارك المقدم طوني دي مارتينو والرائد كيث بينيدكت والنقيب ألستون رمسي، وهم أعضاءٌ في مجموعته لمبادرات القادة، في المحاكاة التي تجريها الشركة، موجهين أسئلة للفيلة (بمعنى الأذكياء الحكماء) وهم جنرالات اللعبة الكبيرة، بأربع نجوم.

هيَّأت الجلسة المكثفة بتريوس لأي سؤال، بالإضافة إلى الجمهور العدواني، على الرغم من أنه، لا هو ولا محققوه، كانوا يتوقعون جمهوراً هذه المرة. كان بانتظار أسئلة حول تكلفة الحرب وعما إذا كانت الدولة قادرة على القيام بمثل هذا الالتزام المالي الضخم، في ظل تركيز الكونغرس على العجز واقتراح تخفيضات ضخمة في الموازنة. عرف بتريوس أنه ينبغي له تقديم حجة مقنِعة ليتمكن أعضاء الكونغرس من نقلها إلى ناخبيهم، الذين كان عدد كبير منهم غير متأثر بالحرب بل ركّزوا على الأمور المالية أكثر من الأمن القومي. كما توقع أسئلة

عن الفساد وإعادة الاندماج والمصالحة في أفغانستان ومبادرة الشرطة الأفغانية المحلية، بالإضافة إلى مخاوف شتى تدور حول باكستان. كان بتريوس سيقرر ما هي المعلومات التي كان من الضروري تسليط الضوء عليها والتأكد في الوقت نفسه من أنه لم يُفشِ أي معلومات سرية. لقد كانت عملية حسابية صعبة. عقب جلسة التمرين، تم تعيين أعضاء من مجموعة مبادرات القادة للبحث عن الأماكن التي أحسَّ فيها بتريوس أنه بحاجة لمزيدٍ من المعلومات.

في وقت لاحق عصر ذاك اليوم، اجتمع بتريوس وغيتس مع أوباما في البيت الأبيض لمناقشة التقدم في أفغانستان وشهادة بتريوس المنتظرة. كان على الاجتماع أن يظهر في البرنامج العام للرئيس لإظهار التضامن، لكنه كان أيضاً فرصة سانحة لعرض تقويم محدَّث على الرئيس. شرح بتريوس عن التقدم الذي أحرزته قوات الائتلاف في الأشهر الأخيرة ولم يكن ثمة مفاجآت حول الحرب، كون الثلاثة كانوا قد تواصلوا في الأشهر الأخيرة في مناسبات عدة عبر محادثات فيديو سرية. كما كان بتريوس يقدم تحديثاً أسبوعياً عن الحرب من خلال محادثات الفيديو لِكل من غيتس ومولن والجنرال البحري جيمس ماتيس، رئيس القيادة المركزية، وكانت تُنقَل بدورها إلى البيت الأبيض ووزير الخارجية.

أصدر البيت الأبيض ملخّصاً من جملتين حول اجتماع ذاك المساء، مشدداً على المسائل الأكثر أهمية للرئيس:

> اجتمع الرئيس ووزير الدفاع روبرت غيتس والجنرال ديفيد بتريوس لمناقشة مساعينا الجارية في أفغانستان، التي شملت فاعلية الغزو العسكري ونمو قوات الأمن الوطني الأفغانية وإعلان الرئيس قرضاي المنتظر في ٢١ آذار/مارس حول بدء الانتقال لقيادة الأمن الأفغاني. كما ناقشوا الخطة القاضية ببدء تخفيض تعداد القوات الأميركية في تموز/يوليو القادم، ومسار إكمال الانتقال الأمني ليصبح مسؤولية الأفغان بالكامل في أواخر عام ٢٠١٤.

في حين كانت واشنطن مليئة بالشائعات حول مهمة بتريوس التالية، لم يذكر أي شيء عنها في هذا الإعلان الصادر عن البيت الأبيض. كما لم تتم مناقشتها في الاجتماع الذي عُقِد بين بتريوس وأوباما. كان بتريوس يعرف أن غيتس ليس بوارد تسميته لرئيس هيئة الأركان المشتركة بعد قيادته في أفغانستان، لأنه كان قد أوضح له تماماً حين ناقشوا المسألة في كابول، وأخذ بتريوس في البداية بالاعتبار فكرة أن يصبح رئيس وكالة المخابرات المركزية. وقد أفاد غيتس أن أوباما كان متحمساً للفكرة، وتطلع بتريوس قدماً لمناقشتها مع الرئيس مباشرة. وقد شجعه اهتمام أوباما، وأدرك أن هذه الرحلة إلى واشنطن كانت فرصته لبلورة القرارات الصعبة التي اتخذها أوباما في أواخر عام ٢٠٠٩، حيث نجح الغزو بتطهير معاقل طالبان في ولايتي قندهار وهلمند.

استمر بعض الصحفيين وضباط الجيش الذين رأوا بتريوس في ميدان العمل خلال الأشهر الثمانية الماضية بالاعتقاد أنه كان منهكاً، وأن الرئيس ربما سيشعر أن هناك خللاً ما، وقد أغاظ هذا بتريوس إلى حد بعيد. وقد أخذت حملة الصيف والخريف ضريبتها من دون شك، فقد كان هناك منحنىً تعليميٌّ شديد الانحدار خلال الأشهر الأولى له في المسرح، وكان غالباً ما يتثاءب خلال الاجتماعات، ويمضغ علكة أتوميك فياربولز ويحتسي القهوة من دون توقف، حتى في المساء، لكن بحلول الشتاء كانت الحملة تؤشر على إحراز تقدم، وخفت وتيرة قتال المتمردين في نمطها الشتوي الدوري. أحسَّ بتريوس بالحيوية بحلول الربيع.

في صباح اليوم التالي، صدر صوت طقطقة مصاريع الكاميرات حين جلس بتريوس على مقعده أمام لجنة مجلس النواب للقوات المسلحة في مبنى ديركسن لمكاتب مجلس الشيوخ. جلست وكيلة وزارة الدفاع للشؤون السياسية ميشيل فلورنوي بجانبه على منصة الشهود، في مواجهة منصة أعضاء مجلس الشيوخ التي تشبه حدوة الحصان. ارتدى أعضاء فريق بتريوس في الجيش بزاتهم العسكرية الرسمية، المكوية بعناية. كانوا قد استيقظوا صباح ذاك اليوم على عنوان في الصفحة الأولى من واشنطن بوست يقول، «الحرب الأفغانية لا تستحق القتال،

كما يقول كثيرون في الولايات المتحدة». فقد تبين في استطلاع للرأي أجرته واشنطن بوست وقناة إيه بي سي نيوز أن حوالى ثلثي الأميركيين تقريباً يعتقدون أن الحرب لم تعد تستحق القتال وهي «أعلى نسبة تعارض الصراع حتى اليوم». وذكرت الصحيفة أنه كان يُتوقع لبتريوس أن يُجابِه «مساءلة صعبة» عن الحرب. مع ذلك، وبمعزل عن محتجَّيْن تمكنا من الدخول إلى الغرفة، كان يسود جوٌّ من الاطمئنان. كان بتريوس متحضراً جداً، وكان أعضاء مجلس الشيوخ يراعون نسبياً قائداً سبق أن مثل أمامهم مرات كثيرة في السنوات الست السابقة. كان جلوسه في مقعد منصة الشهود يعود ببتريوس دوماً إلى العراق وكل المشاعر التي أطلقت لها الحرب العنان كالعنف الذي اندلع عام ٢٠٠٤ وتزايد باستمرار تجاه الغزو في بداية عام ٢٠٠٧.

بعد شهر من وصوله إلى مركز القوات المسلحة المشتركة التابع للجيش في فورت ليفينوورث خريف عام ٢٠٠٥، عقد بتريوس النية على صياغة كتيّب ميداني جديد لمكافحة التمرد. كان سيطلق هذا المسعى الطموح عبر استضافة ورشة عمل شاملة في فورت ليفينوورث، مدرسة الجيش، في شباط/فبراير ٢٠٠٦. وقد اعتبر أن صياغة كتيّب عقائدي جديد للقادة والجنود الذين يقاتلون في العراق وأفغانستان حاجة مُلِحَّة.

كان الوضع في العراق، المسعى الرئيسي للجيش الأميركي، قد تأزم كثيراً، بعد أن غرق البلد في عنف طائفي متطرف اعتقد معه الجميع أنه سيؤدي إلى حرب أهلية بين الشيعة والسنّة. اعتقد بتريوس أنه كان يمتلك الفرصة في فورت ليفينوورث لمساعدة الجيش في تقديم مفاهيم عقائدية لمعالجة المشكلة. وكان يسود اعتقاد بأنه يمكن أن يكون القائد العام التالي في العراق، وقد أخبره رئيس الأركان أنه كان فقط يُعطى فرصة «ليأخذ استراحة محارب» لفترة قبل أن يتشكّل مجدداً. وكان ذلك يؤشّر لحتمية أكبر لتحديد وتقنين أفضل الممارسات في مكافحة التمرد.

كان الكتيّب، المصاغ بالاشتراك مع فيلق البحرية، سيُنشر في جدول زمني غير مسبوق. فوَّض بتريوس د. كونراد كرين، زميله في الأكاديمية العسكرية الأميركية ورئيس معهد التاريخ العسكري للجيش الأميركي، ليقود المسعى، يساعده المقدم جون ناغل، الحائز على منحة رودس، ومن متخرجي قسم العلوم الاجتماعية في الأكاديمية العسكرية الأميركية ومؤلف كتاب لافت عن مكافحة التمرد. بعد شهر من توليه القيادة، أرسل بتريوس الكتيّب بالبريد الإلكتروني كما بدا في حينه لكثير من المفكرين، بمن فيهم إليوت كوهين، الذي عرفه منذ أيام بتريوس في التعليم في الأكاديمية العسكرية الأميركية، وأعضاء من «أل آي سي آيميتس»، معاوني الصراع منخفض الحدّة في الثمانينيات، كان قد التقى بعضاً منهم في أميركا الوسطى عام ١٩٨٧. كان يسعى للحصول على آراء حول محتوياته، وهو مثال آخر عن مقاربته المبنية على بيانات المسح في صنع القرار.

في اليوم السابق للميلاد، أحضر بتريوس رئيسه، اللواء ويليام والاس، لتسريع خططه بخصوص المؤتمر الذي سيُطلِق المسعى، مشيراً إلى أنه خطّط لدعوة «مزيج كبير من حوالي ستين من أصحاب المهن النافذين والأكاديميين والصحفيين وغيرهم»، بالإضافة إلى كل الأطياف من المشكّكين الليبراليين المعتادين، للمشاركة في التنقيب عن «مدينة المعلومات الفاضلة» Infotopia. كان يخطط أيضاً لدعوة خمسة عشر ضابط ارتباط أجنبياً إلى ليفينوورث للمشاركة، بالإضافة إلى المزيد من الممثلين من المملكة المتحدة وأستراليا. مبدئياً كان مركز كار في جامعة هارفرد سيشارك في رعاية ورشة العمل. وكان الأمر مشروطاً بموافقة المستشار العام للجيش.

جسَّد الكتيّب التركيز على كل عمليات مكافحة التمرد الأميركية: حماية الناس من العنف أو الاعتداء أو التهويل التي يمارسها المتمردون. بقي القضاء على العدو وتعطيل شبكات المتمردين نقاطاً حساسة للتركيز عليها. لكن النقطة الأكثر أهمية ـ مركز الجاذبية ـ كانت حماية الشعب. فقد أدى ذلك للحصول على تعاون استخباري أفضل، كما رفع من حظوظ الحصول على حكم محلي

فاعل، وصعّب الأمور على المتمردين بتفعيل عملياتهم. صدر في أواخر عام ٢٠٠٦، أسرع عمل عقائدي يذكره أحد.

لاقى الكتيّب قبولاً من داخل الجيش وخارجه، لكنه أعطى زخماً أيضاً للمشككين العسكريين، الذين قالوا أنه لا يمكن إصلاح الاستراتيجية السيئة في أفغانستان والعراق بتكتيكات سليمة. رحَّب بتريوس بالنقد البنَّاء، وحصل نقاش قوي بين مفكري الدفاع. ولعل أفضل من عبَّر عن مخاوف المشككين كان رالف بيترز، وهو مقدم متقاعد في الجيش وروائي لطالما احترمه بتريوس، لكنه كان قد أصبح أيقونة في نقد الحروب. «إنه أمر سيِّئ للغاية ـ وصفة للهزيمة»، كما كتب. «نحن لسنا في حالة حرب مع أيديولوجيات، لكن مع سلطات دينية وهويات عرقية، فتلك أمور مختلفة جوهرياً. ونحن لسنا في ملايو عام ١٩٥٩. ليس علينا أن نحبَّها، لكن أعداءنا الألداء يوظفون حرباً دينية، وهم غير ميَّالين للإقناع الودي».

كان بتريوس مدركاً للحساسية السياسية للكتيّب، وعدّل الفصل الافتتاحي شخصياً ما بين ثلاثين إلى أربعين مرة. «دعوني أجزم لكم أنه لن يكون هناك تردّد حيال قتل المتطرفين الدينيين (أو أتباع صدام أو غيرهم) الذين يريدون قتلنا»، كما ردّ بتريوس على بيترز عبر البريد الإلكتروني.

«فالوحدة إيربورن ١٠١، على سبيل المثال، ظلت فخورة لقتلها [ابنَي صدام حسين] عدي وقصي والقيام بذلك بطريقة قضت عليهما من دون تدمير باقي الجوار. كما أننا لم نألُ جهداً للقضاء على الرجل الثالث من أنصار السنة، أو قتل أو اعتقال مجموعة من المتطرفين أو المتمردين أو أتباع صدام. إلا أن هدفنا، كان دوماً محاولة إزالة المخربين من الشوارع أكثر من الذين خلقناهم من خلال الأسلوب الذي نفّذنا به عملياتنا. هذا غير سليم من الناحية السياسية؛ إنها طريقة الفوز ـ عندما تُتَوَّجُ بجملة من الأنشطة، وبالطبع، الكثير منها غير عسكري بطبيعته.... يمكن للإنسان، لمزيد من التأكيد، أن يهزم عصياناً أو تمرداً بالقضاء على أعداد كبيرة من الناس، وقد لجأ الرومان لذلك منذ زمن بعيد، كما استعملها أشخاص مثل صدام والأسد في الآونة الأخيرة؛ بيد أن تلك ليست مقاربة متوفرة

لنا». لم ينشر الجيش فحسب الكتيب ذا الصفحات الأربعمئة وتسع عشرة، بل صدر بنسخة تجارية لاقت قبولاً. احتوت تلك النسخة على مقدمة من سارة سيوال، مديرة مركز كار لحقوق الإنسان في هارفرد، والتي بدأ مطلعها: «يتحدى كتيّب مكافحة التمرّد الميداني هذا الكثير مما يعد مقدساً حيال الطريقة الأميركية في الحرب. فذلك يتطلب تغييراً جذرياً وتضحية لمحاربة أعداء اليوم بشرف. إنها إذاً مهمة ومثيرة للجدل على السواء. فأولئك الذين يعجزون عن رؤية جذريّة الكتيّب لا يفهمونه على الأغلب، أو لا يفهمون على الأقل ما يعترض عليه».

أبعد من الكتيّب، رَكز بتريوس جهوده خلال جولته التي استمرت خمسة عشر شهراً في فورت ليفنزوورث على تطوير مفاهيم عمليات سائر الأطياف وجهوزية القادة والوحدات للانتشار. كان جزء كبير من الأخير يصلح «درب الانتشار» للجيش: خارطة طريق منهجية رسمت أنشطة التدريب خضع لها فريق لواء قتالي والمقر الرئيسي لإحدى الوحدات والمقر الرئيسي للفيلق خلال الاثني عشر شهراً تقريباً من التحضير للانتشار. حتى عام ٢٠٠٦، كما اكتشف بتريوس، كانت الوحدات المنتشرة ما زالت تخضع لدورة تدريب قديمة العهد تُسمى «العمليات العسكرية في المناطق الحضرية» كخطوتها الأولى على الطريق. لم يكن التدريب يعكس عمليات القتال وتعزيز الاستقرار التي كان ينخرط فيها الجنود في السنوات الأخيرة. وكانت الوحدات المنتشرة بحاجة للتوجيه والتدريب والتمارين على عمليات مكافحة التمرد، على حد اعتقاده. كان التدريب بحاجة لأن يتضمن فهماً للفروقات الثقافية للمنطقة التي كانت ستنتشر فيها الوحدة، ومفهوم أن حماية الناس كانت الهدف المؤلم وإدراك أن حكم القوة السلسة وتطوير الجهود عليهما أن يتمّما عمليات التطهير العسكرية. إن القلّة إن كان هناك أحد، قد أوضحوا هذا بشكل أفضل من بتريوس في الموصل عام ٢٠٠٣.

تذكر بتريوس زيارته فورت سيل، أوكلاهوما، القاعدة الأم لمدفعية الجيش، والذهاب للجري مع مجموعة نقباء، كان ينبغي على كل منهم أن يكتب خمسة أوامر عمليات خلال دورتهم المهنية كنقباء. «كل تلك الأوامر كانت هي نفسها

كالتي كان ينبغي أن تكونه قبل عملياتنا في العراق». كما استذكر لاحقاً. «بعبارات أخرى كانت عمليات المدفعية الضخمة والمهمات الاعتيادية وحشد البطاريات والكتائب، لا تزال في الأساس مهمات الحرب الباردة القديمة. وسألت: حسناً، ما الذي قمت به في العراق أو أفغانستان؟ أنتم جميعاً محاربون قدامى في جولة، أو في الكثير من الحالات، في جولتين قمتم بهما. كم يبلغ عدد الذين أطلقوا من كتيبتكم مدافعَ في العراق؟».

أجاب معظم النقباء أن بطارية واحدة، على أبعد تقدير، كانت مُهيأة للإطلاق على العدو. أما باقي أفراد الكتيبة فكانوا يتوزعون لتنفيذ دورية أو تأمين القاعدة، أو تأمين منطقة جغرافية. وفي بعض الحالات كانت وحدات المدفعية بأكملها تنخرط في عمليات اعتقال. ومع ذلك، فقد أشار بتريوس إلى أنه «لم يأتِ أمر عمليات واحد على ذكر أي من تلك المهمات على الإطلاق». بعد أن تشارك بتريوس هذا مع قائد مركز المدفعية الميدانية، أغلق القائد الدورة المهنية، مستعيناً بالنقباء المحنَّكين للمساعدة في إصلاح المنهج والبدء بالدورة من جديد خلال أسبوعين. وكان لدى بتريوس اعتقاد بأن التدريبات التحضيرية للمهمة في مراكز تدريب الجيش كانت بحاجة للمزيد من التحسين، فقد طرأت بعض التغييرات على ألاعيب الحرب التي كان يشارك بها الجنود قبل انتشارهم. لعب مدنيُّون عراقيون ـ أو أفغان ـ أميركيون دور مواطنين ومسؤولين محليين عراقيين أو أفغان ومسؤولين محليين خلال المعارك التجريبية، وقام جنود أميركيون بمحاكاة خلايا العبوات الناسفة وجنود البلد المضيف وسيارات الانتحاريين وقادة محليين كان يتوجب على الوحدة في التدريب الاشتباك معهم. لكن بتريوس أراد أن يرى سيناريوهات أكثر فجائية بكثير تسود الاشتباكات التجريبية، أراد مبدأ المفاجأة نفسه والتأكيد على التدريب الواقعي الذي كان يسعى إليه كضابط عمليات في وحدتي المشاة ٢٤ و٣، وقائد كتيبة ولواء. كان الجيش لا يزال يعمل على ضبط التحضيرات لأنشطة الانتشار لتتبع أحد أهم مبادئها: التدريب بالطريقة نفسها التي سنقاتل بها.

كان بتريوس يسعى أيضاً ليؤسس لثقافة التعلم المتواصل لدى القادة الذين حضروا الدورات في المراكز والمدارس التي أشرف عليها. وخلال الحديث مع مجموعة من طلاب الكليات الموظفين في فورت ليفنزوورث، شرح بتريوس فلسفته.

> كل واحد منكم هو طالب في جزء ومعلم في جزء آخر، وخلال عامكم في ليفنزوورث، كل واحد منا... سيكون... جزءاً مما نطلق عليه «محرك التغيير»، كانت مجموعة العناصر التي أشرف عليها مركز القوات المشتركة تساعد الجيش الأميركي في مجابهة التحديات التي تواجه الولايات المتحدة.... فالتغيير، في الواقع، هو أساسي.... فالجيش هو كائن حي. وعلى غرار سائر الكائنات الحية يتبع الجيش قانون الطبيعة الأساسي: قانون البقاء للأقوى. في الوقت الحاضر، تواجه جيوشنا مشكلة كيفية التأقلم مع التغيُّرات في مجال العمليات. وما يشكل تهديداً هو ليس فقط بقاء جيوشنا بل حماية بلداننا، وهو بالطبع، سبب وجود جيوشنا لحمايتها. فالمطلوب، والحالة هذه، هو التأقلم مع التهديد الذي يخيّم على بلدنا.... لذا فعلينا تغيير طريقة تدريب وحداتنا وقادتنا، أي أنتم. التغيير هو بالفعل أمر صعب، لكنه ضرورة مُلِحَّة.

كان يتوجب على الجيش، وباختصار، أن يكون منظّمة تعليمية. وقد عبر كتيّب بتريوس الميداني لمكافحة التمرد عن هذا بوضوح: «الطرف الذي يتأقلم بشكل أسرع هو الذي يسود».

وقد بقيت تلك هي الحال في أفغانستان بالطبع في أواخر شتاء ٢٠١٠ ـ ٢٠١١، كما كان السيناتور ليفين يعرف جيداً. فقد دقَّ بمطرقته سريعاً عند الساعة ٩:٣١. في ١٦ آذار/مارس. وأصغى إلى خطاب أوباما الذي ألقاه في الأكاديمية العسكرية الأميركية في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٩ وأشار إلى أن أوباما قد حدّد تاريخ تموز/يوليو ٢٠١١ موعداً «لبدء عودة القوات الأميركية إلى الوطن». وذكر الأسبوع الماضي، أن الوزير غيتس، وخلال رحلة إلى أفغانستان والمقر الرئيسي للناتو، ذكر

أن الولايات المتحدة ستكون في «وضع جيد» في تموز/يوليو لتبدأ تسليم السلطة للقوات الأفغانية وسحب القوات الأميركية. لكن ليفين أشار أيضاً، إلى أن غيتس أبلغ وزراء دفاع الناتو أن «هناك الكثير من الكلام عن الانسحاب وليس هناك حديث كافٍ عن إتمام العمل بشكل صحيح.

«كلتا الرسالتين والخيط الذي يربط بينهما هو جزء ورزمة، كما أعتقد، من استراتيجية الجنرال بتريوس لمكافحة التمرد، والتي تلعب دوراً فاعلاً في تحول المدّ في أفغانستان»، كما ذكر ليفين. «فنجاح المهمة يعتمد على قوات الأمن الأفغانية التي تسيطر على الأرض، والتي يساعدونها للقضاء على طالبان». كان ليفين مدركاً للكلفة، بالدم وبالمال، وأراد أن يبدأ بإعادة القوات الأميركية إلى الوطن بأسرع ما يمكن. كما أخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن رئيسه من محاولات الجمهوريين المتوقعة لتصويره بأنه ضعيف أو غير وطني لإلحاحه على أن سحب القوات سيبدأ في تموز/يوليو، خاصة في ضوء الغزو وكل شيء آخر كان يرغب أوباما باستثماره في الحرب، بما في ذلك مواهب بتريوس.

وخلال الجلسة، دافع ليفين والديمقراطيون عن قرار أوباما بإعلان بدء سحبه للقوات في تموز/يوليو ٢٠١١ بشكل مُلح لإجبار الأفغان على تحمل مسؤولياتهم بشكل جدي، وقد انتقده الجمهوريُّون لتقويض الجهود الأميركية وتشجيع طالبان. كان ليفين يؤيد الانسحاب ويخطط له بشكل واضح لكنه يستبعد اعتباره بأنه معارض لمسعى الحرب، نظراً للتشجيع على بناء القوات الأفغانية التي كان يدعمها بشدة، للدفاع عن الانسحاب المخطط له، كما نقل عن الجنرال ماتيس، الذي خلف بتريوس كرئيس القيادة المركزية والذي قال إن نقل السلطة إلى القوات الأفغانية «يقوِّض رواية الأعداء حين يقولون إننا موجودون هناك لاحتلال أفغانستان».

أما السيناتور ماكين، زعيم الجمهوريين، فقد أكد التوتّر السياسي، قائلاً: «نحن بحاجة لأن نكون حذرين للغاية حيال سحب القوات الأميركية في شهر تموز/يوليو هذا. فأكثر التصرفات حكمة في تموز/يوليو يمكن أن تتمثل بنقل

القوات من أماكن أكثر أماناً إلى أماكن أقل أماناً في أفغانستان، حيث يمكن للقوات الإضافية أن يكون لها تأثير حاسم. وباختصار، ليس علينا أن نستعجل للوصول إلى الفشل...».

في الوقت الذي حدد فيه كل من ليفين وماكين موقفه، تلَت وكيلة الوزارة فلورنوي بيانها المُحضَّر. وقد لخَّص بعناية ما الذي ورثته إدارة أوباما في أفغانستان عقب استلامها المكتب في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩:

> في الوقت الذي كان انتباهنا فيه منصرفاً عنهم، أعادت القاعدة وطالبان والمجموعات المتطرفة المرتبطة إنشاء معاقلها على طول المناطق الحدودية الممتدة بين أفغانستان وباكستان. ونتيجة لعدم الانتباه هذا، فقد عرَّضنا أفغانستان للمجازفة بعودة سيطرة طالبان عليها والتي من المرجح أن توفر مرة أخرى ملاذاً آمناً للإرهابيين الذين كان بإمكانهم تخطيط وتنفيذ هجمات ضد الولايات المتحدة. عندما تسلم الرئيس أوباما المكتب، أجرى على الفور مراجعة دقيقة لاستراتيجيتنا في أفغانستان وباكستان وكرر تأكيده على هدفنا الجوهري: تعطيل القاعدة وتفكيكها، وأخيراً دحرها ومنع عودتها إلى أفغانستان. على ضوء تلك المراجعة، وجدنا أن الوضعَ في أفغانستان كان أسوأ مما اعتقدنا وأن طالبان قد ضبطت الزخم على الأرض.

جلس بتريوس، وأمامه كوب بلاستيكي أسود مع شعار الوحدة إيربورن ١٠١ على الطاولة، ثم قرأ بيانه الافتتاحي؛ كان بشكل عام تحديثاً للخطاب الذي ألقاه في تشرين الثاني/نوفمبر في مؤتمر لشبونة.

> وبيت القصيد في خط الهجوم، أن تقييم إيساف بأن الزخم الذي حققته طالبان في أفغانستان منذ عام ٢٠٠٥ قد تم وقفه في معظم أنحاء البلد وتم قلبه في عدد من المناطق المهمة. غير أنه، وإن كان التقدم الأمني الذي تم إحرازه خلال العام الماضي مهماً جداً، لكنه هش ويمكن قلبه. علاوة على

ذلك، فمن الواضح أن هناك الكثير من العمل الشاق ينتظرنا مع شركائنا الأفغان لترسيخ مكاسبنا وتمديدها في مواجهة هجوم طالبان المتوقع في الربيع. بيد أن الإنجازات التي ناضلنا من أجلها عام ٢٠١٠ ومطلع ٢٠١١ قد مكّنت المجلس الانتقالي الأفغاني ـ الناتو المشترك من التوصية ببدء التسليم هذا الربيع للقيادة الأفغانية في عدد من الولايات. كما أن إنجازات العام الماضي مهمة جداً كوني أحضّر لتقديم الخيارات وتوصية للرئيس أوباما حول بدء سحب قوات الغزو الأميركية في تموز/يوليو.

وصف بتريوس كيف قامت إيساف، التي تحارب جنباً إلى جنب مع القوات الأفغانية، بطرد طالبان من مسقط رأسها حول قندهار، وكيف أن القوات الأفغانية لم تكن أكبر كماً فقط بل أفضل جودة. كما أشاد باللواء كالدويل لقيادة مسعى تدريب وتجهيز القوات الأفغانية، التي وصفها بأنها «مسؤولية ضخمة، وليس هناك ثمة شيء سهل فيها». وقد وصف توسع الشرطة الأفغانية المحلية بأنه «حرس بلدي يحملون رشاشات إيه كي ٤٧»، وهي إضافة للحملة بمجملها التي كان يأمل أن تعمّم على سبعين مقاطعة، معدل كل منها ثلاثمئة عنصر من الشرطة الأفغانية المحلية. كان سبع وعشرون من تلك المقاطعات، كما أشار «صالحة للعمليات الكاملة».

«هذا البرنامج مهم جداً حيث وضعت كتيبة مشاة أميركية تقليدية تحت الرقابة التشغيلية لفريق العمليات الخاصة التابع لنا في أفغانستان لمؤازرة قواتنا الخاصة ورفع قدرتنا على دعم توسع البرنامج»، كما ذكر، مقراً بشكل ضمني أن فلين كان مصيباً باعتقاده أن القوات التقليدية أمثال توب غانز كانت قادرة فعلاً على تدريب الأفغان على حماية قراهم. بالإضافة إلى ذلك كان فريق العمليات الخاصة والقوات التقليدية ـ الذي كان موضع انتقاد بعض الأشخاص في البداية ـ يثبت أنه إضافة مهمة لمبادرة الشرطة الأفغانية المحلية، مُخوّلة القوات الخاصة إنشاء فصائل شرطة أفغانية محلية بشكل أسرع بكثير وفي المزيد من الولايات، وهو مفتاح الدفاع ضد تسلل طالبان إلى القرى. كان سيضيف للمسعى كتيبة مشاة تقليدية ثانية من الوحدة إيربورن ٨٢.

خلال مراجعته لكل عنصر من خطة حملته، قد يكون بتريوس استعرض بشكل جيد شريحته المتعلقة باستراتيجية أناكوندا على جدار غرفة الاستماع. كان هناك ستة خطوط للعمليات: حماية السكان، وتعطيل شبكات المتمردين، وبناء القوات الأفغانية المسلحة، ودعم الحكم الشرعي، وتبني تنمية مستدامة، وتحييد شبكات رعاية المجرمين. أخبر بتريوس أعضاء مجلس الشيوخ أن إعادة دمج المتمردين المستعدين للمصالحة على المستويات المحلية قد استمرت أيضاً كعنصر مهم من خطته، لأننا «ندرك أنه لا يمكننا نحن ولا شركاؤنا الأفغان قتل أو اعتقال من يشكلون الطريق للخروج من التمرد في أفغانستان». في الأشهر الأخيرة، كما قال، كان سبعمئةٍ من طالبان قد أعيد دمجهم رسمياً مع الحكومة الأفغانية، وكان ألفان غيرهم أثناء عملية إعادة الدمج.

حول مسألة الإصابات في صفوف المدنيين، أشار إلى أن الدراسة الأخيرة للأمم المتحدة خلصت إلى أن الإصابات في صفوف المدنيين الناجمة عن عمليات إيساف قد انخفضت ٢٠ بالمئة عام ٢٠١٠. لكنه أوضح أيضاً أنه أمر بإجراء «مراجعة لتوجيهاتنا التكتيكية حول استخدام القوة على المستويات كافة في سلسلة قيادتنا ومع الطواقم الجوية لمروحياتنا الحربية»، نظراً للأحداث التي جرت في شباط/فبراير والتي دفعته للاعتذار من قرضاي. وبالرغم من علاقته مع الرئيس الأفغاني التي كانت مليئة بالتحديات، فلم يلمح إليها بتاتاً خلال جلسة الاستماع. وعند نقطة معينة، ردّد عن لسان غيتس ملاحظة كان أدلى بها مؤخراً عن أن بعض القادة الأميركيين لم ينصتوا جيداً لقرضاي. «فما يقوله مبرر نظراً للإصابات في صفوف المدنيين»، على حد قول بتريوس. «لا يمكننا إلحاق الأذى بالناس الذين نوجد هناك للمساعدة على حمايتهم. وعلينا أن نحميهم من كل إصابات المدنيين، ليس فقط أولئك المؤيدين لنا أو أولئك الذين هم من شركائنا الأفغان، لكن أولئك الذين يؤيدون المتمردين أيضاً».

في الأسبوع التالي، قال بتريوس إن قرضاي سوف يعلن أي مقاطعات سيتم تسليمها هذا العام للقوات الأفغانية من ضمن العملية الانتقالية، المفترض إنجازها

تدريجاً حتى العام ٢٠١٤. و«سيتم نقل المسؤولية من إيساف إلى القوات الأفغانية بوتيرة تحكمها الظروف على الأرض»، كما شرح بتريوس، «وبوجود تقويمات مقدَّمة من الأسفل إلى الأعلى لتمكين أولئك الذين هم في مستوى قيادة العمليات في أفغانستان من تخطيط التعديلات الهندسية المنبثقة عن أرض المعركة مع شركائنا الأفغان». بعد أن أنهى بتريوس قراءة بيانه الافتتاحي، سأل ليفين عما إذا كان يؤيد بدء تخفيض الجنود في تموز/يوليو، فأعلن بتريوس أنه كان يرضى بالخطة.

«ولماذا تؤيد بدء تخفيض الجنود في تموز/يوليو هذا؟» سأل ليفين.

«اسمح لي أن أعود إلى بيانك الافتتاحي، حضرة الرئيس. أعتقد أنه من المنطقي الحديث عن إنجاز العمل، كما فعل الوزير غيتس مع النظراء في الناتو، وبدء الانتقال والتخفيضات (المسؤولة) ـ للأمانة باستخدام عبارة أوباما ـ في القوات بوتيرة تحكمها الظروف على الأرض»، على حد قول بتريوس. «كما أشار صديقي الحميم وزميلي الجنرال جيم ماتيس، فهي تقوّض رواية طالبان بأننا سنبقى هناك إلى الأبد، وبأننا عازمون على إبقاء وجودنا إلى الأبد. فهي تبعث فعلاً، كما أخبرت هذه اللجنة سابقاً، تلك الرسالة المستعجلة التي كان الرئيس أوباما يسعى لنقلها في أول كانون الأول/ديسمبر في الأكاديمية العسكرية الأميركية عام ٢٠٠٩، عندما نقـلَ أيضاً رسالة التزام إضافية ضخمة على شكل ثلاثين ألفاً إضافياً من القوات الأميركية والمزيد من التمويل للقوات الأفغانية والمزيد من المدنيين».

ركزّ ماكين على قصة الغلاف في نسخة واشنطن بوست لذلك الصباح، قائلاً إن معظم الأميركيين اعتقدوا بأن الحرب الأفغانية لم تكن تستحق القتال. «هل يمكنك الإجابة على استطلاع الرأي هذا وربما كان لديك بضع عبارات لتوصلها للشعب الأميركي حول هذا الصراع؟» سأل ماكين. «ويمكنك أن تذكر عواقب الفشل».

«عند خط الهجوم، يمكنني أن أفهم الإحباط»، أجاب بتريوس، وهو يعرف

أن هذه كانت لحظة مهمة لاستمرار دعم للحرب من قِبَل الشعب الأميركي، الذي دفع الفواتير في النهاية وقدَّم الجنود.

> لقد انهمكنا بهذا لمدى عشرة أعوام. أنفقنا مبلغاً ضخماً من المال. تكبدنا خسائر فادحة وجراحاً صعبة تغيّر منحى الحياة. كنت في [المركز الطبي للجيش] المسمى والتر ريد البارحة أتفقد بعض جنودنا الذين تغيرت حياتهم إلى الأبد بمناسبة خدمتهم في جيش بلدنا في قتال ضارٍ. لكنني أعتقد بأن من الضروري أن نتذكر لماذا نحن هناك في مثل هذا الوقت. من الضروري أن نتذكّر أن ٩/١١ بدأت من هناك. تم تصميم الخطة من هناك. وتم تدريب المهاجمين التدريب الأولي هناك قبل أن يتوجهوا إلى ألمانيا ومنها إلى كليات الطيران في الولايات المتحدة. هناك امتلكت القاعدة أهم معقل لها في العالم، وقد أدارته بقيادة طالبان. في ذلك الوقت، بالطبع، كانت طالبان تسيطر على كابول والأغلبية العظمى للبلد. وبالفعل، فنحن نرى أن القاعدة في بحث مستمر لإنشاء معاقل لها.

لم يكن بتريوس يوارب في إيمانه بالقضية. فقد رأى الصراع والحرب العالمية الأشمل على الإرهاب، كمسعى متواصل لاحتواء العدو ومواجهته، أقرب ما يكون من الحرب الباردة. لم يكن هناك تاريخ انتهاء، وقد ألهم رفضه المغادرة معجبيه. وأودى بالمشكّكين بالحرب، بمن فيهم نائب الرئيس وبعض مسؤولي الأمن القومي في الجناح الغربي، إلى الجنون. فقد كانوا يظنون أن بتريوس لم يُرِد سوى المزيد من القوات. وكانوا يظنون أن بتريوس سيواصل القتال إلى الأبد.

استهل السيناتور غراهام استجوابه على صعيد شخصي. «حضرة الجنرال بتريوس، كم يبلغ عدد أعوام خدمتك في الخارج منذ ٩/١١؟ هل تعرف ذلك؟»

«حسناً، لقد مضى أكثر من ست سنوات، لأنني قضيت سنة في البوسنة، وحوالي أربع سنوات في العراق، ومن ثم كما تعلم، ثمانية أشهر ونصف الشهر

هنا، يعتمد ذلك على قواعدكم المحاسبية مع القيادة المركزية، كما أظن، حيث أمضينا، كما أعتقد، ٣٠٠ يوم من ٣٦٥ يوماً الأولى على الدرب».

«ما الذي يبقيك مستمراً؟» سأل غراهام.

«لا شك في أن من أعظم الامتيازات أن أكون في الخدمة مع شباننا وشاباتنا في الزي العسكري. عندما يتوجه الرئيس إليك في المكتب البيضوي ويسألك أن تقوم بأمر مهم لبلدنا، فليس هناك سوى إجابة واحدة. أنا أؤمن بشدة أن شباننا وشاباتنا بالزي العسكري في أماكن كأفغانستان والعراق وغيرهما حول العالم قد استحقوا بكامل جدارة لقب: الجيل الجديد الأعظم».

بعد الاستجواب من قِبَل تسعة أعضاء آخرين من مجلس الشيوخ، تناوب خلاله الجمهوريون والديمقراطيون، طرق ليفين بمطرقته معلناً انتهاء الجلسة، مشيراً إلى أن تكلفة زيادة قوات الأمن الأفغانية بنحو ٣٠٠,٠٠٠ جندي تُعتبر «أرقاماً صغيرة مقارنة بتكلفة إبقاء قواتنا في أفغانستان» ٨ ـ ١٠ مليارات دولار أميركي سنوياً، مقابل ٨٠ مليار دولار أميركي. (لاحقاً، سيتولى بتريوس وكالدويل مسعى لتخفيض المبلغ السنوي المتوقع إلى معدل ٣ ـ ٤ مليارات دولار أميركي سنوياً). أخيراً، أشار ليفين إلى أن بتريوس قدَّم مجموعة جداول بيانية مهمة لتدعم شهادته لكنه لم يذكر اسمه عليها، كونها أحد «المساهمات». أما اسم مكريستال فقد بقي. ربما كانت تواضعاً لا لزوم له، كما أخبر ليفين اللواء، لكن اسمك ينتمي لها. ثم خاطب بتريوس قائلاً: «نحن نشكرك. لديك قوة صمود هائلة».

وصلت الدعوة إلى اجتماع يوم الجمعة مع أوباما في البيت الأبيض عصر ذلك اليوم في الوقت الذي أرسلت الصحافة فيه أخباراً متفائلة حول التقدم في أفغانستان بناءً لشهادة بتريوس. لم تتم الإشارة إلى فريقه عما سيكون موضوع الاجتماع، لكنهم كانوا يأملون بأن يناقش الرئيس الخيارات لمهمة بتريوس التالية. من الممكن أن يتم إبلاغه، «شكراً على خدمتك، أحسنت فعلاً»، أو ربما هناك مفاجأة. لم يكن سوى عضو واحد من دائرة بتريوس الداخلية ـ

العقيد هيكمان ـ وزوجة بتريوس، هولي، على علم بأن تولي منصب رئيس وكالة المخابرات المركزية كان خياراً جدياً وقد كان فعلاً ما يريد بتريوس القيام به.

وفي صباح اليوم التالي، وقف صف من أكثر من مئة شخص أسفل القاعة خارج غرفة الاستماع في مبنى رايبرن لمكاتب مجلس النواب، ولم يكن هناك سوى ستة عشر مقعداً في الداخل لشهادة بتريوس أمام لجنة مجلس النواب للقوات المسلحة. أحاط بتريوس بالنواحي نفسها التي أحاط بها في اليوم السابق خلال شهادته أمام لجنة أعضاء مجلس الشيوخ، حيث بدا التباين في الأهداف السياسية بين الجمهوريين والديمقراطيين أكثر وضوحاً.

قرأ النائب والتر جونز، وهو جمهوري من شمال كارولاينا يضم قضاؤه كامب ليجيون، مركز البحرية على الساحل الشرقي، من رسالة لجندي: «لا فرق إن بقينا هناك أربع سنوات أو ٤٠ سنة. فالنتيجة ستبقى نفسها. فالحرب تُكبّد الولايات المتحدة مليارات الدولارات في الشهر. سنواصل الدفع بالمزيد من الشبان الأميركيين إلى الهلاك. فالأفغان ليس لديهم موعد انتهاء ـ وهذا ليس لديه موعد انتهاء بالنسبة لنا. أنا أحثكم على التواصل مع سائر الأعضاء الحاليين والمنتخبين حديثاً في الكونغرس والطلب إليهم إنهاء هذه الحرب وإعادة شباننا وشاباتنا إلى وطنهم».

باللّه عليك، كم نستطيع احتمال المزيد؟» سأل جونز. «كم نحتاج بعد لتقديمه من الأموال والدماء؟».

«لو أنني شعرت يوماً أننا لا نستطيع تحقيق أهدافنا، فسأكون صريحاً جداً مع سلسلة قيادتنا، مع رئيس الولايات المتحدة ومعكم جميعاً»، أجاب بتريوس بهدوء. استفز سؤال جونز الموجَّه، المشحون بالعواطف، بتريوس بشكل لم يعهده من قبل. أجاب بتريوس إجابات صادقة على مدى يومين من الشهادة المستمرة. وقد أفصح أن ابنه، الملازم أول ستيفن بتريوس، قاد فصيلة قتالية خلال معارك عنيفة عام ٢٠١٠. «نحن فخورون جداً بما قمنا به»، كما أفاد بتريوس. «كان يعتقد أنه يقوم بشيء في غاية الأهمية». ومن دون الاستفاضة في هذه المسألة،

أوضح بتريوس بشكل قاطع ما الذي كان مستعداً لتقديمه والتضحية به. خدم ستيفن بتريوس في الخطوط الأمامية وسمع ضجيج الدوريات القادمة بصفته قائد فصيلة مشاة أثناء كل دورية تقريباً.

ثم جاء دور النائب لوريتا سانشيز، وهي ليبرالية ديمقراطية من جنوب كاليفورنيا كانت تعارض الحرب ولا تثق بالجيش، ولم تتوانَ في جعل ذلك في غاية الوضوح. كانت قد استفزّت بتريوس في أحيان كثيرة على مر السنين، وكان بتريوس جاهزاً. وقد أبرزت حالات الإحباط لدى كثير في أميركا شكّكوا بالأهمية الاستراتيجية للقتال الأبدي في أفغانستان ولم يصدّقوا «التأكيد المتفائل» لبتريوس بأننا انتزعنا الزخم من طالبان. «لديَّ بعض الأسئلة لك، حضرة اللواء» كما قالت. «نحن في أفغانستان منذ عشر سنوات، وقد خسرنا أكثر من ألف وأربعمئة من الأميركيين، وأنفقنا أكثر من ٣٠٠ مليار دولار أميركي على هذه العملية العسكرية وحدها. ما الذي يعنيه النجاح في أفغانستان؟».

«حسناً، شكراً جزيلاً، حضرة النائب»، أجاب بتريوس. «فالنجاح في أفغانستان هو أن تكون الدولة قادرة على إحلال الأمن وحكم نفسها، وإذا قامت ذلك، فستمنع إعادة إنشاء معاقل من القاعدة والمجموعات المتصلة بها»، كما أدلى بتريوس.

أشارت سانشيز ألى أنه كان يتناقش مع غيتس في هذا الوقت حول الحصول على قوات في أفغانستان بعد عام ٢٠١٤. «بطريقة ما وصل لصوص المهمة إلى هذا الشيء»، كما أفادت. بعد أن تشاحنت مع اللواء حول مسألة تدريب القوات الأفغانية والتزام حلفاء الناتو مع أميركا، انتقلت سانشيز إلى الفساد في أفغانستان. «الفساد، بشكل عام، هو الحالة الأفغانية» كما أفادت.

أما بتريوس، الذي احترم مشاكسة سانشيز واستمتع بالتحدي الذي قدمته، فقد ذكر مساهمة مكماستر وقال بأنه رحَّب بفرصة «تقديم ذلك لكِ بالتفصيل». وأثارت سانشيز عدداً من المسائل الشرعية، واعتقد بتريوس أنه كان من الضروري أن يحرص على حصولها على إجابات شافية. لم يكن يعتقد أنها ستبدل رأيها،

لكنه اعتبرها واجبه في وصف العمل الجيد الذي كانت جماعته ـ بعضهم كانوا من جماعتها ـ تقوم به في أفغانستان.

في الأسابيع التي سبقت شهادة بتريوس، سرت تقارير في الإعلام بأن أوباما صمّم على تسميته رئيساً لوكالة المخابرات المركزية. وفي حين عرف بتريوس أن الرئيس كان يفكر في ذلك الاحتمال، فقد كان عليه أن يتكلم مع أوباما بخصوص مهمته التالية ولم يعرف تحديداً ما الذي سيفعله حيال التسريبات. وقد أكد السيناتور غراهام خلال اجتماع في اليوم التالي لشهادة بتريوس في مجلس النواب أن بتريوس كان، أقل ما يُقال فيه، منافساً قوياً لمنصب وكالة المخابرات المركزية. وقد ذكر غراهام أنه سمع مع أعضاء آخرين من مجلس الشيوخ أنه تخلى عن الترشح لرئاسة هيئة الأركان المشتركة، لكن سيُعرض عليه منصب رئيس وكالة المخابرات المركزية، ومن الممكن أن يتقاعد من الجيش قبل توليه المنصب. لكن لو كان مسموحاً له أن يتسلم المنصب ويحافظ على زيه العسكري، كما كان مسموحاً للّواء مايكل ف. هايدن، على حد قول غراهام، لكان «حلفاً شيطانياً» من أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين والديمقراطيين سيسعى لمنحه نجمة خامسة لكل ما أنجزه في العراق وأفغانستان. كانت النجمة الخامسة حركة سياسية محضة، لكن غراهام كان عازماً على جعلها تتحقق إذا ما واتته الفرصة. أخبر بتريوس غراهام أنه يقدّر الفكرة لكنه أوضح بلباقة أن مثل تلك الأفكار قاربت حدود اللامنطق.

على قدر ما تمّت الشهادة بسلاسة، لكنها لم تلقَ الانتباه الكافي، نظراً لانشغال الإعلام بالتسونامي في اليابان، بالإضافة إلى الاقتصاد المشلول والصراع على الموازنة. لم يكن جلياً ما إذا كان ثمة أحدٌ في الكونغرس قد غيّر موقفه من الحرب. بعد أن أصبحت الشهادة وراء ظهره، ملأ بتريوس بقيَّة أسبوعه بالتزامات إضافية. وبين الالتزامات، فقد أجرى اجتماعات مغلقة مع قادة مجلسي الشيوخ والنواب. بعد أن أنهى عقبة الشهادة في كابيتول هيل، انحسر التوتر. «كيف حال معنويات اللواء؟» سأل أحد الصحفيين حارس الأمن الشخصي لبتريوس، مارك هاول. «مرتفعة بشكل استثنائي، كما أعتقد»، أجاب هاول، وأضاف: «في

العادة عندما نعود إلى الشهادة، يعاني الجميع قليلاً مما ندعوه نحن [الموظفين] النداء (بي تي أس دي) ـ نداء بتريوس لما بعد الصدمة. لكنني ألمس شعوراً بالطمأنينة من الرئيس وكأنه يقول: أنا حيث أريد أن أكون. فلتسقط الأوراق أينما تسقط». قاد بتريوس موظفيه بحزم وتوقّع من أولئك الذين من حوله أن يعملوا بجهد كما فعل. كانت المطالب على جدوله المتواصل خلال رحلات عودته إلى واشنطن ثقيلة على الجميع. وعلى الرغم من معاملة بتريوس لفريقه بحزم فقد عاملهم بشكل جيد وجعلهم يدركون كم كان يعتمد عليهم ويقدّر عملهم الجبار. كما أنهم أدركوا أن امتنانه ليس «مرحلياً»: فبمجرد أن تصبح رجل بتريوس، ستصبح رجل بتريوس دائماً في ما يتعلق برسائل التوصية والنصائح والمراجع وأشكال أخرى من المساعدة.

كان واضعو برنامج بتريوس بانتظار كلمة طوال الأسبوع حول موعد لقائه مع الرئيس يوم الجمعة. لكن بحلول الساعة ١٠:١٥ صباحاً. من يوم الجمعة، لم يكن البيت الأبيض قد أدرج بتريوس بعد على جدول مواعيده. وعند الظهر تم إخباره بأنه كان يُفترض به الاجتماع مع رئيس هيئة الأركان المشتركة الأميرال مولن بعد أن اجتمع مولن أولاً مع أوباما. وعندما اجتمع مع مولن عند الساعة ٤:٠٠ عصراً، أخبره الرئيس أنه كان المرشح الأبرز لمنصب وكالة المخابرات المركزية. لكن إذا وافق على المنصب، فعليه التقاعد من الجيش. كان معاونوه عناصر مفرزته الأمنية في مزاجٍ صافٍ بينما كانوا يقودون فوق النهر، حتى لو أنهم لم يكونوا متأكدين مما ينتظرهم. لقد أعطاهم اجتماع القائد مع أوباما بعض الأمل بأن مستقبلهم قابل للتسوية. كانوا قد سمعوا الإشاعات في ذلك الحين وكانوا يبحثون في التداعيات. فإذا تقاعد وذهب إلى وكالة المخابرات المركزية، فعليهم البحث عن وظائف جديدة. وإذا تسلّم منصب وكالة المخابرات المركزية وأبقى على زيه العسكري، فهل سيذهبون معه؟ ولئن كانت هناك معجزة ما بخصوص العمل وارتأى الرئيس أن يختاره رئيساً لهيئة الأركان المشتركة، فعندها لا شك أنهم سينتقلون إلى واشنطن للقيام بجولاتهم التفقدية.

حافظ بتريوس على رباطة جأش أمام الجميع. وكان يقبع خلف القناع، إحساس متواصل بالإحباط حيال تقدير ولائه. فقد نُقِل له أن بعض الأعضاء في البيت الأبيض ما زالوا يعتقدون بأن لديهم «عقبة بتريوس». لكن بتريوس كان يعتقد بأنه اجتاز كل اختبار للولاء أُعطي له. كان قد تولى القيادة بتوصية من الرئيس، وحتى أنه، وهو ما لم يعرفه كُثُر، كان يتقاضى حصة لتنازله عن منصب القيادة المركزية بعد أن تولى القيادة في أفغانستان. وقد نجح بقيادة حملة لوقف زخم طالبان في ولايتي قندهار وهلمند. وكان يؤيد السياسة في كابيتول هيل والناتو ومع الصحافة.

ناقش السيناتور ليندسي غراهام مع بتريوس أنه كان بإمكانه كرئيس لوكالة المخابرات المركزية، أن يحوز على نفوذ أكبر في الحرب على الإرهاب. كان سيدير عمل المهمات السرية حول العالم. وكان منصب رئيس هيئة الأركان ذا أهمية كبرى كمستشار عسكري رفيع المستوى للرئيس ووزير الدفاع؛ غير أنه، كما أشار غراهام، فالمنصب ليس قيادة، بل يعتمد بشدة على العلاقة بين رئيس هيئة الأركان ووزير الدفاع في ما يتعلق بالأمور التشغيلية الجارية، كون الوزير في الواقع يقوم بإصدار قرارات في البنتاغون. اعترض بتريوس، لكن زملاءه ومستشاريه المقرّبين كانوا قلقين من أن تكون وظيفة وكالة المخابرات المركزية هي مجرد طريقة للإدارة لتبقيه على الضفة. فمن الممكن ألا يُسمح له بحضور اجتماعات مجلس الأمن القومي الدورية، وربما سيضطر إلى حد ما للبحث عن بقعة ضوء عامة ليسوّق للوكالة، كما فعل لمدى سنوات في الجيش. اعتقدوا أنه لم يكن يعرف وكالة المخابرات المركزية أو قواعدها وأنظمتها، والتي من شأنها أن تصعّب عليه الأمور لإيجاد حلول للمشاكل واللجوء إلى قوة إرادته للسيطرة على البيروقراطية. كان يتوجّب عليه، لتولّي المنصب، أن يكون مدنياً وأن يتخلى عن الميداليات والأوسمة المعلّقة على زيه والتي مثّلت جزئياً درعاً واقية.

وفي البيت الأبيض استقبل أوباما بتريوس بمصافحة يده بحرارة. وقد جلسا من جديد رجلاً لرجل، أحدهما قرب الآخر، على الكرسيين نفسهما اللذين جلسا

عليهما في أواخر حزيران/يونيو ٢٠١٠، عندما طلب الرئيس من بتريوس أن يذهب إلى أفغانستان. وقد لاحظ أوباما أن جلسات الاستماع حول أفغانستان في ذلك الأسبوع قد سارت جيداً كما يبدو. ونقلاً عن معاونين تم إعلامهم بملخّص الاجتماع عقب انتهائه، فقد أثار المسألة التي تشغل بال بتريوس. وأشار إلى أنه كان، ومنذ مدة، متحمساً لفكرة تعيين بتريوس رئيساً لوكالة المخابرات المركزية. كما أخبر بتريوس بأنه سيكون رئيساً عظيماً. لم يكن ثمة منصب أفضل لبتريوس من وكالة المخابرات المركزية، على حد قول أوباما، لكي يتابع بالمساهمة في المهمات التي انخرط فيها كثيراً في العقد الأخير. وقد بدا أن خبرة بتريوس الميدانية، بما في ذلك تلك التي كانت مع المجتمع الاستخباراتي في البوسنة والعراق وأفغانستان ومسرح القيادة المركزية العظيم، إضافة إلى سرعة بديهته، قد جعلته ملائماً بالفطرة.

لكن أوباما أضاف أنه كان يعتقد بأن على بتريوس أن يدير الوكالة بصفة مدنية. فوكالة المخابرات المركزية لم تكن هي الجيش، وكان لدى أوباما حساسية حيال الخطوط الضبابية أصلاً بين الاثنين. ولم يكن إبقاء بتريوس على زيّه ليقدّم سوى التباس أكبر في المسألة، خاصة عندما سافر إلى منطقة القيادة المركزية والتقى القادة الوطنيين. ذكر بتريوس أنه فهم بالكامل. وقد سبق أن ناقش المسألة مع الوزير غيتس وقررا أن عليه أن يتقاعد من الجيش إذا عُرِض عليه المنصب. وأخبر أوباما أنه يعتقد بأن خلعه الزي سيوصل رسالة قوية للقوى العاملة في وكالة المخابرات المركزية، ووافق أوباما. ثم ناقشا بعدها شعور أوباما حيال طريقة التشغيل التي سيعتمدها رئيس وكالة المخابرات المركزية. فقد اعتقد بأن على الرئيس أن يمثّل مواقف محلّلي الوكالة حيال المسائل، لكن أوباما سيرحّب بآراء بتريوس الشخصية أحياناً إذا كان هناك شيء من الاختلاف بينها وبين آراء المحلّلين، ووافق بتريوس. وختم أوباما الحديث بالقول إنه بحاجة لمناقشة اختيار بتريوس مع آخرين غيره وأنه سيحسم هذا القرار في الأسابيع التالية.

كان بتريوس في مزاجٍ صافٍ حين غادر البيت الأبيض وأقلّته سيارته السوداء

من طراز يوكن. ثم فتح حاسوبه المحمول وقرأ بريداً إلكترونياً يحمل عنوان حرف «U».

«حظاً سعيداً. أعتقد أنك فزت»، كما كتب مستشاره كيث نايتنغيل.

كان بتريوس محيّراً في ردوده.

«شكراً كيث، إنه أسبوع جيد، في الواقع. لقد غادرت لتوي اجتماع رجلٍ لرجل مع رئيس الأركان»، كما ردَّ بتريوس.

«تهانينا. الأشخاص الطيبون يفوزون. متى يصبح رسمياً؟» ردَّ نايتنغيل.

«لا تقفز إلى استنتاجات خاطئة، أيها الجوّال! لكنه جيد، بأي حال...»، كما ردَّ بتريوس، بشكل محيّر.

«إنْ كنت سعيداً فسنكون نحن سعداء أيضاً. تقدَّم بسرعة!» كما كتب نايتنغيل.

«ج.هـ.ف.ط»، كما ردَّ بتريوس ـ مختصراً عبارة «الجوالة هم في الطليعة».

«خُذ قسطاً من النوم. فقد استحققته عن جدارة. والعالم يمكنه أن ينتظر. نعم. ج.هـ.ف.ط.!» ردَّ نايتنغيل.

«بالفعل، يمكنه ذلك، يا كيث. أسبوع عظيم... واحتمالات مثيرة...»، قال بتريوس.

«ما يهم فعلاً هو نظرتك إلى المهمة لما يمكنك إنجازه من خلالها لتعميم الخدمة. وكل ما عدا ذلك لا يهم. انتهِز الفرصة»، ردَّ نايتنغيل.

«تموضع يا كيث. أو كما يقول قائد المدرعة، استهدِف! ج.هـ.ف.ط.ـ ديف».

قاد بتريوس سيارته إلى مبنى كابيتول لحفل توزيع جوائز لفريق من فلوريدا قدموا كل إمكاناتهم في دعم جنود القيادة المركزية ـ وهو حفل كان موعده في الأصل في تموز/يوليو السابق وقد تم تأخيره ثمانية أشهر ـ ثم دعا إلى عشاء

صغير، مع هولي، في مطعم محلي. كان اجتماعياً، لكنه كان شارد الذهن حيال كل ما تمخَّض عنه ذلك الأسبوع، خاصة في ما يتعلق باحتمالات الوظيفة. على قدر ما كان الفريق المحيط به يعرف، وحتى معاونوه الشخصيون، فسيعودون إلى أفغانستان ومستقبلهم غير محدّد. فالاجتماع، وعلى حد اعتقادهم، لم يأتِ بأي حلّ لهم، لكنه لم يغلق أي باب أيضاً.

بشكل عام، كان بتريوس وفريقه راضين عن كيفية انتهاء الأسبوع. اعتاد فريق بتريوس إجراء مراجعات لاحقة للحدث بعد الشهادة أمام الكونغرس لإجراء عصف ذهني حول الاحتمالات الممكنة لإجابته بشكل أفضل، وما الذي سار بشكل جيد، وما هي «الأسئلة المسجّلة» التي كانت مجموعة مبادرات القادة ستصوغ إجاباتها على مدى الأسابيع القليلة التالية. كانت جولة الشهادة تلك ربما هي الجولة «الأكثر خلوّاً من الأحداث» التي أجراها، كما اعتقد معاونوه. «فقد اكتفوا بتصويب أسئلة بسيطة»، كما أفاد عضو من المقرَّبين كان يلازم بتريوس في كل ظهور له أمام الكونغرس منذ أن تولى قيادة الغزو في العراق عام ٢٠٠٧.

طار الفريق مجدّداً إلى كابول عبر لندن. لخَّص بتريوس لرئيس الوزراء ديفيد كاميرون، ووزيري الدفاع والخارجية، ورئيس موظفي وزارة الدفاع، حالة الحرب في أفغانستان والظروف التي تحكمها في واشنطن. بقي أعضاء الفريق ليلتين في لندن اتَّبعوا خلالها روتينهم المعتاد. وكانت إقامتهم في فندق غروفنرهاوس ماريوت، مقابل هايد بارك، مع غرفٍ للأعضاء المعاونين، وهم «مفكرون متخصصون» في مجموعة المخابرات المركزية وسائر معدات اتصالاتهم السرية. عرف موظّفو غروفنرهاوس بتريوس، وقد استمتع بالفرق الشاسع بين الفندق ومسكنه في حاوية كونِكس في كابول. كان الفريق متحمساً جداً لممارسة الجري في هايد بارك ـ وهو لفة لنحو ٤,٢ أميال على مستوى البحر في هواء لندن المنعش. وكان الفرق شاسعاً أيضاً مع جزيهِم حول لفة الثمانمئة متر في المقر الرئيسي لإيساف، حيث كان الهواء يعبق برائحة مثيرة للغثيان من جراء النفايات المحترقة. وفي الليلة الأولى في لندن، لبَّى بتريوس دعوة عشاء من رئيس موظفي الدفاع، اللواء السير ديفيد ريتشاردز،

قائد إيساف عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧، وبحضور السير ماكس هاستينغز، وهو صحافي بريطاني ومؤرخ تلقى تعليمه في أوكسفورد. وقد ناقشوا تقدم الحرب وتحدياتها بروِيَّة خلال جلوسهم في مقصورة في مطعم ولتونز.

كان اليوم التالي حافلاً بالاجتماعات مع كبار الشخصيات. ففي الصباح، التقى بتريوس الملكة إليزابيث الثانية وقدَّم لها واحدة من عملاته المعدنية المطلية بالفولاذ في قيادة إيساف، والتي تُمنح تعبيراً عن الإنجازات الجديرة بالملاحظة، وجائزة يطمح إليها العسكريون في قيادته. وقد حُفِرَ عليها توقيعه ونُقِشَ عليها علم أحمر بأربع نجوم فوق رسم بياني أسود لأفغانستان. كان مكتوباً في أعلاها عبارة للتميُّز، بالإضافة إلى عبارة القائد، بجانبها قوات الناتو للمساعدة الأمنية الدولية على إحدى جهتيه. وعلى الجهة الأخرى، نُقِشَت صورة شعار إيساف والناتو طرداً وعكساً بالأسود والأحمر. «وهناك عملة أخرى لحفيدك، هاري»، قال لها ذلك وهو يسلّمها عملة ثانية. والأمير هاري، في مطلع العشرينات من عمره، كان يخدم بشكل سري في ولاية هلمند، أفغانستان، مستطلعاً جوياً متقدماً في السنة السابقة، يقود الطائرات نحو أهداف مشتبه بأنها لطالبان، حتى تم «إعلانه» عبر الصحافة قبل شهر أو أقل من انتهاء جولته. كان بتريوس مدركاً لشعور من لديه أحد من ذريَّته في ميدان الحرب. كما عبَّر عن امتنانه على الدعم المستمر للمملكة المتحدة. «إنها سيدة مطّلِعة جداً»، كما ذكر لموظفيه أثناء خروجهم من قصر باكنغهام. وعصر ذاك اليوم توجَّهَ بتريوس إلى ١٠ داوننغ ستريت للقاء رئيس الوزراء كاميرون، الذي تم إطلاعه على التقدم في أفغانستان. وقد ذهب الفريق أثناء ذلك من الباب الخلفي للقاء وزير الخارجية والكومنولث، وليام هيغ، لمناقشة الإعلان المنتظر لقرضاي حول المرحلة الأولى من تسليم قوات المساعدة الدولية لإرساء الأمن في أفغانستان، الولايات للسلطة الأفغانية. كما ناقشوا تقدم الحملة وتحديات العملية السياسية. أحسَّ بتريوس بأن تلك المحطات مع حليف أساسي كانت مفيدة للعلاقات الثنائية، كما ساعدت في تخفيف تأثير فرق التوقيت بين القارَّتين.

في ٢٢ آذار/مارس، وعقب وصول بتريوس إلى كابول بمدة قصيرة، قدم قرضاي إعلانه الذي طال انتظاره حول التسليم كجزء من خطاب التخرّج، في الأكاديمية العسكرية الوطنية. في تموز/يوليو، وبينما بدأت الولايات المتحدة بسحب قواتها، كما شرح، ستقوم القوات الأفغانية بِتوَلّي المسؤولية وحدها في حفظ أمن ثلاث ولايات آمنة نسبياً: ولاية بانشير، شمال شرق أفغانستان، وباميان، في أفغانستان الوسطى، وكابول، الولاية العاصمة. وستتولى القوات الأفغانية أيضاً مسؤولية أربع عواصم ولايات، مزار شريف، في الشمال، وهرات، في الغرب، ولشكرغاه، عاصمة ولاية هلمند، في الجنوب، ومهتار لام، عاصمة ولاية لغمان، شرقي أفغانستان. من دون تسمية الولايات المتحدة، انتهز قرضاي الفرصة أيضاً لانتقاد شركائه في الناتو بسبب القتلى المدنيين مؤخراً، ودعاهم لوقف المداهمات الليلية.

وقد وصف متحدث باسم طالبان الخطة الانتقالية للرئيس بأنها «تصرّف رمزي لخداع الشعب لن يساعد في حل المشكلة الأساسية، وهي احتلال أفغانستان من قبل قوات أجنبية». بدا بتريوس مرتبكاً في مشاعره تجاه طالبان. فمن جهة رأى فيهم رفاقاً من الباشتون والأفغان، ومن جهة أخرى كان يعتبرهم متطرفين يقتلون مسؤولي الحكومة. وحاول أن يفكّك بنية طالبان.

وفي اليوم عينه الذي تحدث فيه قرضاي، نشرت مجلة فورين بوليسي Foreign Policy مقالاً[١] يعلن أن قدرة الأفغان على تولّي مسؤولية الأمن ولو في قطاعات محدودة في أفغانستان كانت، على الأرجح، ضرباً من الخيال. فإلى جانب معدل الاستنزاف الفظيع والشرخ الخطير في تجنيد النوعية، كما ذكر المقال، كان هناك عقبات الأمّية وتعاطي المخدرات والمشاكل الصحية.

عارض فرناندو لوجان. فقد كان لوجان قد عاد لتوّه من مهمة غير مسبوقة حيث كان هو وعضوان آخران من سآت منهمكين لأسبوع مع وحدة أفغانية في

(١) Thomas Johnson and Matthew DuPee, "Transition to Nowhere: the Limits of 'Afghanization,'" *Foreign Policy*, March 22, 2011.

ولاية زابل، المكان الأول في القيادة الإقليمية الجنوبية الذي ستباشر فيه القوات الأفغانية العمل بشكل مستقل. كان لوجان ما زال يسعى وراء هدفه بنقل مفهوم سآت إلى الجيش الأفغاني. وقد انضم كوش سادات، وهو رائد أفغاني مذهل من القوات الخاصة كان معاون بتريوس العسكري الأفغاني، فريقه الاستشاري. قام أعضاء الفريق الخمسة ـ ثلاثة أميركيين وأفغانِيَّيَن ـ بتناول الطعام، والنوم، والاستحمام، والجولات على الشعب الأفغاني. أطلق أعضاء الفريق لحاهم، وارتدوا الأزياء الأفغانية وقدموا ملخّصاتهم بلغتَي الداري والباشتو. وطار سادات إلى قندهار قبل أيام من الموعد لكي يتسنى له المشاركة في تمارين التخطيط وتشكيل فريق. عندما أطلعوا قائد فيلق أفغاني قبل مباشرة الإدماج، كان بإمكان لوجان القول إن اللواء قد تأثّر لأن أفغانياً كان يعمل كجزء من فريق سآت. «أخبر كوش الجنود والضباط في كل مكان قصدناه أن باستطاعتهم النهوض من بين الرتب وتأسيس مهنة لأنفسهم، حتى لو لم يتوفر لديهم المال لشراء منصب»، على حد قول لوجان فور عودته من المهمة. «وقد ذكر أساساً أنهم إذا بذلوا جهدهم وشدّوا العزم، فسيصبحون قادة الجيش. أنا أعلم أن الأمر يبدو بسيطاً، ونحن كأميركيين نعتبرها من المسلمات، لكن اسمحوا بأن أخبركم، كان هناك شيءٌ مميز حيال ما كنا نقوم به». وعند نقطة معينة، رافق فريق سآت القوات الأفغانية خلال مهمةٍ لنزع عبوات ناسفة. كان لوجان يراقب الأفغان، الذين اعتقدوا أنهم لمحوا جسماً مشبوهاً في الطريق، فترجّلوا أرضاً وعاينوا العبوات بأيديهم. «هؤلاء الرجال شجعان جداً أحياناً»، على حد قوله. «إنه مشهد مختلف بالكامل عندما تركب الشاحنات معهم».

ما إن أنهى فريق لوجان كتابة التقرير وإدراجه في بوابة حاسوب سرية يمكن للأفغان ولوجها حتى بادر تانزولا بفتح تحقيق أمني عن لوجان وأعضاء فريقه. كانت تهمة الفريق الجماعية: تضمين جملة فرعية احتوت على عبارة: سري خاص بالولايات المتحدة، مقابل: سري خاص بإيساف، الذي كان مُباحاً للشركاء من الأفغان والناتو. على قدر ما كان الجيش الأميركي ملتزماً مع شركائه من الناتو،

فلم يشارك البنتاغون أكثر معلوماته السرية حساسية معهم جميعاً. وبدلاً عن ذلك، فقد أكد على موظفي الولايات المتحدة أن يتّبعوا قواعد سرية تفصيلية للغاية أوضحت ما يمكن مشاركته مع الشركاء من إيساف. «في أسوأ الاحتمالات، فهذا حدث ثانوي من النوع الذي يدعو للاعتذار، لكن على ما يبدو فسيلبّد أجواء تقرير زابل بكامله»، على حد قول ضابط رفيع المستوى في سآت. وعلى الفور بدأ المحقّقون بإجراء مقابلات معهم. «اختبار عظيم دائماً»، كما اشتكى بعض أعضاء الفريق. «الآن ندرك لماذا لا يأخذ الشعب المبادرة».

وقد تم إطلاع بتريوس في تلك الأثناء، على مهمة لوجان في زابل وأفاد بأنه كان يبحث عن القائد «المناسب» لسآت ليحل محل تانزولا عندما يحين الوقت. وقد سَرَّته الأخبار بأن وجود معاونه كوش سادات بين الأفغان كان ملهماً. «كوش هو ثروة وطنية لأفغانستان»، كما أخبر موظفيه. «من الجيد أن ترى كيف كان بوسعه المساهمة».

بعد التأقلم مجدداً مع وتيرة القيادة إثر زيارته لواشنطن، فكر بتريوس بالربيع القادم والطقس الدافئ على أنهما «أسنان في الوقت الأكثر حيوية للعدو» في الجنوب، وحول قندهار وهلمند، وفي الجبال الشرقية لولايات كنُر وباكتيكا ونورستان. وقد علم أن طالبان ستشن هجوماً في الربيع. وأمضى مع معاونيه طيلة الشتاء يضعون الخطط لتعطيل عملياتهم وتوغّلهم إلى داخل أفغانستان من خلال الحدود مع باكستان. وقد أحسّ بأن إيساف كانت تملك الزخم جزئياً، كون القوات الأفغانية التي ناصرها لوجان تتنامى وتحارب بشكل أفضل. لم يكن يريد لطالبان أن تستعيد زخمها.

الفصل التاسع

مخاطر عالية

أدرك المقدم ج. ب. فاول أنه حقق مفاجأة حين تبعثر مقاتلو طالبان المسلحون بمجرد أن هدرت دوارات المروحيات إيذاناً باقتراب الأميركيين في الصمت المطبق لفجر ذاك اليوم. استمتع فاول بالمشهد من الجو، على متن مروحية قيادة ومراقبة من طراز بلاك هوك يو أتش ٦٠ مع مجموعة من أجهزة الاتصال المتخصّصة. وأصدر أمراً إلى طياري مروحيات أباتشي لونغبو الحربية، التي تطير برفقته للتأكد من خلوّ المناطق المخصّصة للهبوط، وتعقُّب مقاتلي طالبان المنسحبين بمجسات الأشعة ما فوق الحمراء وقتل أي عدو يمكنهم التعرّف إليه. وقد قُتِل العشرات من المتمردين بالمرْوحيات المقاتلة حتى قبل بدء الهجوم على الأرض. كان فاول يأمل فقط بأن يمنع عنصر المفاجأة طالبان من التعافي إلى الأبد.

كانت كتيبة فاول الثانية التابعة لفوج المشاة ٣٢٧، جزءاً من لواء باستون الشهير التابع للوحدة إيربورن ١٠١. بدأ الهجوم الذي كان يقوده فاول، المُرمّز باسم سترونغ إيغل ٣ ـ العملية الضخمة الثالثة للفوج في ولاية كُنَر الوعرة، شرقي أفغانستان ـ عند الساعة ٢:٠٠ من فجر يوم ٢٩ آذار/مارس. كانت مروحيات تحمل جنود فاول تقترب من قريتين، بروَلا كالاي وسروباي، وكلتاهما في الجبال الوعرة لولاية كُنَر، على بعد نصف ميل من الحدود الباكستانية. كان يفصل بين القريتين ثلاثة أميال فقط، لكنَّ سلسلة جبال بارتفاع تسعة آلاف قدم (٢٧٥٠

م) كانت تفصل بينهما. كان فاول يعرف أن هاتين القريتين كانتا معقلاً لقوات المتمردين في كُنَر، تقدمان الأمن والإمدادات والموارد الطبيعية وسكاناً يسهل إقناعهم. وقد كانتا «محاور للمناورة»، أو قواعد تحضيرية، حيث أتاحت تخطيط وتنفيذ عمليات طالبان. لم يسبق لجنود أجانب ـ لا الأميركيين ولا الباكستانيين ولا السوفييت ـ أن توغلوا إلى هذا الحد داخل الجبال. فقد كان الهجوم المضاد لفاول في الربيع مصمَّماً لسلب طالبان والقاعدة ومجموعات المتمردين الأخرى حُرّيتهم بالتحرك والمناورة على طول الممر، أو «السرداب»، الذي استخدموه لسنوات، لوصل وادي نهر كُنَر بوادي بِش حيث كانت كتيبة شقيقة، الكتيبة الأولى من الفوج ٣٢٧، قد انسحبت مؤخراً بعد أن سلَّمت قاعدتها لكتيبة في الجيش الأفغاني.

كان فاول يتقدم بخطوة الهجمات الجوية المبكرة، وكان بإمكان موظفيه تحديد مناطق الهبوط فوق القرى. كان باستطاعة جنوده أن يحيطوا بالقرى ويراقبوا كل الطرق إليها ومنها قبل بدء عمليات التطهير. وكان المفتاح يكمن في السيطرة على الأراضي المرتفعة، الذي سيدفع مقاتلي التمرد إلى مواقعهم. وقد منع هذا طالبان من التكتل في الدفاع عن القرى وأرغمهم على الاندفاع نحو أعلى الجبل، حيث كان الأميركيون يتخذون دريئة مع رشاشاتهم الحربية.

بعد أن أمطرت مروحيات الأباتشي طالبان الذين فرُّوا خارج قرية سروباي، بدأت ثلاث فصائل من السرية سي، «كوغرز»، يقودها النقيب تاي ريدي، بالهبوط حوالي الساعة ٢:٠٠ فجراً حيث بدأ فريق القيادة الناري بالاقتراب من القرى، وعلى بعد ثلث ميل تقريباً، فتح المتمردون النار عليهم من مسافة قريبة. كانت مروحيات الأباتشي قد أغفلت القليل من الأعداء، وقامت طالبان بالتمركز بين الأشجار، حيث بدأوا يطلقون النار في تلك الأثناء على الأميركيين المتقدمين. وقد أدى الاشتباك الناري عن قرب، إلى مقتل الجندي أول جيريمي ب. فولكنر، ٢٣ عاماً، من غريفين، جورجيا، وأصيب العريف داستن ج. فيلدهاوس، ٢٠ عاماً، من غليندايل، أريزونا، ورئيس الرقباء براين أ. بورغس، ٢٩ عاماً، من كليبورن،

تكساس، بجراح خطيرة. وقام قائد سرية، الملازم جايسون بوميروي، وجنوده باستعراض ما عبَّر عنه فاول «بالبطولة الملحمية» حيث شقوا طريقهم بالرصاص خلال صف أشجار لإسعاف الجرحى. مرت خمس وأربعون دقيقة إضافية قبل أن يحصل فاول على طائرة الإسعاف الطبي لإنقاذ فيلدهاوس وبورغس، نظراً لكثافة نيران العدو. وقد توفي الجنديان لاحقاً في مركز علاج من الصدمات في قاعدة باغرام الجوية. كانت العملية قد بدأت بداية قاسية. بدأ جنود من السرية سي بالتحرك داخل ساروباي لتطهير سلسلة من المجمَّعات. ولم يُشاهَد هناك أي ذكور بسن تسمح لهم بالقتال، بل شيوخ ونساء مُسِنُّون. وبمجرد أن شقَّ الجنود طريقهم وعبروا ثلث القرية تقريباً، انفجر منزل خلفهم. فقد كان مزروعاً بعبوة ناسفة منزلية الصنع، يتم التحكم فيها عن بعد على الأرجح، وهو تكتيك معروف لدى طالبان. أما سبب عدم تفجيره عندما كان حوالى ستة جنود داخله فقد بقي مجهولاً.

بعد أن هاجمت السرية سي سروباي، هبطت سرية المقر الرئيس لفاول، «ولفيرنز»، تؤازرها وحدة أفغانية، عند منطقة هبوط في الأعلى فوق برولا كالاي. فقد كان يُفترَض بالسريَّتين التحرك في الوقت نفسه باتجاه القرى، بالرغم من هبوط كوغرز أقرب بكثير من هدفهم.

في النهاية، أغارت السرية إيه، «غيتورز»، يقودها النقيب توم بيلنغ والرقيب أول كينيث بولين، على شمال برولا كالاي لعزل القرية. ولئن صحَّ حدس فاول، فقد كانت قوات بيلنغ، التي شملت سريَّة من جنود الجيش الوطني الأفغاني، ستخوض قتالاً شرساً لمنع العدو فقط من الوصول إلى ميدان المعركة الرئيسي. وكانت قوات بيلنغ، في الواقع، ستقضي على خمسة وأربعين متمرداً خلال الأيام الستة التالية التي قام العدو خلالها بالهجوم القصير والبعيد المدى على السواء، غير أن بيلنغ كان يمتلك دعم استطلاع جوي تكتيكي مشترك بمهارات عالية ورشاشات أم٢ براونينغ وكمّاً وافراً من الذخيرة. وقد حالت دفاعاتهم من اقتراب العدو من سريَّة المقر الرئيسي أثناء تطهيرها برولا كالاي.

هبط فاول وفتح خطاً مع النقيب إد بنكستون، قائد سريَّة المقر الرئيسي،

منضمّاً إلى هجومه على برولا كالاي. كان عليهم أن يجتازوا منطقة صخرية شديدة الانحدار، فانتظروا شروق الشمس ليتمكنوا فقط من رؤية الطريق أمامهم. وقد ارتدى كل جندي درعاً واقيةً وخوذة كفلر، وحمل حقيبة ظهر مخصّصة للهجوم مع ما يكفي من البطاريات والذخيرة والقنابل والماء لثلاثة أيام. كانت كتيبة نو سلاك ستوصل الإمدادات إلى كل موقع مرة في اليوم بالمروحيات، لكن خطة المعركة كانت قد اعتمدت على قدرة القوات على القتال لأكثر من ثلاثة أيام لكي تحقّق الفوز. وقد اعتقد طالبان أنه لا يمكن للأميركيين إبقاء قواتهم التي تحوز تقنيات عالية لأكثر من ثلاثة أيام، وكان فاول عازماً على إثبات أنهم مخطئون. بعد أن شقت سريَّة المقر الرئيسي طريقها عبر السلسلة الأولى من البيوت، بدأ الجنود يعثرون على مخازن ضخمة للذخائر والأسلحة ـ طلقات قاذفات عديمة الارتداد عيار ٨٢ ملم ورشاشات إيه كي ٤٧ وذخيرة من آلاف الطلقات عيار ٧,٦٢. غير أنه، لم يتم رؤية أي رجال. وأفادت العائلات بأن أزواجهم وآباءهم «قد ذهبوا للعمل في جلال أباد». وعلى الفور، بدأ الأميركيون بالعثور على مخازن في ثلاثة فروع، ما يؤشر إلى انسحاب قوات المتمردين على عَجَل. وقد اعترضت موجات فاول مكالمة لأجهزة لاسلكية لطالبان عزّزت تلك النظرية. وكرّر مترجموه عبارات قادة طالبان: «لم نتمكّن من إخراج ذخائرنا قبل وصول الأميركيين».

انضم فاول بعدها للنقيب ريدي والسرية سي ليقوّم كيف كانوا يتأقلمون مع السيطرة على العدو. فبالإضافة إلى مقتل ثلاثة جنود من كوغرز فور إقحامهم؛ جُرِح كثير غيرهم تماماً عند منطقة الهبوط. وبعد أن اقتنع بأن رجال ريدي قد أحكموا سيطرتهم، طاروا باتجاه موقع ضابط عمليات فاول والمستطلع الجوي التكتيكي، اللذين كانا في مخفر القيادة التكتيكية على قمة جبل على بعد نصف ميل غرب فصيلة جنوده الكشافة، التي تمركزت بدورها عند سلسلة جبلية تفصل بين القريتين. أراد فاول بهذا أن يبقي الارتباط مع ضباط عملياته واستخباراته. أين كان العدو؟ لماذا لم تشنّ طالبان هجوماً منذ الاشتباك الأول الذي استُقبِلت به السرية سي؟

لم يكد فاول يهبط عند قمة الجبل حتى غمرتهم غيوم كثيفة بالضباب وسلبتهم قدرتهم على رؤية العناصر الأخرى، بالإضافة إلى دعمهم الجوي من مروحيات كيوا وأباتشي المقاتلة وتصوير الفيديو الحركي من خلال الطائرات الاستطلاعية. وحينها فقط أدرك فاول ونو سلاك أين اختفى العدو، فقد كانوا كلهم يحيطون بالأميركيين.

بدأ موقع فاول بإطلاق نيران متقطعة، ثم اشتدت لتصبح نيراناً دقيقة الهدف. وتعرضت فصيلة الكشافة لناحيته الشرقية لإطلاق نار مكثف. ثم اتصل ريدي وأفاد أنه ورجاله كانوا يتعرّضون لنيران العدو المكثّفة والمركّزة. كان بإمكان فاول سماع أصوات الهجمات على كل مواقعه حتى عندما كان محاصراً في الأسفل. من خلال جهاز لاسلكي معلق على صدره، حاول فاول تصوّر ما يمكنه القيام به بسرعة. وبغياب الدعم الجوي للمروحيات، ووجود الهاون والمدفعية فقط، قسّم فاول أنظمة أسلحته للدفاع عن الوحدات التي كانت محاصرة بقوة.

أُصيب الرقيب أول أوفرن أريتشاغا ورئيس الرقباء فرانك أدامسكي من سرية المقر الرئيسي مرات عدة في الميدان الذي يقع وسط مجمّعين في برولا كالاي. وبالوثب من مجمع إلى آخر، انتقلوا من خلال وابل كثيف ودقيق من الرصاص. وقد أصيب كلاهما بجراح خطيرة، أكثر من مرة وكانوا ينزفون. تقدَّم العريف جايمسون ليندسكوغ، المسعف الطبي المعيَّن حديثاً، لمساعدة أريتشاغا، الذي كان محاصراً في منطقة تتعرّض لنيران مكثفة. لم تمضِ لحظات على بدء محاولته، حتى أصيب ليندسكوغ برصاصة في صدره. وبألم مبرح، تابع ليندسكوغ معالجة أريتشاغا. وعلى الفور وصل جنود آخرون إليهم، ما إن بدأت قوى ليندسكوغ تخور ولم يعد بإمكانه مساعدة أريتشاغا. ثم أخرجوا أريتشاغا، وليندسكوغ من دائرة الخطر المباشر. وتابع ليندسكوغ شرح كيفية معالجة أريتشاغا. وبدأ يفقد وعيه شيئاً فشيئاً، قائلاً «آسف» لأنه لم يعد يملك القوة للمساعدة. وفارق الحياة بعد لحظات.

ما إن انجلى الضباب، حتى أقلعت مروحية فاول من السلسلة الجبلية بين

القريتين، لكن فاول بقي هناك لأن الموقع أتاح له التواصل مع السرايا الثلاث المنضوية في الهجوم على القريتين. خسر فاول حتى تلك اللحظة ستة جنود، وأراد العودة والانضمام إلى سرية المقر الرئيسي في برولا كالاي، كونهم سيواجهون وقتاً عصيباً خلال تطهيرهم القرية. لكنه إذا ذهب، فسيفقد القدرة على التواصل مع السرية سي، نظراً للسلسلة الجبلية التي تفصل بينهما وبين أهدافهما.

وفيما اشتدت المعركة خلال النهار، طلب فاول من قائد لوائه، العقيد أندرو بوباس، أن يُقحِم وحدة مغاوير أفغانية من قاعدة عمليات فينتي المتقدمة تلك الليلة. وقد تم تدريب الأفغان، وهم مئة وعشرون من الأشدّاء، على أيدي القوات الخاصة الأميركية، وأثبتوا فاعليتهم ما بين الأربع وعشرين والثماني وأربعين ساعة من عمليات القتال العنيف. كان قد تم نقلهم تحت جنح الظلام، وقد تبيّن أن وصولهم ودعمهم للكوغرز كان حاسماً، ومكّن السرية سي من التماسك ومتابعة تطهير سروباي.

شمل الهجوم على القريتين في المحصّلة ثمانمئة جندي من الائتلاف والأفغان. كانت قوة القتال الإضافية ضرورية للتغلّب على الدفاع الشرس للعدو، الذي سيطر المتمرّدون خلاله على الأرض التي تتوسّط القرية وقمة السلسلة الجبلية فوق القرية. شنّ المتمرّدون هجماتهم من تلك المنطقة الوسطى على مدى الأيام الأربعة التالية، حتى أصيبوا بالإرهاق. وبحلول الليل، وجّه فاول عدداً من المجسّات المتطوّرة باتجاه مواقع العدو، مستخدماً أجهزة استشعار ورادار وكشف بالأشعة فوق الحمراء، والقدرات الاستطلاعية والاستكشافية لتوجيه مروحيات الأباتشي نحو مخابئ طالبان. وما إن عثر فاول عليهم وعلى أسلحتهم، حتى أصبح من السهل على الطيارين التدخّل، والقضاء على المزيد من المتمرّدين. ومع مرور كل يوم، كانت هجمات العدو تخف شيئاً فشيئاً. فعلى المدى القصير، لم يعد بإمكان طالبان استهداف قوات فاول بدقة. وفي كل مرة كانوا يحاولون، كانوا يُعرّضون أنفسهم لوابل من الرصاص المدمر من الجو والأرض على السواء. أطلق فاول ما مجموعه ست وتسعون قذيفة محددة الهدف على مواقع العدو.

أنهت سرية المقر الرئيسي تطهير برولا كالاي وحدها، بوجود السرية إيه شمالاً لتأمين الحماية. وطهّرت السرية سي، بمؤازرة المغاوير الأفغان، سروباي كلها، وعثروا على الكثير من مخازن أسلحة، ضم أحدها أكثر من مئتي قنبلة يدوية. كما عثرت فصيلة الكشافة على مركز بث راديو الشريعة الذي طال البحث عنه، الذي كان المتمردون قد استخدموه لبث دعوات طالبان في ولاية كُنَر وباكستان أيضاً. وعثر النقيب بيلنغ وفصائله على أسلحة وستة مقاتلين قتلى وأجهزة اتصالات ورزم من عملة الروبية الباكستانية وعدد كبير من الهواتف الخليوية عند سلسلة جبال جنوبي سروباي. كما وجدوا ستة رشاشات، وكان أحدها مخبأً في جدار منزل، وجمعوا معلومات للمقياس الحيوي ستساعد في تحديد هوية القادة الذين كانوا بين القتلى. وبعدما انقشع الدخان أكدت قوات فاول قتل ١٣٢ مقاتلاً للعدو بين شمال وادي مروارا ووادي جنجال. خسر نو سلاك ستة جنود، وخسر الأفغان الذين يقاتلون إلى جانبهم ثلاثة، سقطوا كلهم في اشتباكات مباشرة.

كانت هذه هي حال الحرب في الجبال الشرقية حيث رصد القادة الأميركيون تحركات المتمردين بالطائرات الاستطلاعية والاستخبارات البشرية ثم ردُّوا، إما بعمليات غارات جوية واسعة النطاق، وإما بهجمات أصغر لقوات العمليات الخاصة أو بالطائرات من دون طيار التي تطلق صواريخ إيه جي أم-١١٤ هيلفاير على أهداف محدّدة شديدة الأهمية. كانت تلك التكتيكات ستمكّنهم من إبقاء المتمردين في حالة اختلال. لكن الأيام التي كانت الولايات المتحدة تفكر بإنشاء عشرات المخافر القتالية في جبال شرق أفغانستان وأوديته قد ولّت. ففي ظل انسحاب القوات الأميركية، لن يكون هناك ما يكفي من الجنود المنتشرين للقيام بمثل هذه المساعي؛ ولا كانت مثل تلك المخافر، كما أدرك القادة الأميركيون والأفغان، الحل الأمثل في بعض المناطق النائية.

وفيما اشتدّت المعركة في جبال ولاية كُنَر، على بعد ٢٢٠ ميلاً (٣٥٤ كلم) إلى الجنوب الغربي، في حقول الكرمة الخصبة لوادي نهر أرغنداب، جلس المقدم ديفيد فلين قائد الكتيبة الأولى لفوج المدفعية ٣٢٠، «توب غانز»، بين الوجهاء

خلال افتتاح مسجد جديد في تاروك كولاتش، القرية الخالية المزروعة بالعبوات الناسفة والتي سواها بالأرض بكمية هائلة من القذائف في تشرين الأول/أكتوبر. وقد عاد القرويون الذين أخرجتهم طالبان، حيث أصبحت الآن تاوك كولاتش خالية من كل المتفجرات المنزلية الصنع والتي جعلتها غير صالحة للسكن. ولم يكن قد جرى إطلاق نار هناك منذ خمسة أشهر. بدأ النهار بلقاء فلين عدداً من الصحفيين عند موقع هبوط المروحيات ورافقهم سيراً على الأقدام إلى القرية، واصفاً معارك الخريف السابق فيما كان يتقدم.

كان المسجد الجديد جزءاً من مشروع إعادة إعمار ضخم شمل إعادة بناء كل منزل وغرس كل بستان بأشجار الرمان التي اقتـُلِعت خلال القصف. وقد شمل المشروع أيضاً بناء مخفر قتالي في القرية لمنع طالبان من إرهاب القرويين لتعاملهم مع جنود فلين والمهندسين المدنيين وعمال البناء. لم يكن مكتب العلاقات العامة في القيادة الإقليمية الجنوبية يرغب في البداية بوجود أي أميركي، لكن فلين لم يكن ليرضى بذلك. فقد عمل السكان المحليون عن كثب مع فلين ورجاله لعدة أشهر، وقد توقّعوا أن يكون هو وبعض قادته الأساسيون هناك.

كان فلين يعتقد أن خطر حصول هجوم على حفل افتتاح المسجد مستبعد، ولم يكن يريد من ضباط الأمن أن يملأوا المنطقة كما فعلوا لدى زيارة الوزير غيتس الأخيرة. أما هذه المرة، فقد أبقاهم فلين خلف خط الأشجار حيث لم يعد بالإمكان رؤيتهم من الطريق. وعندما اختار الصحفيين، فقد كان «ماكراً»، متخلياً عن درعه وخوذته من طراز كفلر. وعلى الرغم من أنهم كانوا بعيدين عن الأنظار، فإن رجال الأمن كانوا أساسيين.

بعد بدء موسم القتال مجدداً في أفغانستان، أثبت عناصر طالبان أنفسهم بأنهم عدو شرس وقابل للتكيّف. وقد برهن توب غانز في وادي نهر أرغنداب وكتيبة نو سلاك في جبال كـُنَر أن حشد القوة ضد الأميركيين كان اقتراحاً خاسراً. لذلك تحوّلت طالبان إلى الهجوم خلسة على إيساف والقوات الأفغانية، بالإضافة إلى استئناف حملتها بالعمليات الانتحارية والاغتيالات.

في طريقه لمقابلة حاكم ولاية قندهار بعد أيام عدة، طار بتريوس فوق تاروك كولاتش ليتمكن من إلقاء نظرة خاطفة على المسجد الجديد والتقدم في بناء المنازل. فقد تابع التطورات هناك عن كثب، وتحمّس لدى رؤيته التقدم. لكن طالبان شنَّت هجوماً وقحاً في ذلك اليوم في قندهار، فأرسلت متمردين يرتدون أحزمة ناسفة لمهاجمة مركز تدريب للشرطة والجيش، تَلَتْهم سيارة إسعاف ظن الأفغان أنها أتت لنقل المصابين من الهجوم الأول. وقد كانت سيارة الإسعاف في الواقع محملة بالمتفجرات التي انفجرت داخل المجمَّع. وقد أدى الهجومان إلى مقتل ستة أفغان وجرح اثني عشر آخرين. كان ذلك ثالث تصاعد للعنف في قندهار خلال أسبوع.

خلال ظهوره مع حاكم قندهار، تحدث بتريوس عن حادثة إحراق القرآن مؤخراً من قبل وزير في كنيسة في فلوريدا، واصفاً إياها «بالعمل اللاإنساني». وقد كانت في الواقع، محفّزاً للعنف في قندهار ومدن أخرى في أفغانستان، ما أثار حفيظة كثير من الأفغان. وفي وقت لاحق، عرَّج على قاعدة عمليات ويلسون المتقدمة ليلتقي فلين ورئيسه، العقيد آرثر كندريان، قائد اللواء القتالي ١٠١، الذي خاض كثيراً من المعارك الشرسة حول قندهار. وقد أشار بتريوس إلى أن لواء كندريان قد خاض قتالاً شرساً خلال السنة السابقة. وصل فلين بعد بتريوس وانضم إليه أثناء تحدث بتريوس مع كندريان وضباط عدة آخرين.

كان اللواء القتالي في الأيام الأخيرة لانتشاره وأحسّ، بشكل مبرّر، بنوع من الإنجاز اللافت، وإن كان مطعَّماً بذكرى الثمن البشري الذي دفعه خلال مسيرته. وقد ذهب بتريوس إلى هناك للثناء على جنود اللواء القتالي والتحدّث مع قادتهم. ينبغي عليهم، كما أبلغهم، أن يكونوا في غاية الفخر لما قام جنودهم بإنجازه. بعد مضي بضعة أيام، قام الفريق ديفيد م. رودريغز رئيس القيادة المشتركة لإيساف، بإبلاغ فلين أنه سيتم تقليده وسام النجمة الفضية للشجاعة والبسالة في المعارك لحشد قواته خلال معركة بيكرزفيلد. وكان فلين ووحدته تحت ضغط كبير منذ عمليتهم الأولى مع مظليي الوحدة ٨٢، مثبتين أنفسهم

من بين أفضل مكافحي تمرّد عرفهم بتريوس يوماً. وقد أخبر فلين الأمر نفسه في السر.

بعد مضي أقل من أسبوع، أقلع بتريوس من ملعب كرة القدم في المقر الرئيسي لإيساف بمروحيته بلاك هوك لزيارة كتيبة فاول نو سلاك في وادي نهر كُنَر، بعد بضعة أيام من تطهير قوات فاول برولا كالاي وسروباي في عملية سترونغ إيغل ٣. كانتْ المرة الأخيرة التي التقى فاول وجنوده فيها في آب/أغسطس، عقب انتصاراتهم الأولى في الجبال، في عمليتي سترونغ إيغل ١ و٢. بمرافقة اللواء جون كامبل والعقيد أندرو بوباس وقائد اللواء باستون ١٠١، كان بتريوس قد حضر لتعليق ميداليات وتقليد أوسمة والحصول على ملخّص استخباراتي ومراجعة الدروس التي تم تعلّمها في ميدان المعركة، وكلها مهمات لا يكلُّ منها ولا يمل.

بعد سحب كل القوات الأميركية من الجزء الشمالي لوادي بِش في شباط/ فبراير، تم تنفيذ عملية سترونغ إيغل ٣ لخلق «زمان ومكان» لإعادة تنظيم تلك القوات في كل الأماكن الأخرى في المنطقة. وفي وقت الانسحاب، ذكر بتريوس أن «الحسابات لم تساعد كثيراً»، ما يعني أنه لم يكن هناك ببساطة ما يكفي من الجنود لاستمرار عمليات مكافحة التمرد بقيادة أميركية مقابل عدد السكان، كما تم تصوُّره للمنطقة قبل سنوات. كما أنهم لم يكونوا بالضرورة الحل الأمثل في تلك المنطقة. في الواقع، لقد اتفق مع الفريق ديفيد رودريغز بأن المخافر الصغيرة لم تكن تحقّق ما كان مأمولاً عندما تم زرعها قبل سنوات. بناء عليه، فقد اتخذوا القرار بتعزيز القوات في مكان آخر. كان بناء أربعين قاعدة خلال خمس سنوات ضمن مسعىً لتوسيع رقعة حكومة كابول في الجبال الوعرة للشرق قد كلف حياة ما يفوق العشرات من الأميركيين. لكن الناس الذين كانوا يعيشون في هذه المنطقة المحظورة لم يهتموا بتاتاً، بالاصطفاف مع نظام قرضاي أو مع طالبان، لتلك المسألة. «لا يعني الفشل في بِش أن مكافحة التمرد هي مفهوم فاشل»، كما ذكر تلميذ بتريوس أوليفانت في واشنطن. «لكنها تُظهِر أنها ستفشل

حتماً[1] ـ أو تكون أصعب بأضعاف مضاعفة ـ حين تتم تجربتها ضد أناس منعزلين اختاروا الخروج من نظام الدولة. نعم، تلك المساحات الخارجة عن سيطرة الدولة تفسح المجال أمام الإرهابيين لإيجاد ملاذٍ آمن. لكن من الصعب جداً مهاجمة منهاتن من وادي بِش».

جلس بتريوس بين كامبل وبوباس للاستماع إلى الملخّص الاستخباراتي، الذي يقدمه ضابط استخبارات كتيبة نو سلاك. فطالبان، كما أشار، أطلقت على كُنَر تسمية «بوابة أفغانستان». فقد كانت إلى حد بعيد منطقة عبور مشرعة من باكستان وطريقاً وعراً للمقاتلين والذخائر. وقد احتضنت مناطق تدريب بعيدة للمتمردين، حيث قام بعضهم بنقل عائلاتهم إلى هناك. كان العدو يتنقل ليلاً في العادة. وحتى أنهم ارتدوا في بعض الأحيان ثياباً نسائية للتمويه. كانت تلك المنطقة عينها التي اختُطِفت فيها ليندا نورغروف، وهي امرأة بريطانية تعمل لدى مقاول تابع للوكالة الأميركية للتنمية الدولية لشق الطرقات وبناء الجسور وتحسين الزراعة في المنطقة، في أيلول/سبتمبر على يد متمرّدين متنكّرين بزي الجيش الأفغاني. وقد قُتِلت في مطلع تشرين الأول/أكتوبر بقنبلة يدوية ألقاها عنصر من فريق البحرية الأميركية خلال محاولة لإنقاذها. بشكل عام، فالأفغان في هذه المنطقة لم يكونوا صريحين بالكامل. فقد أشار ضابط الاستخبارات إلى أن «نشاطات خطيرة» ـ هجمات بالمجمل ـ قد ارتفعت في المنطقة من ٧٧ عام ٢٠٠٩ إلى ٢٣٤ عام ٢٠١١. هذا الارتفاع، كما أخبر بتريوس، مردُّه، جزئياً، إلى فصلي الشتاء المعتدلَين السابقَين. فلم يتساقط الثلج في المنطقة قبل شباط/ فبراير، لذا كان المتمردون أحراراً في التنقل خلال معظم فصول الشتاء القاسية في العادة. بالإضافة لذلك، فقد سعى المتمردون لتوسيع رقعة نفوذهم في المنطقة المحظورة في ظل وجود قليل من قوات الائتلاف والقوات الأفغانية.

كانت هناك مجموعات مختلفة من المتمرّدين في المنطقة، كما أشار

(١) Douglas A. Ollivant, "Afghanistan Has Three Wars at Once. Let's Fight the Right One," *Washington Post*, May 22, 2011.

بتريوس، والمنافسة بينهم كان يتحتم فهمها. كان يعرف الجهة الباكستانية للحدود منذ وجوده في القيادة المركزية، وكان تركيزه منذ تموز/يوليو قد انصب على المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية لأفغانستان. في الأشهر الأخيرة ركّز أكثر على تحقيق «معرفة محبّبة» للشرق، وقد ضغط على القائد بخصوص الطريق إلى الأمام. «أنت تعلم أن العدو سيعود خلال أشهر إن لم تجد في النهاية سبيلاً لبسط السيطرة»، كما قال بتريوس، مشيراً إلى أن حلول الأمن الأفغاني يجب أن يكون الحل الأمثل.

تحوَّل النقاش إلى العملية الأخيرة. وأشار فاول وضابط عملياته إلى أنهم أنشأوا ثلاثة مراكز اتصالات للحفاظ على قيادة وتحكّم كافيَين للمعركة. في ظل درجات حرارة تهبط إلى سبع درجات مئوية تحت الصفر ليلاً، شنُّوا أربع عشرة غارة جوية معقّدة من أربع مروحيات لم يتوفر سواها: مروحيَّتي يو أتش ٦٠ بلاك هوك وطوافتي بوينغ سي أتش ٦٠ تشينوك. ففي المناطق الجبلية الغادرة، كان هناك بضع مناطق مطهّرة يمكن للمروحيات الهبوط فيها بأمان. فكل عمليات الهجوم والمناورة كانت تستوجب التخطيط حول نقاط متوفرة للاقتحام. أوضح فاول: «لقد استخدمنا مواقع أثرية، لكن كان علينا أيضاً أن نطهّر مناطق عدة جديدة. سيدي، لقد كانت أكثر العمليات التي قمنا بها تطلّباً».

وجَّه بتريوس، الذي قاد عدداً كبيراً من عمليات الغارات الجوية الضخمة في العراق بصفته قائد الوحدة إيربورن ١٠١، سؤالاً تلو آخر لفاول حول الاقتحامات، وكيف تصرفوا مع التزامن بين الدعم الجوي والاتصالات. ومن ثم حوَّل التركيز من التكتيكي إلى الاستراتيجي. «تقضي مهمتك الآن بالتعطيل. فبمجرّد أن تنتهي من تطهير المنطقة، ستكون مهمتك هي أن تتحول إلى سلب العدو ملاذه الآمن. سيستخدمون كنُر إن كانت مشرّعة الأبواب. عليك تصوُّر كيفية السيطرة بتكليف الأمن المحلي في تقديم حلول. تلك هي الطريقة الوحيدة لحرمان طالبان من ملاذات آمنة إضافية». كما شدّد أيضاً على أهمية شراكتهم مع الأفغان. «ففي النهاية، وكما تعلمون، عليكم أن تحوّلوا مهمتكم للتعامل أكثر مع الشرطة الأفغانية

الوطنية والجيش الأفغاني الوطني. عليك استخدام كل وسيلة متاحة حيث سنتمكن في النهاية من تسليم قوات الأمن الأفغاني الوطني.... سينتقل المسعى الرئيسي في الحملة الكبرى أخيراً إلى هنا شرقاً، لكن، ربما بشكلٍ أسرع من ذلك، علينا أن نبدأ بالانسحاب. فلم يعد لدينا ما يكفي من القوات الأميركية».

لقد أثبت الأفغان أنهم قادرون على العمل أكثر من الباكستانيين عند بعض الأجزاء من الحدود على المستويين التكتيكي والتشغيلي. نظراً لحالة التسلّل عند الحدود، وهو الأمر الذي بقي غامضاً في مناطق عدة، فقد ترعرع أهل القبائل الباكستانية والأفغانية الذين يعبرون الحدود وهم يعرفون بعضهم بعضاً. شرح كامبل كيف تمكّن هو ومسؤولون آخرون من العمل بشكل مباشر مع «الجيش الباكستاني» حول خطة لهذه المنطقة، وهي مبادرة أثنى عليها بتريوس، كون الخطة الشاملة للحدود كانت تشكل أحد أعظم التحديات لقادة إيساف وشركائهم الأفغان.

بالإضافة إلى محاولة تعطيل قدرة طالبان والقاعدة معاً لإعادة رصّ صفوفهم عند الممرات الجبلية والحدود، كانت كتيبة فاول منهمكة أيضاً في إنشاء سرايا الشرطة الأفغانية المحلية، وبرنامج «قسم اليمين» للأفراد الذين أرادوا تسليم سلاحهم والاندماج في المجتمع.

«الصيغة غير مهمة»، كما قال بتريوس، مفسّراً أن الحجم الدقيق وطبيعة البرامج المخصصة لإقناع المتمردين بالتوقف عن القتال لم يكن بالقدر نفسه من الأهمية مقارنة بالنتائج، ما دامت البرامج لم تتجاوز خطوطاً حمراً معينة. «إذا اشتمل المفهوم على محليين يديرون آليات حكم مقبولة، وإذا لم ينخرطوا بالعنف أو سبَّبوا مشاكل، فذلك يوازي النجاح»، كما أكّد بتريوس. «علينا أن نرى ما ستؤول إليه الأمور في بِش؛ فهي حالة اختبار». اعتقد بتريوس أن التحدي في كُنَر كان يكمن في تحديد المزيج الأمثل من الأميركيين والأفغان، في ظل القيود المفروضة على القوات.

استناداً إلى ما أشار إليه خلال محادثته مع فاول، فالهدف لم يقتصر على

شل العدو، كما فعلت قوات فاول، بل بسلبهم معاقلهم. فقد آمن أن الحل الأمثل يكمن في سرايا الشرطة الأفغانية المحلية، بالشراكة مع عناصر صغيرة من القوات الأميركية الخاصة ودمجها مع قوات الجيش الأفغاني والشرطة المتزايدين. كانت قوات الغزو في أفغانستان ستبدأ بالانسحاب في الأشهر التالية، وقد أمِل بتريوس بأن يستمر الزخم الذي ساهم فاول وفلين في تحقيقه مع القوات الأفغانية. فقد رآها تسير بشكل جيد في السابق.

في مطلع ٢٠٠٧، لم يكتفِ الرئيس بوش بتعيين بتريوس قائداً، بل واجهة الحرب في العراق. كانت يتحتم على القائد الجديد بأربع نجوم أن يقود المسعى الأخير لإنقاذ مسعى الإدارة المتعثر في العراق. كانت هناك قوة من خمسة ألوية قتالية إضافية ستقوم «باقتحام» بغداد وأجزاء أخرى من العراق لقمع العنف الطائفي المتزايد، وحماية الشعب العراقي ومنع انزلاق العراق إلى حرب أهلية، وهو مفهوم مكافحة التمرد نفسه، والذي أمضى بتريوس الأشهر الخمسة عشر السابقة في تحديده في فورت ليفينوورث.

في معرض دفاعهم عما كان يُعرف بالغزو، اختلفت مجموعة من العقداء والجنرالات ومفكري الدفاع والضباط المتقاعدين في الرأي مع كثير في الجيش وعلقوا آمالهم على تكتيكات مكافحة التمرد التي أدهشت بتريوس منذ أن كان ضابطاً يافعاً. وكان هناك بضعة مسؤولين آخرين اعتقدوا أن الغزو يمكن أن يؤثر في التغيير، لكن بوش فعل ذلك. وللموافقة على الألوية، انتدب رئيس هيئة الأركان المشتركة، الجنرال بيتر بايس، لتحديد القوات ونشرهم بأقصى سرعة ممكنة.

«عليكم اتخاذ قرار»، كما أخبر بايس بدوره، فريق عمليات البنتاغون في ٢٤ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦. سيعمد بتريوس وقائد المستوى التشغيلي، الجنرال رايموند أوديرنو، وقادة الوحدات المختصون إلى تحديد انتشار القوات في العراق. كان بتريوس مصرّاً على توظيف الألوية الخمسة بكاملها منذ البداية. ولم

يكن بوارد إجباره على طلب كل لواء على حدة، شهراً تلو آخر، كما اقترح القائد الذي يخدم في العراق.

«الوضع مُزرٍ في العراق»، هذا ما قاله بتريوس لِلجنة مجلس الشيوخ للقوات المسلحة خلال جلسة استماعه في ٢٣ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧. «فالمخاطر عالية. ليس هناك خيارات سهلة. فالدرب أمامنا ستكون شاقّة للغاية. سيتطلب إحراز التقدم عزماً وتصرفاً من أميركا والعراق، خاصة الأخيرة، لأن العراقيين هم في النهاية من سيحددون النتائج. لكن الصعوبة لا تعني فقدان الأمل».

بعد جلسة الاستماع، ذهب بتريوس لمقابلة بوش في المكتب البيضوي. وفي رهانه برئاسته على نجاح الغزو، وصف بوش الالتزام بقوات إضافية على أنه استراتيجية «رهان مضاعف». أما بتريوس فقال أنه أكثر من ذلك، استناداً إلى مصدر قدم ملخّصاً بعد اللقاء. «هذا ليس رهاناً مضاعفاً، سيدي الرئيس، إنه كامل رصيدنا»[1]، كما أدلى بتريوس. «ونحن بحاجة للحكومة الأميركية كلها لأن تذهب بكامل رصيدها، وليس الجيش فقط».

في ١١ شباط/فبراير ٢٠٠٧، وهو اليوم الذي أعقب تولّي بتريوس القيادة في بغداد، خرج في أول جولة له على ميدان المعركة. وفي سوق الدورة، في مقاطعة الرشيد جنوب بغداد، حيث كوَّمت فرق الموت كثيراً من الجثث، ذكر مرافق بتريوس أن التوقّف هناك كان في غاية الخطورة. لم يكن هناك جثث ظاهرة، لكن جدران الأبنية كانت منخورة بالقذائف والرصاص، وكان مركز الشرطة الذي بَنَتْهُ منظمة بتريوس خلال جولته السابقة قد تم تفجيره بسيارة ملغومة. لم يكن هناك أحد في الشوارع، وكان الخوف في الجوار جليّاً. أصيب بتريوس بالذهول لدى رؤيته الدمار في المنطقة، ما أعاد له الذكريات حولها من جولته السابقة بعد أن كانت منطقة حيوية للطبقتين العليا والوسطى. كما وجد المشهد عينه في الغزالية، شمال غرب بغداد.

(١) الجنرال ديفيد بتريوس للرئيس جورج دبليو بوش في المكتب البيضوي، ٢٣ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧، عشية غزو العراق.

«لن يكون هناك شيء سهل في هذا»، كما أشار بتريوس عصر ذاك اليوم في رسالة بريد إلكتروني أرسله لمايكل أوهانلون، من بروكينغز إنستيتيوشن. ورفع بتريوس على الفور من معنويات كبار الموظفين والقادة. لكن إدارته كانت تخضع لاختبار مؤلم. «عليك أن تكون مُهيَّأً لتلقي أنباءٍ سيئة»، كما سيذكر بتريوس لاحقاً. «فيوم في العراق خلال الغزو كان بمثابة مجموعة من الأنباء السيئة على مدار اليوم. وبعض هذه الأنباء كانت تسبب انهياراً عصبياً».

فيما تدفّقت القوات الأميركية إلى بغداد، نفّذ المتمردون هجوماً مضاداً، مستخِدمين مزيداً من التكتيكات الوحشية ومتفجرات أكبر وأشد فتكاً. وقد ناهزت الهجمات على القوات الأميركية حوالى ٢٢٠ هجوماً في اليوم في جميع أنحاء العراق. «في الحقيقة، كان من الصعب جداً إعادة شبح الطائفية إلى الفانوس السحري»، كما كتب بتريوس لأوهانلون في ١ آذار/مارس. «لقد كنت مذهولاً حيال الوضع في العراق؛ بيد أنه علينا فعل كل ما نقدر عليه، لأن الخيار المتبقي أمامنا سيكون مُحبِطاً، كما تعلمون». ارتفعت حصيلة القتال من الأميركيين من ٧٠ في شباط/فبراير إلى ٧١ في آذار/مارس و٩٦ في نيسان/أبريل، وقاربت أخيراً ١٢٠ في أيار/مايو.

لقد كانت «انفجاراً تلو آخر»، كما أشار بتريوس لاحقاً.

> فإن لم يكن انفجاراً في مقصف البرلمان العراقي، كان تفجيراً في المئذنة المتبقية من مجمع مسجد سامراء أو في سوق كبيرة تقع في بغداد أو في شارع المتنبي، المركز الفكري في بغداد. ففي الشهر الثاني لي في القيادة، كان المعدل ثلاث سيارات مفخّخة يومياً في بغداد وحدها، ما يثير الذهول. كنا نطير إلى المنطقة الخضراء من مخيم النصر، وإن لم تشاهد سحب دخان ناجمة عن سيارة مفخخة أو تفجير أنبوب نفط أو هجمة أخرى، كان يعد يوماً جيداً. لكن لم يكن هناك كثير من الأيام الجيدة.

أعلن جو بايدن، السيناتور الديمقراطي من ديلاور في ذاك الوقت، في نيسان/

أبريل أن الغزو باء بالفشل. وفي حزيران/يونيو، تبدّد كل دعم سياسي كان يؤيد الغزو. حتى السيناتور ديك لوغار، الجمهوري، ذكر بأنه حان الوقت لإنهاء الغزو. وقد استذكر بتريوس لاحقاً:

> كنّا بين المطرقة والسندان. وكان المدنيون العراقيون في الموقف نفسه، فقد لحقت بنا في الحقيقة إصابات قوية ولم يكن خفيًّاً أننا كنا نخسر خمسة أو ستة جنود في هجوم واحد وفي موقع واحد، في ظل هجمات شبيهة بذلك في يوم واحد. وقد قُتِل مئة وعشرون جندياً في شهر أيار/مايو ٢٠٠٧ وحده. وهكذا كنا نمر بتلك الأيامِ العصيبة. كنت تريد الخروج والتحليق فقط للنظر من النافذة فترى أطفالاً يلعبون كرة القدم وأعمال بناء طريق جارية وإنهاء ترميم جسر. كان هناك كل هذه الكنارات في المنجم خارجاً[*]، والتي كنا نعود لرؤيتها لنذكّر أنفسنا أنها ليست مستحيلة، لأنها كانت صعبةً للغاية.

كان مؤمناً بالاستراتيجية الجديدة ـ قيام القوات الأميركية التقليدية والقوات العراقية بتطهير مناطق المتمردين والسيطرة عليها بالانتقال إلى الأحياء المجاورة؛ عقد المصالحة مع عناصر المتمردين السنّة والميليشيات الشيعية الذين كانوا يرغبون بتسليم أسلحتهم؛ مداهمات العمليات الخاصة التي تهدف لاعتقال أو قتل المتمردين وقادة الميليشيات الأساسيين؛ دعم الحكم والتنمية الاقتصادية انطلاقاً من الإنجازات الأمنية؛ دعم تنمية القوات العراقية والمؤسسات؛ وهكذا دواليك. كان كل شيء سيسير بشكل جيد في النهاية، كما اعتقد، لكنه لم يستطع تحديد الوقت الذي ستصبح فيه النتائج ملموسة.

بعد مضي بضعة أشهر طوال من الغزو، تساءل بتريوس متى سيبدأ العنف بالانحسار. كان مدركاً تماماً أنه كان سباقاً مع الزمن، مع اضمحلال الدعم الأميركي الشعبي وجلسات الاستماع في الكونغرس المحدّدة في أيلول/سبتمبر.

---

(١) عبارة تعني بالأصل أن عمال المناجم كان يحضرون معهم طيور الكناري إلى مراكز عملهم لتكون إنذاراً لهم بإخلاء المنجم نتيجة اختناقها بالفحم وبذلك تطلق بموتها صفارة الإنذار. وتعني هنا مؤشراً على أوضاع خطرة ينذر بوقوع أمر خطير.

كان هناك ١٥٦ ألف جندي أميركي على الأرض وفي الطريق مزيد، ومع ذلك فقد استمرت الهجمات بالتزايد وحصيلة الإصابات كانت إلى ارتفاع. حتى أن المؤمنين بالغزو بدأوا بالتساؤل متى، وما إذا كانت الأمور ستتحسن. «متى نعتقد أن هذا الوضع سيتبدل؟» كما تذكر بتريوس سؤاله قائد العمليات، الفريق أوديرنو، عقب خطاب صباحي.

كانت الهجمات على القوات الأميركية قد ارتفعت على الأقل جزئياً بعد أن نقل الجنود قواعدهم الكبيرة والمحصّنة وأنشأوا مخافر صغيرة في الأحياء، سبعة وسبعون منها في بغداد وحدها. وقد عرَّض العيش بين السكان القوات إلى هجمات العمليات الانتحارية، من رجال الميليشيات والمتمردين. لكن هذا الإجراء كان واحداً من أهم مكونات الاستراتيجية، وجهد بتريوس وأوديرنو لتسريعه. بدأت القوات الأميركية والعراقية بالسير في الشوارع، والتودّد إلى أصحاب المحال التجارية وإصلاح المجاري الصحية المسدودة وترميم المدارس المنخورة. وعلى الفور بدأت ترِدُهم معلومات عن مخابئ المتمردين. فقد أصبحت الاستخبارات التي جمعوها عاملاً أساسياً في نجاح عملياتهم بالإضافة إلى المداهمات الليلية التي أشرفت عليها قوات العمليات الخاصة، التي كان يقودها في ذلك الوقت الجنرال مكريستال.

«لقد أظهروا مرونة وشجاعة مدهشتين» كما وصف بتريوس قوات الغزو التقليدية. «كما أظهروا حس مبادرة هائلاً. أعتقد أن [تلك النوعية] تعد مكمن قوة لبلدنا ككل ـ حس الابتكار والعزم والشجاعة الكبيرة في أوقات مختلفة، بالإضافة إلى مواقف وأوضاع صعبة. ولا ننسى الصمود في وجه الخسائر والإصابات المرعبة فعلاً».

وقد أعطى بتريوس امتيازاً ضخماً للمبادرة على صعيد الوحدات الصغيرة:

> هذا بالضبط هو نوع التفكير الذي نبحث عن تبنّيه، ونوع الثقافة التي نبحث عن خلقها في منظمة تنفذ حملة مكافحة تمرد على القدر نفسه

من الصعوبة مما كنا نقوم به في العراق. لقد أعطيت النقباء عنوان بريدي الإلكتروني وقلت إذا كان هناك أي شيء مثير للغيظ بحيث يدعو للشعور باليأس، فلا تفعلوا ذلك. أرسلوا لي بريداً إلكترونياً. فإن كنتم حريصين فعلاً إلى هذه الدرجة، فعليكم أن تمتلكوا الشجاعة للقيام بهذا، لأنكم تتحدثون عن مسائل حياة أو موت، وتحملون على عاتقكم مسؤولية عظيمة تجاه جنودكم. لذا فلا تتردّدوا في القيام بذلك إذا وصلت إلى هذا الحد.

أخيراً، بدأت الهجمات وخسائر المعارك الأميركية تنخفض بشكل ملموس في تموز/يوليو. وقد ناقش المشكّكون بالغزو والمراجعون بأن التحسن لم يأت نتيجة لأي شيء قامت به قوات الغزو بل لأن التطهير العرقي قد أدى لذلك، لكن بتريوس وأوديرنو خالفا هذا الرأي. كان المفتاح بالنسبة إليهما هو العيش بين السكان. في تلك الأثناء، كان بتريوس مشغولاً بالشروع بعملية إدراج ١٠٣ آلاف سني وشيعي، من المتمردين أو الميليشيات السابقة، على جدول المرتبات الأميركي. كان قرار بتريوس بعقد مصالحة مع المتمردين السنّة سابقاً ولاحقاً مع الشيعة أحد أخطر أجزاء استراتيجيته. لم يقم في البداية بإبلاغ الحكومة العراقية ممثلةً برئيس الوزراء العراقي نوري المالكي، الشيعي، بأنه خطط لإدراج كثير من مكونات نظامه على جدول المرتبات الأميركي، على الرغم من أنه أرسى أسس التعاون بأسرع ما يمكنه، وقد تمت هناك شراكة في النهاية حول المقاربة. كما أنه لم يوضح الخطوة مع بوش. فقد اكتفى بالقيام بها، وأبلغ واشنطن، لكنه لم يطلب الإذن.

وافق بتريوس على أن توقيع اتفاقيات هدنة في الأحياء مع السنّة والميليشيات الشيعية ساهم في تخفيف حدّة العنف. لكن وتيرة العنف خفَّت في النهاية، كما ذكر، لأسباب عديدة مختلفة: عقد مصالحات واسعة النطاق مع قادة المجموعات السنيّة والشيعية، المداهمات الليلية التي تستهدف القاعدة وقادة الميليشيات الشيعية، عمليات التطهير الضخمة في معاقل المتمردين، وتولي المالكي اتخاذ إجراءات بحق مقاتلي السيد مقتدى الصدر المعادي لأميركا. «أعتقد أن الأمور

تسير بشكل جيد في آب/أغسطس»، كما كتب بتريوس لأوهانلون في ١٢ آب/ أغسطس. «لقد تابعنا تحقيق تقدم جوهري ضد القاعدة في العراق وهم في قبضتنا الآن. يبدو أن القتل الطائفي والعبوات الناسفة والهجمات قد بدأت بالركود، ومن الممكن أن تكون الأخيرتان قد اقتربتا من إحداث فرق إحصائياً».

في الوقت الذي عاد فيه بتريوس إلى كابيتول هيل لتقديم تقرير للكونغرس حول الغزو في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧، كان في جعبته مقاييس حيوية وافرة بأن الغزو كان، في الواقع، يثبت نجاحه. كما سيفعل لاحقاً في وصفه للمكاسب في أفغانستان، فقد اعتبر المكاسب في العراق هشَّة وقابلة للنقض. لهذا السبب، بدا الإعلان الذي احتل صفحة كاملة ويذكر «قُم بخيانتنا أيها الجنرال» الذي عرضه موقع MoveOn.org في نيويورك تايمز يوم جلسة استماعه أمام الكونغرس مجحفاً على وجه الخصوص في جزمه بأن بتريوس لم يكن صادقاً حيال الوقائع. لم يستهِن بتريوس بالصعوبات في العراق، حتى بعدما تحسَّنت الظروف. «هناك مشاكل لا تنتهي ولا تُحصى من شأنها أن تؤدي بالإنسان إلى الانفجار من الإحباط»، كما كتب لأوهانلون في ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر. «وما زالت الهجمات مستمرة ـ بما فيها خطف محتملٌ، يوم أمس، لشيوخ أتوا لمقابلة رئيس الوزراء بخصوص المصالحة». في ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر، كتب لأوهانلون: «لن تسمعنا نتحدث عن تدوير الزوايا، أو [بلوغ] مراحل الذروة، أو [تحقيق] النجاح، أو أيّ من ذلك. في الواقع، لقد ذكرت مراراً وتكراراً بأننا لن نشعر بأننا قمنا بتدوير الزوايا قبل ستة أشهر من قيامنا بذلك؛ علاوة على ذلك، ذكرت مراراً وتكراراً أيضاً بأنه سيكون هناك كثير من الأيام العصيبة والأسابيع العصيبة في الأشهر التي تنتظرنا».

في آذار/مارس ٢٠٠٨ بلغت سلسلةٌ من المعارك ذروتها عندما اتَّخذ رئيس الوزراء المالكي قراراً شجاعاً، إن لم يكن مُتهوّراً لمواجهة الميليشيا الشيعية في البصرة، شمال العراق، وبعدها في مدينة الصدر في ضواحي بغداد، بالإضافة إلى مناطق أخرى. كانت المعركة التالية واحدة من أكثر المعارك ضراوة في الحرب، لكن

القوات الأميركية والبريطانية دعمت العراقيين في الجنوب، بينما حشد الأميركيون إمكاناتهم للقضاء على المجموعات الميليشياوية في معركة ضارية في المدينة.

لم تكن مداهمات القوات الأميركية والعراقية تستكين، محكمين سيطرتهم على منطقة تلو أخرى، ومستمرين في بناء القوات العراقية كمًّا ونوعاً، وداعمين التقدم البطيء والمستمر للحكم المحلي والحكم في المحافظات والحكم الوطني والتنمية الاقتصادية، بما فيها المبادرات المهمة التي أشرف عليها في ذاك الوقت ـ العقيد مارك مارتنز في نطاق سيادة القانون ومساعٍ كثيرة لتطوير الإجماع السياسي والتشريع التي كان التقدم الإضافي مرهوناً بها. وقد أثبتت حملة مكافحة التمرد المدنية ـ العسكرية نفسها.

في الوقت الذي غادر فيه العراق في منتصف أيلول/سبتمبر ٢٠٠٨، بعد أكثر من تسعة عشر شهراً في القيادة، كان بتريوس وقواته الغازِيَة والشركاء العراقيون قد استعادوا زمام المبادرة في سائر أنحاء البلد. نظراً للظروف التي ورثوها في مطلع عام ٢٠٠٧، كان ذلك بمثابة إنجاز تاريخي. كان الغزو عنيفاً ودموياً، وقد وصلت حصيلة القتلى الأميركيين إلى ١١٢٤ جندياً، والجرحى ٧٧١٠. لكن الغزو أثبت أنه أفضل أوقات بتريوس بصفته فريقاً أول ميدانياً. وكما ذكر في رسالته الأخيرة إلى جنوده، في ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٨، «إن عملكم العظيم وتضحيتكم وشجاعتكم وبسالتكم قد ساهمت في عكس دوامة الانزلاق إلى حرب أهلية، وانتزاع المبادرة من أعداء العراق الجديد».

في منتصف نيسان/أبريل ٢٠١١، تبين أن أعداء أفغانستان الجديدة موجودون في كل مكان. ففي الوقت الذي تهيَّأ فيه اللواء جون كامبل للإقلاع من المقر الرئيسي لقيادة المنطقة الشرقية في قاعدة باغرام الجوّية، شرق كابول، ضمن جولة يومية على ميدان المعركة، رأى في هذه الجولات على ميدان المعركة أجزاءً أساسية في عمله، وليست مناسبات اجتماعية. شكّلت قيادة القطاع الشرقي لأفغانستان ضمن تشكيلات سنوية تحديًّا للجميع، نظراً لامتداد المنطقة

ووعورتها، وتعدّد القبائل وعمق المعرفة المطلوبة لتمييز الصالحين عن الطالحين في العشرات من القرى. لكن عند هذه النقطة، حيث اقترب من نهاية جولته، بدأ كامبل بإظهار براعة حقيقية. لاحظ بتريوس كم أصبح كامبل بارعاً وقدَّر نصائحه. ثم وصل خبر عاجل: كان هناك هجوم انتحاري نفّذه رجل يرتدي زي الجيش الأفغاني في قاعدة عمليات غامبري المتقدمة، في ولاية لغمان، في الشرق. وقد قتل بضعة عناصر من لواء ساستينمنت ١٠١ ـ لايف لاينرز ـ في هجوم، بالإضافة إلى جنود أفغان وربما آخرين. وللأسف، فقد أصبحت مثل هذه الهجمات مألوفة، لكن لم يكن تحملها سهلاً على قائد من أي مستوىً كان في سلسلة القيادة، بمن فيهم قائد فرقة. كان كامبل في اتصال فوري مع القائد على الأرض؛ وكان سيتيح لذاك القائد الفرصة لتولي إدارة العواقب؛ ومن ثم قرر، أن يتوجَّه إلى الموقع للكشف عليه بنفسه.

وفي الوقت الذي تابع فيه مراقبة التطورات عبر اللاسلكي من موقع الهجوم الانتحاري في غامبري، أكمل كامبل جولته على ميدان المعركة في يوم غائم وكئيب. ثم حطّ بعدها في المقر الرئيسي للكتيبة الثانية من فوج المشاة ٥٠٦، مركز فريق عمل وايت كوراهي. أدى المقدم دون هيل التحية له، وسار معه إلى غرفة الإيجاز واصفاً أضخم غارة جوية للوحدة خلال الانتشار، عملية أوفرلورد، التي كانت لا تزال جارية في مقاطعة نكا المجاور. كانت نكا آخر معقل للمتمردين في المنطقة، المكان الذي نام فيه جنود العدو وخطّطوا وجدّدوا نشاطهم ونظّموا هجماتهم. كانوا يتوقعون هجوماً من الأميركيين، لكن الهجوم عندما وقع، لم يترك إقحام ٣٥٠ جندياً أميركياً وشركائهم الأفغان بسرعة مجالاً أمام المتمردين للهروب وفعل الشيء القليل عدا القيام بمهاجمة الأميركيين الذين يعيقون المواقع، للتأثير قليلاً. وكما أوجز هيل لكامبل، فقد احتل الجنود الأميركيون آخر معقل للمتمردين في المنطقة.

كان الهجوم الجوي الذي وصل ذروته هو الذروة المنطقية للعمليات المنبثقة عن مخفر زيروك القتالي، على بعد حوالى اثني عشر ميلاً من الحدود مع باكستان. وفي الآونة الأخيرة من ذلك الصيف، كانت القاعدة تتعرض لهجوم شبه اعتيادي

من المتمردين بالأسلحة الخفيفة والهاون. كانت القاعدة قد سقطت تقريباً بيد المتمردين عام ٢٠٠٩ واعتُبِرت واحدة من أخطر الأماكن في أفغانستان. فعندما دخلت لارا لوغان وفريق من برنامج «٦٠ دقيقة» التلفزيوني زيروك في آب/أغسطس الماضي، بعد شهر من تولّي بتريوس القيادة، وجدوا أنفسهم في مرمى هجوم صاروخي عنيف خلال ساعتهم الأولى في القاعدة. وأُصيب جنديان بجروح.

في البداية، بدت حظوظ كوراهيز بالنجاح في المنطقة متعثرة. كما في أودية كورنغال وبِش، شمال ولاية كُنَر، حيث سيقضي القرار النهائي بسحب القوات من أكثر المناطق عزلةً، كان من الصعب تطهير المتمردين من المنطقة بمستويات قوة خفيفة نسبياً مقارنةً بتلك التي في الجنوب، حول قندهار. لكن سريَّة إكو كانت قد حقّقت مكاسب قوية منذ وصولها في آب/أغسطس ٢٠١٠. لم تكن زيروك قد تعرَّضت لقصف منذ الصيف الماضي، ومردُّ ذلك جزئياً، وفقاً للرائد مارك هيوستن، ضابط عمليات الكتيبة، إلى تبدُّلٍ في التكتيكات التي شملت دوريات راجلة مستمرة في الجبال. فمن خلال الدوريات الليلية، سلب كوراهيز نقاط قوة المتمردين ومنع حرية تحركهم لدرجة أن الاشتباكات قد توقفت افتراضياً. وبينما تم سحب القوات الأميركية تدريجاً، كان سيتولى التغطية مكانهم القوات الأفغانية أو حرس الحدود، وفي بعض المناطق، الشرطة الأفغانية المحلية.

بحلول نيسان/أبريل، كان القرويون في هذا الجزء من ولاية باكتيكا يتمتعون بحرية تحرك أكبر بكثير. تم افتتاح فندق جديد في السوق المحلية، جزئياً لإيواء التدفّق المتزايد للمسافرين القادمين إلى القرى الكبرى لشراء البضائع وبيعها، وأعداد أكبر من الوجهاء الذين كان يأتون لتمثيل قراهم في مجلس شورى المقاطعة. وكان مئتان وخمسون وجيهاً قد حضروا مجلس شورى الشهر السابق، كما أشار هيل، للمساعدة في التوسّط في النزاعات حول الأراضي والأحراج. ففي منطقة كانت حكومة الظل التابعة لطالبان تفضُّ النزاعات في الماضي، بدأ الوجهاء الآن ـ وهم امتداد الحكومة الأفغانية ـ يعيدون ترسيخ سلطتهم.

كان قد تم تحديد موعد لزيارة كامبل لمركز مقاطعة سروبي عند الساعة

الواحدة ب. ظ. لحضور حفل «تفعيل» هناك لست مفارز شرطة أفغانية محلية كانت القوات الخاصة في المنطقة قد ساعدت على إنشائها، انطلاقاً من عمليات ترسيخ الأمن القروي التي قامت بها في السابق. خلال رحلة تقديم البيان الموجز إلى سروبي، طلب كامبل من معاون أن يطلب آخر تحديث من قاعدة عمليات غامبري المتقدمة، التي كانت تترنّح من الهجوم الانتحاري ذاك الصباح والذي بدا أنه تم تنفيذه من قبل أفغاني من الداخل. وقد قتل ستة، أو ربما تسعة. وجُرِح كثير، لكن الارتباك كان يسود القاعدة. فهل قام جندي أفغاني بتنفيذ الهجوم أم أن متمرداً تسلّل وسرق زيّاً لكي يخرق الأمن؟ وقد بدا وكأن منفّذ الهجوم الانتحاري قد عُرِف من أفغان آخرين في الغرفة. فكم يجب على القيادة أن تتوقع مزيداً من هذه الهجمات؟ وجَّه كامبل أمراً لكل الوحدات لأن تبقى ساهرة لمواجهة مثل هذا النوع من الهجوم المتسلّل، لكن منع مثل هذه الهجمات بالكامل كان أمراً في غاية الصعوبة. فقد أشارت التقارير الاستخباراتية منذ مطلع العام إلى أن تركيز المتمردين كان سينصب في موسم القتال هذا على خرق الجيش والشرطة الأفغانيّين.

ما إن حطّت المروحية في سروبي، حتى عادت فأقلعت سريعاً لتفادي رصاص الأسلحة الخفيفة. فلم يكن الوضع الأمني، حتى وإن تحسّن، جيداً بما فيه الكفاية ليتيح «للمروحيات» أن تمكث على الأرض مطولاً. مشى كامبل ومعاونوه بخفة باتجاه بناء الإسمنت المسلح الأبيض فيما قام فريقه الأمني بضرب طوق أمني على عَجَل. فقد كان مركز المقاطعة للحكم المحلي، وكان حوالي ثلاثمئة عنصر جديد من الشرطة الأفغانية المحلية يحضرون الحفل. وإذا كان لدى بتريوس أي أمل بمنع طالبان من استعادة سيطرتها على هذه المنطقة، فقد شكلت وحدات الشرطة القروية المتخرّجة حديثاً جزءاً مهماً من القوة المانعة. قام كامبل بمصافحة ووضع يده على قلبه كإيحاء تقليدي أفغاني للاحترام والشكر. وقام بضعة وُجهاء بتحيته، لكن سادت فترات صمت مطولة وغريبة.

انتقل الحفل إلى غرفة مناسبات ضخمة داخل مبنى مركز المقاطعة بسبب

المطر، واحتشد جميع الوجهاء الأفغان في الداخل. انتظر كامبل وأميركيون آخرون ومسؤولون من إيساف خارج الغرفة الرئيسية. فقد كان هذا حفلاً أفغانياً، يقيمه أفغان لأفغان آخرين. كانت لطخة الحبر الأمنية المتوسّعة، كما احب بتريوس أن يسمّيها، تنتشر ببطء في هذه المنطقة، بفضل وحدات الشرطة المحلية الجديدة. «نحن في المراحل الأولية من هذا، لكنني أعتقد أن هذا من شأنه تغيير قواعد اللعبة هنا في أفغانستان»، كما ذكر كامبل.

ثم طار كامبل بعدها إلى قاعدة عمليات غامبري المتقدمة، حيث كان جزء منها مدمراً إثر الهجوم في ذاك الصباح. وخاطب بهدوء كل الناجين الذين كانوا في الغرفة عندما وقع الهجوم وعلق أوسمة القلب الأرجواني لأولئك الذين جُرِحوا، في قاعدة مركز الإغاثة. وقد كان يوماً طويلاً آخر في أطول حرب أميركية.

على الرغم من القوات الإضافية المنتشرة والانتصارات التكتيكية التي حققها جنوده في الجبال الوعرة لشرق أفغانستان على طول الحدود الباكستانية والتلال المتهادية القريبة من كابول، بقي قطاع كامبل منطقة «اقتصاد في القوة». كان «إقحام» ٣٠ ألف جندي في أفغانستان قد رفع مجموع القوات الأميركية إلى ١٠٠ ألف. لكن أفغانستان كانت واسعة وكانت تبتلع القوات الأجنبية لمدى قرون. كان بإمكان طالبان التنقل بسهولة في باكتيكا والولايات الشرقية الأخرى المتاخمة لباكستان عبر ممرات ترابية وطرقات بعيدة عن النظر وأودية خارج السيطرة. وكان هناك فقط خطة حدودية أبصرت النور حديثاً لهذا الجزء من أفغانستان. كان من الصعب الادعاء بأن خمسة آلاف جندي إضافي من قوات المساعدة الدولية لإرساء الأمن في أفغانستان، معظمهم من الأميركيين، أرسِلوا إلى باكتيكا خلال السنة السابقة قد أنجزوا أكثر من طرد المتمردين. كان مفهوم قوة حماية أفغانية في باكتيكا قيد الإنشاء؛ حتى يستطيع أولئك الأفغان تنفيذ عملياتٍ أمنيةٍ مستدامة على مستوى أعلى، أو لحين تمركز مزيد من إيساف في المنطقة ـ وهو ما كان مستبعداً ـ لم يكن أحد على يقين بأن المكاسب ستستمر طويلاً.

في تلك الليلة، وفي المقر الرئيسي لإيساف في كابول، تحدث بتريوس عبر الهاتف الأمني إلى قائد لواء ساستينمنت الذي لقي جنوده مصرعهم في الهجوم المتسلّل في قاعدة عمليات غامبري المتقدمة. فمثل تلك الخسارة لم تدع له مجالاً سوى القيام بلحظة تقييم. «لقد كان حادثاً مأساوياً وقاسياً هناك بالنسبة للايف لاينرز»، كما نقل بتريوس، بصوتٍ أجش «قاسياً للغاية». وقد فكر مليّاً لدى سؤاله عن كيفية تلقيه نبأ مقتل الجنود. «ليس أمامك سوى تقبُّلها»، كما أفاد. «تتقبّل ذلك بمرارة». سيكون هناك بلا شك مزيد في الأشهر القادمة بعد أن عادت طالبان إلى ميدان المعركة واستأنفت القتال، نظراً لما كان يتوقّعه بتريوس: «هجمات على قادة رئيسيين، وهجمات انتحارية، وقتال شرس». وبينما لخَّص الأوضاع على الأرض، قام بالتركيز على توسيع الفقاعة الأمنية حول كابول. فبالإضافة إلى المكاسب التي حققها في ولايتي قندهار وهلمند، كانت الأوضاع في وضع حرِجٍ في ولايتي لوغر ووردك، جنوب وجنوب غرب كابول، وكان هناك مسعىً إضافي يُبذل هناك. وكان مزيج من القوات التقليدية وقوات العمليات الخاصة، بالإضافة إلى القوات الخاصة الأفغانية، يحقق نتائج في ولاية لغمان، شرق كابول. وقد أرغم هذا الدفاع المتعدّد الأطراف طالبان على التقهقر إلى الأودية حيث يمكن تعقُّبهم، إن لم يكن مباشرة عبر نقاط تفتيش إيساف.

أصبح بتريوس الآن ضليعاً على مستوى المقاطعة، من ولاية هيرات في الغرب، المتاخمة لإيران، إلى تحديات الحكم حول قندهار، حيث تم تطهير طالبان بشكل جذري. وفي تقييمه الخاص، كان التقدم هشّاً لكي يمكن الإفادة عنه. وكان مرتاحاً إلى إجراءات مرحلة «سيطرة» القوات التقليدية الأفغانية وإيساف في الجنوب وإلى المسعى القائم لإنشاء وحدات الشرطة الأفغانية المحلية في القرى الممتدة في البلد، بالإضافة إلى سعي العميد هـ. ر. مكماستر لمحاربة الفساد. كان قرضاي يتقبل أفكار مكماستر ـ حتى أنه طرد وزير صحته، أحمد ضيا يتفلي، لبيع إمدادات طبية تم التبرع بها من المجتمع الدولي وأراح قيادة المستشفى العسكري الأفغاني. لكن العمل مع المجتمع الدولي، كما لاحظ بتريوس، أرسى

مستوى جديداً بالكامل من التعقيد والإحباط المتقطع. فقد كان الائتلاف يضم الآن تسعة وأربعين دولة (من بينهم أفغانستان)، وقد استلزم إقناع الجميع «بالعمل سوياً» الكثير من الطاقة والالتزام والعزم، حيث وضع بتريوس الأمور في نصابها والتزم بهذا الجانب من مسؤولياته.

لكن ما أثار قلقه الشديد، لم يكن الأوضاع على الأرض أكثر من التعديلات التي كانت ضرورية بعد سحب القوات في تموز/يوليو والانتقال المُحتَّم في مسعى الحرب. «فالانتقال هو، في بعض الأحوال، مسألة فلسفية»، كما ذكر. «لكنه ضرورة قصوى. فالأفكار الكبيرة مهمة. هذه المهمة ليست انتقالاً. المهمة هي إكمال تهيِئة الظروف حول الأمن والحكم والتنمية التي تتيح انتقالاً غير قابل للنقض. إذا تحولت المهمة إلى انتقال، يمكننا القيام بذلك ـ يمكننا التسليم ـ لكن ربما لن نحقّق أهداف القوات الأميركية أو قوات الناتو. فأنا دقيق جداً لهذه الناحية»، كما شرح، مسترجعاً ذكريات الوضع في العراق عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٦، عندما بدت المهمة أنها أصبحت كذلك تحديداً. «فقد اعتقد القادة أنه سيجري تقييمهم انطلاقاً من مدى حسن إنجازهم للجهوزية الانتقالية»، على حد قوله. «فقد استمر بعض الأشخاص بإخبار القائد أنهم سيكونون قادرين على إتمام الانتقال، في حين كان الوضع يتجه نحو التدهور». وفي أواخر عام ٢٠٠٦، ومع تزايد العنف في العراق، بدت المهمة بشكل مستغرب أنها تركز أكثر على الانتقال. «لقد قمنا بوقف ذلك عندما .تسلمت القيادة. أوقفنا الانتقال»، كما أشار.

في أفغانستان، أشار إلى أنه، «حتى مع بدء الانسحاب، فسيبقى ما يكفي من الجنود والمدنيين في أفغانستان لملاحقة كل خيوط عملية خطة الحملة: حماية الشعب، تعطيل شبكات المتمردين، بناء القوات الأفغانية، مساعدة الحكم المحلي، تبني التنمية، محاربة الفساد. فقد كان يتوجب تحقيق تقدم في سائر تلك النواحي قبل أن يصبح الانتقال ممكناً في نواحٍ أخرى». من الواضح، أنه بعد «تخفيض» القوات، كما شرح بتريوس، سيكونُ هناك ضرورة لصب التركيز

على مساعدة الحكومة الأفغانية لبناء قدرتها في إيصال الخدمات وتحقيق الأمن. «إذا كان الانتقال هو المهمة، حسناً، يمكننا تسليم المهمة لهؤلاء الرجال والتنحي جانباً الآن»، على حد قوله. لكنه كان يقصد بوضوح، أنه كان يفترض بالمهمة تحقيق ما هو أبعد من ذلك: فالنية كانت تسليم الأفغان وضعاً يخوّلهم المحافظة على استمراريته.

أخبر مراسل فوكس نيوز بتريوس، خلال مقابلة أجراها معه في مكتبه، أن أوباما كان سيمنحه وظيفة وكالة المخابرات المركزية كطريقة لإسكاته، على الرغم من أن بتريوس لم يكن يعتقد بأن ذلك صحيح. فالصلاحيات والإمكانات التي تمتلكها الوكالة في الحرب العالمية على الإرهاب قد أثارت حماسته من دون شك. «ينبغي عليهم استغلالي»، كما أخبر صديقاً مقرباً حول أولئك الذين هم في البيت الأبيض مع أوباما. «لقد كنت الرجل الأكثر ولاءً لهم لفترة طويلة؛ وبالتأكيد، لم أتوانَ عن تقديم النصائح الصريحة... لكن ذلك ما كان يريده القائد العام».

تطرقت مقابلة فوكس نيوز أخيراً إلى عائلة بتريوس. كانت هولي في أوكلاهوما، تتحدث من منصبها الجديد كمدير مساعد لمكتب حماية المستهلك التابع للحكومة، على رأس مكتب شؤون العسكريين. كان «المتأنّق»، كما قصد بتريوس بابنه ستيفن الذي أصبح الآن برتبة ملازم أول، يتهيَّأ لاختباره في شارة خبير مشاة قبيل ذهابه إلى كلية جامبماستر ومن بعدها ربما إلى الجوّالة. أما ابنته آن، فقد تابعت الدراسات العليا، مستقطبة بمدوّنتها مزيداً من القرَّاء، حيث كان والدها يعلق عليها كل يوم تقريباً.

وفي نهاية المقابلة مع المراسل، كان هناك صمت مطول في المحادثة. أخيراً، قال بتريوس، «هل تعلم... كان هناك أيام في العراق حيث كنت تسأل نفسك: هل سيسير هذا بشكل جيد في الوقت الذي نتوخَّاه؟ كما تعلم، كانت أياماً عصيبة»، أدلى بذلك أثناء شرحه لتداعيات الهجوم الانتحاري الذي تعرَّضت له

وحدة اللواء كامبل في ذلك اليوم. فكلما ارتقيت صعوداً، يكون السقوط مدويّاً أكثر، وتكون المسؤولية الملقاة على عاتقك أكبر. «وفي نهاية المطاف»، كما نقل بتريوس «هناك فقط رجل واحد مسؤول في مسرح الحرب».

كانت الأخبار القاسية ستستمر. بعد مرور يومين، دخل متمرّد متنكّر بزي الجيْش الأفغاني الوطني إلى وزارة الدفاع الأفغانية، في كابول، وقتل جنديين قبل أن يُطلق الرصاص عليه ويُقتل. وقد ذكر متحدث باسم طالبان أن الهجوم كان يستهدف وزير الدفاع الأفغاني عبد الرحيم وردك وجيرار لونغي، وزير الدفاع الفرنسي الذي كان يزوره. وقد حضَرَ كبار الشخصيات من الفرنسيين إلى كابول لزيارة قادة أفغان وتقديم وسام جوقة الشرف لبتريوس. وعند قبوله الوسام، فكر بتريوس كم أن والد هولي، الجنرال نولتون، سيكون فخوراً. كان نولتون قد حصل بدوره على وسام جوقة الشرف.

كانت أيام بتريوس عبارة عن مزيج من الأحداث والعواطف. فقد حضر هو والمعاون أول مارفن هيل، بالإضافة إلى وفد من الكونغرس يرأسه رئيس مجلس النواب الأميركي جون بينر، حفل تأبين للجنود الستة الذين قُتلوا في قاعدة عمليات غامبري المتقدمة على يد جندي أفغاني. وضع بتريوس نقوده المعدنية التكريمية بجانب الأحذية العسكرية أمام البنادق المنكّسة وخوذات كيفلر الخاصة بالجنود الضحايا. أضاف بينر نقوده المعدنية أيضاً. كانت لحظة قاسية ومؤثرة أيضاً بالنسبة لبتريوس، الذي شعر بأن قوة الجنود الأميركيين قد عادت مجدداً إلى الواجهة بكامل رصيدها.

في الوقت الذي كان فيه بتريوس يتسلّم وسامه من الفرنسيين، كان فلين يتسلّم وسام النجمة الفضية من الجنرال ديفيد م. رودريغز في قاعدة عمليات ويلسون المتقدمة، في قندهار، المقر الرئيسي للّواء الهجومي، «لأدائه الشجاع والاستثنائي في مواجهة عدو عنيد». وبدأت التوصية للحصول على الوسام، المقدّمة والموقّعة من ستة من رجال فلين، بعرض أداء فلين خلال المعارك التي خاضها توب غانز في

أرغنداب. وبينما كان فلين في إجازة في كانون الثاني/يناير، طلب ضابط عملياته، الرائد بريندن ريموند، من قائد اللواء موافقته على الوسام، فوافق. وكان ريموند قد تقدم باقتراح جنود آخرين في الوحدة للحصول على وسام الشجاعة، لكنه حين قام بتدوين الأسماء أشار إلى التأثير الكبير الذي أحسَّ أن فلين قد منحه للوحدة ولشركائهم المدنيين والأفغان والشعب الأفغاني وطالبان.

«كان يفترض بالوسام أن يثمّن الشجاعة غير المسبوقة التي أظهرها [فلين] خلال القتال الشاقْ في الصيف الماضي»، كما نقل ريموند في رسالة بريد إلكتروني. «لدينا كثير من الأبطال في مرتبتنا، وأعتقد أننا قمنا بأمر جيد حين قدَّرنا جهودهم بأوسمة الشجاعة. لكن، وكما في سائر المعارك ـ فالقادة دوماً تحت المجهر. شعرت أنني كنت مسؤولاً لأن يقوم كبار الضباط والنظراء والمرؤوسين بتقدير أداء المقدم فلين الشجاع. فقد كان هو، أكثر من أي جندي في فريق عملنا، يستحق هذا الوسام. كان الجنود قد اقترنوا به خلال التدريب وقدّروا شجاعته في المعارك؛ ونظراً لذلك، فقد لحقوه من دون سؤال. فقد شارك في تحمل كل محنة وألهم رجاله ونساءه العظمة».

كان فلين بليغاً بعد خمسة أيام في قاعدة عمليات تيرا نوفا المتقدمة حين سلم السلطة للمقدم مايك كيركباتريك، القائد البديل لوحدة توب غانز. «إن فريق عملنا... قد هزم طالبان في مقاطعة أرغنداب، وأعاد بناء المساجد والمنازل في القرى التي اتخذها العدو ملاذاً له... والأهم من ذلك كله، أنه أعطى الأمل بمستقبل آمن ومزدهر للشعب الأفغاني والذي أصبح أقرب الآن من أي وقت مضى خلال الأعوام الستة السابقة. وقد تم دفع الثمن بدماء جنودنا المُراقة». وقد كانت الحصيلة النهائية التي تكبدها توب غانز والكتيبة الأفغانية التي قاتلت بتكاتف معها: ثمانية قتلى في المعارك و١٠٤ جرحى، بمن فيهم أكثر من عشرين مبتوري الأطراف. «على الرغم من نجاحنا، فهذه الحرب لم تنتهِ، وهناك كثير مما يجب القيام به بعد في أرغنداب»، كما ذكر. «إن تفاؤلنا الجماعي هو تفاؤل حذِر، ولا شك أن المكاسب هشّة كوننا نرى طالبان قد بدأت بالعودة إلى المقاطعة».

أحسَّ فلين بثقل في معدته بعد أن طار من تيرا نوفا بوقت قصير. فقد وجد نفسه محتاراً في كيفية نسيان كل الذكريات بعد عودته إلى الوطن عند وصول عائلات الجنود الذين سقطوا.

وفي اليوم التالي لمغادرة فلين، نفذت طالبان هروباً جماعياً من سجن ساربوزا، في قندهار، بعدد يقدَّر بنحو ٤٧٦ سجيناً فرُّوا عبر نفق[1] تم حفره تحت الطريق السريع الذي يربط كابول بقندهار. قبل يومين فقط، كان غيتس قد اعتبر ٢٠١١ «عاماً حرجاً» في أفغانستان وذكر أنه بنهاية العام من الممكن أن تكون الولايات المتحدة وحلفاؤها قد «أنهوا دورتهم» في البلد. ففي كثير من الأيام، بدا ذلك وكأنه تصريح طموح.

على الرغم من كل ما قام به العميد مارتنز وفريقه للمساعدة في إرساء نظام قضائي فاعل، بدا مسؤولو وزارة العدل الأفغانية الذين كانوا يديرون السجون في بعض الأحيان غير قادرين على السيطرة على مساجينهم. في حين كان من الصعب اعتبار هروب ٤٧٦ متمرداً من طالبان، دفعة واحدة، سوى أنه نكسة كبيرة، كان بإمكان مارتنز أيضاً أن يشير إلى حقيقة أنه تم إدخال بيانات المقاييس الحيوية لجميع الفارّين- بصمة العين وبصمات الأصابع وصور الوجه - في قاعدة بيانات ضخمة. كان بتريوس قد دعم برنامج بيانات المقاييس الحيوية الطموح في العراق، لكل من المساجين والموظفين العراقيين، خلال الغزو عام ٢٠٠٧. وقد أثبت البرنامج نجاحاً غير مسبوق ما دفعه لتشجيع مارتنز ورئيسه للقيام بالأمر نفسه في أفغانستان، حيث كانت بيانات المقاييس الحيوية لنحو مليون ونصف المليون أفغاني مدرجة في قاعدة بيانات أثناء حصول فرار سجن ساربوزا. لكن تلك المعلومات كانت ستُستخدم فقط في حال لو كان الفارّون قد قُتِلوا أو اعتُقِلوا مجدداً في المستقبل.

عشية حادثة فرار ساربوزا، اتصل غيتس ببتريوس وأبلغه بأن يهيّئ نفسه للوصول

(١) Department of Defense, Pentagon briefing, Federal News Service, February 10, 2010.

إلى واشنطن على الفور بانتظار إعلان محتمل باختياره ليكون الرئيس التالي لوكالة المخابرات المركزية. وفي وقت متأخر من الليلة التالية، اتصل أوباما ببتريوس وعرض الوظيفة عليه رسمياً. مع انتشار الأخبار في جميع أنحاء واشنطن، تهيَّأ بتريوس وفريقه لرحلة أخرى. فغادروا كابول يوم ٢٧ نيسان/أبريل في رحلة طيران لمدة ثماني ساعات إلى قاعدة رامشتاين الجوية، في ألمانيا. ذهب بتريوس في جولة ركض بينما كانت الطائرة تعيد ملء خزانها بالوقود، ثم طاروا لثماني ساعات أخرى إلى قاعدة أندروز الجوية، خارج واشنطن. كان المزاج عالياً. راقب بتريوس والناطق بلسانه، مارك و. غونهوس، التخمينات حول ترشيح بتريوس، عمَّا إذا كان مؤهلاً لإدارة وكالة المخابرات المركزية، وما إذا كان سيقوم بعسكرة الوكالة.

حطّ بتريوس في قاعدة أندروز عند الساعة ٦:٢٥ مساءً وأمضى الليلة في منزله في فورت ماير. وفي صباح اليوم التالي، ذهب ليركض ثم أمضى بعض الوقت يعمل من حواسيب سرية في مكتبه الصغير في المقر الرئيسي لفورت ماير. عصر ذاك اليوم، ظهر جنباً إلى جنب مع الرئيس وغيتس وبانيتا والقائد الذي تم تعيينه بديلاً له في أفغانستان، الفريق جون ألن، في الغرفة الشرقية للبيت الأبيض. بعد تسمية بانيتا ليخلف غيتس، قال أوباما:

> إنه لمن دواعي سروري أن يكون عمل ليون في وكالة المخابرات المركزية سيقوم به أحد مفكرينا الاستراتيجيين الطليعيين وأحد أفضل الضباط العسكريين في وقتنا، الجنرال ديفيد بتريوس. إنها المرة الثانية خلال عام التي أطلب فيها من الجنرال بتريوس أن يتولى مهمة شاقة. وأنا اعرف أن هذه المهمة تتطلب تضحية خاصة منه ومن زوجته، هولي. بعد حوالي أربعين سنة في الجيش، بما فيها قيادة القوات الأميركية وقوات الائتلاف في أحد أكثر المهمات صعوبة منذ ٩/١١، سيتقاعد ديفيد بتريوس من الجيش الذي لطالما أحبَّه ليصبح الرئيس التالي لوكالة المخابرات المركزية، بدءاً من مطلع أيلول/سبتمبر، بانتظار تأكيد مجلس الشيوخ. بصفته مستخدماً

للاستخبارات طيلة حياته، فهو يعلم أن الاستخبارات يجب أن تكون مناسبة ودقيقة وتستدعي التصرف بسرعة. وهو يعلم أن سبق الأعداء الرشيقين خطوة إلى الأمام يتطلب مشاركة وتعاوناً للمعلومات، بالاشتراك مع رئيس استخباراتي الوطنية، جيم كلابر. وحتى لو كان هو ووكالة المخابرات المركزية أمام مواجهة لشتى أنواع التهديدات، فإن معرفة بتريوس الاستثنائية بالشرق الأوسط وأفغانستان تضعه في خانة فريق لقيادة الوكالة ضمن مسعاها لإلحاق الهزيمة بالقاعدة. وباختصار، كما غيَّر الجنرال بتريوس الأسلوب الذي يقاتل به جيشنا ويفوز في الحروب في القرن الحادي والعشرين، فلا شك لدي بأن المدير بتريوس سيقود محترفينا في الاستخبارات فيما يستمرون بالتكيّف والابتكار في عالم متغيّر باستمرار.

أخذ بتريوس هولي وحماته، بيغي نولتون، خارجاً لتناول العشاء. ثم قام بالركض مجدداً صباح يوم الجمعة قبل الإقلاع عند الساعة التاسعة من قاعدة أندروز ليصل إلى كابول. بنهاية الرحلة، كان قد أمضى وقتاً أطول في الجو منه على الأرض.

فيما طار بتريوس مجدداً إلى الحرب، كان «توب غانز» التابعون لفلين يحطّون في فورت كامبل. كانت اللحظة الأشد تأثراً لفلين عند مدرج المطار حين قاد جنوده إلى حظيرة الطائرات ٣ للعائدين إلى الوطن ورأى صف المحاربين الجرحى بانتظار تحيتهم: لوغو، مكاري، بيكسلر، غاتسون، كنت، مالين، براينت، براون، كوهل، ستينيت، سيلر والآخرين، في كراسٍ مدولبة أو يقفون على أطرافهم الاصطناعية مع عكازات، وأعضاء عائلاتهم بجانبهم. وقد كانوا فخورين إلى حد بعيد كونهم هناك مع باقي عناصر الكتيبة للاحتفاء بعودتهم إلى الوطن. كان على فلين أن يجهد لمنع نفسه عن البكاء. فبينما كانوا جميعاً قد اصطفوا خارج حظيرة الطائرات، كان الجنود الجرحى قد وُضعوا ليكونوا مقابل الطرف. سأل فلين منظمي العودة إلى الوطن إن كان بإمكانهم الدخول مع الباقين. وعندما أخبروه أن عليهم أن يقفوا في مؤخرة الصف، انفجر فلين. «هذا هراء»، سوف يمشون في

المقدمة معي!» فاصطفّ الرجال الجرحى بجانب فلين في مقدم الصف وقادوا «توب غانز» مجدداً إلى حظيرة الطائرات.

وفي تلك الليلة، أقام فلين عشاءً لجميع الجرحى في مطعم محلي في البلدة. فقالت سيدة عجوز مع زوجها لفلين، والدموع تملأ عينيها، بأن الجولة الأولى من الشراب كانت على حسابها. لقد كانوا مشهداً لافتاً بالفعل: طاولة طويلة كل من عليها شبان مبتورو الأرجل يجلسون على كراسٍ مدولبة. أنهى فلين الليلة بخطاب قصير على شرفهم. وقد أخبرهم جميعاً أن لديه التزاماً تجاههم لمدى الحياة.

الفصل العاشر

الانتقال

جلس بتريوس في الغرفة الصغيرة المشتركة خارج غرفة نومه يقرأ رسائل البريد الإلكتروني في وقت متأخر عن العادة يوم الأحد ١ أيار/مايو، في الليلة التي تلت وصوله من واشنطن. فقد بقي مستيقظاً بانتظار ما كان يعرف أنه على وشك الحدوث، ولم يكن قد أخبر أحداً به. خرج من مقرّه في مجمع «قرية فلورنسا» التابع للمقر الرئيسي لإيساف مرتدياً سروال التمرين القصير وقميصاً قبل خمس عشرة دقيقة من منتصف الليل ومشى في الظلام إلى غرفة مخصصة لدراسة الأوضاع وتابعة لقيادة العمليات الخاصة المشتركة التي تدعم المقر الرئيسي لإيساف. فقد كان الشخص الوحيد في المجمع الذي يعرف التفاصيل الدقيقة للعملية الوشيكة: كانت القوات البحرية الأميركية الخاصة على وشك الهجوم على مجمع في أبوت أباد، باكستان، حيث كانت وكالة المخابرات المركزية على ثقة مبرّرة بأنها ستجد أسامة بن لادن.

على الرغم من أن بتريوس كان قد لمس رياح التطورات في مطاردة بن لادن عندما ذهب إلى واشنطن في آذار/مارس، غير أنه لم يأخذها على محمل الجد. وقد تغير ذلك عندما كان في واشنطن في ٢٨ نيسان/أبريل ، بعد اجتماعات في البيت الأبيض لمناقشة عمله التالي. وقد اتصل رئيس القيادة المركزية، الجنرال البحري جيمس ماتيس، بِبتريوس ليكون متنبّهاً، بعد وقت قصير من اتصال نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة بِبتريوس لتزويده بتفاصيل إضافية. قام نائب الأميرال

وليام هـ. مكريفن، رئيس قيادة العمليات الخاصة المشتركة، بتقديم ملخّص له في كابول بعد يومين من وصوله، حول المفهوم والجدول الزمني والتخطيط لشتى الاحتمالات، والتي يمكن لبعض منها أن يكون لها تأثيرات فاعلة على إيساف والقوات الأميركية في أفغانستان.

كانت المخاطر هائلة. لكن بتريوس لم يكن متحمساً حيال كثير من العمليات؛ وقد كافح للمحافظة على سلوك ثابت. كان قد تهيَّأ في السابق لعمليات عسكرية ضخمة، ليعود فيلغيها بسبب إعاقة مناخية أو مانع آخر طرأ في اللحظة الأخيرة. لكن للأمانة، فإن بعض العمليات ـ كقتل ابنَي صدام، عدي وقصي، على يد الوحدة إيربورن ١٠١ وقوات العمليات الخاصة، صيف عام ٢٠٠٣ ـ قد نُفِّذَت في موعدها بالضبط. لكن هجوم أبوت أباد كان قد تأجَّل أصلاً لأربع وعشرين ساعة بسبب الظروف المناخية. عاد بتريوس بذاكرته إلى أيام الوحدة إيربورن ١٠١، عندما كان يجلس في الطائرة، قلقاً من أن تتعقّد الأمور قبل تأكيد الظروف للهبوط في منطقة الإنزال. فقد تعلّم كيف يحافظ على رباطة جأشه.

وفيما كان يمشي في الليل، فكر بأهمية العملية، وقام بحساب تأثيرات الأمرين الثاني والثالث للهجوم. كان قد طار فوق أبوت أباد في الأسبوع السابق مع رئيس أركان الجيش الأفغاني، الجنرال أشفق كياني، كما كان قد ألقى خطاباً في الأكاديمية العسكرية على مسافة ميل تقريباً من المجمع. كان بإمكانه تخيّل المدينة. كما فكر في عملية إنقاذ الرهائن في إيران عام ١٩٧٩ والتي كانت قد أُجهِضت في الصحراء الإيرانية قبل الوصول، ناهيك بالسفارة الأميركية هناك. وقد فهم بتريوس، بالتفصيل الممل، لماذا أخفقت أوساط العمليات الخاصة الوطنية الحديثة الولادة عام ١٩٧٩، خاصة في شِقَّي الاستخبارات والطيران، تماماً كما فهم الآن كيف ازدهرت قيادة العمليات الخاصة المشتركة من ناحية تأثيرها الفتاك لتصبح قوة أساسية في أفغانستان، وفي الحرب الشاملة على التطرف العالمي. لكن هل ستكون قوات العمليات الخاصة فاعلة بما يكفي في هذه الليلة؟ وإذا أخفقوا، كما فعلوا في إيران قبل أكثر من ثلاثين سنة، فماذا

سيكون مصير العلاقات الأميركية الباكستانية؟ وإذا نجحوا في اعتقال أو قتل قائد القاعدة، الذي سبَّب الحرب واستدعى مجيء بتريوس ومئات الآلاف من الجنود الأميركيين إلى أفغانستان، فما الذي سيعنيه هذا بالنسبة للحرب؟

طرق بتريوس الباب المنيع والمحدب الذي لا يحمل أي علامة والمؤدي إلى غرفة دراسة الأوضاع التابعة لقيادة العمليات الخاصة المشتركة وفاجأ المناوبين ليلاً. كان قد مرَّ مرات عدة في السابق، لكنه لم يسبق أن مرَّ بشكل مفاجئ في هذا الوقت المتأخر ليلاً على الإطلاق. طلبَ من الجميع المغادرة ما عدا الضابط الأعلى رتبة في الغرفة، وهو العقيد ضابط الارتباط بين قيادة العمليات الخاصة المشتركة وبتريوس. بعد أن تم إخلاء الغرفة، سأل بتريوس العقيد: «هل تعرف ما الذي يجري؟» فأخبره العقيد بأنه كان يتابع تسع عمليات جارية في أفغانستان تلك الليلة وأنه كان هناك بضع عمليات أخرى «على متن السفينة». جلس بتريوس في محطة حواسيب، وسجل دخوله إلى «غرفة دردشة» للعمليات الخاصة، وانتظر حتى منتصف الليل بتوقيت كابول، وقت وصول المروحيات إلى مجمع بن لادن. وقد انتظر بتريوس هبوط المروحيات التي كانت تحمل القوات البحرية الأميركية الخاصة على الأرض عند نقطة الهدف في باكستان ليخبر العقيد بأن هناك عملية جارية للقضاء على بن لادن.

كانت غرفة دراسة الأوضاع مليئة بشاشات حواسيب لنقل فيديو عن العمليات الجارية والحصول على أخبار عاجلة للأحداث المؤثرة. لكنهم كانوا يركزون على العمليات العادية داخل أفغانستان. ولكي يبقى في حالة وعي لأوضاع الهجوم على بن لادن، استخدم بتريوس «غرفة دردشة» خاصة تصله بأفراد في مركز العمليات شرق أفغانستان كانت تشرف على المهمة. لم يكن هناك تحديث له عبر اللاسلكي أو الفيديو، لكن بتريوس، الذي كان يجري اتصالات هاتفية ويستخدم الدردشة السرية عبر الإنترنت، كان قادراً على متابعة المهمة، كونه هو الذي سيلتزم ببعض الإمكانات الأميركية التابعة لإيساف في حال نشوء طوارئ بمختلف الأنواع. كانت بعض قوات العمليات الخاصة التي يقودها على أهبة الاستعداد، على الرغم من أن المهمة لم تكن «بقيادة عمليات» الجيش.

كان الفصل ٥٠ من قانون الولايات المتحدة للحرب المتعلق بهذه العملية[1]، والذي يخوّل الحكومة الأميركية تنفيذ إجراءات سرية أو مهمات «قابلة للإنكار»، ينص على أن سلسلة قيادة العمليات تتدرّج من الرئيس إلى رئيس وكالة المخابرات المركزية إلى رئيس قيادة العمليات الخاصة المشتركة إلى عنصر قوات العمليات الخاصة الذي ينفذ الهجوم، ما يعني أن بتريوس والبنتاغون كانا خارج سلسلة القيادة كلياً. لتنفيذ الهجوم، تم وضع عناصر من الفريق ٦ التابع لقوات البحرية الأميركية الخاصة وعناصر من قيادة العمليات الخاصة المشتركة بتصرف الوكالة. ومع ذلك، فقد تم إطلاع بتريوس على الهجوم، بسبب طوارئ مختلفة ـ لا يبشّر أي منها بالخير ـ كان من الممكن أن تتطلب جنوداً يخضعون لقيادة عملياته ليكونوا قوة تدخل سريع. وقد كان رائعاً بالنسبة له أن يتابع العملية عن كثب بينما كان المغاوير يغيرون على المجمع المحصّن في أبوت أباد ويطلقون النار على أربعة من شاغليه حتى وجدوا «جيرونيمو»، الإسم السري لِبن لادن، في الطابق الثالث من المبنى حيث أمضى بن لادن سنوات فيه على ما يبدو. بعد مضي أربعين دقيقة في الداخل، وصلت الرسالة في النهاية: «جيرونيمو إي كي آي إيه». فقد قُتِل بن لادن برصاصة في صدره وأخرى في رأسه فوق العين اليسرى.

شدّ بتريوس قبضته وفكّر في كل ما حدث منذ البدء بمطاردة بن لادن. لم يكن هناك ثمة احتفال؛ بدلاً من ذلك، ركّز بتريوس والعقيد على ما سيأتي بعد ذلك ـ التخلّص من الجثة وإخراج فريق القوات البحرية الأميركية الخاصة ـ والتبعات المحتملة لطوارئ مختلفة يمكن أن تواجه القوات في أفغانستان. لم تكن العملية مختلفة عن تلك التي كان العقيد يشرف عليها من موقعه كل ليلة. فقد كان في تلك الأثناء، صراحة، ثلاث عشرة عملية خاصة جارية في تلك الليلة في أفغانستان، تنفذها القوات نفسها، المدرّبة تدريباً عالياً، انطلاقاً من استخبارات دقيقة وتوظيف لتكتيكات التسلّل. وقد ساد الاعتقاد بأن كثيراً منها

(١) ماثيو دال، مناقشة لجنة جمعية النقابة الأميركية للقانون والأمن القومي حول: "The Bin Laden Operation-The Legal Framework", May 26, 2011.

في تلك الليلة كانت «أكثر تطلباً» بجوانب مختلفة من العملية في باكستان، لكن لم يكن لأي منها، ولو من بعيد، التأثير الاستراتيجي نفسه ـ على الرغم من توصُّل العمليات في تلك الليلة إلى القبض على خمسة من القادة المهمين لطالبان. وفي ظل كل تلك الأنشطة، عاد العقيد فوراً لمتابعة العمليات في البلد، في حين تابع بتريوس الأحداث في أبوت آباد وسمح للموظفين الآخرين من قيادة العمليات الخاصة المشتركة بالعودة إلى الغرفة.

أفاد فريق الهجوم عن قتل «جيرونيمو»، لكن رئيس قيادة العمليات الخاصة المشتركة الأميرال مكريفن أراد التأكد من هوية بن لادن بشكل أدق، بجزء منها عبر تحاليل الحمض النووي. وفيما تم نقل جثة بن لادن خارج باكستان على متن حاملة طائرات، تم إرسال عيّنات من الشعر وغيره بسرعة للتأكد منها. بعد إجراء أسرع تحليل للحمض النووي في التاريخ في قاعدة باغرام الجوية، تنفّس مكريفن وجميع المراقبين الآخرين في أفغانستان وواشنطن الصُّعَداء. فقد كان هناك احتمال كبير، كما نقل مكريفن صباح ذاك اليوم، بأن يكونوا قد قتلوا «الرقم واحد».

بقي بتريوس في الغرفة التي لا نوافذ لها في كابول لبضع ساعات إضافية، يراقب العملية المستمرة والتحول لأخبار المصدر المفتوح في باكستان لمحاولة تقصي ما يمكن أن تكون ردود الفعل بعد انقضاء الليل. نظراً لفرق التوقيت لحوالي ثماني ساعات ونصف الساعة بين واشنطن وكابول، كان الوقت يقترب من إعلان الرئيس الأخبار الاستثنائية للشعب الأميركي، والتي كان مخططاً لها أن تجري عند الساعة العاشرة تقريباً من مساء يوم أحد. لكن بيان الرئيس تأجّل ساعة. اجتمع بتريوس وفريقه للاستماع له، مؤجّلاً ـ للمرة الثانية فقط خلال فترة قيادته ـ خطابه الصباحي الموجز المقرَّر بشكل اعتيادي وموجّها سائر المحطات في قيادة إيساف بتشغيل أجهزة التلفاز لمتابعة بيان الرئيس من واشنطن.

«اليوم، وبأمر مني، نفذت الولايات المتحدة عملية استهدفت مجمّعاً في أبوت آباد، باكستان»، كما ذكر السيد أوباما. «قام فريق صغير من الأميركيين

بتنفيذ العملية بشجاعة وكفاءة غير مسبوقتين. لم يُصَب أي أميركي بأذى. فقد حرصوا على تجنب وقوع أي إصابات في صفوف المدنيين. بعد الاشتباك المسلح، قتلوا أسامة بن لادن واستولوا على جثته».

بعد لحظة من الحماس لأولئك الموجودين في المقر الرئيسي لإيساف، عاد بتريوس بسرعة إلى العمل الذي كان يقوم به. فمقتل بن لادن لن يغير النشاط على الأرض فوراً، كما اعتقد. لكن التِّبعات الدولية يمكن أن تكون ضخمة، ومن شأنها التأثير في العلاقات الأميركية الباكستانية، ومستقبل القاعدة، وأخيراً رغبة الائتلاف في القتال في أفغانستان، الآن وبعد موت القائد الإرهابي التاريخي الذي خطط لهجمات ٩/١١ في معسكرات على طول الحدود الأفغانية الباكستانية. ومع ذلك، فقد بقي بتريوس حذِراً. لم يكن متأكداً من أنها كانت نهاية حقبة، بل مجرد نقطة تحوُّل في الحرب الأميركية الأطول؛ ولم يكن واضحاً ما إذا كانت التأثيرات في أفغانستان ستكون مؤثرة، على الأقل في المستقبل المنظور.

قبل يومين من الهجوم على بن لادن، أصدرت وزارة الدفاع وثيقة كانت قد وضعتها للكونغرس: «تقرير حول التقدم باتجاه الأمن والاستقرار في أفغانستان وخطة الولايات المتحدة لاستدامة قوات الأمن القومي الأفغانية»، وقد أكدت أحدث شهادة أدلى بها بتريوس في كابيتول هيل. أوقفت قوات الغزو الأميركية زخم طالبان وانتزعت المعاقل في قندهار وهلمند منها. من جهة أخرى، كان الحكم والتنمية الاقتصادية، يتخلفان عن هذه المكاسب الأمنية الهشَّة. «بشكل عام، فإن التقدم في مختلف أنحاء أفغانستان بقي هشّاً وقابلاً للنقض، لكن الزخم الذي نشأ على مدى الأشهر الستة الأخيرة قد أرسى الظروف المطلوبة لبدء نقل المسؤوليات الأمنية للقوات الأفغانية في سبع مناطق هذا الصيف». وقد توسّعت الشرطة الأفغانية المحلية من ثماني مقاطعات في أيلول/سبتمبر إلى أربع وثلاثين في آذار/مارس وكانوا يساعدون بممارسة «ضغوطات غير مسبوقة على التمرّد». وكانت قدرة الجيش الأفغاني تتزايد أيضاً. فاستُناداً إلى تقرير صادر عن وزارة

الدفاع، بحلول ربيع عام ٢٠١١، كان ٩٥ بالمئة[1] من سائر عمليات إيساف تتم بالشراكة مع القوات الأفغانية. فالأفغان، في الواقع، قد زوَّدوا ٦٠ بالمئة من القوة الإجمالية خلال عملية همكاري، في ولاية قندهار في أيلول/سبتمبر ٢٠١١. وبالمقارنة، فقد كانت قوة مساهمة الأفغان في العملية المشتركة، في ولاية هلمند في آذار/مارس ٢٠١٠، توازي ٣٠ بالمئة فقط.

وقد أظهر استطلاع أفغاني للرأي العام أن شعبية طالبان أصبحت في أدنى مستوى لها على الإطلاق، بعد مسح ٧٥ بالمئة من الأفغان الذين يعتبرون أن البلد سيكون بحالة سيئة لو عادت طالبان إلى السلطة. كما أظهر التقرير «مؤشرات» تفيد بأن مداهمات إيساف كانت «تفتّت معنويات المتمرّدين باستمرار». ومع ذلك فقد استمر المتمرّدون بالقتال على الوتيرة نفسها وتابعوا قتل الأميركيين بمعدل ثابت. فقد قُتِل (١٢٢) أميركياً وجُرِح (١١٧٨) خلال الأشهر الأربعة الأولى من عام ٢٠١١ أكثر من الفترة نفسها في العام السابق. في حين أظهر التقرير أن انتخابات مجلس البلدية قد حصلت في الواقع في آذار/مارس في مرجه، ولاية هلمند، الموقع الذي خاضت فيه قوات البحرية الأميركية الخاصة معركة ضارية في آذار/مارس ٢٠١٠، فقد تزايدت الأحداث الأمنية في هلمند وقندهار على السواء. «تم إيقاف زخم طالبان والقضاء على معظم بنيتهم التحتية التكتيكية والدعم الشعبي»، كما خلص التقرير: «على الرغم من توقع عودة القتال العنيف خلال ربيع وصيف وخريف عام ٢٠١١». كان الحكم على التقدم صعباً.

أعلنت طالبان بداية حملتها الربيعية في اليوم التالي مباشرة. وفي بيان جاهز، أعلنت طالبان أنها ستستهدف قوات الناتو والمقاولين، أفغان وأجانب، الذين كانوا يساعدونهم إضافة إلى الحكومة الأفغانية. وذكرت طالبان أنها ستتحمّل الآلام لمنع الأذى عن المدنيين الأفغان، وحذّروهم من الاقتراب من المواكب العسكرية ومنشآت الجيش.

(١) تقرير وزارة الدفاع الصادر بتاريخ ٢٩ نيسان/أبريل ٢٠١١، «تقرير حول التقدم نحو الأمن والاستقرار في أفغانستان والخطة الأميركية لاستدامة قوات الأمن الوطني الأفغاني.».

في ظل توقعات بأن محور الحرب سينتقل في النهاية من البساتين المحيطة بقندهار، والتي تم تطهيرها الآن، إلى الجبال الوعرة شرق أفغانستان، التي لا تزال تغصُّ بالمتمردين، ذهب بتريوس لزيارة الرائد جيم غانت، «لورنس أفغانستان»، في ولاية كُنَر شرقاً، عند الحدود الباكستانية. اعتبر بتريوس كُنَر الولاية الأصعب ربما لوضع استراتيجية للتقدم، نظراً لضآلة قوات الناتو والقوات الأفغانية ووعورة المنطقة والحدود المستباحة مع المناطق القبلية في أفغانستان، وهي مجموعة ضخمة من تحديات الحكومة الأفغانية وعدد من القبائل ـ كان «مالك نور أفضل» استثناءً ـ التي كانت ترفض الأغراب. كان بتريوس وعلى مدى سنتين يتطلع قدماً للقاء غانت مجدداً، بعد أن أوصى بالقراءة الملزمة لرسالة غانت العلمية «كل قبيلة على حدة» في سائر وحدات الجيش الأميركي، وساعد بتغيير أوامر غانت من العراق إلى أفغانستان. التقى غانت بتريوس لأول مرة في العراق بعد أن تم تقليده وسام النجمة الفضية. وكان غانت قد أمضى السنة منذ ذلك الحين بتسيير عمليات تعزيز الأمن القروي في منغوال.

بعد أن هبطت مروحية بتريوس، قام غانت بتقديم إيجاز له حول الظروف في منغوال ومشى معه إلى بيت مالك نور أفضل، حيث تناول الإثنان الغداء واستغرقا بضع ساعات في المحادثة. على الرغم من أن بعض مجتمع القوات الخاصة ظن أن غانت قد حاز سمعة كبيرة للمبادرات وفلسفة كان قد تم تبنّيها من قبل كثير من القادة الرئيسيين في المجتمع، اعتقد بتريوس أن رسالة غانت قد أرست القاعدة الأساسية لبرنامج عمليات تعزيز الأمن القروي ككل وامتداداً له، الشرطة الأفغانية المحلية. أدرك بتريوس أنه في حين ربما لم يكن غانت أول من وضع هذا المفهوم، فقد كان الأول والأكثر تأثيراً في وصف المفهوم والكتابة عنه. كانت الشرطة الأفغانية المحلية تنشئ بقعاً أمنية، يمكن أن تشكل مادة أساسية في تشكيل البقع الأمنية، تؤدي إلى التهدئة في أفغانستان، على اعتبار أنه يمكن جمع بعضها مع بعض كجزء من حملة تضم كلاً من القوات التقليدية والقوات الخاصة، ليزداد فيها عديد الأفغان.

كان بتريوس مذهولاً من الكيفية التي استطاع فيها غانت دمج جنودٍ من الجوالة الحديدية، والكتيبة الأولى من فوج المشاة ١٦، وفرقة المشاة الأولى ـ وحدة مشاة كان بتريوس قد فصلها (في ظل اعتراضات من بعض كبار الضباط الآخرين) إلى فريق عمل العمليات الخاصة للإضافة إلى مسعى عمليات تعزيز الأمن القروي في جميع أنحاء البلد ـ إلى فريق القوات الخاصة إيه التابع له. وقد ساهمت هذه الشراكة الاستثنائية في «تكثيف» البيريهات الخضراء، وهو لقب القوات الخاصة، لكي تتمكّن بالتالي فرق مفرزة العمليات ألفا من القوات الخاصة كتلك التابعة لِغانت من أن تتضاعف، فتغطي مزيداً من المناطق. وقد بقيت تحت المراقبة لمعرفة ما إذا كانت وحدات الجيش التقليدية ستتأقلم مع ثقافة القوات الخاصة، أو أنها ستعمل فقط على توفير الأمن والدعم. وقد ارتدوا البدلات «المعدّلة» التي كان غانت يفضلها وأطلقوا لحاهم، وكان بعضها ناعماً على الشبان الصغار بما يكفي على الحلاقة.

أخبر مالك نور أفضل، الذي كان غانت يلقبه بِـ«الثور الرابض»، بتريوس بأنه كان بحاجة إلى وظائف للشبان في قبيلته. وقد أراد إيصال منغوال بشبكة التيار الكهربائي، وطالب بقوة محلية موسَّعة وضمانات بأن تكون القوات المحلية قوية بما يكفي لإبقاء طالبان بمنأى. غادر بتريوس وهو منبهر من غانت ومالك.

وقد جاء أول هجوم كبير لطالبان في الربيع من الجنوب، في ذلك اليوم بالذات، ٧ أيار/مايو، وكأنه تذكير للفريق أول أن المكاسب التي كانت قواته قد حققتها في قندهار كانت هشَّةً بالفعل. فقد جالت فرق من المتمرّدين، تضم انتحاريين، في جميع أنحاء قندهار وأطلقت الرصاص على عدد من المباني الحكومية. أدى القتال إلى إغلاق المدينة التي كانت في أحد الأيام مركزاً لطالبان. لم يكن المتمردون قد اقتربوا إطلاقاً من استعادة السيطرة على المدينة، مع أن قدرتهم على قيادة عربات محمّلة بالمتفجرات في الشوارع أوحت بأنهم كانوا يحصلون على مساعدة من الداخل. وقد أظهر اعتماد طالبان حديثاً على الاغتيالات ـ واختراقهم

الشرطة الأفغانية ووحدات الجيش ـ مدى مرونة العدو. ففي الوقت الذي خطّط فيه بتريوس وقواته للمرحلة الانتقالية، كانت طالبان تفعل ذلك أيضاً.

عاد فاول وكتيبة نو سلاك إلى فورت كامبل في أيار/مايو. كان فاول مقتنعاً بأنهم تركوا خلفاءهم في وضعية أفضل مما كانوا عليه في السنة السابقة، والفضل لكل عناصر طالبان الذين قتلوهم وأزالوا آثارهم مع حكومات المقاطعات في كُنَر. فبتنفيذ العملية سترونغ إيغل ٣، اعتقد بأنهم استبقوا هجوم طالبان في الربيع.

كان فاول يؤيد بشدة الرأي القائل بأنه يمكن الفوز بالحرب على صعيد المقاطعة. وقد كان المفهوم نفسه الذي أعرب عنه صديقه دوغ أوليفانت لبتريوس قبل عام. أنفقت الولايات المتحدة أموالاً طائلة على الحكومة المركزية، كما اعتقد بتريوس، وكان لديها الشيء القليل لتظهره خارج كابول. لم يكن ثمة أحد قد حكم بشكل فاعل على صعيد المقاطعة. كانت فكرة أن أفغانستان دولة حديثة هي مفهوم أكثر منه واقع، كما أدرك فاول.

خسر فاول ثمانية عشر جندياً وجُرِح حوالي مئتين. فالكلفة كما اعتقد، كانت كبيرة نسبياً. وبقيت المقاطعات الثلاث التي ناضلوا لتأمينها، نور غول وخس كُنَر وسركاني، مثالاً يُحتذى به للحكومات المحلية الفاعلة والمستقلة. فكما أشار فاول على كامبل وأوليفانت سابقاً صيف عام ٢٠١٠، لم يكونوا بحاجة لتعزيزات على الإطلاق لإحراز تقدم بأنفسهم. تمت إضافة كتيبتين أفغانيَّتين في منطقة عمليات نو سلاك خلال الشتاء، وفي الوقت الذي غادرت فيه الكتيبة، كان الأفغان يتسلمون قيادة الأمن الاعتيادي في مناطق عدة من الوادي.

بعد عودته إلى الولايات المتحدة، أدرك فاول أن الجزء الأصعب من الانتشار كان في معرفة كيفية التحدث إلى زوجات الجنود الستة الذين قُتِلوا في عملية سترونغ إيغل ٣. فقد أردن أن يعرفن لماذا كان مهماً بالنسبة لِفاول أن يقوم بالمهمة قبل شهر من العودة إلى الوطن. لماذا لم يكتفِ بالبقاء في حالة جهوزية. لم يكن لديه جواب سريع، سوى شرح لضرورات عسكرية كان يعرف أنها لم تقنع النساء الشابات اللاتي خسرن أزواجهن. وتذكر شيئاً كان بتريوس قد ذكره حين

زار الكتيبة بعد فاجعة موت أولئك الستة: قوموا بكل شيء إنساني ممكن للحد من مخاطر الخسائر على أرض المعركة. «الآن أفهم ما الذي كان الجنرال بتريوس يقصده: لا مفر من الخسائر، لكن الكلفة عالية»، كما أدلى فاول. «في حين نتجاوز ذلك في الجيش وفي حياتنا الخاصة، فإن عائلاتنا تحمل ذلك العبء إلى الأبد».

أقسم فاول أن يسترجع دوماً، في يوم التأبين ويوم قدامى المحاربين، ذكرى رجاله الستة الذين قضوا نحبهم. «بوجود أسمائهم المحفورة على أساور أرتديها الآن، سوف أتذكر وأنقل. وسيحين الوقت لوضعهم جانباً والسير قدماً حتى الإجازة التالية، فسأخرج أسماءهم وأتذكرهم من جديد. ستكون هذه هي طريقتي للصمود».

يخدم فاول الآن ضابط عمليات في الوحدة إيربورن ١٠١، وهو منصب تولاه بتريوس في السابق. كانت صورة فاول معلّقة على الحائط تحت صورة بتريوس ببضع صور في المقر الرئيسي للوحدة. «لم يمضِ يوم واحد»، كما ذكر فاول، «لا أحاول فيه أن أرتقي إلى مستوى إرثه أو بشكل أكثر يقيناً إلى تطلّعاته».

وحده وفي وسط اللامكان، سار الرائد فرناندو لوجان على طريق حار ومغبّر مع القوات الأفغانية من الفيلق ٢١٥ في ند العلي، ولاية هلمند، قرب مرجة. وعلى غرار كثير من المستشارين المندمجين الآخرين على الأرض، كوَّن لوجان شعوراً دقيقاً حول قدرات أول دوريةٍ مستقلة للقوات الأفغانية في القطاعات التي تم تسليمها وفقاً لبيان قرضاي في آذار/مارس. كان التحقيق الأمني الذي باشره العقيد تانزولا ضد لوجان وزملائه في فريق الدعم والاستشارات لمكافحة التمرد سآت قد تم إغلاقه بهدوء، وكذلك الأمر بالنسبة للتقرير المهين المكوّن من عشرين صفحة حول مهمته في زبول، غير أن العلاقات مع العقيد البحري كانت قد تحسّنت. وافق تانزولا على البدء بإصدار مذكرات سآت أفغانية وتشمل مستشارين أفغان كالرائد كوش سادات، معاون بتريوس للقوات الخاصة الأفغانية،

ضمن مراسلات سآت. لكن لوجان لم يكن قد أفلح بعد في الحصول على ضابط قوات خاصة ليحل مكانه في عمله مع الأفغان. فلم يكن لديه ثقة كبيرة بأن أي شيء قد أسسه خلال السنة السابقة كان سيبقى عندما عاد بعد تشكيله إلى واشنطن.

قبل سنة، وفيما ناضلت البحرية لترسيخ سيطرتها على مرجة، كان ند العلي تحديداً مكاناً سيئاً للغاية. كانت القوات الأميركية وقوات الناتو ستقوم بالتأكيد تقريباً بإطلاق الرصاص بمجرد ابتعادهم لنحو مئتي ياردة عن أي قاعدة لهم، لكن لوجان كان الآن يتنقل بحرية في كل أنحاء القرية، محاطاً بالوحدات الأفغانية، من دون أي حادثة تذكر. كان حصاد الخشخاش في مرحلة النهاية، ما يعني أن موسم القتال كان يوشك على البدء مجدداً. بقي لوجان يترقب هجوماً دراماتيكياً، لكنه لم يكن قد حصل بعد. وقد تنقل من قاعدة إلى أخرى مع الأفغان بشاحنة فورد رينجر واحدة. وقد كان هذا مناقضاً تماماً لقواعد إيساف، التي كانت تفرض عليه التنقل فقط بعربات مدرعة. كان تانزولا يعتقد بأن هذا ما كان لوجان يفعله، لكن لوجان كان يعرف أن انتظار وصول العربة المدرّعة سيقضي بالكامل على صدقيته مع الأفغان. فقد كان يأخذ مخاطرة أكثر مما كان يريد صراحة، لناحية أمنه ومهنته على حد سواء، لكنه كان يفعل ما يحتاج فعله لإنجاز المهمة. بالإضافة إلى أن أحداً لم يعترض على ذلك.

وقد أدرك أيضاً أنه يملك فرصة واحدة فقط ليترك أثراً لدى قادة الفيلق ٢١٥ الأفغان، الذين التقوا كثيراً من المستشارين الأميركيين قبله. بعد مهمة واحدة مع القوات الأفغانية، كان لوجان بالقرب من جدول حين أحاطت به مجموعة من الجنود الأفغان. فقد انتابتهم الحشرية حيال هذا الأميركي الذي يرتدي الزي الأفغاني ويتحَدث لغتهم ويعاملهم باحترام. وقد اعترى لوجان الرعب. فقد أمطروه بأسئلة استجوابية.

«هل أنت جاسوس؟ ما رأيك بأميركا؟ هل تحاولون السيطرة على بلدنا؟ أنت كافر».

حافظ لوجان على هدوئه. فأجاب بلغة الداري. «كلا، أنا لست هنا لأملي ما يجب عليكم القيام به»، على حد قوله. «ونحن لن نغادر قريباً. سأبقى هنا لسنوات»، تابع وهو يحاول أن يشرح مبادرة الأيادي الأفغانية. «أنا أعمل لدى قائد الفيلق، وأريد أن أتعلّم منكم». هدأت الأمور قليلاً، لكنه بقي على حذر. لم يكن أحد يعرف بالضبط أين هو الآن، وكان لديه قدرة محدودة جداً على الاتصال. لكن تلك كانت مخاطر أحب أن يخوضها ليبني علاقة ويبين للقوات الأفغانية أنه كان يثق بهم ويريد المساعدة بصدق.

كان قد وافق عليه قائد الفيلق ٢١٥ في هلمند فقط لأن قائد الفيلق ٢٠٥، في قندهار، الذي متَّن لوجان علاقته معه، قد أرسل كلمة السر إلى هلمند بأن «الرائد فريد» ـ اللقب الذي أُعطي له ـ يمكن الوثوق به. وقد أدى أول خطاب موجزِ للوجان في داري المهمة. فقد كان في الداخل مع القائد. ولأجل المهمة، طلب لوجان ضابطين للعمل معه، واحداً من العمليات وآخر من الاستخبارات. أما ضابط العمليات، وهو رجل مسن، فكان يرتدي حزاماً مع مشبك يحمل شعار المنجل والمطرقة السوفييتي، وكان قد ساهم في تنفيذ كمين لوحدة سوفييتية كمقاتل مع المجاهدين في الثمانينيات. وكان ضابط الاستخبارات قد انخرط في الجيش منذ أن كان في الرابعة عشرة من عمره وكان يملك مهارة في جمع معلومات استخباراتية من أي شخص يلتقيه على الطرقات وفي القرى. كان يتحدث لغات الباشتو والداري والأوزبكية. وخطرت ببال لوجان فكرة أن تمتلك الحكومة الأميركية مخزوناً من الضباط الذين يقومون بالشيء نفسه.

أمضى لوجان وقتاً خلال تنقلاته في مراقبة العلاقة بين القوات البريطانية والأفغان. كان البريطانيون يحاولون من خلال ما عبَّر عنه لوجان «بالحب العنيف» مع الأفغان، في مسعىً لتبني الاستقلال وتجنّب ثقافة التبعية. لكن لوجان اعتبر أنه كان من الصعب تبرير التباينات في الظروف المعيشية. قام البريطانيون بعملياتهم من قواعد تتوفر فيها الخيام والمكيّفات الهوائية والحمامات النقالة وأجهزة التلفاز مع الصحون اللاقطة. وفي الجهة المقابلة مباشرة، استخدم الأفغان

حمامات مكشوفة وأحرقوا القمامة في حفر مكشوفة، وكان الدخان يغزو أماكن نوم الجنود. وقد أخبر البريطانيون لوجان بأن التباين لم يؤثر على علاقتهم. وسأله الأفغان، «لماذا لا يقومون بمساعدتنا؟» وقد اعتقد لوجان بأن البريطانيين كانوا سيجدون نتيجة أفضل لو قاموا بما قام به فلين في وادي نهر أرغنداب، بمعاملة الأفغان كأنداد وشركاء. كما اعتقد أنه كان باستطاعة الأميركيين والشركاء الدوليين الآخرين فعل مزيدٍ لتحسين الدعم اللوجستي للقوات الأفغانية. كانت النظرية في العمل بأن منع دعم الأفغان بالعتاد الذي تسلّمته إيساف سيحول دون اعتمادهم عن الأجانب. لكن لوجان اعتقد أن الفروقات كانت مشكلة بحد ذاتها.

كانت بعض الجوانب في أداء الأفغان سبباً للمشاكل أيضاً. فقد اعتقد أن الجنود الأفغان لم يمضوا الوقت الكافي في التواصل مع القرويين الأفغان لفهم احتياجاتهم. فكثير من الضباط الأفغان أخبروه أنه يستحيل عليهم الجلوس وتناول الشاي مع القرويين، لأنه سيكون فخاً من دون شك، أو أنه سيتم دس السم لهم. وقد تكوّن لدى لوجان شعور راسخ بأن هذه القوات الأفغانية كانت شديدة الثقة بنفسها. فكانوا يسيرون على الطرقات نفسها يوماً بعد يوم، وهو تطبيق عمليات سيّئ كانوا قد تبنُّوه لمجرد أنهم لم يُستَهدفوا مؤخراً. كان لديهم حدس حيال الريف، لكن كلما سألهم لوجان أين كانوا بالتحديد على الخريطة، كانوا يشيرون دائماً إلى نقطة على بعد ميل أو اثنين من الموقع، ما كان سيجعل الاتصال بقوات تدخل سريع أو مدفعية في حالة الهجوم أشبه بكابوس.

لكن لوجان اعتقد بأن إيساف وشركاءها الأفغان كانوا يحققون الفوز دون شك. فقد كان في باله، أنه لم يمكن إنكار أنهم انتزعوا المنطقة والمبادرة من طالبان. وقد سمع هذا من الأفغان في كل مكان قصده: «الأمور تسير إلى الأفضل. ففي السنة الماضية لم نتمكن حتى من التحرك مئتي متر أسفل الطريق خوفاً من إطلاق النار علينا أو تفجير عبوة ناسفة. أما الآن فيمكننا التحرك في المنطقة كلها. فطالبان أضعف بكثير هنا. وقد بدأ القرويون المحليون بالتحلي بشجاعة أكبر لإبعادهم عنهم». كان التغيير فعلياً وملموساً. كما لاحظ لوجان فرقاً

كبيراً بين الضباط الأفغان الأكبر سناً والجيل الجديد ممن هم أصغر سناً. فقد كان الضباط الصغار شجعان إلى حد مذهل، يرمون بأنفسهم في المعركة وينامون في قواعد صغيرة جداً لا شيء يحميهم سوى الأسلاك الشائكة. كانوا ملتزمين بالفعل، وقد أعطوه الأمل.

فيما بدأت إيساف بالتركيز على حملة التعطيل في الجبال الوعرة الممتدة عند الحدود الباكستانية جنوب شرق كابول، انضم لواء كوراهي التابع للوحدة إيربورن ١٠١ إلى القوات مع لواء الدوق التابع لفرقة المشاة الأولى في ولاية باكتيكا لتطهير المنطقة وإغلاق ممرَّي تسلّل من باكستان. لم تكن هذه المنطقة لتصبح جاهزة للانتقال إلى السيطرة الأفغانية في المستقبل المنظور، لكن مهمة التعطيل بقيت في حالة حرجة حتى تتمكّن إيساف من تعزيز مسعى الاقتصاد في القوة هناك. فقد كان خطراً أن يضطر المتمردون على الاختراق إلى أفغانستان وتكبُّد الخسائر كما فعلوا.

أعلن هجوم جوي واسع النطاق بداية الاشتباك الضخم الأخير الذي خاضه سكريمنغ إيغلز عام ٢٠١١. تم نقل السرية دي بقيادة النقيب إد تشرشل من الكتيبة الثانية التابعة للواء كوراهي، فوج المشاة ٥٠٦، جواً إلى المنطقة الوعرة في ١٤ أيار/مايو على متن طوافات بوينغ سي أتش ٦٠ تشينوك. كان مقاتلو المتمردين يراقبون، فجمعوا أسلحتهم وتهيَّأوا لنصب كمين لزوارهم. وعند الساعة ١:١٥ ب.ظ. في ١٦ أيار/مايو، فتح المتمرّدون النار على الفصيلة الثالثة للسرية من المدافع الرشاشة، والآر بي جي والرشاشات الخفيفة من أربعة مواقع ممتدة على سلسلة قمم شديدة الانحدار. كان وابل النيران مكثفاً جداً لدرجة أن رئيس الرقباء آدم د. بترون كان يستطيع رؤية الرصاصات وهي تضرب الصخور والشجيرات حوله فيما وثب من موقع إلى موقع، في محاولة يائسة للرد بالمثل أمام التفوق بإطلاق النار.

كان قد أُسنِد لسرية تشرشل مهمة تأمين منطقتي اشتباك وإغلاق أحد ممرات

التسلّل، ويدعى «روت سيفيك». كان تشرشل على مسافة ميل تقريباً، على قمة هضبة تشرف على ميدان المعركة، حين فتح المتمرّدون النار على الفصيلة الثالثة. وعلى مسافة ثلاثمئة ياردة تقريباً من الحدود الباكستانية، ترك رئيس الرقباء بترون موقعه المحصَّن ووثب خلال خمسة وعشرين ياردة من الأرض المكشوفة حيث كان الجندي أول كريستوفر و. ميودوزوسكي يتولى المدفع الرشاش الوحيد بين المتمردين وجناح فصيلته المكشوف. قام بترون بإرشاده إلى مواقع المتمردين، فقام ميودوزوسكي بفتح النار من رشاشه أم كي ـ ٤٨، مصوّباً على أهداف عدة حيث كان سلاحه مضبوطاً على الإطلاق رصاصة رصاصة ثم رشقاً. في ظل تعرّضه لإطلاق النار من خمس وعشرين متمرداً، فقد غطى قطاعاً بحوالى خمس وستين درجة لمدة ثلاث دقائق، متيحاً للفصيلة الثالثة استعادة المبادرة، والانتقال إلى مواقع محمية وخفية للرد بإطلاق النار. بعد الوابل الذي أطلقه ميودوزوسكي، عاد بترون إلى موقعه الأساسي واتصل لاسلكياً بالنقيب تشرشل لتقديم تحديث عن المعركة.

استمر المتمرّدون بإطلاق النار من مدفع رشاش أعلى القمة، مُسمّرين رجاله في ثلاثة مواقع في الأسفل. وعندما اكتشف بترون أخيراً المكان الذي كانت يأتي منه إطلاق الرصاص، أشَّر للمكان برصاص كاشف للجندي أول جيمس ر. موريسون، أفضل رامي من بندقية عديمة الارتداد في الفصيلة. ركض موريسون مسافة عشرين ياردة تحت زخات رصاص العدو إلى موقع يمكّنه من نصب سلاحه، فوثب وأطلق رصاصتين سريعتين على المتمردين، الذين كانوا على مسافة قريبة بنحو خمسين ياردة. لقد تم إفشال الكمين الأساسي. استمر الرصاص المتقطع طيلة اليوم حتى أقحم تشرشل وبترون الغارات الجوية والمدفعية من عيار ١٠٥ ملم. لكن المتمردين الذين اختبأوا في كهوف وتجويفات صخرية أخرى على طرف الجبل، كانوا محصّنين ضد نيران المدفعية من عيار ٣٠ ملم وصواريخ عيار ٢,٧٥ بوصة (ما يقرب من سبعة سنتمترات). وعند الساعة ٧:٠٠ مساء، استدعى تشرشل هجوماً من طائرة مقاتلة، قامت بإلقاء قنبلة زنة خمسمئة باوند موجّهة بجهاز

التحكم عبر الأقمار الاصطناعية على موقع المتمردين. وعندما أصاب القنبلة خلل، ألقت الطائرة قنبلة أخرى، فأسكتت العدو على مدى الساعات الست التالية.

عند الساعة ١:٠٠ فجراً من يوم ١٧ أيار/مايو، انتقلت الفصيلة الأولى من السرية والمقر الرئيسي للفصيلة لتعزيز فصيلة بترون الثالثة. وفي الظلام، تمكن ميودوزوسكي من كشف العدو بمنظار الرؤية الليلية وأطلق النار عليهم فيما استدعى قائد الفصيلة الغارات الجوية. عندما اقترب العدو لنحو خمسين ياردة من محيط السرية، ترك موريسون موقعه الأساسي وناور ببندقيته عديمة الارتداد من عيار ٩٠ ملم، مطلقاً النار على المتمردين من مسافة قريبة جداً.

في الوقت الذي عزّزت السرية فيه موقعها، أطلقت مروحيات الأباتشي النار على متمرد شوهِد بقرب المنطقة التي أُلقِيَت فيها القنابل. عرف الطيارون على الفور أنهم لم يكونوا يتلقون الرصاص من المتمردين بل من قاعدة للجيش الباكستاني فوق الحدود مباشرة، وهي القاعدة نفسها التي شن المتمردون هجماتهم منها. بعد إصابة مروحية بنيران أسلحة خفيفة، فتحت الأخرى النار على القاعدة الباكستانية. توقفت نيران العدو بعدها طيلة اليوم، متيحةً لكل وحدات تشرشل تطهير أهدافها وإنشاء موقع سريَّة موحد.

باقتراب فجر يوم ١٨ أيار/مايو، هاجم المتمردون مجدداً. كانوا قد أعادوا تأسيس ثلاثة مواقع في الجبل وكانوا يطلقون النار من المدافع الرشاشة والأسلحة الخفيفة. فسارع تشرشل إلى موقع الرشاش الأبعد شرقاً للسرية، ووجَّه الأسلحة الأوتوماتيكية والهاون من عيار ٦٠ ملم بإطلاق النار على كل مواقع المتمردين الثلاثة، ثم أسرع عائداً إلى مخفر قيادته واستدعى الغارات الجوية والمدفعية. وقد ساد هدوء مؤقت، وقدم تشرشل تحديثاً للمقر الرئيسي للكتيبة. بعد بضع دقائق، هاجم المتمردون مجدداً، مطلقين وابلاً فتاكاً من المدافع الرشاشة والأسلحة الخفيفة نزولاً باتجاه الناحية الشرقية لمحيط الكتيبة. فأسرع تشرشل عائداً إلى الشرق، وأجرى تقييماً للوضع ثم نظم إطلاق النار وعاد إلى مخفر القيادة. ولعب الملازم أول تشيس م. ديربن دوراً مماثلاً، متنقلاً بين مجموعة وأخرى لتوجيه

نيران المدافع الرشاشة باتجاه المتمردين من موقع الكتيبة الأبعد جنوباً. بعد إخماد الهجوم الثاني، شاهد رقيب من الشرطة الأفغانية الحدودية كان يقاتل إلى جانب الأميركيين متمرّدين يهرعون إلى قاعدة الجيش الباكستاني نحو الجهة الباكستانية من الحدود، وهم ينقلون رفاقاً جرحى وقتلى.

عندما وصلت مروحيات الأباتشي فوقهم مباشرة، رأوا مروحيَّتي ميل مي-١٧ عند الجهة الباكستانية من الحدود، لكن المروحيات الباكستانية استدارت جنوباً وتوجهت أسفل الحدود. انتهت المعركة، وأغلقت سرية تشرشل ممر روت سيفيك وعطلت عمليات المتمردين في الممر الجبلي الواقع بين مقاطعتَي غايان وسبيرا. لم يكن هناك مزيد من هجمات المتمردين خلال الأسابيع الخمسة الأخيرة للسرية في أفغانستان.

وكنتيجة للعملية، كان المتمردون قد خسروا قدرتهم على التأثير على السكان، بالإضافة إلى القدرة على نقل الرجال والأسلحة والعتاد عبر الحدود. كان السكان قد رأوا العدو يهاجم الأميركيين وشركاءهم الأفغان مرتين، وقد هُزموا خلال المرتين. قُتِل واحد وعشرون مقاتلاً متمرداً، وسقط ستة جرحى. وقد عمل تشرشل الآن مع شركائه في الجيش الأفغاني للتحرك مباشرة إلى القرى والبدء بعمليات أمنية. كانت رسالتهم بسيطة وقوية: نحن هنا لحمايتكم.

وسط الصخب والهرج والمرج في كافيه ميلانو، المكان الأفضل في المقر الرئيسي لإيساف، كابول، لتناول الكابوتشينو والذي يوفّر الواي فاي المجاني، تحدث العميد هـ. ر. مكماستر بثقة. فبدعم ومساعدة بتريوس الفاعلين، تمكّن من تجميع جيش صغير من العسكريين والمدنيين الطموحين، بمن فيهم أرفع المحقّقين من مكتب التحقيقات الفيدرالي وإدارة مكافحة المخدرات ووزارتي الخارجية والمالية. لكن قبل البدء بمحاربة الفساد، كان يتوجَّب عليهم فهم طبيعة المؤسسات التي كانوا في مواجهتها. وقد أدركوا على الفور أنهم كانوا أمام جريمة منظّمة ـ شبكات إجرامية تزكيها مساعدة دولية كانت تجني في العادة حتى

أموالاً أكثر من الاتجار غير المشروع بصادرات أفغانستان الأكثر مبيعاً، الأفيون. وكان باستطاعة أولئك الذين يعملون مع المتمردين شراء أكثر واردات أفغانستان: أسلحة وأسمدة، لاستخدامها في صنع العبوات الناسفة على جوانب الطرقات. كان ينبغي على فريق مكماستر أن يعرف كيف كانت تلك الشبكات تمارس عملها بعضها مع بعض داخلياً، وكيف كانت تعمل خارجياً مع اتحادات المجرمين في باكستان وأماكن مثل دبي.

كما هي العادة، فقد فهم الأفغان بلدهم أفضل بكثير مما كان باستطاعة الأميركيين فهمه، لذا فقد كان العمل عن كثب مع أفغان موثوقين هو مفتاح الحل. في ظل تصنيف أفغانستان دون منازع واحدة من أكثر أمم العالم فساداً، كان على مكماستر وجماعته إيجاد طريقة للحديث عن المشكلة ووصفها من دون الإساءة إلى مضيفيهم. وقد توصلوا إلى سيناريو أخيراً يمكن أن يكون مقنعاً للجميع: كان الفساد في البلد نتيجة ثلاثين سنة من الصراع. وكانت كميات ضخمة من المساعدة الدولية تتدفّق إلى الداخل من دون إشراف كافٍ، وكانت الحكومة تفتقر إلى مؤسسات قوية كان يمكنها أن تضمن الشفافية والثقة. وكانت جذور المشكلة تعود بجزء منها إلى الطريقة التي كان يتم بها تمويل الحروب في الماضي ـ بضخ كميات ضخمة من الأموال على قوات مرتزقة، يتبعها تسويات سياسية مختلفة مكّنت مجرمي الحرب، الذين أدى فسادهم إلى ترسيخ قوتهم وبأسهم. كان باستطاعة الأفغان ـ على الأقل أولئك الذين كانوا يعملون مع مكماستر ـ رؤية كيف سلب الفساد الدولة عائداتها، وأطال أمد الاعتماد على المساعدات الدولية، وأضعفَ المؤسسات، وقوّض شرعية الدولة وأضعف الدعم الدولي.

كان المفتاح الرئيسي لتقدم الشفافية قد أتى من خلال إرشادات مقاولات مكافحة التمرد التي صاغها مكماستر ونقّحها بتريوس ثم تم توقيعها في ٨ أيلول/سبتمبر. قبل ذلك، كان الأميركيون يتركون المقاولين على ما يبدو ليعملوا بالطريقة التي كانوا يعملون فيها في بلدهم وهي تعيين مقاولٍ رئيسي وتركه لينظم

أعمال جميع المقاولين. كان هناك الكثير من العمل للقيام به غير ذلك. لكن في أفغانستان، كما عرف مكماستر، كان عليك معرفة من هم المتعاقدون، لأن بعضهم كان ينهب الأموال ويحولها إلى طالبان. وقد ذكر بتريوس في كتيّب مكافحة التمرد أن «الأموال هي بمثابة ذخيرة»، وكان يتبيّن لمكماستر أن الوكالة الأميركية للتنمية كانت ـ عن غير قصد، ومن خلال الممارسات التعاقدية غير الكافية ـ تمدّ العدو بالذخيرة. الآن، وتماشياً مع إرشادات المقاولات، فلكي يحصل على عقد مقاولات، كان على المقاول أن يسمي سائر مقاوليه الفرعيين؛ وكان مكماستر الآن يمتلك استخبارات كافية لمعرفة هوية المقاولين الفرعيين، وتعقّبهم وحرمانهم من العمل. وكما أشار بتريوس في إرشادات المقاولات: «إن كانت الأموال هي الذخيرة، فينبغي علينا أن نضعها في المكان السليم». الآن، إذا بدأت أشياء مريبة تطرأ على الأموال، كان هناك تبعات جدية: التوقيف والحرمان، ما يعني أنه لن يكون هناك عقود مربحة لثلاث أو أربع سنوات. «إن كنت تريد جني المال من خلال العقود، فحريٌّ بك أن تبدأ بمراقبة جهتك الخاصة من العمل، أليس كذلك؟» على حد قول مكماستر. «لأنه إذا تم حرمانك، فلن تحظى بفرصة عمل».

عندما باشر مكماستر عمله قبل نحو سنة، أبدى كثير في العملية الدولية الواسعة لكابول امتعاضهم: لماذا كان بتريوس والجيش يركّزون على الفساد؟ ألم يكن لدى بتريوس كثير من الأمور على أرض المعركة ليقلق بشأنها؟ لكن بتريوس ومكماستر، أدركا على الفور أنه إذا لم يتم القضاء على ما يُسمى بشبكات دعم المجرمين، فسيقوّضون كل المؤسسات الحكومية الأفغانية التي كانت إيساف والمجتمع الدولي سيباشران قريباً بنقل المهام الأساسية لها. فالمهمة لم تكن إذاً، اختيارية: فقد كانت أساسية للمسعى بكامله. لذا باشر مكماستر تقويمه، وحقق تقدماً، مدركاً على مر الوقت أن قدرة بتريوس على تحقيق «وحدة المسعى» بين كل اللاعبين ـ العسكريين والمدنيين والأفغان والأميركيين والدوليين ـ قد سمحت بالتقدم من خلال فريق عمله.

كان بتريوس والجنرال المتقاعد جاك كين قد جلسا يتحادثان في مكتب بتريوس في بغداد خريف عام ٢٠٠٨ عندما رنَّ هاتف بتريوس المباشر. كان المساعد العسكري الأول لوزير الدفاع، الفريق بين تشياريللي. «يريد الوزير مكالمتك خلال ثلاثين دقيقة؛ هل ستكون متوفراً؟» فرد بتريوس بالإيجاب. «أنت تعلم موضوع المكالمة، أليس كذلك يا ديف؟» كما سأل كين. كان بتريوس يفعل ذلك؛ فقد شكَّ بأنه سيُعرَض عليه منصب رئيس القيادة المركزية الأميركية ، القيادة القتالية المتمركزة في فلوريدا وتغطي منطقة مسؤوليات من عشرين دولة في الشرق الأوسط ككل، بعد انتهاء جولته في العراق.

كان لديه بضعة تحفظات، نظراً لأنه، وبعد قضاء أربع من السنوات الخمس والنصف في العراق، فقد اعتقد أن منطقة جديدة ربما تكون أكثر تحفيزاً ذهنياً. لكنه أجاب بأن منصب رئيس القيادة المركزية سيكون شرفاً له، وبعد قضاء بضعة أشهر في المنصب الجديد، وجد بأنه أفضل منصب يمكن الحصول عليه في الجيش. لم يكن أحد يجيد الإدارة على الصعيد السياسي ـ العسكري الاستراتيجي أفضل من بتريوس، وكانت رئاسته للقيادة المركزية نموذجاً للمنصب العسكري السياسي. فقد وفَّرت له جولاته القتالية في العراق اتصالاً مع مسؤولين من تركيا والأردن وافتراضياً كل دول الخليج. والآن يملك فرصة للاستفادة من تلك العلاقات والشبكات الأمنية.

بصفته رئيس القيادة المركزية، فقد أشرف على حربين كانتا بقيادة جنرالات بأربع نجوم أدنى منه رتبة في العراق وأفغانستان. كان ملحقاً به جنرالات بثلاث نجوم يمثلون كل واحدة من الخدمات الأربع بصفتهم قادة ملحقين. كانت قيادة العمليات الخاصة المشتركة، التابعة أيضاً للعمليات في مسرح القيادة المركزية، لاعباً أساسياً في المنطقة ككل، للحرب على الإرهاب. وكان الإطار الكامل للمسؤولية، الذي يذهب وراء تأمين الإشراف والموارد للحربين البرّيتين وعمليات مكافحة الإرهاب الإقليمية، كبيراً جداً. فقدكان منخرطاً بتخطيط انسحاب القوات من العراق والإعمار في أفغانستان. وأشرف على عمليات مكافحة الإرهاب في

اليمن ومواقع أخرى. كان مسؤولاً عن الأمن الإقليمي، ساعياً لجعل العلاقات الثنائية علاقاتٍ متعددة الأطراف تعمل جميعها لتأمين دفاع جوي ودفاع صواريخ بالستية وتشاركوا أنظمة إنذار مبكر. عمل على حرية الملاحة البحرية وعمليات مكافحة القرصنة. جمع وجهات نظر حول عملية السلام في الشرق الأوسط. وقد أولى اهتماماً خاصاً لما كان بعض الخبراء في فريقه يعتقدون أنه يمكن أن يكون إعادة تنظيم عقائدي استراتيجي للمنطقة، في ظل حشد مساعي إيران الواضحة بتطوير أسلحة نووية وقابلية السعودية والحلفاء الخليجيين على أن يحذوا حذوها، ومختلف أشكال التوترات العرقية والطائفية والقبلية، التي يمكن لأيّ منها أن يتجلى كصراعات لانعدام النظام.

في اليوم التالي لتولّيه القيادة، كان بتريوس على متن طائرته متَّجِهاً إلى باكستان وأفغانستان. بعد ذلك بفترة قصيرة، توجَّه هو وفريقه إلى دول آسيا الوسطى. من ضمن أولويَّاته الأهم، بعد تقويم العمليات القائمة في أفغانستان وباكستان والعراق، كان تطوير ما يسمى بشبكة التوزيع الشمالية، والترتيبات اللوجستية لنقل الإمدادات والعتاد إلى أفغانستان من الشمال بدلاً من باكستان. فالاعتماد الحالي على باكستان كممر الإمداد الأبرز إلى داخل أفغانستان المحاصرة بريَّــاً كان بمثابة ضعف استراتيجي. فهناك تهديد جدي لممرات الإمداد الرئيسية في باكستان، وفي الوقت القائم ـ عقب التدخل الروسي في جورجيا بمدة قصيرة ـ فقد تبين أن هناك بضعة خيارات. فانقطاع الإمداد عن مسرح الحرب من شأنه أن يُعرّض المهمة للخطر. عندما هبط بتريوس وفريقه في أوزبكستان لعقد لقاءات رفيعة المستوى، أثمرت مساعي فريق بتريوس وأولئك الذين هم نظراؤه في قيادة النقل الأميركية وموظفوهم خطوات كبيرة. وعلى الفور، تم إنشاء شبكات جوية وبرية وسكك حديد لإمداد التدفق اللوجستي إلى أفغانستان، ما أدى للحد من الاعتماد على باكستان والحد من الضعف الاستراتيجي، في الوقت المحدّد تماماً لوصول قوات الغزو إلى أفغانستان.

في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩، وبعد لقاءات مع قادة أساسيين في آسيا

الوسطى، وجلسات مع الرئيس الباكستاني وقائد الجيش الباكستاني وعشاء مع الرئيس قرضاي في أفغانستان، تم استدعاء بتريوس مجدداً إلى واشنطن لحضور اجتماع في اليوم التالي لحفل افتتاح في البيت الأبيض للبدء بمراجعة للسياسة في العراق. «لا تعُد إلى تامبا الآن»، كما أبلغ مسؤول من مجلس الأمن القومي بتريوس بعد اللقاء حول العراق. «سوف نبدأ المراجعة بخصوص أفغانستان في الغد». فبتريوس، الذي طار صباح ذلك اليوم من أفغانستان، وفريق أوباما، الذين شاركوا لتوّهم في حفل الافتتاح، كانوا منهكين. لكن لم يكن هناك كثير من الوقت لإضاعته كون بروس ريدل، وهو مسؤول سابق في وكالة المخابرات المركزية يعمل الآن في بروكينغز إنستيتيوشن، قد تم اختياره للبدء بمراجعة على مدى ستين يوماً.

في ما يتعلق بريدل، كان بتريوس، «مساعد الرئيس الثالث غير المعترف به»، إلى جانب السفير ريتشارد هولبروك، الذي تم اختياره ليكون الممثل الخاص للرئيس ووزير الخارجية في أفغانستان وباكستان. «كان بتريوس عالماً أكثر من سائر أعضاء الفريق الآخرين، كما أدلى ريدل خلال مقابلة معه، لكنه كان هو وهولبروك يعرفان ما يكفي أيضاً ليجعلا بتريوس، الذي كان هولبروك يطلق عليه لقب «ظهيره»، واجهة السياسة، نظراً للاتجاه السائد في ذلك الحين بأن بتريوس كان «رجل بوش».

سار تقرير ريدل على خطى مراجعة كان بتريوس قد وضعها مستعيناً بفريق تقويم تابع للقيادة المركزية يضم لاعبين متعددي الوكالات نظروا إلى المسائل الرئيسية في أنحاء أفغانستان وسبع مجموعات لمشاكل دون الإقليمية. وساهم في إدارة المسعى العميد هـ. ر. مكماستر وثلاثة من كبار المسؤولين، من وزارة المالية والخارجية ووكالة المخابرات المركزية. بدأ تصوُّر تقرير الأشهر الخمسة بناء لطلب بتريوس حتى قبل أن يتولى القيادة. وقد ضم واحداً من «أكفأ الفرق متعددة الوكالات عرفها أحد يوماً»، وفقاً لمساعد مدير وزارة الخارجية دون ليبري، بوجود خمسين لاعباً أساسياً وأكثر من ١٥٠ خبيراً متخصصاً، يمارسون

عملهم في مكاتب في جامعة الدفاع الوطني، في واشنطن. قدَّمت الاكتشافات لبتريوس «رؤية تغطي ما تغطيه عينا الطائر من خلال عدسات مختلفة»، كما استرجع ليبري، بجزء منها كونها أعطت منظاراً سياسياً ومنهجياً وفكرياً، بالإضافة إلى وجهات نظر المنظمات غير الحكومية أيضاً، وخلايا التفكير والموظفين الأكاديميين».

أصيب ليبري بالذهول من توجيهات بتريوس بالنظر إلى الأمور من منظار متعدّد الوكالات. كما أدرك «أهمية ضمّ أصواتٍ لم يكن الجيش ليحصل عليها في الأحوال الطبيعية... وإدخال منظار أكاديمي يملك قوة ذهنية عليه». شرح ليبري، وهو خبير تنمية رفيع المستوى كان قد خدم مع بتريوس في العراق وسيخدم لاحقاً في أفغانستان من ٢٠٠٩ لغاية ٢٠١١، أهمية فريق التقويم وأحد أبرز استنتاجاته الرئيسية: إنّ مقاربة مكافحة تمرد مدنية عسكرية شاملة كانت ضرورية في أماكن عديدة من المنطقة، تتطلب أعداداً متغيّرة من الجنود الأميركيين على الأرض، انطلاقاً من قدرات الدول المضيفة.

كانت العناصر المتعدّدة الوكالات ستلعب أيضاً أدواراً مهمة في مساعي مكافحة التمرد. من خلال بنائه على نماذج كان قد وظّفها في البوسنة والعراق، أنشأ بتريوس فريق عمل مكافحة تمرّد متعدّد الوكالات لمعالجة المشاكل التي كانت تتطلب تعاوناً دولياً متعدّد الوكالات، بما في ذلك إنشاء خلية لتعقُّب مصادر تمويل الإرهابيين، وهي مبادرة إقليمية لخنق تدفق المقاتلين الأجانب، ومساعٍ لحظر تدفق الأسلحة والعتاد التي تسعى إليها دول إقليمية لأسباب غير شرعيةً. وكان القلق الأكبر لمجتمع الاستخبارات بكامله ناجمٌ عن المشكلة المتفاقمة للقاعدة في شبه الجزيرة العربية، وبشكل خاص تسهيل عملها ومواقع التدريب في اليمن. والجواب هنا لن يكون بإحضار مزيدٍ من الجنود إلى أرض المعركة، بل من خلال برنامج مكافحة تمرد قاصم مدعوم من المخابرات الكفؤة، وطائرات التجسس المزوَّدة بصواريخ هيلفاير الفتاكة، ومداهمات للعمليات الخاصة تكون بسرعة البرق كتلك التي ستؤدي للقضاء على بن لادن.

كانت مثالاً على ما يبدو أنه أصبحت الاستراتيجية الأميركية الكبرى لمكافحة التمرد: «اصطياد فأر الحقل (المقصود هو العميل)».

فالمفتاح إلى اصطياد فئران الحقول، في أي بلد، كما أحسَّ بتريوس، كان يكمن في الانخراط مع رئيس البلد والسعي للحصول على التوافق بخصوص مساعي التعاون، بشكل أساسي مع الدولة المضيفة التي تُجري العمليات، وتقوم الولايات المتحدة بتقديم الدعم الأمني والتدريب والاستخبارات وغير ذلك من أشكال المساعدة. أما المفتاح الثاني فكان، كما وصفها، «اصطياد كل فئران الحقول في المنطقة في الوقت نفسه» بحيث لا تقتصر العمليات على نقل الإرهابيين من مخبأ إلى آخر. بعد مرور أقل من شهرين على تولّيه القيادة، قام بتريوس وفريقه بزيارة إلى اليمن للقاء الرئيس علي عبداللّه صالح، لكن عدا اتخاذ المواقف لم يتم سوى إنجاز القليل. في الخريف التالي، عاد بتريوس مجدداً بعد أن سبقه لزيارته كل من الأميرال وليام مكريفن، رئيس قيادة العمليات الخاصة المشتركة في ذلك الوقت، وجون برينان، مساعد الرئيس للأمن الوطني ومكافحة الإرهاب. فقد كان التهديد جدياً أكثر هذه المرة، وكان صالح قد رأى القيادة المركزية توفي بعهود سابقة، وكانت النغمة مختلفة كثيراً. فقد ازداد مسعى دعم قوات الأمن الأميركية من ٦٠ مليون دولار في السنة الأولى إلى ١٥٠ مليون دولار في السنة التالية. وكانت قوة سلة المساعدة مدعومة بالأولويات المحددة من الطرفين بين كل القادة المنخرطين والذين يخدمون في القيادة المركزية. وقد لعبت القوات التقليدية والخاصة ووحدات المهمات الخاصة أدواراً مهمة، سوياً مع الاستخبارات والعناصر الدبلوماسية.

فتح الاجتماع الأبواب أمام تعاون محسَّن متعدّد الوكالات وعمليات ضد قادة القاعدة الذين وجدوا ملاذاً آمناً هناك. فالقاعدة في شبه الجزيرة العربية، كما اعتقد مجتمع الاستخبارات، قد نَمَت حتى تجاوزت التهديد المحلي أو الإقليمي وفرضت الآن تهديداً متطرّفاً خطيراً لأوروبا والولايات المتحدة. أكدت الأهمية المتزايدة لأنور العوالقي الأميركي المولد، الذي برز كشخصية متطرفة

شعبية جداً في الفضاء الإلكتروني، أن تقويم التهديد في اليمن كان مبنياً على أسس سليمة. وكان العوالقي سيُقتل في هجوم بطائرة استطلاعية نفذته وكالة المخابرات المركزية في أواخر أيلول/سبتمبر ٢٠١١، بعد أن تسلم بتريوس قيادة وكالة المخابرات المركزية بفترة قصيرة.

وفي القيادة المركزية، كان بتريوس يخبر عناصر فريقه باستمرار: «إن عملكم يوجب عليكم أن تكتشفوا الاتجاهات المؤثرة والأفكار الجيدة وتلفتوا انتباهي إليها». يسترجع مستشار بتريوس السياسي، السفير مايك فويلر، وهو مستعرب مع عقود من الخبرة، كيف أخبره بتريوس أن لديه «مطلق الحرية بالتفكير والتحري عن أي شيء تعتقد أنه مهم، طالما أنك تبقيني على اطّلاع بشكل دوري.... أنت تتبعني أنا وليس عليك الإقلال من شأن أي أحد آخر؛ لا تتساهل مع أي محاولات لمنع ما تقوم به من أجلي». انتقل بتريوس ليمكّن شركاءه من التفكير بشكل أكثر انفتاحاً حيال إيجاد حلول للمشاكل.

كانت باكستان أحد أعظم التحديات التي سيواجهها بتريوس في القيادة المركزية. وقد خلصت المراجعات كلها عام ٢٠٠٩ إلى أن باكستان كانت يجب أن تبقى أولوية. كان بتريوس يعمل مع مسؤولين أميركيين آخرين، بمن فيهم السفير هولبروك، لدعم الجيش الباكستاني بمبادرات مساعدة القوة الأمنية. كان الحصول على موافقة لتلك التقويمات يعني جلسات مغلقة في الكونغرس مع هولبروك لدعم مشروع قانون كيري ـ لوغار ـ بيرمان، إضافة إلى مبادرات أخرى. أحس بتريوس أن تلك المساعي قد ساعدت، نسبياً، بتحسين العلاقات مع باكستان، خاصة في برامج التعاون العسكري، بحلول ربيع عام ٢٠٠٩.

كان الجنرال الباكستاني كياني، كما اعتقد بتريوس، قد تولى قيادة الجيش بجدارة، في القيادة الوطنية والسياسية، بالإضافة إلى المجتمع الديني الباكستاني، لإدراك حتمية العمليات في وادي سوات. هذا هو المكان الذي قامت حركة طالبان الباكستانية ـ النسخة الباكستانية من طالبان ـ بالسيطرة عليه في ربيع عام ٢٠٠٩. عندما أطلقت القوات الباكستانية العمليات، تم اتخاذ القرار في واشنطن

بالمساعدة. «كانوا يعانون شحاً بذخيرة المدفعية، وقد وجدنا قليلاً منها، وقمنا بنقلها جوّاً إلى البلد»، كما استذكر بتريوس. «لقد رفعنا قواتنا الخاصة على الأرض بشكل جوهري من حوالي العشرين ليتخطوا المئة».

كانت القوات الخاصة الأميركية موجودة لتوفير مساعدة دفاعية أجنبية داخلية، خاصة في المساعدة لإعادة بناء قوات العمليات الخاصة الباكستانية، التي كانت قد تكبدت خسائر كبيرة وقت انتشارها كقوة مشاة خفيفة في القتال العنيف في السنوات السابقة. ساعدت القوات الأميركية في تسليح وتدريب القوات الباكستانية وبناء منشآت تدريب وبنىً تحتية أخرى لهم. لكن التعاون المتحسن، لم يكن مضمون النتائج. لذا فإن بتريوس، ومنذ اللحظة التي انتقل بها من القيادة المركزية ليصبح القائد في أفغانستان، صبّ تركيزه على معاقل طالبان في باكستان.

في واشنطن، حاول دوغ أوليفانت أن يشرح لماذا انسحبت القيادة الإقليمية الشرقية لتوّها من وادي بِش، في ولاية كُـنَر، بالقرب من الحدود الباكستانية. كان يبدأ بطريقة مهنية جديدة ككاتب ومحلّل في خلايا التفكير، وكان يأمل، أن يصبح مقاولاً حكومياً متخصّصاً بتطبيقات البيانات. في مقالة افتتاحية لِواشنطن بوست، اعتبر أوليفانت أنه كان هناك في الواقع ثلاث حروب في أفغانستان. كانت الأولى ضد القاعدة والمجموعات الإرهابية الرديفة. والثانية، تم خوضها بالنيابة عن حكومة قرضاي، وكانت ضد طالبان. وحرَّضت الثالثة «المجدّدين الحضريين» للبلد ضد «سكانه القرويين القبليين المعادين للحداثة» الذين يعيشون في القرى الجبلية الوعرة.

عندما توقف الجيش الأميركي عن عمليات مكافحة التمرد المرتكزة على السكان بصفتها الاستراتيجية المناسبة عام ٢٠٠٦، تم بناء أربعين قاعدة في أودية بِش وكورنغال وايغال التابعة لولاية كُنَر، ليدركوا بعد ثلاث أو أربع سنوات فقط أن تلك الخطوة لم تكن مدروسة جيداً. لم يكن السكان في هذه القرى، بشكل عام،

يريدون أن يكونوا جزءاً من أفغانستان الحديثة، وكان لمحاولات الجنود الأميركيين لاستمالتهم الأثر السيّئ، في كثير من النماذج، بتقريبهم أكثر من الإرهابيين، الذين تردّدوا أيضاً على هذه المناطق الحدودية. «لن يتم إهمال بِش»، كما كتب أوليفانت في معرض تبريره لسحب القوات الأميركية من بِش. «سيستمر الجيش الأميركي بمطاردة الإرهابيين[1] هناك وفي عدد من الأودية الأخرى. لن يجرب بكل تأكيد البقاء في هذه المناطق النائية، ولا تغيير نمط حياة سكانها ولا إيصال كابول إلى أماكن قد اتُّفِق على أنها غير مُرحَّب بها. ويعتبر ذلك درساً في العقم، ودرساً دفعت ثمنه القوات المنسحبة من بِش دماً لكي تتعلم».

وجد بتريوس المقالة حساسة واعتقد أنها وصفت بدقة ما كان هو ورئيس القيادة المركزية الشرقية اللواء كامبل يسعيان للقيام به في إعادة نشر القوات في المقاطعات الرئيسية، على الرغم من أن بتريوس بقي على اعتقاده أن من الضروري، على المدى الطويل، حرمان العدو من اتخاذ معاقل له حتى في المناطق الوعرة كتلك التي في كُنَر. لكن احتلالهم، كما حاول القادة فعله من ٢٠٠٦ إلى ٢٠١٠، لم يكن خياراً سليماً. فبدلاً عن ذلك، ينبغي على القوات الأفغانية، التي تعمل مع الشرطة الأفغانية المحلية على صعيد القرية، العمل مع القبائل لحرمان العدو من معاقله، بمساعدة الطائرات من دون طيار وقوات العمليات الخاصة والغارات الجوية الموسعة بين فينة وأخرى كتلك التي نفذها فاول وتشرشل.

اتضحت الآثار السلبية لهذا الوجود الخفيف في الولايات الشرقية في ٢٥ أيار/مايو، عندما استولت طالبان على مركز حكومي في مقاطعة دو أب المتنازع عليه في ولاية نورستان، المتاخم لِكُنَر شمالاً. ملأ مقاتلو طالبان المنشأة بعد مهاجمة مجموعة شرطة أفغانية تحمل أسلحة خفيفة بقذائف الهاون والأر بي جي. وقد سيطروا عليه لساعات قبل أن ترد إيساف بمئة جندي أميركي وأفغاني نقلتهم مروحيات للقضاء على المتمردين.

(١) Douglas A. Ollivant, "Let's Stop Civilizing Afghanistan," *Washington Post*, May 22, 2011.

كان بتريوس مضطرباً بخصوص الاستجابة البطيئة لإيساف عندما التقى سرياً بعد يومين مع الفريق رودريغز، رئيس القيادة المشتركة لإيساف ونائب قائد القوات الأميركية. فإن كان ثمة أحد يعرف الفوارق البسيطة في ساحات القتال الأفغانية، فقد كان رودريغز، المهندس الرئيسي للشق التشغيلي في خطة الحرب التي ورثها بتريوس من مكريستال. لم يكن الإثنان ليكونا مختلفين أكثر من ذلك. كان قد تم اختيار رودريغز ليترقى إلى فريق أول بأربع نجوم غير أن الاختيار لم يقع عليه ليخلف بتريوس. لم يكن ذلك لأنه لم يفهم الحرب بل لأنه لم يحُز ثقة الوزير غيتس بقدرته على التشغيل بأعلى المستويات الاستراتيجية في واشنطن وعواصم الائتلاف الأخرى. فبالإضافة لكونه عسكرياً استثنائياً، كان رودريغز يتَّسم بغرابة معينة أحياناً، ما حمل غيتس وآخرين على الامتناع، كما نُقِل. لكن رودريغز حاز ثقة بتريوس وولاء شديداً من أولئك الذين ترأسهم. لم يكن أحد قد خدم في أفغانستان لفترة أطول في السنوات الأخيرة ـ ما مجموعه أربعين شهراً خلال السنوات الأربع ونصف السنة الأخيرة. بيد أنه، في حين كان غيتس وبتريوس وآخرون يُبجّلون برودريغز، فقد اتفقوا على أن الفريق جون ألن، النائب السابق لبتريوس في القيادة المركزية، كان الخيار الأمثل ليخلف بتريوس، كونهم أحسوا أنه يملك لمسة استراتيجية معينة ووقاراً وخبرة لدى المستويات العليا، ما كان رودريغز يفتقر إليه.

استحضر بتريوس الهجوم على مركز مقاطعة دو أب في نورستان بنفحةٍ استفزازية. لماذا أخذت وقتاً طويلاً جداً للحصول على قوة رد فوري في الموقع؟ كان رودريغز يريد في البداية أن يعطي القوات الأفغانية فرصة لتنفيذ المهمة. لكن بتريوس أوضح وجهة نظره بأن إيساف لم تكن تستطيع ببساطة تحمُّل التأخير الذي أتاح لطالبان السيطرة على مركز حكومة المقاطعة. وقد كرّر المسألة في خطابه الموجز صباح اليوم التالي، وكان ما زال يبشّر بعنف حول تعاليم الرد الفوري في مجلس الشورى الأمني عصر ذلك اليوم مع مسؤولي إيساف والمسؤولين الأفغان. وقد غلّف خيبة أمله بثناء مفرط على نائب وزير الداخلية الأفغاني، الذي كان قد

طار إلى دو أب خلال المعركة ليجري قراءة أولية للوضع، لكنه كان واضحاً أن ردود الفعل كانت بحاجة لأن تكون أسرع.

في صباح اليوم التالي، كرّر بتريوس النقطة خلال خطابه الصباحي الموجز، عندما ظهرت النتائج حول تحقيق أجرته قيادة رودريغز المشتركة لإيساف: كان علينا الالتزام قبل الآن. اليوم، كانت مسألة أخرى تزعجه ـ ادعاء صباح ذلك اليوم من المسؤولين في وزارة الداخلية الأفغانية بأن مدنيين لقوا مصرعهم على يد إيساف في دو أب. «ما هي الحالة في ذلك؟» سأل بصوت عالٍ، بنغمة قلقة، لكن غير موجّهة لأحد. صاح مترجم ومستشار بتريوس الأفغاني الأميركي، عبدالله: «سيدي، لقد اتصلت بوزارة الداخلية الليلة الفائتة» غير أنه لم يُفَد عن وقوع أي إصابات بين المدنيين». استدار بتريوس من على كرسيّه ليصبح بمواجهة عبدالله وسأله أن ينقل رسالة لنائب وزير الداخلية. «ينبغي على نائب وزير الداخلية أن يفهم مدى انزعاجي حين يزعم علناً أنه كان هناك إصابات بين المدنيين قبل أن يكون هناك تحقيق حول ذلك. هذا يشكل قلقاً كبيراً بالنسبة لي. ومثل هذا التصرف يجعل القائد راغباً بأن يتراجع عن تعهده بمنع سقوط مركز المقاطعة. أخبرهم بأننا إما شركاء على طول الطريق في هذا، وإما لا. فالخيار يعود إليهم».

بيد أن هجوم دو أب، وعلى الرغم من تعقيده وغموضه، سرعان ما أصبح على هامش الحرب، فقد حجبته خلال ساعة أو ساعتين أخبار عن هجوم مأساوي آخر في تالقان، عاصمة ولاية تخار، أقصى شمال أفغانستان، عند الحدود مع طاجيكستان، حيث تنكر انتحاري بزي شرطي أفغاني وحضر مجلس شورى أمني وفجر نفسه، ما أدى إلى مقتل الفريق محمد داود داود، قائد الشرطة في كل أنحاء شمال أفغانستان، وجرح اللواء ماركوس كنيب، فريق أول ألماني يترأس قيادة الناتو الشمالية. كان لداود شعبية كبيرة في شمال أفغانستان نظراً لبطولاته في محاربة طالبان. وكان الهجوم الذي أدى إلى مصرعه، الأخير في عدد من الهجمات التي ارتدى فيها المهاجم زي شرطة أفغانية. وكانت تالقان بحالة أزمة لأكثر من أسبوع لحق بمظاهرة من آلاف الأفغان في ١٨ أيار/مايو. كانوا قد هاجموا مركز شرطة

وقاعدة للناتو احتجاجاً على مداهمة ليلية نفذتها القوات الأميركية والأفغانية أدَّت إلى مقتل أربعة أشخاص، من بينهم امرأتان صوَّبتا السلاح على القوات عندما طـُلِب منهما الاستسلام.

مقارنة بعدد المدنيين الذين قُتِلوا على يد تفجيرات طالبان الانتحارية والعبوات الناسفة المدفونة، فقد كانت المداهمات الليلية لإيساف، بجزئها الأكبر، عمليات جراحية سببت الأذى لبعض المدنيين. لكن الكثير من الأفغان كانوا يكرهون العمليات. بقي بتريوس مدافعاً شرساً عن المداهمات الليلية كعنصر أساسي من استراتيجيته لمكافحة التمرد، على الرغم من عدم تأييدها، لأنه كان يعلم كم كانت فتاكة في القضاء على قادة طالبان المتوسطين ورفيعي المستوى. وقد وافقه القادة الأمنيون الأفغان الرأي.

خلال ولاية بتريوس، كانت فاعلية المداهمات الليلية المنفّذة من قيادة العمليات الخاصة المشتركة قد ازدادت من حيث اعتقال قادة طالبان، بينما انخفض إطلاق الرصاص وإصابات المدنيين. وبتزايد، كانت القوات الأفغانية الخاصة المتحسّنة بإطراد في الطليعة. كان هناك نحو اثني عشر ألفاً من قوات العمليات الخاصة الأفغانية تم تدريبهم وتجهيزهم من قبل المدرّبين التابعين للفريق جون كالدويل والعميد سكوت ميلر، وكانت قدراتهم وطاقاتهم تزداد باطراد مع كل أسبوع يمضي، على الرغم من أنه لم يكن باستطاعة أحد التكهّن متى يمكن للأفغان أن يمتلكوا مروحيات كافية وقدرات استخباراتية للقيام بمداهمات ليلية بمفردهم. «كلنا متفقون على أنه لا يمكننا تحقيق أهدافنا المتبادلة من دون مداهمات ليلية»، كما أدلى بتريوس خلال أحد خطاباته، مكرراً مضمون تقييم كان قدَّمه للرئيس قرضاي. «لكننا نتفق جميعاً أيضاً على أنه لا يمكننا تحقيق أهدافنا المشتركة إن لم نغيّر أسلوب تنفيذنا للمداهمات الليلية، فعلينا أن نؤفغنها بشكل أكبر».

خلال ممارسته رياضة الجري الصباحية لمسافة خمسة أميال اليوم التالي في المقر الرئيسي لإيساف، ذكر أمام بعض الوافدين الجدد الذين كانوا يركضون معه: «أهلاً بكم في رحلة الأفعوانية للقيادة القتالية»، بإشارة إلى تهمة استهداف

المدنيين الأخيرة والهجوم المأساوي الذي أدى لمقتل الفريق داود وجرح رئيس القيادة الإقليمية الشمالية، اللواء كنيب. «لا تستطيعون أن تصبحوا قساة القلب. أما الخسائر والأنباء السيئة، فعليكم فقط أن تكونوا مرنين لأقصى الحدود، طيلة الوقت. حافظوا على رباطة جأشكم». ركض لبضع دقائق بصمت، ثم أضاف، «اربطوا أحزمة أمانكم واستعدوا للرحلة».

كان هناك مزيد من المفاجآت بالانتظار. فقد أكد الناتو أن هجوماً جوياً في مقاطعة ناو زاد التابعة لولاية هلمند، على مسافة خمسين ميلاً شمال لشكرغاه، عاصمة الولاية، أدى إلى مقتل تسعة مدنيين أبرياء في ٢٨ أيار/مايو. وقد وصلت الحصيلة لدى المسؤولين الأفغان إلى أربعة عشر، سبعة صبية، وخمس بنات، وامرأتين لقيتا مصرعهما أثناء نومهما. وقد جاءت الغارة الجوية، وفقاً للناتو، بعد أن قامت مجموعة من خمسة متمردين بهاجمة دورية راجلة للائتلاف، أدت إلى جرح جندي بحرية أميركي قبل العثور على ملجأ في مجمع تقطنه النساء والأطفال النائمون. بعد محاصرتهم من المتمرّدين وأمام عجزهم عن طلب مروحية الفريق الطبي لإجلاء رفيقهم المصاب، قام جنود البحرية بطلب الغارة الجوية.

بمعزل عن بذل بتريوس كل جهوده، فقد جلبت الإصابات من المدنيين النحس إلى قيادته. فقبل أسبوعين فقط، أصدر توجيهاً جديداً «بخصوص الإصابات بين المدنيين». فقد نصت وثيقة الصفحة الواحدة على أن «ليس ثمة مسألة تسلّط الضوء على موازنة العدوانية التكتيكية مع الصبر التكتيكي أكثر من [الإصابات بين المدنيين]، وكلاهما ضروري جداً لتحقيق أهدافنا. ذكر بتريوس «أننا الآن أمام لحظة مفصلية في عملنا هنا» وحثَّ سائر القادة ليس على مراجعة توجيهه الأخير فحسب بل أيضاً توجيهاته لمكافحة التمرد، توجيه القيادة التكتيكية الذي منع استعمال المركبات المتهور، ووثيقة تدعى «إجراءات التشغيل القياسية ٣٧٣: توجيهات التصعيد»، الذي أكد على الحاجة لقياس المخاطر بتبصّر وعدم إغفال أهمية الحد من الإصابات في صفوف المدنيين. «فمن خلال العمل الجدي وكثير من التضحيات، قمنا نحن وشركاؤنا الأفغان بإعطاء زخم ملموس في جميع أنحاء أفغانستان»، كما كتب بتريوس. «فالبناء

على ذلك الزخم سيتطلب مهارة استثنائية وشجاعة، وقبل كل شيء، بصيرة من كل جندي منخرط في الحملة خلال سعينا لحماية الشعب الأفغاني». وكان تعليم ما أطلق عليه الجنرال مكريستال «كبح الجماح الجريء» قد بقي اقتراحاً مليئاً بالتحديات في مكافحة التمرد.

مع اقتراب الصيف، برزت خشية متنامية في جميع أنحاء البلد رفعت الأسئلة بعفوية حول الانتقال من إيساف إلى القوات الأفغانية التي كانت توشك على أن تأخذ مكانها في مزار شريف، حيث كان مركز الجنرال داود. وعلى الرغم من أن البحرية كانت قد دافعت عن موقعهم ـ بعد أن لجأ المتمردون إلى مجمع مدني كغطاء ـ فقد كان قرضاي غاضباً. وكان بتريوس مثبط العزيمة أيضاً خلال الخطاب الصباحي. وقد أصر أنه إذا كان هناك الكثير من الضباب والاحتكاك، فعلى الجنود التراجع، لا المتابعة. كانت بعض الأهداف التكتيكية تستحق الإصابات بين صفوف المدنيين. أصر قرضاي في ٣١ أيار/مايو على أن يوقف الائتلاف الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة كل الغارات الجوية التي تستهدف منازل الأفغان.

على غرار المداهمات الليلية، كانت الغارات الجوية قد ازدادت خلال حقبة بتريوس. فناهزت الغارات الجوية ١٠٤٣ غارة في تشرين الأول/أكتوبر. وفي حين انخفضت إلى بضع مئات شهرياً خلال الأشهر الأربعة الأولى من ٢٠١١، فقد بقيت أعلى بمعدل ٨٠ بالمئة مقارنة بالسنة السابقة، بعدما كان مكريستال قد حدَّ كثيراً من القوة الجوية، وتحديداً للحد من الخسائر في صفوف المدنيين.

لم يكن قرضاي يملك القوة القانونية لحظر القوات الدولية في بلده، التي كانت هناك بتفويض رسمي من الناتو. لكن ذلك لم يمنعه في البداية من تسمية القوات الأجنبية قوات محتلة. فالتاريخ، كما قال، كان شاهداً على «كيفية تعاطي أفغانستان مع المحتلين».

عكرت خطاباته صفو واشنطن في وقت كان الرئيس أوباما يقرر فيه مدى سرعة سحب القوات الأميركية، وكان المسؤولون الأميركيون يناقشون شراكة استراتيجية عقب الانتقال الكامل للمسؤوليات الأمنية إلى القوات الأفغانية عام ٢٠١٤. وكان ثورانه يصعب المهمة على بتريوس أكثر فأكثر، واضعاً عقبات

عملية على الأرض في أفغانستان وأخرى حتى أكثر منها كيدية في واشنطن، خاصة مع أولئك الذين في كابيتول هيل.

لدى اختتامه مهماته مع القوات الأفغانية في ولاية هلمند، كان لوجان يحضر لاجتماع بعيد عن الأنظار لسآت كان مقرراً أن يبدأ في كابول مطلع حزيران/ يونيو. كان سيعود إلى واشنطن ليتابع دورة دراسية مدتها سنة في مركز الأمن الأميركي الجديد وتعلّم لغة الباشتو. وفكر بأنه سيعود إلى أفغانستان لسنة أخرى ليعمل لدى سآت. لكن بعد ذلك، لم يكن متأكداً من الوجهة التي تسير بها حياته المهنية: موظفاً في مجلس الأمن القومي أم تقاعداً مبكراً بسبب تاريخه الحافل. على الرغم من المصاعب التي واجهها مع تانزولا وما اعتبره إخفاقاً شخصياً في إضفاء الطابع المؤسسي على سآت الأفغاني، فقد أبلغ بتريوس في رسالة بريد إلكتروني أن السنة السابقة كانت من أكثر السنوات المثمرة التي أمضاها في الجيش. «تعالَ لمقابلتي عندما تعود إلى كابول»، كما أجاب بتريوس.

عندما التأم اجتماع سآت في المقر الرئيسي لإيساف في اليوم التالي، خاطب بتريوس المجموعة وتحدث عن مساهمتها الفريدة: «إن عملكم يتعلق بالنوعية، لا بالكمية»، على حد قوله. «وجدنا فيكم أشخاصاً قادرين على التصرف باستقلالية. أنتم راغبون ومُخوَّلون باتخاذ مخاطر محسوبة كما أنكم خبراء متخصصون يستفيدون من الجولات المتكررة هنا. لقد أدخلنا في خطة الحملة، خط مسعى استراتيجي يُدعى «فهم البيئة»، وقد قمتم بعملٍ مضنٍ لتدعموا تقدمنا فيه، من مستوى الفرقة وصولاً إلى مستوى اللواء، مع قواتٍ الائتلاف والأفغان. دعوا رجالكم يطلقوا لحاهم. دعوهم يتقبّلوا المخاطرة». وقد خصَّ روجر كارستنز، مستشار مكافحة التمرد الأعلى في سآت، ولوجان، بالثناء. اجعلوا من هذا منظمة حساء حجارة ثقافية(*) ـ واصلوا زيادة الأشخاص المناسبين واحداً تلو الآخر، ثم حرّكوا المجموع.

(١) حساء الحجارة، هي في الأصل قصة عن المشاركة المجتمعية تدور أحداثها حول رجل يزور قرية ويحفز أهلها على التعاون والعمل على إعداد حساء سحري، كل بما لديه من سعة وقدرة وهمة وتعني هنا اختيار الأشخاص المناسبين والتفاعل في ما بينهم والعمل الفريقي من أجل إنجاح المهمات.

«الآن أريدكم أن تفكروا بالتهيُّؤ للمرحلة اللاحقة لعام ٢٠١٤، المتعلقة بمبادرات الدعم واستشارات مكافحة التمرد»، كما أضاف. فقد كان هذا، بمعظمه، من بنات أفكار لوجان. اعتقد لوجان أنه بعد خصامه مع تانزولا، قد ذهب إلى غير رجعة. فأشار بتريوس إلى أنه لم يكن كذلك، قبل أن يجول في الغرفة ويسأل عن الدروس التي تم استقاؤها من قادة سآت الأساسيين، بمن فيهم الممثلون الفرنسيون والإيطاليون.

ذكر عقيد أن «الشراكة في كل شيء ضرورية للغاية».

وافق بتريوس وقال إن الشراكة مع قوات الأمن الأفغانية كانت في غاية الأهمية، خاصة في ما يتعلق بتنظيم الشرطة الأفغانية المحلية. وأضاف لوجان بأن مشاركة الأفغان بعضهم بعضاً كان مهماً أيضاً. وكانت القوات الأفغانية المسلحة، كما قال، قد اعتبرت الشرطة الأفغانية المحلية «فاسدة إلى حد ميؤوس منه».

«اكتب لي شيئاً عنها، من فضلك»، أجاب بتريوس. ثم خاطب الجميع في الغرفة، بمن فيهم المؤرخون العسكريون الذين أتوا ليجمعوا دروساً كانت تُدرَّس في كليات التدريب العسكرية، وتحداهم. «فكروا في الماضي عندما كنتم برتبة ملازم. ما الذي كان يهم في ذلك الوقت؟ كان كلّ منكم يريد أن يكتب مقالة في مجلة العلاقات الخارجية أو مقالات افتتاحية في واشنطن بوست، لكن القادة القادمين يريدون أن يقرأوا ما يرغبون ويتوجّب عليهم القيام به في مستواهم. لم يكن ابني ملازماً، يهتم بالأعمال العظيمة المنشورة لوالده. فهو يريد مقالات قصيرة لوحدة صغيرة».

أخبر لوجان بتريوس لاحقاً بأنه بذل كل جهد ممكن لجعل الرائد ستيفن هوبكينز، وهو أحد رجال القبّعات الخضر في الجيش وفي سجله ست جولات سابقة في أفغانستان، ليحل محله، لكن من دون جدوى. كان لوجان وهوبكينز على اتصال خلال الأشهر التسعة الماضية، وكان هوبكينز قد أمضى سنة يتعلم لغة الداري. لكن بدلاً من متابعة عمل لوجان بالانخراط في القوات الأفغانية، فقد تم اختيار هوبكينز ليكون ضابط اتصال لمجتمع الاستخبارات المتعدّد الوكالات.

طلب بتريوس لاحقاً إلى أرفع ضباطه، العقيد بيل هيكمان، أن يحرص على تعيين هوبكينز ليحل محل لوجان. «أنا مُصرٌّ على ذلك»، على حد قول بتريوس. كما طلب إلى لوجان بأن يعطي مذكرة كانون الأول/ديسمبر لبديل تانزولا «بشكل سري» ويقول إن بتريوس قد أمره بالقيام بذلك.

طغت على الأسابيع القليلة التالية التحضيرات لرحلة العودة إلى واشنطن من أجل جلسة الاستماع إليه ومناقشة الرئيس أوباما لعدد القوات الأميركية التي ستُسحب ووتيرة سحبها والقرار بشأنها. لم يكن في المقر الرئيسي لإيساف سوى بتريوس واثنين آخرين، بالإضافة إلى رودريغز ومخطِّطين موثوقين من المقر الرئيسي للقيادة المشتركة المتوسطة، يعلمون ما كان بتريوس ينوي اقتراحه على أوباما عندما عاد إلى واشنطن خلال أسبوع فقط. كان قد اتخذ قراراً بعدم إخبار هيكمان، كبير ضباطه، أو أعضاء من موظفي مجموعة مبادرات القادة، بنفس القدر الذي أخبر فيه العاملين الآخرين، أي شيء بخصوص عدد القوات أو المواعيد، لتجنّب التسريبات. فقد تذكّر كيف شعر البيت الأبيض بأنه محاصر خلال مراجعته للسياسة العامة في أفغانستان خريف عام ٢٠٠٩ من خلال شهادة مولن أمام لجنة مجلس الشيوخ للقوات المسلحة وخطاب مكريستال في لندن. كان متشدّداً بخصوص منع تسريبات من شأنها أن تخلق حالة ما من جديد. فخارج إيساف، أخبر بتريوس فقط الجنرال ماتيس من القيادة المركزية، والأميرال مولن، رئيس هيئة الأركان المشتركة، ووزير الدفاع غيتس ما كان ينوي تقديمه للرئيس أوباما.

تم تذكير بتريوس بالوقت القصير الذي تبقّى له في أفغانستان عندما ذهب غيتس فيما أصبح زيارة عاطفية أخيرة - هي الثانية عشرة له - إلى أفغانستان كوزير دفاع. التقى غيتس مع بتريوس والسفير إيكنبري في كابول واعتبر أن الحرب يمكن أن تكون عند نقطة مفصلية عقب موت بن لادن إذا استطاع المسؤولون الأميركيون إحراز تقدم في محادثاتهم الناشئة مع طالبان. وفي ظل حديث بعضهم في البيت الأبيض علناً عن تفضيلهم انسحاباً أكبر للقوات أكثر مما كان البنتاغون يفضله، أعرب غيتس عن مخاوفه حيال سحب القوات خارج البلد بسرعة. كما

ظهر في مؤتمر صحافي مع قرضاي، الذي بقي ساخطاً بسبب الغارة الجوية على هلمند والاعتماد المتمادي على المداهمات الليلية من قبل إيساف: «لا يمكننا تحمل المزيد من هذا». اعتذر بتريوس مجدداً من قرضاي بسبب آخر حصيلة من القتلى المدنيين في هلمند، وشرح كيف انحرفت الغارة الجوية، مشيراً إلى أن جندياً شاباً من مشاة البحرية قد قُتِل فيما كافح رفاقه لإحضار مروحية الفريق الطبي خلال اشتباك بالرصاص.

بعد ظهوره مع قرضاي في كابول، استقل غيتس مروحية للقيام بسلسلة من الزيارات مع الجنود. وكانت محطته الأولى في قاعدة عمليات والتون المتقدمة، خارج قندهار. في ٦ حزيران/يونيو، الذكرى السنوية لإنزال النورماندي عام ١٩٤٤، طار غيتس إلى قاعدة عمليات شرنة المتقدمة، في ولاية باكتيكا، لوداع لواء كوراهي التابع للوحدة إيربورن ١٠١، آخر ما تبقى من سكريمنغ إيغلز في أفغانستان. كانت مهمة كوراهي في ذكرى إنزال النورماندي تقضي بالقفز إلى النورماندي عند الأراضي المرتفعة بالقرب من شاطئ يوتا لتأمين طريق مرتفع، والاتصال بمشاة الشاطئ ومن ثم التحرك جنوباً وصولاً إلى كارنتان. كان عناصر كوراهيز قد قفزوا قبل هبوط قوات الغزو عند شواطئ النورماندي، وقُتِل ١٨٤ مظليّاً في القتال اللاحق. وقد تمت تلاوة أسمائهم جميعاً في الذكرى، بالإضافة إلى أسماء السبعة عشر من كوراهيز الذين قتِلوا خلال الأشهر التسعة السابقة في أفغانستان. كان غيتس، الذي يرتدي قميصاً أزرق فاتح اللون بأزرار طراز أكسفورد ويقف تحت أشعة الشمس الساطعة، يتلقى الأسئلة من الجنود. سأل أحدهم عن التأثير الذي كان يشعر أن موت بن لادن يمكن أن يتركه على الحرب. فأجاب غيتس:

> أعتقد أن من المبكر جداً الحديث عما سيكون تأثير موت بن لادن على الوضع هنا في أفغانستان. أعتقد أنه سيكون لدينا فكرة أفضل عن ذلك في نهاية السنة.... فلو كنت من طالبان، لتساءلت دائماً عمّا جلبته لي القاعدة عدا عن التسبب بطردي من أفغانستان؟ لذا فأنا آمل أننا، لو

واصلنا الضغط العسكري بالوتيرة نفسها لبقية هذه السنة، واحتفظنا بمن اعتقلناهم من هؤلاء الرجال في الجنوب، ولو استمررنا بتعطيلهم كما تفعلون أنتم هنا فسيعرفون أنهم لن يحققوا الفوز، حينها يمكن لذلك أن يفتح الباب لتسوية سياسية في المستقبل، لأن أحد الخطوط الحمر للحكومة الأفغانية والائتلاف هو أن على طالبان أن تتخلى عن أي صلة بالقاعدة أو دعم لها.... ما زلنا على السكة الصحيحة. وبصراحة، فنحن نحقق كثيراً من التقدم في إضعاف زخم طالبان، ومنعهم من السيطرة على المناطق السكنية، وإذلال قدراتهم، وتحسين قدرات قوات الأمن الوطني الأفغاني ومطاردة القاعدة. أعتقد أننا خطونا خطوات كبيرة في كل تلك المناطق في الأشهر الخمسة عشر إلى الثمانية عشر الأخيرة، لكن برأيي علينا أن نبقي الضغط مستمراً. فنحن لم نحقّق مبتغانا بعد.

قاوم غيتس للمحافظة على رباطة جأشه حين كان يتلو الوداع. «لقد أردت فعلاً أن آتي إلى هنا وأشكركم مرة أخيرة لخدماتكم وتضحياتكم»، كما أخبر الجنود، وقد اختنق صوته لشدة تأثّره.

لربما أكثر من أي شخص آخر ما عدا الرئيس نفسه، أنا مسؤول عن وجودكم هنا. أنا الرجل الذي وقّع على أوامر الانتشار التي أرسلتكم إلى هنا. لقد كان ذلك عبئاً عليَّ كل يوم شغلت فيه هذا المنصب على مدى أربعة أعوام ونصف العام. لذا، فقد اهتممت، على مسؤوليتي الشخصية، أن تحصلوا على كل ما تحتاجونه لإنجاز مهمتكم، وتعودوا إلى الوطن سالمين، وإذا حصل لكم مكروه، أن تحصلوا على الإسعافات بأسرع ما يمكن، وتحصلوا على أفضل عناية ممكنة. لا أتوقّف عن التفكير بكم في كل لحظة من كل يوم. أشعر بمشقاتكم وتضحياتكم ومعاناتكم أكثر مما يمكنكم تصوّره، أنتم وعائلاتكم أيضاً. أعتقد أنكم أفضل ما يمكن لأميركا أن تقدمه. إن تقديري واحترامي لكم لا حدود لهما، وسأحرص على تذكّر كل واحد منكم في صلواتي كل يوم لما تبقى من حياتي. شكراً لكم.

غادر كابول في اليوم التالي بعد إبداء ملاحظات أمام ضباط في المقر الرئيسي لإيساف. شكر غيتس رودريغز، مساعده العسكري السابق، لبناء القيادة المشتركة لإيساف وقال إنه كان يعتقد أن قوة الائتلاف كانت قريبة من إنزال «ضربة قاصمة» بطالبان. ثم توجَّه إلى بروكسل لحضور اجتماع لوزراء دفاع الناتو. كان بتريوس سينضم إليه قريباً هناك، لكن في الوقت الحاضر، وفي كابول، استمر توافد الضيوف من واشنطن.

ما كاد غيتس يغادر حتى وصلت بعثة من الكونغرس ـ النواب الأميركيون دوغ لامبورن من كولورادو، وريتشارد ناغنت من فلوريدا، وأوستن سكوت من جورجيا، وروبرت وودال من جورجيا، جميعهم جمهوريون، ووليام كيتنغ، ديمقراطي من ماساتشوستس ـ إلى كابول. قدم لهم بتريوس موجزاً تنفيذياً بدأ بوصفٍ لما أسماه «الحصول على نتائج سليمة»: وصف للمسعى منذ مطلع عام ٢٠٠٩ لتنفيذ الاستراتيجية بشكل سليم، ونشر القوات والمدنيين الضروريين، وبناء المنظمات المطلوبة، ووضع الأشخاص المناسبين في المناصب الرئيسية. وقد عرّفهم إلى عددٍ من الشخصيات شملت إيكنبري ورودريغز وكالدويل وحتى الأيادي الأفغانية، بإشارة إلى أمثال فرناندو لوجان. حدَّثهم عن المبادرات الجديدة التي كان قد حرَّكها منذ وصوله، بما فيها فريق عمل الشفافية التابع لِمكماستر، ومساعي تحسين تبادل المعلومات الاستخباراتية، وإعادة الدمج، والشرطة الأفغانية المحلية والقوة الميدانية لسيادة القانون التابعة لِمارتن. كما أدرج الموجز رسماً بيانياً لاستراتيجيته أناكوندا، مع غيومه وسهامه ودوائره: كل إشارات نقاط الضغط تشدّد على طالبان وشبكة حقاني ومجموعات تمرد أخرى. شرح بتريوس لأعضاء الكونغرس التقدم الذي تم إحرازه خلال عمليات التطهير والسيطرة في الجنوب، وكيف أصبح هناك الآن إحدى وأربعون مفرزة شرطة أفغانية محلية تعمل في القرى، وبانتظار ست وثلاثين أخرى قادمة. كما بيَّن لهم ملخّص تسعين يوماً من مداهمات القوات الخاصة ـ ١٨٤٣ عملية، ٥٠٩ من قادة المتمردين قـُتِلوا أو اعتُقِلوا، ٢٥٧٣ متمرداً اعتُقِلوا. كما شرح

عملية إعادة دمج قام خلالها ١٧٣٧ عنصراً من طالبان بتسليم سلاحهم وقرّروا دعم الحكومة.

المشكلة الأكبر، كما أخبر أعضاء الكونغرس، كانت تكمن في المعاقل الموجودة في باكستان. كان بتريوس يعتقد أن علاقة أميركا مع باكستان تقع عند مفترق طرق. فمن ناحية، اعتمدت إيساف على باكستان في الخطوط الحيوية من الاتصال والإمداد. ومن ناحية أخرى كان يُنظر لباكستان على أنها متواطئة لعجزها عن السيطرة على المناطق القبلية ذات الإدارة الفيدرالية، وهي أرض توليد وتدريب لتدفق لامحدود من المقاتلين الذين ينتقلون إلى أفغانستان. لكنه كان سريعاً أيضاً في الدفاع عن باكستان. «لقد طاردت باكستان بعض المجموعات، وقد تكبّدوا خسائر كبيرة. علينا أن نسير لعدة أميال بخفّيهم ونتعاطف معهم بشكل دوري».

عاد بتريوس إلى خشبة المسرح ليقرأ نصاً مشابهاً في اليوم التالي في المقر الرئيسي للناتو في بروكسل، بعد أن طار إلى هناك في الليلة السابقة لينضم إلى غيتس خلال اجتماعات مغلقة مع وزراء دفاع الناتو. بينما كان بتريوس منهمكاً بوضع التوصيات لسحب القوات والتي سيقدمها لأوباما، أخبر غيتس الصحفيين عقب الاجتماع مع وزراء الناتو بأن الانسحاب لن يكون «بالإسراع إلى المخارج من جهتنا، ونتوقع الشيء نفسه من حلفائنا».

عاد غيتس من بروكسل إلى واشنطن في حين توقف بتريوس لثماني عشرة ساعة في روما، حيث استمتع بالرحلة داخل المدينة بسيارة مازيراتي مصفحة مع مرافقة من شرطة كارابينيري. خلال عشاء لاحقاً في تلك الليلة، تم منح بتريوس وسام كروسي دورو ـ الصليب الذهبي لِكارابينيري ـ من قبل وزير الدفاع الإيطالي إغناتزيو لا روسا. كان خارج فندقه قرب فيا فينيتو عند الساعة السادسة من صباح اليوم التالي في يوم صافٍ وهادئ للجري مسافة ستة أميال والتي اعتقد أنها كانت واحدة من أروع المناظر، أسفل فيا فينيتو، داخل كولوسيوم وحولها، مروراً بنافورة تريفي، وصعوداً على الأدراج الإسبانية، قبل إنهاء سريع عائداً إلى فيا فينيتو.

حتى بعد أن تحوّل انتباه بتريوس، لشيء من الضرورة، نحو عمله المقبل ـ إدارة وكالة المخابرات المركزية ـ فقد كانت الحرب تتطلب انتباهه الكامل. اعتقد بتريوس أنه كان هناك ثمة ديناميكية مثيرة خلال تقديمه موجزاً بين أعضاء جدد في الكونغرس ربما لم يكونوا يقدّرون بالكامل ما كان يحصل داخل أفغانستان. كما قرأ تحديثاً أسبوعياً من أربع صفحات للفريق كالدويل بخصوص تجنيد الجيش الأفغاني وتدريبه. خلال الأشهر الستة التالية، قدمت الحكومة الأميركية لتلك القوات ١٤ ألف عربة و٣٣٠٠ قطعة سلاح و٤٠ ألف جهاز لاسلكي. تمنى بتريوس لو أنه كان هناك لدى وصول الشحنات. كان مسروراً حين علم أن الجيش الأميركي سيعمد على الفور إلى تقديم الغذاء والإمدادات الطبية الأخرى لِـ٢٨ ألف أفغاني في شمال ولاية سربل التي كانت مهددة بالمجاعة القاتلة بسبب الجفاف، وهي مبادرة أخرى كان يتابعها.

خلال تحضيره لانخراطه الأخير مع القوات الأفغانية في ولاية هلمند قبل أن يعود إلى واشنطن، أرسل لوجان إلى بتريوس ملحوظة ليُعلِمه بأن أركان الجيش قد وافقت على طلبه بمنحة زمالة دراسية في مركز الأمن الأميركي الجديد، في واشنطن، ـ أصبح قادته السابقون الآن في الخارجية (مساعد وزير الخارجية كيرت كامبل) والبنتاغون (وكيل الوزارة فلورنوي) ـ والذي كان يديره المقدم المتقاعد في الجيش جون ناغل، الذي كان يأخذ نصائح بتريوس بحماسة وساعد في صوغ كتيّب مكافحة التمرّد الجديد. «من المؤكد أنه لم يكن ليتم إنجازه من دون مساعدتك»، قال لوجان. فأجاب بتريوس: «تحصل على ما تستحقه في الحياة، فرناندو، وأنت استحققت المنحة إلى أقصى الحدود. لقد كانت مساعدتك امتيازاً».

الفصل الحادي عشر

الانسحاب

حطّ بتريوس باكراً يوم ١١ حزيران/يونيو ٢٠١١، في قاعدة أندروز الجوية. كان يخطط للبقاء في واشنطن حوالى أسبوعين. وكان سيطغى على الأسبوع الأول سلسلة من الاجتماعات في البيت الأبيض حول انسحاب القوات من أفغانستان. وكان الأسبوع الثاني سيدور حول جلسة استماعه كرئيس لوكالة المخابرات المركزية أمام لجنة مجلس الشيوخ المختارة للاستخبارات.

فيما بدأ بتريوس العمل على بيانه الافتتاحي لجلسة وكالة المخابرات المركزية صدر عن بعثة الأمم المتحدة في أفغانستان بيان جاء فيه أن شهر أيار/مايو كان أكثر الأشهر دموية للمدنيين الأفغان منذ البدء بحفظ السجلات عام ٢٠٠٧. كان السجل حافلاً: ٣٦٨ قتيلاً و٥٩٣ جريحاً. وكانت طالبان وقوات التمرد الأخرى مسؤولة عن ٨٢ بالمئة من الوفيات، والقوات الدولية عن ١٢ بالمئة، و٦ بالمئة قضوا برصاص من الطرفين. تصدّرت موجة جديدة من الهجمات عناوين الصحف في أفغانستان. وأدى انفجار عبوة ناسفة بجانب الطريق إلى مقتل خمسة عشر مدنياً، من بينهم ثمانية أطفال، في وادي نهر أرغنداب، وهاجم انتحاري مقراً للشرطة في خوست، ما أدّى لمقتل قائده الأفغاني. علاوة على ذلك، عرضت واشنطن بوست مقطعاً عن القادة الديمقراطيين في الكونغرس، يقودهم السيناتور جون ف. كيري، رئيس لجنة مجلس الشيوخ للعلاقات الخارجية، يحث فيها أوباما على سحب القوات بأسرع مما كان البنتاغون يريده. كانت اللحظات عصيبة.

بدأ أسبوع العمل بتقرير إعلامي[1] عن «صيغة الخروج السرية من أفغانستان لأوباما» ـ التي كانت تقضي بسحب ثلاثين ألف جندي مع القيام بذلك بتأنّ، على امتداد اثني عشر شهراً إلى ثمانية عشر، بتوجيه عسكري. غير أن بتريوس، لم يكن لديه أدنى فكرة عن مدى صلاحية تلك الصيغة أو الوجهة التي كان البيت الأبيض يقصدها فقد كان عليه أن يقدم توصياته بعدما كان قد عمل مع عدد من خيرة الأشخاص في كابول، وكانوا جميعهم قد أدُّوا قسم السرية. وخارج كابول، لم تكن دائرة مناقشاته قد خرجت أبعد من ماتيس ومولن وغيتس، الذين استثنوا بدورهم موظفيهم الخاصين. كان متعنّتاً بخصوص تجنُّب فكرة أن الجيش كان يحاول أن يحاصر الرئيس بتسريب توصياته إلى الصحافة.

بدأ بتريوس يومه نهار الثلاثاء بممارسة الجري في الصباح الباكر لخمسة أميال في المساحات المحيطة بفورت ماير قبل الاجتماع في الكابيتول هيل مع ثلاثة أعضاء من لجنة مجلس الشيوخ المختارة للاستخبارات. ثم تلاه اجتماع في الجناح الغربي للبيت الأبيض مع جون برينان، رئيس مكافحة الإرهاب التابع للإدارة الأميركية، ومن بعدها اجتماعات في الجهة المقابلة من النهر مع غيتس في البنتاغون. من هناك، اجتمع مع مدير الاستخبارات الوطنية، جيم كلابر. وختم يومه بتناول العشاء في ميتيس، في جورج تاون، مع والتر بينكوس، مراسل في واشنطن بوست من قدامى الاستخباراتيين.

قدَّم بتريوس يوم الأربعاء توصياته حول سحب القوات من أفغانستان للرئيس أوباما ومسؤولين رفيعين من الأمن القومي في «غرفة الأزمات» في البيت الأبيض. وفقاً لتقارير صادرة عن معاونين مقربين من المشاركين الآخرين، وصف بتريوس مجموعة خيارات للرئيس، وهي خيارات كان فريق أوباما يبحث عنها. وقد نُقِل أن بتريوس كان ميالاً إلى سحب ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ جندي بنهاية عام ٢٠١١ وترك العدد المتبقي من قوات الغزو والبالغ ٣٣ ألفاً في أفغانستان خلال موسم القتال

(١) Leslie H. Gelb, "Obama's Secret Afghan Exit Formula," *The Daily Beast* blog, June 11, 2011.

لعام ٢٠١٢، الذي كان سينتهي في تشرين الثاني/نوفمبر. حاول بتريوس أن يبقى متفائلاً بخصوص احتمال دعم البيت الأبيض لتوصيته. كان سيُسرُّ لو كان ممكناً أن تبقى معظم قوات الغزو لموسم قتال ثانٍ عام ٢٠١٢، حتى كما أراد هو شخصياً البقاء والإشراف على القتال خلال موسم قتال عام ٢٠١١. وبنهاية الاجتماع، طلب منه أوباما وضع تقويم بديل لاجتماع ثانٍ: «أخبرني، ما الذي يمكنني ولا يمكنني فعله لو أردت استرجاع ١٥ ألفاً بنهاية هذا العام، و١٥ ألفاً غيرهم بحلول تموز/يوليو ٢٠١٢. وكيف يمكن لذلك أن يغير الاستراتيجية؟».

عقب اجتماع البيت الأبيض، اتصل بتريوس باللواء ميك نيكولسون، نائب رئيس الأركان للعمليات في إيساف التابع له، وطلب منه تقويم المخاطر المترافقة مع الخيار الذي طرحه الرئيس. في كابول، كان ملف السيرة الذاتية لِنيكولسون يغطي كل شيء، من باكستان إلى الانتقال إلى تخطيط الانسحاب. كان يترتب على قرار الانسحاب تَبِعاتٍ لكل خط مسعى. كان نيكولسون نائماً في كابول عندما أيقظه معاونه عند الساعة ٢:٠٠ فجراً، فأدرك نيكولسون أن هناك أمراً طارئاً. نقل بتريوس المهمة التي أوكله بها الرئيس. بحلول صباح اليوم التالي، كان نيكولسون ومرؤوس لديه قد وضعا سوياً الملخّص الذي كان يحتاجه بتريوس للإجابة على أسئلة أوباما وأرسله له عبر شبكة الإنترنت السرية.

لم يضيّع بتريوس لحظة واحدة بينما كان يقوم بجولات واشنطن، واستمر بإجراء محادثات عبر البريد الإلكتروني في الوقت نفسه من حواسيبه المحمولة في المقعد الخلفي لشاحنته السوداء من طراز جي أم سي يوكن. كما حافظ على عدم إظهار أي تعبير، حتى عبر البريد الإلكتروني مع المقربين الموثوقين. لم يكن فقط يمتنع عن مشاركة أي معلومات بخصوص المناقشات الجارية حول الانسحاب، لكنه لم يكن يريد أيضاً التعامل مع انتقاله الشخصي بعد. بدأ يوم الخميس بمزيد من جولات الاجتماعات مع أعضاء من مجلس الشيوخ للاستخبارات في كابيتول هيل، وطغت العلاقة مع باكستان على المحادثة. لم يلتقِ بتريوس الجنرال كياني، قائد الجيش الباكستاني، منذ زيارته الأخيرة قبل أسبوع من مداهمة بن لادن،

لكنه تطلع قدماً لمقابلته مرة أخرى بعد عودته إلى كابول، عندما كان سيستضيف الاجتماع الثلاثي التالي مع كبار المسؤولين من أفغانستان وباكستان.

خُصّصَ صباح يوم الجمعة للاجتماع الثاني حول أفغانستان في غرفة الأزمات في البيت الأبيض. وفقاً لموظفي بعض المدراء، فقد قدَّم بتريوس نسخة معدَّلة من قالب اللواء نيكولسون والمخاطر المترافقة لإنجاز مهام مختلفة يمكن أن تندرج ضمن مسار العمل البديل للرئيس. كان بتريوس ومولن قد حذّرا من مخاطر المسعى العسكري بالانسحاب بشكل أسرع مما يوصى به، كما كان متوقعاً، في حين شرح مشاركون آخرون لماذا أحسوا بأنه يمكن احتمال مخاطر إضافية، تماشياً مع الخيار الذي اقترحه الرئيس.

كان قد نُـقِل بأن غيتس عقد اجتماعات عدة مع الرئيس تمهيداً للاجتماع الثالث، حيث كان متوقعاً أن يعلن الرئيس عن قراره. كان غيتس يعرف موقف بتريوس من توصياته، وكان يؤيده. لكنه كان يدرك أيضاً التحديات التي يواجهها الرئيس، وكان يسعى للتوصل إلى نوع من التسوية.

عصر ذلك اليوم، الجمعة، طار بتريوس وزوجته من قاعدة أندروز الجوية إلى ماين للقاء وعشاء غير رسميين في مجمع بوش في كينيبانكبورت مع الرئيس السابق جورج بوش الأب وزوجته باربرا. كانت وليمة الكركند وسمك أبو سيف والنبيذ الأحمر من غلة الكرمة فرصة سانحة لبتريوس للحديث مع رئيس سابق آخر لوكالة المخابرات المركزية، الذي تم تسمية حرم وكالة المخابرات المركزية تيمناً به. وقد جعلها الرئيس السابق لمّ شملٍ نوعاً ما حين دعا بيل كلينتون وابنه، وجورج دبليو بوش، حيث يمكنهم أيضاً نقلَ تحياتهم لبتريوس وتقديم رؤىً موجزة حول استعمال الرئيس لوكالة المخابرات المركزية. عاد بتريوس من الأمسية متواضعاً ومذهولاً بالمنحى الذي اتخذته حياة ابن الجيل الأول لقبطان البحر الهولندي الفظ من منزل متواضع في كورنوال ـ أون ـ هادسون.

في الوقت الذي كان فريقا البيت الأبيض والبنتاغون يجرون مداولات، صرَّح قرضاي علناً أن المسؤولين الأميركيين يتفاوضون بشكل سري مع طالبان.

وقد تمت الإفادة عن تلك المحادثات لكن لم يتم تأكيدها بتاتاً من الحكومة الأميركية. كانت حكومة قرضاي الخاصة أيضاً تتفاوض مع طالبان، لكنه استعمل الخطاب لمساءلة التكتيكات والدوافع الأميركية والمقاتلين الأجانب الآخرين الذين يقاتلون في أفغانستان: «إن دول العالم التي أتت إلى بلدنا قد أتت بسبب مصالحها الشخصية» كما قال. «إنهم يستغلون بلدنا».

وعلى الفور اتصل مسؤول من فريق اتصالات السفارة الأميركية بالناطق الرسمي للقصر الرئاسي، وحيد عمر، الذي نصح المسؤول بهدوء أن «يتجاهل» تصريح الرئيس بخصوص المحادثات مع طالبان، لأنه لم يكن «مخططاً لها». كان خطاب قرضاي مفعماً بالتصريحات السلبية الأخرى، التي يبدو بأنها أصبحت سمته المميزة مؤخراً. «تجاهل تلك أيضاً»، كما قال عمر. حاول المسؤولون في واشنطن جاهدين عدم اعتبارها خيانة من حليف. وفي أفغانستان، قام السفير إيكنبيري برد فعل قوي، واستنكر ملاحظات قرضاي باعتبارها «مؤذية وغير ملائمة».

كانت علاقة إيكنبيري بقرضاي متوترة، بعبارة ملطفة. وفي برقية سرية إلى وزيرة الخارجية كلينتون عام ٢٠٠٩، تم تسريبها لاحقاً بعد ذلك في واشنطن، ومن ثم خرجت إلى العلن عبر ويكيليكس، أعلن إيكنبيري بكل صراحة اعتراضه على قرضاي كشريك استراتيجي وزيادة الجنود إلى ٤٠ ألفاً التي أوصى بها مكريستال وبتريوس لدعم عمليات مكافحة التمرد الموسعة في أفغانستان: «الرئيس قرضاي لا يصلح شريكاً استراتيجياً» كما كتب. فالاستراتيجية المطروحة لمكافحة التمرّد تفرض وجود قيادة سياسية أفغانية تكون في الوقت نفسه قادرة على تحمل المسؤولية وممارسة السيادة في تعزيز هدفنا ـ أفغانستان آمنة وحاضنة للسلم، ولديها الحد الأدنى من الاكتفاء الذاتي، وعصية على المجموعات الإرهابية الدولية. ومع ذلك فإن قرضاي يستمر بتجنب المسؤولية بخصوص أي عبئ يتعلق بالسيادة، سواء كان الدفاع أو الحكم أو التنمية. فهو وكثير من دائرته لا يريدون أن تغادر الولايات المتحدة وهم مسرورون فقط لرؤيتنا نستثمر المزيد. فهم يفترضون

أن لدينا مطامع في منطقتهم في «حرب على الإرهاب» تستمر إلى الأبد ولبناء قواعد عسكرية لاستخدامها ضد القوى المحيطة». وفي البرقية، ذكر إيكنبيري أيضاً «نحن نسيء تقدير الوقت اللازم لاستعادة حكومة مدنية أو تشكيلها» في أفغانستان وتوقع أن «مزيداً من القوات لن يؤدي للقضاء على التمرد طالما بقيت معاقل باكستان».

كان إيكنبيري قد قدم مراجعة أكثر إطراءً لقرضاي خلال مقابلة في كابول قبل عشرة أيام فقط من مناظرته الأخيرة. وقال إن قرضاي في حين ينظر إلى باكستان على أنها تهديد وجودي لأفغانستان، فهو يعتقد بأن رجال بلده كانوا يدفعون ثمناً مقابل سلوك باكستان أعلى بكثير مما تدفعه باكستان نفسها. «سوف تقومون يوماً ما بإحضار ابن أو ابنة لِسيغموند فرويد ليكتب قصة عظيمة عن قرضاي»، على حد قول إيكنبيري. «فهو رجل معقّد بشكل استثنائي. وهو يتعرض لكمّ هائل لا يمكن تصوّرُه من الضغوط يومياً. لا أعرف كيف يمكن لأي شخص أن يقوم بهذا العمل بشكل سليم. إنه رجل عاطفي، بالفعل إنه رجل عاطفي، يحمل قلباً يجعل تلك العواطف تطفو على السطح. ثم ينظر إلى صورةٍ لأطفال أفغان قتلى، مشوهين كثيراً، وللأسف بوجود الموظفين حوله، القلّة التي تحاول تأليبه في اللحظة غير المناسبة، مباشرة قبل مؤتمر صحفي، وقد انصاع لذلك». واجه قرضاي أكواماً من المشاكل، كما ذكر إيكنبيري، كانت تتعلق بالفساد، وإخفاقات قيادته الشخصية وعلاقته المتعثّرة مع مجلس النواب، ناهيك عن فضيحة بنك كابول اللامنتهية، حيث جنى أكبر مصرف خاص في البلد مئات الملايين من قروض موضع شك لمساهميه، الذين يضمُّون عدداً من أقرباء قرضاي ومؤيديه.

أرسل بتريوس بريداً إلكترونياً من واشنطن العاصمة يطلب فيه من موظفيه تَحليلاً أشمل لملاحظات قرضاي. كان متّفقاً مع تقويم مسؤول من الناتو بأن فضيحة بنك كابول القائمة كانت نقطة الضغط التي تلوح في أفق ملاحظات بتريوس المفرطة، وقد سعى لتأكيدها للمسؤولين في واشنطن، في حين امتنع هو نفسه عن التصريح للصحافة.

«لقد حان الوقت لفتح المغلف» كما أخبر بتريوس فريقه الأمني بينما اقتربت عربته رباعية الدفع من البيت الأبيض للاجتماع الأخير مع أوباما حول سحب القوات. وفي الطريق، أرسل له الجنرال المتقاعد في الجيش جاك كين، أحد مستشاريه، بريداً إلكترونياً حول شائعات كانت قد تناهت إلى مسمعه: كان البيت الأبيض سيوصي بمغادرة ١٠ آلاف جندي بنهاية عام ٢٠١١، وخروج العدد المتبقي بحلول صيف عام ٢٠١٢. أخذ بتريوس بريد كين بعين الاعتبار لكنه رأى أنه غير ملزم.

كان كين متكتّماً حيال لغزه. «نظراً لإنقاص عديد جنودنا عشرة آلاف جندي عن الطلب الأساسي المقدم منك ومن ستان وبأن هذا القرار لا يؤدي فقط لتمديد الحرب بل يعرّض المهمة للخطر، هل تفكر بالاستقالة؟» كما راسل بتريوس. «لا أظن أن الهروب سيخدم بلدنا»، أجاب بتريوس. «من المرجح أن يؤدي هذا لخلق أزمة. كما أنني أبلغت رئيس الولايات المتحدة أنني سأدعم قراره النهائي. زِدْ على ذلك أنه لا يمكن للجنود أن يهربوا..».

رفض بتريوس أن تكون مناقشاته مع الرئيس موضع نقاش، لكن تقارير وردت لمسؤولين عن اجتماع البيت الأبيض أشارت إلى أن أوباما وبتريوس ومولن وبايدن وغيتس وكلينتون وغيرهم من كبار المسؤولين في الأمن القومي قد أجروا نقاشاً مطولاً ومتوتراً، لكن يسوده جو من الاحترام، بخصوص وتيرة الانسحاب. وقد أعرب أوباما عن امتنانه من عدم وجود أي تسريبات وذكر أن تبادل الأفكار خلال اجتماعيهما السابقين قد ساعده إلى حد بعيد. اعتقد الرئيس أن بتريوس وإيساف قد حقّقا مكاسب كافية لتبرير تعهده بمزيد من القوات، لكن من الضروري الآن إطلاع المجتمعات الأميركية والأفغانية والدولية بأن السنة التالية ستكون سنة الانتقال. كان هناك ثمة اتفاق عام مع رغبة أوباما بسحب ١٠ آلاف جندي بنهاية عام ٢٠١١، بالرغم من أن ذلك التصور كان أكبر بكثير مما أوصى به بتريوس والجيش. لكنّ خلافاً حاداً قد نشأ بخصوص توقيت سحب الجنود المتبقين وعددهم ٢٣ ألفاً من أفغانستان.

«استهلَّ أوباما النقاش بتفسير رغبته بسحب الجنود البالغ عددهم ٢٣ ألفاً من أفغانستان بحلول تموز/يوليو ٢٠١٢: الانسحاب قبل خمسة أشهر من انتهاء موسم القتال الذي أوصى به بتريوس. اعتقد مولن أن الانسحاب في تموز/يوليو من شأنه أن يطيح عملياً بموسم القتال بأكمله. كما أعرب كل من غيتس وكلينتون عن تحفّظهما. وعندما نظر أوباما إلى غيتس محاولاً الحصول على إجماع، أشار غيتس إلى أن هناك فرقاً كبيراً بين الانسحاب في تموز/يوليو و«نهاية الصيف». عقب مزيد من النقاشات، أعرب أوباما عن استعداده للتفكير بتقاسم الفرق وإبقاء القوات في أفغانستان حتى نهاية الصيف، لكنه كان يعارض الانتظار حتى نهاية عام ٢٠١٢. حينذاك أفاد كلٌّ من غيتس وكلينتون ومولن أن بإمكانهم تأييد موعد «انتهاء الصيف». وعندما استدار أوباما إلى بتريوس، كان الجنرال يظهر احترامه كما ورد، لكنه لم يتزحزح. فقد عبَّر عن قلقه من أن سحب الجنود قبل انتهاء موسم القتال من شأنه أن يزيد من المخاطر إلى حد بعيد ويمكن أن يبطل مفعول خطة الحملة. أما بايدن فأعرب عن تأييده لصالح مهلة تموز/يوليو الأصلية، أو قبل ذلك إن أمكن. واقترحت سوزان رايس، سفيرة أميركا في الأمم المتحدة، الإبقاء على مرونة حيال موعد الانسحاب الدقيق للجنود البالغ عددهم ٢٣ ألفاً بالقول أنهم سينسحبون بين «منتصف الصيف وأواخره» من عام ٢٠١٢. في الوقت الذي بدا فيه الزخم يتجه نحو انسحاب في أواخر الصيف، أوضح بتريوس من جديد أنه مصر على إبقاء القوات في أفغانستان حتى نهاية العام لإنجاز الأهداف الستة التي وضعها الرئيس في الأكاديمية العسكرية الأميركية. فالمهمة في أفغانستان، كما أفاد، لم تكن انتقالاً؛ بل كانت تحقيق الظروف السانحة لانتقال ناجح. سأل أوباما إذا كانت تلك الأشهر الثلاثة ستحقق فرقاً كبيراً، فأجاب بتريوس بأنها ستفعل.

أكد بتريوس للرئيس مرة أخرى أنه سيدعم قراره بصدق ويقوم بتنفيذه، لكنه أشار إلى أن عليه القول، إذا ما سُئل في جلسة استماعه بعد يومين، إن الموعد كان منافياً تماماً لما كان قد أوصى به. تفهّم الرئيس التزام الشهود العسكريين

في جلسات الاستماع أمام الكونغرس بالتعبير عن آرائهم حيال المسائل عندما يُسألون. غير أنها، كانت لحظة ثقيلة. أخيراً، اتخذ الرئيس قراره: ١٠ آلاف جندي يغادرون أفغانستان في نهاية السنة، والجنود الباقون البالغ عددهم ٢٣ ألفاً سينسحبون في نهاية صيف عام ٢٠١٢.

عندما غادر بتريوس البيت الأبيض، نُقِلَ عنه شعوره بأنه لاقى آذاناً صاغية. لم يتم الأخذ بتوصيته، لكنه آمن بالعملية ودعمها، وأدرك بأنه كان يمكن للرئيس وحده أن يزِنَ كل العوامل، التي كان كثير منها خارج نطاق اختصاص الجيش. وقد أعلن تماماً ما سبق أن أعلنه في الاجتماع الأول. فقد وافق على قرار الرئيس، وكان جاهزاً للتنفيذ. كان يرغب في الاتصال بمقره الرئيسي في أفغانستان ليؤكد لهم من جديد أن كل شيء كان على ما يرام؛ كان يعلم أن كثيرين سيشعرون بخيبة أمل. فقد حان الوقت، كما أحب أن يقول «للتطلع قدماً ونزع مرايا الرؤية الخلفية من الحافلة». وقد صاغ بياناً وطلب من اللواء جيمس باكنال، نائبه في المقر الرئيسي لإيساف، بتلاوته خلال الموجز الصباحي. وأضاف بإعطائه توجيهاً مهماً: لا ترسله بالبريد الإلكتروني لأي أحد. فالرئيس لم يدلِ بعد ببيانه العام، لكن بتريوس أراد لفريقه أن يكون جاهزاً للتعامل مع رد فعل الجنود وأعضاء الائتلاف إن لم يكن لقولبتها وقد جاء في بيانه:

> اليوم، شاركت في الجلسة الختامية مع الرئيس أوباما حول المناقشات بخصوص سحب القوات الأميركية (أي العديد النهائي البالغ ٣٣ ألفاً). سوف يقوم الرئيس أوباما بإعلان قراره مساء يوم الأربعاء، بتوقيت الولايات المتحدة. لقد قدمت للرئيس خيارات مختلفة وتقويمات مخاطر لِخطـَّة الحملة العسكرية الخاصة بكل خيار، وقد أجرينا مناقشات ممتازة خلال مدة الاجتماعات الثلاثة؛ وبالفعل، لقد أصغى إلى كل المشاركين وكان لدي حظ وافر لوصف خطة حملتنا وما ينتظرنا. ليس هناك داعٍ للقول، إن القوات الأميركية سوف تنفذ قرار الرئيس؛ فذلك من دونٍ شك، واجبنا الدستوري ونحن نلتزم به. المهمة لن تتبدل؛ ستبقى صعبة،

> لكن ليست مستحيلة. لن نشتت تركيزنا على البدء بتنفيذ الانسحاب؛ في الواقع، سنعمد إلى مضاعفة جهودنا لمساعدة شركائنا الأفغان على تنمية قدراتهم على تأمين وحكم أنفسهم، وبهذا نضمن أن هذا البلد لن يتحول مجدداً إلى معقل للقاعدة وشركائها. يتوجّب علينا أن نقوم، على الأرجح، بعمل أكثر مشقة في بعض الحالات، بينما نبدأ بتخفيض القوات خلال هذه الفترة من السنة ونستمر في ٢٠١٢؛ ذلك مفهوم وقابل للتحقيق. بناء عليه، سوف أتوقع الأكثر، لا الأقل، من كل واحد منكم. وهذا ينطبق على الجنرال ألن. سوف نستمر، بالطبع، بنقل القتال إلى العدو، إلى جانب شركائنا الأفغان، في ظل ازدياد نظرائنا الأفغان في القيادة. سوف نستمر بمساعدة نظرائنا المدنيين، دوليين وأفغان، ونبني على المكاسب التي أنجزتها قوات الأمن الوطني الأفغاني وإيساف خلال سعيهم للمساعدة في تكوين حكم محلي، ودفع عجلة التنمية الاقتصادية، ودعم توفير الخدمات الأساسية، وإشاعة تكوين سيادة القانون، والسعي وراء إعادة الدمج، وهكذا دواليك. سوف أعمل مع الموظفين عندما أعود أواخر هذا الأسبوع لحث خطة حملتنا على إبراز مستويات القوة المعدّلة والمواعيد، لنضمن أننا سنستمر بالسير بالحملة قدماً، والبناء على إنجازات قوات الأمن الوطني الأفغاني وإيساف في السنة الماضية، بشكل خاص، بالإضافة إلى تحضير الجنرال ألن للنجاح. أتطلع قُدُماً للعودة إلى كابول ومهمة أكبر ائتلاف في التاريخ! مع أفضل تمنياتي من واشنطن ـ قيادة إيساف.

«**بايدن يكسب وبتريوس يخسر**» كان العنوان الرئيسي صباح اليوم التالي، فيما بدأت الأخبار عن قرار الرئيس بالتسرُّب. «لا تكمن المسألة في ذلك»، كما أخبر بتريوس أحد المقربين منه. «إنها لا تتعلق بممثل شخص واحد؛ إنها تتعلق بتحقيق أهدافنا الوطنية». اعتبر أوباما أن أفغانستان «حرب مفروضة» لكنه كان يخفض القوات بشكل أسرع مما هو موصى به. ولشرح موقف الرئيس، عقد البيت الأبيض

مؤتمراً صحفياً عصر ذلك اليوم، قبل بضع ساعات من الخطاب الوطني المتلفز للرئيس. وقد وصف مسؤولون ما سيعلنه الرئيس: ١٠ آلاف جندي سوف ينسحبون من أفغانستان في نهاية العام، وسينسحب سائر الجنود البالغ عددهم ٣٣ ألفاً في نهاية صيف عام ٢٠١٢ ـ بموعد خمسة عشر شهراً أقرب مما كان بتريوس قد أوصى به. كان الفرق بينه وبين أوباما ثلاثة أشهر، لكن تلك الأشهر الثلاثة كانت ستبقي القوات في البلد حتى نهاية موسم قتال عام ٢٠١٢، الذي كان بتريوس يعتبره أساسياً في ترسيخ المكاسب التي تم إحرازها خلال السنة السابقة.

سأل صحفي الناطق باسم البيت الأبيض بصراحة إذا كان بتريوس قد وافق على خطة أوباما. لكن الإجابة الغامضة التي حصل عليها شرحت الحساسية المفرطة للموضوع. «فيما يتعلق بالجنرال بتريوس، أعتقد بأنه، وتماشياً مع مقاربتنا لهذه المسألة، قدّم للرئيس جملة من الخيارات لتنفيذ الانسحاب»، على حد قول أحد المسؤولين. «لقد كان هناك بالطبع خيارات تذهب أبعد مما كان الرئيس عازماً عليه في ما يختص بطول الفترة الزمنية المطلوبة لاستعادة قوات الغزو والوتيرة التي سيعودون على أساسها، لذا فقد كانت هناك خيارات من الممكن أن تبقي الجنود في أفغانستان لمدة أطول وبأعداد أكبر. وقد قيل في ذلك، بأن قرار الرئيس كان بالكامل ضمن نطاق الخيارات التي طـُرِحت عليه وحازت الدعم الكامل لفريقه للأمن القومي».

نقلت نيويورك تايمز عن مسؤولَيْن من الإدارة قولهما أن بتريوس لم يتبنَّ قرار أوباما، في حين وافق عليه كل من كلينتون وغيتس على مضض(١). استنكر كين القرار وأخبر بتريوس في رسالة بريد إلكتروني أنه «على ما يبدو فهو يقوّض حملة مكافحة التمرّد بكاملها في وقت حصلنا فيه أخيراً على الزخم. يا إلهي، ديف، لقد رموا بتوصياتك جانباً ببساطة وغيَّروا الحرب بشكل أساسي. يا لهذه الفوضى». فلم يُجِب بتريوس.

---

(١) Thom Shanker, "Warning Against Wars Like Iraq and Afghanistan," *New York Times*, February 25, 2011.

أدلى الرئيس أوباما بخطاب موجّه للأمة عند الساعة ٨:٠٠ مساء من البيت الأبيض. كان بتريوس يشاهده مع زوجته هولي، من منزلهما الكائن في فورت ماير. ووصف أوباما القرار الذي أعلنه في الأكاديمية العسكرية الأميركية في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٩ بطلب ٣٠ ألف جندي إضافي إلى أفغانستان بأنه أحد أصعب القرارات التي اتخذها كرئيس. لكن الأهداف كانت واضحة: أعيدوا التركيز على القاعدة واعكسوا زخم طالبان وابنوا جيشاً أفغانياً قادراً على الدفاع عن البلد. سيبدأ انسحاب تلك القوات في تموز/يوليو.

«الليلة يمكنني أن أقول لكم بأننا نَفِي بالتزامنا»، على حد قول أوباما. «فبفضل رجالنا ونسائنا الاستثنائيين في الجيش، وموظفينا المدنيين وشركائنا المتعددين في الائتلاف، فإننا نحقق أهدافنا». لم يعطِ الرئيس الفضل لبتريوس بالتحديد لتوليه القيادة والإشراف على المسعى لكسب الزخم على أرض المعركة. وتابع أوباما:

> نتيجة لذلك، فبدءاً من الشهر القادم، سنتمكن من سحب ١٠ آلاف من جنودنا من أفغانستان حتى نهاية هذه السنة، وسنعيد إلى البلد ما مجموعه ٣٣ ألف جندي جندياً بحلول الصيف القادم، معيدين بالكامل قوات الغزو التي أعلنت عنها في الأكاديمية العسكرية الأميركية. بعد هذا التخفيض الأولي، ستستمر قواتنا بالعودة إلى الوطن بوتيرة ثابتة بينما تنتقل قوات الأمن الأفغانية إلى القيادة. ستتغير مهمتنا من القتال إلى الدعم. بحلول عام ٢٠١٤، سيتم إنجاز عملية الانتقال، وسيكون الشعب الأفغاني مسؤولاً عن أمنه الخاص...
>
> وبالطبع، تبقى هناك تحديات ضخمة. إنها البداية لكنها ليست النهاية لمسعانا بإخماد هذه الحرب. سيكون علينا أن نقوم بالعمل الشاق في الإبقاء على المكاسب التي حققناها، في الوقت الذي نسحب فيه قواتنا وننقل المسؤولية الأمنية للحكومة الأفغانية.... نحن نعلم أن السلام لا يمكن أن يحل على بلد عاش كثيراً من الحروب من دون تسوية سياسية.

لذا فبينما نشد أزر الحكومة الأفغانية وقوات الأمن، ستشارك أميركا في مبادرات للمصالحة بين أبناء الشعب الأفغاني، بمن فيهم طالبان. إن موقفنا من تلك المحادثات واضح: ينبغي أن تقودهم الحكومة الأفغانية؛ وكل أولئك الذين يريدون أن يكونوا جزءاً من أفغانستان التي تحتضن السلم عليهم أن يفكوا ارتباطهم مع القاعدة، ونبذ العنف، واحترام الدستور الأفغاني. لكن، جزئياً بسبب مسعانا العسكري، فلدينا سبب لنؤمن بأنه يمكن إحراز التقدم.... لقد أنهينا مهمتنا القتالية في العراق، بخروج مئة ألف جندي أميركي من ذلك البلد. وحتى إن كان هناك أيام مظلمة بالانتظار في أفغانستان، فإن نور سلام محقّق يمكن رؤيته في نهاية الطريق. هذه الحروب الطويلة لا بد ستؤول إلى نهاية مسؤولة.

ثار سخط الكاتب المحافظ ماكس بوت، الذي كان بتريوس يحترمه، من الخطاب. وأخبر بتريوس أنه إذا كان ينوي الاستقالة والترشح للرئاسة، فسيعمل في حملته. لكن بتريوس أخبره بأن موقعه سيتوضح بلا شك خلال جلسة استماع الغد وأن الاستقالة لم تكن واردة، كما أنه لم يكن ينوي الترشح للرئاسة. بصفته طالباً ومتمرساً بالعلاقات المدنية العسكرية، فقد فكر بتريوس طويلاً بموضوع الاستقالة احتجاجاً، وطفق يُقلّب الفكرة في ذهنه. فقد كان متمرساً بالنظرية والتطبيق ومزالق العلاقات المدنية العسكرية. وكان صنع القرار العسكري واستخدام القوة فيما يختص بالعلاقات المدنية العسكرية أساس بحثه في شهادة الدكتوراه.

آمن بتريوس بشدة بأنه «ينبغي على القادة العسكريين[1] أن يقدموا النصح المضطلع بعوامل غير عسكرية وعسكرية مهمة أبعد من اختصاصها الجامد، لكنها مرهونة بالظروف على الأرض والاعتبارات العسكرية». بعبارات أخرى، فإن نصيحة القائد العسكري كانت ترتكز أولاً وبشكل أساسي على مكامن خبرته: شؤون عسكرية، غير سياسية. كان بتريوس مخلصاً بالكامل لقَسَم المكتب، بما

(١) الجنرال ديفيد هـ. بتريوس، مقابلة مع المؤلف، واشنطن العاصمة، ٢ أيلول/سبتمبر ٢٠١١.

في ذلك احترام «أوامر الرئيس والولايات المتحدة والضباط الأعلى رتبة مني». لم يكن قرار أوباما بسحب القوات أسرع مما كان قد أوصى به، في ذهنه، قد بدأ بالاقتراب من عتبة تصرف استثنائي كالاستقالة. كان يعتقد بأنه يمكن أن يكون تصرفاً أنانياً ومغروراً مع تبعات سياسية كبيرة. فقد حصل على فرصة كبيرة للمساهمة وإسداء أفضل نصائحه، وقد حان الوقت الآن لأداء التحية والانصراف.

لكن بعض السياسيين فكّروا بشكل مغاير.

فقد أصدر السيناتور جوزف ليبرمان بياناً فورياً يذكر فيه بأن انسحاب أوباما المعجّل سوف «يضع المكاسب الأساسية التي تم إنجازها في أفغانستان على المحك».

بعدها مباشرة، أرسل الملحق الإعلامي لغيتس بياناً منه لفريق بتريوس يدعم فيه الرئيس. «خلال الأشهر الثمانية عشر الماضية أحرزت قواتنا تقدماً كبيراً في إذلال قدرة طالبان والإعلاء من شأن قوات الأمن الأفغانية»، كما ذكر غيتس. «إنه لمن الضروري أن نستمر بتنفيذ هذه الاستراتيجية بحزم. أنا أدعم قرار الرئيس لأنه يؤمن لقادتنا المصادر الكافية والوقت، وربما الأهم من كل ذلك، المرونة لإيصال الغزو إلى نهاية ناجحة».

بعدها بفترة قصيرة، أرسل له المدير التنفيذي لِبتريوس البيان الجاهز الذي كان رئيس قيادة الأركان المشتركة مولن سيفتتح به جلسة استماع لجنة مجلس النواب للقوات المسلحة صباح يوم الخميس:

> دعوني أستهل بالقول إنني أدعم قرارات الرئيس، كما يفعل الجنرال ماتيس والجنرال بتريوس. لقد أوصلنا صوتنا خلال هذه العملية. قمنا بعرض وجهات نظرنا ـ بحرية ومن دون تردد ـ وقد لقيت آذاناً صاغية. وكما كانت الحالة أثناء تطوير وتنفيذ الاستراتيجية الأفغانية وتنفيذها، فقد ترأس القائد العام مناقشات شاملة وعامة بخصوص الخطوة التالية. وأنا ممتنٌّ لذلك.

في يونيون ستيشن وخلال جلسة مشروب وعشاء تلك الليلة، تلقى السيناتور غراهام مكالمة على هاتفه الخليوي من زميله ورفيقه المناصر للحرب الأفغانية السيناتور ماكين. كان الاثنان قد عارضا بشدة قرار أوباما. «هذه هي سياسته الآن؛ فهو يريد أن يتملّكها»، كما أخبر غراهام ماكين. «لم يأخذ بنصيحة المستشارين العسكريين، وقد عرّض هذا المهمة للخطر. هذا يجلب الكثير من المخاطر. لقد كان قراره سياسياً، وعلينا أن نبرز ذلك». كان غراهام حانقاً. «هل تعرف، بصفتي عضواً مصنفاً في الحزب الجمهوري، لقد دعمت الحرب وموقع الرئيس، لكنه على وشك ان يخسر هذا التأييد وتأييد باقي أعضاء الحزب الذين دعموا هذه الحرب»، كما ذكر وهو يقفل هاتفه الخليوي.

كان بتريوس عازماً على تجنب الانجرار إلى السياسة من أي طرف، وكان يعلم أن بعض أعضاء مجلس الشيوخ سيشكّكون بقرار الانسحاب خلال جلسة الاستماع إليه في اليوم التالي. كان بحاجة لأن يبقي القوات في أفغانستان على تركيزهم، لمنحهم الطاقة وإعادة التأكيد بأن قرار الرئيس لم يدعُ إلى أزمة سياسية كيوم الدينونة. ففي البداية، كان يرغب في أن يقرأ نائب القائد التابع له البيان الذي قدمه خلال الخطاب الموجز في كابول صباح يوم الخميس، وهو الصباح الذي تلا بيان الرئيس. لكن بتريوس قرر بسرعة أن ذلك لم يكن كافياً؛ فقد كانت أفضل نقطة للتأثير بصفته القائد الميداني أن يكون مع الجنود، إلى الحد الممكن له من العاصمة واشنطن. وقد جعل فريق اتصالاته يرتب له لإيصال بيان معدّل شخصياً عبر اجتماع تواصل بالفيديو مغلق من منزله في فورت ماير تلك الليلة عند الساعة ١١:٠٠ ليلاً.

مهما كان ما أحس به بخصوص القرار ذلك اليوم، لم يكن هناك أثر لخيبة الأمل على وجهه أو في رسالته، وهي نسخة معدّلة لما سبق أن أرسله لنائبه:

> كما أُشير سابقاً، أعلن الرئيس أوباما هذا المساء في واشنطن عن قراره بسحب قوات الغزو الأميركية. وكما شرح، سيتطلب الانسحاب تخفيض

١٠ آلاف من القوات الأميركية بنهاية هذا العام والباقي أي ٢٣ ألفاً بنهاية الصيف القادم. وقد توَّج هذا عملية صنع قرار كانت سريعة وشاملة، حيث عُقِدَت ثلاثة لقاءات الأسبوع الماضي فقط، حصلت خلالها على حظ وافر للمساهمة، فقدّمت نصيحتي العسكرية الصريحة والمهنية التي تضمَّنت خيارات لتنفيذ السياسة، وتقويمات للمخاطر المنبثقة عن كل خيار، وتوصيات. كما أشار الرئيس أوباما، فهذا القرار سيحقّق الالتزام بالانسحاب الذي أعلنه أثناء خطابه في الأكاديمية العسكرية الأميركية بتاريخ ١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٩. وكما لاحظ، فقد أصبح قراراً ممكناً في جزء كبير منه بعد النجاح المبني على نضال شاق والذي تحقق خلال الأشهر ١٨ ـ ٢٤ من قبل إيساف وقوات الأمن الوطني الأفغاني. ليس هناك داعٍ للقول، بعد إعلان هذا القرار، إننا سوف ندعم كلنا القرار ونناضل من أجل تنفيذه بطريقة فاعلة. تلك هي مسؤوليتنا كقادة عسكريين. وفيما نفكر في الطريق أمامنا، علينا أن نتذكر بأنه خلال فترة انسحاب القوات الأميركية البالغ عددها ٣٣ ألفاً خلال الخمسة عشر شهراً القادمة، سوف يزداد عدد قوات الأمن الوطني الأفغاني على الأرجح بنحو ٧٠ ألفاً، إذا ما احتسبنا، بالإضافة إلى قوات الجيش الوطني الأفغاني والشرطة الأفغانية الوطنية التي ستنزل إلى الميدان، قوات الحماية العامة الأفغانية والشرطة الأفغانية المحلية الإضافيين، وقوات الاختصاص، مثل قوة حماية خوست ومختلف عناصر فريق متابعة مكافحة الإرهاب التابع لمديرية الأمن الوطني.

علينا أن نتذكر أنه عندما طلب الرئيس في البداية قوات أميركية إضافية إلى أفغانستان، سيطرت طالبان على معظم ولاية هلمند، وكانت توشك على احتلال قندهار، وكانت تهدّد كابول، وكانت تفرض تهديداً وجودياً على الدولة الأفغانية. وبسبب العمليات النضالية والباسلة التي نفّذتها إيساف خلال الأشهر ١٨ ـ ٢٤ الماضية، فلم يُفسح المجال أمام استمرار تلك الأوضاع. لقد طردنا العدو خارج كثير من معاقله في هلمند وقندهار،

وعزّزنا الأمن في كابول ومحيطها، وفوق كل هذا، لم تعد طالبان تفرض تهديداً وجودياً للدولة الأفغانية. وللتأكيد، فقد بقي القتال ضارياً وتزايدت وتيرة العنف في بعض المناطق؛ كان ذلك ما توقعناه، وقد كانت قواتنا وشركاؤنا الأفغان على قدر التحديات وهي في طور التعامل معها. وقد كان السبب الرئيس لإحراز التقدم في السنة الماضية، بشكل خاص، التمدد الكبير في حجم وقدرات قوات الأمن الأفغانية نفسها. وفي حين ساهمت الولايات المتحدة بقوات الغزو الأخيرة والبالغ عددها ٣٠ ألفاً في هذا المسعى، فقد ساهم الأفغان بأكثر من ٧٠ ألفاً. وقد تحسّنت نوعية تلك القوات الأفغانية بسبب شراكتكم وتوجيهكم وتمكينكم، ونظراً للقدرة المتزايدة لشركائنا الأفغان بمؤازرة المهمات الأمنية في بلدهم. وبالفعل، ليس هناك من صورة تبرز هذا أكثر من حقيقة أن ٣ جنود أفغان قد قُتِلوا أثناء القتال مقابل مقتل كل عنصر من الائتلاف في الأشهر الأخيرة.

كوني أمضيت وقتاً في العواصم الأوروبية وهنا في واشنطن خلال الأسابيع القليلة الماضية، فأنا أعرف أن الالتزام الدولي للنجاح في أفغانستان يبقى راسخاً ويستمر الدعم لإيساف إلى حد بعيد. إن عواصمنا تؤمن أن بإمكاننا إنجاز المهمة الحيوية التي أسندوها إلينا. وقد بُنِيَ قرار تخفيض القوات الأميركية، في جوانب عديدة، على الثقة، وليس على أي ضعف في إرادة النجاح. وحتى بعد انتهاء غزو القوات هذا، فإن دولنا ملتزمة بدعم أفغانستان بجهودٍ عسكرية فاعلة خلال عام ٢٠١٤، وذلك الالتزام لم يتغير. بالمختصر، هذا ليس وقتاً مناسباً للتفكير بالعودة إلى الوطن. بدلاً من ذلك، فنحن بحاجة للإبقاء على تركيزنا في حماية الشعب الأفغاني من كل التهديدات وفي مساعدة شركائنا من قوات الأمن الوطني الأفغاني على تطوير قدرتهم للدفاع عن شعبهم. ينبغي علينا الاستمرار بنقل القتال إلى العدو. علينا أن نبقى في الهجوم، لضمان عدم إفساحنا المجال أمام العدو. أنا واثق بأنكم ستكونون على قدر أكبر من التحديات القائمة التي سنواجهها وبأن

مسيرنا للأمام يوفر أفضل فرصة لتحقيق هدفنا في هذه المهمة الحرِجة.

وكما جرت العادة، شكراً للعمل العظيم الذي تقومون به!

«كيف سارت الأمور حضرة الجنرال بتريوس؟» كما سأله معاون في رسالة بريد إلكتروني. «لقد سارت بشكل جيد»، أجاب بتريوس عند الساعة ١٢:١٥ بعد منتصف الليل. «حاولت أن أكون واقعياً ومُطَـمئِنـاً وواعياً ومصمّماً».

بحلول يوم جلسة الاستماع، تحضَّر بتريوس كأنه كان يتوقع استجواباً قاسياً من أعضاء من الطرفين. كان قد شارك في مجلس تجريبي لساعتين ونصف الساعة صباح اليوم السابق في المقر الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية. وكان في الفترة الممتدة ما بين المؤتمر الصحفي لمجلس الأمن القومي وخطاب الرئيس في الليلة السابقة، قد أمضى نصف ساعة على الهاتف مع جورج تينيت، أحد الرؤساء السابقين لوكالة المخابرات المركزية. وبحلول الوقت الذي طرقت فيه السيناتور دايان فينستين بمطرقتها إيذاناً ببدء الجلسة عصر يوم الخميس في مبنى هارت لمكاتب مجلس الشيوخ، كان بتريوس قد التقى سراً أو تحدث مع كل عضو في اللجنة كما التقى أو تحدث مع كل رئيس لوكالة المخابرات المركزية ما زال على قيد الحياة ما عدا واحداً لم تسمح له صحته بإجراء حديث.

قدَّم السيناتور ليبرمان بتريوس إلى اللجنة. وقد أحسَّ السيناتور الديمقراطي المحافظ من كونيتيكت والشرس الذي أصبح مستقلاً بصلة خاصة حيال بتريوس. كان الشعور متبادلاً، وكان الاثنان قد التقيا خلال السنة الأولى لبتريوس في العراق، وقد بقي ليبرمان حليفاً وفياً في واشنطن خلال الغزو، عملياً الديمقراطي/المستقل الوحيد الذي أيَّد الغزو ـ ولم ينسَ بتريوس ذلك قط. كان ليبرمان قد كتب عدداً من المقالات الافتتاحية القوية التي أثرت في الرأي العام لصالح الحرب. وكان بتريوس يكنُّ له احتراماً شديداً وكان ممتناً لاستعداده لسماع الأدلة.

«في وقت صار فيه كثير من إخواننا المواطنين قلقين من أن أفضل أيام أميركا قد ذهبت أدراج الرياح»، على حد قول ليبرمان، «برزت حياة ديف بتريوس

وقيادته تذكيراً بأن أميركا ما زالت موطن الأبطال وبأننا ـ منفردين ومتحدين ـ ما زلنا قادرين على تحقيق العظمة».

بدأ بتريوس بملاحظاته المحضَّرة، التي انهمك بتحضيرها طيلة الأسبوعين الماضيين، بالاعتراف بجميل هولي، شريكته لمدى «سبعة وثلاثين عاماً وثلاثة وعشرين تشكيلاً». ثم خاطب، بصراحة، بعض المشكّكين بخصوص انتقاله إلى وكالة المخابرات المركزية وما كان يعنيه ذلك. وبالإجابة على بعض الذين تساءلوا في الصحف عما إذا كان من الممكن «تقويم عملي الشخصي»، فقد ذكر بأنه كان «واعياً تماماً» إلى أنه، بصفته رئيس وكالة المخابرات المركزية، سيكون ضابط استخبارات، لا صانع سياسة. وقد أشار إلى أنه قدم تقويمات حرب مرتين كانتا أكثر إيجابية من تلك التي يقدمها مجتمع الاستخبارات ـ في العراق في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧ وفي أفغانستان عام ٢٠١٠ ـ ومرتين كان أقل إيجابية: في العراق عام ٢٠٠٨ وعام ٢٠٠٩. «وباختصار، فقد سعيت جاهداً لتوفير أكثر وجهات النظر دقةً»، على حد قوله. «لقد كان هدفي أن أقول الحقيقة للسلطة، وسأناضل لأفعل ذلك كرئيس لوكالة المخابرات المركزية إذا ما تأكد ذلك».

بالنسبة لآخرين أبدوا قلقهم من «عسكرة» وكالة المخابرات المركزية ـ التوسع منذ ٩/١١، للقوة العسكرية الفتاكة لأميركا في الفرع شبه العسكري والاستخدام المتزايد لهجمات صواريخ الطائرات من دون طيار ـ أعلن بتريوس عن نيته بالاستقالة من الجيش قبل أن يصبح رئيساً للوكالة «لتهدئة تلك المخاوف». وقد ذكر أيضاً بأنه لم يكن ينوي إحضار أعضاء من مستشاريه العسكريين إلى لانغلي بل سيقوم بإحاطة نفسه بكثير من «الأفراد المثيرين للإعجاب» في وكالة المخابرات المركزية. كان بانيتا سيأخذ بعض من في دائرته الداخلية معه، لكن بتريوس أحسَّ أن بإمكانه ملء هذه الفراغات بتعيينات داخلية. «إذا ما تم تعييني، وباختصار، فسوف أخرج من عربتي وحيداً في اليوم الذي أباشر فيه عملي في لانغلي»، على حد قوله.

عندما بدأ الاستجواب، قال السيناتور ساكسبي تشامبليس، الجمهوري من

جورجيا ونائب رئيس اللجنة، بأنه «مستاءٌ نوعاً ما من وتيرة الانسحاب» الذي أعلنه أوباما وسأل بتريوس عما إذا كانت تلك الخطة تُعرّض المكاسب التي أحرزها في أفغانستان للخطر. ولئن كان تشامبليس يأمل باستغلال الجنرال لتسجيل نقاط حزبية، فهو لم يفلح بذلك. شرح بتريوس أن خطة الرئيس قضت بسحب ٣٣ ألفاً من جنود الغزو خلال مهلة خمسة عشر شهراً تبدأ في تموز/يوليو. وقد دعم قرار الرئيس وأدرك أن أوباما كان مضطراً لمراعاة عوامل كانت تتخطى بأشواط تلك التي تهم القائد الميداني. وقد ذكر أن ٧٠ ألف جندي أفغاني إضافي سوف ينضمون في تلك الفترة.

مردداً ما كان رئيس هيئة الأركان المشتركة مولن قد أخبر به لجنة مجلس النواب للقوات المسلحة ذلك الصباح، حيث أفاد مولن بأن «قرارات الرئيس تدعو للمفاجأة وتحمل مخاطرة أكبر مما كان [مولن] متحضراً لقبوله في البداية»، أفاد بتريوس بأنها كانت «تدعو للمفاجأة» أيضاً، مشيراً بالتحديد إلى أنه قد أوصى هو ومولن والجنرال ماتيس، رئيس القيادة المركزية، بإبقاء تلك القوات في مكانها حتى نهاية موسم القتال لعام ٢٠١٢. لكن بتريوس أطلق عليها عبارة «اختلاف بسيط». وكمن يريد قطع الطريق على خطوط الهجوم المتبقية لِتشامبليس، أشار بتريوس إلى أن انتقالاً إلى القوات الأفغانية سيبدأ قريباً في سبع مقاطعات من ثلاثة ولايات، بما فيها كابول ـ وقد تم إبلاغ الجميع ـ وهي مناطق تأوي ٢٥ بالمئة من سكان البلد.

أما المستجوِب الثاني، السيناتور جاي روكفيلر، وهو ديمقراطي من ويست فرجينيا، فقد حصل على أكثر إجابة تستحق النشر في الأخبار خلال الجلسة حين طلب من بتريوس إطلاعهم على بعض آرائه حيال إدارة وكالة المخابرات المركزية. «كما قلت لكم خلف الكواليس، أقول لكم هنا: لقد أردت هذا العمل»، كما قال بتريوس. «هذا شيء لم يكن... قد ظهر قبل شهر أو اثنين أو ثلاثة. وقد ناقشت هذا مع الوزير غيتس منذ العام الماضي».

كان واضحاً مدى امتعاض السيناتور ليفين من خطاب قرضاي الأخير، الذي ذكر فيه أن القوات الأميركية كانت في الأساس قوات احتلال «تستغل بلدنا». قال ليفين: «كنت متخوفاً للغاية»، «لأنني فكرت بأن التعليق الذي ذكره بحديثه عنّا كمحتلين يقدم خدمة كبيرة للعدو المشترك، طالبان. وآمل أنه خلال عزمكم على قول الحقيقة للسلطة، وهو ما يعد التزاماً منك بصفتك الرئيس الجديد لوكالة المخابرات المركزية، ستقوم بإخبار الحقيقة للرئيس قرضاي».

«يمكنني أن أؤكّد لك، يا حضرة الرئيس، أنني كنت أسعى دائماً ـ على الرغم من كونها سرية وفي عدة مناسبات رجلاً لرجل ـ على إجراء محادثات سرية وصريحة مع الرئيس قرضاي»، كما ذكر بتريوس.

«هل شعرت بالقلق من ذلك التعليق؟» سأل ليفين.

فأجاب بتريوس، «لقد دعاني إلى القلق، من دون أدنى شك».

وأعربت فينستين عن تخوّفها أيضاً، واصفةً ملاحظات قرضاي «بالمهينة» و«المضلّلة». «أنتم تملكون رد الفعل التلقائي وإلا فلماذا نحن هنا؟ بحق الجحيم؟» كما علّقت.

«حسناً، انظري، أنا متعاطف بالكامل مع ذلك، ليس هناك حاجة لأقولها، لذا فسوف أضمن من دون شك أن تكون هذه المشاعر هي مشتركة مع شركائنا الأفغان». أراد بتريوس أن يحافظ على علاقته مع قرضاي ولم يكن بوارد انتقاده في العلن، لكنه لم يستطع منع نفسه إعلان أنه هو أيضاً، قد امتعض من تلك التصريحات.

كانت اللحظة الأكثر إثارة حتى ذلك الوقت، وفيها درس لتلامذة العلاقات المدنية العسكرية، حين سأل ليفين بتريوس عما إذا كان يؤيد خطة الرئيس للانسحاب وما الذي كان حصوله سيدعوه إلى الاستقالة من قيادته. «أنا أدعم علناً القرار النهائي للقائد العام»، كما قال بتريوس. «هذا يعني، أننا أقسمنا على طاعة أوامر رئيس الولايات المتحدة وبالفعل نقوم بذلك».

«وإن لم تتمكنْ من فعل ذلك ـ أقصد إن لم تتمكنْ من فعل ذلك بالضبط كما أديت القسم ـ هل كنت ستستقيل؟» سأل ليفين.

«حسناً، أنا لست بمنسحب، حضرة الرئيس»، ردَّ بتريوس وأضاف: «هناك أشخاص سبق أن نصحوني صراحة بتقديم استقالتي، ولا أنكر أن هذا أمر فكرت فيه لبعض الوقت».

«أنا متأكد أنك فعلت ذلك»، قال ليفين.

«ولا أعتقد أنه يليق صراحة بقائد التفكير بتلك الخطوة إلا إذا كان في وضع سيّئ للغاية»، كما قال بتريوس. ثم تابع:

> هذا قرار شديد الأهمية. إن [قرار الرئيس] هو، من جديد، مقاربة أشد اختلافاً مع تلك التي تقدمت مع الجنرال ماتيس بها، لكن هذه المسألة ليست، كما أعتقد، تدعو لأن يقدم العسكري استقالته كحركة احتجاج أو ما شابه... في الواقع أنا مؤمن جداً بهذا. لا ينبغي لجنودنا الانسحاب، وذلك أمر لا أعتقد أن على القادة التفكير فيه، مرتين، كأي نوع من السلوك العبثي. فلربما يكون هذا عملاً استثنائياً بدلاً من ذلك، برأيي. وفي نهاية المطاف، إنه لا يتعلق بي، ولا يتعلق بشخص القائد، إنه لا يتعلق بالسمعة. إنه يتعلق ببلدنا. والخطوة الأفضل لبلدنا، بعد أن اتخذ القائد العام قراراً، تقضي بتنفيذ ذلك القرار بأفضل ما نملك من قدرات.

الفصل الثاني عشر

قناع القيادة

خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة لقيادته الحرب في أفغانستان، أخفى بتريوس مشاعره خلف قناع. آمن بإبراز القوة، وفي حين لم يكن يعتبر مشاعره ضعفاً، فهو أيضاً لم يحسَّ أنها كانت أمراً يضطر لإبرازه للآخرين. وفيما اقترب موعد نهاية خدمته العسكرية وبقي مصير الحرب مجهولاً، فقد حافظ على قناع القيادة ثابتاً في مكانه. وما هاله أكثر من تسليم القيادة، كان خلع الزي العسكري. كان الجنرال المتقاعد فريد فرانكس قد حذره من الاستخفاف بالتأثير العاطفي للأسابيع القليلة التالية. فقد حث بتريوس على منح نفسه بعض المساحة والوقت للتأقلم: «أحياناً، يمكن للمشاعر أن تخدعنا». أبدى بتريوس امتنانه من النصيحة، لكنه اعتقد أن أفضل استراتيجية كانت تكمن في السيطرة على مشاعره، لا الاستسلام لها. فمن النادر، إن لم يكن على الإطلاق، أن تلعثم خلال احتفال، ولم يكن ينوي أن يبدأ الآن. كان تفادي التعبير عن النفس، وعلى قدر الإمكان، يبدو السلوك الأفضل. وقد حثه صديق مقرّب آخر على إفراغ توتره في مكان سري لكي لا يصاب بنوبة في العلن، أو أفضل من ذلك، بعد، فليدع الرأي العام يرى جانبه الإنساني. لكن بتريوس قد رأى آخرين يناضلون لاستعادة السيطرة، ولم يكن من هذا النوع بتاتاً. كان يعلم ماذا يفعل. يبقي نفسه منشغلاً. لا يعمد للتفكير. يقوم بالتجزئة.

كان بتريوس يخدم للمرة السابعة خلال السنوات التسع التي تَلتْ ٩/١١ في منطقة المعارك: قيادة الوحدة إيربورن ١٠١ في الموصل في عام ٢٠٠٣، تدريب

القوات العراقية في بغداد في عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٥، قيادة الحرب في العراق في عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ وقيادة الحرب في أفغانستان في عامي ٢٠١٠ و٢٠١١. كونه شديد التنافس دائماً، أشار بتريوس خلال مقابلة أجراها معه ديفيد إغناتيوس من واشنطن بوست إلى أن الإجابة هي ثمانية خلال أحد عشر عاماً، بعد سؤاله عن عدد أعياد الاستقلال (الرابع من تموز/يوليو) التي أمضاها عاملاً ما وراء البحار منذ عام ٢٠٠١، حيث كان يخدم في البوسنة في ٤ تموز/يوليو ٢٠٠١.

على الرغم من أن بتريوس كان يضحي بقضاء وقته مع عائلته خلال فترات الغياب تلك، غير أنه كان يحب قضاء الوقت حيث كان القتال. لتحقيق تلك الغاية، فقد اعتقد بأنه كان يجب عليه المكافحة أكثر للبقاء في القيادة حتى انتهاء موسم القتال في تشرين الأول/أكتوبر. لكنه لم يكن يعلم ما الذي كان باستطاعته فعله غير ذلك. وقد فهم لماذا كان البيت الأبيض يريده في منصبه على رأس وكالة المخابرات المركزية قبل الذكرى السنوية لـ١١ أيلول/سبتمبر. كما أدرك أنها فكرة سديدة دون شك حصول الجنرال ألن والسفير كروكر على بداية جديدة سوياً في الوقت الذي تسلّما فيه أزِمَّة الأمور في الحرب.

خضعت تقويمات بتريوس حول مسار الحرب لاختبارات عديدة. كان دائماً يتوقع قتالاً شرساً ينتظره. وكان يقول دائماً إن المكاسب كانت هشة وقابلة للنقض. بعد الأسبوع الأول له في القيادة، لم يتحدث عن الفوز بتاتاً؛ بل تحدث بدلاً من ذلك عن التقدم ـ أو في بعض الحالات، ضعف التقدم ـ لكن لم يسبق أن بدت عليه معالم الهزيمة. فما رآه منتقدو بتريوس على أنه «دوران» الأحداث كان في الواقع منتجاً ثانوياً أمام اثنين من أعظم مكامن قوته: تفاؤله المتواصل ونهمه للحصول على الحقائق والمعلومات، أينما كان بإمكانه العثور عليها. لن يكون هناك دورة انتصار، خلال الأسابيع الأخيرة له في القيادة، بل سيكون هناك فقط انتباه متواصل للتفاصيل حتى اللحظة الأخيرة. كان تركيزه الحالي يدفع موظفيه للعمل على وضع خطة لتنفيذ قرار الرئيس بالانسحاب ـ في البداية، سحب ١٠

آلاف جندي في نهاية ٢٠١١، ومن ثم العدد الباقي والبالغ ٢٣ ألفاً بحلول أيلول/ سبتمبر من العام التالي. كان يريد لمسعى التخطيط أن يكون قد قطع شوطاً كبيراً في الوقت الذي تسلم فيه ألن.

كان أسبوع عمل بتريوس في كابول قد بدأ صباح يوم الاثنين، ٢٧ حزيران/ يونيو، بتقرير أمني أمام حشد كبير ضم أكثر من سبعين ممثلاً مدنياً رفيع المستوى من الدول المساهمة في أفغانستان. وقد دعت إلى الاجتماع وزارة الخارجية الأفغانية، وكانت المرة الأولى التي تنعقد فيها مثل هذه الجلسات في كابول. أصاب بتريوس اضطراب شديد من الرحلة الجوية الطويلة؛ وقد كانت جلسة علكة «فاير بول». (فقد أفاد ضابط كان بالقرب منه أنه مضغ أربع حبات من علكة أتوميك فاير بول خلال ساعة). حضر بتريوس الساعة الأولى فقط من الاجتماع ثم انسحب بعدها لينضم إلى اجتماع ثلاثي لقادة عسكريين أفغان وباكستانيين ومن الناتو، من بينهم الجنرال أشفق كياني، قائد الجيش الباكستاني، ونظيره الأفغاني الجنرال شير محمد كريمي. وذكر بتريوس لاحقاً لموظفيه أن قائد الاستخبارات الأفغانية اللواء عبد الخالق كان مدهشاً في تقريره الموجز حول وضع التهديد الحالي وحالة الأمن الأفغاني على طول الحدود الأفغانية الباكستانية. لكن التوترات استمرت. واستمرت باكستان علي قلقها من تسلّل المتمرّدين من أفغانستان إلى مناطقها القبلية؛ فردَّ الأفغان باعتراضهم على الهجمات الحدودية الكثيرة بالهاون والصواريخ من باكستان.

ورد تقرير صدر ذلك اليوم عن مجموعة الأزمات الدولية إلى بريده الإلكتروني بمجرد وصوله للمكتب. وهذه المجموعة هي منظمة غير حكومية نافذة تسعى للبحث عن حلول سلمية للنزاعات الدولية. وقد خلص التقرير إلى أن طالبان قد انتقلت من مركز البلد، حول كابول، بعيداً جداً عن موطنها في ولايتي قندهار وهلمند، وبأن المكاسب القتالية في تينك الولايتين لم توقف زخم طالبان في مكان آخر. وصل العنف إلى ذروته في البلد بالرغم من وجود قوات الغزو، كما تضمن التقرير، وكانت حكومة قرضاي عبارة عن حالة ميؤوس منها في

الفساد، وغير مؤثرة ووشيكة الانهيار. «على السطح، تبدو الأوضاع الأمنية في العاصمة مستقرة نسبياً»، كما أفاد تقرير مجموعة الأزمات. «كانت العلاقات بين الشبكات الإجرامية وشبكات المتمردين والنخب السياسية الفاسدة، تقوض أمن كابول وأمن الممر المركزي الشرقي.... كان يُنظر إلى إيساف التابعة للناتو والمولجة إخماد العنف، على أنها غير قادرة أو غير راغبة في التمييز بين المدنيين والمتمرّدين وبأنها تحدُّ من اعتمادها على المسؤولين الحكوميين الفاسدين في استراتيجيتها لمكافحة التمرد». وكان استنتاج المجموعة: «الفشل في أفغانستان ليس محتوماً، لكن من دون إعادة تعديل لاستراتيجية مكافحة التمرد الحالية، فالنجاح سيكون بعيد المنال».

تطرق بتريوس لتشاؤم المجموعة في اليوم التالي ضمن توجيهاته الخاصة للقوات حول قرار أوباما بسحب القوات. «كان التقدم في العام السابق، بشكل خاص، ذا تأثير كبير»، كما كتب. «لقد تمكنت إيساف والقوات الأفغانية سوياً من طرد المتمردين من عدد كبير من معاقلهم المهمة في هلمند وقندهار. أما الأمن في كابول، التي تضم خمس السكان الأفغان، فقد تحسن. بشكل عام، لقد كسرنا زخم طالبان وقمنا بصدّه في مناطق عدّة».

كما عمد أيضاً إلى إبقاء انتباهه موجَّهاً نحو جلسة استماع خلفه القادمة أمام لجنة مجلس الشيوخ للقوات المسلحة. كان يبدي احتراماً وإعجاباً كبيرين تجاه جون ألن، الذي ناضل من أجل تعيينه ـ ومنحه نجمة ثالثة ـ بصفته نائبه في القيادة المركزية بعد أن عمل الاثنان معاً في العراق. كان ألن، مثل بتريوس، معروفاً عنه أنه مفكر استراتيجي وذو لباقة في التواصل. وكان يحوز احتراماً كبيراً لدى موظفي ومدراء مجلس الأمن القومي. بدأ إعجاب بتريوس بِألن خلال قيادة بتريوس في العراق، حين أُعطِيَ الفضل لألن، بصفته نائب القائد في محافظة الأنبار المضطربة، بالمساعدة في إقناع القبائل السنية هناك بنبذ التمرد والانخراط في الصحوة السنية. أحسَّ بتريوس بأنه قائد عظيم قد طوّر رؤيا وكان في حينها هادئاً لكنه مصممٌ على تنفيذها. كما اعتقد أن ألن كان جيداً جداً في حقل

الوكالات المتعددة والحقل الدولي وفهم كيف يجتاز هرمية الجيش الأميركي، فالمهارات لم تكن كلها من نصيب رودريغز، الرجل الذي أخرجه ألن ليخلف بتريوس كقائد في أفغانستان.

فيما اقترب موعد جلسة الاستماع إلى ألن، كان بتريوس قلقاً من محاولة عضوَي مجلس الشيوخ جون ماكين وليندسي غراهام محاصرة ألن حول الاختلاف بين انسحاب أوباما وتوصية بتريوس. آخذاً بعين الاعتبار أن هذه كانت أول جلسة مجلس شيوخ يشارك فيها ألن، ساعده بتريوس في كيفية تأمين السياق قبل الإجابة فوراً على سؤال صعب مثل «ما الذي يعنيه هذا فيما يختص بالمخاطرة بالنسبة للجنود؟» كان بتريوس يعرف أن الجمهوريين سيحاولون دقَّ إسفين بين ألن وأوباما. وفي الجلسة، سأل غراهام ألن عما إذا كانت خطة أوباما بالانسحاب كانت واحداً من الخيارات التي قدمها بتريوس.

«لم تكن كذلك»، أجاب ألن.

«لذا فأنا أريد للبلد أن يفهم أن هذه لم تعد استراتيجية بتريوس»، على حد قول غراهام. «فالقائد العام يملك مطلق الحق في القيام بما قام به. أتمنى فقط ألا تكون قد قوَّضَت ما اعتقـدْت بأنه يمكن أن يكون نتيجة ناجحة جداً».

ثم تولى ليفين الحصار المعاكس.

«أعتقد أنه من المهم، حتى ولو كان هذا، بصراحة، أكثر مخالفةً لما أوصى به الجنرال بتريوس، أن يدعم القادة العسكريون في بلدنا هذا القرار ويحسُّوا بأنه كان قراراً صائباً من طرف الرئيس. هل هذا صحيح؟».

فأجاب ألن، «يا حضرة الرئيس، نحن في مرحلة التنفيذ الآن».

«لكنكم أيضاً شعرتم بأنه كان قراراً صائباً من طرف الرئيس؟».

«إنه أمر يدخل ضمن صلاحيات الرئيس، أن يأخذ بتوصيات قادته ويتخذ قراراً، وقد اتخذ القرار ونحن نقوم بالتنفيذ»، على حد قول ألن.

«حسناً»، قال ليفين «وهو أمر توافق عليه».

«أوافق»، قال ليفين.

اعتقد بتريوس أن مَحْمِيَّهُ قد أبلى حسناً وقد أخبره بذلك فور انتهاء جلسة الاستماع في مجلس الشيوخ.

في يوم جلسة الاستماع إلى ألن، فجّرت مجموعة صغيرة من المتمردين عربة عند بوابة الفندق الأثري أوتيل إنتركونتينينتال في كابول، واقتحمت المبنى في الوقت الذي كان المسؤولون الأفغان يتهيَّأون فيه لعقد اجتماع في مكان آخر من كابول لحكام الولايات لمناقشة انتقال المسؤوليات الأمنية المنتظر إلى القوات الأفغانية. وقد أشارت التقارير إلى أن مهاجماً واحداً على الأقل قد ارتدى زي الشرطة الأفغانية وقتل أحد عشر مدنياً وجرح ثمانية في الهجوم، ما أدى إلى خرق المناخ الآمن في كابول. وفي حين قامت الشرطة الأفغانية والمغاوير في النهاية بتطهير الفندق من المتمردين، غير أن الحصار لم يتوقف حتى ما بعد منتصف الليل، عندما قام قناص من إيساف على متن مروحية للناتو أخيراً بقتل آخر ثلاثة متمردين، الذين كانوا يحتمون على سطح الفندق. وقد أدى الهجوم إلى إبراز التقرير الصادر عن مجموعة الأزمات الدولية ويستعرض نقاط ضعف الأمن في كابول أكثر استباقاً للأحداث.

اعتقد بتريوس أن الهجوم أظهر قدرة فعلية من جانب المتمردين. لكن الجانب الإيجابي، في اعتقاده، كان يكمن في تصدي وحدة إدارة الطوارئ التابعة للشرطة الأفغانية الوطنية ومغاوير الجيش الأفغاني الوطني ببسالة وشجاعة، بوجود مسؤول من وزارة الداخلية وقائد شرطة كابول في موقع الحدث لقيادة التصدي. وقد ضحى بضعة جنود أفغان بأرواحهم خلال مطاردتهم للمهاجمين. في النهاية، قُتِل جميع المهاجمين التسعة، وتم إخماد حريق كانوا قد أضرموه. ولدى حضوره مجلس شورى لاحقاً خلال الأسبوع، أشار بتريوس إلى أنه تم تنفيذ الهجوم من قبل العدد نفسه من المتمردين الذين اقتحموا فنادق في مومباي، الهند، في الهجمات المميتة عام ٢٠٠٨، لكن بوجود نتيجة مغايرة كلياً ـ بعد أن قام الأفغان بمعالجة الوضع خلال ليلة واحدة، حتى تاريخه كان وقتاً أقصر وخسائر في الأرواح أقل من مومباي، حيث قُتِل ١٦٦.

عقب انتهائهم من جلسة الاستماع إلى الفريق جون ألن مباشرة، وصل أعضاء مجلس الشيوخ ماكين وغراهام وليبرمان إلى كابول للاحتفال بعطلة نهاية الأسبوع بمناسبة الرابع من تموز/يوليو، مشددين أكثر بكثير على ما اعتبروه «مغامرة غير ضرورية» متلازمة مع خطة انسحاب أوباما وليس مع بتريوس، الذي تجاوز ذلك بشكل واضح. وقد كرر ماكين عبارات «مغامرة غير ضرورية» خلال مقابلة معه، كما تابع غراهام، الذي ظهر على فوكس نيوز صاندي من أفغانستان، بذل جهده لتحميل أوباما أوزار خطة الانسحاب. «لم يوصِ أي قائد عسكري بالقرار الذي اتخذه الرئيس»، على حد قوله. «لذا فهي الآن استراتيجية أوباما ـ بايدن».

تناول أعضاء مجلس الشيوخ وبتريوس العشاء تلك الليلة مع قرضاي. وعند نقطة معينة، ذكر القائد الأفغاني كم كان يحبُّ أغنية يعتقد أن اسمها كان «داون أون ذي بايو». بعد العشاء، كلف بتريوس فريق اتصالاته بالعثور عليها. وجد معاونوه الأغنية على الفور ـ «بورن أون ذي بايو»، غناء كريدنس كليرووتر ريفايفل. بالنسبة لبتريوس، أرجعت له هذه الأغنية ذكريات عن قفزات تلاميذ الضباط في الأكاديمية العسكرية الأميركية عام ١٩٧٢. فنسخ فريقه قرصاً مدمّجاً لأفضل أغاني كريدنس، وقدمه بتريوس لقرضاي بعد يومين. فأصيب الرئيس بالذهول.

بحلول صباح الرابع من تموز/يوليو، أحسَّ بتريوس بنوع من الألم الباطني لكنه أمِل أن يلهيه يومه المليء بالأشغال عن التفكير كثيراً بالاحتفال بالرابع من تموز/يوليو لآخر مرة وهو بالزي العسكري. فطار إلى قندهار وترأس احتفال تطوع ٢٣٥ جندياً، إحياءً للذكرى السنوية ٢٣٥ للولايات المتحدة. قبل الاحتفال، قام بترقية الصديق الحميم لابنه ستيفن من الوحدة إيربورن ١٧٣، الذي تطوّع للعودة إلى أفغانستان ليخدم بأمرة العميد مارتنز. كما انتهز الفرصة أيضاً ليعلن رسمياً إنشاء مهمة الدعم الميداني لسيادة القانون التابعة للناتو، ما حوَّل عمل مارتنز لبناء نظام قضائي فاعل إلى مسعى دولي.

حمل ماكين وليبرمان وغراهام الرسالة العاجلة إلى الرئيس قرضاي تلك الليلة

خلال تناول العشاء معه في القصر الرئاسي، كما حذّروه من فوراته المتكررة في الإعلام. وقد شدّد أعضاء مجلس الشيوخ الثلاثة على قرضاي بأن صبر الكونغرس الأميركي كاد أن ينفذ. كان غراهام صريحاً مع قرضاي، الذي وصفه بعض الأحيان بِـ «الأسد». «لن يكون الأسد صديقك أبداً»، كما أفاد لاحقاً. لكنك كنت أيضاً بحاجة لأن يكون الأسد إلى جانبك.

«إن أفضل فرصة لاستمرار بقاء بلدكم، واستمرار بقائك أنت»، كما نصح غراهام قرضاي خلال العشاء «هي العلاقة المفيدة مع الولايات المتحدة». كان غراهام يشير إلى التزام طويل الأمد للتأسيس والشراكة الدائمين، وهي مبادرة أطلقها في البداية قبل سنة بالضبط مع قرضاي في الغرفة نفسها. فبدا قرضاي أقل تفاؤلاً.

لم يكن الاتفاق مقنعاً على الإطلاق، كما قال غراهام، «حين اعتبر معظم الناس أن أفغانستان مسعىً ميؤوس منه، وفيها الكثير من الفساد لكي يمكن إنقاذها. فأنا لم أؤمن بذلك. لكن لإقناعهم، ليس أمامك سوى تصعيد قواعد لعبتك.

«إن خوفي الأكبر هو أن الناس سوف يجعلون من انعدام التقدم على صعيدي الحكم والفساد سبباً لتسريع الانسحاب.... هناك إحباط متزايد عند اليمين»، ثم تابع: «لكننا لن نرمي بأنفسنا من فوق الصخور بسبب اتفاق أوباما»، مشيراً إلى أن «هناك كثيراً من الجمهوريين يشعرون الآن وكأنها حربه». لكنه عاد وأكّد لقرضاي: «أنا لا أشعر كذلك؛ أشعر وكأنها حربنا نحن».

وللمفاجأة السعيدة لِغراهام، بدا قرضاي راغباً في تبني الإصلاح أكثر مما كان كذلك في أيّ من اجتماعاتهما الأخيرة. «عليك أن تظهر للشعب الأميركي أنك تعالج مسألة الفساد»، كما أخبره غراهام خلال شرحه لمدى القلق المحيط بحالة إفلاس بنك كابول بالنسبة لصنّاع القرار. «لا يختلف اثنان، أنك إذا تغاضيت عن هذا، ومن ثم تحوّل إلى قضية قانونية، فلن يُقنع ذلك أحداً على الإطلاق بعدها.... نحن معلّقون بخيط. وهذا التحالف الخبيث الذي قلقت بشأنه لنحو

عامين يصبح واقعاً»، على حد قول غراهام، مشيراً إلى اتحاد بعض زملائه من أقصى اليمين وأقصى اليسار: «لكنني أعتقد أننا بحال جيدة في المدى المنظور؛ علينا أن نظهر تقدماً فحسب». فإن لم يكن هناك حضور مستمر للتقدم، فقد أخبر أعضاء مجلس الشيوخ قرضاي بأن الخسارة حينذاك ستكون لقرضاي وأفغانستان.

أكد أعضاء مجلس الشيوخ على أهمية الشراكة الاستراتيجية التي ستُبقي على قواعد جوية مع المدربين، وعناصر القوات الخاصة، وشتى وسائل الدعم في البلد بعد ٢٠١٤. إن لم يحصل هذا، كما قالوا، فكل زخم الغزو سيذهب هباءً في النهاية. وقد رأى جميعهم التقدم من خلال توظيف بتريوس لقوات الغزو، لكن هذا الإعلان الأخير حول إنقاص قوات الغزو قد أعاد إلى الواجهة الجدل القديم عن التزام أميركا بالتحمّل. وقد أمِلَ غراهام أن يكون تعنُّت الأفغان على طاولة المفاوضات مردّه الحصول على أفضل اتفاق ممكن، وليس امتناعاً عن الالتزام بشراكة دائمة.

بحلول أواخر الصيف، كان التقدم في التفاوض حول إعلان الشراكة الاستراتيجية قد تعثّر بسبب مطالب الأفغان بأن تشمل الوثيقة مُهَلاً ملزِمة حول توليهم سلطة اعتقال المتمرّدين وإدارة المداهمات العسكرية الليلية، وهي مُهَلٌ لم يعتقد المفاوضون الأميركيون أنها ينبغي أن تكون جزءاً من الإعلان.كما أراد الأفغان من الولايات المتحدة أن تزوّد قواتهم المسلحة بطائرات أف ١٦ الحربية ودبابات أبرامز، وهو ما لم يكن البنتاغون ينوي فعله بتاتاً.

أخبر بتريوس المراسلين الصحفيين خلال مقابلة أجروها معه في وقت متأخر يوم الرابع من تموز/يوليو بأن تركيز الحرب سيتحوَّل شرقاً في العام نفسه، لكن ليس بالمجيء بجنود أكثر على الأرض بل بإرسال مزيد من القوات الخاصة، ومزيد من القدرات الاستخباراتية، ومزيد من المروحيات، ومزيد من الطائرات الاستطلاعية، ومزيد من الطائرات بدون طيار، ومزيد من القوة الجوية. كان مسروراً لوجود «الأصدقاء الثلاثة» (ماكين وليبرمان وغراهام) بجانبه مع الجنود الذين كانوا يمضون يوم الرابع من تموز/يوليو للمرة الثالثة في منطقة الحرب. لكنه قال

أيضاً إنه «ربما حان الوقت للتوقف عن التساؤل حول القرار الذي لا يمكن لأحد سوى الرئيس اتخاذه». وقال بتريوس عن الرئيس، إنه «هو فقط يملك النطاق الكامل للاعتبارات التي يجب عليه التعامل معها. وقد تم اتخاذ ذلك القرار.... إن عملنا يقضي أن نباشر به ونبذل أفضل ما يمكننا القيام به».

بعد ثلاثة أيام، قام بتريوس بجولته النهائية على ميدان المعركة، فزار لواء كوراهي، وفوج المشاة ٥٠٦، والوحدة إيربورن ١٠١، في قاعدة عمليات شارنا المتقدمة، من ولاية باكتيكا، على بعد أكثر من مئة ميل جنوب كابول عند الحدود الباكستانية. كان بتريوس قائداً للوحدة إيربورن ١٠١ عام ٢٠٠٤، عندما تمت مناقشة الخطط لإعادة تفعيل لواء كوراهي الشهير لأول مرة. كانت الوحدة هي اللواء الأخير الذي انتشر كجزء من غزو أوباما، والذي كان سيغادر أفغانستان في مطلع آب/أغسطس. «أريدكم وقبل كل شيء، أن تفتخروا، أن تفتخروا كثيراً بما أنجزتموه»، كما توجَّه بتريوس لبضع مئات من الجنود الذين احتشدوا أمامه بحالة تفاعل كربّ القتال: «لقد قمتم جميعاً بعمل جبّار خلال العام الماضي [ضمن] مناطق وعرة للغاية ضد عدو شرس جداً، مباشرة قبالة الحدود [الباكستانية]. لقد أثبتُّم جدارتكم فعلاً في القتال؛ لقد حقّقتم نجاحات، خاصة وأنكم اقتربتم من نهاية جولتكم».

بالرغم من ذلك، فقد استمر مسلسل القتال والموت. وفي الوقت الذي أعلن فيه البنتاغون عن عشرة قتلى في الأسبوع الأخير، نهار ١٢ تموز/يوليو، كانت حصيلة القتلى الأميركيين الذين سقطوا منذ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١ قد وصلت إلى ١٥٥٢ قتيلاً. أما الصدمة فكانت عدد الجرحى الذي وصل إلى ١٢٥٩٣ جريحاً. كان الرجال العشرة الذين قـُتِلوا ذاك الأسبوع قد تعرّضوا لهجمات في ست ولايات مختلفة في أنحاء أفغانستان. فخلال عامهم في هندوكوش، خسر لواء كوراهي ثمانية عشر جندياً.

بالعودة إلى كابول في تلك الليلة، أرسل العقيد جيم سيتون من مجموعة مبادرات القادة التابع لبتريوس مدوّنة لضيفٍ على موقع التدوين Best Defense

التابع لِتوماس إ. ريكس، مراسل البنتاغون السابق في واشنطن بوست، الذي ألـَّـف كتابين في غاية الأهمية حول الحرب في العراق: الخيبة Fiasco والمقامرة The Gamble. وقد كتب المدوّنة رائد مجهول في الجيش أمضى أربعة أشهر في تدريب مكثف على لغة الباشتو كجزء من برنامج الأيادي الأفغانية- المشروع الخاص برئيس هيئة الأركان المشتركة الأميرال مولن ومكريستال وبتريوس عندما كان في القيادة المركزية وقائداً ميدانياً. ونظراً لضآلة العدد في فيلق المهندسين في الجيش، فقد تم نقل الرائد المجهول للقيام بأعمال مكتبية. وقد ورد أن ثلاثة غيره من الأيادي الأفغانية في الفيلق قد حصلوا على التشكيلات نفسها. فوفقاً للرائد، لم يُعِر بيروقراطيُّو الجيش، على ما يبدو، الاهتمام الكافي لتطوير اللغة الحقيقية والخبرة الثقافية في حملة مكافحة التمرد. كتب الضابط، «أريد فقط أن يعينني أحد على إيصال رسالتي بأن رئيس هيئة الأركان المشتركة ربما كان غير مطلع على كيفية إدارة أولى أولوياته في منطقة الحرب». وقد خـُـتِمت المدوّنة بملاحظة أن «مركز الأيادي الأفغانية والباكستانية هو في قندهار، أفغانستان، على الأقل حتى يقرأ رئيسه هذه المدوّنة».

«فلنحاول العثور عليه يا جيم»، كما أبلغ بتريوس سيتون. «هذا هو نمط رجالنا، في الواقع. دعني أتحادث معه. وأعلِم توم [ريكس] بأنني أريد العثور عليه، لأتحدث معه وأضعه في المكان المناسب. وأصل إلى رئيس برنامج الأيادي الأفغانية. من دون اتهامات مضادة، فلنصلحْ هذه المسألة فقط». كان أمام بتريوس أحد عشر يوماً متبقياً في البلد. وكان سيقوم بأقصى ما يمكنه في كل يوم.

على الرغم من انقضاء عام خدمته في أفغانستان، فقد وافق الرائد فرناندو لوجان على العودة للانخراط بمهمة إضافية مع القوات الأفغانية، بناء لطلب المقدم البحري وايد بريدي، وهو عضو آخر من الأيادي الأفغانية في سآت. نظراً لكونه وصل حديثاً إلى سآت، أراد بريدي أن يرى كيف انخرط لوجان مع الأفغان، كما أن لوجان أراد العودة إلى ولاية زبول وقضاء الوقت مع كتيبتين أفغانيتين. كانت إحداهما هي الوحدة التي انخرط لوجان بالعمل معها في أيار/مايو السابق، وكان

متشوقاً ليرى ما إذا كانت قد تمت معالجة أي مسألة من المسائل التي سبق وأثارها حول أدائها. أما الثانية فكانت أول كتيبة أفغانية مخوّلة العمل باستقلالية تامة عن الأميركيين والناتو. وما إن خرجوا من ريف زبول الجاف والموحش والخطير، عند الحدود الباكستانية بين باكتيكا من الشمال الشرقي، وقندهار من الجنوب الغربي، حتى أصيب لوجان بخيبة أمل لرؤيته أن معظم المشاكل القديمة نفسها كانت قد بقيت على حالها لدى الكتيبة الأولى. فقد مشى الأفغان على الطرقات نفسها يوماً تلو آخر. وكانوا مستهترين ومتواضعين جداً في أدائهم.

بعد مرور يوم مع الكتيبة المستقلة حديثاً، كان لوجان مسروراً كونه وافق على تمديد جولته وتولي قيادة المهمة. فقد كان هؤلاء الأفغان حالة استثنائية، كانوا تجسيداً لكل ما قام به وآمن به. دعا نقيب أفغاني الفصيلة الأميركية لمرافقته في كمين ليلي. وتذكّر لوجان تفكيره: لا أصدق بأن هؤلاء الرجال يفعلون هذا. في الميدان، تنقل الأفغان خلسة، والأميركيون بصخب، وكانت أجهزتهم اللاسلكية في البداية بأعلى صوتها. «كان الأفغان أكثر اطلاعاً على محيطهم وأكثر قدرة على التواصل مع السكان المحليين». كما قال لوجان. لم تظهر طالبان على الإطلاق، ولم يكن هناك أحد لنصب كمين له. لكن هؤلاء الجنود الأفغان كانوا مدربين تدريباً جيداً ويرغبون في القتال.

وقد أكد بتريوس أن الوحدات الأفغانية المستقلة ستستمر بالحصول على سلّة كاملة من وسائل الدعم القتالية من الأميركيين، بما في ذلك الاستخبارات ومساعدة المسح والاستطلاع من الطائرات بدون طيار ووسائل تقنية أخرى. حاول لوجان أن يشرح هذا لقادة هذه الكتيبة الممتازة، آملاً أن يوصلوا مقصد بتريوس إلى مزيد من الوحدات الأفغانية. كان خوف لوجان يتمثل بأن يتوقف الإمداد عن الأفغان أساساً، ويُتركون بالكامل للاعتماد على معداتهم. مع ذلك، فقد كانت رؤية هذه الكتيبة المتعددة الإتنيات تعمل بمهارة ومعنويات عالية، بالنسبة إليه، تسبب الانتعاش.

غادر لوجان أفغانستان أخيراً في مطلع تموز/يوليو ووصل إلى الولايات

المتحدة مباشرة بعد الرابع منه. لقد كان انتقالاً صارخاً، لكن كان هناك شعور جميل بالعودة إلى الوطن. ومن ثم، بعد ثلاثة أيام، أعلنت خطيبته، وهي متخرجة من هارفرد عملت في التنمية الدولية، بأنها هجرته، فلم يكن باستطاعتها احتمال مهمات الانتشار. فقد أدركت، عند نقطة ما، أن للوجان عشيقة لم يكن ليتخلّى عنها أبداً: الحرب في أفغانستان. فسلّمته لائحة بكل الفواتير التي كان ينبغي عليه سدادها. أهلاً وسهلاً في الوطن. ثم علم بأن الرائد ستيفن هوبكنز، وهو ضابط القوات الخاصة وعضو الأيادي الأفغانية الذي خلفه ـ بناء لطلب بتريوس ـ في سآت، قد غادر فجأة. فقد اتهم لوجان بإعطائه وعداً مزيفاً بعد أن وصل إلى هلمند واستنتج أن لا أحد هناك كان مهتماً صراحة بمهمة لوجان الخيالية لنقل عملية تقويم سآت إلى الوحدات الأفغانية. لذا توجه لوجان إلى بلدته في تكساس وبلغت حالته أسفل درك مدة شهر. «سوف أعرف أنني تأقلمت بالكامل عندما تتوقف الرغبة الملحة بالقفز إلى طائرة والعودة إلى أفغانستان»، كما قال.

لكنه عاد مجدداً إلى واشنطن منتصف شهر آب/أغسطس، مستعداً للبدء بمنحة دراسته في مركز الأمن الأميركي الجديد. وخلال مقابلته في خلية التفكير الحديثة، المعروفة بمركز مكافحة التمرد في أوساط انتلجنتسيا الدفاع، أخبر لوجان جون ناغل ونيت فيك، الرئيس والمدير التنفيذي في المركز، أنه اعتقد أن كوين (COIN) «ستصبح كلمة بذيئة خلال سنة». لم يستطع لوجان مساعدة نفسه. فهذا النوع من الصراحة جعله «شخصاً غير مرغوب فيه» عندما كان يُعلّم في الأكاديمية العسكرية الأميركية، وهذا، بلا شك ما قضى على علاقته مع تانزولا. لكن ناغل وفيك لم يصدرا حكماً؛ بل رحّبا بلوجان في المجموعة. من الممكن أن يكون قد اعتقد أنَّ COIN كانت صرعة وانتهت، لكنه آمن بها بالرغم من ذلك. كان يعرف أنها خلقت الكثير من «المساحات الآمنة» في أكثر المناطق شراسة في ولايتي قندهار وهلمند، حيث يستطيع الأفغان الآن ممارسة حياتهم اليومية من دون القلق بشأن طالبان. كما آمن بالقوات الأفغانية، على الأقل بالجيش الوطني

الأفغاني. فقد ألقى نظرة عن كثب على كتائب أفغانية أكثر بكثير مما فعل أي قائد أميركي آخر خلال العام السابق، وهي على الأرجح عشرون كتيبة بالمجمل. «الجيش الأفغاني أفضل بكثير مما كان عليه»، كما قال لوجان. «لقد انحنيت أمامهم، ملازمين يافعين وضباط صف مدججين بالسلاح، وشرسين وراغبين في القيام بالعمل الصائب. وقد جعلني هذا راضياً بالفعل».

بعد مضي أسبوع في منصبه الجديد، كان وزير الدفاع ليون إي. بانيتا يشيع أخباراً قبل أن يصل حتى إلى كابول، ويخبر الصحفيين بأن الولايات المتحدة «تقوم بمطاردة» القاعدة وهي على مرمى حجر من إلحاق الهزيمة بالمنظمة الإرهابية استراتيجياً. بصفته سلفاً لبتريوس في وكالة المخابرات المركزية، وقفت خطابة بانيتا المنمقة في مواجهة تعويذة بتريوس بالتعهد بنتائج أقل/وتقديم نتائج أكثر. بمجرد أن وطأت قدماه الأرض في كابول بتاريخ ٨ تموز/يوليو، تابع بانيتا في السياق عينه مع الصحافة، مُتنبّئاً بأن النصر في مواجهة القاعدة كان «سهل المنال».

كانت علاقة بتريوس وطيدة مع بانيتا، وكان معجباً به شخصياً ويعتبره قائداً قوياً. وكان بانيتا قد استضاف بتريوس على العشاء في وكالة المخابرات المركزية قبل بضعة أسابيع وأوصى موظفي الوكالة بمساعدة الجنرال على التحضير لجلسة الاستماع له بكل وسيلة متاحة. بصفته رئيس القيادة المركزية، كان بتريوس قد سعى لدعم بانيتا في مطلع ٢٠٠٩ حين اقترب بانيتا من جلسة الاستماع له ليصبح رئيساً لوكالة المخابرات المركزية. وبعد ذلك، تحدث الاثنان كل شهر على الأقل حول عمليات مختلفة في الحرب العالمية على الإرهاب ضمن منطقة القيادة المركزية. وقد استضافا أيضاً كل أربعة إلى خمسة أشهر ما أطلقا عليه «مجلس مديري مكافحة الإرهاب»، مع رئيس قيادة العمليات الخاصة، ورئيس قيادة العمليات الخاصة المشتركة، ووكيل وزارة المالية لمكافحة الإرهاب، ورئيسي مركز مكافحة الإرهاب ومركز دي أن آي الوطني لمكافحة الإرهاب التابعَين لوكالة المخابرات المركزية، ومساعد وزير الخارجية لمكافحة الإرهاب وممثلين

عن القيادات العسكرية الأخرى بالإضافة إلى موظفي مجلس الأمن القومي. وقد حصل خلال واحد من آخر تلك الاجتماعات التي استضافها بتريوس أن اتصل الجنرال مكريستال ببتريوس لينبّهه إلى مقالة مجلة رولنغ ستون التي أدّت إلى استقالة مكريستال.

عقب وصوله إلى كابول، قام بانيتا، إضافة إلى بتريوس والسفير إيكنبيري، بتناول العشاء مع قرضاي، الذي كانت تربطه به علاقة جيدة عندما كان رئيساً لوكالة المخابرات المركزية. فقد اعتقد بأن فريقاً جديداً في كابول مؤلفاً منه ومن السفير القادم ريان كروكر والفريق جون ألن، خلف بتريوس، كان من شأنه تحسين العلاقات مع قرضاي، الذي لم يتفق يوماً مع إيكنبيري. لم يأخذ بتريوس ملاحظة بانيتا على محمل شخصي، على الرغم من أنه كان فخوراً بما قدمه من عمل شاق للحفاظ على علاقات عمل متينة مع الرئيس الأفغاني.

بقي بتريوس محتاطاً أكثر من بانيتا في وصف التقدم ضد القاعدة وفي أفغانستان. لكنه لم يستطع منع نفسه من الإفصاح للمرة الأولى منذ عام ٢٠٠٦، بأن عدد هجمات المتمردين في أفغانستان قد انخفض في حزيران/يونيو مقارنة بحزيران/يونيو من العام السابق، حتى في ظل وجود ثمانية آلاف جندي من قوات الائتلاف في البلد العام السابق أكثر من عام ٢٠١٠، الذي توقع له المحللون أن تزداد الهجمات فيه بنسبة ٢٠ إلى ٣٠ بالمئة. وقد حذر من أنه ما زال الوقت مبكراً جداً للحديث بأنه قد تم إضعاف التمرّد بشكل فعال.

استعرض بتريوس الاتجاه المنحدر لهجمات المتمرّدين خلال مقابلته اليوم التالي مع مجلة نيويورك تايمز، مفسراً بأن الهجمات قد انخفضت عن السنة السابقة في أيار/مايو وحزيران/يونيو وتسير في الاتجاه نفسه في تموز/يوليو. وقد كان هذا المؤشر الحقيقي الأول منذ ٢٠٠٦ بأنه تم الحد من قوة المتمردين، لكنه أشار من جهة أخرى إلى أن قدرتهم على اغتيال القادة الأفغان، وزرع العبوات الناسفة، واختراق الوحدات الأفغانية، ونشر الفوضى في جميع أنحاء البلد بقيت قائمة. وقد قدم تصميم خطة الحملة للسنة القادمة: ترسيخ المكاسب في قندهار

وحولها وفي مركز هلمند، واقتحام حصون طالبان في شمال هلمند، ومن ثم نقل بعض القدرات الاستخباراتية وعناصر الدعم الحربي للولايات الشرقية في شتاء عام ٢٠١٢ لإغلاق معابر التسلل، مع التشديد على ولايتي كُنَر ونورستان المتوترتين، على طول الحدود مع باكستان في أقصى الشمال الشرقي. كان بإمكان القوات الأميركية المساعدة على تعطيل أنشطة المتمردين، لكن الحل النهائي في كثير من المناطق كان يكمن في الحل المحلي. فمن شأن ذلك أن يؤدي إلى تمدد الشرطة الأفغانية المحلية في كل أنحاء أفغانستان وتخريج ستين ألفاً إضافية من القوات الأفغانية، «إنها مهمة صعبة جداً، لكنها ليست مستحيلة»[١]، على حد قوله.

ولدى سؤاله خلال مقابلة مع تلفزيون الناتو حول رفع مستويات العنف ضمن سياق حملة مكافحة التمرّد الرامية لحماية الشعب الأفغاني، ذكر بتريوس بأن معظم المداهمات الليلية تمحورت حول اعتقال قادة المتمردين من دون إطلاق رصاصة واحدة. وعندما كانت المداهمات تتضمن إطلاق نار، على حد قوله «فقد كانوا دقيقين في تصويبهم».

تم اختبار تقويمه لجودة القوات الأفغانية. «عليّ الاعتراف، كما أعتقد، بوجود بعض التفاوت ضمن بعض القوات»، على حد قوله، مشيراً إلى أن أكثر من اثني عشر ألفاً من قوات العمليات الخاصة الأفغانية كانوا «بالفعل يملكون قدرات عالية» ويقودون حوالى ربع المداهمات الليلية. وقد تميز أداؤهم بالثقة والشجاعة[٢]، كما قال، رداً على الهجوم الأخير الذي استهدف فندق أوتيل إنتركونتيننتال. وقد قاموا الآن بقيادة كل المداهمات الليلية في منطقة كابول. أكثر من ذلك، فقد أحسَّ بأن كثيراً من وحدات الجيش العادية كانت أيضاً تتطور بشكل مدهش. وقد تفاوتت جودة الشرطة من جيد جداً إلى غير مقبول في بعض المناطق. لكن ظروف الانتقال قد أصبحت جاهزة.

(١) Carlotta Gall, "Petraeus Confident As He Leaves Afghanistan," *New York Times*, July 10, 2011.

(٢) General David H. Petraeus, Defense Department briefing, Federal News Service, July 12, 2011.

كان بتريوس مسرفاً في إظهار عواطفه خلال احتفال تغيير القيادة للفريق رودريغز في ١١ تموز/يوليو. «الفريق رود بكل الجوانب»، كما شرح بتريوس خلال ملاحظاته، «مهندس عمليات خطة الحملة التي أدت لإحراز التقدم في العام الماضي. لكن ما قام به ينحني تواضعاً أمام الطريقة التي قام فيها بالعمل.... فهو دائماً موجود، يلتقي مع جنود إيساف والنظراء الأفغان، شارحاً مفاهيمنا، ومشرفاً على تنفيذها، متحسساً نبض كل موقف».

تحدث رودريغز باختصار مع المراسلين قبل أن يغادر لاحقاً في ذلك اليوم من مطار كابول العسكري. «لقد انخفضت وتيرة العنف في الأماكن التي ركّزنا فيها جهودنا»، كما أفاد وهو على مدرج الإقلاع، عند انتهاء جولته. «ينبغي عليكم مراقبته بعناية، لأن العنف الآن أصبح خارج المناطق السكنية لا داخلها. إنها تحتاج الشيء الكثير لفهم المفارقات البسيطة لما يحصل. لكن انتبهوا، هذه الأمور تتغير صعوداً ونزولاً، وسيتوجّب علينا أن نقبل ذلك مع شركائنا. فالقوات الأفغانية تخطو إلى الأمام أكثر فأكثر. أنا واثق بأن الانسحاب سيسير على ما يرام الآن».

بعد منتصف الليل بوقت طويل في الليلة التالية لرحيل رودريغز، كتب بتريوس إلى بوب غيتس، وزير الدفاع المتقاعد حالياً، لشكره على كتاب رسمي كان غيتس قد أرسله إليه قبل بضعة أيام على ورقة تحمل ترويسة البنتاغون الرسمية ورداً على ملاحظة أكثر خصوصيته كتبها بخط اليد قبل بضعة أيام.

مؤرخة في ٢٧ حزيران/يونيو، ٢٠١١، ذكرت رسالة غيتس الرسمية:

حضرة الجنرال بتريوس،

أرجو قبول تهاني الحارة وتقديري العميق لتقاعدك بعد نحو أربعة عقود من الخدمة العسكرية. إن وصف تلك الخدمة بأنها استثنائية يقلّل من شأنها.

كانت قوة الجيش الأميركي على امتداد تاريخنا تكمن في مرونته وتكيّفه في مواجهة التهديدات والتحديات الجديدة. لقد خطوت إلى

الأمام كرجل عسكري! وعالم لا غنى عنه في هذه الحقبة، محوّلاً الجيش الأميركي، والمفهوم العسكري بأكمله إلى خوض الحروب، من التدريب إلى القدرات.

ففي الميدان، تمكّنت من تغيير مسار حربين، وهو إنجاز غير مسبوق. أنا أوصي بك بشكل خاص لتلبية نداء الخدمة كقائد لإيساف بعد تضحيتك وإنجازك الكثير خلال القتال في العراق. لكنني أعتقد أن إرثك الأهم سيكون كقائد وموجِّه ومثال يُحتذى به في واحد من أكثر أجيال القادة العسكريين خبرة في المعارك وتأقلماً وإبداعاً عرفتهم الولايات المتحدة يوماً، جيل حاضر للدفاع عن الولايات المتحدة وقادر على ذلك ضد أي تهديدات يمكن أن يحملها المستقبل.

لقد واجهت كل التحديات وأنجزت كل مهمة أوكلك بها بلدك وأكثر. ففي الوقت الذي تخلع فيه عنك عبئاً ثقيلاً من الخدمة والمسؤولية، لتقوم بحمل عبءٍ آخر لدى توليك المنصب الذي توليته لمرة واحدة كرئيس لوكالة المخابرات المركزية، فقد كان امتيازاً وفخراً أن أعمل معك طوال هذه السنوات الأربع ونصف.

أتمنى لك ولعائلتك أفضل التمنيات للمستقبل.

مع خالص التقدير،
روبرت م. غيتس

وقد نصت الملاحظة المكتوبة بخط اليد، المؤرخة في ٢٩ حزيران/يونيو، على مفكرة وزير الدفاع:

عزيزي ديف،

في الوقت الذي أترك فيه هذا المنصب، أريد أن أبلغك كم سرّني العمل معك خلال السنوات الأربع ونصف الأخيرة. كنا نملك شراكة

مميزة امتدت طوال حربين. سيكون من الصعب عليّ إيجاد وزير وقائد ميداني عملا معاً عن كثب، وبشكل مجد. أشك في أننا سنكتب عن هذه الأوقات، وبالنسبة إلي سأكون ممتناً إن قام د. بتريوس بمراجعة مسوّدتي.

أتمنى لك أفضل التمنيات في وكالة المخابرات المركزية وشكراً لك من أعماق قلبي على خدمتك اللامعة والباسلة.

مع أفضل التمنيات،

بوب غيتس

ردَّ بتريوس بملاحظة مفادها أن «د. بتريوس» سيتشرف بالمساعدة، مضيفاً، «اسمح لي، أيضاً، أن أشكرك مجدداً على قيادتك المفعمة بالعزيمة والمبادئ والبصيرة خلال السنوات الأربع ونصف الأخيرة ـ ومجدداً، لأنك حميت ظهري وحميت ظهور جنودنا طوال تلك المدة!» ثم أتبَعَها برسالة رسمية منه، بتاريخ ١٢ تموز/يوليو:

حضرة السيد الوزير:

أشكرك على رسالتك المؤرخة في ٢٧ حزيران/يونيو ٢٠١١.

أعجز عن التعبير لك عن مدى تقديري لكلماتك اللطيفة.

أشعر بالامتنان العميق لدعمك ونُصحك وتوجيهك خلال السنوات الأربع ونصف السنة الأخيرة. كما أشرتُ عندما كنتَ هنا في حزيران/يونيو، فقد حميت ظهري طوال تلك المدة. والأهم من ذلك، فقد حميت ظهور جنودنا ـ وعائلاتنا ـ طوال تلك المدة أيضاً. كنت بارعاً في ضمان حصولهم على الدعم والموارد التي يحتاجونها، حتى عندما كان هناك عناد مؤسّساتي. كما تعرف جيداً، لم نكن لنحصل أبداً على

عربات مدرعة ومزيد من الطائرات من دون طيار وعربات أم إيه تي في المدرعة ومزيد من الأنظمة المضادة للعبوات الناسفة، ومجموعة من الإمدادات الأخرى الحيوية، لولا قيادتك العازمة. أرجو قبول تقديري الخالص لتلك القيادة ولالتزامك الراسخ خلال خدمتك كوزير لنا.

أفضل التمنيات لك ولعائلة غيتس فيما تبدأ الفصل الثاني من حياتك.

وشكراً مرة أخرى لكل ما قمت به من أجل جنودنا وبحارتنا وطيَّارينا ومشاة بحريتنا وخفر سواحلنا وعائلاتهم.

مع خالص الاحترام،

ديفيد هـ. بتريوس

الجنرال، قائد الجيش الأميركي

في وقت لاحق من صباح ذلك اليوم، قُتِل أحمد والي قرضاي، الأخ غير الشقيق وأكثر الرجال نفوذاً في قندهار، في منزله، على يد واحد من قادة قوات أمنه، معاونه الموثوق، سردار محمد. وقد أطلق حراس قرضاي الرصاص فوراً على محمد فقُتِل فوراً. كان أحمد والي قرضاي ومحمد مقربين جداً لدرجة أن القتل بدا أولاً كأنه ثأر شخصي. لكن في الأيام التي تلَت الاغتيال، بدأ مسؤولون وعناصر أفغان من عائلة قرضاي بالتعبير عن شكوكهم بأن طالبان قد حرَّضت محمد. لكن تم التأكد في النهاية، من أن محمد أصبح مدمناً على المخدرات وقد سمع بأن أحمد والي قرضاي كان سيطرده. فواجه محمد قرضاي، وتطور الجدال فأقدم محمد على قتل قرضاي. وحتى إن صحّ ذلك، فإن مجرد الشك في تورط طالبان قد نشر الرعب وجعل أولئك الأفغان الأكثر قرباً من الولايات المتحدة يدركون أنه إذا كان اغتيال شخص على هذا المستوى من النفوذ والحماية كالأخ غير الشقيق للرئيس قرضاي ممكناً، فلا أحد بمأمن بعد ذلك. وبالفعل، فبعد يومين، قام مهاجم انتحاري يحمل متفجرة مخبأة في عمامة باقتحام مأتم المغدور قرضاي في مسجد في قندهار، فقتل نفسه وثلاثة آخرين.

وقد تزامن الهجوم في اليوم نفسه الذي أصدرت فيه لجنة المساعدة التابعة للأمم المتحدة في أفغانستان تقريرها لنصف السنة، حماية المدنيين في النزاع المسلح. كان استنتاجها النهائي: «في الأشهر الأولى من عام ٢٠١١، حمل النزاع المسلح في أفغانستان تأثيرات سيئة متزايدة ومشهداً مؤلماً عن المدنيين الأفغان». فقد وصلت حصيلة القتلى المدنيين إلى ١٤٦٢، أي بارتفاع يبلغ ١٥ بالمئة عن الفترة نفسها من العام السابق. ألقت الأمم المتحدة مسؤولية مقتل ٨٠ بالمئة على طالبان والمتمردين الآخرين، كما أشارت إلى أن العدد الإجمالي للذين قُتِلوا على يد طالبان قد ارتفع بنسبة ٢٨ بالمئة. وقد تسببت إيساف والقوات الأفغانية بمقتل ١٤ بالمئة من العدد الإجمالي، أي بارتفاع عدد القتلى بنسبة ٩ بالمئة عن العام السابق. أما القتلى فقد سقطوا خلال ارتفاع حدة العنف.

خلصت الأمم المتحدة إلى أن «الحصيلة المتزايدة للضحايا المدنيين في الأشهر الستة الأولى لعام ٢٠١١ تمثل تجذراً عميقاً للعنف في الحياة اليومية للأفغان». فبالإضافة للإحصاءات السيئة، كان هناك عدد من التطورات الملفتة. فقد وثّقت الأمم المتحدة أول قضيتين مؤكدتين لهجومين على مستشفيين. كما تمت الإشارة إلى تجنيد الأطفال واستخدامهم كمهاجمين انتحاريين. ووجدت الأمم المتحدة أن اللجوء المتزايد «للمداهمات الليلية» من القوات الخاصة الأميركية والأفغانية ـ ثلاثمئة شهرياً كمعدل ـ قد قلّص من نسبة الوفيات بين المدنيين: تم رصد ثلاثين شخصاً أقل ممّا كان عليه خلال الأشهر الستة الأولى من عام ٢٠١٠. ومع ذلك، ذكرت الأمم المتحدة أن المداهمات الليلية «تبقى واحدة من أكثر التكتيكات التي يبغضها السكان الأفغان». ففي حين أدت المداهمات الليلية إلى تقليص عدد القتلى من المدنيين، تسبّبت الغارات الجوية التي شنتها إيساف برفعه، على الرغم من كل مساعي بتريوس. كانت الغارات الجوية هي السبب الرئيسي لوفاة المدنيين، فناهزوا التسعة والسبعين مدنياً في النصف الأول من عام ٢٠١١، أي بارتفاع ١٤ بالمئة.

أشار بتريوس إلى التعرض لأكثر من ١٦٠٠ هجوم يشمل العبوات الناسفة

في حزيران/يونيو، وهو أعلى معدل سُجّل في أي شهر على مدى عشر سنوات من الحرب. كان المسؤولون العسكريون الأميركيون يعرفون بأن اعتماد طالبان الشديد على العبوات الناسفة كان النتيجة الرئيسية لعدم قدرة أو عدم رغبة باكستان بوقف تهريب كميات ضخمة من سماد نيترات الأمونيوم إلى داخل أفغانستان. كان قلق بتريوس يزداد حيال معاقل المتمردين في باكستان وأشكال أخرى من الدعم الباكستاني لطالبان منذ اللحظة التي وصل فيها إلى أفغانستان قبل سنة؛ في الواقع، لقد استوقفته كما استوقفت رئيس القيادة المركزية. كان يملك نفوذاً أقل وهو في القيادة في أفغانستان، لكن ذلك لم يمنعه من الاشتباك كلما أتيح له ذلك.

حتى بعدما تدهورت العلاقات الأميركية الباكستانية نتيجة لمداهمة بن لادن في إسلام أباد، وأوقفت إدارة أوباما ٨٠٠ مليون دولار أميركي كمساعدات عسكرية، حاول بتريوس أن يبقى متفائلاً نسبياً ـ أقلّه في العلن ـ بخصوص قدرته على العمل مع الباكستانيين. وفي الوقت الذي أصدرت فيه الأمم المتحدة تقريرها نصف السنوي، طار بتريوس وألن إلى باكستان للقاء الجنرال أشفق كياني، قائد الجيش الباكستاني. فعلى قدر ما كانت العلاقة سيئة، كان الوضع في أفغانستان سيسوء، لا محالة، إذا انهارت هذه العلاقة بالكامل. فكما أشار بتريوس في اجتماع عبر الفيديو قدمه ذلك الأسبوع أمام نادي متخرجي برينستون، «لقد رأينا هذا الفيلم سابقاً». وقد كانت إشارة منه إلى سحب الدعم الأميركي لباكستان وانتفاء المصلحة في أفغانستان بعد نهاية ما تمت تسميته حرب تشارلي ويلسون ـ دعم المقاتلين المجاهدين عبر باكستان الذين أرغموا السوفييت على الانسحاب من أفغانستان عام ١٩٨٩، بعد قرابة عشر سنوات من الحرب.

في يوم السبت ذاك، الموافق ١٦ تموز/يوليو، حضر بتريوس آخر مجلس شورى أمني رفيع المستوى له في وزارة الدفاع، وكان وزير الدفاع وردك ونائب الوزير عن وزارة الداخلية، من بين الحاضرين. وبالاستماع إلى مواضيع النقاش في ذلك اليوم، عرف بتريوس أن المستقبل في أفغانستان كان مزعزعاً لكنه ليس حالة ميؤوساً منها. فقد مرت أزمات، كان أشدها الاختراقات الأخيرة للقوات

الأفغانية المسلحة من المتمردين وحملة الاغتيالات المقلقة التي تشنها طالبان. عندما أتيحت الفرصة لبتريوس كي يتحدث في نهاية جلسة الساعتين في الغرفة المزدحمة، كان يريد تهدئة المخاوف التي سَرَت كالنار في الهشيم، حول انسحاب الولايات المتحدة. وقد ذكَّر كبار القادة الأفغان في الغرفة بأن عدد القوات الأفغانية المسلحة سيرتفع بنسبة ٧٠ ألفاً بحلول الوقت الذي تغادر فيه آخر فلول قوات الغزو البلد في الخريف المقبل. «إن الانسحاب الأميركي أصبح ممكناً بسبب تقدمنا المشترك»، على حد قوله. «سنقوم بسحب ١٠ آلاف في نهاية عام ٢٠١١، و٢٠ ألفاً إضافية بحلول أيلول/سبتمبر ٢٠١٢. من شأن هذا أن يفسح المجال أمامنا للالتزام بالمواعيد الأصلية للغزو وأمام الأفغان ليتولوا المسؤولية المتزايدة للأمن». كما أراد أن يؤكد لهم أنه لن يكون هناك استعجال بالخروج. «فالانسحاب الأميركي ليس نتيجة لتغيير الاستراتيجية أو الخطة العامة للحملة. وهو لا يقوّض التزام ٢٠١٤ والتزام ما بعد ٢٠١٤»، على حد قوله. «لن نترك شركاءنا قبل أن يصبحوا قادرين، كما أننا لن ننسحب على عَجَل».

انتظر بتريوس حتى اليوم الأخير الممكن، اليوم ما قبل الأخير له في القيادة، ليترأس أول حفل ترقية ميداني له على الإطلاق. كان يملك مكانة خاصة في قلبه للرقيب لاندون نوردباي، وهو عنصر من مفرزة أمنه في العراق ومن بعدها في أفغانستان، وضابط صف مخضرم وأحد أعظم العدائين الرياضيين الذي التقاهم بتريوس في الجيش. كان بتريوس قد ناضل لأجل استرجاع الترقيات الميدانية عام ٢٠٠٨، خلال القسم الأخير للغزو في العراق.تم وقف العمل بهذا التقليد بعد حرب فيتنام، مع مجيء نظام الترقية المركزي للجيش. لكن بتريوس أعاد طرح الفكرة عندما كان يقود المسعى في العراق، انطلاقاً من اعتقاده بأن ترقية الجنود في الحرب لمجرد «الأداء الاستثنائي للمهام خلال الخدمة في المعارك أو ضمن ظروف المعارك»ـ من دون الحاجة لوجود مجالس ترقية أو الحصول على الرتبة في توقيتها الزمني ـ هو عمل تشجيعي جداً. وكما قال: «اليوم أنا في غاية الفخر، كما هو حال الرقيب الأول الأعلى في القيادة هيل»، الذي ساعده

في الحصول على الموافقة حول الترقيات الميدانية في العراق، «لترقية الرقيب لاندون نوردباي إلى رئيس رقباء، للتنويه بأدائه وقدرته الواضحة على حمل بضعة أوزار إضافية في حقيبة مسؤولياته». لقد كانت لحظة خاصة لبتريوس ودائرته الداخلية، الذين تخلى كثير منهم عن نمط حياتهم لكي يلحقوا ببتريوس إلى أفغانستان. وكان عدد منهم قد لحق به إلى القيادة المركزية من العراق.

كما أصدر بتريوس رسالته الوداعية للقوات في ذلك اليوم:

بينما أتهيَّأ لمغادرة أفغانستان، أريدكم أن تعرفوا كم شرَّفني أن أكون قائدكم في السنة الماضية. خلال ذلك الوقت، قمتم أنتم ونظراؤكم الأفغان بإحراز تقدُّم فعلي في مهمة شديدة التعقيد وغاية في الأهمية. وفي مواجهة أعداء يتمتعون بالمرونة وكمّ هائل من التحديات الأخرى، لقد قمتم أنتم وشركاؤنا بوقف زخم المتمردين في جزء كبير من البلد وعكستموه في مناطق رئيسية عدة. في حين ينتظركم كثير من العمل الشاق، لكن إنجازات العام الماضي قد أرست مكاسب في الأمن والحكم والتنمية، وساهمت في خلق أمل جديد للشعب الأفغاني في عدد من القرى والمقاطعات والولايات.

وختم بإشارة إلى تقاعده الوشيك، وهو الحدث الذي طالما أرهبه كما فعل التخلي عن القيادة.

عندما أخلع الزي للمرة الأخيرة في ٣١ آب/أغسطس ٢٠١١، سوف أستذكر باحترام عميق وامتنان شديد الجنود الاستثنائيين الذين حصلت على شرف الخدمة معهم خلال أعوامي السبعة والثلاثين في العسكرية. هذا ينطبق تحديداً على أولئك الذين خدمت معهم في انتشارات العقد الأخير ضمن مهمات الائتلاف الشاقة والمهمة. من بين أولئك الذين هم في الصف الأول من الجنود هناك كل واحد منكم كنت قد حزت شرف تجنيده خلال الغزو هنا على تخوم هندوكوش.

لكن طالبان كانت مصممة على إبقاء كابول على الحافة فيما تهيَّأ بتريوس

للمغادرة. فعشية تسليمه القيادة، اقتحم مسلحان منزل جان محمد خان الكائن في كابول وقتلوا الحاكم السابق لولاية أروزكان. كان خان مستشاراً مقرّباً وحليفاً سياسياً للرئيس قرضاي. كما قتل المسلحون محمد هاشم وتنوال، وهو عضو في البرلمان من أرزوكان. وقد وصف ناطق باسم طالبان خان بأنه «أضحوكة للغزاة الأميركيين». وكما لاحظ بتريوس من حين إلى آخر، فمن النادر أن يمر يوم في القيادة دون سماع أنباءٍ سيئة. ولم يكن اليوم الأخير له في القيادة استثناءً.

في الليلة التي سبقت تسليمه القيادة، كان مقرراً أن يحضر بتريوس احتفال تأبين عسكرياً في المدرج العسكري من مطار كابول الدولي لتكريم جنود قضوا خلال القتال. استمر بتريوس بالعمل في مكتبه حتى موعد استدعائه إلى حفل تخليد الذكرى. وكان احتفال التأبين هذا لسبعة جنود فرنسيين سقطوا في ثلاثة حوادث منفصلة ذلك الأسبوع في ولاية كابيسا، وكان خمسة منهم قد لقوا مصرعهم في تفجير انتحاري سابقاً خلال الأسبوع بالإضافة إلى مدني أفغاني. كانت أسوأ خسارة بالأرواح للقوات الفرنسية منذ آب/أغسطس ٢٠٠٨، حيث سقط عشرة جنود خلال كمين نصبته لهم طالبان في كابول. كان سبعون جندياً فرنسياً قد سقطوا في أفغانستان منذ بدء الحرب عام ٢٠٠١. وكان حوالي أربعة آلاف جندي فرنسي يخدمون في أفغانستان، أغلبهم في كابيسا، وكان بتريوس معجباً جداً بمساعيهم لمكافحة التمرد وممتناً لمساهماتهم. التقى بتريوس الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي في وقت سابق من الأسبوع وعبر له عن امتنانه، وخاصة بالنظر إلى انقسام المواطنين الفرنسيين حول الحرب. فقد كافح لإبقاء الائتلاف متماسكاً، وكان إبداء الاحترام الأخير لهؤلاء الجنود الفرنسيين، على حد اعتقاده، مسؤولية القائد في دعم تماسك الائتلاف.

أخيراً، وباقتراب منتصف الليل، أرسل هيكمان إشارة إلى أن الوقت قد حان للتوجّه إلى الاحتفال. مشى بتريوس مع فريقه والفريق ألن على مدرج ملعب كرة القدم التابع لإيساف ليستقل مروحيته إلى المطار. ثم أقلعوا على هدير دوارات

المروحية في ليل كابول. جلس بتريوس وهو ينظر من النافذة بصمت أثناء طيرانهم.

اصطفَّ أكثر من مئتي جندي فرنسي يعتمرون قبعات زرقاء ليشكّلوا ممراً من الرجال في طابور واحد من طائرة الشحن الفرنسية مفتوحة المؤخرة التي تحمل الجنود القتلى إلى وطنهم. كان ظلام الليل حالكاً، لكن الكشافات الضوئية لمدرج احتفال التأبين والمصابيح الأمامية للعربات العسكرية المركونة أضاءت المكان. علا صوت عزف موسيقى كئيبة، ثم مشى ضباط فرنسيون رفيعو المستوى ببطء من الطائرة مروراً بالطابور الطويل من الجنود المتحلين برباطة جأش، مؤدّين التحية ببطء كلما مشوا خمس خطوات. حمل الجنود الفرنسيون النعوش الملفوفة بالعلم الفرنسي الأزرق والأبيض والأحمر على أكتافهم. ثم مشوا ببطء، بخطىً متثاقلة، حاملين أجساد رفاقهم على أكتافهم، إلى الأسفل مروراً بطابور الجنود وكبار الشخصيات الممتد لمئتي ياردة، وإلى أعلى عبر المدرج الخلفي الغائر فإلى بطن الطائرة. قدم عريف الحفل ملاحظاته بالفرنسية بينما كان الجنود يؤدون مراسم التكريم. كان كثير من الجنود الذين وقفوا متأهبين في تلك الليلة المظلمة والهادئة، لا يعرفون من كان الجنود الذين سقطوا أو كيف ماتوا، حالهم حال بتريوس. كانت احتفالات التأبين في أفغانستان تقام في أي وقت يقدم فيه الجندي التضحية الكبرى. وقد جرت محاولة لإرسال أشلاء القتلى إلى الوطن خلال أربع وعشرين ساعة من مقتلهم. كان حضور الجنود اختيارياً، لكن كان هناك دائماً حضور كثيف، حتى بعد منتصف الليل.

وقف بتريوس وألن والممثل الخاص للأمم المتحدة ستيفان دي مستورا والقادة الآخرون في حالة تأهب كالتماثيل، بالقرب من طائرة الشحن الفرنسية. كان بتريوس قد حضر كثيراً من هذه الاحتفالات خلال السنين التي أمضاها في الجيش؛ كان هؤلاء الشبان بسن ابنه ستيفن نفسه، كما خطر بباله. وقد أعادته الموسيقى الكئيبة بالذاكرة إلى أول تجربة حقيقية مع خسائر فادحة بعد أن لقي سبعة عشر رجلاً من رجاله في الوحدة إيربورن ١٠١ مصرعهم بعد حادث تحطم مروحية مأساوي في العراق. وكانت المشاعر التي اختلجت قوية جداً في بعض

الأحيان خلال السنوات لدرجة أنه كان يضع رأسه على مكتبه، لكن فقط عندما كان يعرف أن موظفيه لا يرونه. لم يدع بتريوس مجالاً أمام أحد ليرى هذا الجانب منه، فقد تعلم أن يخفي الأعباء الثقيلة للقيادة خلال جولته الأولى في العراق عام ٢٠٠٣. لكن في الليلة التي سبقت آخر يوم له في القيادة، وفي احتفال عند الساعة ١:٠٠ فجراً لتأبين مزيد من قتلى الحرب، برز شعور بثقل القناع.

«ففي نهاية المطاف، هناك قائد واحد فقط، وهو الذي يشعر بالمسؤولية الكبرى التي يلتزم بها تجاه الجنود الذي قدموا التضحية الكبرى. لقد تغيّرنا جميعاً بسبب هذا»،كما نقل لاحقاً لصديق. «تحمل نوعاً من المسؤولية تجاه أولئك الذين لا يذهبون إلى بلدهم أبداً أو أن حياتهم تغيرت إلى الأبد بسبب إصابات كارثية. وهناك شعور مضاف بالذنب لترك المسرح أسرع مما كان مخططاً له أيضاً، لترك رجالك وفريقك وهم ما زالوا في القتال. فالقائد يشعر، بشكل مبرر، بهذا العبء الكبير من المسؤولية. من المستحيل أن تفهمها إن لم تكن قد عشتها. لا يمكنك شرحها للآخرين، وهي لا تصبح أسهل مثلما أنك لا تصبح أقسى حيالها».

في يوم تسليمه للقيادة، استيقظ بتريوس عند الخامسة فجراً. لم يكن قد عاد إلى غرفته بعيد انتهاء احتفال التأبين قبل ١:٣٠ فجراً، ولم ينَم جيداً. كان بتريوس قد طلب من مفرزة أمنه الشخصي أن تلتقيه عند الساعة ٦:٠٠ فجراً لجولة أخيرة من الركض الصباحي. وصل ثلاثة جنود لمرافقة الجنرال إلى ما سيكون آخر جولاته حول مجمع إيساف والسفارة الأميركية. في حين كان عادة كثير السؤال وفكاهياً أثناء الركض، أصبح الآن جدياً وغارقاً في التفكير؛ وعلى الرغم من الوقت المبكر، فقد ارتدى نظارات شمسية، وبالكاد تحدث. كان تركيزه، كما أقر لاحقاً، أساسياً: الوصول إلى الطرف الآخر من النهار.

بعد جولة الركض، ارتدى بتريوس بزّته العسكرية وتم إيصاله إلى القصر، حيث كان سيتسلم جائزة من الرئيس قرضاي. كانت تلك أرفع جائزة أفغانية،

وهي ميدالية غازي وزير محمد أكبر خان. قدم بتريوس العرض أمام فريق الأمن القومي الأفغاني. شكر بتريوس قرضاي، وعبر له عن امتنانه قائلاً إنه لطالما فكر بأن يكون بخدمة الرئيس أوباما، والأمين العام للناتو وقرضاي، رئيس الدولة الأفغانية. «لطالما اعتبرت نفسي بأنني جندي وقائد لديك»، كما قال، متمنياً استمرار الدعم بعد أن يصبح رئيس وكالة المخابرات المركزية. غادر بالسرعة نفسها التي أتى بها، عائداً إلى المقر الرئيسي لإيساف. حضر الاحتفال لترقية خلفه، الفريق ألن، إلى رتبة فريق أول وتوقف لحظة في مأدبة استقبال في ديستيل غاردنز، في الجهة الأخرى من المقر الرئيسي، في الوقت الذي وصل فيه حشد الضيوف. بعد ذلك حان الوقت لتسليم القيادة.

في الوقت الذي بدأ فيه الاحتفال، أشرقت الشمس على المبنى الملوَّن بلون الدراق، الذي كان سابقاً منشأة عسكرية ثم أصبح نادياً رياضياً عسكرياً لكنه الآن أصبح المقر الرئيسي لإيساف. وقف بتريوس، والمبنى خلفه، منتصب القامة كالرمح، وأدى التحية بينما قامت فرقتا وحدة الفرسان الأولى والجيش الوطني الأفغاني بعزف النشيد الوطني لكل من أفغانستان والولايات المتحدة. وجلس المتفرجون في ظل خيمة زرقاء. استهل السفير إيكنبيري الاحتفال، مستذكراً تعليقات بتريوس له من احتفال السنة السابقة يوم الرابع من تموز/يوليو في السفارة: «إن التعاون المدني العسكري ليس اختيارياً». ثم قدَّم جائزة وزير الخارجية للخدمة المميزة لبتريوس نيابة عن وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون. ثم تلى السفير على المنبر الأميرال ألن، رئيس هيئة الأركان المشتركة، فالجنرال وولف لانغهيلد، رئيس بتريوس في الناتو، ثم وزير الدفاع الأفغاني، فأثنوا جميعهم على جهود بتريوس وتضحياته. ثم قام بتريوس بعدها بتسليم رايات قيادة إيساف والقوات الأميركية في أفغانستان إلى صديقه الحميم وزميله الجنرال ألن، وقد أصبح هناك نجمة رابعة الآن على ياقة زي ألن. ألقى بتريوس خطابه في قاعة خشبية، وكان إعياء ما بعد الحرب ظاهراً إلى جانب ميداليتين إضافيتين تم منحهما له للتو، ميدالية الدفاع للخدمة المميزة وميدالة الناتو لتقدير الخدمة.

بعدما لخّص أعمال العام، ختم ببساطة:

في الجزء الأفضل من العقد الماضي، نُقِلت إلى البوسنة والعراق ومنطقة القيادة المركزية العظمى، والآن في أفغانستان. كان قضاء ذلك الوقت في الخدمة معكم السنة الماضية هنا بمثابة شرفٍ كبيرٍ لي. في مخافر وقواعد عمليات مغبرة لا تُحصى على امتداد أفغانستان، وفي دوريات لا تُعد خلال الأسواق والمعارض الشعبية، تسنى لي أن أشاهدكم خلال الخدمة. وقد أظهر كل منكم حرفية غير مسبوقة. في الحرارة اللاذعة والبرد القارس ـ من صحارى جنوب أفغانستان إلى قمم هندوكوش ـ أظهرتم حسَّ المبادرة والعزيمة والابتكار والشجاعة. لقد كنتم دبلوماسيين ومحاربين في الوقت عينه، رجال دولة وجنوداً معاً. لقد كان أداؤكم بعبارة واحدة، رائعاً.

في قصيدة منشورة قبل بضع سنوات، صوَّر جندي بريطاني[1] يؤدي خدمته هنا في أفغانستان ببلاغة مشاعر أولئك الذين يخدمون وأولئك الذين يضحون. فقد كتب:

وماذا نطلب مقابل الخدمة التي نقدمها؟
لا ثناءً كبيراً ولا أموالاً إن حيينا،
ومجرد صمت من أصدقائنا، وتدوين اسمنا على الجدار،
إذا حان الأجل، وأنا الذي سيسقط صريعاً.

إلى العائلات والأصدقاء وأبناء بلد أولئك الذين سقطوا عندما حان أجلهم ـ وكل أولئك الذين خدموا وقدموا التضحيات هنا ـ لكم مني عميق احترامي وامتناني الأبدي. لا يسع الائتلاف وأفغانستان شكركم بالشكل الكافي لكل ما قدمتموه عندما كنا نقوم بهذا الجهد الشديد الصعوبة والكبير الأهمية.

(١) John Bailey, "The Volunteer." Reprinted with permission. Accessed at http://www.warpoetry.co.uk/Afghanistan_War_Poetry.html.

شعر بتريوس بالأسى بشكل واضح، لكنه أبقى على القناع.

بعد مرور أقل من ساعة، ومصافحة مئات الأيادي في خط استقبال طويل، مشى بخفة نحو ملعب كرة القدم وقفز على مقعده في مؤخرة المروحية. يرافقه العقيد هيكمان وطاقم من معاونيه المقربين، شاهد بتريوس مجمع إيساف وهو يصغر في الحجم بينما أقلعت مروحية بلاك هوك لتطير به إلى مطار كابول الدولي، حيث سيبدأ المرحلة التالية من رحلته إلى الوطن.

ما إن أصبح على متن طائرة غلف ستريم ٥، حتى أبقى نفسه منهمكاً ومنشغلاً. كان يريد تسليم الجنرال ألن سلّة ملفوفة بعناية، لحرب اتخذت منعطفاً حاسماً لأميركا وللشعب الأفغاني، لكنه كان يعلم، أنه بالرغم من التقدم الذي تم النضال لأجله، فلم تكن تلك هي الحال. لقد فعل كل ما بوسعه لأجل مسعى الحرب، كما اعتقد بتريوس، محاولاً وضع أفكار مختلفة وراء ظهره وتجزئة أحاسيسه. فقد أحسَّ بأن ألن كان قادراً على حمل ذلك العبء. ردَّ على رسائل لا تُحصى عبر البريد الإلكتروني، وقرأ بين سطور رسائل أُعطيت له في احتفال التأبين وفتح أحاديث خلال معظم الرحلة إلى تركيا التي استمرت لأربع ساعات.

تأقلم بتريوس مع ثقل القيادة القتالية، ومع الأدرينالين الذي يجعلك دائماً بحالة «جهوزية»، والإعياء الذي كافحه بعد يوم عمل من ثماني عشرة ساعة تمر سريعة واحدة بعد الأخرى. «إن شعور ترك قيادة قتالية هو أشبه بكونك في سيارة وتدوس على المكابح وتسحب المكابح اليدوية وتفتح مظلة تخفيف سرعة في آن»، كما شرح لاحقاً، محاولاً تقديم تشبيه ملائم حول الشعور الذي ينتاب قائداً في زمن الحرب عندما ينتهي. «يصعب على النظام ـ سواء كان عربة أو إنساناً ـ أن يقوم بالإبطاء». وبتريوس لم يرِد فعلاً الإبطاء، على الأقل ليس بعد.

الفصل الثالث عشر

ما زال بكامل رصيده

بعد أن تنازل عن القيادة الأخيرة في مهنته للفريق أول ألن في المقر الرئيسي لإيساف، طار بتريوس من كابول إلى أوروبا في جولة في عواصم عدة لدول مساهمة في إيساف: أنقرة وبرلين وباريس ولندن، ولم ينظرِ لها كجولة النصر أو ما شابه. ففي السر، ما زال يؤدي مهمات قيادته وقد وضع شعوره بالذنب للمغادرة قبل انتهاء موسم القتال جانباً. ولحسن الحظ، فقد كان جدول المواعيد حافلاً، ولم يكن هناك وقت، ولو قصير، للتفكير بذلك بعد أن طار فريقه عبر أربع من دول الائتلاف في طريق عودتهم إلى واشنطن. كان قد ساعد في منع المسارعة للخروج بتهور خلال السنة الماضية، وقد أراد أن يعبر عن امتنانه لبعض الأعضاء الرئيسيين في التحالف.

كانت الإقامة في لندن أطول من باقي المدن. ستكون هذه فرصته الأخيرة في العسكرية لتقديم الشكر للشريك الذي كان المساهم الأكبر في العراق وأفغانستان والمنطقة الكبرى التابعة للقيادة المركزية. فبالإضافة للزيارات المعتادة إلى ١٠ داونغ ستريت ولقاء رئيس الوزراء وإلى وزارتي الدفاع والخارجية، فقد وجد وقتاً لتناول العشاء مع زملاء كان قد عاش معهم أوقاتاً عصيبة. وفي الليلة التالية، أقام السفير مارك سيدويل، الدبلوماسي البريطاني الموهوب الذي غادر كابول في نيسان/أبريل بعد أن خدم مع بتريوس بصفته الممثل المدني الأعلى للناتو في كابول، مأدبة عشاء خاصة ومناقشات على طاولة مستديرة بينه وبين مسؤولين

دبلوماسيين وعسكريين في لندن. كان سيدويل وبتريوس قد شكّلا فريقاً معاً لصون الائتلاف ضمن فريق متماسك في السنة السابقة. وربما كان تأجيل نهاية اللعبة حتى ٢٠١٤ الإنجاز الأكثر أهمية للسنة الماضية، وكان سيدويل قد أدّى دوراً رئيسياً في ذلك المسعى. في ظل وجود سيدويل الآن في منصب الممثل الخاص للمملكة المتحدة في أفغانستان وباكستان، كان بتريوس من دون شك سيراه مجدداً في موقعه الجديد في وكالة المخابرات المركزية. وقد انضم مسؤولون من وزارة الخارجية البريطانية والخدمات الاستخباراتية إلى العشاء أيضاً؛ وكان تركيزهم ينصب على المستقبل. فقد كانوا يعرفون جميعاً أهمية منصب بتريوس التالي، وكانوا متشوّقين للبدء بالتفكير كيف يمكنهم جميعاً العمل سوياً معه في ذلك المنصب.

في آخر ليلة له، حضر بتريوس عشاءً حميماً مع ستة أصدقاء قدامى، «فرقة الإخوة» البريطانيين الذين كان قد خدم معهم في العراق، كما خدم معظمهم أيضاً في أفغانستان، أو على الأقل كانوا في ذلك الحين يتعاملون مع الحرب من وزارة الدفاع. كان نائبه السابق في أفغانستان من بينهم، وهو ضابط عظيم كان ابنه قد خسر رجليه في انفجار عبوة ناسفة في ولاية هلمند. وقد أقيم العشاء في مقر الضابط البريطاني العسكري الأعلى، الجنرال السير ديفيد ريتشاردز، الذي كان يسكن ضمن الأراضي التابعة لقصر كنسينغتون. أمضوا الأمسية باستعادة بعض ذكرياتهم المشتركة، لكن ذلك جعل بتريوس يشعر بالخيبة للتنازل عن القيادة وترك أخويته وراءه.

كان بتريوس قد تطوَّع للبقاء في كابول حتى نهاية موسم القتال في الخريف، على الرغم من أنه أعلن لاحقاً بأن الرئيس كان حكيماً ليطلب منه بأن يكون في موقعه كرئيس لوكالة المخابرات المركزية في الوقت الذي يسبق الذكرى السنوية العاشرة لهجمات ٩/١١، خاصة وأن تهديداً صريحاً قد برز في الأيام التي سبقت الذكرى. كان قد أقنع نفسه بأنه كان رجل غزو أكثر منه رجل انسحاب على أي حِال، وكان قد هيَّأ ألن لتولي زمام الأمور لما تبقى من موسم القتال. بالإضافة إلى

ذلك، لم يتردد بتريوس يوماً حيال رغبته «بالبقاء في القتال» بالانتقال إلى وكالة المخابرات المركزية. وقد عُرِضَت عليه صفقات كتب مربحة ومناصب استشارية لا تقل مردوداً مالياً، لكنها كانت تفتقد إلى أي جاذبية، خاصة إذا ما قورِنت بإدارة وكالة المخابرات المركزية. كان يريد أن يستمر في خدمة بلده وقد شعر بأنه مؤهل جداً لكي تُعرض عليه مثل هذه الفرصة.

كانت رحلة أوروبا مفيدة لأعضاء التحالف ولِبتريوس شخصياً، فقد مثّل بلده وأعرب عن تقديره. كانت لديه بعض المحطات القصيرة للترفيه عن نفسه واسترجاع الذكريات مع أصدقاء حرب قدامى أكدوا له أن حياته العسكرية قد تركت أثراً كبيراً. وقد فعل حسناً بالحصول على بعض الوقت لنفسه، الذي تضمن طريقته المفضلة للترفيه عن نفسه: الركض في هايد بارك، والوصول إلى مسافة اثني عشر ميلاً مع فريقه صباح اليوم الأخير الذي كان فيه هناك.

وبينما ترك قيادته الأخيرة وراءه وبدأ الانتقال إلى فصل جديد من حياته، شعر بتريوس بالتفجّع لعدم ألفته مع أفغانستان عندما وصل في البداية إلى كابول. وقد أشار إلى أنه كان يفتقر إلى حاسة الاستشعار التي كان قد طوّرها في العراق بعد سنتين ونصف السنة على الأرض هناك قبل توليه قيادة الغزو عام ٢٠٠٧. «كانت [أفغانستان] جولة سريعة للغاية، وفي الحقيقة، كان هناك ضعف في التحضير» كما وصف. «لا تسيئوا فهمي: لقد قمت بزيارات لا تُحصى وترأست المؤتمرات المدنية العسكرية وشاركت في مناقشات السياسة وأجريت عدداً لا يُحصى من الاجتماعات عبر الفيديو و«الغوص العميق» استخباراتياً. لكن ذلك مختلف جداً عن كونك قائد مسرح أفغانستان، تتعرف إلى كل قرية وكل وادٍ فيها، فتطوّر نوعاً من الفهم الجزيئي المطلوب حتى على المستوى الاستراتيجي».

بالنظر إلى الماضي، اعتبر بأنه في حين كان قد فاز بالسيطرة على الجنوب بسرعة فائقة، فقد احتاج إلى «ستة أشهر أو أكثر»، بشكل خاص، لتطوير رؤية متماسكة حول الولايات الاثنتي عشرة لشرق أفغانستان، كل واحدة مع حكومتها الخاصة ومجموعة قادة القبائل ومجرمي الحرب وقادة العدو. كانت خطته الكبرى

تشتمل على تركيز ضخم لمواجهة المتمردين أثناء السعي لبناء القوات الأفغانية المحلية والوطنية والحكم. فهناك كثير من الوحدات القتالية، كما تبين له في البداية، كانت تركز فقط على الشراكة مع القوات الأفغانية ومساعدة الحكومة الأفغانية المحلية، ولم تركّز بما فيه الكفاية على مواجهة طالبان.

بشكل عام، فقد شعر بتريوس بأن الحملة العسكرية، وعلى الرغم من أنها كانت تواجه تحديات كثيرة، فقد كانت تسير في الاتجاه الصحيح. كان يملك ثقة كبيرة بالفريق المدني العسكري الجديد المؤلف من الجنرال ألن والسفير الأميركي ريان كروكر والممثل المدني الأعلى للناتو السفير سايمون غاس ودبلوماسي بريطاني آخر حاز إعجاباً كبيراً من بتريوس. وفي أنحاء أفغانستان، تراجع عدد هجمات العدو بدءاً من كانون الثاني/يناير وحتى آب/أغسطس بنسبة ٣ بالمئة مقارنة بالعام ٢٠١٠، على الرغم من أن إيساف قد توقعت ارتفاعاً بنسبة ١٧ إلى ٣٠ بالمئة، نظراً للزيادة في قوة الجنود: ٢٥ ألفاً من إيساف و٦٠ ألفاً من قوات الأمن الوطني الأفغاني وقوات الشرطة. في الواقع، كان عدد هجمات العدو في الفترة الممتدة بين حزيران/يونيو وآب/أغسطس ٢٠١١[1] أدنى بنسبة ١٧ بالمئة عنه في الفترة نفسها من عام ٢٠١٠، وفي سبعة عشر أسبوعاً من أصل الاثنين وعشرين أسبوعاً الماضية (حتى أيلول/سبتمبر ٢٠١١) كانت أقل من الفترة نفسها عام ٢٠١٠: لم ترَ القيادة مثل هذا المعدل المستمر للانخفاض سنة بعد سنة[2] منذ بدء اشتداد وطأة الغزو عام ٢٠٠٧. كان الاتجاه أخيراً سيتابع حتى أيلول/سبتمبر وسيستمر حتى الخريف، على الرغم من استمرار الهجمات الاستفزازية أيضاً.

كانت هناك مخاوف ناقشها بتريوس مع آخرين في القيادة، نظراً للانسحاب بأسرع مما كان مقرراً، ويتمثل بعدم القدرة على السيطرة والبناء في المناطق

(١) "Enemy-Initiated Attacks Nationwide Monthly Year-Over-year Change," قاعدة بيانات شبكة المعلوماتية المشتركة لتبادل البيانات (CIDNE)، بيانات ٢٩ أيلول/سبتمبر ٢٠١١. انظر الملحق لمزيد من المعلومات.

(٢) المصدر نفسه.

المهمة التي نجح غزو القوات العسكرية بتطهيرها. حتى عند بدء الانسحاب المقرّر للجنود، أبقى بتريوس على الأمل والثقة بأن فريق ألن ـ كروكر ـ غاس سيحافظ على الزخم العام السابق. بشكل عام، فقد أرسى النجاح الذي أحرزته القوات في مناطق رئيسية الظروف لتقدم أوسع في كل أنحاء المسرح الأفغاني، خاصة أن القوات الأفغانية استمرت بالنمو.

تمت تهدئة الغرب والشمال نسبياً، واقتربوا من عملية الانتقال، على الرغم من أنهم كانوا يتعرضون لهجمات دورية ويحتاجون لانتباه متواصل. كانت السلسلة الكاملة من نشاطات استراتيجية أناكوندا قيد التنفيذ في تلك المناطق، حتى وإن كانت بمعدل منخفض من إيساف والقوات الأفغانية. وكانت القوات الأفغانية بحاجة للبناء في نفس الوقت الذي كان يتم فيه متابعة إنشاء الشرطة المحلية والحكم وإعادة الدمج ومبادرات سيادة القانون. استمرت هذه الجهود بالتفعيل من خلال عمليات القوات التقليدية المركزة للتطهير، والعمليات الخاصة المحدّدة الهدف، وإعادة الدمج، ما خلق شرخاً في صفوف المتمردين في الشمال الغربي، تحديداً.

أُعيد في هذه الأثناء تصميم خطة الحملة في الشرق التي ورثها بتريوس عن مكريستال والتي تم توريثها مع تعديلات كبيرة للفريق أول ألن لمحاولة قطع طرقات تسلّل المتمردين من باكستان عبر الجبال. لم يكن الشرق هو المسعى الرئيسي لغزو القوات في العام الماضي، واستمر الوضع الأمني هشاً، كما أظهرت جولتا فاول وفايفكوت. استمرت الهجمات بالارتفاع في الشرق[1]، بنسبة ١٧ بالمئة للفترة الممتدة بين حزيران/يونيو وآب/أغسطس ٢٠١١، مقارنة مع الفترة نفسها من العام السابق. ولم يكن ممكناً المغالاة في أهمية الشرق، نظراً للمنطقة العازلة التي تشكلها بالنسبة لكابول. «عليكم الأخذ بعين الاعتبار أن كابول أكثر أهمية بكثير... عما كانت عليه بغداد في العراق»، كما أشار بتريوس. «ففي بغداد،

(١) “Enemy-Initiated Attacks Nationwide Monthly Year-Over-Year Change by Regional Command (January 2008-August 2011) قاعدة بيانات شبكة المعلوماتية المشتركة لتبادل البيانات (CIDNE)، بيانات ٢٩ أيلول/سبتمبر ٢٠١١. انظر الملحق لمزيد من المعلومات.

كان هناك ثلاث سيارات مفخّخة في اليوم كمعدل خلال الشهر الثاني الذي كنت فيه القائد هناك، لكن البلد استطاع النجاة مع ذلك. لو حصل ذلك في كابول، أو حتى لو كان هناك سيارة مفخخة واحدة في اليوم، فسوف تخسر المنظمات غير الحكومية والمنظمات الدولية والسفارات والمكونات الأخرى، التي تدعم جميعها أفغانستان إلى حد أبعد بكثير مما كانت عليها الحال في العراق». اعتبر بتريوس كابول لطخة الحبر أو بقعة الزيت الأمنية الرئيسية في معجم مكافحة التمرّد: «لا يمكن أن يكون هناك معدل مرتفع من العنف في [كابول] وينأى البلد بنفسه بشكل عام. لذا صببنا الكثير من الجهد في تحديد كيفية تحركنا قُدُماً في الشرق؛ ربما تطلّب منا ذلك ستة أشهر أو أكثر لوضع خطة متماسكة».

كان جزء من تلك الخطة، على كامل المسرح، يقضي بالتأكد من أنه كان هناك تركيز صحيح على هزيمة التمرد. «في بعض الحالات، كانت بيانات المهمة تنص على أن مهمتنا حين تسلمت الأمور تقضي بالشراكة مع القوات الأفغانية وتفعيل تواصل حكومة الجمهورية الإسلامية في أفغانستان مع الشعب» كما استذكر بتريوس. ثم تابع:

> استمر في بعض المناطق، وجود هجمات للتمرد ولم يكن هناك ذكر لهزيمة أو تعطيل أو طرد المتمردين والتمرّد من تلك المنطقة ـ مهما كانت المناسبةـ على الرغم من أن [الأمن] كان الشرط الأساسي للتقدم في أي من المناطق الأخرى. كان الأمن أساسياً لإحراز التقدم على صعيد الحكم وإنعاش الاقتصاد المحلي وتوفير الخدمات الأساسية وبناء المدارس والعيادات الطبية وشق الطرقات وسائر البنى التحتية الأخرى. كان يقتضي وجود تركيز حاد على التمرّد والأهمية الحيوية لتحقيق مستوى كافٍ من الأمن لكي تتمكّنوا من التركيز على تفعيل تواصل حكومة الجمهورية الإسلامية في أفغانستان مع الشعب. لو كانت «حكومة الجمهورية الإسلامية في أفغانستان جيدة» بما يكفي لكانت تمكنت [من خلال الأمن] من أن تكون على تواصل مع الشعب.

أما في الجنوب الغربي والجنوب، فكان بتريوس قد رأى مشاة البحرية والقوات البريطانية ترسّخان المكاسب في ولاية هلمند، وكان الجنود الأميركيون والكنديون يحقّقون مكاسب تستحق الملاحظة باجتثاث طالبان من مسقط رأسها حول قندهار. فوفقاً لشبكة المهمة الأفغانية، «كانت الهجمات خلال الفترة الممتدة بين حزيران/يونيو وآب/أغسطس ٢٠١١ أدنى بنسبة ٤٠ بالمئة عما كانت عليه في الفترة نفسها عام ٢٠١٠، وكانت بعض المقاطعات في وادي وسط هلمند قد شهدت تراجعاً في العنف بنحو ٨٠ بالمئة». وفي الفترة نفسها في القيادة المركزية الجنوبية (بشكل أساسي ولاية قندهار) «أفيد بأن الهجمات التي نفذها العدو خلال الفترة ما بين حزيران/يونيو وآب/أغسطس ٢٠١١ كانت أدنى بنسبة ١٠ بالمئة عن الفترة نفسها من السنة الماضية». وكانت منطقة فلين في أرغنداب قد تمت تهدئتها عملياً. واختلف النقاد بأن الاستخدام المفرط للقوة هناك سيؤلب السكان المحليين ضد الائتلاف وبأن استراتيجية إعادة الإعمار، التي استخف بها بعضهم واعتبروها قصيرة النظر، لن تبقى لتشهد الانتقال إلى الوحدة الأميركية القادمة. وعلى العكس من ذلك، فقد نقل خلف فلين لاحقاً، أن مكاسب فلين الأمنية قد مكّنت من إعادة إعمار تاروك كولاتش وقرىً أخرى بالإضافة إلى بنى تحتية اقتصادية وتنموية أخرى، كالأقنية والطرقات. وكان العنف المتراجع وثبوت الدعم الشعبي ـ بما في ذلك تزايد في الإفصاح عن معلومات سرية من السكان المحليين حول العبوات الناسفة، ومركز مقاطعة فاعل، ومواظبة مالكي القرى على حضور مجالس شورى المقاطعة، والانتقال، بحلول الخريف، لست نقاط قوة للجيش الأميركي إلى قوات الأمن الوطني الأفغاني ـ قد بدا وكأنه يؤشّر إلى أن الغزو في تلك المنطقة قد أثبت فعاليته. لكن حتى هناك لم يعلن بتريوس النصر. فحين سلم القيادة لِألن، كان العنف، بالتأكيد، يتزايد في كل أنحاء أفغانستان، كما كان يحصل كل صيف. وبعكس كل التوقعات فقد وصل الارتفاع إلى المستويات الدنيا وليس العليا مقارنة بالعام السابق.

كانت خسائر المدنيين وأعداد الهجمات وخسائر الجنود تشكّل مخاوف

حرجة على مدار السنة. وقد اقتفى بتريوس آثارها مرات عدة فيَ يوم محدّد. وقد انخفض عدد القتلى المدنيين من قبل إيساف، على الرغم من أن عدد القتلى المدنيين بشكل عام قد ارتفع. أما خسائر قوات الائتلاف، التي شملت جرحى المعارك والقتلى، فكانت كبيرة، لكن بشكل عام، كان قتلى إيساف خلال الأشهر الأخيرة لِبتريوس قد انخفض عن العام السابق. وكانت مثل تلك المعايير تشكل تحدياً للمقارنة، لكن الزيادة في القوات خلال ذلك الوقت كان سيعني حتماً ارتفاعاً في حصيلة الوفيات، لا انخفاضاً.

وما دامت الأعداد الإجمالية للأحداث كانت تقريباً تراوح مكانها مقارنة بالعام السابق والعدد الإجمالي للإصابات من المدنيين يرتفع ـ على الرغم من أن الأغلبية الساحقة كانت ناجمة عن المتمردين وليس عن إيساف ـ كان من الصعب على المحلّلين الاستنتاج بأن البيئة الأمنية ككل قد تحسنت بشكل لافت. كانت طالبان قد طوّرت استراتيجية عملياتها الخاصة، التي لا تعتمد على الطائرات من دون طيار والصواريخ والمداهمات الليلية بل على المتسلّلين إلى وحدات الجيش الأفغاني، والسيطرة على استخدام برج الهاتف الخليوي، والاستخدام المستمر للانتحاريين والاغتيالات والهجمات الدراماتيكية، وكل ذلك لفت الانتباه الكبير للإعلام والثقل النفسي حيال الهجمات ضد الجنود في الميدان. وقد تمنّى بتريوس لو كان باستطاعته قمع مزيد من ذلك. لكن النقاش بأن العنف واللجوء إلى مثل هذه التكتيكات كان مؤشراً بأن إيساف والقوات الأفغانية قد فشلتا كان بمثابة عدم استيعاب فكرة أنه يمكن للتقدم والعنف أن يظهرا معاً في منطقة حرب. لو قام المحلّلون بارتكاب مثل تلك الغلطة في آذار/مارس ١٩٤٥، لكانوا جادلوا بأن الحلفاء كانوا على وشك أن يخسروا الحرب العالمية الثانية.

كانت هناك دروس أخرى لتعلّمها في هذا المسرح، بما في ذلك التحديات والفضائل لحرب الائتلاف. وقد كان التحدي الأعظم، بالطبع، المعايير العالية المطلوبة لإبقاء الأعضاء سوياً في مسيرهم، وكما نقل بتريوس صراحة، البقاء في التشكيلة. كانت المحاذير الوطنية والتفاوت في مستويات التدريب والقدرة

والجهوزية تتطلب فهماً دقيقاً لقدرات الشراكة. فقد كانت الزيارات التي لا تُحصى للقادة الوطنيين تتطلب كماً هائلاً من الوقت في مداولات القادة الرئيسيين. كان لِبتريوس زيارات عدة أسبوعياً من بعثات الائتلاف، في بعض الأحيان أكثر من بعثة في اليوم. ومع ذلك، فقد استمتع بالتحفيز الفكري وفرصة مساعدة الشركاء الدبلوماسيين على توسيع الائتلاف. في نهاية جولته، كان تسعة وأربعون شريكاً دولياً بالإضافة لأفغانستان يساهمون بالقوات في المهمة، وساهمت دول أخرى بموارد مالية أساسية.

«إن إدارة الائتلاف هي دور مهم للغاية لقائد الائتلاف»، كما لاحظ بتريوس، مشيراً إلى أن إيساف كانت تضم أكبر عدد تجمع من الدول على الإطلاق في مسرح حرب. أما العراق، بالمقارنة، فكان «في الأساس ائتلافاً تقوده دولة، في ظل وجود ١٦٥ ألف جندي أميركي يتجاوزون مساهمة الائتلاف بأشواط، على الرغم من أن المملكة المتحدة والدول الأخرى قد قاموا، بالفعل، بمساهمات مهمة. فلتبقوا ببالكم أيضاً»، كما أشار بتريوس، «أن أفغانستان تعتمد أكثر بكثير على ما تقدمه لها دول الائتلاف والمنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية ومجموعات أخرى. يعود ذلك إلى أن أفغانستان، بخلاف العراق الذي يملك تيار إيرادات ضخماً هو ١٠٠ مليار دولار أميركي سنوياً في أوج ارتفاع أسعار النفط، تنتج فقط حوالي ١,٨ مليار دولار أميركي. [على الرغم من أنها] فخورة جداً بالارتفاع المطرد في عائداتها، فأفغانستان هي بلد يعتمد إلى حد بعيد على المتبرعين».

أدرك بتريوس أن هناك مطلباً واحداً لإبقاء الائتلاف متماسكاً يتمثل ببلورة مفهوم وآلية انتقال شاملين؛ فتطوير هذه المفاهيم، كما اعتقد، كان أحد أهم مساهماته. فالكثير من هذه الأفكار، بالطبع، كان قد تعلّمها في هايتي والبوسنة والعراق، وقد تطلب كل منها مستويات متفاوتة لحرب الائتلاف وخرائط طرق الانتقال على سنوات عدة.

لقد تطلب الأمر جهداً مدنياً عسكرياً حقيقياً للحفاظ على الدول التسع

والأربعين المساهمة من أجل تمضية المدة المحدّدة وضمان حصول الانتقال بالشكل الصحيح. لكي تضمن بالتالي أن يبقى أعضاء الائتلاف منخرطين ومشتركين في عملية انتقال ملائمة، كان يتوجّب على قيادة إيساف أن تشتري المزيد من الوقت، وهو مسعى حصل خريف عام ٢٠١٠ في مؤتمر لشبونة. وأشار بتريوس: «بقينا نترقب قمة لشبونة التي حصلت في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٠ منذ اللحظة الأولى لعهدي.... لقد بذلت أنا، والسفير سيدويل خصوصاً، جهداً كبيراً في إعلام شخص [الدول المساهمة] حول سائر [خطوط المساعي] المختلفة... كانت صياغة وتعديل مفاهيم الانتقال ومن ثم الخطط والتقويمات، ثم أيضاً... تشجيع الفكرة بأن التركيز يجب أن يمدّد من تموز/يوليو ٢٠١١ حتى نهاية عام ٢٠١٤، وهو التاريخ الذي أعلن الرئيس قرضاي بأن القوات الأفغانية يجب أن تكون فيه على رأس قيادة المهام الأمنية في سائر أنحاء البلد». تبنى قادة الدول في قمة لشبونة هذا المفهوم، وبحلول أيلول/سبتمبر ٢٠١١، حصل الانتقال في ثلاث ولايات وأربع مقاطعات بنجاح.

كان الانتقال يعني تحولاً من العمليات العسكرية التي تقودها إيساف إلى العمليات التي تقودها قوات الأمن الوطني الأفغاني ومبادرات الأمن المحلي. كان النمو المطرد لقوات الأمن الوطني الأفغاني، إذاً، قد أصبح مُكوّناً أساسياً في الانتقال. وقد قام الفريق كالدويل بعمل «مذهل»، كما اعتقد بتريوس، بقيادة ذلك المسعى وبناء مسعى بقيادة أميركية بمعظمه لما أصبح لاحقاً مهمة تدريب الناتو ـ أفغانستان. كان بتريوس قد مرَّ بالمسعى الشديد القوة نفسه في العراق عندما سعى لينهض بمسعى تدريب قوات الأمن هناك، وكان يعلم كم كانت المهمة شاقة؛ وقد سعى، إذاً، أن يقدم لِكالدويل الدعم الكامل الذي لمس فيه كُثُر أنه هو نفسه لم يكن لديه بالكامل في العراق. كان المسعى مهدداً بأمور مثل الفرار من الجندية لدى الأفغان والأمية والبنى التحتية غير الكافية والأعداد غير الكافية من المتمردين واستدامة التكاليف، وهي تحديات مشابهة لِما كان بتريوس قد رآه في العراق، على الرغم من أن التحديات التي ترافقت مع بعض مواطن الضعف هذه كانت أكبر في أفغانستان. لكن تلك المشاكل

كانت تتم معالجتها، بدرجات متفاوتة، وفي نهاية جولة بتريوس، كانت أعداد الجنود الأفغان قد ارتفعت من حوالي ١٩١ ألفاً خريف عام ٢٠٠٩ إلى ٣٠٥ آلاف خريف عام ٢٠١١.

في نهاية المطاف لم تكن أعداد قوات الأمن الوطني الأفغاني كافية بعد لتوفير الأمن في البلد بأكمله؛ كان بتريوس يأمل أن تملأ الشرطة المحلية الفراغ بين المواقع التي كانت قوات الأمن الوطني الأفغاني تسيطر عليها. لقد شعر، في الواقع، بأن إحدى أكثر المبادرات أهمية خلال مناوبته كانت الحصول على موافقة الرئيس قرضاي لبرنامج الشرطة الأفغانية المحلية، ولقد كانت إحدى المهام الرئيسية على جدول أعماله منذ البداية، حتى قبل أن يصل إلى كابول. وقد صرَّح بتريوس بأنه من الممكن أن يكون له تأثير محفز في إقناع الأفغان بتبني المفهوم، «لكن في الحقيقة إن قرضاي هو من قادها».

أحسَّ بعض المحلّلين أن بتريوس قد وضع تركيزاً كبيراً على الشرطة الأفغانية المحلية، مع أنه كان هناك ٦٥٠٠ فقط حين غادر؛ وقد تكهن هؤلاء المشكّكون أيضاً حول المخاطر المحيطة بمبادرات الدفاع المحلي غير المربوطة والمستقلة والتي لم تكن ترتبط بالحكومة، لكن صلاتها مع وزارة الداخلية والشركاء الأميركيين كانت وثيقة. كان عناصر الشرطة الأفغانية المحلية، كما جزم بتريوس، أساسيين لوصل لطخات الحبر الأمنية وتوسيعها للتأكد من أن المتمردين، خصوصاً أولئك المختبئين في معاقل عبر الحدود، سيجابَهون بالمقاومة. وفي المناطق النائية ـ وهي غالباً مناطق العبور الحدودية ـ حيث قد لا يكون هناك وجود لعناصر قوات الأمن الوطني الأفغاني، فإن الشخص النموذجي لمكافحة التمرد، كما اعتقد بتريوس، كان واحداً من السكان المحليين يمكن له أن يكتشف حركة التمرد من المعاقل في باكستان باتجاه أفغانستان ويتصدّى لها. وكانت الشراكة مع القوات الخاصة الأميركية والشرطة الوطنية الأفغانية تعني وجود صلات قوية مع إيساف ووزارة الداخلية الأفغانية، خاصة أن الأخيرة قد دفعت الرواتب لعناصر الشرطة الأفغانية المحلية.

عرف بتريوس منذ أيامه الأولى في كابول بأن معاقل التمرّد في باكستان، خاصة تلك الموجودة في المناطق القبلية الخاضعة للإدارة الاتحادية وبلوشستان، يمكن تصوّرها بأنها تقوّض مسعى الحرب. إن كان هناك من شيء، فقد تدهورت علاقة الولايات المتحدة مع باكستان خلال السنة التي قضاها في القيادة، ليس بسبب خطأ منه شخصياً. كانت مسألة كيف كان يمكن لأميركا أن تخوض حرباً ضد تمرد قيل أنه مدعوم، إلى حدّ غير واضح جداً، من جهاز استخبارات الباكستان، وكالة الاستخبارات الباكستانية، قد أغاظت كُثُراً في واشنطن. وكانت المسألة، بلا شك، ستلحق بتريوس إلى مهمته التالية.

فيما غادر بتريوس مسرح الحرب، قام بعض موظفيه بعرض المساعي الشاملة المتعلقة بالحملة. «ما يدعو للذهول»، كما نقل العقيد مايك ريس، نائب رئيس أركان إيساف التابع لبتريوس «ليس واحداً من تلك الأنشطة ـ الشرطة الأفغانية المحلية أو الأمن أو العمليات الخاصة أو التنمية الاقتصادية أو سيادة القانون أو أي من خطوط المساعي الأخرى ـ بل أن بتريوس استمر بدفعنا جميعاً لأن نفكر بشكل واسع حيال كيف يمكننا أن نجعل كل شيء فاعلاً خلال الحرب، الذي هو في النهاية جهد بشري، وليس مجرد لعبة فيديو».

خلال عامه في أفغانستان، كرر بتريوس تأكيده على ما تعلمه في البداية كتلميذ في فيتنام ومكافحة التمرد، وقريباً بعد أيامه الأكاديمية، شخصياً في أميركا الوسطى: أهمية تطوير قدرات الحكم وسيادة القانون في الدولة المضيفة، على كل الأصعدة، لنيل الشرعية بالتالي في نظر الشعب وكسب تأييده. كانت التحديات المذكورة آنفاً مع قرضاي، بما فيها فضيحة بنك كابول ومبادرات التسوية، أبعد من اختصاص بتريوس. على الرغم من أنه بقي هو وإيساف، منضويين في بعض المستويات، فقد كانت هذه مبادرات مدنية أولية. لكن على الرغم من النوايا المثلى للحملة المدنية العسكرية، بما في ذلك أفضل مساعي العميد مكماستر ـ وقرضاي نفسه ـ لمكافحة الفساد، فقد بقيت حكومة قرضاي مُختَرَقة بعناصر فاسدة. وفي هذا السياق، كرر بتريوس تأكيده بأن «خلق سيادة القانون أمر صعب

للغاية في ظل وجود شبكات رعاية المجرمين ومجال المخدرات غير الشرعية». وقد نقل بأن سيادة القانون كانت ضرورية للحصول على التأييد الشعبي (حيث كان بإمكان طالبان توفير العدالة المستعجلة إن لم تقم الحكومة بذلك). كان فريقا إيساف والسفارة قد قاما بخطوات في العام السابق، لكن كان هناك عمل كبير للقيام به لبناء القدرة.

عندما تستعر الحرب، يصبح من الصعب الخروج بحكم نهائي حول النتيجة. فمن ناحية، نجح بتريوس في خلق الزخم الذي احتاج إليه أوباما للبدء بسحب القوات الأميركية من موقع القوة المعقولة. وقد كان اختيار الرئيس بتريوس لمنصب وكالة المخابرات المركزية على ما يبدو لتأكيد أن الإدارة آمنت بأن بتريوس كان شخصاً يقدم «النتائج» باستمرار. ومن ناحية أخرى، كانت تحديات السيطرة والبناء في المناطق التي أدت مساعي إيساف وقوات الأمن الوطني الأفغانية إلى تطهيرها، خاصة في ضوء انسحاب الغزو، بالإضافة إلى التحديات التي قدمتها معاقل الإرهاب الباكستانية والقدرة المحدودة لحكومة الدولة المضيفة، قد وضعت عقبات هائلة في طريق استراتيجية بتريوس المدنية العسكرية الشاملة لمكافحة التمرّد. لن يكون هناك شيء سهل لمن سيخلفه هناك.

جادل ناقدوه بأن تفاؤل بتريوس المتواصل قد تحول ضعفاً، على الرغم من أنه رفض وصف «متفائل» منذ وقت طويل؛ وبدلاً من ذلك، أكد مراراً وتكراراً بأنه كان «واقعياً»، وقد بذل جهداً كبيراً لمواجهة تحديات الواقع على الأرض. وقد فهم بأن مصرع بن لادن في أواخر أيار/مايو قد أضاف إلى الشعور المتنامي بأن مبرر المسعى في أفغانستان ـ منع القاعدة من إعادة تنظيم صفوفها في البلد ـ قد أصبح فجأة أقل إقناعاً عما كان في السابق، لكنه لم يكن ليقر بالحجة. كان بتريوس يعتقد بأن ترك أفغانستان مجدداً قد يكون له عواقب كارثية على أميركا والمنطقة. وكان من الضروري بألا تكون أفغانستان مرة أخرى معقلاً للقاعدة. لم يكن ليستسلم أبداً.

يمتد إرث بتريوس حتى اليوم إلى سائر الجيش والقوات العسكرية الأميركية بكاملها. فيعود الفضل له في التبشير بتركيز جديد على مكافحة التمرد عندما كان في شمال العراق كقائد فرقة، وتقنينه ضمن الكتيّب الميداني الجديد لمكافحة التمرد والتأثير على جهوزية الجيش من خلال تبني برامج التدريب المؤسسية التي تشمل «طريق الحرب» للقادة والوحدات التي تتهيَّأ للانتشار. لقد أصبح الشخصية البارزة التي تدير الحرب في العراق عندما تولى الغزو عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ وأشرف على حملة أدت إلى الحد من العنف بشكل كبير هناك، في وقت خسر فيه كثير من كبار القادة في أميركا صدقيتهم وأصبحت الفكرة أن يُنظر للعراق على أنه مهمة مستحيلة. وقد ساعد في صياغة استراتيجية الحملة لأفغانستان، ومن ثم، بدون سابق إنذار، قام بتنفيذها.

بالإضافة إلى تأثيره في المؤسسات والقيادات في العراق وأفغانستان، ترك بتريوس أيضاً بصمة لا تُمحى على الجيل التالي من القادة العسكريين باعتباره نموذجاً للعسكري ـ العالم ـ رجل الدولة. وقد أشار الاستراتيجي العسكري الأميركي برنارد برودي قبل عقود عدة مَضت إلى أن خلايا التفكير المدنية والأكاديميين كانوا يقومون بالتفكير الاستراتيجي أكثر مما كان الضباط العسكريون يفعلون. وقد بحث بتريوس عن مسار مختلف لنفسه وشجع كثيراً من مقرّبيه على الشيء نفسه، وقد دافع عن كلية الدراسات العليا المدنية لمنفعة الخروج من دائرة الأمان الفكري للشخص. فالتفكير الخلّاق والقدرة على مقارعة التحديات الفكرية مهمّان للغاية في مكافحة التمرّد وأيضاً في أي تصميم لحملة وتنفيذها، كما أحس؛ وتجهيز النفس بأدوات تحليلية جديدة، وخبرات مدنية وأكاديمية، وشبكات مختلفة كانت ثمينة بالنسبة له، وأيضاً ـ كما تمنّى ـ لأولئك الذين وجَّههم وقادهم.

كان أحد أولئك الأشخاص، العقيد بيل أوستلاند، وهو قائد فصيلة سابق خلال حقبة قيادة بتريوس لكتيبة وقد خدم لاحقاً معه في أفغانستان، وقد تذكر خروجه مرة إلى الغابة في فورت كامبل ضمن تدريب كتيبة ميداني عندما سأل

بتريوس: بيل، ما الذي يعنيه لك «مجزرة وحشية؟» فأجاب: «لا يعني لي شيئاً سيدي؛ فلم أسمع بذلك من قبل»، أجاب الملازم ثاني أوستلاند في ذلك الحين، وهو جوالة متطوع سابق. فأجاب بتريوس: «إنها معركة السوم، حيث سقط ستون ألف بريطاني بين قتيل وجريح في اليوم الأول من المعركة. إن عدم معرفتك بذلك هو مثال للسبب الذي يجعلك بحاجة إلى دراسات عليا لإدراك المفاهيم الكبرى والأسباب التي تدعونا للتدريب بالطريقة التي فعلنا». وقد أدى ذلك لاحقاً إلى مناقشة، كما نقل أوستلاند، حول دراسات عليا محبّذة، حيث قام أوستلاند في النهاية بمتابعتها. «كنت أعمد إلى الشرح»، كما نقل بتريوس «بأن الضباط عليهم أن يحوزوا المعرفة الكافية بالتاريخ حيث تعني كلمات أو عبارات مثل «سوم» شيئاً بالنسبة لهم. كانت سوم حدثاً مأساوياً حيث تم طحن جزء من جيل بريطاني يافع في الوحل لأن كبار قادتهم لم يكن لديهم الأفكار الكبرى السليمة».

بالنسبة للجيل الناشىء من القادة العسكريين، لم يشجع بتريوس فقط على متابعة التطور الذهني والاستعداد لقبول المخاطرة؛ بل شجع المبادرة أيضاً ومتابعة التصرّف المستقل. كما أظهر مسعى الرائد لوجان للنهوض بِسآت الأفغاني وإقامته المؤقتة في مناطق العمليات العسكرية، أن كثيراً من هؤلاء القادة اليافعين عملوا باستقلال تام وضمن ظروفٍ عالية المخاطر. وقد تولى هذا الجيل مناصب قيادية متنوّعة كمهندسين ووسطاء وشرطة ووكلاء توظيف وموجهين عسكريين.

وقد عملوا أحياناً في «المنطقة الرمادية» للغموض الأخلاقي، ما أجبر صغار القادة على موازنة الحقائق المريرة للظروف المعقّدة ـ مثل قواعد الاشتباك المقيّدة نسبياً، ووجود أبرياء على أرض المعركة ـ مع حاجتهم لإنجاز المهمة وحماية الجنود. كما في حالة قرار المقدم فلين بطلب غارة جوية لقرية مزروعة بالألغام، فالضباط في العادة هم من يتحمّلون المسؤولية في إدراك التبعات الاستراتيجية لسلوكهم التكتيكي في ظروف أخلاقية معقّدة. في الواقع، يمكن أن يكون لتصرفاتهم تداعيات عالمية. فقادة «الجيل الجديد الأعظم» كما وصفه بتريوس قد تحمّلوا مسؤولية هائلة منذ ٩/١١، رابطين بين الحقلين التكتيكي

والاستراتيجي. وقد أظهروا مرونة والتزاماً وخبرة مستحقة نتيجة سنوات من زمن الحرب، في بعض الحالات نتيجة الانتشار لمدة خمس سنوات أو أكثر.

أظهر كل من الجيش والبحرية نفسه، في بعض الوحدات على الأقل، بأنه قادر على عمليات مكافحة تمرد فاعلة قبل أن يشكل بتريوس وماتيس فريقاً لصوغ الكتيب الميداني الجديد لمكافحة التمرد عام ٢٠٠٦. لكن تكتيكات مكافحة التمرد في العراق وأفغانستان قبل غزو العراق كانت متفاوتة تفاوتاً كبيراً. جعل بتريوس من مفاهيم مكافحة التمرد الشاملة التركيز الأساسي للقوات على الأرض في كلا الصراعين وأصر على اتّباع كل الوحدات الخاضعة لقيادته لأفضل التطبيقات. وقد اعتقد نقاده في الجيش بأن التركيز المكثف على مكافحة التمرد كان بمثابة قصر نظر في عالم حيث العمل القتالي وجهوزية الصواريخ عالية التقنية كانا بنفس الأهمية في الحرب المقبلة. ما الذي سيحصل، كما سألوا، إذا كان على الجيش التدخل في حرب بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية؟ وفي السياق نفسه، فلن تحقق تكتيكات مكافحة التمرد سوى شيء قليل في صراع مع الصين حيث تكون قوة النيران والمناورة ضرورة أكثر إلحاحاً.

لم يجادل بتريوس يوماً بأن مكافحة التمرّد كان الأسلوب الوحيد الذي يجب أن تقاتل به أميركا، لكنها كانت فقط الأسلوب الأفضل لمتابعة الحربين القائمتين في العراق وأفغانستان. في الواقع، عندما كان قائداً في فورت ليفنوورث، شجع على الاستعداد «لكل أطياف» العمليات العسكرية على أنها الهدف المتبصّر، وأشرف على تطوير كتيّب ميداني أكد على ذلك المفهوم. وقد أشار دائماً إلى أن مكافحة التمرد تحوي كثيراً من المعارك الطاحنة، بما فيها عمليات التطهير التقليديد ومداهمات قوات مكافحة الإرهاب واستخدام القوة الجوية. كان بتريوس سيورد لاحقاً بأنه يمكن أن يكون قد أمضى كثيراً من الوقت في البداية في أفغانستان وهو يتحدث عن نجاح المداهمات الليلية. نتيجة لذلك، ركّز الإعلام وحكومة قرضاي معاً عليها. كانت مقاربته بشكل أدق مقاربة شاملة احتوت أيضاً على «عمليات تعزيز الاستقرار»: أنشطة لدعم تأسيس الحكم المحلي وقدرة

سيادة القانون، وتبني التنمية الاقتصادية ومكافحة الفساد وتهريب المخدرات، وتدريب قوات أمن الدولة المضيفة، وإعادة دمج عناصر التمرد القابلين للإصلاح. وقد هدفت تلك المساعي إلى تحسين الخدمات للشعب لكي يدعموا الحكومة الشرعية بدلاً من خيار التمرّد. وكان الأمر الأكثر تبصّراً يتمثّل بمقاربة شاملة وجهوزية شاملة.

خلال احتفال تقاعده، كرّر بتريوس هذه النقطة، مشيراً إلى أنه «سيكون أمراً ملحاً الحفاظ على قوة لا تعتمد فقط على الخبرة الاستثنائية والخبرات الكامنة في مراتبنا اليوم، بل يكون الحفاظ أيضاً على البراعة، والمرونة التي تم تطويرها طيلة العقد الماضي خصوصاً. أنا أعتقد فعلاً... لقد تعلّمنا من جديد منذ ٩/١١ الدرس الخالد بأنه لا يسعنا دائماً خوض الحروب التي كنا أكثر استعداداً أو أكثر ميلاً إليها. نظراً لتلك الواقعة، علينا أن نحافظ على القدرة الكاملة الأطياف التي طوّرناها خلال هذا العقد الأخير من الصراع في العراق وأفغانستان وغيرهما».

مثلما حصل معه في أفغانستان بداية، ستكون الأعمال الداخلية لوكالة المخابرات المركزية نوعاً ما أرضاً غير مألوفة لِبتريوس. نظراً لشغفه بالتحكّم في أنظمة جديدة وتطوير الفرق والأشخاص، فعلى الأرجح أنه سيكون متعلماً سريعاً. وعلى الرغم من أن المهمة والشخصيات في وكالة المخابرات المركزية سيكونون نوعاً ما مستجدين عليه، فلا يبدو أن أسلوب بتريوس في القيادة قد تغيّر.

من أميركا الوسطى وهايتي إلى الكويت والبوسنة، من العراق إلى أفغانستان وضمن منطقة القيادة المركزية، نجح بتريوس في إقناع عناصر عنيدين بالعمل سوياً. لكن كان بإمكانه الحصول على عمله في مجتمع الاستخبارات الأميركي، حيث لم يحدث أن كان التعاون غريزة طبيعية في يوم من الأيام. وعلى الفور، كان ينبغي عليه قياس كيف تبدو مقاربته لأعضاء من فريق التجسّس النافذ للوكالة، الذي يشمل قسم أنشطة خاصة، شعبة وكالة المخابرات المركزية شبه العسكرية. خلال الشهر الأول لتوليه قيادتها، في الواقع، قامت الطائرات من دون طيار التابعة

لوكالة المخابرات المركزية بقتل هدفين إرهابيين شديدَي الأهمية للقاعدة في اليمن: أنور العوالقي، إمام يمني أميركي، وميليشياوي أميركي سعودي الأصل، سمير خان، الذي أصدر مجلة إلكترونية للقاعدة باللغة الإنجليزية. وقد قُتِل كثير من قادة القاعدة «الشديدي الأهمية» في المناطق القبلية الوعرة لباكستان أيضاً.

على الجانب التحليلي لوكالة المخابرات المركزية، كان يتوجّب على بتريوس أن يؤسس علاقة بناءة مع محلّلين في مديرية المخابرات حكموا على الحرب في أفغانستان بأنها «طريق مسدود» في تقييم صدر أثناء مغادرة بتريوس لكابول (على الرغم، وكما أشار بتريوس بامتعاض، من أن الحكم كان يرى تحسّناً في تقييم وكالة المخابرات المركزية للوضع صيف عام ٢٠١٠). كان أوباما قد أخبره بالفعل بأنه توقع منه أن يمثل موقع محلليه ـ لكنه يرحب أيضاً بأفكار بتريوس الشخصية عندما تختلف عن نهج الوكالة.

بصفته الرئيس الثامن من بين عشرين جاءوا إلى وكالة المخابرات المركزية من خلفية عسكرية، والثاني الذي يخدم بعد تنازله عن العسكرية، فهو أول رئيس لوكالة المخابرات المركزية يأمر بتنفيذ عمليات قتال واسعة النطاق ويشرف على مسرح مليء بالحرب والصراع. اذا كان الجانب الشخصي يفيد الجانب المهني فإنه سيكون مدرّباً جيّداً في توظيف هذه المزايا الوطنية.

أعلن احتفال تقاعد بتريوس في فورت ماير، في ٣١ آب/أغسطس عام ٢٠١١، نهاية مهنة معيّنة وبداية أخرى جديدة. كان بتريوس قد طلب عرضاً عسكرياً مشتركاً، وليس مجرد موكب عسكري، ليعلن شكلياً خلافته للقيادات المشتركة في القتال. كان لفيف من الأصدقاء والعائلة ـ من رفاق صف الأكاديمية العسكرية الأميركية ورفاق سكريمينغ إيغلز وشركاء دبلوماسيين وغيرهم ـ وتعليقات سخية من صديقه وزميله الأميرال مايك مولن أعطت بتريوس شعوراً بالانطواء. وكما وصف مولن:

إن ما يميز بتريوس ليس مجرد قدرته على رؤية الطريق إلى النصر، بل

الإرادة والعزيمة والمرونة لرؤيته من خلال ذلك. أفغانستان الآن هي مكان أكثر أمناً وأملاً عما كانت عليه قبل عام، وفي حين أن ديف سيكون أول من يخبركم بأن هناك كثيراً من العمل الشاق والقاتل بالانتظار، لم يسبق أن كان التقدم حقيقياً أو كانت الآفاق أكثر تشجيعاً. ديفيد، لقد أدرت السباق جيداً، أسرع وأكثر ثقة من الباقين، وأنت الآن تقف بين الجبابرة، ليس فقط في عهدنا بل في كل العهود، على غرار غرانت وبيرشينغ ومارشال وأيزنهاور كواحد من نقباء المعارك العظماء في التاريخ الأميركي. لقد وسّعت نظرتنا حول الممكن، منبهاً جيشنا إلى الإنجازات التاريخية خلال بعض أكثر الأوقات شدّةً التي عرفتها أميركا على الإطلاق. واليوم تغادر صفوفنا مع الشكر العميق لأمة ممتنة لك.

وفيما تقبض على دفة وكالة المخابرات المركزية، فإن قدرتك على المشهد التالي وحول الزوايا لن تكون أبداً ذات أهمية، ونحن محظوظون لأنك ستستمر بالخدمة والقيادة خلال هذه الأوقات المتحركة والمتبدلة. ت. إ. لورنس/ وهو رجل عرف شيئاً واحداً أو اثنين عن مكافحة التمرد، ذكر مرة، «كل الرجال يحلمون، لكن ليس بالنسبة نفسها. فأولئك الذين يحلمون ليلاً، في الانهيار المغبّر لعقولهم، يستيقظون في النهار ليجدوه سراباً. لكن حالمي النهار هم رجال خطرون، لأن من الممكن أن يمثلوا أحلامهم بأعين مفتوحة لجعلها ممكنة». ديفيد بتريوس كان بالفعل حالماً نهارياً، كان خطيراً بالنسبة لأعدائنا، لكن ليس هناك صديق أعظم منه لأولئك الذين قاتل إلى جانبهم وقاتل من أجلهم. لقد كان حالماً مع رؤيا وخطة للوصول إلى هناك.

تحدث بتريوس، في خطاب وداعه، بخصوص الامتنان والحذر. فقد شكر عائلته وموجّهيه والجنود على كل ما ذكروه للإشادة به. كما حذر من اقتطاع موازنة الجيش بتهوّر ودعا صانعي القرار إلى الاعتناء بالشعب، حجر الزاوية

للجيش. وأشار إلى الحاجة للحفاظ على قدرة عمليات كاملة الأطياف، مستذكراً من جديد بأن الجيش يجب أن يكونَ مستعداً لكل الاحتمالات، وليس فقط تلك الأكثر راحة. كانت كلماته تخفي السؤال عما إذا كان الجيش سينسى الدروس التي كافح لكي يتعلمها، أم أنه أخذ الدرس الخاطئ، من العقد الماضي للحرب.

كان بإمكانه استعمال الكلمات التي كتبها في الصفحات الختامية لرسالة تخرّجه عام ١٩٨٧:

> إن كبار العسكريين إذاً يجدون أنفسهم في صراع. فالدروس المأخوذة من فيتنام ستؤشر أنه، بشكل عام، يجب تجنّب الانجرار إلى مكافحة تمرد. لكن التحضير المتبصّر لطوارئ محتملة (وميل عام ضد الحد من خيارات الرئيس) تؤدي بالجيش لأن يدرك وجوب إيلاء قوات مكافحة التمرد والتجهيزات والعقيدة أهمية كبيرة. والقادة العسكريون هم هناك في الموقع الصعب للجدال بخصوص تكوين قوات أكثر تكون ملائمة لمثل هذه الصراعات، وفي الوقت نفسه فهم يمكن أن ينصحوا بعدم استخدام تلك القوات إلا إذا توفرت ظروف محددة جداً.

ختم بتريوس خطابه الأخير بالزي العسكري بالاقتباس من المقطع المفضّل لديه، عن خطاب تيدي روزفلت عام ١٩١٠ «رجل في الساحة» Man in the Arena.

> «ليس الناقد هو من يهم، وليس الرجل الذي يشير بالبنان إلى زلة الرجل القوي أو أين يمكن لفاعل الخير أن يفعله بشكل أفضل. يعود الفضل صراحة إلى الرجل الذي في الساحة، الذي يتمرغ وجهه بالغبار والعرق والدم، الذي يناضل ببسالة، الذي يزل ثم يعود فيقف مراراً وتكراراً، لأنه ليس هناك مسعى من دون خطأ أو تقصير، لكن من يعرف الحماس العظيم والتفاني العظيم هو من ينذر نفسه من أجل قضية محقة؛ الذي، وفي أفضل الأحوال، يعرف في النهاية، انتصار الإنجاز الأكبر، والذي في أسوأ

الأحوال، إن فشل، فعلى الأقل يفشل وهو يحاول جاهداً لئلا يكون هذا المكان على الإطلاق مع تلك الأرواح الباردة والجبانة التي لا تعرف النصر ولا الهزيمة».

بدا البيت الأبيض حاضراً لتبني الرجل الذي حاول ناقدوه تصويره خصماً. عقب احتفال بتريوس مباشرة، اتصل الرئيس أوباما لتهنئته على مسار مهنة تاريخي في الجيش الأميركي وعلق على «مساهماته الاستثنائية لأمننا القومي في العراق وأفغانستان». عَنَت الكلمات كثيراً لِبتريوس، وكذلك الأمر بالنسبة لتعبير الرئيس عن امتنانه لالتزام بتريوس المستمر بالخدمة العامة.

بعد مضي أسبوع، كانت السخرية خلال قسم بتريوس اليمين كرئيس لوكالة المخابرات المركزية واضحة بينما قام نائب الرئيس بايدن، المشكّك الأول بِبتريوس في البيت الأبيض، بالإشراف على أداء القسم في غرفة روزفلت فيما حملت هولي بتريوس إنجيلاً أسمر اللون كان بتريوس قد تسلّمه من رفيق سكنه في الأكاديمية العسكرية الأميركية، كريس وايت، قبل سبعة وثلاثين عاماً. كان بايدن قد عارض غزو قوات بتريوس في أفغانستان وقد ورد بأنه رأى الجنرال، خلال مراجعة سياسة أفغانستان لعام ٢٠٠٩، على أنه قائد غير مرن، كان يبادر بالرد على طلب منه بطلب مزيد من القوات؛ وفي الآونة الأخيرة، دفع بايدن نفسه لانسحاب أكثر زخماً عام ٢٠١١، بمواجهة التوصيات العسكرية.

غير أن تلك التوترات يبدو أنها أصبحت وراءهما الآن. ففي الواقع، بيَّن بايدن أنه كان هو الذي اقترح على أوباما في حزيران/يونيو ٢٠١٠ بأن يتولى بتريوس القيادة في كابول. الآن، وكما جرت العادة لمن يرشحهم مجلس الوزراء، فقد وقع الاختيار على نائب الرئيس ليترأس قَسَم بتريوس بصفته رئيساً لوكالة المخابرات المركزية. وضع بتريوس، الذي ارتدى بدلة رمادية وربطة عنق عنابية اللون، يده اليمنى على الإنجيل وكرر قسم المكتب بعد بايدن.

«الواجب والشرف والوطن»، قال بايدن لِبتريوس بعد تلاوة القسم. «لقد

قدت ودربت جيل ٩/١١ ليصبح أعظم مجموعة من المحاربين شهدها هذا البلد، ويمكنني الجزم بأنها أعظم مجموعة شهدها العالم. ولم تكن قيادتك الشخصية فقط هي موضع تقدير بل أيضاً قيادتك الاستراتيجية. والآن قد تم استدعاؤك لتقود ما أعتقد أنها وكالة المخابرات الأولى في العالم».

كان بتريوس قد مر بتحوُّلٍ في ذلك الصيف. بعد ست قيادات عسكرية متواصلة أدت إلى نهاية مهنته، دفعته فكرة خلعه الزي العسكري للتفكير في البداية. لكنه كان ممتناً لحصوله على عمل جديد متطلب في الأفق، وهي فرصة أخرى لخدمة الوطن. فهو لم يخسر إرادته بالفوز بمغادرته الجيش. وهو لم يتخلّ عن طبيعته التنافسية. فقد كان ديفيد بتريوس وما زال «بكامل رصيده».

شكر وتقدير

إن هذا الكتاب هو امتدادٌ لبحثي في رسالة الدكتوراه الذي بدأ كمعاينة لدور بتريوس في الابتكار العسكري على أثر ٩/١١. على مدى سنتين، قمت بتقفي آثار بتريوس منذ كورنوال ـ أون ـ هادسون حتى القيادة المركزية، مستكشفةً مسار تطور فلسفته عن الحرب. في حزيران/يونيو ٢٠١٠، وبينما كان بتريوس واقفاً في روز غاردن مع الرئيس، شعرت بأن الوقت قد حان لتحويل الأطروحة إلى كتاب، وفكرت بأنني أستطيع بناء بحثي على تطوّره الفكري خلال المراحل الفاصلة لقيادته في أفغانستان. وقد طلبت المشورة من شريك لي، وهو طوم ريكس، مراسل في واشنطن بوست وكاتب «الخيبة» Fiasco و«المقامرة» The Gamble، بشأن الذهاب إلى دار نشر، فأرشدني بلطف إلى سكوت مويرز، وهو عميل مشهور في وكالة وايلي. لقد أراد مني سكوت أن «أخطو بعيداً» وساعد على وضع رؤيا حول ما يمكن لمؤلف يكتب للمرة الأولى تحقيقه؛ وقد بقي منخرطاً بعد أن انتقل من وايلي ليصبح الناشر في بينغوين برس. قادني طوم وسكوت إلى فرنون لويب، وهو مراسل حرب سابق يشغل الآن منصب كبير مراسلي التحرير في واشنطن بوست، وقد أصبح شريكي ومرشدي في الكتابة. كان فرنون شريكاً استثنائياً، للمساعدة على وضع رؤيا لحبكة السرد والتخطيط لكيفية بناء أطروحتي لتصبح كتاباً، وأمدَّني حماسه المستمر للمشروع بالطاقة للمضي قدماً. وقد أصبحت محررتي في بينغوين برس، جيني سميث، نوراً موجّهاً هائلاً أثناء تطويرنا لشخصيات الكتاب والمواضيع المهمة. أكن التقدير لحكمها وحماستها والتزامها لجعل هذا الكتاب أفضل ما يكون. كما أنني أدين بشدة لِويل بالمر، محرّر

المخطوطة، الذي لم يسبق أن رأيت مثيلاً له في انتباهه الشديد للتفاصيل. وأشكر أيضاً أندرو وايلي، عميلي الجديد؛ وآن غودوف، رئيسة بينغوين برس، للاستثمار بكاتب غير معروف؛ والصبورة على الدوام فيرونيكا ويندولز، وباقي الفريق في بينغوين على خبرتهم. بدت كتابة قصة عن حرب دائرة مشروعاً بعيد المنال؛ وفي النهاية تبين أنه كان من بين أكثر التجارب إثراءً وتواضعاً وإلهاماً التي مررت بها في حياتي، وأدين بجزء كبير لتشجيعهم ودعمهم.

كان دور العائلة والأصدقاء مسعفاً في دعم هذا العمل. ومن بين الجميع، أشكر زوجي وصديقي الحميم، د. سكوت برودويل، الذي لعب دور الأم لولدَينا عندما كنت أذهب إلى أفغانستان أو واشنطن العاصمة، وحماهما من المخاوف من جراء تنقل والدتهما العاشقة للمغامرة في دولة من دول العالم الثالث. (كما علّم ولدينا أين تقع أفغانستان على خارطة العالم. نتصور أنهما سيبقيانها نصب أعينهما في المستقبل). وقد أظهر سكوت مرونة تستحق التقدير حيال غيابي وقضائي الليالي المتأخرة وفترات الصباح الباكر على الحاسوب؛ أنا ممتنة لحصولي على مثل هذا الشريك الرائع والداعم. كما أنني أدين بشدة لجدّيّ ولديَّ، خاصة أمي، ندين كرانز، للأسابيع التي لا تُحصى التي أتت فيها للبقاء مع ولديَّ عندما كنت أغيب عن المنزل لفترات طويلة. فقد حاولت مع نسيبيَّ، شارون وراس برودويل، أن تجعل الانتقال سلساً قدر الإمكان على ولديَّ، وهذا يعني مساعدة هائلة لامرأة عاملة. أنا ممتنة لشقيقي وزوجته، ستيف وكارولين كرانز، لكرم ضيافتهما لي في واشنطن خلال زياراتي المعتادة. وقدّمت كثيرات من صديقاتي (أليكا، كاثي، سوزان، آنا، ساره، وزوجة شقيقي هيثر)، وهن أمهات عاملات، الدعم المعنوي (للأطفال) وساهمن بملء فراغ الأمومة خلال فترات غيابي. كما أنني كنت سأرتبك من دون مساعدة بيكي جونسون وفريق الناسخين العاملين معها، والملازم جايمي لين دي كوستر، في اللحظة الأخيرة، والذين وقفوا جميعاً بجانبي في الدورة الأخيرة.

لم يكن لينتهي الكتاب، بالطبع، لولا تعاون الجنرال ديفيد بتريوس. إن رغبة

بتريوس في الإجابة عن أسئلتي التي لا تنتهي، والسماح لي باستكشاف كل خفايا مسرح الحرب قدّما لي ثقافة لن تتكرر معي في الحياة، وأنا ممتنة لصراحته وثقته ودعمه. كان موظّفوه المقرّبون أساسيين في هذا العمل؛ وقد قدموا جميعاً كثيراً من وقتهم ونظرتهم على مدار السنة، وأنا أقدر صبرهم على كل طلباتي وتحمّلهم لحضوري المستمر. أتقدم بالشكر الخاص من الكولونيل مايك ميس والعقيد (قيد الترقية) بيل هيكمان والعقيد إريك غونهوس والملازم القائد كيمبرلي بوربك، والنقيب إريك برازنكو والضابط الأعلى جوش تريدويل ـ مصور استثنائي قدم كثيراً من الصور لهذا الكتاب ـ والنقيب تشيب والتر، والقائد الأعلى الخامس فايف تشارلز كليتون، والمعاون أول مارفن هيل، والمقدم أندي جبارة، والمقدم طوني دي مارتينو، والمقدم آرون أوكونيل، وآلستون رامزي، والرقيب أول مايك والاس، والرقيب أ. ج. سانتي، وماري كوهلر.

كما أتقدم بالشكر من القائد الأعلى الرابع مارك هاول، ورئيس الرقباء لاندون نوردباي والرقيب أول كيفن تشيلي، من مفرزة أمن بتريوس، الذي لم أشعر معه بالأمان كثيراً خلال ممارسة الجري. والشكر الخاص للعميدين مارك مارتنز وهـ. ر. مكماستر، واللواء ميك نيكولسون والنقيب إد زيلم، للسماح لي بأن أكون مراقبة مشاركة خلال أنشطتهم في أعمالهم القائمة. كما أنني ممتنة بصورة خاصة للعميد (قيد الترقية) سكوت ميلر، الذي كان لطيفاً بما يكفي للسماح لي بالركوب معهم إلى مواقع عمليات ترسيخ استقرار القرى ـ الشرطة الأفغانية المحلية، وحضور اجتماعات مهمة في كابول ومختلف قواعد العمليات المتقدمة والمخافر القتالية في البلد، بالإضافة إلى الرقيب أول جوزف بوركي، والنقيب جينو بالوسو والقائد (قيد الترقية) ترافيس شويزر ومساعديه المقربين. وقد ساعد كُثُر آخرون في سعيي لفهم البيئة المعقّدة في أفغانستان. وكان ثلاثة من أكثر الذين قدموا الدعم هم المقدمون ديفيد فايفكوت وديفيد فلين وج. ب. فاول وفرقهم الخاصة. أقدّر استعدادهم، في خضم الحرب، على استقبالهم لي، والترتيب لاجتماعات مع الأفغان عندما كان ذلك ممكناً والرد في الوقت المناسب على الاستفسارات

التي لا تنتهي للحقائق. تجسّد قصصهم في هذه الصفحات قيادة عظيمة؛ ما زلت أنحني تواضعاً وأشعر بالإلهام من تفانيهم الجماعي. أشكر جنودهم الذين كانوا دوماً مستعدين لمنحي مكاناً في عرباتهم المدرعة أو على السرير العسكري، والذين قاموا بحمايتي خلال الدوريات، والذين نسوا حياة التقشف التي كانوا يعيشونها في ظل شغف للخدمة.

كانت شخصيات أخرى في الكتاب أصدقاء سابقين، وقد قدموا وجهات نظر صريحة خلال الحرب؛ وهذا يشمل خمسة من نظرائي في الأكاديمية العسكرية الأميركية خدموا كمعاونين لِبتريوس خلال السنوات، وأصدقاء آخرين، بمن فيهم الرائد فرناندو لوجان، والرائد آبي لييننغتون، والعقيد جو فيلتر، وروجر كارستنز، ودوغ أوليفانت، ومارك جيكوبسون، والمقدمون كريس ريغا وروب ويلسون، وبشكل خاص مايكل أوهانلون، الذي ساعدني على التفكير على نحو شامل وكان دائماً صوتاً للمنطق والتوازن. وكان كثير من كبار المسؤولين أيضاً لطفاء فيما يتعلق بعملهم، بمن فيهم السناتور ليندسي غراهام، والأميرال مايك مولن، والفريق بيل كالدويل، والفريق ديفيد رودريغز، واللواء جون كامبل، والممثل الخاص لأمين عام للأمم المتحدة في أفغانستان ستافان دي مستورا، وسعد محسني، ووزير الداخلية الأفغاني بسم الله خان، ووزير الدفاع عبد الرحيم وردك.

كما أنني ممتنّة لدعم موجّهي للأطروحة، السير لورنس فريدمان، من كلية كينغز لندن، وديفيد غرغن، مدير مركز هارفرد للقيادة العامة، لصبرهما واستعدادهما للسماح لي بتأليف كتاب بالتزامن مع إنهاء أطروحتي. وأشكر الأستاذين سارة سيوال وطوني تشايز، اللذين كانا نوراً موجّهاً لي في الأيام الأولى لمحاولة إعادة توجيه مساري المهني خلال محاولتي التوفيق بين الأمومة والأهداف المهنية؛ وسيبقون جميعاً نماذج يُحتذى بها.

كما أنني أدين للفريق أول (المتقاعد) كين، والفريقين الأولين غالفين وفيونو، والعقيد المتقاعد نايتنغيل لمشاركتي وجهات نظرهم عند بدئي بكتابة أطروحتي، لكن أيضاً عند بدء الجنرال بتريوس مهمته العسكرية الأخيرة. كان

توجيههم الجماعي لِبتريوس، من ملازم إلى فريق أول بأربع نجوم، ملهماً بما يكفي ليستحق الملاحظة. أتقدم بشكر خاص من كيث نايتنغيل على توجيهه ورؤاه وثقته خلال رحلتي الخاصة. كان موجّهو بتريوس الآخرون، بمن فيهم الجنرال (المتقاعد) فريد فرانكس والعميد (المتقاعد) جيم شيلتون، مساعدين إلى حدٍ بعيد أيضاً. بالإضافة إلى الموجّهين، أنا أدين للأفراد الآخرين في شبكة بتريوس الذين قدموا لي رؤى حول الاستطراد خلال كتابة سيرة. شكر خاص إلى هولي بتريوس، وألان سيدمان، ودان كوفمان، وكونراد كرين، وستيف تروث، وكريس وايت، وديف بوتو، وروب ريس، وبوب باسلر، وجورج أوليفر، وريتش كليفورد، وبات شادو. كان زملاء بتريوس في برينستون، بمن فيهم جون دفيلد، وآخرون من مهماته المختلفة مساعدين بالمواد التاريخية، خاصة العقيد فريد جونسون، والعقيد بيل أوستند، والعقيد تشارلي ميلر، والرائد جين هال، والمقدم (المتقاعد) فريد ويلمان، والعقيد باتريك فرانك، والمقدم كيفن بيتيت، واللواء بين هودجز، والعقيد (المتقاعد) ريتش هاتش، والعقيد (المتقاعد) ريتش ويتيكر، والمقدم (المتقاعد) مايك بيلي، واللواء (المتقاعد) جو كينزر، والعقيد (المتقاعد) بيل هادسون، والعقيد بول أولسن، والفريق فرانك هيلميك، والعقيد (المتقاعد) جيم كوفمان، والعقيد المتقاعد (أندي ميلاني) وسادي عثمان وكثيرون غيرهم، كانوا مساعدين بشكل كبير طوال الدرب. أشكر سوزان ليمكي في جامعة الدفاع الوطني لدعم فريقها خلال مقابلات التاريخ الشفهية.

كان تحديد الآراء والرؤى يمثل دوماً تحدياً للكاتب، لكن بالقدر نفسه، فإن أية أخطاء في هذا النص تعد مسؤوليتي. وعلى الرغم من أنه لن يتفق الجميع مع تحليلي أو استعراضي لما لاحظته، فأنا شديدة الامتنان لمساعدتهم لي في محاولتي السرد بدقة.

الملاحق

الملحق أ:
رسالة توجيهات مكافحة التمرد

المقر الرئيسي

إيساف

القوات الأميركية ـ أفغانستان

كابول، أفغانستان

إيه بي أو إيه إي ٠٩٣٥٦

١ آب/أغسطس ٢٠١٠

قيادة إيساف/ القائد   القوات الأميركية ـ أ

إلى الجنود والبحارة والطيارين ومشاة البحرية والمدنيين في إيساف التابعين للناتو والقوات الأميركية في أفغانستان

الموضوع: توجيهات القيادة المركزية لإيساف حول مكافحة التمرد

أيها الفريق، هذه توجيهاتي لتنفيذ عمليات مكافحة التمرد في أفغانستان. للإبقاء على الإرشاد في هذه التوجيهات لكي «نتعلم ونتأقلم»، سوف أقوم بتحديث هذه الوثيقة دورياً خلال الأشهر القادمة. هذه الطبعة هي تحديثي الأول، بعد أن تلقيت ردوداً مفيدة من الشركاء الأفغان على المسوّدة الأولية كما تلقيت نصائح من الوجهاء وفرق القوات الخاصة في وادي زريتشو التابع لولاية هيرات. وأنا أرحب بأي ردود إضافية.

كما أشرت عندما أبديت ملاحظاتي أثناء تولي القيادة، إنه امتياز لي أن أخدم مع كل واحد منكم في هذا الجهد المهم جداً. وأنا أقدّر كل ما ستقومون به للمساعدة على بلورة هذه التوجيهات لتصبح واقعاً على الأرض.

احموا السكان واخدموهم. فالعقبة الفاصلة هي العقبة البشرية. الشعب هو مركز الثقل. لن تتمكّن الحكومة الأفغانية ولا إيساف من بسط سيطرتهما حتى يقدما الأمن للسكان ويحوزا ثقتهم وإيمانهم.

عيشوا مع الشعب. لا يمكننا أن نذهب إلى القتال. ركّزوا القواعد المشتركة والمخافر المقاتلة قدر الإمكان بالقرب من أولئك الذين نسعى لضمان أمنهم. اتخذوا القرار حول المواقع بالمساهمة من شركائنا وبعد التشاور مع المواطنين المحليين والاطلاع على تقويمات المخابرات والأمن.

ساهموا في الوقوف في وجه ثقافة الإفلات من العقاب. طالبان ليست العدو الوحيد للشعب. فالناس مهدّدون أيضاً من الحكم المنقوص والفساد وإساءة استخدام السلطة ـ مجندي طالبان. وقد التزم الرئيس قرضاي بشكل صريح مواجهة تلك التهديدات. تعاوَنوا مع شركائنا الأفغان للمساهمة في تحويل كلامه إلى أفعال ومساعدة شركائنا على حماية الشعب من اللاعبين القذرين والإرهابيين.

ساعدوا الأفغان في بناء حكم مسؤول. لأفغانستان تاريخ طويل من الحكم الذاتي التمثيلي على كل المستويات، من مجلس شورى القرية وحتى الحكومة في كابول. ساعدوا الحكومة والشعب على استعادة تلك التقاليد وساعدوهم على تطوير التحري والتوازن للحؤول دون إساءة الاستعمال.

طاردوا العدو بلا هوادة. بالتعاون مع الشركاء الأفغان، أحكموا قبضتكم على المتمردين ولا تفلتوهم. عندما يقاتل المتطرفون، دعوهم يدفعوا الثمن. طاردوا أولئك الذين يشكلون تهديداً للشعب واقضوا عليهم. لا تدعوهم يرهبوا الأبرياء. استهدفوا الشبكة بأكملها، لا مجرد أفراد.

قاتِلوا بشراسة وقاتِلوا بانضباط. طاردوا العدو بشراسة، لكن استخدموا النيران التي تحتاجونها للفوز في القتال فقط. لا يمكننا الفوز من دون قتال، لكن لا يمكننا أيضاً قتل أو أسر من سيحقق لنا النصر. علاوة على ذلك، فلو قتلنا المدنيين أو دمَّرنا ممتلكاتهم أثناء تنفيذ عملياتنا، فسنخلق أعداءً أكثر ممن ستقضي عليهم عملياتنا. هذا هو بالضبط ما تحتاجه طالبان. لا تقعوا في فخّهم. علينا أن نستكمل جهودنا للحد من الإصابات بين صفوف المدنيين بأدنى قدر ممكن.

حدّدوا المسؤولين الفاسدين. قال الرئيس قرضاي، «إن حكومتي ملتزمة محاربة الفساد بكل السبل المتاحة». ساعدوا الحكومة في تحقيق ذلك المأرب. احرصوا على أن يكون الأشخاص الذين نعمل معهم يخدمون الشعب. فإن لم يفعلوا، فاعملوا مع الشركاء على اتخاذ إجراء بذلك، وإلا فسنبدو كأننا جزء من المشكلة. الفتوا انتباه الشركاء الأفغان الموثوقين وسلسلة قيادتكم إلى شبكات المخربين. اعملوا مع شركائكم الأفغان على مواجهة تمويل المخربين وعزله ومحاصرته ومنعه. وعندما تكونون قادرين، قدموا المخربين للمحاكمة.

حافظوا على ما حقّقنا له الأمن. بالتعاون مع الشركاء الأفغان، طوّروا الخطة للسيطرة على المنطقة (والبناء فيها) قبل البدء بتطهيرها أو نشر الأمن. على الناس أن يعرفوا أننا لن نتركهم. فضّلوا أمن السكان على عمليات التعطيل قصيرة المدة. وعندما نبدأ تسليم القيادة للأفغان، خفّفوا تدريجاً من وجودكم بدلاً من التسليم والانسحاب، مبقين على المقرات الرئيسية حتى عندما نقلص العناصر القتالية.

تبنّوا الحلول الطويلة الأجل. ساعدوا شركاءنا الأفغان على تأسيس حكم جيد وأمن مستمر. تجنّبوا التسويات مع المخربين الذين يحقّقون مكاسب قصيرة الأجل على حساب الاستقرار طويل الأجل. فكّروا جيداً قبل السعي وراء مبادرات يمكن ألا تكون مستدامة على المدى الطويل. عندما يتعلق الأمر بالمشاريع، فالصغيرة منها دائماً جميلة.

النقود هي الذخيرة؛ لا تضعوها في الأيادي الخطأ. أنشئوا «تعاقد مكافحة التمرد». أولوا عناية مشددة لتأثير إنفاقنا وافهموا من المستفيد منه. وتذكّروا أننا انعكاسٌ لمن نموّلهم. كيفية إنفاقنا هي في الغالب مسألة أكثر أهمية من كمية الإنفاق.

كونوا ضيوفاً ودودين. عاملوا الشعب الأفغاني وممتلكاته باحترام. فكروا في كيفية قيادتنا للعربات

وتنفيذ دوريات وكيف نتعاطى مع الناس وكيف نساعد المجتمع. انظروا إلى سلوكنا من خلال أعين الأفغان، وقوموا مع حلفائنا بالتشاور مع الشيوخ قبل السعي لمهمات وعمليات جديدة.

استشيروا وابنوا العلاقات، لكن ليس فقط مع أولئك الذين يسعون وراءنا. احصلوا على ثقة الناس، وتحدّثوا معهم، واطرحوا عليهم الأسئلة، واعرفوا عن حياتهم. استعلموا عن الحركة الاجتماعية والاحتكاكات والتاريخ المحلي ومعاناتهم. أصغوا لما يقولونه. كونوا متيقّظين من الآخرين في الغرفة وكيف يمكن لوجودهم أن يؤثر في الإجابات التي تحصلون عليها. تأكّدوا جيداً من المعلومات واحرصوا على حصولكم على القصة كاملة. تجنّبوا الرد غير المحسوب انطلاقاً من الانطباعات الأولى. لا تكونوا بيادق في لعبة شخص آخر. اقضوا وقتاً وأصغوا واستشيروا واشربوا كثيراً من الشاي.

سيروا. توقفوا، لا تقتلوا في المركبة. قوموا بدوريات راجلة كلما كان ذلك متاحاً وتخالطوا مع السكان. اخلعوا نظاراتكم الشمسية. يمكن استكشاف الوضع الميداني من خلال الاختلاط وجهاً لوجه، دون أي حواجز كالنظارات الباليستية أو نظارات أوكلي.

تصرّفوا كفريق واحد. اعملوا مع شركائنا الدوليين والأفغان، المدنيين والعسكريين. عاملوهم كأنهم إخوة في السلاح. فوحدة المسعى والتعاون ليست أمراً اختيارياً.

تشاركوا مع قوات الأمن الوطني الأفغاني. عيشوا وكلوا وتدربوا وخطّطوا ونفذوا العمليات سوياً. ليعتمد بعضكم على بعض. اعتبروا أنفسكم مسؤولين في كل المراتب نزولاً حتى مرتبة الجنود. ساعدوا شركاءنا في قوات الأمن الوطني الأفغاني على تحقيق التميّز. احترموهم وأصغوا إليهم. كونوا مثالاً يُحتذى به.

أشيعوا إعادة الدمج المحلي. بالتعاون مع شركائنا الأفغان، حددوا وافصلوا «القابلين للتسوية» عن «غير القابلين للتسوية». حدّدوا عقبات إعادة الدمج وأبلغوا عنها. ساعدوا شركاءنا في معالجة المعاناة وكافحوا لجعل القابلين للتسوية جزءاً من الحل المحلي، حتى أثناء قيامنا وشركاءنا بتحديد غير القابلين للتسوية وقتلهم أو اعتقالهم أو طردهم أو تطويعهم.

كونوا سبّاقين في اعتماد الصدقية. اهزموا المتمرّدين واللاعبين المؤذين في عناوين الصحف. استبقوا الشائعات. قدموا معلومات دقيقة لسلسلة القيادة وللقادة الأفغان وللشعب وللصحافة بأسرع ما يمكن. فالاستقامة ضرورية جداً في هذه الحرب. تجنّبوا الصيد في الماء العكر، ولا تحاولوا أن «تزجّوا بأنفسكم» في موقف محرج. اعترفوا بالنكسات والإخفاقات، بما فيها خسائر المدنيين، ثم حدّدوا بعدها كيف سنرد وما الذي تعلّمناه.

خوضوا حرب المعلومات بشراسة. تحدّوا التضليل. اقلبوا أيديولوجيات أعدائنا المتطرّفة وممارساتهم القمعية وعنفهم العشوائي ضدهم. علّقوا أعمالهم البربرية مثل أحجار الرحى حول أعناقهم.

تحكّموا في توقّعاتكم. تجنّبوا الإعلان المبكر للنجاح. سجلوا ما تم إنجازه وما الذي يجب إنجازه. اسعوا جاهدين لتقديم وعود أقل ونتائج أكثر.

طبّقوا قيمنا. ابقوا مؤمنين بالقيم التي نحافظ عليها بعناية. فهذا ما يميزنا عن أعدائنا. نحن منخرطون في مهمة قاسية. وهي في الغالب وحشية وتتطلب جهداً جسدياً كما أنها مرهقة. كلنا اختبرنا لحظات غضب، لكننا لن نرضخ للنبضات المظلمة، أو التسامح مع أي أفعال غير مقبولة من الآخرين.

حافظوا على الاستمرارية من خلال انتقال الوحدة. من اليوم الأول ابدأوا ببناء المعلومات التي ستتركونها لمن سيخلفكم. شاركوا المعلومات والمفاهيم خلال الأشهر السابقة للتسليم. ابذلوا جهدكم للحفاظ على وتيرة العمليات والعلاقات المحلية طيلة مدة الانتقال لتجنّب منح المتمردين والمخربين فرصة ليرتاحوا.

أعطوا الصلاحيات للمرؤوسين. مورد لتفعيل الأعمال اللامركزية. وظّفوا الموجودات والصلاحيات في القاعدة مع أولئك الذين هم في أمس الحاجة إليها ويمكنهم في الواقع استخدامها. تغاضوا عن تسلسلات الرتب (وفي الوقت نفسه المحافظة على تسلسلات القرار الهرمي). تذكروا أن أولئك الذين على المستوى التكتيكي ـ من يوصفون «بالرقباء الاستراتيجيين» و«النقباء الاستراتيجيين» ـ هم من يترجم الأفكار الكبيرة في عمليات مكافحة التمرد إلى واقع على الأرض.

فوزوا بمعركة الدهاء. تعلّموا وتأقلموا بشكل أسرع من العدو. كونوا ماكرين. تفوّقوا بالدهاء على المتمرّدين. تشاركوا أفضل التطبيقات والدروس التي تم تعلّمها. اخلقوا الفرص واستغلوها.

تمرّنوا على المبادرة. في غياب التوجيه أو الأوامر، تخيّلوا ماذا يمكن أن تكون الأوامر ونفّذوها بحزم.

(توقيع ديفيد بتريوس)

ديفيد هـ. بتريوس

فريق أول، الجيش الأميركي

قائد، إيساف/

القوات الأميركية ـ أفغانستان

HEADQUARTERS
International Security Assistance Force/
United States Forces-Afghanistan
Kabul, Afghanistan
APO AE 09356

COMISAF/CDR USFOR-A   1 August 2010

FOR The Soldiers, Sailors, Airmen, Marines, and Civilians of NATO ISAF and US Forces-Afghanistan

SUBJECT: COMISAF's Counterinsurgency Guidance

Team, here is my guidance for the conduct of counterinsurgency operations in Afghanistan. In keeping with the admonition in this guidance to "learn and adapt," I will update this document periodically in the months ahead. Indeed, this edition is my first update, as I received useful feedback on the initial draft from Afghan partners and also received advice from elders and Special Forces teams in Herat Province's Zericho Valley. I welcome further feedback.

As I noted during my assumption of command remarks, it is a privilege to serve with each of you in this hugely important endeavor. And I appreciate all that you will do in helping to turn this guidance into reality on the ground.

Secure and serve the population. The decisive terrain is the human terrain. The people are the center of gravity. Only by providing them security and earning their trust and confidence can the Afghan government and ISAF prevail.

Live among the people. We can't commute to the fight. Position joint bases and combat outposts as close to those we're seeking to secure as is feasible. Decide on locations with input from our partners and after consultation with local citizens and informed by intelligence and security assessments.

Help confront the culture of impunity. The Taliban are not the only enemy of the people. The people are also threatened by inadequate governance, corruption, and abuse of power – recruiters for the Taliban. President Karzai has forthrightly committed to combat these threats. Work with our Afghan partners to help turn his words into reality and to help our partners protect the people from malign actors as well as from terrorists.

Help Afghans build accountable governance. Afghanistan has a long history of representative self-government at all levels, from the village shura to the government in Kabul. Help the government and the people revive those traditions and help them develop checks and balances to prevent abuses.

Pursue the enemy relentlessly. Together with our Afghan partners, get our teeth into the insurgents and don't let go. When the extremists fight, make them pay. Seek out and eliminate those who threaten the population. Don't let them intimidate the innocent. Target the whole network, not just individuals.

COMISAF
SUBJECT: COMISAF's Counterinsurgency Guidance

Fight hard and fight with discipline. Hunt the enemy aggressively, but use only the firepower needed to win a fight. We can't win without fighting, but we also cannot kill or capture our way to victory. Moreover, if we kill civilians or damage their property in the course of our operations, we will create more enemies than our operations eliminate. That's exactly what the Taliban want. Don't fall into their trap. We must continue our efforts to reduce civilian casualties to an absolute minimum.

Identify corrupt officials. President Karzai has said, "My government is committed to fighting corruption with all means possible." Help the government achieve that aim. Make sure the people we work with work for the people. If they don't, work with partners to enable action, or we will appear to be part of the problem. Bring networks of malign actors to the attention of trusted Afghan partners and your chain of command. Act with your Afghan partners to confront, isolate, pressure, and defund malign actors – and, where appropriate, to refer malign actors for prosecution.

Hold what we secure. Together with our Afghan partners, develop the plan to hold an area (and to build in it) before starting to clear or secure it. The people need to know that we will not abandon them. Prioritize population security over short-duration disruption operations. And when we begin to transition to Afghan lead, thin out rather than handing off and withdrawing, maintaining headquarters even as we reduce combat elements.

Foster lasting solutions. Help our Afghans partners create good governance and enduring security. Avoid compromises with malign actors that achieve short-term gains at the expense of long-term stability. Think hard before pursuing initiatives that may not be sustainable in the long run. When it comes to projects, small is often beautiful.

Money is ammunition; don't put it in the wrong hands. Institute "COIN contracting." Pay close attention to the impact of our spending and understand who benefits from it. And remember, we are who we fund. How we spend is often more important than how much we spend.

Be a good guest. Treat the Afghan people and their property with respect. Think about how we drive, how we patrol, how we relate to people, and how we help the community. View our actions through the eyes of the Afghans and, together with our partners, consult with elders before pursuing new initiatives and operations.

Consult and build relationships, but not just with those who seek us out. Earn the people's trust, talk to them, ask them questions, and learn about their lives. Inquire about social dynamics, frictions, local histories, and grievances. Hear what they say. Be aware of others in the room and how their presence may affect the answers you get. Cross-check information and make sure you have the full story. Avoid knee-jerk responses based on first impressions. Don't be a pawn in someone else's game. Spend time, listen, consult, and drink lots of tea.

COMISAF
SUBJECT: COMISAF's Counterinsurgency Guidance

Walk. Stop by, don't drive by. Patrol on foot whenever possible and engage the population. Take off your sunglasses. Situational awareness can only be gained by interacting face-to-face, not separated by ballistic glass or Oakleys.

Act as one team. Work closely with our international and Afghan partners, civilian as well as military. Treat them as brothers-in-arms. Unity of effort and cooperation are not optional.

Partner with the ANSF. Live, eat, train, plan, and operate together. Depend on one another. Hold each other accountable at all echelons down to trooper level. Help our ANSF partners achieve excellence. Respect them and listen to them. Be a good role model.

Promote local reintegration. Together with our Afghan partners, identify and separate the "reconcilables" from the "irreconcilables." Identify and report obstacles to reintegration. Help our partners address grievances and strive to make the reconcilables part of the local solution, even as we work with our partners to identify and kill, capture, drive out, or "turn" the irreconcilables.

Be first with the truth. Beat the insurgents and malign actors to the headlines. Preempt rumors. Get accurate information to the chain of command, to Afghan leaders, to the people, and to the press as soon as possible. Integrity is critical to this fight. Avoid spinning, and don't try to "dress up" an ugly situation. Acknowledge setbacks and failures, including civilian casualties, and then state how we'll respond and what we've learned.

Fight the information war aggressively. Challenge disinformation. Turn our enemies' extremist ideologies, oppressive practices, and indiscriminate violence against them. Hang their barbaric actions like millstones around their necks.

Manage expectations. Avoid premature declarations of success. Note what has been accomplished and what still needs to be done. Strive to under-promise and over-deliver.

Live our values. Stay true to the values we hold dear. This is what distinguishes us from our enemies. We are engaged in a tough endeavor. It is often brutal, physically demanding, and frustrating. All of us experience moments of anger, but we must not give in to dark impulses or tolerate unacceptable actions by others.

Maintain continuity through unit transitions. From day one, start building the information you'll provide to your successors. Share information and understanding in the months before transitions. Strive to maintain operational tempo and local relationships throughout transitions to avoid giving insurgents and malign actors a rest.

COMISAF
SUBJECT: COMISAF's Counterinsurgency Guidance

Empower subordinates. Resource to enable decentralized action. Push assets and authorities down to those who most need them and can actually use them. Flatten reporting chains (while maintaining hierarchical decision chains). Remember that it is those at tactical levels – the so-called "strategic sergeants" and "strategic captains" – who turn big ideas in counterinsurgency operations into reality on the ground.

Win the battle of wits. Learn and adapt more quickly than the enemy. Be cunning. Outsmart the insurgents. Share best practices and lessons learned. Create and exploit opportunities.

Exercise initiative. In the absence of guidance or orders, figure out what the orders should have been and execute them aggressively.

David H. Petraeus
General, United States Army
Commander, International Security Assistance Force/
United States Forces-Afghanistan

الملحق ب:
توجيهات تعاقد مكافحة التمرّد الصادرة عن قيادة إيساف

غير سري صادر عن الناتو/ إيساف إلى حكومة الجمهورية الإسلامية في أفغانستان

المقر الرئيسي

إيساف

كابول، أفغانستان

٨ أيلول/سبتمبر ٢٠١٠

قيادة إيساف/ القائد   القوات الأميركية ـ أ

إلى القادة وموظفي المقاولات وموظفي الجيش ومدنيي الناتو وإيساف والقوات الأميركية ـ أفغانستان.

الموضوع: توجيهات تعاقد مكافحة التمرّد الصادرة عن قيادة إيساف

يشكل معدل مساعي مقاولاتنا في أفغانستان فرصة ومخاطرة على السواء. بوجود الرقابة السليمة، يمكن للمقاولات أن تحث التنمية الاقتصادية وتدعم أهداف حملة الحكومة الأفغانية وإيساف. من ناحية أخرى، إذا أنفقنا مبالغ ضخمة من أموال المقاولات الدولية بسرعة وبرقابة غير كافية، فعلى الأرجح أن تغذّي بعض تلك الأموال الفساد من دون قصد، وتموّل منظمات المتمرّدين، وتقوّي شبكات رعاية المجرمين، وتقوّض مساعينا في أفغانستان.

في ضوء هذه البنود، على التعاقد أن يكون «عمل القائد». وبالفعل، فأنا أتوقع من القادة أن ينتبهوا لآثار إنفاقنا في المقاولات ويعرفوا من الذي يستفيد منها. علينا اللجوء إلى الاستخبارات لنكون على اطلاع بخصوص مقاولاتنا ونضمن بأن من نتعاقد معهم يعملون للمصلحة العليا للشعب الأفغاني. علينا أن نكون مشترين أفضل ونشتري من أشخاص أفضل. تماشياً مع قوانين وأنظمة التعاقد الوطنية والخاصة بالناتو، ينبغي علينا ذلك.

فهم دور المقاولات في مكافحة التمرّد. يمكن للمشتريات التي نقوم بها للبناء والسلع والخدمات أن تعزّز النمو الاقتصادي والأمن والنوايا الأفغانية الحسنة تجاه حكومتهم وإيساف. تحرّك العقود مع الشركات الأفغانية لشراء بضائع وخدمات أفغانية عجلة التوظيف وتساعد على تنمية اقتصاد مستدام. غير أننا، إذا تعاقدنا مع المتنفّذين الذين يستثنون من هم خارج شبكات رعايتهم الضيقة أو أنهم معروفون باحتكار الموارد في مجتمع دون آخر، فالتأثير على النظرة الأفغانية وعلى مهمتنا سيكون سلبياً. لذا، ينبغي علينا أن ندمج مواد تعاقد مكافحة التمرّد ضمن تدريب القادة.

قوموا بتوظيف الأفغان أولاً، واشتروا المنتجات الأفغانية، وابنوا القدرة الأفغانية. استعمِلوا التعاقد لتوظيف عمال أفغان وشركات مملوكة من الأفغان. فإن لم نستطع التعاقد مع شركة أفغانية، فشجّعوا الشركات على توظيف الأفغان والتعاقد من الباطن مع شركات أفغانية مسؤولة. اقتدوا بنجاحات

برنامج مهمة الناتو التدريبية ـ أفغانستان/ القيادة الانتقالية للأمن المشترك ـ أفغانستان (NTM-A/CSTC-A) الأفغاني الأول الذي أوجد صناعة الأحذية العسكرية في كابول. أوجِدوا الحلول التي تبرز القدرة الأفغانية الموجودة، لكن المحدودة في بعض الأحيان، مثل زيادة الفرص قدر الإمكان للشركات المحلية الصغيرة والمتوسطة الحجم للتنافس على الفوز بعقودنا. تبنوا إجراءات مثل السماح بالدخول إلى القواعد، لإزالة العقبات تجاه توظيف الأفغان. أينما كانت الفرصة سانحة، الجأوا للتعاقد داخل البلد أكثر من الخارج. ابحثوا عن فرص لدمج تدريب الصيانة والتصليح في العقود الجارية لبناء المهارات الأفغانية والتأسيس لتوظيف دائم. صبّوا جهودكم على تسويق مجالات تحمل إمكانية نمو سريع ودائم، مثل الزراعة وتصنيع الأغذية والمشروبات والبناء. تبنّوا مقاربة لرواتب منصفة وأسعار منصفة تعمل قدر الإمكان على الحد من صدمات السوق والتضخّم. احذروا «واجهات الأعمال» التي تزعم احتيالاً بأنها مملوكة من الأفغان.

اعرفوا أولئك الذين تتعاقدون معهم. إن الجهة التي تذهب إليها أموالنا هي بنفس أهمية الخدمة المقدمة أو المنتج الذي تم الحصول عليه. أسّسوا أنظمة وقواعد بيانات ثابتة للتحقّق من الباعة والمقاولين للتأكد من أن المقاولات لا تعطي الزخم للأشخاص الخطأ أو تسمح بتسريب الأموال. ادعموا وكالات المقاولات والضباط ليتمكّنوا من الخروج إلى الميدان وبناء علاقات مع سوق الأعمال المحلية وقادة الجماعات. افتحوا أعينكم وأبقوها كذلك على شبكة التعاقد من الباطن. تعاقدوا مع الباعة الذين يملكون مقاولين من الباطن أقل. فالإسراف في توكيل المقاولات من الباطن يفتح الفرص أمام شبكات الإجرام والمتمرّدين لتحويل أموال العقد عن وجهتها المقصودة. حمّلوا المقاولين الأساسيين المسؤولية حول سلوك وأداء مقاوليهم من الباطن. تأكدوا من أن المقاولين الأساسيين يوفرون معلومات مفصّلة عن كل المقاولين من الباطن المتماشين مع متطلبات الائتلاف، ومع بند المقاول من الباطن الجديد في مبادئ تعاقد القيادة المركزية.

مارِسوا تطبيقات المقاولات المسؤولة. في حين نتطلع جميعاً إلى نتائج سريعة، فالعجلة في التعاقد تجلب الاحتيال والهدر وسوء الاستخدام. خطّطوا للأمام وحدّدوا مواعيد زمنية معقولة واضمنوا الشفافية والرقابة لكي تعزّز المقاولات والمشتريات أهدافنا بدلاً من تقويضها.

ادمجوا المقاولات بالاستخبارات والخطط والعمليات. على القادة أن يعرفوا أي نشاط مقاولات يجري في نطاق معركتهم ومن المستفيد من تلك العقود. ادمجوا المقاولات بالاستخبارات والخطط والعمليات لتحدثوا تأثيراً إيجابياً ولكي تحقّقوا أهداف حملتنا بشكل أفضل. على المقاولين الاستعانة بمجالس إدارة المقاولات في مكافحة التمرّد لتنسيق مساعي المقاولات وضمان أهداف حملة دعم العقود. على القادة ووكالات المقاولات أن يتشاركوا أفضل التطبيقات، ومطابقة السياسات والإجراءات، وتبادل المعلومات حول أداء المقاول، سواء كان سلبياً أو إيجابياً (مستعينين بقواعد بيانات شبكة المعلوماتية المشتركة لتبادل البيانات/ إنديور CIDNE/INDURE متصلة إلكترونياً).

استشيروا وأشركوا القادة المحليين. استعينوا بمجالس الشورى المحلية والحكومة الأفغانية وقادة القطاع الخاص لتنظيم أولويات المشاريع وتحديد الشركات القابلة للنمو والتحقّق من المتعاقدين

المُحتمَلين وتحسين الرقابة وتحميل المقاولين المسؤولية وتقديم ملاحظات بعد منح الهبة لحفظ المعلومات من أجل المشاريع المستقبلية. اعملوا مع وزارة الإعمار والتنمية الريفية ومن خلالها لتعزيز الإشراف الموجود وعمليات الشراء والقدرات التنفيذية وبناء قدرة مؤسساتية دائمة.

أنشئوا شراكات جديدة. من شأن التعاقد مع نطاق أوسع من الشركات الأفغانية أن يقطع الطريق على الاحتكار ويُضعف شبكات الرعاية التي تزرع الحقد. وفي الحالات التي لا يبقى معها مجال أمام المتنفّذين سوى الارتباط بشبكات الإجرام، فمن الأفضل التخلي عن المشروع. أعلنوا عن فرص المقاولات بشكل واسع على المجتمعات المحلية خارج القواعد. وعندما يكون ذلك سانحاً، استعينوا بالمنظمات غير الحكومية لمعرفة شركاء التعاقد المُحتمَلين ودرّبوهم على اجتياز إجراءات تعاقدنا.

تطلّعوا إلى أبعد من التكاليف والجدول الزمني والأداء. فليستند تقويمكم لمدى نجاح عقد ما إلى مدى دعمه للشعب الأفغاني وأهداف حملتنا. لا تستثنوا المعايير التشغيلية في قرارات تلزيم المقاولات كتأثير العقد على الأمن وديناميه السلطة المحلية والعدو.

استثمروا في الإشراف وعزّزوا متطلبات العقد. تأكّدوا من الإشراف على المقاولين وعلى أدائهم بعد التلزيم لكي نحصل على ما ندفع لأجله والتأكد من أن العقد يدعم مهمتنا. نظراً لارتفاع عدد العقود التي يشرف عليها كل مراقب عقود، ينبغي على القيادات أن تطوّع مزيداً من الموظّفين للإشراف. عيّنوا الأشخاص الأفضل ليكونوا ممثلي مراقب العقود وتأكدوا أنهم مدربون ويفهمون الأهمية التشغيلية للعقود.

تصرّفوا. عقب اكتشاف روابط بين المقاولين وشبكات الإجرام، علينا اتخاذ إجراءات مناسبة، مثل: التعليق وحرمان الأشخاص أو الشركة، أو إلغاء العقد، أو عدم تجديد عقد بعد انتهاء مدته. اعلموا أن لبعض هذه التصرفات عواقب واسعة ومؤثرة، وخطّطوا بناء لذلك. قوموا بإجراءات سريعة ومرِنة ودقيقة لتطوير وتنسيق وتصديق وتنفيذ بنود العقد التي تعطي حق إلغاء العقود التي تقوّض مهمتنا.

اعرفوا ما الذي يجري من حولكم. ينبغي علينا تحسين ممارساتنا في المقاولات للتأكد من أنها تدعم مهمتنا بالكامل. لكن، ينبغي علينا أيضاً أن ندرك ما الذي حققته لنا مقاولاتنا. فقد تحمّلت مساعي مقاولاتنا عمليات واسعة الانتشار ومرتفعة الزخم وساهمت في بناء قدرة الأمن الوطني الأفغاني. كما حسّنت مقاولاتنا حياة كثير من الأفغان، وطوّرت البنى التحتية، وقدمت الخدمات الأساسية، ودعمت الأعمال المحلية ورفعت من التوظيف وتبنّت التنمية الاقتصادية.

(توقيع ديفيد بتريوس)

ديفيد هـ. بتريوس

فريق أول، الجيش الأميركي

قائد، إيساف/

القوات الأميركية ـ أفغانستان

غير سري صادر عن الناتو/ إيساف إلى حكومة الجمهورية الإسلامية في أفغانستان

Headquarters
International Security Assistance Force

Kabul, Afghanistan

08 September 2010

COMISAF/CDR USFOR-A

For the Commanders, Contracting Personnel, Military Personnel, and Civilians of NATO ISAF and US Forces-Afghanistan

SUBJECT: COMISAF's Counterinsurgency (COIN) Contracting Guidance

The scale of our contracting efforts in Afghanistan represents both an opportunity and a danger. With proper oversight, contracting can spur economic development and support the Afghan government's and ISAF's campaign objectives. If, however, we spend large quantities of international contracting funds quickly and with insufficient oversight, it is likely that some of those funds will unintentionally fuel corruption, finance insurgent organizations, strengthen criminal patronage networks, and undermine our efforts in Afghanistan.

In view of these points, contracting has to be "Commander's business." Indeed, I expect Commanders to consider the effects of our contract spending and understand who benefits from it. We must use intelligence to inform our contracting and ensure those with whom we contract work for the best interests of the Afghan people. We must be better buyers and buy from better people. Consistent with NATO and national contracting laws and regulations, we must:

Understand the role of contracting in COIN. Purchases we make for construction, goods, and services can bolster economic growth, stability, and Afghan goodwill toward their government and ISAF. Contracts with Afghan firms that procure Afghan goods and services generate employment and assist in the development of a sustainable economy. However, if we contract with powerbrokers who exclude those outside their narrow patronage networks or are perceived as funneling resources to one community at the expense of another, the effect on Afghan perceptions and our mission will be negative. Thus, we must incorporate COIN Contracting topics into training for Commanders.

Hire Afghans first, buy Afghan products, and build Afghan capacity. Use contracting to hire Afghan workers and Afghan-owned companies. If we are unable to contract with an Afghan company, encourage companies to hire Afghans and sub-contract with responsible Afghan firms. Emulate successes such as NTM-A/CSTC-A's Afghan First program that created a boot making industry in Kabul. Find solutions that tap existing, but sometimes limited, Afghan capacity, such as maximizing the opportunities for local small and medium-sized companies to compete for our contracts. Adapt procedures, such as facilitating base access, to remove obstacles to hiring Afghans. Wherever appropriate, use in-country sourcing rather than imports. Look for opportunities to incorporate maintenance and repair training in existing contracts to build Afghan skills and to create long-term employment. Focus efforts on promoting industries with immediate and long-term growth potential, such as agriculture, food processing, beverages, and construction. Adopt a fair wage and fair price approach that minimizes market shock and inflation. Guard against "front businesses" that fraudulently claim to be Afghan-owned.

Know those with whom we are contracting. Where our money goes is as important as the service provided or the product delivered. Establish systems and standard databases for vetting vendors and contractors to ensure that contracting does not empower the wrong people or allow the diversion of funds. Support contracting agencies and officers so they can get out in the field and build relationships with local businesses and community leaders. Gain and maintain visibility of the sub-contractor network. Contract with vendors that have fewer sub-contractors. Excessive sub-contracting tiers provide opportunities for criminal networks and insurgents to divert contract money from its intended purpose. Hold prime contractors responsible for the behavior and performance of their sub-contractors. Ensure that prime

contractors provide detailed information on all sub-contractors consistent with coalition requirements and with CENTCOM Contracting Command's new sub-contractor clause.

Exercise responsible contracting practices. While we all desire fast results, haste in contracting invites fraud, waste, and abuse. Plan ahead, establish reasonable timelines, and ensure transparency and oversight so that contracting and procurement reinforce rather than detract from our objectives.

Integrate contracting into intelligence, plans, and operations. Commanders must know what contracting activity is occurring in their battlespace and who benefits from those contracts. Integrate contracting into intelligence, plans, and operations to exert positive influence and to better accomplish our campaign objectives. Commanders should use COIN Contracting Management Boards to coordinate contracting efforts and ensure contracts support campaign goals. Commanders and contracting agencies should share best practices, align policies and procedures, and exchange information on contractor performance—positive or negative (using digitally linked CIDNE/INDURE databases).

Consult and involve local leaders. Use local shuras and Afghan government and private sector leaders to prioritize projects, identify viable companies, vet potential contractors, improve oversight, hold contractors accountable, and provide post-award feedback to inform future projects. Work with and through the Ministry of Rural Reconstruction and Development to leverage existing monitoring, procurement, and implementation capabilities and to build long-term Afghan institutional capacity.

Develop new partnerships. Contracts with a broader range of Afghan companies will help break monopolies and weaken patronage networks that breed resentment. In situations where there is no alternative to powerbrokers with links to criminal networks, it may be preferable to forgo the project. Broadly advertise contract opportunities to local communities beyond bases. When appropriate, use NGOs to identify potential contracting partners and train them to navigate our contracting processes.

Look beyond cost, schedule, and performance. Evaluate the success of a contract by the degree to which it supports the Afghan people and our campaign objectives. Include operational criteria in decisions to award contracts such as the effect of the contract on security, local power dynamics, and the enemy.

Invest in oversight and enforce contract requirements. Ensure post-award oversight of contractors and their performance to get what we pay for and to ensure the contract supports our mission. Because the number of contracts each contracting officer oversees has increased, commands must devote additional personnel to oversight. Designate top-performers to serve as Contract Officer Representatives and ensure that they are trained and understand the operational importance of contracting.

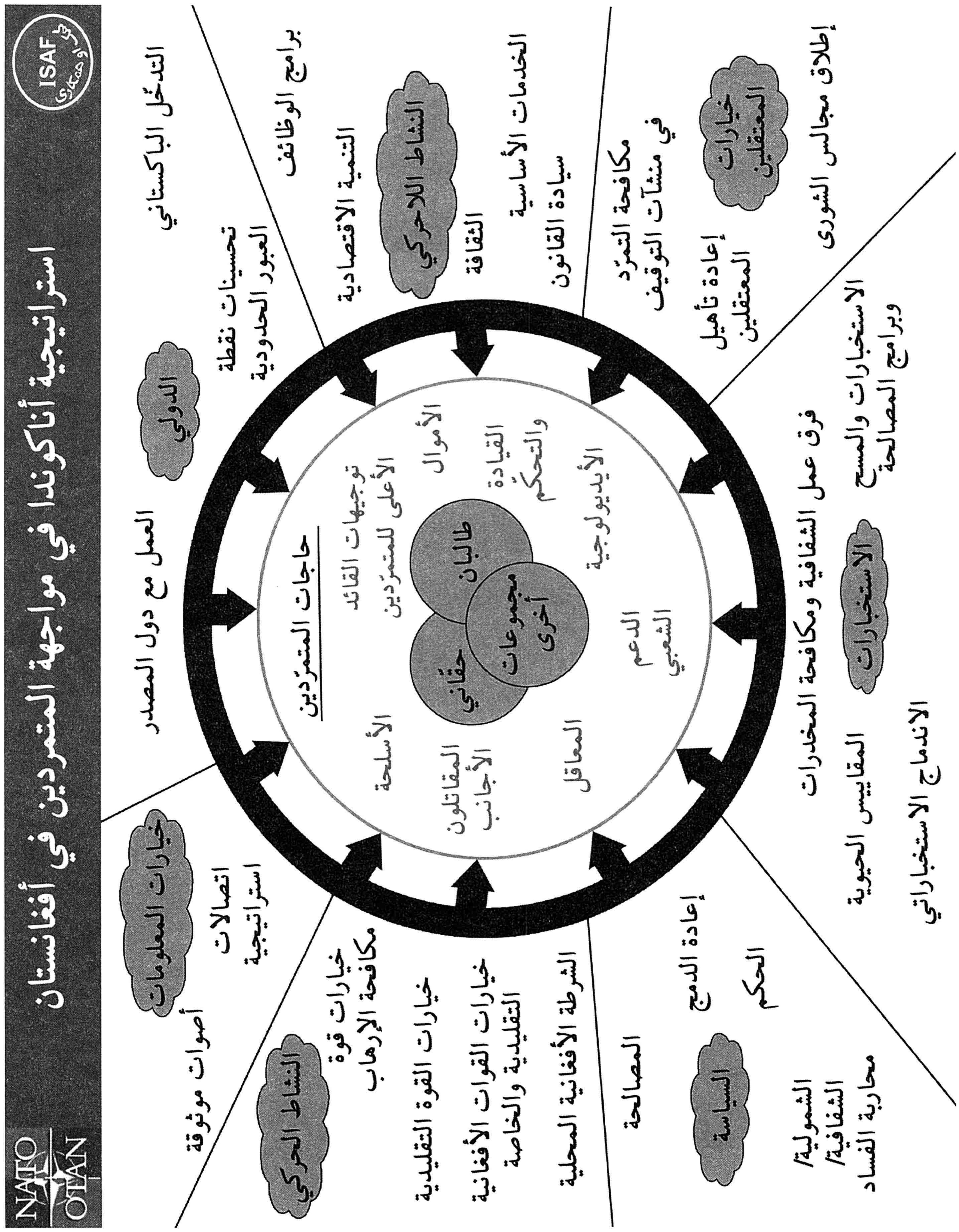
Act. Upon identification of linkages between contractors and criminal networks, we must take appropriate actions, such as: suspension and debarment of the individuals or the company, contract termination, or not renewing a contract option period. Recognize that some of these actions may have broad or significant ramifications and plan accordingly. Establish rapid, flexible, and thorough processes to develop, coordinate, approve, and implement contract actions to end contracts that undermine our mission.

Get the story out. We must improve our contracting practices to ensure they fully support our mission. However, we must also recognize what our contracting has accomplished. Our contracting efforts have sustained widely dispersed and high tempo operations and helped build Afghan national security capacity. Our contracting has also improved the lives of many Afghans, enhanced infrastructure, delivered essential services, supported local businesses, increased employment, and fostered economic development.

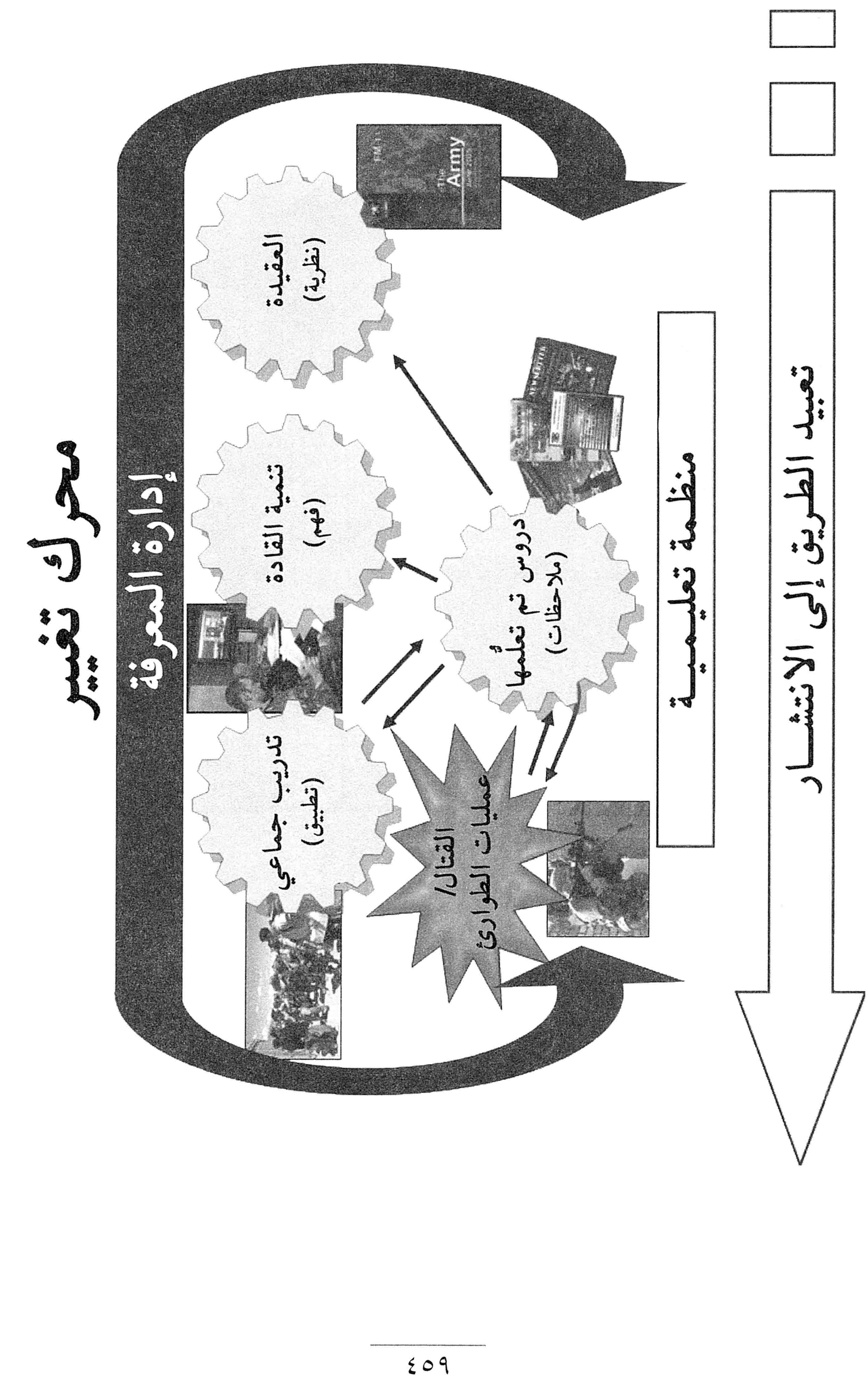
David H. Petraeus
General, United States Army
Commander, International Security Assistance
Force/United States Forces-Afghanistan

الملحق ج:

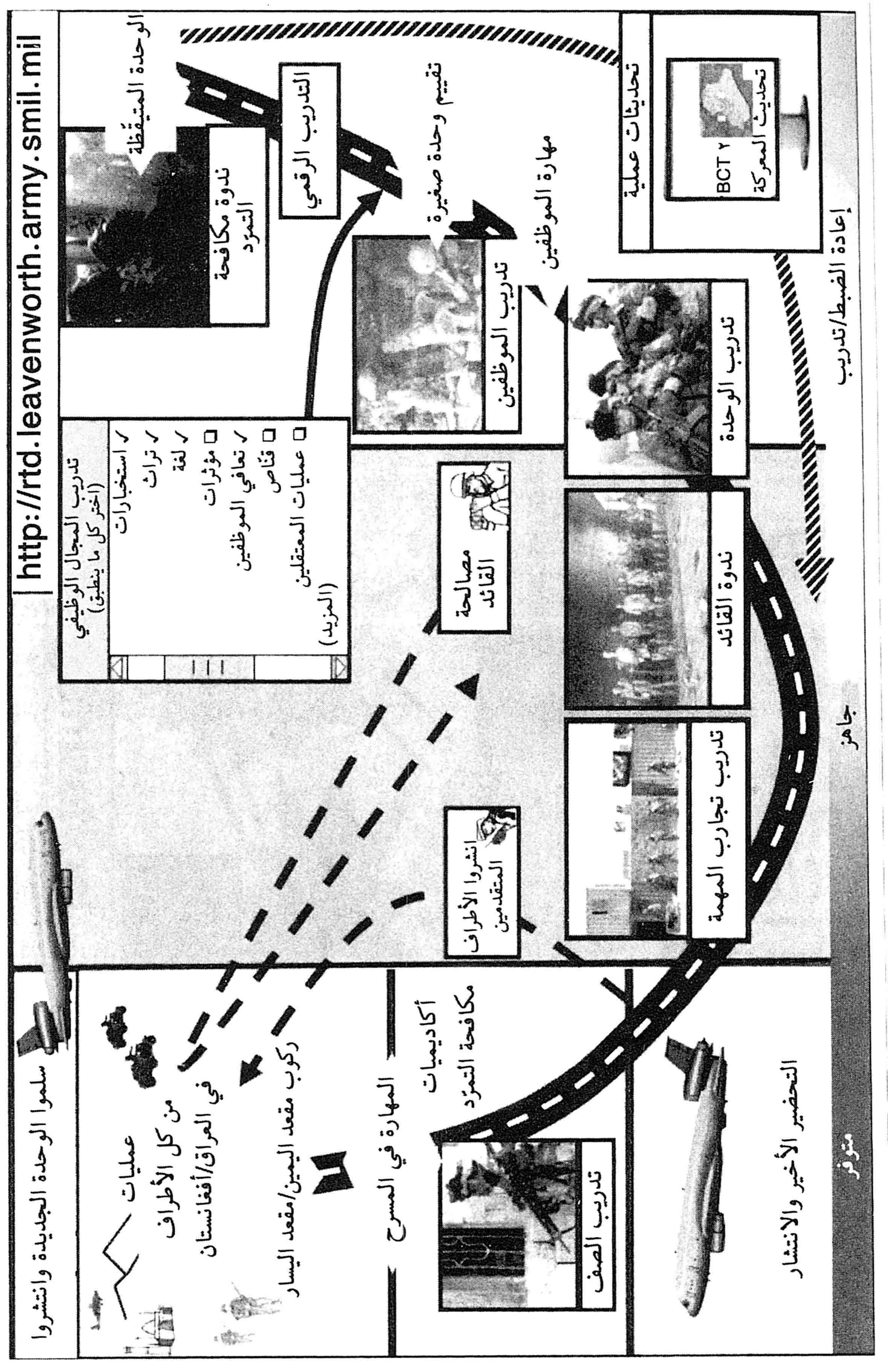
استراتيجية أناكوندا



الملحق د:
محرك تغيير



فريق اللواء القتالي الناشط
«الطريق إلى الانتشار»



ملاحظات

تتشكل مادة هذا الكتاب من مقابلات ومن ردود من قابلتهم على استفساري عبر البريد الإلكتروني، وكان كثير منها من دون ذكر المصدر وأخرى بشكل رسمي وعلني.

أجريت المقابلات خلال السنوات ٢٠٠٨-٢٠١١، وإنْ كانت أغلبيتها أُجريت في الأشهر الخمسة عشر الأخيرة في أفغانستان.

توفّرت المعلومات من خلال أكثر من ١٥٠ شخصاً ومئات الساعات من المقابلات، بما مجموعه تقريباً سبعمئة مقابلة على مدى ثلاث سنوات (بما في ذلك عدة مقابلات مع بعض المصادر).

قدم كثير من المسؤولين العسكريين وجهات نظرهم. وفعل ذلك أيضاً مسؤولون عسكريون ومدنيون ودبلوماسيون كبار يتولّون مناصب عالية.

كما حضرت جلسات إدلاء الجنرال بتريوس بشهاداته أمام الكونغرس وشاركت في اللقاءات التي عُقدت معه حول انجازاته في جامعة الدفاع الوطني قبل تقاعده من الجيش الأميركي.

واستقيت معلومات إضافية من ملاحظات شخصية ورسائل إلكترونية تبودلت مع أشخاص متعددين أو فيما بينهم ذُكروا في الكتاب بوصفهم مراجع. وحضرت أيضاً اجتماعات في مركز إيساف (القوة الدولية للمساعدة الأمنية) ومع مسؤولين أفغان في وزارتي الدفاع والداخلية وكنت ضمن وحدات مختلفة في الميدان.

في كل هذه المواقع كنت قادرة على الاطلاع على تقارير غير مصنفة وبرقيات وبيانات وسجلاّت واجتماعات قدمت فيها عروض بور بوينت.

أحياناً، ذكر لي بعض المصادر أن بعض المعلومات ليست للنشر، والحالة التي تجيز لي استعمال المعلومات إذا وجدتها في مصدر مفتوح.

وقمت، تحت إشراف مسؤولين كبار في وزارة الدفاع الأميركية بالتدقيق بالمعلومات في هذا الكتاب للتأكد من عدم وجود انتهاكات لأمن العمليات.

International Press

الجية، طلعة زاروط،
مبني International Press، لبنان
هاتف: ٣٠٠/ ٩٩٦٢٠٠ ٧ ٩٦١+
البريد الإلكتروني: Interpress@int-press.com
الموقع الإلكتروني: www.int-press.com

«سيرة واحدٍ من أكثر جنرالات أميركا تأثيرًا في الأحداث منذ الحرب العالمية الثانية»

توماس ريكس – كاتب حائز جائزة بوليتزر

بولا دين برودويل

كاتبة أميركية من مواليد ١٩٧٢، تخرجت عام ١٩٩٥ في الأكاديمية العسكرية الأميركية في الهندسة والجغرافيا السياسية، وحازت ماجستير في الإدارة العامة من هارفارد. خدمت في الجيش الأميركي لأكثر من عقد من الزمن، ولديها خبرة في مجال المخابرات العسكرية ومكافحة الإرهاب لأكثر من ١٥ سنة.

فيرنون لوب

كاتب أميركي، عمل محررًا للواشنطن بوست وهو مدير التحرير في صحيفة هيوستن كرونيكل، وله كتب عدة.

منذ أن تولّى هذا الرجل القيادة المركزية للقوات المسلحة الأميركية وقوات التحالف في العراق وأفغانستان، بدأ مسرح العمليات يشهد انخفاضاً ملحوظاً في الهجمات على الأميركيين.

من هو هذا الرجل الذي اختارته الإدارة الأميركية من أجل تحقيق أهدافها هناك؟

إنه ديفيد بتريوس الذي تواكب بولا برودويل سيرته من لحظات حياته المبكرة. وتشاء الأقدار أن يكون كتابها هذا، الذي يرصد التحوّلات في مسار فترة هامة جداً من تاريخ الولايات المتحدة، هو نفسه بداية فضح العلاقة التي جمعت الجنرال وبرودويل والتي هزّت عالم الاستخبارات الأميركي. فوفق اعترافاته، حمل بتريوس ٨ ملفّات «فائقة السرية» إلى منزل في واشنطن قضى فيه نهاية عطلة طويلة و«حميمة» مع برودويل صيف ٢٠١١، لكي تتمكّن من «الاطلاع عليها» فيما كانت تكتب سيرته. وترك أحد الملفات المعروفة باسم «الكتب السود»، في المنزل. وأفادت سجلات المحكمة بأن الملف يحوي معطيات تشمل هويات مخبرين سريين ومعلومات عن كلمات سرّ واستراتيجية الحرب وقدرات استخباراتية ومعلومات مأخوذة من اجتماعات لمجلس الأمن القومي في البيت الأبيض.. وأدى افتضاح ذلك إلى إزاحته عن رئاسة السي.آي.إيه.

في كتابها هذا، ترافق برودويل سيرته وهو ضابط متدرّب في قاعدة وست بوينت، إلى خدمته في أميركا الوسطى وهاييتي والكويت والبوسنة والعراق وأفغانستان، وصولاً إلى رئاسة السي.آي.إيه.

وبالاستناد إلى مئات الساعات من المقابلات الحصرية مع بتريوس وأبرز ضباطه وجنوده، تسرد الكاتبة قصة تطور هذا القائد وقيادته للحرب من داخل الأحداث.

وتقيّم تأثير نظرية مكافحة التمرد المعدّلة واستراتيجيات محاربة الإرهاب. وتبرز على نحو خاصّ دوره في النقاشات التي جرت داخل البيت الأبيض والبنتاغون والكونغرس بعيداً عن الأضواء.

تغوص برودويل في عقل الرجل الاستراتيجي وتخرج بكتاب يجمع بين السيرة العسكرية والقراءة النظرية لفن القيادة. ويوضح المنطلقات والخلفيات الذهنية التي ارتكز عليها هذا الرجل في وضع كامل رصيده لإحداث تأثير كبير في التطورات الجارية في العالم العربي، راسماً عنا، هو وغيره من النافذين، أفق مستقبلنا إلى مدى غير منظور.

وبالنظر إلى أهمية المعلومات الواردة فيه وللنفوذ الكبير لبتريوس في المجالين العسكري والسياسي والأسلوب القيّم الذي صيغ به، جاء ضمن لائحة الكتب الأكثر مبيعاً، بحسب صحيفة **New York Times**.

ISBN 978-9953-88-854-5

9 789953 888545

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥-١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٩٦١١٨٣٠٦٠٨+ فاكس: ٩٦١١٨٣٠٦٠٩+
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر